الفلسفة الحديثة في الميزان

وتأسيس القواعد من القرآن

تأليف فضيلة الدكتور

محمد بن فتح الله بدران

المولود سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة القاهرة الحديثة

الفلسفة الحديثة في الميزان

وتأسيس القواعد من القرآن

تأليف فضيلة الدكتور

محمد بن فتح الله بدران

المولود سنة ١٣٢٨ هـ ١٩١٠ م

بملتزم الطبع والنشر

مكتبة القاهرة الحديثة

الطبعة الأولى
١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م
الطبعة الثانية
١٣٨٩ هـ — ١٩٦٩ م

مطبعة مخيمر ت ٩٠١١٩٣

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله رب العالمين :

بألسنةِ : الذاكرين ، الشاكرين ، الصادقين ...

وبقلوبِ : المؤمنين ، المخلصين ، الصالحين ...

ثم أحمد الله رب العالمين :

لطلاب الحق ، ورُوَّاد العلم ، والباحثين عن اليقين ...

الذين أهديتهم كتابى ؛

فتلقفوه بالترحيب والتكريم ...

وتقبلوه بقول حسَن كريم ...

وأصلحوه ، وأصلحوا به ؛ أصلح الله أحوالهم أجمعين .

ثم أما بعد ، فها كمو اقرءوا كتابِيَه . فى طبعته الثانية :

مزيدة ومنقحة ، مُجوَّدة ومصححة ...

ومَن وجد فيه نقصاً فأكمه ، أو خللاً فعدّله ...

أسبغ الله عليه نعَمه ظاهرةً وباطنة

« فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » .

والسلام عليكم ورحمة الله

محمد بن فتح الله بدران

١٥ شارع رياض
حدائق شبرا القاهرة

الاثنين ١٤ من ذى الحجة ١٣٨٨ هـ
٣ من مارس ١٩٦٩ م


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين
http://al-maktabeh.com

إهـــداء

إلى المؤمنين الأحرار المخلصين . . .

إلى طلاب الحق . . .

ورُوَّاد العلم . . .

ومحبِّي الحكمة . . .

والباحثين عن السعادة واليقين . . .

أهدي هذه السطور .

محمد بن فتح الله بدران

١٥ شارع رياض ، حدائق شبرا

القاهرة

فجر الجمعة وقفة عرفات من سنة ١٣٨٧ هـ

٨ من مارس سنة ١٩٦٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

دعاء

اللهم : ياحَـقُّ :

بحقك : أعِنَّا . . .

ومن حقك : روِّنا . . .

وبالحق : أحْيِنا . . .

وعلى الحق : أمتَنا . . .

« ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنَبْنَا ، وإليك المصير »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

تلبية ورجاء

... حتّموا عليّ أن أكتب ، وأنا رجل أحبّ المشافهة والمكاشفة : مكاشفة القلب للقلب ، ومشافهة القلب إلى القلب ...

ولكنهم حتّموا ، وقالوا : كل ما صدر عن القلب ، يصل حتما إلى القلب ؛ فكان ولابدّ لى من أن ألبّى ، وكان ولا بد لى من أن أرجو ...

ولكنى سألت نفسى : ماذا أكتب الآن؟.

وكيف أكتب ؟ ولأى إنسان ؟ ! .

وكان الجواب سريعاً من أعماق قلبى : اكتب من أعماق قلبك ، وتحدث إلى الناس بقلبك ، وأسمعهم من جهرك ومن همسك ، وكاشف الناس بخلجات نفسك ، وقدّم اللبنات متواضعةً إلى العلماء ، لعلها تصلح فى أساس البناء ، ولعل فيها ما ينفع أهل الأرض : « فأما الزَّبدُ فيذهبُ جُفاء وأمّا ما ينفعُ النّاس فيمكث فى الأرض » ...

ثم تصايح القلم فى يدى قائلا : اكتبْ ... اكتبْ ... قلتُ : ولأى إنسان أكتب ؟

قال فى اندفاعٍ ، وحماس ، وقوةٍ ..

وفى عزم ، وحزم ، وشدة ..

بكلمات نافذة ، وعبارات آمرة : قال :

اكتبْ لـكل عربىٍّ يتمسك بعروبته ويخلص لها . . .

اكتبْ لـكل مسلمٍ يتمسك بإسلامه ويخلص له . . .

اكتب لـكل حُـرٍّ يُـكسِّر كل القيود :

قيود الاستعمار والبهتان .

قيود الاستبداد والطغيان .

قيود الاستغلال والشيطان .

قيود الرجعية والأحلام .

قيود الانحرافية والأوهام .

قيود التقليد والأصنام .

قيود الجمود والإحجام .

قيود البغى والأنانية .

قيود الجموح والهوائية .

قيود الذل والعبودية .

اكتب كثيراً ، وها أنذا قلمك ، بين يديك ، أستجيب لك . . .
مادمت تُرضى ربك ، وتساعد فى تحرير وطنك ، وتساهم فى بناء أمتك ،
وما دمت مخلصاً لعروبتك وإسلامك ، ونبيِّك وكتابك ، وعلمك وآرائك .

وكثيراً ما يظن إنسانٌ أنَّه حر التفـكير . . . وهو العبد . . .

فيشتد فى المناقشة ويتطاول فى التعبير . . . بلا حد . .

وهو يدور فى فلك غيره ، ويرسف فى أغلال قيده ؛ خصوصا فى الأفـكار ،
والمذاهب ، والآراء ؛ من الغربيين ، والمستشرقين ، والهدامين ؛ على سواء . .

وقد يكون الغربيون مخلصين ؛ ولكن لغربهم .

وقد يكون المستشرقون مخلصين ؛ ولكن لتبشيرهم .

وقد يكون الهدّامون مخلصين ؛ ولكن لإفسادهم وهدمهم . .

ثم إن كلاً من هؤلاء وهؤلاء ، إنما يفكر بعقليته ، وينبع من بيئته ، وعلى قدر ثقافته ، ويقنن أو يخطط — إن كان من أهل التخطيط أو التقنين — لبيئته التي كوّنته ، ولمجتمعه الذي يعيشه ، ولدينه الذي يعتنقه ،

وقد ينكر الدينَ الذي أضرّ بمجتمعه ، أو أفسد بيئته ، أو أنكر علمه وسعيه.

وقد يحاول إصلاح الدين الذي تراءى له في قومه ، هذا إن أحسَنا الظن إلى أبعدِ حدٍ به وبقومه ،

فما له ولمجتمع غير مجتمعه ، ولوطنٍ غير وطنه ؟ ثم ماله ولدين غيره ؟ ؟ !

ثم مالنا نحن المسلمين نثق فيهم ، ونطمئن لهم ، مع أنهم أعداء الإسلام والمسلمين ؟ ولنا ديننا ، ولهم — إن أرادوا — دين .

لهذا فأنا أطالب وأرجو ، وألحّ في المطالبة والرجاء ، أن نبدأ من الأساس الذي نريد أن نقيم عليه البناء ، حتى لا يقوم البناء على شَفَا حفرة من النار أو الهواء . . .

وأطالب وأرجو كلّ مَن أكتب له، أو أتحدث اليه : أن يتفتح لي قلبه ، لأن كل كلماتي من حبات قلبي ؛ فلابد من أن يتلقفها قلبه ،

ولأنه على صعيد الفكر الحر الخالص لله ، والتفكير الجاد المخلص لوجه الله ، سيلتقي فكري وفكره . . فلابد من أن يتجرد ، ويتحرر .

لابد من أن يتجرد من كل الإسرائيليات المدسوسة ، ومن كل ألوان الصهيونيات التخريبية المسمومة ، ومن الغربيات الاستعمارية البراقة المرسومة . .

ومن الأوهام التخلفية المتناثرة والمركومة .

ثم لابدّ من أن يتحرر من الرّق الفكرى لغيره ، ومن كل عبودية لمخلوقٍ مثله : يحيا ويموت ، ويعيش على مالا يستطيع خلقه ؛ من أمثال الماء والهواء ، أو الأرض والبحر والسماء ، أو الشمس والقمر والنجوم ، والمجرات والأفلاك ومواقع النجوم .

ثم يحرر فكره ونفسه وقلبه ، ودنياه ودينه لله ربه : « الذى خلق فَسَوَّى »، و « الذى أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقه ثم هدى » .

هكذا ينطلق الأحرار المؤمنون من بنى الوطن ، لبناء الوطن ، وعلى صالح اللبنات : يقوم الأساس ، ويشمخ البناء ، ويطاول الزمن . وعلى إصلاح القلوب والنفوس والنيّات ، تنصلح جميع المطالب والأعمال والحاجات .

ومن هذا المنطلق يندفع المؤمنون الأحرار إلى السيادة الحقيقية ، على جميع الكائنات الأرضية ، بعلم متواصل مستقر ، وعمل مخلص مستمر ، لاكتشاف القوى الطبيعية ، واستثمار العناصر الماديّة ، والاستفادة من الظواهر الكونية ، والاستعانة بما يكتشفه المتخصصون من النُّظم والقوانين ؛ التى تسير عليها بدقة وإحكام وانتظام : الأنواعُ المختلفات ، من النباتات والحيوانات ، والأحياء البرية والبحرية والجوية . . بل الأنواع التى يسمونها بالكائنات الجمادية . . .

تحقيقاً لمعنى الخلافة ، بأبعادها الثلاثة ، التى هى : السيادة ، والأخوة ، والعبودية ؛ وهذه الثلاثة متكاملة متعاونة هى التى تحقق معنى الخلافة : خلافة الإنسان عن الله فى الأرض . . .

وتأكيداً لمفهوم السيادة : سيادة الإنسان على جميع الكائنات المتعلقة بالأرض ، اكتشافاً واستثماراً لكل عناصر الأرض ، وظواهر الأرض . .

وتطبيقا لمسئوليات الأمانة : أمانة الإنسان ، فى أن يكون حلقة الاتصال بين خالق الكائنات سبحانه الكبير المتعال ، وبين السموات والأرض والجبال ، وأمانته فى بنى جنسه وفى كل حال ، وفى سائر الأعمال والأمانات والأقوال والأفعال .

وتوثيقا للنظرة الشاملة والفلسفة المتكاملة ، التى تتغلغل فى أبعاد النفس الإنسانية ، وفى مدركات الإنسان ، وحواس الإنسان ، والعلاقات الإنسانية ، وفى أبعاد الكون ؛ على مقدار ما يستطيع الإنسان إدراكه منه على توالى الأزمان ، وأعماق المعارف والتخصصات ؛ على تعدد الألسنة والألوان ، والعلاقات بين أبعاد الإنسان وأبعاد الكون فى كل زمان ومكان ، وفى أبعاد العلاقات بين الأكوان والإنسان ، وبين خالق الإنسان والأكوان ، والقائم وحده سبحانه بالعناية والهدى والربوبية ، والرقيب والحسيب والمجازى لكل إنسان على ما قدم وأخر فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وفى عبارة موجزة : الإنسان ، والطبيعة ، وما وراء الطبيعة .

وإن شئت فقل : الأخلاق ، والمعرفة ، والربوبية . . .

« تقديراً للأمر على الخلق » ، وتوفيقاً للعلم على المجتمع ، وتوثيقا بين الإنسان والفطرة ؛ لإسعاد البشرية ، وإقرار الأمن ، وتحقيق السلام العالمى للإنسانية ، ولك أن تطلق بعد هذا وذاك ، على كل هذا ، أو بعض ذاك — إن شئت — الفلسفة المادية .

ومن البديهى عند جميع المتخصصين والمكتشفين : أن العلم المادى ، إنما هو أرضىّ : لا وطن له ولا حدود ، ولا يمكن أن يبقى طويلا فى قيود ، وأن اكتشاف الظواهر والعناصر والاستفادة منها ليس مقصوراً على فرد أو بلد

ولا يمكن أن يحجر عليه لنفسه فقط أىّ أحد، ولكنه يحتاج إلى العزم والحزم والإخلاص والمجهود والكَبد .

ومن البديهى عند جميع العلماء والباحثين : أن آيات الكون دائما خطيرة، وأن قوانين الطبيعة ستبقى دائما مثيرة، وأن العلم — مهما وصل — لايعرف الكلمة الأخيرة، وكثيراً ماينتقض البناء العلمى من الأساس عند اكتماله، أو فى اللحظات التى يقترب فيها من كماله، بالتفكير البسيط فى الفكرة، أو بالتغيير القليل فى الفطرة؛ فيعاود البنّاءون المتخصصون الكرّة، ويراجعون أنفسهم وأفكارهم المرة بعد المرة، فلا بد من المواصلة والمثابرة، والانتفاع بتجارب الآخرين بلا مكابرة .

ومن البديهى عند جميع المؤمنين والراسخين :

أن الذى أحكم الخَلق ، وفصّل الآيات فى الأكوان .
هو سبحانه الذى أحكم الأمر ، وفصّل الآيات فى القرآن .

فالطبيعة بكل أسرارها وظواهرها المادية : آيات الخالق إحكاما وتفصيلا .
والقرآن بكل أسراره وظواهره الروحية : آيات الآمر إحكاما وتفصيلا .

ولا يمكن أن تفهم الآيات إلا بالآيات، وعلى مقدار فهم آيات يكون فَهْمُ آيات، وعلى مقدار فهم الناس لآيات الله الحق؛ يكون وصولهم إلى ما ينفع الناس، ويقود إلى الحق . وصدق الله رب العالمين الحق وقوله الحق : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ » .

وهنا وقف القلم فى خشوع لله، وعلى خشية من الله : يسترجع الآيات ويستوعب، ليعاود الانطلاق وتكرار الأمر بأن أكتب . . .

فانتهزتها فرصة وسألت : وماذا أكتب ؟

فانطلق مندفعاً فى الحديث :

اكتب فيما يجب أن تقوم عليه الفلسفة للمجتمع الحديث .

اكتب فى البناء القوى المبين للمجتمع الحديث . . .

اكتب فى أزمة التفكير الغربى الحديث .

اكتب فى العلاج لانهيار العالم الحديث . . .

اكتب فى الحق والصواب ، فى الدين والمعرفة ، فى الخلق والتفكير .

اكتب فى الدعوة إلى الله، فى التاريخ وبنى إسرائيل ، فى الإسلام والتّطور .

اكتب فى الفلاح والنصر ، فى العقل والإنتاج ، فى الإنسان والحضارة .

اكتب فى الفلسفة الحديثة ، ومتى ، وكيف ، ولم كانت حديثة ؟

اكتب من القرآن : وكيف تكون لنا دراسات واقعية : وفلسفة حديثة :

نظرية وعملية ، فلسفية وواقعية الآن ، وفى كل آن من القرآن . . .

اكتب فى العلم وفى الفلسفة وفى الحكمة من القرآن . . .

اكتب فى تأسيس القواعد لبناء الفلسفة كل الفلسفة . . من القرآن .

الفلسفة النظرية ، والفلسفة الواقعية ، والفلسفة الجدلية والمادية . .

فلسفة الأخلاق ، فلسفة الاجتماع ، فلسفة كل علم وفن وواقع للمسلمين من كتاب المسلمين ، من القرآن الحكيم.

وهنا ثارت ثورته على الانتكاسات الأخلاقية العالمية ، والتخلفات الإنسانية ، كنتيجة حتمية لارتكاس التفكير الغربى ، وإجرام التدبير الصهيونى والاستعمارى ، مما أدى بالإنسانية كلها فى طول الكرة الأرضية وعرضها ، إلى دفن المعالم الإنسانية ، ووأد القيم الأخلاقية ، وتقطيع الصّلات كل الصلات

والتسارع إلى التصارع ، والتفاخر بالمساخر ، والتهالك على المهالك ، والفجور في التفجير ، والتدبير للتدمير .

فأشفقت على قلمي ، وصحت : يا قلمي على رسلك ، وأمسك عليك سنك ، واتق الله في صحبك ، فلستُ أهلاً لهذا كله ، بل لست أهلاً ولا حتى لبعضه .

فقال في حزم وإصرار : ولكن ، مالا يدرك كله ، لا يترك كله .

قلت : فدلا أستطيع أن أتطاول . .

فصاح بأعلى صوته : لا ، بل لا بدَّ من أنْ تُحاول :

وقلَّ مَنْ جَـدَّ في أمرٍ يحاوله
واستصحب الصبر إلاَّ فاز بالظَّفَرِ

قلت : « وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيل » .

فاستوى القلم بينَ أصابعي ، وافترَّ سِنُّه عن ابتسامةٍ جادة ، وقال :

أنا لستُ فقط قلمُك ، ولكني أيضاً صاحبُك ، وقد أخالفك ، أو أعاندك ، أو أناقشك . . . لنصل معاً إلى ما يسعد القراء ، ويرضي العلم والعلماء ، ويكشف عن الكثير من العلل والأدواء ، فلا بدّ من التعمق في تشخيص الداء ؛ لينفع ويفيد الدواء . . .

قلت يا صاحبي لك ما تشاء ، وعلى الله وحده تحقيق الرجاء ، ولكنني سأكتب للمؤمنين : المخلصين منهم والعلماء ، لأنني « قرآنيّ » : أعالج دائماً بالقرآن ومن القرآن ؛ ففيه ومنه الشِّفاء كل الشفاء ؛

كما قال رب العالمين في سورة الإسراء ١٧/٨٢ : « وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَرحمةٌ للمؤمنينَ ، وَلاَ يَزيدُ الظالمينَ إلا خَسَاراً » .

وكما قال سبحانه في سورة فُصِّلتْ ٤١/٤٤ : « .. قلْ هو للذينَ آمنُوا هُدًى

وَشِفَاءٌ ، وَالذِينَ لا يؤمنون فى آذانهم وَقْرٌ ، وَهو عليهم عَمىً أولئك يُنادُونَ مِن مكانٍ بَعيدٍ » .

وقد خاطب رب الناس جميع الناس بالقرآن وفى القرآن ، فقال سبحانه فى سورة يونس ١٠/٥٧ :

« يا أيُّها الناسُ قَدْ جاءتكم مَوْعِظَةٌ من ربكم ، وَشِفَاءٌ لما فى الصُّدور ، وهُدًى وَرَحمةٌ للمؤمنين » .

وعلى هذا فإننى لا أكتب إلاَّ : لطلاب الحق ، ورواد العلم ، ومحبى الحكمة ، والباحثين عن السعادة واليقين ، من المؤمنين الأحرار المخلصين . . .

ولن أكتب للمنافقين ، ولا للمعاندين ، ولا للمخادعين ، ولا للمخدوعين ، ولا للحاقدين ، ولا للمتثاقلين ، ولا للأدعياء ، ولا للدجالين ، ولا للانتهازيين .

قال صاحبى : توكل على الله ربك ، فأنا قلمك ، والله معك . . .

قلت لصاحبى : شكر الله لك ، وتوجَّه معى بالدعاء لله رب العالمين :

« ربَّنا عليك توَكَّلنا ، وَإليكَ أنَبْنَا ، وَإليك المَصِير » .

« ربنا لا تُؤَاخِذْنا إن نَسِينا أوْ أخْطَأنا ،

ربنا وَلا تَحمِلْ علينا إِصْراً كما حَمَلته على الذِينَ مِن قَبْلنا ،

ربنا وَلا تُحمِّلنا ما لا طَاقَةَ لنا به ،

وَاعْفُ عنا ، وَاغفِرْ لنَا ، وَارْحَمْنا ،

أنت مَوْلانا ، فانْصُرنا عَلى القَوْمِ الكافِرينَ » .

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى »

المقدمة

ازمة التفكير الحديث

يمر العالم الآن بأزمات أخلاقية شاملة ، ولابد لها من علاجات إنسانية : حاسمة وعاجلة .

ولعل من أصعب هذه الأزمات الأخلاقية علاجاً ، وأكثرها تغلغلا ، وأشدها تعقيداً ، وأوسعها انتشاراً ، وأخطرها تدميراً . . . الأزمة الأخلاقية في التفكير .

في التفكير كله : من ألفه إلى يائه ؛ بل وفي كل مايترتب على التفكير كله من المشاهدة البسيطة بإحدى الحواس الظاهرة
إلى التفكير العقلي الخالص ؛ كما يقولون .

مما أدّى بالإنسانية كلها : إلى التضارب والتناقض ، والتطاحن ؛ في كل مجالات التفكير . . . وفي كل ما ينتج عن التفكير .

ومما قد يؤدى بالإنسانية في طول الأرض وعرضها إلى : التصارع ، والتناحر ، والتخريب ؛ بكل منتجات التدمير .

وهكذا التفكير : منه الخيِّر ، ومنه الشرير .

وهكذا العلم : منه المحرق ، ومنه المنير .

ولعل مردّ ذلك : إلى الانحراف والغرور بما تسارع إليه الفهم ، أو إلى التقحم والفجور ، بما تطاول إليه العلم . . .

فعلى الحواس غِشاوة ، وبالعقول تسرّع وضراوة ، وعلى القلوب أقفالٌ وفيها مرض ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة .

ولعل مرد ذلك مرة أخرى : إلى الفردية ، والأنانية ، والآلية .

وإن شئت فقل : إلى الوضعية ، والواقعية ، والبيئية .

وإذا أنصفت فقل : إلى العلمانية ، والسطحية ، والفوضوية .

وفوق ذلك كله عوامل : التشكك ، والتفكك ، والإنحلال ، والاختلال التى أشاعها — فى العالم كله — مفكرو الغرب ، من القرن العاشر للهجرة المحمدية ، (الذى يوافقه القرن السادس عشر للميلاد المسيحى) .

ممن أطلقوا عليهم أنهم هم : « الفلاسفة المحدثون » ، أو « الفلاسفة المعاصرون » . . .

وأطلقوا على تفكيرهم : « الفلسفة الحديثة ، أو المعاصرة » . .

ثم رفعوهم ، ونفخوا فيهم ، وطبّلوا وزمّروا لهم ، ودلوا على الإنسانية بهم ، أو دلوا الأبواق والأقلام عليهم .

ولعل مرد ذلك مرة ثالثة : إلى أخطر أنواع « الاستخراب » (الذى يسمونه : بالاستعمار) بعد استخراب : الإيمان ، والأخلاق ، والوطنية . . .

وهو « الاستعمار الفكرى » — الشعبى منه والأرستقراطى — الذى خدّر فيه المستخربون : التفكير العربى أو الإسلامى حيناً متطاولا من الزمن ، حتى طبلنا للفكر الغربى وزمّرنا ، وجرينا وراءهم : مشمرين عن سيقاننا ، كاشفين لسوءاتنا ، مغمضين العيون والقلوب والعقول عن تراثنا وميراثنا ،

عن عروبتنا وإسلامنا ، عن قيمنا ومقوماتنا ، عن أجدادنا وأمجادنا ...وارتمينا على عتبات الفكر الغربى ، وأنى لنا ، وهذى حالنا ، أن نحاول تقييمه أو وزنه ، وأن نضعه فى المكان اللائق به من سلسلة التفكير الإنسانى عامة ، أو من التراث العربى أو الإسلامى خاصة ؟ ؟ ! .

إن كان له تقييم ، أو وزن ، أو مكان ؟

ولعله قد آن الأوان ، وسمح الزمان والمكان ، أن ننفض عن عيوننا الكرى ، وأن نغذ السير ونواصل السرى ؛ لنسترد أفكارنا المسلوبة ، وآراءنا المغصوبة ، ومواريثنا المنهوبة ؛ فنرد اللواء إلى اللواء ، ونرد الحياة إلى الحياء ، ونعيد إلى العرين ظعينه ، وإلى البحر رُبّانه وسفينه ...

وعندئذٍ نتلقف الكرة ونمسك بالزمام ،

وعندئذٍ تتلفت الدنيا إلينا ، وتنادى بالسلام ؛

وعندئذٍ يسود العدل والحق جميع الأنام ،

وعندئذٍ تقود العروبة والإنسانية فى عزّ الإسلام ...

لهذا كله كان على الفيلسوف العربى والمسلم أحمال ثقال ، تنوء بها العصبة أولوا القوة ، وقد لايستطيعها غيره ؛ لأنه لابد لهذا كله من الجمع بين أصالة الفكر ، واتساع الأفق ، وصدق النظر ، ونفاذ البصيرة ؛ مع التعمق فى لغة الضاد ، وكتاب المسلمين ...

وهذه اللغة ، وذلك الكتاب : لا يمكن ترجمتهما مطلقا ، كما لا يمكن سبر أغوارها ، والتعمق فى بحورها ، وتجميع ما يمكن من اللآلىء والدرر منهما ، واسترجاع كنوزهما وذخائرهما ، إلا ممن شرح الله للحكمة صدره ، وثبّت فؤاده وأصلح أمره ... بخلاف جميع اللغات وكل الكتب ؛ فإن ترجمتها ميسورة ،

وكشف أغوارها مدرك ، فى كل نواحى الترجمة والفهم والتعبيد ؛ سواء فى ذلك القديم منها والجديد ، وما عصر « الرشيد » و« المأمون » منا ببعيد .

وهأنذا : أستعين رب القوى والقدر ، وأسهم فى وضع اللبنات الأولى ؛ « لتأسيس القواعد » التى يجب أن تقوم عليها الأعمدة والجدران ، للفلسفة الحديثة من القرآن ، ولا يمكن أن تكون دائما حديثة إلا من القرآن ، لأنه وحده هو المجدد لشباب كل مجتمع وإنسان ؛ على اختلاف الألوان ، وتوالى الأزمان . . .

وسأضع هذه اللَّبِنات التأسيسية على أسس فلسفية سليمة ، وعُمد إنسانية حكيمة ، ومناهج علمية مستقيمة ، وقواعد أخلاقية قويمة ، مستمدة من الآيات الكريمة . . . لتضع الأمور فى نصابها ، وترد الجزئيات إلى أصولها ، وتربط الحلقات فى سلسلتها ، وتهدي الشارد ، وتروى الوارد . . . على أساس قوى متين ، والله الموفق والمعين .

« . . . والله واسعٌ عليم • يُؤْتِى الحكمةَ مَن يشاء ، ومن يُؤْتَ الحِكمةَ فقد أُوتِىَ خيراً كثيراً ، وما يذَّكر إلاّ أولوا الألباب » .

فاللهم : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين .



موضوعات الكتاب

سنحاول على قدر توفيق الله، وما أوتينا من علم — « وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » ـ أن نقدّم بعض اللَّبِنات الأُولى لهذا الموضوع الكبير الخطير، على إيجاز، وعن إيمان، وفى تصميم . . . فإن صلحت وأصلحت وكانت حسنة فمن الله، وإن كانت الأخرى فقد وقع أجرنا على الله . . .

وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب، فى خمسة عشر فصلا، غير المقدمات، والتمهيدات، والخواتيم . .

وقد اشتملت جميعاً على العشرات، وعشرات العشرات من الموضوعات. على أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب؛ على كثرتها، وتنسيقها، وتركيزها . . يعتبر كتاباً بذاته؛ لأنه يحمل فكرة أو أفكاراً جديدة، تملأ كتابا أو كتبا عديدة، وتسدّ فراغا فى العقل البشرى، وتفتح أفقا فى التفكير الإنسانى . .

ونحن إذ نحشد هذه الموضوعات، ونجمع بين هذه الدراسات، فى إيجاز وتركيز، وفى تنسيق وتمييز؛ إنما نودّ :

أن نأخذ بيد المسلمين والعرب؛ إلى دراسةٍ فلسفيةٍ أصيلة تشرق عليها الأنوار.

وأن نفتّح المسالك والأبواب؛ للأصيل النافع من الأقلام والأفكار.

وأن نُعبِّد الأسراب والسراب؛ لنور الحق ووضح النهار . . .

تمهيداً للقضاء على اتهام الفلسفة : بالتعقيد، أو الترديد، أو التجريد،

وعلى أنها : الكلام المغلق المستبهم الذى لا يفهم ولا يفيد .

وعلى أنها : تبذر فى الصحراء ، وتحرث على الماء ولا جديد .

وعلى اتهامها بالانحراف ؛ أو أنها تؤدى إلى الانحراف والاختلاف والاعتساف . . . :

وإن بدا كل ذلك أو بعضه ، فى كثير من الأفراد الذين زعموا أنهم ينتسبون إليها ، أو يؤرخون لها ، أو يتظاهرون بها .

لابد إذنْ من تغيير المقاييس الجائرة ، وتكسير الموازين الحائرة .

لابد إذن من صنع المقاييس المحكمة ، ووضع الموازين بالقسط .

ثم لابد من القضاء السريع على انفصالية الفلسفة والأدب والتفكير . . . عن جميع شئون الحياة والمجتمع الصغير منها والكبير .

ولابد من القضاء الأسرع على تباعد كلٍّ من الفلسفة والأدب والعلم بعضها عن بعض ، وانفراد كل منها بأسلوب ؛ حتى أصبح من المشاع الشنيع القول بأن الأسلوبَ الأدبى ؛ غيرُ الأسلوب العلمى ، غير الأسلوب الفلسفى . . . مع أن الأسلوب ليس إلا الألفاظ والأثواب للمعانى ، وكلما كان الثوب محكما وجميلا ؛ كان المعنى مُحدَّداً وجليلا .

فلابد لنا إذنْ من أن نؤدب الفلسفة والعلم ، ونفلسف الأدب والعلم ، ونعلِّم الفلسفة والأدب .

فلا كانت الفلسفة إذا كانت قليلة الأدب ، أو لا تدفع إلى مثل وآداب .
ولا كان الأدب إذا كان قليل الحكمة ، أو لا يهدى إلى حكمة وصواب .

ولا كان كلاهما وغيره ، إذا لم يرتبط بواقع مجتمعه ويحترم فنّه وعلمه ، ويقود إلى حكمة وعلى بصيرة ... ولعله قد آن لنا أن نكسر انعزالية الفلسفة والأدب وكل الفنون والمعارف عن المجتمع والحياة .

بل لابد من أن يتضافر الجميع على إسعاد المجتمع ، وعلاج كل العلل ؛

من مرضٍ أو خلل، ودفع كل عدوان أو استعمار أو خَطَل . . . على أصالة في التفكير، وعمق في الإنتاج والاستنتاج، وقوة وأمانة في التطبيق والتنفيذ .

وعلى هذا كشفنا الغطاء عن موضوعات الكتاب وتفاصيله، في مقدمة الكتاب، وأحكامه، وأبوابه، وفصوله . . بعد الإهداء، والدعاء، والتلبية والرجاء . .

وقد جاء مافتح به الفتاحُ العليم الآن، على أرسخ المناهج العلمية المستمدة من القرآن . . . على النحو الآتى :

أزمة التفكير الحديث

الفلسفة الحديثة فى الميزان

عرض وتفنيد

الفلسفة الحديثة وكيف ندرسها ؟

١ — إجماع المؤرخين .

٢ — اضطراب المؤلفين .

٣ — من أحكام المتخصصين .

٤ — رأى وتمهيد :

(ا) هل هذه فلسفة ؟

(ب) وهل هى حديثة ؟

(ج) وهل هذه فلسفة حديثة ؟

(د) وهل هذه هى الفلسفة الحديثة ؟

(هـ) وأخيراً، فماهى إذاً : الفلسفة الحديثة الحقة ؟ ومامصدرها ؟

تأسيس القواعد من القرآن

اتجاه وتجديد

١ — الحق ، والصواب .

٢ — الحكمة ، والعلم .

٣ — العقل ، والإنتاج .

٤ — الخلق ، والتفكير .

٥ — الدين ، والمعرفة .

٦ — الإنسان ، والحضارة .

٧ — الإسلام ، والتطور .

تطبيقات عملية من القرآن

توجيه وترشيد

١ — الدعوة إلى الله ، وسبيلها .

٢ — التأريخ الحق ، وبنو إسرائيل .

٣ — الفلاح ، والنصر .

٤ — الماء ، والمال .

بلاغ ونداء

الباب الأول

الفلسفة الحديثة فى الميزان

عرض وتفنيد

المقدمة : الفلسفة الحديثة وكيف ندرسها .

الفصل الأول : — إجماع المؤرخين :

» الثانى : — اضطراب المؤلفين :

ا — عند الغربيين هناك

ب — عند العرب هنا

» الثالث : — من أحكام المتخصصين :

» الرابع : — رأى وتمهيد :

١ — هل هذه فلسفة ؟

٢ — وهل هى حديثة ؟

٣ — وهل هذه فلسفة حديثة ؟

٤ — وهل هذه هى الفلسفة الحديثة ؟

٥ — وأخيراً فما هى إذن : الفلسفة الحديثة الحقة؟

وما مصدرها ؟

الفلسفة الحديثة فى الميزان

عرض وتفنيد

المقدمة

الفلسفة الحديثة وكيف ندرسها

لعل هذا الباب ، هو المدخل الضرورى لهذا الكتاب ، لأن فيه العرض الدقيق المختصر لآراء من تصدوا لتأريخ الفلسفة الحديثة ، ثم فيه النقد الموجز والعميق لما عليه المؤرخون من اختلاف ، وفيه الكثير من الإشارة إلى الأسباب التى دفعت بالمؤرخين إلى التضارب والتباعد عن أهدافهم ، أو عن أهداف الموضوع الذى يؤرخون له ، ولعل الفردية ، والأنانية ، بل لعل السطحية والفوضوية : اللائى تشيع فى أفكار هؤلاء الذين يؤرخون لهم . . . قد امتدت الى المؤرخين أنفسهم .

فاضطرب الأمر أمامهم ، وهم يظنون أنهم ممسكون به .

وارتعش الحبل فى يدهم ، وهم يظنون أنهم قابضون عليه .

لهذا كان لا بدّ لنا فى آخر هـذا الباب من « رأى وتمهيد » نحاول فيهما أن نبدىَ رأينا بصراحة ، وعمق ، وإخلاصٍ ، ووضوح . على الأسئلة الآتية :

هل هـذه فلسفة ؟ وهل هى حديثة ؟ وهل هـذه فلسفة حديثـة ؟

وهل هذه هى الفلسفة الحديثة ؟ . . . وأخيراً فما هى إذن : الفلسفة الحديثة الحقّة ، وما مصدرها ؟

وإذا ما انتهينا إلى هذا الحد ، وجب أن نتساءل :

إذا كانت هناك فلسفة حديثة حَقّةٌ ، فكيف ندرسها ؟ ؟

وهنا ننتقل إلى الباب الثانى ، وهو « تأسيس القواعد من القرآن » .

فلا بدّ لنا من أن نقيم القواعد المتينة الحقّة ، التى يجب أن يقوم عليها بناء الفلسفة الحديثة الحقّة ، لأنه لا يصح لعالم أو فيلسوف أن يهدم رأياً فاسداً ، إلا ليبنى مكانه صالحا ، فلا يصح أن يمسك العالم أو الفيلسوف بمعاول الهدم ، إلا وبيديه جميعاً جميع مواد البناء وأدواته ، فالنقد ، أو النقض ، أو الهدم . . . لا بد من أن يكون للبناء ، والتعمير ، والتشييد ، وإلا كان صاحبه هداماً ، مفسداً ، مضللا .

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الباب الأول :

الفصل الأول

إجماع المؤرخين

الفلاسفة المحدثون .

الفلاسفة المعاصرون.

عصر النهضة .

الفلسفة الحديثة .

ا — خصائص عصر النهضة الفلسفية

ب — « العصر الحديث »

حـ — تطور الفلسفة . مصيرنا فى الميزان .

د — عصرنا الحاضر توّاق إلى فلسفة تكفل الدين والأخلاق

الحكم العام على أحكام المؤرخين .

العودة إلى الحق .

شأن الأجانب والغربيين : السهام المسمومة ، والأغلفة البراقة .

شأننا نحن بنى العروبة والإسلام .

إجماع المؤرخين

يُجمع مؤرخو الفلسفة أو يكادون ، على إطلاق اسم « الفلاسفة المحدَثين » على مفكرى الغرب من الأوربيين والأمريكيين، ابتداء من القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) إلى الآن .

ويبتدئون باسم « فرنسيس بيكون » الإنجليزى المتوفى عام ١٠٣٥ هجرية (مارس ١٦٢٦ م) على أنه أول الفلاسفة المحدثين ، وأنه . . . وأنه . . .

على أن بعض المؤرخين من هؤلاء ، قد يطلقون أيضاً اسم « الفلاسفة المعاصرين » ، على الأحياء ، فى الوقت الذى يكتب فيه المؤرخ تاريخاً للفلسفة الحديثة ، أو على الذين عاصروا القرن العشرين الميلادى منهم .

كما يجمع مؤرخو الفلسفة كذلك أو يكادون ، على تسمية الأفكار والآراء التى نادى بها ، أو دوّنها هؤلاء جميعاً . . . باسم « الفلسفة الحديثة » أو « الفلسفة المعاصرة » ، على التوزيع الزمنى السابق .

والإجماع منعقد كذلك على إطلاق « عصر النهضة » على أوربا فى القرنين التاسع والعاشر للهجرة (الخامس عشر والسادس عشر للميلاد) .

وعلى هذا الإطلاق ، كانت « الفلسفة الحديثة » حتى فى نظر هؤلاء :

تضم شتيتاً من المذاهب والاعتقادات ، قد لا يمكن ضبطه .

وتلم نقيضاً من المناهج والاتجاهات ، قد لا يُستطاع ربطه .

وتنشر خليطاً من الأهداف والتعريفات ، قد لا يمكن تنسيقه .

وتحشر ركاماً من الاصطلاحات والتعبيرات ، قد لا يستطاع تحقيقه .

كما يدخل فى عداد « الفلاسفة المحدثين » على هذا الإطلاق أيضاً : كثيرة كاثرة من كل من هَبّ وادعى ، أو كل من انحرف ودعا ، أو كل من طرق

باباً من أبواب العلم أو المعرفة، سواء فى ذلك من لم يُفتح له، ومن لم يُفتح عليه.

حتى من نبذه قومه، وأدانوه، وحكموا عليه بالخيانة وعزلوه من المناصب الكبرى . . . إذا أراد أن يكون فيلسوفا — ليلمع اسمه — كان . . . ولو كفر بالمثل، وبالإنسانية، وبالتفكير الناضج.

ويقول يوسف كرم — وهو مسيحى معاصر، وكان أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وتوفى قريباً، وهو من أدق وأعلم من كتبوا عن الفلسفة الحديثة وأعمتهم، فى كتابه «تاريخ الفلسفة الحديثة» الذى نشرته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧ م — فى مقدمة كتابه عن الأوربيين فى صفحة ٧ — ٩ ما نصه: « فكان القرن السادس عشر من أشد القرون اضطرابا وفوضى ؛ انحلت فيه الروابط الدينية، والعائلية. والاجتماعية، وعنفت الأهواء القومية ؛ فنشبت الحروب من أجل الدين والسياسة جميعاً، واستبيح فيها كل محرم بحجة سلامة الأمير أو الدولة . . . إلى أن يقول . . . تلك خصائص عصر النهضة، وهى هى خصائص العصر الحديث إلى أيامنا، نستطيع أن نردها إلى اثنين: الفردية العنيفة فى الأدب والدين والسياسة، والعناية البالغة بالعلم الآلى وتطبيقاته العلمية الرامية إلى توسيع سلطان الإنسان على الطبيعة، والزيادة فى رخائه، وسيكون لكل هذا صدى قوى فى الفلسفة ؛ ستستقل الفلسفة عن الدين، فتكون هناك فلسفة إلحادية، وتكون فلسفة تتحدث عن الروحية والمسيحية، ولا تعنى سوى مجرد عاطفة دينية، وتكون فلسفة تشيد بالعلم الآلى وتحصر مجالها على قدر مجاله، أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة فى بعض المذاهب على تفاوت بينها، وتظل الأجيال إلى الآن حائرة مترددة، تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الآخر، وتستبدل نظاماً من الحياة بنظام . . . إلى أن يقول . . . ويستمر هذا

الصراع فى النصف الأول من القرن العشرين — موضوع الباب السادس والأخير — ويمكن ألا ينتهى ، ولكن الروحية العصرية عرجاء ناقصة ، فإن الفلسفة الحديثة فى جملتها لا تؤمن بالعقل ومعانيه ومبادئه ، ولا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة ، وإله شخص مفارق للطبيعة ، فالروحانية مفتقرة فى الواقع إلى فلسفة وجودية موضوعية ، كفلسفة أرسطو ، ولا ندرى ما إذا كانت العقول العصرية تأخذ أنفسها بمثل هذه الفلسفة ، أو تمضى فى محاولاتها العقيمة » ؟

ثم يقول يوسف كرم فى خاتمة كتابه صفحة ٤٤٦ ما نصه :

« فتطور الفلسفة عبارة عن تداول هذه المذاهب [المذاهب القديمة فى الفلسفة اليونانية] ، وما تنطوى عليه من مسائل وحلول ، تداولا خاضعا للبيئة العقلية ، والعوامل التاريخية ، وأمزجة الفلاسفة . ألم تر أن لكل أمة عقلية خاصة تغلب على تفكير أبنائها ، وتلون فلسفتها ؟ وأن مذهب الفيلسوف يُفَسَّر بتكوينه العقلى والخلقى ، بل الجسمى أيضاً ؟

وتداول المذاهب هذا يجعلنا نقول : إن تقدم الفلسفة قد حدث فى الفروع والتفاصيل منذ عهد اليونان دون الأصل واللب ، وإن مذاهب الفلاسفة المحدثين هى تأليفات جديدة لعناصر كانت معروفة ، فلا نطلب من تاريخ الفلسفة تطورا مستقيما يمضى من الناقص إلى الكامل ، ومن الخطأ إلى الصواب . إن مثل هذا التطور لم يحدث إلا فى الفلسفة اليونانية حتى اكتملت على أيدى أفلاطون وأرسطو ، ثم تناولتها العقول ، وتصرفت فيها على أنحاء شتى ، فكل ما يقدمه لنا تاريخ الفلسفة هو صور أشبه ما تكون بتلك التى يقدمها لنا تاريخ الأدب ، حتى لقد صارت الفلسفة فنا من الفنون تابعاً الذوق الشخصى والتجربة الذاتية ، وذاع الشك فى إمكان الوصول إلى حقيقة مشتركة مطلقة ، ولكن : ما لهذا خكّر العقل ، وما بهذا يمكن أن يقنع .

فتنوع المذاهب أدعى إلى حفز الهمة للبحث عن الحقيقة منه إلى القُعود واليأس، ولا سيما أن مصيرنا فى الميزان: فما فكر الإنسان إلا ليعلم أى طريق يسلك فى الحياة.

وإن عصرنا الحاضر — على تضارب الآراء فيه — تَوّاق إلى فلسفة تكفل له الأخلاق والدين. ولكنه لا يملك لمثل هذه الفلسفة إلا أسبابا واهية متداعية، وما من ريب فى أنه قد استنفد محاولات البناء بهذه الأسباب، ولا يتسنى البناء إلا بعد الإيمان بالعقل إيماناً صريحاً قويا. والفكر الحديث متردد بين إنكار للعقل، وقناعة بالحس فقط، وبين إيمان بعقل مقطوع الصلة بالوجود، ولعل إخفاق التجارب ونفاد الحيل يعودان به إلى الحق يوماً مّا».

وهكذا انتهى يوسف كرم وانتهى كتابه «تاريخ الفلسفة الحديثة» بالحكم الصريح النافذ على إفلاس الفلسفة الحديثة والمعاصرة من كلّ ذاتى وأصيل ونافع، بعد أن استعرض كل الآراء الفلسفيّة الحديثة والمعاصرة وكلّ المتفلسفين فى العالم الأجنبى كله، دينيين وغير دينيين؛ من ملاحدة وصهيونيين، ومن يهود ومسيحيين، وعلى الأكثر من الأوروبيين والأمريكيين، ثم قرر: «إن عصرنا الحاضر تَوّاق إلى فلسفة تكفل الأخلاق والدين»، وأخذ يرجو فى أسىً وعمق: العودة إلى الحق، وليته وقد شعر بأن مصير الفلسفة فى الميزان، ليته عاد إلى القرآن: يعمق فيه الإيمان، ويشيد منه ما يستطيع من بنيان، لأنه — كما يقول هو —: ولا يتسنى البناء إلا بعد الإيمان... وسنعود إلى الكتاب مرة أخرى...

* * *

على كل حال قد يكون للأجانب والأوربيين أو الغربيين شأنهم فى أنه

يطلقوا على من يشاءون منهم ، ما يشاءون من الألقاب العلمية أو الفلسفية .

وقد يكون لهم شأنهم كذلك فى أن يُسمُّوا أى تفكير عندهم بما يشاءون ، وفى أن يخططوا لأنفسهم وفق ثقافتهم . وبيئتهم ، وعقيدتهم ، ومُثلهم .

وقد يكون لهم العذر الكبير فى أن يطلقوا على أى بصيص من نار : اسم النور الأنور ، لأنهم عاشوا فى ظلام ظالم عشرات العشرات من القرون ، فلما نهض منهم أفراد ، ولما تنفسوا ، ولما ابتدءوا يتعلمون الكلام والسير . . . أقاموا الأفراح ، ودقوا الطبول . . وأخذوا يساندون هؤلاء الأفراد ، ويعلقون بهم التمائم والأحجية .

كالوليد الصغير إذا ما انتصفت السنة الأولى من عمره ، وأخذ يناغى ، أو يحبو ، أقام له أهله الأفراح ودقوا الطبول وأخذوا يساندونه ، ويتخيلون فى مناغاته الحكمة ، وفى حَبْوه الوثبة .

وهكذا بدأ الغرب الأوربى وليداً فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، فلما انقضى على ميلاده قرنان — وهما فى عمر الأمة أقل من نصف عام للفرد — وأقبل القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) بدأ بعض أطفاله يناغون ويَحبون . . . وإلا فأين كان الغرب الأوربى ، وأين كانت انجلترا وفرنسا مثلا قبل ذاك ؟ وقد كانوا يدبون على الأرض قبل ذلك بعشرات القرون . . . ؟ ! ثم أين كانت أمريكا ، وكيف كانت ومتى وجدت ، ومتى اكتشفت ؟ .

فلهم العذر إذن فى أن يسموا ميلادهم عصر النهضة ، ولكن النهضة لمن ؟ لهم هم ، لأنها نهضة من عدم ، فلا تراث ولا ميراث لهم .

ولهم العذر فى أن يسموا أطفالاً منهم : يتناغون أو يَحبون ، أو يتعلقون

بشيء يساندهم فى خطوهم . . . يسمونهم بما يشاءون .

ولـكن ما بالنا نحن بنى الشرق ، بنى النور ، بنى الحضارات ، بنى التراث والميراث ، بنى العروبة ، بنى الإسلام ؛

ما بالنا نحتفى ونحتفل بوليد تغذى أهلوه على الفتات المتساقط من حول موائدنا ، وأرضعوه لبان الحقد علينا ، والكيد لنا ؟ !

وما بالنا نحتفى ونحتفل بوليد شن أهلوه علينا الحروب الوحشية : الصهيونية منها والصليبية ، ولـكنهم فشلوا وسيفشلون ، فوضعوا فى يده — أول ما وضعوا — سهاما مسمومة ضدنا ، ودفعوه — أول ما دفعوا — ليقوض بها ديننا ، وأخلاقنا ، وأفـكارنا ، ولغتنا ، ومثلنا ، وأمجادنا ، وفلسفتنا . . . فدسوا لنا كل أنواع السموم القاتلة ، والمخدرات المميتة ، فى أغلفة براقة ، خدعونا بها فانخدعنا ، وما زلنا . . . ولا زلنا . . .

من هذه الأغلفة كلمات حق يراد بها باطل ، وعبارات فى ظاهرها الرحمة ومن قبلها العذاب والموت . . . مثل : حرية الرأى ، وأصالة الفـكر ، وعدم التعصب ، والبحث النزيه المجرد ، والاحتكام إلى العقل المجرد . . . ولـكنها بكل عار : جازت علينا ، فنالوا منا وما زلنا . . . ولا زلنا . . .

ومن الغريب المخزى ، والعجيب المبكى أن نحتفى نحن ونحتفل بولائدهم أكثر مما يحتفون هم ويحتفلون ، وسترون كيف يلعن كل منهم أخاه هناك ويهدمه ، فى حين أننا هنا نشيد به ونكاد نقدسه ونمجده .

أننا لا أتنقص من شأن العلم والعلماء هناك ، الذين كشفوا عن الظواهر المادية ، وإنما أتربص بالفلسفة والفلاسفة هنا وهناك ، الذين خدعوا عن السرائر الإنسانية .

الباب الأول

الفصل الثاني

اضطراب المؤلفين

عرض النماذج من الغرب والشرق .

ا — عند الغربيين هناك :

١ — وولف : الإنجليزى

٢ — أزفلد كولبه : الألمانى

٣ — ول ديورانت : الـكندى الأمريكى

٤ — جون ديوى : الأمريكى

ب — عند العرب هنا :

١ ، ٢ — أحمد أمين ، وزكى نجيب محمود

٣ — توفيق الطويل

٤ — يوسف كرم

وهكذا نرى . . .

اضطراب المؤلفين

لعل هذا الاحتفاء الذى أشرنا إليه ، وذاك الإطلاق الذى تحدثنا عنه ، وذلك الإجماع الذى انتهى إلينا ، وإن لم ننته له . . .

لعل كل هذا مما دفع مؤرخى « الفلسفة الحديثة » إلى الاضطراب والخلط ، وأدى بدارسى الفكر الحديث إلى الاختلاف والخبط ، فلا ضابط ولا رابط ، ولا تنسيق ولا تحقيق .

ولعل نظرة سريعة وعاجلة إلى العناوين والفهارس ، أو إلى الأبواب والفصول ، أو إلى الموضوعات والتفاصيل ، لمجموعة من الكتب التى عنيت بتاريخ الفلسفة الحديثة ، أو لطائفة من الكتب التى عرضت لموضوعات من الفلسفة الحديثة . . . لعل هذه النظرة تؤكد كل هذا ، وتؤيد كل ذاك .

ولما كان هذا الكتاب لا يتسع للتفصيل والإسهاب ، فإنى سأقدم إليكم بعض النماذج والأمثال ، وأعرض عليكم القليل من الكتب والموضوعات ، وأشير إلى المضمون ببعض الفقرات ، فيما يختص « بالفلسفة الحديثة » أو « المعاصرة » كما يقولون ، أو يتعلق بالتفكير الأجنبى الدخيل ، حول موضوعات الفلسفة ، والفلاسفة ، وبخاصة فى أوربا وأمريكا ، من القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) إلى الآن ؛

كما ورد عن بعض الألسنة والأقلام هناك .

وكما جاء فى بعض الكتب والأفهام هنا ...

مما ينير الطريق ، ويفتح الأبواب ، ويأخذ إلى الصواب ، ويدفع بالعقول إلى الأصالة الفكرية ، لتصل إلى اللباب .

وهذا — لعمر الحق — بالنسبة لطالب الحق حتم وفرض .

« فأمَّا الزَّبدُ فيذهَبُ جفاءً ، وأمَّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ فى الأرضِ »

(ا) عند الغربيين هناك :

١ — خذوا مثلا : «وولف» الإنجليزى الأستاذ بجامعة لندن سنة ١٣٥٥هـ ١٩٣٦ م : فى « فلسفة المحدثين والمعاصرين » ترجمة الدكتور «أبو العلا عفيفى » وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٥هـ١٩٣٦ م بالقاهرة ؛ فإنه يستهل الفصل الثا من كتابه بقوله : « للفلسفة مذاهب متعددة مختلفة ، ومن الخطأ والتضليل أن ندخلها جميعاً تحت طائفة قليلة من الأسماء » .

ثم يقول فى صفحة ٩: « . . . إن مجرد تسمية فلسفة من الفلسفات ،بمذهب كذا ، مثل : مذهب الوحدة ، ومذهب المثال ، ومذهب الواقع ، وما إلى ذلك ، ليس كافياً فى وصف تلك الفلسفة وصفاً دقيقاً ، بل إننا لو حاولنا وصف أى مذهب فلسفى وصفاً حقيقياً شاملا ، لتطلب ذلك منا استخدام عدد كبير من الـكلمات الاصطلاحية الدلالة عليه ، ولـكن الوصول إلى تصنيف جامع للصور المختلفة التى يمكن أن تتركب منها المذاهب الفلسفية إجراء غاية فى التعقيد ، أضف إلى هذا أن مواطن الخلاف بين المذاهب الفلسفية لم تعد فى الأزمنة الحديثة حاسمة بين مذهب ومذهب » .

ثم يقول فى صفحة ٤٠ : « وهناك صفة أخرى من صفات الفلسفة الحديثة » هى غلبة نظرية « التطور الفجائى عليها » .

ولهذا نرى « وولف » يبدى الحيرة الشديدة فى محاولة جمع المذاهب لعدد قليل من الفلاسفة ، ثم يقول فى صفحتى ٤١ و ٤٢ : « وغرضنا الآن أن نرتب

المختصرات التى كتبناها عن نحو أربعين فيلسوفا من ممثلى العصر الذى نؤرخ له ترتيبا يتفق مع ما قدمناه من الوصف الإجمالى لأهم الاتجاهات الحديثة فى فلسفة المحدثين والمعاصرين ، وقد وضعنا هذه المذاهب تحت العناوين الآتية :

١ — المذهب المادى ، ومذهب الطاقة ، والمذهب الوصفى .

٢ — المذهب المثالى المطلق .

٣ — مذهب الذرات الروحية ، أو التعدد الروحى .

٤ — مذهب التجريد الجديد ، أو مذهب « كانت » الجديد ، ومذهب الظواهر .

٥ — مذهب الحياة ، والمذهب الحيوى ، والمذهب العملى ، ومذهب الذرائع ، والمذهب الأسطورى .

٦ — مذهب الواقع ، ومذهب التطور الفجائى ، ومذهب تجدد الأعراض (أو مذهب التغير) .

* * *

٢ — وخذوا مثلا آخر هو : « أزفلد كوليه » الألمانى ، أستاذ الفلسفة فى جامعات « فرنسبورج » و « بون » و « ميونخ » إلى سنة ١٣٣٤ هـ (١٩١٥ م) فى كتابه « المدخل إلى الفلسفة » الذى ألفه سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٥ م) والذى ترجمه الدكتور « أبو العلا عفيفى » وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٦١ هـ (١٩٤٢ م) .

إنه فى كتابه هذا يحاول جاهداً أن يحصى التعريفات الحديثة للفلسفة ، وأن يختار منها تعريفاً واحداً . . . ثم يقول فى صفحتى ١٣ و ١٤ : « ومما تقدم يتبين أن لا واحد من التعريفات الحديثة ، يضع قيمة للفلسفة ، أو يفسرها من

حيث هى ثمرة لتطور تاريخى ، وإنما هذه التعريفات هى : عبارات تشرح لنا الآراء الشخصية لبعض المفكرين المستقلين . . . ولا يمكن بحال أن تعتبر ملخصات للصفات الأساسية الدائمة للفلسفة فى ذاتها . . . » .

* * *

٣ — خذوا مثلا ثالثا هو « ول ديورانت » الأمريكى فى كتابه « مباهج الفلسفة » الذى طبع فى نيويورك سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) كطبعة منقحة من كتاب « صروح الفلسفة » الذى طبع أيضا هناك سنة ١٣٤٨ هـ (١٩٢٩ م) وكتاب «مباهج الفلسفة» هذا قد ساهم ثلاثة من كبار المفكرين العالميين فى تقديمه للعالم العربى ، فهو من تأليف « ول ديورانت » ، وتقديم الدكتور « إبراهيم بيومى مدكور » وترجمة الدكتور « أحمد فؤاد الأهوانى » ، وقد طبعته مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٧ هـ (١٩٥٧ م) وفى مقدمته يقول الدكتور « إبراهيم بيومى مدكور » : « وديورانت رحالة طوف فى الآفاق ما طوف ، ومؤرخ حضارة عاش فى الماضى بقدر ما عاش فى الحاضر ، وهو يرى أن حضارتنا الحاضرة أضحت مادية إباحية . . . وأصبحنا وكأنا فى بحر لجىّ تتقاذفنا فيه الأمواج ، ولا ندرى أين المفر . وأصبحت حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية تفاجأ بالجديد كل يوم » .

ثم يقول الدكتور مدكور : « وما ذاك إلا لأن هذه الحضارة لا تقوم على دعائم عقلية ، ولا تعتمد على أسس كلية ، وما أحوجنا إلى أن نفلسفها فنلم شعثها ، ونزيل تناقضها ، ونكوّن من شتى مظاهرها كلا منسقاً ، ونرسم لها أهدافاً أسمى وأكمل ، وسبيلنا إلى ذلك أن نرتاد علم الأخلاق لنكشف عن طبيعة الحياة الفاضلة ، وفى ضوئها نستطيع أن نعالج أسرنا المنحلة ، وروابط

حبنا المتراخية ، ونخرج من الأثرة الضيقة الأفق إلى إيثار كريم ، يعيش الناس تحت ظله إخواناً متحابين ، و نعيد فى اختصار بناء الأخلاق من جديد ، وسيعيننا على ذلك ما تمليه فلسفة الدين والتاريخ من دروس ، وما نستمده من علم الجمال من نماذج ومثل » .

ثم يورد « ديورانت » نفسه من صفحة ٣ إلى صفحة ٣٦ العبارات التالية :

« ونحن نلاحظ أن سلوك الإنسان واعتقاداته تخضع اليوم لتغيرات أشد عمقاً ، وأعظم اضطراباً مما كانت عليه عند ما نمت الثروة وظهرت الفلسفة ، فوضعتا حداً لديانة الإغريق للتوارثة ، فنحن الآن فى عصر سقراط مرة ثانية : حياتنا الخلقية مهددة بالانهيار ، وحياتنا العقلية يتضاعف سيرها وتتسع آفاقها ، وذلك كله على حساب التقاليد والمعتقدات القديمة ، وكل شيء — سواء فى أفكارنا أو فى أعمالنا — جديد وتجريبى ، ولم يعد هناك مستقر أو مؤكد ، وليس للتغير الحاصل فى زماننا من جهة سرعته ، وتعقيده ، وتعدده ، مثيل حتى فى أيام « بركليس » . . . (ص ٣) .

والمهرب الوحيد الجدير بالعقل الناضج من هذا الاضطراب ، هو أن نرتفع عن النظر إلى الشوارد والأجزاء ، كى نتأمل الكل . . . (ص ٤) .

وثقافتنا اليوم سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء فى الآلات ، فقراء فى الأغراض . . . (ص ٦) .

والفلسفة على هذا النحو الذى دونت به خلال المائتى عام الأخيرة ، قد تكون جديرة بهذه الاستهانة ، وهذا الإغفال .

لقد انصرف ذلك العقل الذى كان يمكن أن يصنع الملوك و « الفلاسفة » إلى تعميق البحث فى تحليل الأدلة التى تؤيد أو تنفى إمكان وجود النجوم

والمحيطات والبكتريا ، والحيرة فى حالة عدم إدراكها ، وقد استمرت هذه المعركة — التى تشبه المعركة بين الضفادع والفئران — مائتين وخمسين عاما ، دون أن تخرج بثمرة لها قيمتها فى الفلسفة أو فى الحياة ، وبفائدة لأى شخص اللهم إلا فائدة طابع الكتب .

ويرجع بعض اللوم فى هذا كله إلى عبارة « ديكارت » البسيطة التى تكاد تبلغ حد السذاجة : « أنا أفكر ، إذن أنا موجود » . . . وقد كان من الخطر العظيم أن نجعل الوجود معتمداً هذا الاعتماد على الفكر . . . (ص ١٣) .

أما الخسارة الكبيرة فقد أصابت الفلسفة ؛ إذ أن بناء تصور للعالم على هذه الحقيقة ، وهى أن شخصا واحداً بفكر ، جدير بأن يخلق مثل هذه الشبكة من الصعوبات التى ظل أصحاب المعارف عشرة أجيال يجتهدون فى حلها بغير نتيجة . . . (ص ١٤) .

بل إن ديكارت ظل عبداً لما حرر الناس منه . . . (ص ٣٥ و ٣٦) ، ونشأت بذلك حرب بهيجة ، ولم تبق اليوم إلا الحرب فقط ، وذهبت البهجة ، وقد يظهر بين حين وآخر « فيلسوف » من أصحاب المعرفة تشرق البسمة على كتاباته ؛ مثل « برادلى » و « وليم جيمس » ، وقد يظهر فى بعض الأحيان من يفهم أن « مذهبه » ليس إلا لعبة ؛ فهو يلعبها بغمزة عينه مثل : « دافيد هيوم » . أما سائر الباقين فقد بلغت رزانتهم حد الموت . . . » (ص ١٤) ، أما فى صفحتى ٢٢ و ٢٣ فيقول :

« ألنا أن نقرر أن الفلسفة تناقض نفسها باستمرار مع تتابع مذاهبها ؟ وأن الفلاسفة جميعاً خاضعون لثورة جنون قتل الاخوة ؛ فلا يهدأ لهم بال حتى يحطموا كل منافس يطالب بارتقاء عرش الحقيقة ؟ » .

هذا هو «ديورانت» فى بعض أحكامه على ما يسمونه « الفلسفة الحديثة أو المعاصرة » ، وفى بعض أحكامه كذلك على من تقدموا إلى العالم على أنهم « فلاسفة محدثون أو معاصرون » ، وقدمناهم نحن « بنى العروبة و الإسلام » على أنهم هم « الفلاسفة المحدثون أو المعاصرون » .

ثم ها هو «ديورانت» مرة أخرى،وهو على وجه آخر يظهر فى الموضوعات التى جمعها فى كتابه هذا ، من حيث الترتيب ، ومن حيث المعالجة ؛ وليس من غرضنا هنا أن نناقشه أو نحاسبه ، وإنما نكتفى الآن بسرد الموضوعات التى عالجها بالترتيب الذى وضعه ، فقد قسم كتابه هذا إلى تسعة أجزاء هى على التوالى :

(١) مدخل (٢) المنطق والأبستمولوجيا (٣) الميتافيزيقا (٤) مشكلات أخلاقية (٥) علم الجمال (٦) فلسفة التاريخ (٧) الفلسفة السياسية (٨) الدين : محاورة (٩) خاتمة .

ثم عاد فنثر هذه الأجزاء التسعة على أربعة وعشرين فصلا :

فيجىء كل من الأجزاء : ١ ، ٢ ، ٥ ، ٩ فى فصل واحد .

ويجىء الجزء الثالث فى فصلين :

ويجىء كل من الجزءين : ٦ و ٨ فى ثلاثة فصول .

ويجىء الجزء السابع فى أربعة فصول .

ثم يجىء الجزء الرابع فى ثمانية فصول .

وعناوين هذه الفصول جميعاً على التوالى هى :

(١) فتنة الفلسفة (٢) الحقيقة (٣) المادة والحياة والعقل (٤) هل الإنسان آلة (٥) أخلاقنا المتغيرة (٦) الأخلاقية واللاأخلاقية (٧) الحب

(٨) الرجال والنساء (٩) المرأة الحديثة (١٠) انهيار الزواج (١١) فى الأطفال (١٢) إعادة بناء الخلق (١٣) ما الجمال (١٤) معنى التاريخ (١٥) هل التقدم وهم ؟ (١٦) مصير الحضارة (١٧) فى امتداح الحرية (١٨)، هل أخفقت الديمقراطية ؟ (١٩) الأرستقراطية (٢٠) كيف صنعنا المدينة الفاضلة (٢١) تكوين الدين (٢٢) من كونفوشيوس إلى المسيح (٢٣) الله وخلود النفس (٢٤) حول الحياة والموت .

وفى هذا كله يحاول « ديورانت » أن يضع فلسفة جديدة : من حيث التأريخ ، ومن حيث التعريف ، ومن وجهة نظره هو (طبعاً) ، فهل وصل ؟ أو استمد ؟ وهل استعد ؟ أو استبد ؟ ليس هذا مكان المناقشة أو الرد .

• • •

٤ — وخذوا مثلا رابعاً هو « جون ديوى» الأمريكى فى كتابه « البحث عن اليقين » طبع الحلبى بالقاهرة سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦٠ م) الذى يقول عنه الدكتور « أحمد فؤاد الأهوانى » فى مقدمته أمام ترجمته له : « سيظل اسم «جون ديوى» خالداً فى تاريخ الفلسفة ، سواء وافقته على آرائه ،أم اختلفت معه»

ثم يقول الدكتور « الأهوانى » فى صفحة ٤ من هذه المقدمة :

« فقد قيل إن لكل فيلسوف كبير نقطة بداية يرتكز عليها ، وتوجد فى بعضه الفكرى لفيلسوف سابق ، وغالبا ما يكون ذلك الفيلسوف الآخر عملاقا من عمالقة الفكر . كانت تلك حال « ديكارت » و « بيكون » حين وجها سهام النقد اللاذعة لأرسطو ، وهذه هى حال « ديوى » ، لم يتجه نحو « أفلاطون » أو « أرسطو » من القدماء ، ولو أنه يعترض اعتراضا شديداً على « الأفلاطونية » و « الأرسطية » ، حتى ليخيل إلى المرء أنه يدعو إلى نبذ

الفلسفة القديمة ، وأن مذهبه قائم على هدم ذلك التراث القديم الذى انحدر مع الزمان خلال العصر الوسيط إلى الفلسفة الحديثة .

بل إن الفيلسوف الذى يعد نقطة الارتكاز حقا فى فلسفته هو « كانط » ، الذى ساقه إلى : « هدمه ، ونقده ، شىء من الحسد المركب فى الطبيعة البشرية » .

أما « ديوى » نفسه فيقول فى صفحة ٧٣ : « . . . إن الفلسفة الحديثة ، ونقصد بالفلسفة الحديثة تلك التى تأثرت بالعلم الطبيعى الجديد ، قد انطوت فى ذاتها على تقسيم باطن ؛ ذلك أنها حاولت أن تجمع بين التسليم بنتائج البحث العلمى فيما يختص بالعالم الطبيعى ، وبين التسليم بمذاهب عن طبيعة العقل والمعرفة نشأت قبل أن يوجد هذا الذى نسميه البحث التجريبى المنظم ، وإذ كان بين هذين النظامين تنافر طبيعى ، فقد أخفق باطراد أفضل جهود الفلسفة بسبب ما فيها من تصنع ومنازعات جدلية . . . » .

ثم يقول فى صفحة ٧٥ : « ومع ذلك لا يزال الموقف جانب أكثر سوءاً ، لأنه يدل على اضطراب فكرى ؛ هو الفوضى عمليا فيما يختص بالموازين والمبادىء المستخدمة فى تقرير الأحكام والانتهاء إلى النتائج الخاصة بأمور فى غاية الأهمية . إنه يدل على غياب السلطة الفكرية . لقد حلت الاعتقادات القديمة المشكلة بوضع سلطان محدود على تنظيم النقط وتكوين الخطط والسياسات وعمل المثل العليا والأهداف ، ولم يعد هناك شىء آخر يحل محلها . . . » .

ثم يقول فى صفحة ٣١٣ و٣١٤ : « لقد أشرنا مرارا كيف استغرقت الفلسفة الحديثة فى مشكلة التوفيق بين نتائج العلم الطبيعى وبين المعتقدات والقيم صاحبة السلطة فى توجيه الحياة ، والحل الحقيقى النافذ لا يقوم على الأغلب فى المكان الذى وضعه الفلاسفة فيه ، إذ أنه لا ينطوى على ملاءمة بين عالمين أحدها طبيعى

والآخر مثالى روحانى ، ولا فى التوفيق بين « مقولات » العقل النظرى والعملى .

. . . وقد كانت عنايتنا قبل كل شىء خلال فصول هذا الكتاب موجهة إلى مناهج النظريات الفلسفية وأقاويلها ، غير أن هذه الأقاويل ليست فنية ولا متخصصة إلا من حيث الصيغة فقط ، أما فى أصلها ، ومضمونها ، وأثرها ؛ فهى انعكاس لبعض الظروف ،أو لبعض المراحل فى خبرة الإنسان المحسوسة . . »

ولقد قسم « ديوى » كتابه هذا إلى أحد عشر فصلا عناوينها على التوالى هى :

الهروب من الخطر — بحث الفلسفة عن اللامتغير — الصراع بين السلطات — فن القبول وفن التوجيه — الأفكار فى مجال العمل — لعب الأفكار — قاعدة السلطة الفكرية — تطبيع الذكاء — سلطان المنهج — بناء الخير — الثورة الكوبر نيقية .

وفى هذا الفصل الأخير يحاول « ديوى » جاهدا أن يهدم « كانت » بكل ما يستطيع من حيلة ومن قوة .

وفى الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب يتعرض « ديوى » للدين أو يعرض له ، أو يعرض به « فى طريق البحث عن اليقين » ، فيقول مثلا فى صفحة ٣٣١ : « لقد وقع الإيمان الدينى تحت تأثير الفلسفات التى اجتهدت أن تبرهن على الصلة الثابتة بين الحق الواقع والمثل الأعلى فى الموجود الأقصى ... ورأى الدين نفسه أنه يحارب معركة خاسرة مع العلم » . . .

إلى أن يقول فى صفحة ٣٣٥ : « ونستطيع أن نقرر فى ثقة أمرا واحدا يختص بالاتجاه الدينى الذى يضع يده فى يد الخير الأسمى ، باعتبار أنه غاية ما نستهدفه فى تحقيق إمكانيات الوجود ، فعلى أفضل الأحوال ، تتطلع جميع

محاولاتنا إلى المستقبل ولا تبلغ اليقين أبدا » . .

وفى صفحة ٣٣٩ يقول ولم تكن الحاجة إلى أفكار عريضة سخية فى توجيه الحياة أكثر إلحاحا منها فى الوقت الحاضر وما يتميز به من فوضى الألسنة، والاعتقادات والأهداف » .

وفى هذا كله يحاول « ديوى » أن يبحث عن اليقين معرضا بالفلسفة، و بالعلم ، و بالدين .

ولكن : هل عرف « ديوى » أولاً : ما هو « الدين » ؟ ! ، أو كيف تكامل الدين ؟ ؛ أو عرف حتى شيئا من بعض تعاليم الحق ؟ ؟

أم أنه وقف عند أعمال لبعض رجال انتسبوا لظاهر حلقة من الدين ؟ !

ثم وهل استطاع « ديوى » أن يَفهم هو أو يُفهم أحداً : ما هو اليقين ؟ !

وهل سار فى بحثه على أساس إنسانى ، أصيل ، أو متين ؟ !

وهل أشار إلى منهج فلسفى صحيح ، موصل ، أو أمين ؟ !

لعلنا فى غير هذا المكان نضع « ديوى » وكتابه فى الميزان

والله وحده نعم الموفق ، وهو المستعان .

* * *

(ب) عند العرب هنا :

١ ، ٢ — نرى مثلاً : « أحمد أمين » و « زكى نجيب محمود » فى كتابهما « قصة الفلسفة الحديثة » الذى طبع فى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) يقولان فى المقدمة . « وجعلنا مسائل الفلسفة فيها تدور حول رجالها ، لأن ذلك أشوق إلى القارىء وأقرب إلى أسلوب القصة .

ورجعنا فى الكتابين [قصة الفلسفة اليونانية ، وقصة الفلسفة الحديثة] إلى أهم المصادر الأوروبية ، واستفدنا مما حاولته من إجادة العرض وحسن السبك ، وكان خير ما أعاننا فى كتابنا هذا هو : « قصة الفلسفة » للأستاذ « ديورانت » فقد وفق كل التوفيق فى عرض مسائل الفلسفة ، وتحليل رجالها فى أسلوب شيق ، وبيان واضح ، فنهجنا نهجه ، واسْتَمْتَمْنا به [أى والله مشكولة هكذا] ، واقتبسنا منه .

ولعله لا يمضى زمن طويل على العالم العربى فى نهضته الحديثة ، حتى يكون له فلاسفة ينظرون إلى العالم نظرة شاملة مؤسسة على العلم ، ويدعون إلى فلسفة خاصة بهم ؛ ويضطرون مؤرخى الفلسفة من شرقيين وغربيين إلى أن يؤرخوهم ، ويضعوهم فى مصاف « برجسون » و « رسل » و « وليم جيمس » وأمثالهم ، ويختمون الزمن الذى يكتفون فيه بدراسة الفلاسفة من غير أن يكون لهم هم فلاسفة » .

ولا أدرى كيف يستقيم قول هذين العالمين (المصنفين لهذه القصة) ومنهجهما مع قولهما فى هامش صفحتى ٢٥ و ٢٦ من نفس الكتاب ما نصه :

« اتصل الأوربيون بالمسلمين فى الأندلس اتصالا وثيقا ، واتخذ علماؤهم فلاسفةَ المسلمين أساتذةً : يتعلمون منهم ، ويدرسون عليهم ، ونشطت حركة واسعة النطاق ، لنقل أهم المؤلفات العربية إلى اللغة اللاتينية ، وهى لغة الأدباء والعلماء فى القرون الوسطى ، حتى أن كثيراً مما بقى من مؤلفات « ابن رشد » حفظت إلى الآن باللغة اللاتينية ، ولا نجد لها أصلا بالعربية ، وفى القرن الثالث عشر كانت كل « كتب ابن رشد » تقريبا قد ترجمت إلى اللاتينية ما عدا كتبا قليلة ، منها : كتاب « تهافت التهافت » الذى رد به على « تهافت الفلاسفة » .

للغزالى فقد ترجم فى القرن الرابع عشر .

وكان أم مركز لتعاليم « ابن رشد » : فى « جامعة بولونيا » و « جامعة باذوا » فى إيطاليا ، ومنهما انتشرت هذه الثقافة فى إيطاليا الشمالية الشرقية إلى القرن السابع عشر ، واستمرت كتب « ابن سينا » فى الطب سائدة إلى ما بعد هذا العصر .

ورجال النهضة الحديثة الذين قاموا بحركة الثورة الفكرية كانوا يدرسون على هذه الكتب ، أو يتتلمذون لمن درسوا عليها ، « فروجر بيكون » الذى سبق أهل زمنه فى معارفه وطريقة بحثه ، أخذ ثقافته العلمية من « الأندلس » ، ودرس فلسفة « ابن رشد » .

والقسم الخامس من كتابه فى البصريات Optics مستمد ومساير لكتاب « ابن الهيثم » فى هذا الموضوع نفسه » ، ومع قولهما مرة أخرى فى صفحتى ٤٨ و ٤٩ ما نصه :

« هذا ولم تكن الفلسفة الحديثة طبيعية فحسب ، بل كانت فردية كذلك ، فقد كان من خواصها لفت العقل الفرد وتحريره من رق الكنيسة ؛

وكان من أغراض الحركة الحديثة تقرير حق الأفراد فى الحكم على الأشياء . . . وعلى هذا الأساس قامت « الفلسفة الحديثة » ، وكان أول من حمل لواءها « بيكون » و « ديكارت » ، فقد اتفق هذان الفيلسوفان فى الغرض ، ولكنهما اختلفا فى الوسيلة المؤدية إليه ، فبينما يذهب « بيكون » إلى أن المصدر الوحيد للحقائق هو ملاحظة العالم الخارجى وتجربة ظواهره ، إذا « بديكارت » يعترف بأن يكون العقل مَعينا تتدفق منه المعرفة إلى جانب العالم الخارجى الذى ينتقل إلينا علمه بالحواس ، وكان بذلك « بيكون » مؤسس

الفلسفة التجريبية، كما كان « ديكارت » واضع الأساس لفلسفةٍ عقلية جديدة.

ثم لا أدرى، ولا إخال أحداً يدرى كيف جاز لهما أن يديرا مسائل الفلسفة — فى طول كتابهما وعرضه — على المذاهب، مع أنهما قالا فى المقدمة « وجعلنا مسائل الفلسفة فيها تدور حول رجالها » ؟! فإنهما أدارا « الفلسفة الحديثة » على المذاهب التالية :

المذهب الواقعى فى انجلترا — المثالية الذاتية — المثالية الموضوعية — المثالية المطلقة، ثم الفلاسفة المعاصرون فى أوربا.

وتحت كل مذهب من هذه المذاهب وضعا عدداً من الفلاسفة.

وحتى إن جاز هذا ؛ أفيجوز لهما أو لغيرهما أن يضعا تحت « المذهب الواقعى فى انجلترا » كلا من :

فرنسيس بيكون — توماس هوبز — رينيه ديكارت — مالبرانش — سبينوزا — ليبنتز — جون لوك — بركلى — هيوم — كانت ؟؟!!

مع أن الغالبية الغالبة من هؤلاء ليست (فى انجلترا).

ثم تحت عنوان « الفلاسفة المعاصرون فى أوربا » يضعان : برجسون، وكرتشى، ورسل، وسنتيانا، ووليم جيمس ؛

مع أن الأخيرين من أمريكا، بل إن « ديورانت » نفسه الذى اتخذه المؤلفان إماما : كندى من أمريكا، وأصل هذا الكتاب نفسه طبع فى نيويورك بأمريكا ؛

فيا ترى كل هذه المناقضات ـ الشكاية أولا ـ فى الأصل أم فى الصورة ؟!

إن كانت فى الأصل فعلى الفلسفة السلام، وما على المؤتمين إلا اتباع الإمام، وإن كانت فى الصورة فعلى الأمانة العلمية وعلى التفكير الإنسانى السلام.

هذا كله من حيث الشكل والتنسيق ، أما من حيث الموضوع والتحقيق ، فليس من موضوعنا الآن ؛ ولكنى لست لهما برفيق .

ومن يدرى ! فلعل صاحب « فجر الإسلام » و « ضحاه » ، لو اتجه إلى تأثير الإسلام فى العالم كله ومداه ، ولو تخطى مع التراث الإسلامى إلى أوربا ووعاه ، ولو قفز مع الفكر الإسلامى إلى الغرب وتولاه . . . إذن . . . لغيّر آراءه وإمامه ، وتفكيره ، وما اتجه إليه من اتجاه . . . ولكنه التقليد ؛ ولكنه الاستعمار ؛ ولكنه الاندفاع . . . قاتلهم الله .

* * *

٣ — ثم نرى مثلا آخر : الدكتور « توفيق الطويل » فى كتابه « أسس الفلسفة » فى طبعته الثالثة ، المزيدة والمنقحة ، نشر مكتبة « النهضة المصرية » وطبع « لجنة التأليف والترجمة والنشر » سنة ١٣٧٨ هـ (١٩٥٨ م) الذى يقول فى مقدمته :

« أدركتْ هذه الطبعة إضافاتٌ ، كان من أظهرها تضخم نصيب الفلسفات المعاصرة ، وقد تناولناها كما بدت فى الفلسفة العملية ، والمادية الجدلية ، والوجودية والوضعية المنطقية ، ورأينا كيف انصرفت كلها عن دراسة الوجود بإطلاق ، واهتمت — مع استثناء الأخيرة — بالبحث فى الإنسان وحياته الواقعية ، بل مضينا مع الفلسفات التقليدية الكلاسيكية من المثالية ، والواقعية ، والعقلية ، والحدسية ، والتجريبية ، حتى آخر تطوراتها فى الوقت الحاضر .

اشتد الكلف بالماضى والعمل على إحياء تراثه عند رواد الفكر الأوربى الحديث فى عصر النهضة ، فمهد هذا لنشأة تاريخ الفلسفة بمعناه الصحيح ، ثم تولاهم النفور من الماضى حين ساورهم الظن بأن الإعجاب بتراثه يعوق البحث المنزه عن الحقيقة ، ويعرقل انطلاقة الفكر الحر ، وبدت هذه الظاهرة فى مطلع

القرن السابع عشر عند الذين انصرفوا عن إحياء الماضى ، ونزعوا إلى إنشاء فلسفة جديدة مبتكرة . . . .

وإلى ما يقرب من هذا ذهب واضعو مناهج البحث العلمى الحديث ، فأوجب « فرنسيس بيكون » فى الجانب السلبى من منهجه التجريبى أن يطهر الباحث عقله من «أوثان المسرح» حتى لا يتقيد بتراث الماضى ، ويجمد عند آراء الأغيار ، وحرص «ديكارت» فى أولى قواعد منهجه العقلى على أن ينبه الباحث إلى ضروب الاعتزاز بعقله ، واعتبار وضوح الأفكار وجلائها مقياس الصواب والخطأ ، وبهذا انتفت الكتب القديمة والسلطة الكنسية مصدراً للحقيقة .

على أن هذه الفترة . . . لم تعدم منصفين يقدرون الاستعانة بالتفكير الماضى فى مجال البحث عن الحقيقة ، وكان فى مقدمة هؤلاء « ليبنتز » . . .

وقد بعث هذا المذهب ، فى القرن الماضى « فكتور كوزان » ، إذ صرح بأن تاريخ الفلسفة قد استوعب الحقائق كلها . . . وبهذا المذهب تفنى الفلسفة فى تاريخها ، ويذوب حاضرها ومستقبلها فى ماضيها ، ويوصد بهذا باب التجديد والإبداع الحقيقى . . .

والأدنى إلى منطق العقل أن نقول مع « ليون روبان » : إن إغفال ماضى التفكير ميسور فى العلم ، مستحيل فى الفلسفة ، لأن تاريخ العلم مختلف عن العلم نفسه ، وليس هذا هو الحال فى تاريخ الفلسفة ، فإن تاريخ الفلسفة فلسفة . . .

. . . وإذا نزع أصحاب الجديد إلى تقويض القديم أملا فى أن يقيموا بناءهم جديداً من كل وجه ، تبينوا آخر الأمر ، أن البناء الجديد قد أقيم من لبنات قديمة ، وأدرك الناقد المحايد — متى كان ملما بماضى الفلسفة — أن كثيراً من الحلول التى قدمها لحل المشكلات السابقون من الفلاسفة ، يزخر قوة وينبض حياة ،

وقد يبدو أمام المنطق السليم أصح وأسلم من كثير من الحلول التى يقدمها لهذه المشكلات المعاصرون من الفلاسفة ؛ بل إن الفلاسفة الذين حاربوا الماضى كانت فلسفتهم من غير شك على اتصال وثيق بالماضى وتراثه ، وفى مقدمة هؤلاء كبيرهم « ديكارت » أبو الفلسفة الأوربية الحديثة ، ذلك الرجل الذى لم يعتقد قط أنه تعلم أو كان يمكن أن يتعلم شيئاً من أحد كائنا من كان . . . ؟ والذى أخذ على عاتقه أن يعيد تنظيم العالم وحده ، وأن يأخذ مكان أرسطو فى مدارس العالم المسيحى . . . والذى أراد بقصة المدفأة أن يستبعد كل الجهود التى بذلها الفلاسفة من قبل ، وأن يستأنف الفلسفة ، كأن أحداً قبله لم يُفلسف ، وأن يجدد البناء لأول مرة ولآخر مرة — فيما يقول أستاذنا « الكسندر كواريه » — هل انقطعت صلة هذا الفيلسوف بالماضى الذى كان يحاربه وهو يعيد بناء الفلسفة . . ؟ كلا ، فقد جاءت فلسفته على تعارض مع فلسفة القدماء ، أنشأها على أنقاض الفلسفة الأرسطاليسية التى جد فى هدمها ، وأقامها من لبنات استمد الكثير منها من فلسفة القديس «أوغسطين» ٤٣٠ والقديس « أنسيلم » + ١١٠٩ ، و « دنز سكوت ١٣٠٨ ومن إليهم من فلاسفة العصور الوسطى .

. . . والغريب أنه يعترف هو نفسه . . . ، فى « قصة التفاحة » التى وردت فى خطابه إلى الأب « ميلان » ما يشهد بما نقول .

هذا مجمل مفصل للمقدمة التى كتبها الدكتور « توفيق الطويل » أمام الطبعة الثالثة لهذا الكتاب وشغلت سبع صفحات من صدر الكتاب .

ثم هو فى مقدمة الطبعة الثانية للكتاب نفسه سنة ١٣٧٤ هـ (١٩٥٥ م) يقول : « هـذه طبعة منقحة وموسعة ، تضمنت إضافات تجاوزت ثلث

حجم الكتاب فى طبعته الأولى ، وانصبّ أكثر هذه الإضافات على الفلسفات المعاصرة » .

أما فى مقدمة الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ هـ (١٩٥٢ م) فيقول فيما يقول :

« . . . إن مواضع الضعف لا يتنافى وجودها مع مواطن الإعجاب . ومنهج البحث العلمى لا يحتمل التحيز ولا يستقيم مع التعصب ، ولا يضيق بالنزاع بين المذاهب وهى تنشد الحقيقة فى مظانها » .

ولكن من الفلاسفة المعاصرين من يضيق بأى نزاع يقوم بين الفلاسفة ، لأنه يشهد بأن الفلسفة لم تنجح فى حل مشاكلها نجاح العلم الطبيعى الذى يستفتى التجربة ولا يذعن لغير جوابها . . . للوضعيين فى هذا دينهم ولنا دين ، وإن كان بين اتجاه هذا الكتاب واتجاههم صلات رحم ووشائج قربى . . .

حقيقة إن استبعاد التفكير الوضعى فى مجال الدراسات الفلسفية ضلال مبين ، ولكن قبول هذا التفكير لا يعنى قط أن الوضعيين كانوا على حق عندما استبعدوا من حسابهم كل ما عداه من وجوه النظر .

ثم قسّم الدكتور « توفيق الطويل » كتابه إلى خمسة أبواب ، شعبها إلى أربعة عشر فصلا :

الباب الأول — الفلسفة : مجالا ومنهجاً، وتحته فصلان هما : مجال الفلسفة ، وفى مناهج البحث فى الفلسفة .

الباب الثانى — الأنطولوجيا أو مبحث الوجود ، وتحته فصلان كذلك هما : ما بعد الطبيعة ، أو الميتافيزيقا ، وإنكار ما بعد الطبيعة عند الوضعيين : عرض ومناقشة .

الباب الثالث — نظرية المعرفة أو الأبستمولوجيا ، وتحته ثلاثة فصول

هى : إمكان المعرفة ، وطبيعة المعرفة ، ومنابع المعرفة وأدواتها .

الباب الرابع — مبحث القيم أو الإكسيولوچيا ، وتحته أربعة فصول هى : لمحة إلى القيم ومشاكلها ، والحق ، وعلم الحق ، والخير ، وعلم الأخلاق ، والجمال ، وعلم الجمال .

وقبل أن ننتقل إلى الباب الخامس نستمع إلى المؤلف فى صفحة ١٤ حيث يقول :

« بهذه الأبواب الأربعة كان يمكن أن ينتهى كتابنا عن « أسس الفلسفة » ولكن صدور الكتاب فى مصر ، وعلى يد مؤلف مصرى ، قد اقتضى التعقيب بباب خامس نعقده عن « الفلسفة الإسلامية » مجالا ومنهجاً ، التى أسلمنا الحديث عن مجالها إلى البحث فى « علم الكلام » و « التصوف » ، فى الإسلام ، على اعتبار أن « الكلام » و « التصوف » يدخلان فى نطاق الفلسفة الإسلامية .

الباب الخامس — الفلسفة الإسلامية ، وتحته ثلاثة فصول هى : مجال الفلسفة الإسلامية ، وعلم الكلام ، والتصوف الإسلامى .

وبهذا ينتهى التعريف بكتاب الدكتور « توفيق الطويل » من حيث المضمون والشكل ، أما من حيث الموضوع والبحث ، وأما من حيث المجال والمنهج . . . فإلى موضع آخر .

ولكننا لا نستطيع إلاَّ أن نشير الآن إلى هذه العبارة مرة أخرى ، وهى قوله فى صفحة ١٤ : « ولكن صدور الكتاب فى مصر على يد مؤلف مصرى ، قد اقتضى التعقيب بباب خامس نعقده عن الفلسفة الإسلامية : مجالا ومنهجا ... » .

ثم يكرر مثل هذه العبارة بأكثر ألفاظها فى صفحة ٤١٧ فيقول :

« ... وقد كان من الممكن أن ينتهى بهذا كتابنا لو كان يصدر فى بلد غير مصر ، أما والكتاب يصدر فى مصر ويكتبه مؤلف مصرى ، فقد اقتضى الأمر أن نختم هذه الدراسة بباب نعقده عن الفلسفة فى الإسلام ... » وأخذ بعد ذلك يتحدث عن الفلسفة الإسلامية : مجالها ، ومآخذها عن بعض المستشرقين ومناقشتها وغايتها ، ثم ينتقل إلى « علم الكلام » : علاقته بالفلسفة ، وبعض مظاهر الجدل ، والنظر العقلى عند المعتزلة والأشاعرة وخصوم علم الكلام فى الإسلام ، وأخيراً ينتقل « إلى التصوف الإسلامى » : نشأته وتطوره ومنهج المعرفة الصوفية ... كل ذلك فى خمسين صفحة من ٤١٥ إلى ٤٦٤ .

فأين يا ترى تحدث « الدكتور الطويل » عن « الفلسفة فى الإسلام » ؟! خصوصا من وجهة نظره هو ، أو من وجهة نظر الذين عاشوا حياتنا ؛ أو قريبا من حياتنا كمعاصرين .

أو حتى من وجهة نظر الذين عاشوا فى الزمان الذى أطلقوا عليه : « عصر النهضة » أو مابعده ، كمحدثين من فلاسفة المسلمين « المحدثين أوالمعاصرين » .

بل حتى من وجهة نظر الذين تحدثوا عن « الفلسفة فى الإسلام » أو عند المسلمين .

إننا : نود ونرجو ، ونلح ، وندعو بالتوفيق .

كما لا نستطيع إلا أن نشكر الآن على هذه الفكرة الجميلة المجاملة ، وهى : ربط الكتاب وموضوعه أو مضمونه بالبلد الذى صدر فيه الكتاب ، أو بمكان صدوره ، وبالجنسية الوطنية المحدودة للمؤلف وقت ظهوره ... فهو يكرر العبارات التالية :

« ولكن صدور الكتاب فى مصر على يد مؤلف مصرى ، لو كان يصدر فى بلد غير مصر ، أما والكتاب يصدر فى مصر ، ويكتبه مؤلف مصرى » .

وجهل أيضاً أن يجامل المؤلف عقيدة الأغلبية الغالبة من السكان فى مكان صدور الكتاب وإقامة المؤلف أو جنسيته ؛ فيجامل المؤلفُ المصريُّ — فى كتاب يصدر فى مصر — عقيدة المسلمين ومشاعرهم ؛ فيكتب عن فلسفتهم ، وإن كانت على الاصطلاحات القديمة ، وعن الكثير من المسلمين .

وكم كنا نود أن يبرز « الدكتور الطويل » العنصرَ الحقيقى فى التأليف وركيزته ، أو على الأقل المجاملة الحقيقية لذات المؤلف وعقيدته ، أو لذات أبناء دينه وفلسفتهم ؛ خصوصا إذا كانت سليمة حقة ، لا ريب فيها ، ولا مطعن عليها ، ولا سبيل إلى الإتيان بمثلها ، مهما حاول المستعمرون وأراد الكائدون أو المتربصون ، فإنهم يريدون . . . . ويريدون . . . ويريدون .

« يُرِيدُونَ أَنْ يُطفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرون * هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » . (سورة التوبة رقم ٩ الآيتان ٣٢ و ٣٣) .

أما السكان ، وأما البلد ، وأما الوطن ، فلا شأن لها بالعلم والفلسفة ، إلا أن يكون ذلك من حيث التأريخ : تجميعه وتنسيقه ، وتحقيقه .

فالعلم لا مكان له ؛ وإن وجب أن يكون له منهج ، وطريقة ، وخطة .

والفلسفة لا وطن لها ؛ وإن وجب أن تكون لها عقيدة ، وحقيقة ، وفطرة .

أما وقد أصرَّ « الدكتور الطويل » على مكان صدور الكتاب فى « مصر وعلى جنسية المؤلف ، وأنه « مصرى » فكم نودّ أن يملأ الفراغ المفزع

فى المكتبة العالمية عن « الفلسفة المصرية » ؛ نعم « الفلسفة المصرية فى جميع أدوارها . . . من قديمها إلى جديدها .

خصوصاً وهو يقول فى صفحة ٢٥ : « وفى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح ، وضع « ديوجانس اللايونى » كتابا ضمنه مشاهير الفلاسفة ونظرياتهم، وعرض فيه للحديث عن فلاسفة مصريين وشرقيين ، فارتد بنشأة الفلسفة إلى تراث الشرق القديم ، ورأيه فى هذا لا يعدم أنصاراً بين المحدثين » .

ويقول فى صفحة ٢٦ : « ويكاد ينعقد الإجماع على أن الشرق القديم قد سبق اليونانيين إلى ابتداع حضارات مزدهرة ، تقوم على علوم عملية ناضجة ، ودراسات نظرية دينية قيمة ، فأما عن العلوم العملية فحسبنا أن نشير إلى أن قدماء المصريين كانوا أول من ابتدع الرياضيات والميكانيكا ، والكيمياء ، وأول من اخترع الكتابة ، وأنشأ الكتاب ، وأقام المكتبات ، وشاد دور الكتب . . . ثم يقول فى الهامش رقم (١) : (أقدم عملية حسابية تتألف من أرقام متعددة وجدت على ورقة بردى مصرية — لا تزال محفوظة فى المتحف البريطانى — وقد نسخت منذ ستة وثلاثين قرنا من أصل أقدم منها بكثير .) .

وفى الهامش رقم (٢) من علم الكيمياء (اشتق اسمه من الكلمة المصرية القديمة « كيمى » أى الأرض السوداء . . .) .

ثم هو فى صفحة ٢٧ يقول : « وكثير من فلاسفة اليونان الذين قيل إن الفلسفة قد نشأت على يدهم كطاليس، وفيثاغورس، وديمقريطس .. . قدموا بلاد الشرق القديم ، واتصلوا بثقافتها ، ونهلوا من معينها ، باتفاق المؤرخين... »

وفى الهامش يقول : (زار الثلاثة مصر ، وأقام ثانيهم بها نحو ٢٢ عاما ..) .

فهل يمكن أن يتفق هذا مع قوله فى نفس الصفحة : « ولكن جمهرة المحدثين

من مؤرخى الفلسفة . . . متفقون على أن الفلسفة اليونانية «خلق عبقرى أصيل جاء على غير مثال »؟ ... فأى الاتفاقين أو الإجماعين صحيح ؟ الذى يعنينا الآن من كل هذا أن يكتب المؤلف المصرى فى مصر ، لمصر ، عن مصر : فلسفة وتاريخاً ما دام الكتاب يصدر فى مصر كما يقول « الدكتور الطويل » الذى يردد مع « بربيه » فى صفحة ٣١ قوله : « ولكن من السذاجة اليوم أن يظن ظان أن الفلسفة اليونانية كلها كانت نتيجة محتومة ، وتطوراً منطقياً للعبقرية اليونانية وحدها ، كما يقول الأستاذ «أميل بربيه» أستاذ الفلسفة بجامعة باريس . وهذا ما فعله الأستاذ « ماسيون أورسيل » الذى يقول : إنه ليس ثمة اليوم إنسان يعتقد أن اليونانيين والرومان وشعوب أوربا فى عصورها الوسطى والحديثة هم وحدهم أهل التفكير الفلسفى . . . ولكن « الدكتور الطويل » — مع هذا — يختم هذا البحث « نشأة الفلسفة » بقوله فى صفحة ٣٣ : « . . . ولكن جمهرة مؤرخى الفلسفة لا يرحبون بهذا الاتجاه فى فهم الفلسفة وتصور معناها وتحديد نشأتها ، لأنهم يضيقون مدلولها حتى يتعذر إطلاقه على حكمة الشرق القديم ، وتتقيد نشأته بفلسفة اليونان . . . . » .

فهل آن الأوان لمصرى أن يكتب عن « الفلسفة المصرية » ؟

وهل آن لمسلم أن يكتب عن « الفلسفة فى الإسلام » أو فلسفة الإسلام ؟ ؟

وهل آن للأزهر أن يسترد اللواء ، ويقيم البناء ، ويروى الظماء . . ؟ ؟

إننا ندعو ، ونلحف فى الدعاء .

* * *

٤ — وأخيراً نرى « يوسف كرم » فى كتابه « تاريخ الفلسفة الحديثة الذى طبع فى « دار المعارف » بمصر سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧م) يقول فى صفحة ٨ تحت

عنوان « أدوار الفلسفة الحديثة » : هذه المذاهب من الكثرة والتشعب بحيث يتعذر التمهيد لها ، والإشارة إليها بشيء من الدقة فى مقدمة عامة . . . ولكن ما إن يجيء القرن السابع عشر — وهو موضوع الباب الثانى من الكتاب — حتى تهدأ الثورة ، ويبدو ميل إلى الإنشاء بعد الهدم ، فتزدهر نهضة دينية ، وبخاصة فى فرنسا ، وتظهر أمهات المذاهب الحديثة ، وفى مقدمتها مذهب « ديكارت » الذى يزعم إقامة فلسفة مسيحية ويستمد عناصرها من القديس « أوغسطين » والقديس « أنسلم » و « دونس سكوت » ، ولكنه يبث فيها روحا مغايرة للدين ، ويتفلسف على أثره ما لبرانش ، وبسكال ، وسبينوزا ، وليبنتز ، فيبين كل منهم عن وجهة ستتكرر فى التالية . . . » .

وفى صفحة ٩ يقول : . . . ثم ينقلب الحال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . . . فينشب صراع بين المادية ، وقد وجدت أسلحة جديدة فى نظرية تطور الأحياء ، وأنصاراً عديدين فى ألمانيا وانجلترا ، أشهرهم دروين وسبنسر ، وبين الروحية يؤيدها فلاسفة فرنسيون ، ويستمر هذا الصراع . . . ويمكن القول بأنه لن ينتهى ، ولكن الروحية العصرية عرجاء ناقصة ، فإن الفلسفة الحديثة فى جملتها لا تؤمن بالعقل ومعانيه ومبادئه ، ولا تؤمن بجواهر ثابتة حتى تقول بنفس خالدة وإله شخصى مفارق للطبيعة ، فالروحانية مفتقرة فى الواقع إلى فلسفة وجودية موضوعية كفلسفة أرسطو ، ولا ندرى ما إذا كانت العقول العصرية تأخذ أنفسها بمثل هذه الفلسفة أو تمضى فى محاولاتها العقيمة ؟ »

ويقول فى خاتمة كتابه صفحة ٤٤٦ : « ألم تر أن لكل أمة عقلية خاصة تغلب على تفكير أبنائها وتلون فلسفتها ؟ وأن مذهب الفيلسوف يفسر بتكوينه

العقلى ، والخلقى ، بل الجسمى أيضا ؟ وتداول المذاهب هذا يجعلنا نقول إن تقدم الفلسفة قد حدث فى الفروع والتفاصيل منذ عهد اليونان دون الأصل واللب ، وإن مذاهب الفلاسفة المحدثين تأليفات جديدة لعناصر كانت معروفة . . . حتى لقد صارت الفلسفة فنا من الفنون تابعا للذوق الشخصى والتجربة الذاتية ، وذاع الشك فى إمكان الوصول إلى حقيقة مشتركة مطلقة ، ولكن ما لهذا فكر العقل ، وما بهذا يمكن أن يقنع . . .

ثم يختم كتابه بقوله : « والفكر الحديث متردد بين إنكار للعقل وقناعة بالحس فقط ، وبين إيمان بعقل مقطوع الصلة بالوجود ! ولعل إخفاق التجارب ونفاذ الحيل يعودان به إلى الحق يوماً ما » .

ليس من غرضنا الآن أن نناقش أو ندخل فى التفاصيل ، وإنما الغرض أن نبين اضطراب المؤلفين والمؤرخين للفلسفة الحديثة فى الجملة ، بل فى التفاصيل ، وحتى فى النماذج ، والمناهج ، والاتجاهات ، والأصول .

وها هو « يوسف كرم » يقسم كتابه إلى ستة أبواب :

يدير الباب الأول على عصر النهضة تحت عنوان « بين القديم والجديد » ويُفصّل ذلك فى خمسة فصول ؛ هى على التوالى : أفلاطونيون — رشديون — علماء — نقاد — فلاسفة مستقلون ،

ثم يعقد الباب الثانى على أمهات المذاهب الحديثة ، ويقسمه إلى ثمانية فصول، تشمل القرن السابع عشر الميلادى ، ثم ينتقل إلى الباب الثالث الخاص بالقرن الثامن عشر الميلادى تحت عنوان « تحليل ونقد » ويقسمه إلى مقالات ثلاث : هى الفلسفه فى كل من انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وتضم الفلسفة فى انجلترا فصولا خمسة بالعناوين التالية : الفلسفة والطبيعة ، الفلسفة الخلقية والاجتماعية

جورج باركلى ، ديفيد هيوم ، توماس ريد ، وتضم المقالة الثانية — وهى تخص الفلسفة فى فرنسا — أربعة فصول على التوالى هى كونديياك ، الفلسفة الطبيعية ، مونتسكيو ، جان جاك روسو . أما المقالة الثالثة فخاصة بالفلسفة فى ألمانيا تحت عنوان : إما نويل كانط فى فصول ثلاثة هى حياته ومصنفاته ، نقد العقل النظرى ، نقد العقل العملى ، ثم ينتقل إلى الباب الرابع فيخصصه للنصف الأول من القرن التاسع عشر ، ويحدد له العنوان التالى : « تركيب وبناء » ويقسمه أيضا إلى مقالات ثلاث : المقالة الأولى : الفلسفة فى ألمانيا ، فى خمسة فصول عناوينها أفراد ؛ هم : فختى ، شيلنج ، هجل ، شوبنهور ، هربارت . والمقالة الثانية « الفلسفة فى فرنسا » فى فصول ثلاثة ؛ عناوينها مذاهب هى : المذهب الروحى ، المذهب الفلسفى ، المذهب الواقعى ، وتحت كل مذهب يذكر طائفة من الفلاسفة . والمقالة الثالثة : الفلسفة فى انجلترا فى فصول ثلاثة أيضا هى : المذهب الحسى ، الرومانتية ، فلسفة النسبية .

ثم يقفز إلى الباب الخامس الذى يحدد له النصف الثانى من القرن التاسع عشر للميلاد ، ويضع له عنوانا هو : « مادية وروحية » ويفصله فى مقالات ثلاث كذلك :

المقالة الأولى — الفلسفة فى انجلترا ؛ وتحتها أربعة فصول عناوينها : جون ستوارت مل ، تشارلس دروين ، هربرت سبنسر ، الحركة الدينية .

والمقالة الثانية — الفلسفة فى فرنسا ، وتحتها فصول ثلاثة هى : بين الواقعية والروحية ، فلاسفة الحرية (طبقة أولى) ، فلاسفة الحرية (طبقة ثانية) .

والمقالة الثالثة — الفلسفة فى ألمانيا ؛ فى فصول ثلاثة أيضا هى : ميتافيزيقا وعلم نفس ، مادية ، أخلاق .

ثم ينتقل إلى الباب السادس والأخير ، وهو الخاص بالنصف الأول من القرن العشرين الميلادى ، ويجعل له عنوانا هو : « تقديم العمل على النظر » فى أربعة فصول عناوينها كما يلى :

الفلسفة فى أمريكا : الفلسفة فى انجلترا ، الفلسفة فى فرنسا ، الفلسفة فى ألمانيا ، وتحت هذا الفصل : « فلسفة الظواهر » .

وهذا الباب الأخير يقول فى التمهيد له بصفحة ٣٩٨ : « بدأ العصر الحديث بتمجيد العقل حتى أعلى كلمته فوق كل كلمة ، فجعل منه الحكم الأخير فيما يوجد وما لا يوجد ، وفي يصدق وفيما يكذب ، ذلك كان الحال عند ديكارت . . . ولكن الفلاسفة الحسيين . . . هاجموا المعانى والمبادىء العقلية هجوما عنيفا « فظن كنط أنه ينقذها إذا اعتبرها مجرد صيغ جوفاء لتنظيم التجربة ، وجاء مذهب التطور . . . ولقد أدى الجمع بين نقد كنط ونظرية التطور إلى طائفة من المذاهب الحيوية ، لا تحفل بتبرير العلم والميتافيزيقا تبريراً نظريا ولا تغار على مبادىء العلم . . . بل تمثل العقل العملى محولا إلى قوة فاعلية ، وأظهر ما يكون هذا الموقف فى أمريكا وانجلترا . . . وهذه أول مرة نذكر الفلسفة الأمريكية ، وقد أخذ العالم الجديد يساهم فى جميع فروع النشاط العقلى ، وهذه الفلسفة داخلة من غير شك فى نطاق هذا الكتاب ، ورجالها أوروبيو الأصل واللغة ، وما انتهت [الجهود العقلية عند الجميع] إلا إلى الشك فى العقل والحيرة فى مصير الانسان » .

بهذا ينتهى « يوسف كرم » . .

* * *

(ج) وهكذا نرى . . .

وهكذا نرى اضطراب المؤلفين جميعا ، فى الشرق والغرب ، حول ما يسمونه الفلسفة الحديثة أو المعاصرة . . .

فلا اتفاق ولا وفاق ، بل هو الخداع والشقاق ، والأنانية والنفاق . . . والتدمير والتخريب الذى انتقل من الفلسفة إلى الواقع ، ومن العلم النافع المفيد إلى العمل الناقع المبيد . . .

بل هو التدبير للتدمير ، والفجور بالتفجير ، والتخريب باسم التعمير . . . فاختل نظام السلام العالمى ، وانفلت الزمام الإنسانى ، واضطرب الكوكب الأرضى ، تحت أقدام الجنس البشرى . . .

فاللهم : ألاَ من عاصم للإنسانية ؟

واللهم : ألاَ من منقذ للبشرية ؟

واللهم : ألاَ من حَبْل متين ، يعتصم به المؤمنين ، ويتواصى به المخلصون ؟

فقد انحرف العالمون والعاملون عن الصراط المستقيم . .

واللهم يارب العالمين ، إياك وحدك نعبد ، وأياك وحدك نستعين ،

فاللهم: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ؛ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ» آمين .

الباب الأول

الفصل الثالث

من أحكام المتخصصين

١ – ابراهيم مدكور ويوسف كرم — فى كتابهما : دروس فى تاريخ الفلسفة .

٢ – عبد الحليم محمود — فى كتابيه : التفكير الفلسفى فى الإسلام ، و القرآن والنبى .

٣ – محمد إقبال — فى كتابه : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام .

٤ – نديم الجسر — فى كتابه : قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن.

٥ – عبد الواحد يحيى (رينيه جينو) — فى كتاب : الفيلسوف المسلم .

٦ – مصطفى عبد الرازق — فى كتابه : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية .

٧ – محمد عبد الله دراز — فى كتابه : « الدين » .

ثم – أما بعد ، فيابنِى العروبة ، ويابنِى الإسلام . . .

من أحكام المتخصصين

ثم بعد هذا الاضطراب المضطرب فى « الفلسفة الحديثة » وموضوعاتها جميعا ؛ من حيث التأليف أو التصنيف ، ومن حيث التأريخ أو التعريف . . . يجب أن نقف قليلا عند بعض الأحكام من بعض المتخصصين ؛ لنضع الأمور فى نصابها ، بعد أن نكون على بينة من أمرها ، وبعد أن تنكشف لنا من جميع وجوهها .

* * *

١ — يقول الدكتور « إبراهيم بيومى مدكور » فى كتابه « دروس فى تاريخ الفلسفة » الذى ألفه معه « يوسف كرم » وطبع فى لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٦٤ هـ ١٩٤٤ م) فى صفحة ١١٢ « . . . ويمكننا أن نقول بوجه عام إن دراسات القرون الوسطى انتهت فى القرن الرابع عشر ، وأعقبها عصر النهضة الذى دام طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم أذن القرن السابع عشر بالفلسفة الحديثة التى شقت طريقها إلينا سائرة فى سبيل التقدم والنجاح .

« ليست هذه الفلسفة بالحديثة زمنا فحسب ؛ بل حديثة أيضا فى خصائصها ومميزاتها ، وطرقها ، ومناهجها ، وطائفة غير قليلة من أبحاثها وموضوعاتها ، فرفض رجالها ذلك التسليم الأعمى والانقياد المطلق الذى اشتهر به المدرسيون ودعوا إلى شيء من الشك والريبة ، وحكموا العقل فى الأمور المختلفة ، وتخلصوا من سلطتى رجال الكنيسة وأرسطوطاليس فى آن واحد ، ففصلوا الدين

عن الفلسفة كى يتسنى لهم أن يبحثوا فى طلاقة . وأن يفكروا فى جرأة وحرية . . . » .

ثم هو فى الصفحة التالية مباشرة رقم ١١٣ يقول : « بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن هذه الفلسفة ، وإن تكن حديثة فى بعض مظاهرها ، قديمة فى مظاهر أخرى ، ومن العبث أن يظن أن التفكير الفلسفى اتخذ فى القرن السابع عشر اتجاها يخالف من جميع الوجوه كل الاتجاهات السابقة ، وأن هناك انقطاعا أو تباينا تاما بين الفلاسفة القدامى والمحدثين . . وديكارت أبو الفلسفة الحديثة لم يخترعها اختراعا ولم يبتكرها ابتكاراً ، فقد ثبت اليوم أنه سُبق إلى كثير من أفكاره ، وتأثر بمن عاصروه ومن تقدموه . وبيكون مؤسس المنهج التجريبى لم يعمل شيئا فى الواقع إلا أنه جارى النهضة العلمية الحديثة ، وصاغها فى قواعد مضبوطة ، ففى الفلسفة الحديثة إذن أقدار من الفلسفات التى سبقتها ، لا فرق بين شرقية وغربية عربية ويونانية ، يهودية ومسيحية . وواجبنا هنا أن نربط الحديث بالقديم ، وأن نبين علاقة الأفكار بعضها ببعض وتدرجها الواحدة بعد الأخرى . » .

* * *

٢ — ويقول الدكتور « عبد الحليم محمود » فى كتابه « التفكير الفلسفى فى الإسلام » الجزء الثانى الذى نشرته مكتبة الانجلو المصرية سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) من صفحة ٦١ إلى صفحة ٦٤ تحت عنوان « نحو الإنصاف » :

« على أن الله قد وفق رجالا منصفين من الغرب لرد هجمات التعصب والهوى ، الصادرة من بنى وطنهم ، ونكرر القول بأنهم ليسوا من المستشرقين ، ولا من أذناب الاستعمار ، ومن أمثلة ذلك :

الأستاذ كاردانوس : وهو فيلسوف ورياضى إيطالى ، يقول عن « الكندى » : إنه واحد من بين الاثنى عشر الممتازين فى العالم .

ويقول الأستاذ فلنت عن ابن خلدون :

« إن أفلاطون وأرسطو وأوجستين ، ليسوا نظراء لابن خلدون ، وكل من عداهم غير جديد حتى بأن يذكر إلى جانبه .

أما فيما يتعلق بالثقافة الإسلامية ، ككل ، وأنها كانت إلهاما ، ومصدراً ، وعاملا أساسيا للحضارة الغربية ، فإنا نستسمح القراء فى أن ننقل ما يلى عن كتاب : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » للدكتور محمد إقبال : ترجمة الأستاذ عباس محمود :

يقول الدكتور محمد إقبال : لقد كانت أوربا بطيئة — نوعا ما — فى إدراك الأصل الإسلامى لمنهجها العلمى ، وأخيراً جاء الاعتراف بهذه الحقيقة .

وسأتلو عليكم فقرة أو فقرتين من كتاب : « بناء الإنسانية » الذى ألفه « بريفولت » ، يقول « بريفولت » :

« إن « روجر بيكون » درس اللغة العربية والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب فى الأندلس ، وليس « لروجر بيكون » ولا لسميّه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية ، وهو لم يملّ قط من التصريح بأن تعلّم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة . والمناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى ، هى طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية .

وكان المنهج العربى التجريبى فى عصر « بيكون » قد انتشر انتشاراً واسعا ، وانكب الناس — فى لهف — على تحصيله فى ربوع أوربا .

لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج .

إن العبقرية التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا لم تنهض فى عنفواتها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام ، ولم يكن العلم وحده هو الذى أعاد إلى أوربا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية .

. . فإنه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحى الازدهار الأوربى إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة ؛ فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون : فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفى المصدر القوى لازدهاره ؛ أى فى العلوم الطبيعية ، وروح البحث العلمى .

إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ، ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة فحسب ، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا ؛ إنه يدين لها بوجوده نفسه .

فالعالم القديم — كما رأينا — لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية ، استجلبوها من خارج بلادهم ، وأخذوها عن سواهم ، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية ، وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى . . . كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى .

ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا بالإسكندرية فى عهدها الهلينى .

أما « ما ندعوه » العلم ، فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة : لطرق التجربة ، والملاحظة ، والمقاييس ، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح ، وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى » . اهـ

أما بعد ، فإن أملنا الوحيد ، وهدفنا من كل ما تقدم إنما هو الإنصاف ، ولعل أبناء الشرق فى تقدمهم السريع فى سلم الحضارة ، يدركون مكانتهم الممتازة ، فيعملون على إظهارها ، ويتابعون العمل للوصول إلى المساهمة الفعالة فى السير بالإنسانية نحو التقدم والرقى ، وبالله التوفيق » .

ثم يقول د/ عبد الحليم محمود فى كتابه « القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم » الذى نشرته دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م ضمن سلسلة « فى إحياء المفاهيم الإسلامية » فى صفحة ٣٧٠ وما بعدها ما نصه :

« إن الغربيين يريدون بكل وسيلة القضاء على الإسلام كقوة لها ذاتيتها وأصالتها ومنهجها فى الحياة ، وهم يستخدمون فى ذلك كل الوسائل » . . . وكثيراً ما يرافق الاستشراق المدفع والدبابة فى الأقطار المستعمرة ، وهدف

الاستشراق إفساد ما يمكن إفساده من الدين وبالتالى من الخلق ، وقد وضح على مر الأيام — أن خصائص الاستشراق تنحصر فيما يلى :

١ — أنه متأثر بالبيئة التى نشأ فيها المستشرقون ، وقد عبر عن هذه الحقيقة أبلغ تعبير أحد الغربيين الذين كانوا يريدون معرفة الحقيقة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقد قرأ كتبا عنه بعدة لغات ثم قال : إن صورة نبى الإسلام صورة فرنسية إذا كانت بقلم الفرنسيين ، وهى ألمانية إذا كانت بقلم الألمانيين ، وهى أمريكية إذا كانت بقلم الأمريكيين ، و . . . وهذا فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية .

٢ — أنه متأثر بالبيئة الدينية ، ومن الطبيعى الواضح أنه إذا كان المستشرق مؤمنا بدينه فإنه يكتب عن الإسلام على أنه دين مزيف ، ولا أدرى كيف يعزب ذلك — مع بداهته — عن أذهان المسلمين الذين يقرءون الإسلاميات بقلم المستشرقين فيولونهم شيئا من الثقة أو يولونهم كل الثقة على حسب درجة استعداد القارىء للتقليد والمتابعة .

٣ — من المعروف اليقينى أن الاستشراق — فى أغلبه يسير فى ركاب الاستعمار أو فى ركاب الكنيسة . . .

٤ — أن طائفة من المستشرقين مستعدة لأن تسير فى أى ركاب ؛ لأنها تسير فى ركاب الشيطان ، وتلك هى طائفة المستشرقين اليهود ، وكتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » أو كتاب « الخطر الصهيونى » يبين فى وضوح أن اليهود آلوا على أنفسهم أن يفسدوا على الإنسانية دينها وخلقها وثقافتها .

ولقد كان (جولد زيهر) حركة لا تفتر فى الإفساد والتشويه ، وساعده على ذلك مال اليهود ودعايتهم ، فترجموا ونشروا أفكاره فى كل مكان ، حتى لقد

ترجمت كتبه الخبيثة إلى اللغة العربية نفسها . . . إن المستشرقين وأتباعهم من الملاحدة والمأجورين والمقلدين هم الوضاعون فى العصر الحاضر [الذين يضعون الأحاديث من عند أنفسهم وينسبونها كذبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

* * *

٣ — إن « محمد إقبال » شاعر الهند وفيلسوفها الكبير يقول فى كتابه : « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » الذى ترجمه « عباس محمود » وراجعه « عبد العزيز المراغى » و « مهدى علام » وطبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م ، فى الصفحات ١٤٧ و ١٤٨ و ١٤٩ ما يلى :

« . . . والنظّام — فيما أظن — كان أول من قرر أن « الشك » بداية لكل معرفة ، ثم جاء « الغزالى » فأفاض فى ذلك ، فى كتابه « إحياء علوم الدين » ومهد السبيل لمنهج ديكارت . ولقد كان « الإشراقى » و « ابن تيمية » هما اللذان نهضا إلى نقد المنطق اليونانى ، نقداً علمياً منظما ، ولعل « أبا بكر الرازى » كان أول من نقد الشكل الأول عند أرسطو ، واعترض عليه باعتراض جاءه فى زماننا هذا « جون ستيوارت مل » فنظر إليه نظرة قائمة على روح التفكير الاستقرائى ، وصاغه فى صورة جديدة .

وفى كتاب « التقريب فى حدود المنطق » يؤكد « ابن حزم » أن الحس أصل من أصول العلم ، و « ابن تيمية » يبين فى كتابه المسمى « نقد المنطق » أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين ، وهكذا قام المنهج التجريبى القائل بأن « الملاحظة » و « التجربة » هما أساس العلم وأصله ، لا التفكير النظرى المجرد .

وكشفُ « البيرونى » عما نسميه « زمان الانفعال » ، وكشفُ « الكندى »

لتناسب الحس مع الدافع : مثلان على تطبيق هذا المنهج التجريبى على علم النفس، فالزعم بأن أوربا هى التى استحدثت « المنهج التجريبى » زعم خاطىء .

يقول « ذوهريج » : إن آراء « روجر بيكون » فى العلوم أصدق وأوضح من آراء سميه المشهور : [فرنسيس بيكون] .

ومن أين استقى « روجر بيكون » ما حصله فى العلوم ؟ !

من الجامعات الإسلامية فى الأندلس ، والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذى خصصه للبحث فى « البصريات » هو فى حقيقة أمره نسخة من كتاب « المناظر ، لابن الهيثم » المتوفى بالقاهرة حوالى عام ٤٣٠ هـ — ١٠٣٩ م

وكتاب « بيكون » فى جملته ، شاهد ناطق على تأثره « بابن حزم » .

وهو فى صفحة ٢٠٧ و ٢٠٨ يقول « إن الإنسانية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور : تأويل الكون تأويلا روحيا ، وتحرير روح الفرد ، ووضع مبادىء أساسية ذات أهمية عاطفية توجه تطور المجتمع الإنسانى على أساس روحى . ولا شك أن أوربا فى العصر الحديث قد أقامت نظما مثالية على هذه الأسس ، ولكن التجربة بينت أن الحقيقة التى يكشفها العقل المحض لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان القوى الصادق ، تلك الجذوة التى يستطيع الدين وحده أن يشعلها .

وهذا هو السبب فى أن التفكير المجرد لم يؤثر فى الناس إلا قليلا ، فى حين أن الدين استطاع دائما أن ينهض بالأفراد ، ويبدل الجماعات بقضها وقضيضها ، وينقلها من حال إلى حال .

إن مثالية أوربا لم تكن أبداً من العوامل الحية المؤثرة فى وجودها

ولهذا أنتجت ذاتا ضالة أخذت تبحث عن نفسها بين ديمقراطيات لا تعرف التسامح ، وكل همها استغلال الفقير لصالح الغنى .

وصدقونى : أن أوربا اليوم هى أكبر عائق فى سبيل الرقى الأخلاق للإنسان .

أما المسلم فإن له هذه الآراء النهائية القائمة على أساس من تنزيل يتحدث إلى الناس من أعماق الحياة والوجود . . والأساس الروحى للحياة عند المسلم هو إيمان يستطيع أقلنا استنارة أن يسترخص الحياة فى سبيله .

وبما أن القاعدة الأساسية فى الإسلام تقول إن « محمداً » صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ، فإنه ينبغى أن نكون من أكثر شعوب الأرض فى الحرية الروحانية . . . فعلى المسلم اليوم أن يقدر موقفه ، وأن يعيد بناء حياته الاجتماعية على ضوء المبادىء النهائية ، وأن يستنبط من أهداف الإسلام — التى لم تتكشف بعد إلا تكشفا جزئيا — تلك الديمقراطية الروحية التى هى منتهى غاية الإسلام ومقصده .

وفى صفحتى ٢١٥ و ٢١٦ يقول : « وهكذا . . . فإن الإنسان العصرى ؛ وقد أعشاه نشاطه العقلى ، كف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة ، أى إلى حياة روحية تتغلغل فى أعماق النفس ؛

فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع نفسه ؛

وهو فى مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية فى كفاح صريح مع غيره ؛

وهو يجد نفسه غير قادر على كبح أثرته الجارفة ؛

وحبه للمال حبا طاغيا يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة .

وقد استغرق فى « الواقع » ، أى فى مصدر الحسّ الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده ، تلك الأعماق التى لم يسبر غورها بعد .

وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية ، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه ، والذى أدركه « هكسلى » وأعلن سخطه عليه :

هذه هى حال الغرب ، وليست حال الشرق خيراً منها . . .

وفى صفحة ٢١٧ يقول : « ولا ريب فى أن اللحظة الحاضرة تمثل أزمة خطيرة فى تاريخ الثقافة العصرية ، وقد أصبح العالم يوم مفتقراً إلى تجديد « بسيولوجى » ، والدين الذى هو فى أسمى مظاهره ليس عقيدة فحسب أو كهنوتا أو شعيرة من الشعائر ، هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصرى إعداداً خلقيا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التى لابد أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث ، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان التى تجعله قادراً على الفوز بشخصيته فى الحياة الدنيا ، والاحتفاظ بها فى دار البقاء . . . » .

وأخيراً يختم « محمد إقبال » كتابه ، شاعراً ، يقول فى صفحة ٢٢٧ :

« فاستأنف تهذيب إطارك القديم ، وأقم كيانا جديداً ، مثل هذا الكيان هو الكيان الحق ، وإلا فذاتك لا تزيد على أن تكون حلقة من دخان » .

* * *

٤ — يحكى الشيخ « نديم الجسر » مفتى طرابلس ولبنان الشمالى ، فى كتابه : « قصة الإيمان — بين الفلسفة والعلم والقرآن » طبع بيروت سنة ١٣٨٠ ﻫ — ١٩٦١ م فى صفحتى ١٢٥ و ١٢٦ . . . فيقول :

« إن باكون يرى أن أول خطوة لدراسة الفلسفة تبدأ بدراسة الطبيعة ، وبعد أن نستوفى درس ظواهر الطبيعة ، ونقف على قوانينها الخاصة ، يصح أن

ننتقل إلى دراسة القوانين العامة التى تنطوى تحتها القوانين الخاصة، ولا نزال نترق حتى نصل إلى القانون العام الأكبر الذى تنطوى تحته كل القوانين ، و نصل إلى البديهيات التى تكون صحيحة فى أى علم ، وبهذه البديهيات تمكننا دراسة الأسباب العليا التى نشأ عنها الكون، والوصول إلى ميتافيزيقيته السّامية » .

وكما أن « فرنسيس بيكون » يتلاقى فى هذه النظرة الشاملة إلى الفلسفة مع « ابن رشد » الذى يذهب إلى معرفة الله [تعالى] عن طريق « درس الجزئيات » من آياته فى مخلوقاته ، وفيما أقيم عليه الخَلق من النظم الكاملة ، والنواميس الشاملة ، ويتلاقى مع ابن مسكويه وابن طفيل فيما قالا به من إمكان الوصول إلى إدراك وجود الله ، من طريق العقل بالنظر الفلسفى الخالص ، فيقول كلمته الحكيمة المشهورة : « إذا كان قليل من الفلسفة يُبعد عن الله تعالى ، فالكثير منها يردّ إلى الله » فإن روجر بيكون يتلاقى مع معاصره « توماس أكويناس » ، ومع « القرآن » على الإيمان بالله ، والعجز عن إدراك كنه ذاته سبحانه ، عند النظر فى حقيقة « ذبابة » فيقول : « إنه لا يوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة وخواصها ، فضلا عن أن يعرف كنه ذات الله » فكأنه يتلو نص الآية فى قوله تعالى : «يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ، فَاسْتَمِعُوا لَهُ : إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطْلُوبُ*مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » ، فتأمل « يا حيران » .

وفى صفحتى ٤٤٤ و ٤٤٥ يحكى الشيخ « حسين الجسر » — وهو والد

المؤلف ، ومؤلف كتاب « الرسالة الحميدية فى الفلسفة » الذى ألفه ونشره سنة ١٣٠٦ هـ — ١٨٨٨ م قوله لتلميذه « الموزون » : ... « ولكنى أنصحك أن تكثر من قراءة الفلسفة ، حتى لا تترك منها شيئاً ، وتكثر من قراءة علوم الطبيعة ، وتكثر من قراءة القرآن ... إن الفلسفة بحر على خلاف البحور ؛ يجد راكبه الخطرَ والزيغَ فى سواحله وشطآنه ، والأمانَ والإيمانَ فى لججه وأعماقه ... ؛

فاقرأها بصبر وأناة ، ولا تترك شيئا مما قاله الفلاسفة عن وجود الله وأحديّته ، ثم اجمع أقوالهم ، وقارن بينها ووازن ، ثم اجمع من القرآن كل الآيات الدالة على وجود الله واقرأها بتدبر ، على ضوء ما قرأت من الفلسفة والعلم ، وارجع فى التوفيق بين العلم والدين إلى تحكيم العقل ، وسوف تجد نفسك ، بعد ذلك فى أحضان الإيمان واليقين ... » .

ويحكى فى صفحات ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ما يأتى : يقول « الجسر » الماديين : إنى رأيت لكم شبهات ثلاثا تحول دون اعتقادكم بوجود الله تعالى ، وبأنه خالق الكون من العدم :

الأولى — عجز العقول عن تصور كنه هذا الإله العظيم الذى ليس كمثله شىء .

والثانية — قولكم إن عقولنا لا يمكن أن تتصور حصول شىء من لا شىء ، أى خلق المادة من العدم .

والثالثة — قولكم إنه لو كان نظام الكائنات بقصد وحكمة لكانت علامات القصد والحكمة تامة فى كل شىء ...

أما الشبهة الأولى فالجواب عليها : أنكم إذا نظرتم إلى منزلتكم فى العلم

وجدتم أنكم وأنتم أعاظم العلماء ، لا تزالون على شاطىء بحر عظيم ، لا تُعرف نهايته ولا يُسبَر غوره ، وطالما اعترف أكابركم بالعجز والتقصير فى معرفة كثير من أسرار الكون ، وحقيقة المادة التى بين أيديكم ، ترونها بأعينكم ، وتذوقونها بألسنتكم ، وتشمونها بأنوفكم ، وتصرفونها فى طرق الحياة والعيش . . . فإذا كان هذا شأنكم — وأنتم العلماء — فى معرفة أقرب الأشياء إليكم ، وألصقها وأمسّها بكم ، فهل تطمعون أن تصلوا بعقولكم إلى معرفة حقيقة الله تعالى . . . ؟ !

. . . وهل يرجو الإنسان الذى لا يعرف كيف يعرف ، ولا يُدرك كيف يدرك ، ولا يعقل كيف يعقل . . . أن يدرك حقيقة الله تعالى . . . »

. . . ثم يقول « الجسر » للماديين ، نفس ما قاله الفيلسوف الألمانى « ليبنتز » : « وإذا كانت عقولكم لا تتمكن من تصور هذا الإله ، فلا يلزم من ذلك عدم وجوده ، إذ أن كثيراً من الحقائق لم تتمكنوا من تصوّرها حق التصور ، وتكون فى الحقيقة موجودة ويقوم الدليل العقلى على وجودها . . . فعدم اقتداركم على تصور حقيقة الله لا يفيد استحالة وجوده ، وقياسكم إياه على ما شاهدتموه فى العالم المادى ، هو قياس مغلوط لوجود فارق بينهما ، ويكفى العقول أن تستدل على وجود الله وصفاته بآثاره . . . » .

* * *

٥ — يقول « رينيه جينو » أو « عبد الواحد يحيى » فى كتاب « الفيلسوف المسلم » الفرنسى ، الذى ألفه عنه الدكتور « عبد الحليم محمود » ونشرته مكتبة الأنجلو بالقاهرة فى صفحتى ٥٠ و ٥١ : « إن كثيراً من الغربيين لم يدركوا قيمة ما اقتبسوه من الثقافة الإسلامية أو يفقهوا حقيقة

ما أخذوه عن الحضارة العربية فى القرون الماضية ، بل ربما لم يدركوا منها شيئاً مطلقا ، وذلك لأن الحقائق التى تلقى إليهم حقائق مشوهة ، حظها من الصحة قليل ، فإنها تبالغ كل المبالغة فى الحط من شأن الثقافة الإسلامية ، والتقليل من قدر المدنية العربية ، كلما أتاحت الظروف لأصحابها ذلك .

ويلاحظ أن دراسة التاريخ فى المعاهد الغربية لا توضح هذا التأثير ، بل إن الحقائق تناولتها يد التحوير والتحريف قصداً فى كثير من الحوادث العظيمة الشأن الجليلة الخطر ، مثال ذلك ما هو شائع معروف من أن «أسبانيا» ظلت تحت الحكم الإسلامى عدة قرون ، بينما لا يذكر التاريخ الغربى قط أن « صقلية » والجزء الجنوبى الحالى لفرنسا كانا تحت الحكم الإسلامى أيضا ، وربما عزا البعض هذا الإهمال من المؤرخين إلى تعصبهم الدينى ، ولكن ما هى حجة المؤرخين المعاصرين — وغالبهم لا دينى — فى موافقتهم أسلافهم على قلب الحقائق ؟ !

لهذا ينبغى أن ندرك مقدار زهو الغربيين وكبريائهم الذى منعهم من إدراك الحقائق الصحيحة، ومقدار ما هم مدينون به للشرق . . .

وفى صفحة ٦٠ يقول : « ولكن الغربيين لا يريدون أن يعترفوا به [أثر الثقافة الإسلامية فى الغرب] فى وضوح ، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بفضل الشرق عليهم ، ولكن الزمن كفيل بتبيان الحقائق التى يريدون إخفاءها » .

وفى صفحتى ٧٤ و ٧٥ يقول : « إن الفلسفة الحديثة ، لأنها فردية شخصية ، قد وصل بها الأمر إلى إنكار البصيرة ووضع العقل فوق كل شىء ، ولقد جعلت منه — وهو الملكة الإنسانية المحضة — الجزء الأسمى من القوة الداركة

على أن ديكارت نفسه كان فى الحقيقة معنيا بالتطبيق العملى أكثر من عنايته بالعلم البحت ، وليس هذا كل شىء ، فإن الفردية الشخصية فى الفلسفة قد أدت بالضرورة إلى المذهب الطبيعى ، لأن كل ما هو خارج عن الطبيعة بعيد عن متناول الفرد باعتباره فرداً ، والمذهب الطبيعى ، وإنكار ما وراء الطبيعة ... هما شىء واحد .

وفى صفحة ٧٨ يقول : « وإذا كان ديكارت أوضح مثل للانحراف الحديث فإنه ليس المسئول عن ذلك وحده ، بل ليس أول المسئول عن ذلك » ...

* * *

٦ — يقول الشيخ « مصطفى عبد الرازق » فى كتابه « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » طبع « لجنة التأليف والترجمة والنشر » بالقاهرة سنة ١٣٦٣ هـ — ١٩٤٤ م فى صفحتى ٤ و٥ : « ولنا أن نعتبر بما يقوله « تِنِّمان » [المتوفى سنة ١٢٣٦ هـ — ١٨١٩ م] فى كتابه : « المختصر فى تاريخ الفلسفة » [الذى نشر لأول مرة بالألمانية سنة ١٢٢٩ هـ — ١٨١٢ م ونقله إلى الفرنسية سنة ١٢٤٦ هـ — ١٨٢٩ م الفيلسوف الفرنسى « كوزان » المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ — ١٨٤٧ م] معبرا عن رأى مؤرخى الفلسفة فى الفلسفة الإسلامية فى بداية القرن التاسع عشر ، ذلك بأن « بروكر » الألمانى المتوفى سنة [١١٨٤ هـ —] ١٧٧٠ م هو أبو تاريخ الفلسفة ، و « تنمان » هو الخليفة الحق « لبروكر » كما يقول « كوزان » .

يقول « تنمان » بعنوان « عرب » :

« العرب شعب مجبول على استعدادات قوية وثابة ، ولقد كان أولاً

صابئيا ثم استمد حماسة دينية وحربية من دين محمد المتوفى سنة ٦٣٢ م ، وهو دين شهوانى وعقلى معا ، ومن آثار خلفائه وتفاسيرهم لما يزعمونه وحيا أوحاه الله إلى هذا النبي ...

... ولكن عدة عقبات ثبطت تقدمهم فى الفلسفة ، وهذه العقبات هى :

١ — كتابهم المقدس الذى يعوق النظر العقلى الحر .

٢ — حزب أهل السنة ، وهو حزب قوى مستمسك بالنصوص .

٣ — أنهم لم يلبثوا أن جعلوا لأرسطو سلطانا مستبداً على عقولهم ، ذلك إلى ما يقوم دون حسن تفهمهم لمذهبه من الصعوبات .

٤ — ما فى طبيعتهم القومية من ميل إلى التأثر بالأوهام .

من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يصنعوا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو وتطبيقه على قواعد دينهم ، الذى يتطلب إيمانا أعمى ؛ وكثيراً ما أضعفوا مذهب أرسطو وشوهوه ...

وفى صفحة ٧ يقول : « على أن الآثار الفلسفية العربية لمّا تدرس إلا دراسة ضئيلة جداً لا تجعل علمنا به مستكملا » ،

ولا يدرى عاقل طبعا — مع هذا الاعتراف بالضآلة والنقص وعدم صحة الحكم — كيف إذن حكم عليها ؟ .

ثم يقول مصطفى عبد الرازق نفسه فى صفحتى ٨ و ٩ : « وقد لا يخلو حديث « تنمان » عن العوامل المثبطة لرقى الفلسفة عند العرب من نفحة العاطفة الدينية .

وتلك كانت يومئذ روح العصر ، حتى عند الفلاسفة المشتغلين بتاريخ الفلسفة من أمثال : « فيكتور كوزان » الفيلسوف الفرنسى الذى يقول فى محاضراته فى تاريخ الفلسفة بجامعة باريس .

قول « كوزان » :

« أيها السادة : المسيحية التي هي آخر ما ظهر على الأرض من الأديان ، هي أيضا أكملها ، والمسيحية تمام كل دين سابق ، وغاية الثمرات التي تمخضت عنها الحركات الدينية في العالم وبها ختمت . الدين المسيحي ناسخ لجميع الأديان كذلك كان الدين المسيحي : إنسانيا ، واجتماعيا ، إلى أقصى الغايات ، ومن أراد دليلا فلينظر ماذا أخرجت المسيحية وجماعة المسيحيين للناس ؟ : أخرجت الحرية الحديثة ، والحكومات النيابية ، ثم لينظر من دون المسيحية ماذا أخرجت منذ عشرين قرنا سائر الأديان ؟

ماذا أنتج الدين البراهمي ، والدين الإسلامي ، وسائر الأديان ! . . . التي لا تزال قائمة فوق ظهر الأرض ؟

أنتج بعضها انحلالا موغلا ، وبعضها أثمر استبدادا ليس له مدى .

أما أوربة المسيحية — لا سواها — فهي مهد الحرية ، ولو أن المقام والوقت يسعدان لأثبت لكم أن المسيحية التي كانت الحكومات النيابية ثمرة لها ، هي التي تستطيع وحدها أن تقوم هذه الصورة العجيبة من صور الحكم ، التي تؤلف بين النظام والحرية .

والمسيحية أيضا هي التي بعد أن صانت ذخائر الفنون والآداب والعلوم ، بعثتها بعثا قويا ، « المسيحية هي أصل الفلسفة الحديثة » .

وعقب قول « كوزان » هذا ، يقول « مصطفى عبد الرازق » :

« روح العصر من ناحية التعصب للجنس :

أما التعصب الجنسي — الذي تبدو له بوادر في كلام تنمان — فقد كان أيضا

فى روح العصر ، ولم يلبث « إرنست رينان » الفيلسوف الفرنسى المتوفى سنة[١٣٢١هـ —] ١٨٩٢ م أن زخرف له لباسا علميا من أبحاثه فى تاريخ اللغات السامية ، ثم جعله حملةً شعواء تصوب كتبه سهامها إلى الجنس السامى كله ، وشاركه فى حملته المستشرق الألمانى « كرستيان لاسن » المتوفى سنة[١٢٩٣ هـ —] ١٨٧٦ م» .

* * *

ومع هذا كله ، وبعد هذا كله، وفوق هذا كله ، نرى الشيخ « مصطفى عبد الرازق » — رحمه الله وعفا عنه — يكتب « كلمةفى جهودالغربيين »ص٢٧ ، وجهودهم فى ماذا ؟ فى الفلسفة ، وفى أية فلسفة ؟ ! فى الفلسفة الإسلامية ، وبأية لغة كتبت فى الأصل هذه الفلسفة ؟ ؟ طبعا باللغة العربية ، لغة الضاد المعجزة لغير العرب ، وبأى ذوق وإحساس انسابت ؟ ؟ ! طبعا من الذوق الدينى والإحساس الإسلامى ؛ المعجزين لغير المسلمين مهما أنصفوا ، فضلا عن الجاحدين المعاندين وقد أرجفوا ...

* * *

يقول الشيخ فى هذه الكلمة : « أما بعد . فإن الناظر فيما بذل الغربيون من جهود فى دراسة الفلسفة الإسلامية وتاريخها لا يسعه إلا الإعجاب بصبرهم ونشاطهم ، وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم ، وإذا كنا ألمعنا إلى نزوات من الضعف الإنسانى تشوب أحيانا جهودهم فى خدمة العلم ، فإنا نرجو أن يكون فى تيقظ عواطف الخير فى البشر وانسياقها إلى دعوة السلم العام، والنزاهة الخالصة والإنصاف والتسامح ، مدعاة للتعاون بين الناس جميعا على خدمة العلم باعتباره نوراً لا ينبغى أن يخالط صفاءه كدر » .

ولكنه — يرحمه الله — بين هذا الانثناء وذلك الثناء ، لا يسعه

إلا أن يصرخ بصوت بين الانكفاء والبكاء ، أو بين الإيقاظ والإحياء . . . قائلا فى صفحتى ٢٧ و ٢٨ :

« وليس ييئسنا من ذلك أن تهب فى بعض البلاد نزعات كانت ركدت ريحها ، ليس من شأنها أن تخلص نفوس الناس من عوامل العصبية والهوى ، مثل نظرية تفوق السلالة النوردية الشاملة لشعوب أوربا الشمالية ، التى تحيا فى ألمانيا لهذا العهد ، ومثل فكرة تفوق البيض على السود المنتشرة فى أمريكا الشمالية ، وفكرة تفوق الجنس الأبيض على الجنس الهندى التى دعت إلى تسمية المتولدين بين إنجليز وهنديين تسمية خاصة فى بلاد الهند وفى بلاد إفريقية الجنوبية ، بل نحن نرجو أن يغلب العلم والحق هذه النزوات التى لا يسندها علم ولا حق » .

* * *

٧ — يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « الدين » طبع المطبعة العالمية سنة ١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م ما نصه بصفحة ٩٢ وما بعدها :

. . . « إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق وتؤدى فيها الواجبات على وجهها الكامل ، فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون . . . إن العلم سلاح ذو حدين يصلح للهدم والتدمير . كما يصلح للبناء والتعمير . .

من أجل ذلك كان التدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية .

فهل عسيت أن يخالجك شيء من الشك فى مدى حاجة الجماعة فى مختلف الأمم والشعوب إلى ازدهار هذا الروح الدينى فيها ؟ وهل غرك أن دُوَلاً كبيرة أسست نهضتها فى عصرنا هذا على غير الدين ، وقد استتب النظام فيها ومكن لها فى الأرض ؟ .

إننا لا نريد أن نسبق الحوادث ، وأن نتنبأ بمصير هذا البنيان الذى أسس على غير تقوى من الله ورضوان . ولكننا نحب أن نتقدم لك نموذجاً ، لا من أقوال رجال الدين ، بل من أقوال أقطاب العلم وزعماء السياسة وقواد الحرب فى تلك الدول نفسها ، فاستمع إلى قول « روبرت ميلايكان » العالم الطبيعى الأمريكى : « إن أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات ، وقيمة الأخلاق؛ ولقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة ، وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ؛ بل يصير العلم نكبة على البشرية » ،

وقول الدكتور « ويلسون » الرئيس الأسبق للولايات المتحدة بأمريكا :

« وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها ، وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها . . . ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رءوس أموالنا وكل فرد خائف من الله محب لبلده » .

وقول الماريشال . « بيتان » عاهل الدولة الفرنسية فى خاتمة خطابه الذى أذاعه على أمته فى ٢٥ يونيه سنة ١٩٤٠ عقب توقيع الهدنة التى التمسها من زعيم ألمانيا المنتصرة :

« إنى أدعوكم أول كل شيء إلى نهوض أخلاقى » .

وقول الماريشال « مونتجومرى » فى خطبته أمام الجيش الثامن فى ٤ مارس ١٩٥١ :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاق ، ولا يمكن لقائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه ، ويقينى أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى . . . إن خطر الانحطاط الخلق فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو ، ولذلك لا نستطيع أن ننتصر فى معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شىء »

* * *

ثم ، أما بعد :

فيا بنى العروبة ويا بنى الإسلام ! هذا الذى سمعتم بعضه من التأريخ ومن الأحكام ، هو بعض الذى يقوله الغربيون عن العروبة وعن الإسلام . . .

أفرأيتم ما يقوله « تِنّمان » و « كوزان » و « رينان » وأمثالهم من الغربيين ، عن جهل وتعصب واندفاع ، عن الفلسفة وعن الدين ؟ ثم عن المسيحية وعن الإسلام ، وعن العرب والمسلمين ؟ !

يقررون عن جهل بالمسيحية السمحة : أن المسيحية هى أصل الفلسفة الحديثة ، وأن المسيحية هى التى صانت ذخائر الفنون والآداب والعلوم ، بل هى التى بعثتها بعثاً قويا ، وأن هذه المسيحية — لا سواها — هى مهد الحرية ، وهى باعثة الحكومات النيابية ، وهى التى أخرجت الحرية الحديثة .

والدنيا كلها تشهد بمواقف « الكنيسة » من العلم والعلماء ، ومن الفلسفة والمتفلسفين ، ومن المحاكمات والجزاءات ، ومن الأسرار والأحبار .

وهم بجانب هذا يحاولون أن يهدموا الإسلام عن جهل وحقد وتعصب وإقذاع ، ويتساءلون فى حمق وتربّص وإصرار : وماذا أنتج الإسلام ؟ ثم يرمونه بكل معيب ومشين .

ثم يتصايحون على العرب والمسلمين وينفخون فى آذان البسطاء والمغرورين : أن يتركوا التعصب ، ويُبعدوا الدين .

ومن المرير المخزى أن يستجيب لهم الكثير ، مع أن الدنيا كلها تعرف أن مفتتح آيات القرآن المحكم الحكيم ، هو الأمر بالقراءة وبالعلم وبالتعليم ، وأن القرآن وحده هو الذى كرم العلماء والحكماء والمفكرين ، وأن فى كتاب المسلمين وحده ، كل مفاتح العلم ، ومناهج المعرفة ، وأصول كل علم وحكمة .

وبكل خزىٍ وعارٍ كان مِنّا مَن صانعهم ، أو داهنهم ، ومن هادنهم ولم يمل ، وأخذ يرجو ويتمهل ..

ونحن بدورنا لا نصانع ، ولا نداهن ، ولا نهادن ، ولا نمل ، لا نرجو ولا نتمهل ؛ بل لا بدّ من أن نسارع ونعمل ونعمل ...

لنعلم البشرية العلم بلسان العروبة ، فقد انطلق لسانها ، ولسانها الخالد ..

ونفهم الآدمية الفلسفة ، فقد انكشف غطاؤها ، وعمت المفاسد ..

ونهذّب الإنسانية بالإسلام ، فقد طال انحرافها . وضلت المقاصد ...

وقبل إرساء القواعد ، لابد من تحديد المقاعد ، وتحديد الضوابط والمناهج ..

وهذه مهمة البانى البارع ، بتوفيق من الحكيم الصانع ، فإلى الفصل الرابع ..

الفصل الرابع

رأى وتمهيـــــد

١ — هل هذه فلسفة : انتقـال الفلسفة من الشرق إلى الغرب قديما وحديثا .
اتساع لفظ الفلسفة وضيقه ، وتنقلاته .
ما يجب أن تكون عليه الفلسفة.

٢ — وهل هى حديثـة : الحـكم بالأولية أو بالسبق مرفوض شكلا وموضوعا .
الاستقراء التـام ، أو الإحصاء والحصر .
هل للزمن دخل فى تقييم الفلسفة وحداثتها .

٣ — وهل هذه فلسفة حديثة : كمال بناء المدرسة الفلسفية .
الفردية والأنانية شعارهم .
دعوة إلى القراءة الحقة .

٤ — وهل هذه هى الفلسفة الحديثة : قصرها على الغربيين مع اقحام الأمريكيين .
عمالقة الفلاسفة والمصلحين المحدثين فى الشرق .
أمثلة من العمالقة فى بنى العروبة والإسلام المعاصرين .

٥ — فما هى إذن الفلسفة الحديثة طغيان الفلسفة على سعادة الإنسانية .
وكيف ندرسها : تضارب الفلاسفة قديما وحديثا .
الفلسفة الإنسانية الحقة لسعادة الإنسان .
مصدرها الحق من القرآن الخالد.
تحقيق معنى الخلافة وأبعادها .
استمداد الحكمة دائما من القرآن .

رأى وتمهيد

١ — هل هذه فلسفة :

فلسفة ! ! ما أجمل هذا اللفظ ، وما أحلاه ، وما أصبره على الزمن وعلى ما ابتلاه ، ثم ما أقوى تركيبه ومبناه ، وما أوسع ما يوحى به معناه . . .

عشق جماله العالمون ؛ فتسارعوا إليه وتجاذبوه ، وعرفَ جلالَه العالمون ، فتقاربوا منه وتهيّبوه ، وحنق عليه المقصرون والقاصرون ، فتنابذوا به وأهانوه .

عاش هذا اللفظ بهذا التركيب إلى الآن ، أكثر من خمسة وعشرين قرنا من الزمان يتنقل فى كل الجهات ، ويتغلغل فى جميع الثقافات ، ويتعلل به أو يتمسح به المنصف أو المجحف أو المفتات . . . ولكنه مع هذا كله لفظ اصطلاحى ، اصطلاح على معناه واضعوه ، ولا مُشاحّة فى الاصطلاح ، ولا تغيير فيه ولا اعتداء عليه . . . ركّبة اليونانيّون من « المحبة » ومن « الحكمة » فالفلسفة عندهم هى : محبة الحكمة ، والفيلسوف فى اصطلاحهم هو : محب الحكمة : « فيلو — سوفيا » .

إذن عرف اليونان أن هناك حكمة ، وأن هناك حكماء ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحصّلوا الحكمة ، ولا أن يكونوا من الحكماء ! ، بل كانت غاية جهدهم ، ومنتهى ما وصلت إليه جهودهم ، أن أحبوا الحكمة ، وكانوا بذلك فلاسفة ؛ أى أنهم كانوا فقط محبين للحكمة . . .

فأين كانت الحكمة ؟ ومن هم الحكماء ؟ ! ثم وماهى الحكمة ؟ ؟ !

لابدّ إذن من أن تكون « الحكمة » حيث سافر فلاسفتهم ، وحيث تعلم علماؤهم ، وحُبّبوا الحكمة منهم ، وحيث تتلمذ كبارهم وأعلامهم . . .

فى الشرق ، فى بلاد العروبة ، فى مصر وفى جامعات مصر القديمة . . . آمون ، وعين شمس . . .

ولابد أن يكون « الحكماء » هم الذين سافر اليونانيون إليهم ، أو تعلموا منهم ، أو تطلعوا إليهم ، وأحبوا أن يكونوا مثلهم ، وهم أساتذة الدنيا : أنبياء العرب ، وحكماء العرب ، وكهنة مصر القديمة ، وأساطين الشرق . . .

انتقلت الفلسفة إذن من الشرق إلى اليونان قديما .

كما انتقلت من الشرق إلى الغرب حديثا ؛ لمّا مال ميزان الشرق ؛ لأن الفلسفة فى أصالة وعمق ، هى شمس المعرفة ، وطريق الحق ، وكلاهما لا يكون إشراقه الأصيل إلا من الشرق .

ومن يوم أن انحدرت الحكمة من بلاد النور والإيمان ، إلى بلاد الغرب واليونان: لم تجد أهلا لها ، ولم تجد مَن يستحق أن يتصف بها ، بل كل ماهنالك ، ومَن هنالك — إن كان — فهو محب لها ، مردّد لما يستطيع منها . . .

ثم أخذت تنتقل مع الناس ومع الزمن ، تسلم حينا ، وتلاقى أحيانا أشد المحن ، تعلو تارة وتهبط تارات ، وتنتصر كرة وتنهزم كرات ، وتسهل مرة وتتعقد مرات ، وكانت فى علوها وانتصارها وسهولتها مرتبطة دائما بالإنسان كله ؛ بالإنسان كطبيعة ، وبالإنسان والطبيعة ، وبالإنسان وما بعد الطبيعة . . لأن نظرتها شاملة ، ودائرتها واسعة ، لابد من أن تحيط فتشمل الإنسان فى أخلاقه، ونفسه ، ومجتمعه، ومعقولاته ، وعلاقاته ، ومحسوساته ، ومدركاته ، وما وراء المحسوس ، وما وراء المدرك ، وما فى الطبيعة ، وما بعد الطبيعة . وما يتعلق بخالق الكل وإله الجميع . . . الإنسان ، والكون ، والإله . . .

فإن دخل البحث فى الطبيعة ، أو المادة : المعمل ، أو حصره الحس ، أو انضبط بتجربة ، استقل هذا البحث وصار « علما » . .

وأما إذا انحصرت فى المادة : واقعا أو أسبابا ونتائج مباشرة ، كانت فلسفة مادية أو طبيعية أو واقعية .

فإذا ما تعلقت بالعلل والغايات البعيدة ، أو تكهنت فيما وراء الطبيعة ، أو تقحمت مجالات الغيب وعالم الغيب وأسرار ما وراء الطبيعة ، كانت نظرية أو مثالية . . .

ثم أخذ لفظ الفلسفة يتسع ويضيق ، ويضيق ويتسع ، مع كل بيئة ، وفى كل ثقافة ، وحول كل معرفة . . . فى القديم ، وفى المتوسط — كما يقولون — إلا قليلا من بعض المنحرفين ، أو المعاندين ، أو الملحدين . . .

ولكن لفظ الفلسفة كان يحاول أن يكون دائم الارتباط بالدين ، دائم الاستمساك بالخلق والسلوك ، والمجتمع والدولة والإنسانية ، دائم النظرة الفاحصه الشاملة ، بعيداً عن المشاهدة العاجلة ، والملاحظة المرتجلة ، بعيداً عن التجريب والمعمل . . . بعيداً البعد كله عن الفردية والأنانية ، والآلية ، إلا فى بعض الآراء والأفكار ، التى شاع عن بعض أفرادها ، أنهم : « عندية » ، يقول الواحد منهم « عندى » ولا غير ، وهذا هو المقياس عنده لكل شيء . . .

أو « عنادية » ، يعاند الواحد منهم فى كل عمل أو فكر ، وينكر بمقياسه العنادى كل شيء . .

أو « لا أدرية » يتوقف الواحد منهم ، ويقول لا أدرى ؟ هل هذا خير أو شر ، ويشك بمقياسه فى كل شيء . . .

ثم شاعت هذه المقاييس وانتشرت كلها أو بعضها فى كل فرد ، وكل فكر

فى الغرب فى الزمان المتأخر ، وكان مردها إلى « السفسطة » فى اليونان ، . . .
فى زمانهم المبكر . . .

فهل يمكن أن يطلق على ما يقول الغربيون — من يوم نهضتهم — إنه فلسفة ؟ وهل فيه حب ؟ وهل فيه حكمة ؟ ! وهل فيه خلق إنسانى شامل ، وهل فيه بناء آدمى كامل ، وهل فيه النظر الدقيق ، والرباط الوثيق ، والعمق العميق ؟ ! . . . اللهم لا . . .

قل إذن : إنه فكر ، ورأى ، وعلم ، واتجاه ، ونظر ، وكلام . . .

ولا تقل إنه : «فلسفة» ، ولا تقل إنه حكمة ، ولا تقل إنه حب للحكمة . . . لأن المحبة قد كفروا بها ، ولأن الحكمة قد ضلوا سبيلها . . .

أما من يريد أن يتمسك بأن هذه فلسفة ، فليدلنا أولاً على تعريف للفلسفة يتسع لكل هذا ، أو يتحمل شيئاً من ذاك ، أو يمكن أن يجمع بين هذا وذاك .

ثم إذا كانت « العلوم » إنما تبحث فى الأرض ، وما عليها ، وما يخرج منها ، وما يعود إليها ، وما يتعلق بها ، وما يحوطها أو يحيط بها . . . مرتبطة بالمادة وبالأرض !

أفلا يجب أن تكون « الفلسفة » هى الباحثة فى الإنسان كله ، فى خلقه وخالقه ، وفى نفسه ، وسلوكه ، ومجتمعه ، فى علاقاته ، ونزواته ، ونزعاته ، وأحاسيسه ، وقلبه ، وربه . . مرتبطة بالإنسان ، وبالسماء ؟ ! وبخالق الإنسان وخالق الأكوان ! ؟

وإذا قلتَ « نعم » وطبعاً ستقولها ، وجب أن تَردّ معى ما زعم الغرب من فلسفة ، أو تردّد عليها ، وتصيح معى : سنرى قريباً أن هذه ليست فلسفة وإنما هى بعض السرقات ، وبعض التُرّهات ، وبعض السفه .

٢ — وهل هى حديثة ؟ !

فى أى شىء ياترى تلك « الحداثة » ؟

أفى الخصائص والمميزات ؟ أم فى المناهج والطرقات ؟ ! أم فى الأبحاث والموضوعات ؟؟ ! . . . أم فى القرون والسنوات ؟

أم فى غير هذا كله مما سنوضح بعضه فيما هو آت ؟ !

وقبل أن نقول فى الموضوع القول الفصل ، لا بد لنا من أن نقف قليلا عند المنهج والشكل .

إن لفظ « حديثة » يشير إلى معنى هو : أنها غير مسبوقة ، كلفظ « أولّ » تماما ، الذى يؤكد عدم السبق أيضاً . . .

فهل يحتّمل العلم مستندات تؤكد النفى عن السابق كله ؟ أو تؤكد الإثبات فى اللاحق كله ؟ !

وهل يستطيع الفكر الإنسانى أن ينفى شيئا عن ماضٍ لا تمكن الإحاطة به ؟ أو يثبت شيئا فى مستقبل لا يمكن التأكد منه ؟ ! . . .

إن من أخطر آفات العلم أن يتبجح المنتسبون إليه ، فيعممون الحكم على شىء والمستندات فى أيديهم خاصة ، أو يطلقون أحكامهم عن هوى وجهالة وعمى ، أو يتخذون العلم مطية لدنىء الأغراض وقىء المقاصد . . .

فمثلا فى « القديم » ساروا وراء « أرسطو » وقالوا جميعا ، وتابعهم المحدَثون : إن أول من تفلسف هو « طاليس » ، فاليونان بالتالى هم أول من تفلسفوا . . .

وهذا الحكم مرفوض شكلا ، محجوج أصلا ، لا يمكن أن يصدر عن أدنى علم ، ولا يمكن أن يتقبله أدنى فهم . . .

لأن الأولية بالنسبة لطاليس مثلا بصفة خاصة ، ولليونان جميعا بصفة عامة : تؤكد أن غيرهم ، ممن كانوا قبلهم ، جميعاً : لم يتفلسفوا . . . فى طول الأرض وعرضها ، من آدم إليهم ، فى كل أدوارهم وتاريخهم ، وبالنسبة لجميع بيئاتهم وأفرادهم . .

وهذا الحكم لا يصح ولا يقبل ، إلاّ بعد الاستقراء التام الأكمل ، والإحصاء الأعم الأشمل ، لكل فرد فرد ، وإنسان إنسان ، فى كل زمان ومكان ، من « آدم » إلى اليونان . . .

ثم الدراسة العميقة المستفيضة المتخصصة لكلّ الفكر الإنسانى واتجاهاته ، فى جميع أفراده ومجموعاته ، من أول البشرية إلى طاليس أو إلى اليونان ، غير ممكنة إلى الآن ، وهذا مستحيل على كل واحد من الناس ؛ بل على كل الناس ، مهما كان .

أنا لا أريد أن أثبت هنا أن اليونان مسبوقون ، بل لم يصلوا . . . أعنى لا أريد الآن أن أدخل فى الموضوع ، وأُبيِّن أنه فيما قبل اليونان وقبل طاليس ، كانت هناك فلسفات أقوى وأعمق ، وأشمل وأدق . . بل كانت هناك محبة ، وكانت هناك حكمة ، من يوم أن عرف الإنسان أن اجتماعه لابد فيه من الحب ، وأن بقاءه وحياته لا بد لهما من حكمة : يتمانع بهما ويتعاون . . . سواء فى مسقط رأس الإنسانية الأول ، أو فى مختلف الأقطار والدول ، فى بابل وآشور ، ومصر ، بل فى الصين ، وفى الهند ، وفى كل قطر . . . فلذلك كتاب أو كتب أخرى بتوفيق الله .

وإنما أريد أن أؤكد للعلم وللفلسفة على السواء :

أنّ الحكم بأنّ طاليس أول من تفلسف : باطلٌ ، ولغوٌ ، وهراء . . . أو أن اليونان : أول من تفلسفوا : تضايل ، واستعمارٌ ، والتواء . . . من حيث

المستندات العلمية ، وما يجب أن تكون عليه من الاستقراء التام والإحصاء . . .

ومن حيث ما يجب أن يكون عليه العلماء ، أو الفلاسفة أو الحكماء . . .

لأن إثبات أول من تفلسف ، أو أول من تفلسفوا ؛ يستوجب حتماً من البراهين والمستندات ما تعجز عنه الإنسانية ، مهما تطاولت فِرقُ الصليبية والانكشارية والادعائية ، ومهما تحاملت وحاولت أحلام الغرب الجنونية ، ومهما تفاجرت قوى الصهيونية والاستعمارية . . . وليس من هذه البراهين الفلسفية والمستندات العلمية : الجهل ، والحمق ، والتعصب ، والادعاء . . .

بل من ألزم البراهين والمستندات وأوّلها وأولاها : « الاستقراء التام » لكل أفراد بنى آدم ، ولجميع أجناس الناس وألوانهم على اختلاف البيئات والثقافات ، من آدم أبي البشر إلى طاليس أو إلى اليونان فرداً فردا ، وجنساً جنساً ، وثقافة ثقافة ، وبيئة بيئة . . . فهل هذا يسهل ؟ وهل هذا يمكن ؟

ثم « الاستقراء التام » لكل ما قال هؤلاء جميعاً ، وما دوّنوا ، وما تركوا . . . فهل هذا يقبل ؟ وهل هذا يمكن ؟

ثم « الاستقراء التام » لكل ما فكر فيه كل فرد ، ونتائج هذا التفكير .. فهل هذا يعقل ؟ أو هل هذا يمكن أن يُخمّن ؟

يا قومنا : أيها العلماء . . . أيها الفلاسفة . . . شيئاً من العقل . . . شيئا من الحكمة . . .

قالوا . نحن لا نعلم أن فلسفةً مَا قَامتْ قبل اليونان . . .

يا سبحان الله ! ! ! هل يمكن أن يكون جهل إنسان بشيء ما : دليلا على عدم وجود هذا الشيء ؟ ؟ اللهم لا .

وعلى هذا فمن أبسط بسائط العلم ، وعلى أقل درجات الفكر أو الفهم ، وجوب رفض هذين الحكمين وما فى حكمهما ، رفضاً باتاً ونهائيا ، من أمثال ما زعموا ودسوا : من أن « أول من تفلسف طاليس » ، أو أن « نشأة الفلسفة كانت فى اليونان » ، أو أن « الإغريق أول من تفلسفوا » . . . ولو لم يستطع أحد أن يُثبت لمن قبلهم فلسفة . . . فضلا عما يجب أن تكون عليه أحكام الفلاسفة والمتفلسفين ، من الدقة ، والتحرى ، والتجرد ، والأصالة . . . كما يقولون . . .

وعلى هذا الأساس ، فإننا نهيب بجميع الناس ، من كل الألوان والألسنة والأجناس أن يرفضوا بكل قوة : لفظ « حديثة » من الحكم على هذه الأفكار الغربية ، من عصر النهضة إلى الآن ، التى يزعمون أنها « فلسفة حديثة » . سواء فى ذلك : إن ادعوا أنها فلسفة ، أم لم يدعوا ، وسواء فى ذلك أن ينظروا إليها من حيث خصائصها ، أم مميزاتها ، أم مناهجها ، أم طرقها ، أم أبحاثها ، أم نتائجها ، أم موضوعاتها . . . أو لم ينظروا ؛ لأن لفظ « حديثة » يحمل فى طياته معنى غير مسبوقة ، فهو حكم بالأولية . . .

ومن أراد أن يثبت أنها « حديثة » فى أى شىء من هذا ، فلا بد من أن يقدم لنا أولاً الاستقراء التام للبشرية جميعاً : أفراداً ، وشعوباً ، وأمما ، وقبائل ، وجماعات . . . من « آدم » عليه السلام ، إلى الزمن الذى يقول فيه : « حديث » ، أو « حديثة » .

قد يقول قائل : إنها حديثة فى الزمان ، لأنها بعد فلسفة اليونان بأكثر من عشرين قرنا ، ولأنها صدرت فى زمان حديث ، بعد القديم والمتوسط . . .

نقول : ومن الذى قال بالقديمة والمتوسطة ؟ هم الذين قالوا هذا ، وقد تظل

القديمة قديمة مهما توالى الزمن ، وقد تليها فى المرتبة الزمنية : الفلسفة المتوسطة ، بالنسبة لهم . . . ولكن ماذا تكون الحال بالنسبة لمن يأتى بعدهم ، للأجيال اللاحقة جميعاً . . . وماذا يقولون غدا وبعد غد ، وبعد القرون الطوال عما يسمونه الفلسفة الحديثة ؟ !

لقد وقعوا هم أنفسهم الآن فى هذا الاضطراب ، وخرجوا منه بأن قالوا حديثة ومعاصرة ، فماذا يقول اللاحقون ؟ وماذا يفهم التأريخ أو التاريخ بعد عشرات القرون . . . ؟ ؟

ثم هل للزمن دخل فى تقييم التفكير والفلسفة من حيث هو زمن ؟ وهل يستطيع الزمن — من حيث إنه سابق ، أو حاضر ، أو لاحق — أن يحدد الخصائص الفلسفية ، ويميز المعالم الفكرية ، ويرسم الإطارات المحددة للعبقرية ؟ ؟ ؟ أم أنها الأحداث والحاجات والمطالب البيئية ؟ ؟ ! سواء فى ذلك الشعبية منها والعالمية . . .

ونحن أخيراً نشاهد الاختلاف الواضح المتميز ، الذى قد يستحيل معه الجمع بين التفكير فى انجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وأمريكا . . ممن وضعوهم جميعاً تحت الحديثة . . . وهذا لعمر الحق اضطراب وخلط .

لنا أن نعدد المدارس الفكرية : أو المذاهب الفلسفية ، على حسب الخصائص المميزة ، والاتجاهات الخاصة . . . إن كانت هناك خصائص أو اتجاهات . . . كأن نقول مثلا : فلسفة انجلترا ، أو فرنسا . . . فى القرن الفلانى ، أو العصر العلانى : تتميز بكذا وكذا ، إن كان هناك تميز أو فلسفات . . .

وعلى هذا ؛ فإن التعبير بحديثة مرفوض . . .

كل هذا من حيث الهيكل العام والشكل ، أما من حيث الموضوع أو من

حيث الأصل ، فسنعلم أنها ترديد أو تقليد ؛ بلا فهم ولا ذوق ولا عقل .

مما أدَّى بالمقومات الإنسانية إلى التناحر ، والتصارع ، والركل ، وأوْدَى بالمثل الآدمية ؛ فتدافعت إلى الانتحار ، والتقاطع ، والقتل .

وأدمى الحياة الروحية المميِّزة للإنسانية ؛ فاستشرت الحيوانية .

وأبعد الإنسان ، عن خالقه العزيز الرحمن ، فتراقصت الدول فى العالم كله على فُوّهة البركان ، وفقد الناس الأمن والاستقرار والأمان ، لأنهم ابتعدوا عن الدين ، والأنوار ، والإيمان .

* * *

٣ — وهل هـذه فلسفة حديثة :

وما هذه التى يطلقون عليها « فلسفة حديثة » ؟

لو سلمنا جدلا باسم « الفلسفة واستعرناه لما يدّعون ؟ . . .

ولو فرضنا جدلا أنها حديثة ، وأنهم هم السابقون ؟ . . .

أفنستطيع أن نتخيل أنها « فلسفة حديثة » وأنهم وصلوا لما يبتغون ؟ !

وهل أكمل واحد منهم بناء مدرسة فلسفية ؟ أم هم جميعاً متكاملون ؟ ! !

لعلكم على يقين من أنهم جميعاً مضطربون ومتخالفون ، لا يرضى أحدهم عن الآخر ، بل قد لا يرضى عن نفسه ، فكثيراً ما نرى الواحد منهم يتأرجح بين حِسِّه وحَدْسه ، ويتناقض بين يومه وأمسه ، وكلما ظهر واحد منهم لعن أخاه ، استغفر الله ، بل شرَّحه ، وأقبره ، وأفناه ، ولا يقول واحد منهم عن الآخر إنه فيلسوف ، ولا متفلسف ، بل يؤكد أنه مهاتر مكابر متهافت ومخرف . . . لا يأخذ بيد الإنسانية ، ولا يضع لبنة سليمة فى بناء مدرسة فلسفية .

وإنما ينفخ لهم فى الأبواق : الرجعيون والهدامون وشُـذّاذ الآفاق ، من الصهاينة ، والاستعماريين ، ومحترفى النفاق . . .

ومع هذا كله فإنهم جميعا يجمعون على شيء واحد ، هو استعمار العروبة والشرق والإسلام ، ومحاولة القضاء المبرم بالأفكار ، والأقلام ، على كل مايذكّر العروبة بأمجادها ، أو يربط الشرق بتراثه ، أو يمسِّك الإسلام بالزمام . . .

ولعلهم فى هذا أصحاب فلسفة هدامة ، ولكن ليست حديثة ولا بنّاءة . .

ثم هم فى « الفردية » إن صح لها أن تجمع ، وفى « الأنانية » إن جاز لها أن تسمع ، وفى « الآلية » إن ساغ لها تخشع . . . ربما كانوا بهذا أصحاب فلسفة ، ولـكنها ليست حديثة .

وربما جاز لهم أن يتعجلوا التسمية ويتشبهوا بالـكبار ، كالطفل يريد التشبه بالرجال ، فيشرب الدخان ويصطنع الوقار ، فتكون النتيجة الحتمية السريعة هى البوار ، وأن يصاب بالدوخان ويسرع إليه الانفجار . . .

لأن أوربا جميعاً لم تنهض نهضتها العلمية ، أو قل : إنها لم تولد على مدارج البشرية ، إلا مع القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) .

وقد أطلقوا هم على قرنين من بدء الميلاد هـذا : اسم « عصر النهضة » ، والقرن فى عمر الأمة قد لا يزيد كثيراً عن الشهر أوالعام فى عمر الفرد . . .

فلما بدءوا يقولون أو ينقلون . . أطلقوا على هـذا القول اسم « الفلسفة » تشبها بالسابقين وتمثيلا لهم ، ولما ظنوا أن إظهار اتصالهم بالسابقين يؤكد طفولتهم ، حاولوا كتمان هذا ، والظهور بأنهم هم المفـكرون وحدهم ، فقالوا « فلسفة حديثة » . . . وهذا شأنهم ، فما شأننا بهم ؟ !

وأخرى واتتهم من عندنا ، ساعدناهم بها وعلى حسابنا ؛ نحن أبناء

العروبة والإسلام هناك وهنا ... بعد أن استرقوا العلم والفلسفة من كتبنا وعلمائنا وفلاسفتنا ، واغتصبوا الفكر من عقولنا ، ومزّقوا الأرض من تحت أرجلنا ، وفرقوا وسادوا وعاثوا فى ديارنا ، واستنزفوا خيراتنا ، وولغوا فى دمائنا ومقدساتنا ... فأسلمنا القياد لهم بعد أن استخربوا — باسم الاستعمار — ما استخربوا من تفكيرنا ، وخربوا من إيماننا ، ويقيننا ، وأخلاقنا ، ومعارفنا ، وثقافتنا ؛ ولغتنا ، ووحدتنا ، وماضينا ، وحاضرنا ، ومصيرنا ، أو هكذا ظنوا . وكل الظن هنا إثم وظلم وضلال ، فما زال فى العروبة أبطال ، وفى الكنانة سهام ونصال ، وللاسلام حماة ورجال .. « وسيعلم الذين ظلموا أىّ مُنقَلَب ينقلبون » .

وساعدهم على ذلك أكثر وأكثر : أن الكثير منا جرى فى تيارهم ، وشايع السقيم والدخيل من أفكارهم ، وصار أكثرنا عبداً لقيمهم وأهوائهم ... حتى أخذنا نختلف على قيمنا ونتفق على تمجيدهم ، وأخذنا نتسابق فى أن نهدم أنفسنا وأن نسير فى ركابهم ... ونزدرى كتبنا وآراءنا ، وأخذنا نتندر على الورق الأصفر ، بل نتجهم على أروقة الأزهر ، نتجهم على الملازم القديمة ، ونتبجح على آراء أمتنا القويمة ، ... وأخذنا نطير بأجنحة كتبهم وآرائهم ، فكان من الحتم على هؤلاء أن يطلقوا على هذا اللون من تفكيرهم اسم « الفلسفة الحديثة » .

أنا لا أشير إلى جمود ، ولا أسير إلى رفض إنتاج العقل العالمى ؛ بل أهيب بكل مفكر وذى ثقافة : أن يعمق تفكيره بمعرفة تفكير الآخرين .. فمن لا يعرف ثقافة غيره لا يمكن أن تكمل ثقافته .

وإنما أحتّم أن نقرأ لجميع الناس ، من جميع الأجناس ، ولكن على منهج وأساس ، أريد أن نقرأ للجميع ، لنضع كل واحد فى مكانه اللائق به من تراثنا

وتراث الإنسانية ... أريد أن لانرتمى فى أحضان المستعمر الشيطان ، فلنا والد شرعى وأمٌّ حَصان . . .

وأريدأن أسأل فى صراحة وتبصير ، ولا أنتظر الجواب إلافى أعماق الضمير: لو قرأ العالم منا — أو الفيلسوف — فى تراثنا الفكرى والفلسفى : العربى منه والإسلامى ، مثل ما يقرأ فى كتبهم وقتاً ، ومجهوداً ، وتعمقا ...

ولو بذل فى كتاب المسلمين الذى «لاَيأتيهِ الباطلُ مِن بَين يَدَيْهِ ولا مِن خَلفِه» بعض ما يبذل فى كتبهم التى تعرفون : وقتا ومجهوداً ، وتعمقا ، وإقبالا . . . فماذا يكون ، وماذا ينتفع ، وماذا ينفع ؟!

إننى أدعوكم ، وألح ... أن جرِّبوا ، فستشرق عليكم الأنوار ،

وأدعوا لكم ، وألح ... ألاّ تهيبوا ، فستغدق عليكم الأسرار

وعندئذ : نستطيع الحكم فى أصالةٍ وعمقٍ ويقين ، على هؤلاء أجمعين ، من القدماء منهم ، والمحدثين ، والمعاصرين . .

على : أوهام « بيكون » وتجربته ، وحِسّه .

وعلى : شك « ديكارت » ومدفآته ، وحَدْسِه .

وعلى : وحدة « اسبينوزا » وآليته وهمسه .

وعلى : نقد « كانت » وحريته و نفسه .

وعلى غير هؤلاء وهؤلاء ، من المعاصرين أو المحدثين أو القدماء .

وعندئذ نستطيع التمييز بين الأصل والدخلاء ، وبين صاحب الفكر الأصيل وأصحاب الدجل والخيلاء ، وبين الضياء الهادى الرشيد ومصابيح الزينة فى الفناء .

* * *

٤ — وهل هذه هي الفلسفة الحديثة :

وإذا جاز لنا أن نسلِّم بأن هناك في الغرب « فلسفة » أوبأنها « حديثة » أوبأن هذه « فلسفة حديثة » . . . أفيجوز لنا أن نسلم بأن هذه هي « الفلسفة الحديثة » ؟ !

وبعبارة أخرى : هل الفلسفة الحديثة هي فقط كل ما ذكر هؤلاء ، أو ذكرعن هؤلاء . . . أو أنّ وراء ما ذكروا : الكثير ، والكثير ؟!!

قالوا « عصر النهضة » بإطلاق ، ولم يقصدوا به إلا أوربا .

ثم قالوا « الفلسفة الحديثة » وقصروها على ما كان في أوروبا من القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، ثم أقحموا أمريكا فيهم ، أو أقحمت أمريكا نفسها عليهم ، وللغربيين عذرهم ، في أن يتحدثوا عن فكرهم ، وأن يؤرخوا لتراثهم ، بل أن يحاولوا جاهدين أن يطمسوا أفكار غيرهم ، وأن يقللوا من شأنهم . . .

فلهم ألا يضموا تحت عنوان « الفلسفة الحديثة » إلا أهليهم وذويهم ، ولكن ما عذرنا نحن الشرقيين وبنى العروبة والإسلام في أن نجارِيَهم ، ونخرّب بيوتنا بأيدينا مع أيديهم ، وعندنا مفكرون يظهرون عليهم ، وعندنا فلاسفة لا يستطيع الغربيون أن يلحقوا بهم ، في نفس الزمان ، وإن اختلف المكان . . .

عندنا في طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها مئات العمالقة والفلاسفة ، الذين أخذوا بيد الإنسانية ، وأصلحوا الكثير من الأفكار الفلسفية ، ولو حاولنا حصرهم لحوصرنا ، وقد لا يتسع هذا الكتاب لذكر أسمائهم ، فضلا عن التأريخ لهم . . . وليس هذا موضوعنا الآن . . .

ولكن لابد من أن أشير إلى بعضهم بالأسماء كأمثلة تفتح الأذهان على مئات الأسماء ، عَلَّ مؤرخى « الفلسفة الحديثة » — كما يزعمون — يتذكرون ويفتشون فى طول الأرض وعرضها : فيؤرخون لفلاسفتها . . .

مَنْ فى الدنيا يجهل أمثال : جمال الدين الأفغانى ، ومحمد إقبال ، ومحمد بن عبد الوهاب ، والسيد عبد الرحمن الكواكبى ، والسيد أمير على ، وعلى مبارك ، والشيخ محمد عبده ، ومصطفى عبد الرازق ، ولطفى السيد ، وأبو الكلام آزاد ، ومحمد عبد الله دراز ، والشنقيطى ، وابن باديس ، والشاه ولى الله الدهلوى ، والألوسى ، وعباس العقاد ، والخضر حسين ، ورشيد رضا ، وطاغور ، وجميل الزهاوى ، ومحمد إبراهيم المويلحى ، وأحمد شوقى ، والرافعى ، والجسر ، ومصطفى كامل . . . وغيرهم . . . وغيرهم . . . وغيرهم . . . فضلا عن الفلاسفة الأحياء ، أطال الله حياتهم .

* * *

٥ — وأخيرا : فما هى إذن الفلسفة الحديثة الحقّة ؟ : وما مصدرها ؟ !

قال صاحبى : وقبل أن نجيب عن هذا السؤال ، يجب أن نتساءل : وهل الإنسانية اليوم فى حاجة إلى فلسفة حديثة ؟

ألا تكفى الفلسفات الموجودة : القديمة منها والحديثة ؟ والمعاصرة ؟ !

إن المؤلفات الفلسفية إلى الآن ، ومنذ خمسة وعشرين قرنا فقط من عمر الإنسان ، لو ألقيت فى المحيطات لأغرقت العمران ، ولو أكلتها الأسماك والأحياء المائية لزاحمت الإنسان على الأرض ، وربما طوحت به فى لجج المحيط ، وانتزعت منه زمام اليابسة ، بعد أن طوحت بالقيم العادلة ، والأخلاق الفاضلة ، وانحرفت بإنسانية الإنسان ، إلى الظلم والبطش والطغيان . . فهل تطالب بعد

هذا بمزيد من الفلسفة ؟ ؟ خصوصا وقد كان من نتائجها الآن ، ما يراه كل إنسان ، فى كل مكان ، من بركان ، و نيران ، وشيطان . . . ونحو ذلك مما قد يدفع بالإنسانية كلها عاجلا إلى الهاويه ، على الرغم من قيام منظمات يزعمون أنها صمام الأمن ، كعصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن . . .

هلاّ تطالب معى بإلغاء الفلسفة ، ومصادرة كتبها ؟ ؟ . . .

قلت لصاحبى : لهذا فأنا أنصح بأن نتعاون على إحراق هذه المؤلفات التى أفسدت الإنسانية جميعا لنتخلص منها ، ولنتجنب ضررها ، لأنها إذا أحرقت وأصبحت رماداً ، فإن حجمها يقل كثيراً جداً ، بحيث لا تصبح خطراً إن زحفت إلى البحر ، وفى الوقت ذاته تصبح غذاءً لكل أحياء الأرض ، بل لكل إنسان ، وربما شغلت الناس عن اللعب بالنيران ؛ ومصارعة الثيران ، والنفخ فى آذان الشيطان . . .

قال صاحبى : وكيف ؟ ولم تكن الفلسفة فى وقت من الأوقات غذاء لأى كائن حى ؟ ! بل كانت دائما ، وهى كذلك إلى اليوم : ترفٌ عقلى لمن زاولها ، أو لذة فكرية لمن حاولها ! ! . . أو لعبة شيطانية لمن دبرها ! ! . . . أو إن شئت فقل : هى متعة فردية ، أو وثبة ذهنية . . لا تعيش إلا فى رأس صاحبها ! ! أو دسيسة صهيونية ، للقضاء على سلام الإنسانية . . .

قلت لصاحبى : إذا وافقتنى على إحراقها ، فستصبح غذاءً لأحياء الأرض جميعاً ، لأن رمادها سيكون أحسن سماد فى الأرض ، يصلحها ويغذى نباتها ، وعلى هذا النبات يغتذى الطير والحيوان ، وبهما وبالنبات يقتات الإنسان .

قال صاحبى : أوَ يرضى الفلاسفة بذلك ، ولم يرض واحد منهم

عن صاحبه ؟ ! وهل يوافق كبارهم ، ولم يتوافقوا فى حياتهم ! وهل يتلاقى رماد كتبهم ، ولن تتلاقى ثمار عقولهم ! ؟ ألم ترَ إلى القدماء منهم ، والمحدثين ، والمعاصرين كانوا ولا يزالون متصارعين. . . ؟ !

ألم تر إلى اليونان القديمة . . .

ألم تر إلى « سقراط » و « أفلاطون » و « أرسطو » ، وهم أبناء زرع واحد ، وضرع واحد ، ونبع واحد . . . كيف تخالفوا ، واختلف الناس من بعدهم إلى الآن ؟ وهم — كما يقولون — أساتذة الفلسفة على طول الزمان ، مع أنهم عاشوا طوال القرن الخامس قبل الميلاد فى اليونان ؟ . .

ثم ألم تر إلى أوربا الحديثة . . .

ألم تر إلى « بيكون » الذى مات سنة ١٦٢٦ م ، و « هوبس » الذى مات سنة ١٦٧٩ م وهما انجليزيان ، و « ديكارت » الفرنسى الذى مات سنة ١٦٥٠م وهم أبناء جيل واحد ، وقبيل واحد ، وسليل واحد . . كيف تنافروا ؟ ونفر الناس من بعدهم ؟! ... و «هويس» كان أول الماديين المحدثين ، كما أنه كان كاتب سر « بيكون » ؟

ثم ألم تر إلى أمريكا المعاصرة ؟ ..

ألم تر إلى جيمس الذى مات سنة ١٩١٠ و « رويس » الذى مات سنة ١٩١٦م و«ديوى» الذىمات سنة ١٩٥٢موهم أبناء عصر واحد ، ومصر واحد، وعنصر واحد . . كيف تضاربوا فى آرائهم ؟ وتضارب الناس — أو كادوا — من حولهم ؟ ! . .

قلت لصاحبي : نعم ، وهكذا الفلاسفة إن قادتهم عقولهم ، وهكذا العباقرة إن فتنتهم أفكارهم ... ولهذا أطالب بالسماد ...

ولكن لا تنس أن كل فيلسوف عقلي يودُّ أن يكون غذاءً لعقلية ، وأن كل عبقري مفتون : يجب أن يكون شفاءً من عبقرية ، إلا إذا كان مأجوراً لتدبير خطة شيطانية ، أو كان مدسوسا على الإنسانية ... ولهذا فإنهم جميعاً يرحبون بالسماد ... بل يطالبون ويلحُّون .

قال صاحبي : وبعد الحريق ! أفيصلح الإنسان بدون « فلسفة » ؟ !

قلت لصاحبي : اطمئن ، فإن الإنسان « فيلسوف » بفطرته ، محبٌّ للحكمة بطبيعته وخلقته ، من يوم أن جعله الله فى الأرض خليفة ، ليسود على جميع موادها وكائناتها بعقله وحاسته ، ويتعامل مع جميع الناس على اختلاف الألوان والأجناس بأخوته وإنسانيته ، وبتصل بخالقه الذى خلقه وخلق له ما فى الأرض جميعاً ، وليربط ما بين الجميع بفلسفته وبصيرته .

وبقدر ابتعاد الإنسان عن خالقه ، يكون ابتعاده عن آدميته ، وانحرافه عن فطرته ، وبقدر إهماله فى مهام خلافته ، يكون إهداره بنفسه لإنسانيته ..

قال صاحبي : وما خصائص الخالق ، ومن الذى يتصل به من الناس ؟ . وكيف ؟ ..

قلت لصاحبي : الخالق هو الله ربنا : الرازق وحده ، المانع وحده ، المانح وحده ... وفى إيجاز وتركيز كما يقول القرآن الكريم :

« .. رَبُّنا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَى » (سورة طه ٢٠ / ٥٠)

« الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى » . (سورة الأعلى ٨٧ / ٢ـ٣)

والذى يتصل به من الناس ليتلقى منه ، ويبلغ عنه . . . هم الذين اصطفاهم الله لتبليغ رسالته ، هم رسل الله وأنبياؤه ؛ وهم الذين يتلقون الحكمة عن الله ، كما قال سبحانه فى القرآن الحكيم : « يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ

الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ » .
(سورة البقرة ٢ / ٢٦٩) .

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون ، هم الذين أخذ الله عليهم الميثاق أن يتكاملوا على خير الإنسانية وترشيدها ، وإقرار سعادتها وأمنها وسلامها ، يصدق كل واحد منهم بالسابق ، ويكمل بما تطيق بيئته الرسالية ، ويمهد للاحق حتى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فلابد من أن يؤمنوا به جميعا وينصروه ، هم وأتباعهم ، قال تعالى :

«وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ . . . »
(سورة آل عمران ٣ الآية ٨١) :

أما خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى أعطاه الله كل الكتاب وكل الحكمة ، وخصه بأن يكون : معلم الكتاب ، ومعلم الحكمة فى الإنسانية كلها ، ومعلم المؤمنين ، والناس أجمعين : مالم يكونوا يعلمون .. وقبل هذا كله ، هو الذى يمد الإنسانية كلها بالأخلاق الفاضلة ، بتطهير نفوسهم وتزكيتهم . . .

ثم هو الذى يمن على الناس كافة برسالته الخاتمة . إكمالا للدين ، وإتماما لنعمة المؤمنين جميعا إلى قيام الساعة ، فى قوله سبحانه فى سورة البقرة الآية ١٥١

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »

وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى قال عنه رب العزة : إنه رحمة العالمين ، والسراج المنير ، وبالمؤمنين رءوف رحيم .

قال صاحبي : سبحان ربي ، أوَ في القرآن فلسفة ؟

قلت لصاحبي : بل هي « الحكمة » ، والفيلسوف هو « المحب للحكمة » .
فمن لم يحبب الحكمة لا يكون فيلسوفا ، و « الحكمة » ليست إلا في القرآن ،
وليست إلا من القرآن ، وليست إلا بالقرآن ! فمن لم يُحْبِب « القرآن »
لا يكون محبا للحكمة ، فلا يكون فيلسوفا ، ولا إنسانا محبا للحكمة . . .

ومعلم الحكمة في الإنسانية كلها ، للإنسانية كلها ، ليس إلا رحمة العالمين
وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يحبب معلم الحكمة ، ويترسّم منهاجه ،
ويتبع تعاليمه لا يكون محبا للحكمة ؛ فلا يكون فيلسوفا ، ولا مؤمنا ،
بل ولا يكون إنسانا محبا للحكمة . . .

وأخرى أقولها : إن كانت الفلسفة شيئا ، فلا يكون تبنيّاً بها إلا بالقرآن ،
ومن القرآن ، وإن لم تكن شيئا ، فلا حاجة لنا بها ؛ بل ولا طريق لنا إليها ! .

وهنا قاطعني صاحبي في ثورة : يا سبحان الله ! هل تريد أن تقول :
إن القرآن فيه كل شيء ، فهو كتاب علم وفلسفة ، أو كتاب طب وهندسة ،
أو كتاب جامعة ومدرسة ، أو كتاب اختراعات وتفجير ، أو كتاب إنشاءات
وتعمير . . . أو إلى أي مَدًى بنا تسير ! ؟

فقلت لصاحبي في ابتسام : هوّن عليك يا صاحبي : رَوّق . . وتذوّق .
أوَلاَ تعرف مَن الذي قال « القرآن » ؟ ؟ وأنزل « القرآن » ؟ !

أليس هو سبحانه ، الذي خلق الإنسان ، وكوّن الأكوان : « الرَّحْمنُ •
عَلَّمَ الْقُرْآنَ • خَلَقَ الإِنسَانَ • عَلَّمَهُ الْبَيَانَ » ! ؟

فخلق الإنسان بين تعليمين من الرحمن هما : القرآن ، والبيان .

والقرآن كتاب الإسلام ؛ كتاب الدين ؛ كتاب الفطرة ، كتاب الخلق :

« فَأَقِمْ وَجهكَ لِلدِّينِ حَنيفاً ، فِطرَتَ اللهِ الّتى فَطرَ الناسَ عَلَيها لاَ تَبْديلَ لِخَلقِ اللهِ ، ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ ؛ وَلَكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لاَ يَعلمُون » .(سورة الروم ٣٠/٣٠) .

وأخرى : تدبر معى ياصاحبى قوله سبحانه لخاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام . (فى سورة النحل ١٦ الآية ٨٩) :

« ويَومَ نَبعَثُ فى كلِّ أُمَّة شَهِيداً عَلَيهِم مِنْ أَنفُسِهِمْ ، وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ ، ونزَّلنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شيء ، وَهُدًى ، وَرَحمةً ، وَبُشْرَى لِلمُسْلِمِينَ » .

ثم تذوق معى قوله تعالى فى سورة الأنعام ٦ الآية ٣٨ :

«وَمامِنْ دَابةٍ فِى الأرْضِ ،وَلاَطَائِرٍ يَطيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أمْثَالُكُمْ، مَا فَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِنْ شَىء ، ثمَّ إلىَ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » .

أفرأيت يا صاحبى ؟ القرآن : تبيانٌ لكل شىء، نعم : «لكل شىء »، فإذا كانت الفلسفة شيئاً ، فلابد أن يكون تبيانها من القرآن . . .

وثالثة : أنا لا أقول إن القرآن كتاب علم متغير ، ولا معرفة ناقصة ولا كتاب فن متطور ، ولا فلسفة بشرية ، لأن العلوم والمعارف لا تستقر على حال ، ولا تعرف الكلمة الأخيرة ، ولأن الفنون والفلسفات تتغير بتغير الأحوال ، ولا تصل إلى الحقيقة ، وإنما القرآن كتاب العلم الحق ، والمعرفة الصدق لكل البشرية . . .

وقد دفع القرآنُ بكل قوة وحزم، كل إنسان إلى أن يحصل ما يستطيع من تفصيلات العلوم والمعارف والفنون ، ليتعايش بها على الأرض ، ويحقق معنى

خلافته عن الله فى الأرض بعلمٍ دائم ، وعمل متصل .

وهو كتاب الإنسان الحق ، والفلسفة الصدق لجميع الإنسانية ... فيه أصول الأصول لكل ماجدّ ويجدّ ، فى طول الإنسانية وعرضها . . إلى قيام الساعة ، وعلى الناس أن يواصلوا ، لكن إذا قال القرآن فقد قال .

ولئن قعّد أسلافنا ، أصول الفقه من القرآن ، وبلغوا فيه القمة ، وأمسكوا بالزمام ، فلعله قد آن لنا نحن العرب والمسلمين ، نحن المتخصصين والأزهريين ، نحن المفكرين والمتفلسفين . . أن نقعّد أصول كل علم وفن ومعرفة وفلسفة . . . من القرآن ؛ لنقود الإنسانية ، ونمسك بالزمام .

قال صاحبى : آمنت بالله ، ولكن كيف تكون «الفلسفة» من القرآن ؟ وقد أجمعوا على أن يقطعوا الصلة بين الفلسفة والدين ، ضمانا لحرية الرأى والتفكير ، وبعداً عن الأوهام والأساطير ؟ !

قلت لصاحبى : لقد قالها أقوام من قبلهم ، فاسمع رد القرآن « فى سورة الفرقان » عن القرآن :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً • وَقَالُوا: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً • قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً » • (سورة الفرقان ٢٥ / ٤ — ٦) .

والفلسفة كل الفلسفة إنما تحاول أن تبحث عن السر ، فلا بد فيها من الالتجاء إلى الذى يعلم السر كل السر .

ولنا مزيد بحث عند حديثنا عن « الدين والمعرفة » .

قال صاحبى وعلى شفته ابتسامة فيها بعض الدهاء والمكر : نعم ، نعم ،

ولكن أفلا نستطيع أن نبحث فى الفلسفة بعيداً عن الدين ؟ فينطلق تفكيرنا ، وتستقل فلسفتنا ، وتتميز مذاهبنا ؟ !

قلت لصاحبى : وهل يستطيع واحد فى الدنيا أن يبحث فى الفلسفة بعيداً عن جوع يلوى بطنه ، أو عن دَين يؤرق ليله ، أو عُرْيٍ يشرد بدنه ، أو عن مرض يشوى قلبه أو كبده ، أو عن جرح يفتت عظمه ويهرى لحمه ، أو عن لدغة ثعبان يسرى سمها فى جسمه ، أو عن لسعة بعوضة تنقل إليه العدوى من غيره . . . ؟ !

وهل انطلق تفكيرنا من مادة أجسامنا ، أو من قبضة خالقنا ، أو إلى ملكوت غير ملكوتنا ؟ !

وهل استقلت فلسفتنا عن بيئتنا المحدودة ، أو عن ثقافتنا المكدودة أو فى عالم غير عوالمنا الموجودة ؟ !

وهل تميزت مذاهبنا ، فداوت عللنا ؟ أو عالجت أمراضنا ؟ !

يا صاحبى :

إن انطلاق التفكير بلا رابط و بلا حدود : يؤدى إلى الفوضى والفردية .
واستقلال الفلسفة بلا ضابط وبلا تنظيم : يؤدى إلى التخابط والأنانية ،
وتميز المذاهب بلا مناهج ولا معالم : يؤدى إلى التميع والانحرافية .

يا صاحبى : خذها صريحة قوية ، لا غموض فيها ولا إبهام ولا التواء :
من أراد أن يقطع صلته بالدين من حيث التفكير ، والفلسفة ، والآراء ، فليقطع أولاً صلته برب الدين من حيث الخلق : والإماتة ، والإحياء . . .

أو فليخلق نفسه إن شاء ، أو فليخلق لنفسه عينا غير عينه العوراء ، أو فليعش على أرض غير أرض الله وتحت سماء غير السماء ، أو فليستطع أن يعد كم ذرة يتنفس من الهواء ، أو حتى على الأقل فليضمن لنفسه الخلود و البقاء ...

فإن عجز ــ وهو العاجز لا محالة ــ فكماله: فى معرفة عجزه، وعلمه فى معرفة جهله، وفلسفته فى صلته بربه .

قال صاحبى : الله أكبر . . : الله أكبر . . . هذا حق .

قلت لصاحبى : بل قل : هذا صواب ، لأن الحق حكم شرعى ؛ لا يكون إلاّ من الله . . . والصواب حكم عقلى يكون من غير الله . . . وسأزيدك إيضاحاً فى حديثى عن « الحق والصواب » ، وعن « العقل والإنتاج » . . .

قال صاحبى : إذن : للعقل أحكام ؟

قلت لصاحبى : نعم ، و « أحكام العقل » قد تكون صوابا ، ولكنه يحتمل الخطأ ، وقد تكون خطأ ولكنه يحتمل الصواب .

يا صاحبى : إن أحكام العقل أصالةً متصلة دائما بظواهر المادة وخواصها ، وبمقدار تكشفه لها ، يكون حكمه عليها ، فإن فجر العقل أو انحدر ، وتقحم غير مجاله ، خابتْ كل آماله . . .

أوَ يستطيع العقل أن يعرف كيف يعقل ، أو يدرى ما هو ؟

ثم هل يدرك العقل كيف يدرك ، وهل يدرى كيف يُدخل صاحبه فى النوم ، أو أين يكون هو وقت النوم ؟

ثم هل يستطيع أن يقى العقل نفسه فى حالات الجنون والصرع والهستيريا ؟ وهل يمكنه أن يقى صاحبه من شر الكوارث والنوازل والمفاجئات ؟ ؟ !

يا صاحبى : هات لنا عقلا يخبرنا عن سر الحياة فى خلية من خلايا جسمه ، أو عن سر الروح أو الضمير أو الوجدان أو النوازع ، أو النوازغ ، أو الخوف فى يومه أو فى أمسه .

هات لنا عقلا يكشف لنا عما يصيب صاحبه أو يكسبه فى غده ،

أو بعد غده ، أو عند انطلاقه ، أو عند حبسه .

هات لنا عقلا يحدد لنا أجله ، أو أجل صاحبه ، أو مضجعه فى رمسه .

هات لنا عقلا يوضح لنا حياة الإنسان ، ومصيره ، ومصير بنى جنسه .

وهنا غاب صاحبي فى نفسه ، وكأنه يذكِّر نفسه بنفسه ، ويبحث بعقله عن عقله . . . ويطهر أعماقه فى أعماقه . . .

ثم عاد ، وفى عينيه إشراقة من إيمان ، وفوق جبينه نور من يقين . . . وقال فى عمق وضغط وتأكيد : الحمد لله . . الآن أيقنت . . فحدثنى عن الفلسفة الحديثة التى تدعو إليها .

قلت لصاحبي : أن يعيش الإنسان دائما فى أبعاده الثلاثة ، يحققها ويؤكدها ويقويها دائما ويوثقها ، ويتوازن بها دائما ويوازنها . . . حتى لا ينفلت منه بُعدٌ فيتردى إلى الحيوانية ، ولا ينفلت هو من بُعدٍ فيتهدى إلى الشيطانية . . .

وجماع هذه الأبعاد الثلاثة فى كلمات ثلاث : سيادة ، وأخوة ، وعبودية .

« سيادة » على جميع الأرض ، و « أخوة » لجميع الناس ، « وعبودية » لرب الأرض والناس .

وإن شئت فقل عن هذه الأبعاد : إنها : الإيمان ، والأخلاق ، والعلم .

الإيمان ، لتحقيق العبودية : امتثالا ، واتصالا . .

والأخلاق ، لتحقيق الأخوة الإنسانية : سلوكا ، ومجالا . . .

والعلم ، لتحقيق السيادة : تخطيطاً ، وتنفيذاً وأعمالا . .

فالفلسفة الحديثة التى أريدها ، بعد أن أفلست جميع الفلسفات الأرضية : هى الرباط المحكم الموثق ، هى الاعتصام بحبل الله بلا تفرق ، هى إحكام الصلة بين الإنسان ونفسه ، وكونه ، وربه ؛ ليسعد الإنسان فى واقع حياته وبعد موته ،

ويأمن فى نفسه وأسرته وإنسانيته ، وعلمه وعمله :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » . (سورة الأنعام ٦/٨٢) .

وهنا أقبل علىَّ صاحبى وعلى فمه ابتسامة النصر ، وقال فى تودد وتلطف : شكراً لك وحمداً ، فدلنى على السبيل .

قلت : الحمد لله « ياصاحبى » ؛ يقول الله تعالى فى سورة النساء / ٤ فى الآيتين ١١٥ و ١١٦ : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ، وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً » .

ياصاحبى : القرآن هو كتاب المسلمين ، من حاد عنه ، أوانحرف عن حرف منه ، فقد حاد عن الإسلام وانحرف ، بل هو كتاب الإنسانية كلها يأخذ بيدها ، ويطب لها ، فلا كتاب غيره . . .

وليس القرآن — كما يقولون — صالحٌ لكل زمان ومكان ، لأن الصالح للكل : هو الذى يتشكل مع كل شىء من هذا الكل ، والقرآن لا يصح أن يتشكل مع كل زمان ومكان ، بل يجب أن يُشكِّل هو ، ويعالج كل مجتمع وإنسان . وعلى هذا فلا يصح أن نقول ـ كما يقولون ـ القرآن صالح لكل زمان ومكان ، بل يجب أن نقول بكل يقين وإيمان ، « القرآن هو الذى يُصْلِح كل إنسان ، فى كل زمان ومكان ، أو القرآن يُصْلِح كل زمان ومكان ويُسعد كل مجتمع وإنسان . ثم والقرآن هو : كتاب الله ، فهو آيات الله المسطورة ، والكون آيات الله

المنشورة ، لأن الذى خلق الأكوان هو الذى أنزل القرآن ، وبقدر تكشفنا لآيات الأكوان يكون تفهمنا لآيات القرآن ... وعلى مقدار تفهمنا لأسرار آيات القرآن ، يكون تفهمنا لأسرار آيات الأكوان ، هدايةً لبنى الإنسان .

فالقرآن : كَوْنُ الله المنثور ، والكَوْن: قرآن الله المسطور . .

آياته دائما متجددة ، ومعانيه قائمة فى كل زمان ومكان ، وهو المُصْلِح لكل زمان ومكان وإنسان ، وهو القائد لكل ثقافة ومعرفة ؛ وهو الرائد لكل علم وفلسفة ، منه مفاتح العلم ، وفيه أصول الفلسفة ، والفلسفة منه حديثة دائما ومعاصرة ؛ مع كل زمان ومكان ، وفى كل عصر ومصر . . ولكنها تحتاج إلى بعد نظر ، فى حذر وبصر ، وأصالة فِكَرٍ ، واستنباطات وعبر ، وإيمان وتسليم ، وخشية من الله رب العالمين :

« ...إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَماءُ ... » . (سورة فاطر ٣٥/٢٨).

« .. وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة آل عمران ٣/٧) .

يا صاحبى : « القرآن » هو الكتاب الرسمى الوحيد «للمدرسة الإسلامية» كلها ، من محمدها إلى قيامتها ، فى جميع اتجاهاتها وآرائها ، لجميع فرقها ومذاهبها ، فى كل معارفها وعوارفها ، وثقافتها وفلسفتها . . . فى كل زمان ومكان .

وعلى هذا كانت « الفلسفة الإسلامية » أو « الفلسفة فى الإسلام » فى تجددها الدائم ، لاتستمد إلا من القرآن ، ولا تقوم إلا به .

وعلى هذا أيضاً ، لابد من أن تُعرَض على القرآن دائما جميع الآراء الفلسفية الحديثة والمعاصرة ، فإن أقرَّها ، فقد سبقها ، وإن عارضها ؛ فقد أقبرها .

ولكن لا يستطيع الإنسان أن يمتد من أنوار السماء ، إلا إذا ارتقى فوق

قمم الأرض جميعاً ، وأشرف على جميع تخصصات العلم والفن والفلسفة كلها ...

ومن هنا وجب على رجل الدين ، أو الذى يريد أن يتحدث فى الدين ، عن تخصص وعمق ويقين ، . . ألا يبدأ إلا من حيث ينتهى المتخصصون . . .

فلابد إذن من مداومة الاطلاع ، على كل ما يذاع ويشاع ، فى كل جامعة ، أو فى كل اجتماع . . . حول التفكير أو الفلسفات . . . وفى مختلف العلوم والثقافات .

وقبل هذا وذاك لا بد من تخطيط جديد ، واتجاهٍ وتقعيد .

ومع أن هذا الشوطَ بعيد، والحملَ قوى وشديد ؛ فإن الهدف كبير، والعون من الله العزيز الخبير .

قال صاحبى : شرح الله صدرك ، ووضع عنك وزرك : الآن أسلمت وسلمّت ، قوّاك الله .. . وأعانك الله ، والسلام عليك ورحمة الله ، وإلى لقاء بناء ، عند التأسيس للبناء . . .

قلت : وعليكم السلام ورحمة الله ، وعلى محبِّى الحكمة وفصل الخطاب ، وإلى الباب الثانى من هذا الكتاب ، والله الموفق للخير والرشد والصواب .

الباب الثانى

تأسيس القواعد من القرآن

اتجاه وتجديد

تأسيس القواعد من القرآن

اتجاه وتجديد

المقدمة

مراحل التأسيس والبناء

إن فلسفةً جديدةً تريد أن تسطع ، لابد من أن تحدد الأغوار والأبعادَ والمطلع ، وأن تكشِّف السّراب واليباب والبلاقع ، وأن تميِّز المضيء والمنير وما يلمع .

ثم لابد من توضيح الفكرة ، وتحديد المعنى ، وإحكام اللفظ . . . ووضع هذه الثلاثة في إطار واحد ، بعد تنسيقها ، وتعميقها ، وإزالة ماقد يكون بينها من تنافر أو جفاء .

وأخيراً لابدّ من إحياء الموازين القسط ، وإرساء المقاييس العدل ، وتقديم الناضج من الآراء ، بعد الكشف عن الساتر من الغطاء .

وسنحاول بتوفيق العزيز الحميد ، أن نوجه إلى بحث وتجديد ، حول هذا الاتجاه الجديد .. ، وأن نضبط الموازين والمقاييس من جديد ، على الأصيل المحكم : النافع والمفيد . . . تمهيداً لبناء الفلسفة : دُوراً ، وقصوراً ، لكل مجالات الحياة : سلما وحربا ونفيرا ، على قواعد راسخة وقوية ، نستمدها بتوفيق الله بقدر الطاقة البشرية ، من القرآن الكريم كتاب الله للانسانية . . .

ولابدّ لنا من أن نوجِّه إلى الاتجاه الصحيح السليم ، الذي يسير بنا إلى الغرض على صراط مستقيم ، حتى لا تلتوى بنا السبل ، أو تضل أمامنا المقاصد

ثم لابدّ لنا من أن نضع الموازين القسط ، التى نزن بها الأفـكار الإنسانية بقدر الطاقة البشرية ، لنردها ، أو لنردّ عليها ، ولنربطها بأصولها من الفـكر الإنسانى ، أو نربط بها أعناق أصحابها من التفـكير الغربى .

لابد من أن نضع المقاييس العدل ، التى ندفع بها البشرية ، والآراء الاعتقادية ، إلى الفطرة الإلهية ، التى فطر الله عليها الإنسانية « فِطْرَةَ اللهِ التى فطَرَ النَّاسَ عَلَيها » ، لنسعد الإنسانية بها ، فى كل مجالات حياتها ، فى أفرادها وجماعاتها ، وجميع أشكالها وألوانها وتخصصاتها العلمية والعملية ، النفسية والخلقية ، الفلسفية والثقافية ، الفنية والتاريخية . . .

نعم لابدمن أن نؤسس للقواعد ، ونقعّد للأسس ، حتى يقوم هذا البنيان الجديد ، على أساس قوى ورشيد .

وقبل البدء فى البناء ؛ لابد من أن نتأكد من سلامة المواد وصلاحيتها للبناء ، ثم لابد من التنسيق بينها وإحكامها ، ووضعها فى أماكنها وشرفاتها وغرفها وأبوابها وفصولها . . . وكل بنيان قوى كامل ، لابد لإتمامه من ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : تأسيس القواعـد ؛ حتى المساجد ؛ وحتى بالنيات والمقاصد . . . بعد تطهير الأرض من الفجوات والعقبات والانهيارات ، ليرتـكز البنيان على قواعد ثابتة ، وعلى أسس قوية . . حتى لاينهار البناء وقد نبه لذلك رب العزة ، وأمر ونهى فى سورة التوبة ٩ الآيات ١٠٧ — ١١٠ حيث قال سبحانه :

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ ،

وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

المرحلة الثانية : إقامة أعمدة البنيان وأصوله : قويةً راسخة ، متينة ثابتة ، على أسسٍ محكمة ، وقواعدَ راسية ؛ لتشد من جدرانه ، فتثبت أركانه ، وتماسك أجزاؤه .

المرحلة الثالثة : تشييد الجدران ؛ برفع القواعد ، وتثبيت الحيطان بين الأعمدة ليتم البنيان ، ويصلح للسكن والاطمئنان ، ويحوط المهتدى إليه بالسعادة والأمن والاستقرار والأمان . . .

* * *

وسنحاول جاهدين بتوفيق الله ، وما أوتينا من علم ؛ « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . . . أن نردَّ على أوهامٍ وشبهاتٍ ، وأن نزيل كثيراً من شكوكٍ وخيالات :

تخرج المفكر من التفكير أو على التفكير ، وهو يحسب أنه هو المفكر .

وتبعد الإنسان من الإنسانية أوعن الإنسانية ، وهو يظن أنه هو الإنسان .

وتدور هذه المقاييس وتلك الموازين ، وبعبارة أدق : تلكمو الأسس

والقواعد : على قضايا صحيحة واضحة ، نستطيع أن نجملها فى عناوين هادية ، ونوضحها — بإيجاز — فى عباراتٍ هادفة تصل بنا إلى القصد ، وتأخذ بأيدينا إلى الرشد ، وهى :

١ — الحق والصواب .

٢ — الحكمة والعلم .

٣ — العقل والإنتاج .

٤ — الخلق والتفكير .

٥ — الدين والمعرفة .

٦ — الإنسان والحضارة .

٧ — الإسلام والتطور .

وهذى لعمر الحق ، هى : قواعد الأساس ، وأساس القواعد .

* * *

ثم لا بد بعد ذلك من محاولات ، لتطبيق هذا واقعيا على بعض المجالات ؛ كأمثلة عملية ، فى حياتنا الدنيوية ، تمهد بها الطريق ، أمام كل مفكر ومتخصص ، وحكيم ومتفلسف ... أقول لا بد من أن نحاول بتوفيق الله : أن نستمد من القرآن ، كل ما يحيا به الإنسان ، ويحتاج إليه الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، وعلى اختلاف الثقافات والألوان ، وإن شئت فقل إننا نمهد للفلسفة المادية : العملية والعلمية ، النظرية والجدلية .. من الآيات القرآنية ، التى هى المفاتح الحقة للآيات الإنسانية والعلمية والكونية ..

فإذا ما استقرت هذه الأسس والقواعد أمامكم ، وسلمتم بها وتيقنتموها .. وجب أن تتأكدوها وتؤكدوها ، ولا يصح أن تفرطوا فيها أو تحيدوا عنها ...

بل يجب — وقد علمتم أنها الصواب أو الحق — أن تتعايشوا عليها ، وتتمسكوا بها ، وتتواصوا بالحق منها ، وتتعاونوا على تأكيد الصواب فيها ، من أجل إقرارها ، وتحقيقها ؛ لإقرار الأمن الإنسانى ، والسلام العالمى . . .

ورحم الله شوقى الشاعر العربى المؤمن الذى قال :

الحق : عِرضُ اللهِ ؛ كلُّ أبيَّةٍ

بينَ النفوسِ : حِمىً له ، ووِقاءُ

وهكذا الفكر العربى الأصيل : يقود إلى الصواب .

وهكذا الذوق الإسلامى الصادق : يهدى إلى الحق .

يقول رب العالمين الحق ، فى كتابه الحكيم الحق ، الذى أنزله بالهُدى ودين الحق ، على خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ؛ عن كل العلماء الذين آتاهم الله العلم . . . فى سورة سبأ ٣٤ / ٦ :

« وَيَرَى الَّذينَ أُوتُوا العِلمَ : الَّذِى أُنزِلَ إليكَ مِنْ رَبِّكَ هوَ الحقَّ ، وَيَهْدى إلى صِراطِ العَزيزِ الحَمِيد » .

وحتى الجنّ لمّا استمعوا إلى القرآن ؛ كما قال رب العزة فى صدر سورة الجن ٧٢ :

« قُلْ أُوحِىَ إلىَّ أنه استمع نَفَرٌ من الجنِّ ،فقالوا : إنَّا سَمِعْنا قرآناً عَجَباً ، يَهدِى إلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ، ولن نُشرِكَ بربِّنا أحداً » .

* * *

الباب الثاني

الفصل الأول

الحق والصواب

الاختلاف العام حول الحق.

سهولة لفظ الحق وامتناعه .

اختلافهم فى المعيار الذى يقاس به الحق .

اختلافهم فى الطرائق المؤدية إلى الحق .

الحق منه دائما كل الصواب . .

الحق فى لغة العرب، وعند الأئمة مثل : الجرجانى . الأصفهانى . ابن فارس

الحق فى الأشياء وفى الأحكام . بين الحق والصواب .

الحق والصواب من القرآن الكريم .

عجوز عمر . عمر والحجر . عمر وابن عباس . حديث الدواة والقرطاس

تمهيد المقدمات لفهم الحديث : الرسالة والرسول . اجتهاد الرسول .

محمد صلى الله عليه وسلم بين البشرية والوحى .

الروح ، والأمر : من القرآن الكريم .

أمر الله أمران : تكوينى ، وتكليفى .

أمر الرسول أمران : قضائى ، وتعليمى .

القواعد المستفادة من الحديث .

حديث الافتراق . النص ، والظاهر . المحكم ، والمتشابه .

أسباب تكوين الفرق . أسباب تصارع الفرق

رد حديث الافتراق بلسان أهل السنة : الأشعرى ، والشهرستانى .

الحق والصواب

أصاب « الحقّ » ما أصاب ، من المتفلسفين والمتعالمين والكُتّاب ، من قبل ميلاد المسيح ومن بعده ؛ حتى أنزل الله « الكتاب » ، فرسم الطريق ، وفتّح من دونه الأبواب ، وتسارعت الإنسانية إلى ما يشرح الصدور ، ويهذب النفوس ، وينير القلوب ، ويأخذ بالنوّاصي والألباب . . .

ولكن الإنسان ، هو الإنسان ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى كل حَرّ وفى كل ظِل :

إن ظن أنه استغنى بعقله ، وليس هو العاقل : ضلّ ، وأضل .

وإن فهم أنه امتلك بعلمه ، وهو الجاهل : ذلّ ، وأذل .

وإن استعلى بتفكير أو فلسفة ، وهذا هو السفه : غلّ ، وأغلّ .

وسبحان من خضعت لقوله الدنيا : « .. إنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى • أن رّآهُ استَغْنَى » . (سورة العلق ٩٦/ ٦ ـ ٧) .

والعجيب فى أمر « الحق » ، أن لفظه سهلٌ ممتنع ، كلفظ « الحب » ؛

سهلٌ كل منهما كل السهولة من حيث التلفظ والنطق ،

ممتنع كل منهما كل الامتناع من حيث التطبيق والاتساع والعمق . . .

تعاشق الناس جميعا لفظ « الحق » وتسارعوا إليه .

وتنازع المفكرون جميعا معنى « الحق » وتصارعوا حوله . . .

دون أن يتعمقوا شيئا من مدلوله ، أو يتكنّهوا شيئا من معانيه . . .

تناوبه العلماء والأدباء والبلغاء والمتفننون ، وادعاه لأنفسهم خاصةً : المناطقة والفلاسفة والمتفلسفون . . .

قالوا : حَقٌّ وواجب ، حق وصدق ، حق وظلم ، حق وباطل ، حق وخطأ ، حق واغتصاب ، حق وحقيقة وتحقيق ...

وقالوا : حقيقة ومجاز ، وحقيقة وشريعة ، وحقيقة وهوية وماهية ، وحقيقة عقلية ، وحقيقة عرفية ، وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق . . .

وقالوا : هو من حماة الحقائق ، وتحققت ذلك وعرفت حقيقته ، ووقفت على حقائق الأمور ، وهذا من حقي وليس من حقك ، وهنا حقك وهناك حق فلان ..

تَنَسَّم العلماء ريح « الحق » ، فتسارعوا يبتغون الوصول إليه .

وادعاه الفلاسفة بغير حق ؛ فتصارعوا من حوله وهم بعيدون عنه .

وكلٌ يدَّعِي وَصْلاً بليلى وليلى لا تُقِرُّ لهم بذاك

قال الفلاسفة : إنه إحدى القِيَمِ الإنسانية الثلاث ، التي هي الحقّ ، والخير ، والجمال .. .

وذهب القليل منهم إلى اعتبار أن « الدِّين » واحدٌ من هذه القيم ،

وقال الأقل النادر منهم : بل « الدين » هو مجموع هذه القيم . . .

والغربيون لا يفهمون « الدين » ، لأنهم ينكرون الإسلام وهو كل الدين ؛ ولأنهم يرفضون الإسلام ، وهو الدين عند الله : «إنّ الدِّينَ عند الله الإسْلاَم » ، ولأنّهم يكفرون بالقرآن ، وهو كلام الواحد الديان ، أُنزله مصدقا ومكملا ومهيمنا على كل دين ، بل هو كل الدين ..

فكيف يبيح لهم العلم أو العقل أن يبحثوا في الدين ويستدلوا ؟ أو حتى أن يبحثوا عن الدين وهم قد ضلوا ؟ ! .. لأنهم للدين وبالدين كل الدين منكرون ، ورافضون ، وكافرون ...

ثم كيف بأهل الدين يطلبونه من غير أهله ، أو يفتقدونه عند غير أهله ؟؟!

« إنهاَ لإِحْدَى الْكُبَرِ * نذيراً للبَشَرِ » . . .

(سورة المدثر ٧٤/٣٥ — ٣٦) .

« ولَقدْ يَسَّرْناَ القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهلْ مِن مُدَّكِرٍ » . . .

(سورة القمر ٥٤ / ٤٠) » ؟ ؟ ! !

ثم تصارع الفلاسفة حول « الحق » على طول الزمن وتخالفوا : أهناك حق مطلق ، أم هو أمرٌ نِسبي ؟ .

وعلى كل حال فكيف الوصول إليه ؟ وبأيّ الوسائل يبحث عنه ؟ ! وأى طريق تُوجِّهُ نحوه ؟ !

ثم تقاذعوا فى « الحق » وتخاصموا : أهو قيمة فى ذاته كغاية ، أم يُعدّ وسيلة لتحقيق هدف أو غاية ؟ أم هو شىء غير الوسيلة والغاية ؟ ؟

ثم هل الحق والخير سواء ؟ أو هو إلى الجمال أقرب ؟؟ أم أنها جميعاً أجزاء تميمة ؟! أم أن الصحيح أنه ليست هناك قيمة ؟!

وقد سار «المحدَثون» و « المعاصرون » من الغربيين فى كل هذه الاتجاهات فضلوا ، وزادوا كثيرا من الانحرافات فزلوا . . .

ولكن الذى يجمعهم ، أنهم قد ساروا فى تيارات السوفسطائية ، من عِنْدِيَّة ، وعِنادِيَة ، ولا أدريّة ، فأحاطت بهم المادية ، والوضعية ، والفردية ، والأنانية ، وأنكروا القول بالحق المطلق ، كما أنكروا معرفة الشىء فى ذاته من ذاته معرفة يقينية . . .

ثم تفرقوا حول المعيار الذى يمكن أن يطمئن إليه الفيلسوف منهم أو المتفلسف، للوصول إلى « حق » ، أو يقين . . .

والمدهش أن كل واحد منهم « فردى » « عِندى » فيما يزعمه من « حق » و « أنانىّ » و « عِنادىّ » فيما يدعيه من « يقين » ...

وإن كان الكثير منهم قد اكتفى بالتوقف ، وأعلن « اللا أدرية » ، أو حاول أن يعمم بعض المقاييس الفردية .

ولنضرب مثلا بأمثلهم ، من ولائد عصر نهضتهم ، ولما تنفك التمائم بعدُ عن أمتهم ...

هؤلاء الذين اعتبروهم قمم نهضة ، وعماليق فلسفة ، وينسبون إلى كل واحد منهم أنه مؤسس لمدرسة ، ومبتكر لفكرة أو فِكَر ، ظهرت فى قرنهم السابع عشر ، ثم تعملقت فى أول القرن التاسع عشر . . .

فمنهم « بيكون » الإنجليزى المتوفى ١٦٢٦ م ، الذى وقف عند حِسّه ، ثم تطاول إلى تجربته ... ووقف دون العقل . . .

ومنهم « ديكارت » ١٦٥٠ م الفرنسى الذى شك فى حسه وعقله ؛ ثم قفز إلى « الحَدْسِ » ؟ ولكن بالعقل ! وأين الحدْس من العقل ؟ !

ومنهم « كانت » الألمانى ١٨٠٤ م الذى جمع بين الحس والعقل ، للسير بالإنسان إلى الحق فى نظره : كالجوادين يجران العربة ، ووقف هو من ورائهما — فى زعمه — كالسائق الماهر للجوادين ، يمسك باللجامين ، ويدفع بأحد الحصانين ، أو يلهب ظهر أحد البغلين ... لتسير العربة فى اتساق وتنسيق بين الحس والعقل .

ثم اختلفوا فى « المقياس » الذى يمكن أن يقاس به « الحق » فى نظرهم ؛ فتنافرت المقاييس فى أيديهم واضطربت ، وتناحرت موازينهم واصطرعت ؛ وذهب كل منهم إلى مقياس ، أو حاول جماعة منهم أن يتشاركوا فى مقياس .

وكان من أكثر مقاييسهم شيوعا :

مقياس الوضوح .

ومقياس المنفعة .

ومقياس التجربة العملية .

ومقياس الخبرة الحسية .

ومقياس الاتساق مع أحكامهم الواقعية .

ولكن الذى تجب ملاحظته على هؤلاء جميعاً — أنهم يخلطون بين «الحق» و«الصواب» ، ولايفرقون بين «الباطل» و «الخطأ» ، وهذا ما أوقعهم جميعا فى الخلط والاضطراب ، وأودى بهم جميعا إلى الانحراف ، والاعتساف ، والاصطخاب ...

فلنترك هؤلاء وهؤلاء يتيهون فى السراب ، ولنحاول بتوفيق الله أن نطرق الأبواب ، لنؤسس القواعد على هُدًى من الحكيم الوهاب ...

والذى يجب أن تؤسس قاعدته الآن : هو أنَّ الحق منه دائما كل الصواب ، أما الصواب فقد يؤدى إلى بعض الحق .

لأن « الحق » كما ذهب إليه الجرجانى (ص ٧٤٠ — ٨١٦) فى كتابه « التعريفات » هو :

« الواجب الثابت حقيقة ، الذى لا يسوغ إنكاره ، هو الشىء الثابت قطعاً ويقينا » .

والمادة فى لغة العرب أصالة إنما تدور على أصل واحد يدل على : إحكام الشىء وصحته ، قال ابن فارس (٣٩٥ هـ) فى كتابه « معجم مقاييس اللغة » :

« الحاء والقاف أصل واحد يدل على إحكام الشىء وصحته ، فالحق نقيض

الباطل ؛ ثم يرجع كل فرع إليه بجودة الاستخراج ، وحسن التلفيق ، ويقال : حَقَّ الشيءُ : وجب إلى غير ذلك من المجازات ...»

وقال الراغب الأصفهانى سنة ٥٠٢ هـ فى « مفردات غريب القرآن » :
« .. والحق يقال على أوجه ؛ يقال لموجِد الشيء بسبب ماتقتضيه الحكمة ؛ ولهذا قيل فى الله هو الحق .. الثانى يقال فى الموجَد بحسب مقتضى الحكمة ؛ ولهذا يقال فعل الله كله حق .. »

* * *

وعلى هذا فالحق من الموجودات هو الموجود الحق الثابت الدائم الأزلى الأبدى ، الذى لا أول له ولا آخر ، والذى لا يُحد بزمان ولا مكان .. هو واجب الوجود مطلقا ..

ولا يمكن أن يتصف أى مخلوق بشيء من هذا ، كما لا يمكن أن يطلق شيء من هذا على أى كائن من الكائنات ..لأنها جميعا متغيرة .. حتى المادة فى ذاتها متغيرة ، وتتغير إلى طاقةُ ، وحتى الطاقة كذلك فى ذاتها متغيرة ،وتتغير إلى مادة . .

وعلى هذا أيضاً ،فإن « الحق » هو « الله » تعالى وتقدس سبحانه ..
« فالحق » اسم من أسمائه سبحانه ، ولا يطلق على غيره من جميع العناصر والكائنات والمخلوقات والملكوتات ؛ لأن الحقّ واحد لا يتعدد ، وسبحانه وحده سبحانه ، هو الواحد الأحد .

وكل شيء غير الله سبحانه ، قد خلقه الله : متعدداً ، لا أحدية فيه .. مفتقراً لا استغناء له ... وقد قال سبحانه فى سورة الذاريات ٥١/٤٩ :
« وَمِنْ كُلِّ شيء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » .
فهلاَّ تذكر العلم ، وتذاكر العلماء ، وبحثوا وتخصصوا ؟ ! .

أما الحق من « الأحكام » ، أو « الأخبار » ؛ فهو الثابت قطعا ويقيناً ، الصحيح مطلقا ودائما ، الذى لا يتغير بتغير الأحوال ، والبيئات ، والثقافات ، واختلاف وجهات النظر ، وهو الذى لا يتغير أيضا بتغير الأزمنة والأمكنة والاتجاهات والميول . . .

وهذا كله لا يمكن أن يصدر إلا عن عالم محيط ؛ بيده مفاتح العلم كله ، ومفاتح الغيب جميعه : له الحكم ، والخلق ، والأمر ، والمرجع ، والحساب . . ولا يكون هذا إلا من الله « الحق » ..

وعلى هذا فليس فى الحق نسبية ولا فردية ، ولا وقتية ولا مكانية ؛ إلا بطريق المجاز أو الاستعارة ، أو الانتقال باللفظ مثلا إلى معانٍ اصطلاحية ، بل ليس الوصول إلى « الأحكام الحق » فى مقدور الإنسانية .

ثم إنّ الحق لا يتكثّر ولا يتعدد ، ولا يتنقّص ولا يتزيّد ، ولا يتغير ولا يتبدّل .. فالحق واحد ، واحتمال الخطأ مع الحق مستحيل .

والذى يقابل الحق هو : « الباطل » ، و « الضلال » ، ولا شىء ، والفساد ..

* * *

وأما « الصواب » فهو الحكم الصحيح نسبيًا ، الذى يتوجه إلى الغرض ، ويصيبه فى جزء منه ،

وعلى هذا فلابد من أن يختلف الصواب باختلاف الأزمنة والبيئات ، أو الثقافات والاتجاهات ، وبمقدار تكشف الخصائص والظواهر ..

وهذا هو الذى فى مقدور الانسان ، ومقدور العلم .

والصواب يتكثر ويتعدد ، ويتزيد ويتنقص ، ويتعدد بالتالى المصيبون ، ويتزيدون ويتنقصون .. فالصواب كثير ، واحتمال الخطأ مع الصواب أكيد .

ومن هنا أجمع الكل على أن « العلم » لا يعرف الكلمة الأخيرة . . . والذى يقابل الصواب هو الخطأ ، وهو نسبى أيضاً ... واحتمال الصواب مع الخطأ موجود ...

* * *

وقد ورد لفظ « الحق » فى القرآن الكريم ٢٤٤ مرة ، ودارت « مادة الحق » فى القرآن ٢٨٥ مرة ، على كثير من المعانى ، نشير إلى بعضها فيما يأتى :

١ — اسم من أسماء الله تعالى ؛ ومنه قوله تعالى :

« فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ... » .(سورة طه ٢٠/١١٤) ، (وسورة المؤمنون ٢٣/١١٦) .

« ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ... » .(سورة الأنعام ٦/٦٢) .

« فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ...» . (سورة يونس ١٠/٣٢) .

٢ — ما يقضى به الله ويقصه ؛ ومنه قوله سبحانه :

«وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ .» (سورة غافر ٤٠/٢٠) .

« ...إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ ... » (سورة الأنعام ٦/٥٧) .

٣ — خَلْقُ الله ؛ ومنه قوله جل شأنه :

«أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ... » (سورة إبراهيم ١٤/١٩) .

«... مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» .
(سورة يونس ١٠/٥) .

٤ — ما عليه محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ومنه قول الله سبحانه وتعالى له :

« فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ .. ».(سورة النمل ٢٧/٧٩).

« إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ...» . (سورة البقرة ٢/١١٩) .

٥ — القرآن وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الإسلام دين الله الحق ؛ ومنه قوله سبحانه :

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ .». (سورة التوبة ٩/٣٣)

« هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ .. »(سورة الجاثية ٤٥/٢٩) .

« وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ .. » .
(سورة فاطر ٣٥/٣١) .

«وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. ». (سورة الإسراء ١٧/١٠٥).

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ .. » .
(سورة يونس ١٠/١٠٨) .

٦ — وَعْدُ الله ، وكل ما يصدر عن الله ؛ ومنه قوله جل شأنه :

« ... أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ » .
(سورة يونس ١٠/٥٥) .

« .. الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ »(سورة يونس ١٠/٩٤).

« .. قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ .. ».(سورة يونس ١٠/٣٥) .

« مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ». (سورة الحجر ١٥/٨) .

٧ — يوم القيامة والملك الحق ؛ ومنه قوله سبحانه :

« ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ .. ». (سورة النبأ ٧٨/٣٩) .

« الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ .. » (سورة الفرقان ٢٥/٢٦) .

« يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ »
(سورة ق ٥٠/٤٢) .

وقد ورد لفظ الباطل فى القرآن ٢٦ مرة ، ودارت مادته ٣٦ مرة .

أما لفظ الخطأ فقد ذكر فيه مرتان ، ودارت مادته فيه ٢٢ مرة .

وأما لفظ الصواب فقد ورد فى القرآن الكريم كله مرةً واحدة ؛ وإن دارت المادة فى القرآن ٧٨ مرة .

ومن عجب : أن هذه المرة الواحدة فى القرآن كله ، التى ذكر فيها لفظ « الصواب » تُقَعِّدُ وحدها قواعد فى منتهى الخطورة والعمق ، وتفصل فصلا تاماً بين « الحق » ، « والصواب » ...

لأنها تؤكد أن جميع المخلوقات ، بل جميع الملائكة ، بل حتى أرقاها وفى أعلا مراقيه ، وهو محوط دائما بالحق يحمله ويبلغه ويقوله عن الله الحق ، لكنه إذا تحدث من ذات نفسه من غير أن يكون مُبلِّغاً . . . لا يستطيع أن يقول « الحق » ؛ بل أقصى ما يستطيع أن يقول إنما هو « الصواب » . . .

هذا هو جبريل : الروح الأمين ، الروح القدس ، رسول الله الحق ، إلى جميع رسل الله الحق ، بجميع رسالات الله الحق ، إذا تكلم من ذات نفسه يوم القيامة الحق ، وبإذن من الله الحق . . . لا يستطيع أن يقول حقاً ، وإنما أقصى ما يمكن أن يقول — إن قال —: « صواباً » . .

تدبروا معى قول الله الحق عن جبريل عليه السلام : « الروح » ، والملائكة ، وهم جميعاً معه فى صف واحد ، يوم القيامة ، من سورة النبأ ٧٨ / ٣٨ – ٣٩ .

« يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ والمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إلاَّ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوابًا * ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ، فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ مَآبًا » . . .

وصلى الله على خاتم رسله ، محمد النبى العربى صلى الله عليه وسلم ، الذى قال له ربه :

« وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : الَّذِى أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » . (سورة سبأ ٣٤/٦) .

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . (سورة الحج ٢٢ / ٥٤) .

* * *

قال صاحبى فى إخباتٍ وخشوع ويقين ، وفى تمتماتٍ تقطر بالرجاء وبالأسى والأنين : ألاَ ياليت الناس — كلَّ الناس — يعلمون . . .

فليس هذا فقط أساساً لبنيان ، وإنما هو أساس البنيان . . .

بل هو قاعدة الأساس . . لكل أساس . . لكل الناس . . بل هو بنيان الأساس . . لأن هذه القاعدة قاعدة الحق . . هى التى تجمع الأمة ، وتوحد الكلمة بحق . . .

وعلى أساسها ، وتأسيسها : يزول سريعاً مايشتدُّ من حِدَّة الخلاف . . وينعدفع

سريعا جميع الناس فى هدوء واطمئنان وإيلاف ، إلى التقارب والتفاهم والائتلاف

نعم .. نعم . . هذا الأساس الحق والصواب ، يجمع الكل حول الحق ، ولا يتفرق بأحد على صواب ؛ مهما تنوعت المسالك وتعددت الأبواب . . خصوصا إذا انفتحت القلوب والآذان ، وتدبر الإنسان كل إنسان ...

ثم أخذ صاحبي يتنفّسُ فى هدوء حتى ملأ صدره ، وأسند ظهره ، وأراح على كفه رأسه ، وأرخى على المقعد جسمه ، واستراح وأغمض على انسجام عينه .

وجعل يردد فى هدوء ويقين وعمق . . الحمد لله .. الحمد لله .. هذا هو الحق ... وبعد قليل اعتدل ، وفتح عينيه وسأل :

وهل طُبِّق هذا قبل ذلك فى مجتمع إنسانى ؟! قلت لصاحبي : شكراً لله .. ولك .. نعم . ولكن قل فى مجتمع إسلامى قرآنى ..

قال : ومتى ؟ وكيف ؟ !

قلت : لما انتهى الإمام « أبو حنيفة » النعمان ، من إتمام مذهبه ، قال : « علمنا هذا رأى ، وهو آخر ما قدرنا عليه ، فمن رأى غير ذلك فله مارأى ولنا ما رأينا » .

أما الإمام « الشافعى » رضى الله عنه ، فقال فى نهاية مذهبه : « رأيُنا صوابٌ يحتمل الخطأ ، ورأى مخالفنا خطأ يحتمل الصواب » .

وتطبيقا دقيقا وعميقا لهذا ، نرى الإمام الشافعى يسافر إلى العراق ، بعد وفاة الإمام أبى حنيفة رضى الله عنهما ، ثم يُصلّى الشافعى فى العراق صبح الجمعة بأصحابه ، ويترك واجباً يراه الشافعى ولا يراه أبو حنيفة واجباً ، وبعد الصلاة يقول له أصحابه أنسيت يا إمام ؟

فيقول لهم: والله ما نسيت ، ولكن تركته عمداً احتراماً لرفات الإمام..

أبي حنيفة فى قبره ، ونحن على مقربة منه ، وفى بلده ..

ثم .. والعجوز — عجوز عمر — التى لم يحتفظ التاريخ باسمها ، ولم يرفع من شأنها ..

قال : وما شأن العجوز مع عمر ؟ !

قلت : وقف عمر بن الخطاب رضى الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خليفة ... وطالب فيما طالب به ألا يزيد مهر النساء عن أعلى مهر دفعه رسول الله ، لواحدة من أمهات المؤمنين رضى الله عنهن .. وأخذ يستدل .. بغير حالة المجتمع وظروف الناس ...

فردت عليه عجوز من آخر المسجد قائلة : أخطأت ياعمر ؛ لأن الله يقول : « وإنْ أردتم استبدالَ زَوج مكانَ زَوْجٍ وآتيتمْ إحداهنَّ قِنطاراً ، فلاتأخُذوا مِنه شيئاً ، أتأخذونه بُهتاناً وإثماً مبِيناً » . (سورة النساء ٤/ ٢٠) .

فقال عمر : « أصابت العجوز وأخطأ عمر » .

وبهذا ارتفع عمر فى عمريته وضرب به المثل ، وبقيت العجوز عجوزاً ، وشاع المثل ...

قال صاحبى : وعلى ذكر عمر : كيف تأففَ — وهو يحج بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — عند تقبيل الحجر ؟ وقال : « والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبّلك ما قبلتك » ؟!

قلت : ياصاحبى : شيئاً من فهم عمر ، وإيمان عمر ، وتوجيه عمر ...

ياصاحبى : إن عمر بن الخطاب وهو خليفة المسلمين ، وشيخ فقهائهم وعلمائهم ، والمسئول بعد صاحبيه عن الدين وأمور الدين ... يوجّه نظر المسلمين بهذا إلى قاعدة أساسية ، هى أن النصوص القرآنية ، والسُّنة النبويّة ، وجميع

الأوامر والنواهى الدينية : لا يصح أن يعترض عليها مؤمن بالمماحكات العقلية ، ولا بالأدلة المنطقية . . بل لا بد من قبولها ، والتسليم بها ، والإذعان لها ، وتنفيذها . . ولو لم يفهم المؤمن شيئاً من أسرارها ، ولو وصل المؤمن فى طول الأرض وعرضها ، إلى مثل فهم عمر ، أو إثارة عمر . . فليس لعمر ، ولا لواحد من المؤمنين ، أن يعترض ويتعلل ، أو أن يناقش ويدلل ، وإنما المفروض الحتم على كل مؤمن ، أن يحاول تبرير الأمر إن استطاع ، وإلا وجب عليه أن يمتثل وينفذ ويسلم ، ولا يشعر فى صدره بحرج ... فقد قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » . (سورة النساء ٤/ ٦٥) .

وقال سبحانه : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ... » .
(سورة الأحزاب ٣٣/٣٦) .

فعمر بهذا إنما يدفع المسلمين ، ويوجه المؤمنين ، إلى المسارعة إلى الامتثال والتنفيذ والإذعان ، بلا إهمال ولا تردد ولا نُكُوص ، لجميع ما أمر الله به ، وفعل رسول الله إياه ، مهما تراءى للفهم من مناقشة أو اتجاه . . ويطلب « عمر » من جميع المسلمين . . وكل فرد من المؤمنين : تنفيذ الأمر ، والتسليم بالأمر ، والإذعان للأمر ؛ حتى وإنْ لم يستطيع المؤمن فهم الأمر وتبرير الأمر ، وليس الاعتراض على الأمر . . . « نفذ الأمر ولو كان خطأً من وجهة نظرك » . « نفِّذ الأمر وسلِّم تسلم ؛ ولو لم تفهم ، ولا تتظلَّم » . .

وهذه قاعدة أساسية خصوصاً فى الأوامر العسكرية ، وعمر شيخ العسكريين .

ثم وهناك قاعدة أخرى هى أعلا من هذه القاعدة .

والقاعدة الأخرى هي: « بَرِّرْ الأمرَ مهما كان ، ودافع عنه بكل قوة» والتمس له من وجهة نظرك ما تستطيع من المبررات والبراهين ، لأن الآمر بهذا الأمر حكيم أمين ...

وهاتان القاعدتان : بدأهما « عمر » ، وأتمهما « عليّ » رضى الله عنهما .

فقال عمر .. ربما من وجهة نظر معترض أو مفكر : أن يقول في نفسه أو بلسانه عن الحجر الأسود في بيت الله ، ولماذا نقبل هذا الحجر ، وهو لا يضر ولا ينفع ؟ ثم وقد ألغى الإسلام تقديس الأصنام والأوثان والأحجار ، فكيف نعظم نحن هذا الحجر وهو حجر من الأحجار ؟! وما الحكمة ؟ وأيّ دليل ؟ وأي مبرِّر ؟ ... على كل حال أمرى لله ! ويقبل الحجر كارها ... فأراد عمر أن يضرب المثل بنفسه تعليما للأمة فقال ، بلسان المقال : والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ... ولكن مهما كان فلابد من الامتثال والتنفيذ ... « ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ...

وهنا تدخل « عليّ بن أبي طالب » كرم الله وجهه ، ليبرر الأمر بكل قوة ، لأنه يعلم توجيه عمر ، ومقصد عمر ، وتعليم عمر لجميع المسلمين ، فى كل زمان ومكان ، وعلى مستوى أى فهم وفكر ...

فقال « على » رضى الله عنه لعمر : على رِسلك يا عمر وتمهل ، فليست المسألة تنفيذ الأمر فقط ، بل لابد من تبرير الأمر ، قال « عليّ » : « مَهْ يا عمر ، والله إنه [الحجر الأسود] يضر وينفع ، لأنه يشهد لمن قبَّله يوم القيامة » .

وهنا انطلق صاحبى : الله أكبر ... لله درّك يا عمر : لله أنت يا على ...

وفكر صاحبى وقال : إذا كان هذا شأن عمر ، وهذا توجيه عمر ؟..

فكيف يخالف عن رسول الله الحق فى مسألة القرطاس والدواة ، وقد طلبهما

رسول الله ليكتب كتاباً لا تضل الأمة بعده ؟! وأرجو أولاً أن تذكّرنى بنص الحديث قبل الحديث عن موقف عمر ...

قلت لصاحبى : أما نص الحديث على ما رواه « البخارى » ، كما يقول « الشهرستانى » فأول تنازع وقع فى مرضه عليه السلام فيما رواه الإمام أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى بإسناده عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال : « لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم مرضه الذى مات فيه ، قال : ائتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى ، فقال عمر رضى الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ، حسبنا كتاب الله وكثر اللغط ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع » .

قال ابن عباس : « الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد قال الشهرستانى ذلك فى المقدمة الرابعة من مقدماته العامة أمام كتابه الملل والنحل — تخريجنا — عقب إيراده لشبهات المنافقين والكفار زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليرجع إليها كل شبهات الأمة ؛ فى جميع الفرق ؛ وليرجع بها إلى شبهات اللعين الأول إبليس ..

وقد قال الشهرستانى قبل إيراده لحديث عمر هذا : « وأما الاختلافات الواقعة فى حال مرضه عليه السلام وبعد وفاته بين الصحابة رضى الله عنهم ؛ فهى اختلافات اجتهادية كما قيل ، كان غرضهم منها : إقامة مراسم الشرع ، وإدامة مناهج الدين » .

قال صاحبى : بالله عليك حقق نص الحديث أوّلاً .

قلت يا صاحبي : أما وقد طلبتَ منى هذا الحديث بِنَصِّه ، فإن الأمانة العلمية تقتضيني أن أرتمى فى طول البخارى وعرضه ، لأستوضح منه جميع رواياته لهذا الحديث عنده ، وبنصه .

وقد كرر البخارى هذا الحديث أكثر من ثلاث مرات فى صحيحه ، موزعة على أجزائه وكتبه ؛ فذكره فى كتاب العلم من الجزء الأول ، وفى كتاب المغازى من الجزء السادس ، وفى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة من الجزء التاسع ...

والرواية الأولى عن يحيي بن سليمان ، عن ابن وهب ، عن يونس . . .

والرواية الثانية عن على بن عبد الله ، عن عبد الرزّاق ، عن مَعْمر . . .

والرواية الثالثة عن إبراهيم بن موسى ، عن هشام ، عن معمر . . .

وكل هذه الروايات الثلاث بعد ذلك ، مروية عن الزُّهرى ، عن عبيدالله ابن عبد الله بن عُتبة ، عن ابن عباس . ولنترك من الروايات ما فيه (هجر) مهما اتفق عليه الشيخان سنداً ومعنى ، ورَوياه أيضا عن ابن عباس .

ونص الرواية الأولى فى الجزء الأول ص ٣٠ . . عن ابن عباس قال :

« لما اشتد بالنبى صلى الله عليه وسلم وجعه قال ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لاتضلوا بعده ، قال عمر : إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندنا كتاب الله حسبنا ، فاختلفوا وكثر اللغط ، قال : قوموا عنى ولا ينبغى عندى التنازع ، فخرج ابن عباس يقول : « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه » .

ونص الرواية الثانية فى الجزء السادس ص ٩ : عن ابن عباس أيضا قال :

« لما حُضِرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى البيت رجال ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، : هَلُمُّوا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، فقال بعضهم : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ،

فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قرّبوا : يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول غير ذلك ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُومُوا »

قال عُبيدُ الله : فكان يقول ابن عباس : « إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم » .

ونص الرواية الثالثة فى الجزء التاسع ص ١١١ ... عن ابن عباس كذلك قال:

« لما حُضِر النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ، وفى البيت رجال فيهم عمر ابن الخطاب :

قال : « هَلُمَّ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده .

قال عمر : إن للنبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع ، وعندكم القرآن ، فحسبنا كتاب الله . واختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قَرِّبوا يكتبْ لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر .

فلما أكثروا اللغط والاختلاف عند النبى صلى الله عليه وسلم، قال: قوموا عنى .

قال عبيد الله : فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم » .

وقد ورد هذا الحديث فى الجزء الحادى عشر من « صحيح مسلم » بآخر كتاب الوصية بأسانيد وروايات تختلف قليلا عن البخارى ، وآخِر رواية لمسلم تقترب كثيراً من آخر رواية للبخارى ، مع أن سندها عند مسلم يقترب كثيراً

جداً من سند الرواية الثانية للبخاري ، فكلاهما بينه وبين عبد الرزّاق واحد فقط، هو على ابن عبد الله عند البخاري ، وهو محمد بن رافع أوعبدُ بن حُمَيد عند مسلم ، وقد أخرج هذا الحديث أيضاً النسائى فى باب العلم .

والذى أحب أن ألفتك إليه سريعاً ياصاحبى ، هو كلام بعض الشرّاح لهذا الحديث، وسأكتفى معك الآن ببعض كلمات لبعض المحققين من الشراح له ؛ مُعرضاً عن الكثير والكثير جداً ، مما وقع فيه الكثير ممن تناولوا هذا الحديث ، ومما فتح الباب على مصاريعه أمام الطاعنين والدساسين والمنحرفين . . .

قال « النووى » فيما قال : . . وقد اختلف العلماء فى الكتاب الذى هم النبى صلى الله عليه وسلم به ، فقيل أراد أن ينص على الخلافة فى إنسان معين لئلا يقع نزاع وفتن .

وقيل : أراد كتاباً يبين فيه مهمات الأحكام ملخصة ليرتفع النزاع فيها ، ويحصل الاتفاق على المنصوص عليه . . .

إلى أن قال « النووى » : « وأما كلام عمر رضى الله عنه فقد اتفق العلماء المتكلمون فى شرح الحديث على أنه من دلائل فقه عمر ، وفضائله ، ودقيق نظره ، لأنه خشى أن يكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم أموراً ربما عجزوا عنها ، واستحقوا العقوبة عليها ، لأنها منصوصة لا مجال للاجتهاد فيها ، فقال عمر حسبنا كتاب الله ، لقوله تعالى : « مَافَرَّطْنَا فِى الكِتَابِ مِنْ شَىءٍ » وقوله : « اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ » ، فعلم أن الله تعالى أكمل دينه ، فأمِنَ الضلال على الأمة ، وأراد الترفيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان عمر أفقه من ابن عباس وموافقيه » .

وقال الإمام الحافظ أبو بكر البيهقى فى أواخر كتابه دلائل النبوة : إنما

قصد عمر التخفيف على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غلبه الوجع ، ولو كان مراده صلى الله عليه وسلم أن يكتب ما لا يستغنون عنه لم يتركه لاختلافهم ، ولا لغيره ، لقوله تعالى : « بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إليْكَ » ، كما لم يترك تبليغ غير ذلك لمخالفة من خالفه ، ومعاداة من عاداه ، وكما أمر في ذلك الحال بإخراج اليهود من جزيرة العرب ...

وقال القاضي عياض : « أهَجَرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هكذا هو في صحيح مسلم وغيره : أهجر : على الاستفهام . وإنما جاء هذا من قائله استفهاماً للانكار على من قال : لا تكتبوا ، أى لاتتركوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتجعلوه كأمرِ مَن هجَر في كلامه ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يَهْجُر ، وإن صحت الروايات الأخرى كانت خطأً من قائلها ، قالها بغير تحقيق ، بل لما أصابه من الحيرة والدهشة ، لعظيم ما شاهده من النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الحالة الدالة على وفاته ، وعظيم المصاب به ، وخوف الفتن والضلال بعده ، وأجرى « الهجر » مجرى شدة الوجع » . هذا كلام القاضي عياض ...

ثم يقول القاضي عياض كذلك : « وقول عمر رضي الله عنه حسبنا كتاب الله رد على من نازعه ، لا على أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم » .

قال صاحبي : يالله ! ما أحلى التحقيق العلمي ، وأجلّ الأمانة العلمية . . . ولكن الموقف يحتاج إلى كثير وجديد...

خصوصا وقددسّ الإسرائيليون والمستشرقون سمومهم في الطعن على الإسلام ، وعلى نبيّ الإسلام ، وعلى رجالات الصدر الأول للاسلام ...

وقد أكثروا وزيّفوا من حول هذا الحديث نفسه ظنونا لو أصابت لأدمت ، ولو تحققت لقتلت ...

قلت لصاحبي : صدقت ، وفوق هذا ، فإن التعمق في فهم هذا الحديث

وشرحه ؛ يعتبر من أدق الركائز التى تفرق بين الحق والصواب ، وتفصل بين الباطل والخطأ ...

ثم من هذا الذى يستطيع أن يتحدث ببساطة وسطحية هنا ،

وعلى مَنْ ؟... على عمر ؟ وغير عمر ؟ من صحابة رسول الله ؟!

وبين يدى من ؟ ... بين يدى السراج المنير ورحمة العالمين ، محمد الذى لا ينطق عن الهوى ، صلى الله عليه وسلم ؟

يا صاحبى : لا بد لنا من أن نمهد الطريق إلى هذا الحديث ببعض المقدمات

فإن سلمت المقدمات المهدات ، حاولنا أن نطرق معاً باب الفهم لهذا الحديث ، على ضوء ما نقرر ونتفق من مقدمات .

قال صاحبى : إذاً هات : المقدمات .

قلت أولا: إن الرسول — باعتباره رسولا — إنما يكون مبلغا عن الله لا متحدثا عن نفسه ؟ قال نعم .

قلت ثانيا : إن الرسول : رسول من لحظة رسالته إلى آخر نفس فى حياته !

قال : نعم . .

قلت ثالثا : إن الرسول رسولٌ دائما لا يمكن أن يخرجه عن الرسالة ومقتضاها — لحظةً واحدةً — شيء مطلقا ، لا سهو ، ولا نسيان ، ولا إيذاء ولا حزن ، ولا مرض ، ولا أكلٌ ولا شربٌ ، ولا أمر من أمور الدنيا حتى ولا النوم يخرج الرسول — أى رسول من رسل الله — عن رسالته فهو رسول حتى وهو نائم .

قال صاحبى : وكيف ؟

قلت لصاحبى : لأنه إن جاز أن يخرج أى رسول عن رسالته لحظة واحدة

بأى شىء ولأى شىء ، لجاز أن يخرج فى لحظات أخرى ، قد لا يصل علمنا لها الآن مثلا ، وقد نعلمها غداً أو بعد غد ، وما صح أن يجوز فى لحظة جاز أن يحصل فى أية لحظة ، بل فى كل لحظة ، فتنهدم الرسالة من أساسها ، وفى كل لحظاتها . .

قال صاحبى : نعم . نعم . وما رأيك فى النوم؟ أيظل الرسول أيضا رسولاً ؟

قلت لصاحبى : نعم . نعم . ولِمَ تنظر إلى الرسالة فقط من حيث الرسول عليه السلام ، ومع هذا فقد ورد أن الرسول حتى إن نامت عينه ، فلا ينام قلبه .

ولِمَ لَمْ تَنظر إلى الرسالة أيضاً من حيث المرسِل سبحانه ، وهو حى قيُّوم ، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم .

ثم أيضا إن جاز أن تخرج السِّنَةُ أو النوم رسولاً عن رسالته ، فلم لا يقول قائل : إنه ينام وهو قاعد ، أو وهو مضطجع ، خصوصا وإن بعض حالات الوحى قد لا تختلف كثيرا عن بعض حالات النوم . . .

والدليل القاطع على ذلك : أن غُلاماً حليما ، فى أوائل العقد الثانى من عمره ، وقبل أربعين قرنا من الزمان ، قد فقه بالبداهة والفطرة : أن الرسولَ رسولٌ حتى فى نومه ، فالنوم لا يمكن أن يخرج الرسول عن رسالته ،

ولو قال الرسول — أى رسول من رسل الله — إنى أرى مناماً ، فقل له : إنك رسول الله ، ورؤيا الرسول صادقة ، بل إن هذا الذى رأيته فى منامك ، إنما هو أمرٌ من الله إليك يجب عليك أن تنفذه وتفعله ، ويجب على كل مؤمن بالله معك : أن يسلم به ويمتثله ، ومهما تطلَّب هذا الأمر ، فلابد من التسليم والامتثال والصبر . . .

كما قال الغلام الحليم ، إسماعيل ، لأبيه الخليل إبراهيم ، عليهما وعلى جميع

المرسلين الصلوات والتسليم ، وقد قال رب العزة فى سورة الصافات ٣٧ فى الآيات من ٩٩ — ١٠٢ . . . عن خليله إبراهيم عليه السلام ، لما نجاه الله من النيران :

« وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قَالَ يَا بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ؟ قَالَ : يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

قال صاحبى : عظيم جدا . . . وعلى هذا لا يصح للرسول أن يجتهد ؟

قلت : ما دام رسولا فهو مبلغ لا رأى له ، والاجتهاد رأى لا تبليغ فيه ، فالتعبير باجتهاد الرسول تناقض ؛ ولو كان رسولى أنا إليك ، أو رسولك أنت إلىّ ، أو رسول شخص إلى شخص أورسول دولة إلى دولة . . لأن الاجتهاد رأى لا تبليغ ، والرسالة تبليغ لا رأى .

فتكون النتيجة الحتمية : تبليغ لا تبليغ ، أورأى لا رأى ، أو اجتهاد لا اجتهاد.

قال صاحبى : والذين يقولون باجتهاد الرسول ؟

قلت : ربما توهموا أنه يمكن أن تكون للرسول حالتان : حالة هو فيها رسول ، فهو مبلغ ، وحالة هو فيها بشر ؛ فهو مجتهد .

وربما كان من أسباب هذا التوهم عدم تفرقتهم بين الحق والصواب ، لأن التبليغ حق ، من الله الحق ، برسالة حق ،

أما الاجتهاد فهو محاولة الوصول إلى صواب . ؟

وربما ظنوا الاجتهاد فضيلة عظيمة ، فقالوا وكيف يحرم منه الرسول . . ؟

مع أن الاجتهاد هو محاولة بذل الجهد ، بأقصى الطاقة ، لوصول المجتهد إلى خيط

قد يربط بينه وبين الرسول بسبب أو شبه ، فى جزئية أو مسألة لم يرد فيها نص ، والنص إنما هو كتاب رسول الله ؛ أو سنة رسول الله ، والسنة هى كل أقوال الرسول وأفعاله وإقراراته . . . ويحسب المجتهد فخراً أن يصيب فى هذا ..

وربما تخيلوا أن مثل قوله تعالى :

« قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم ... » .

(سورة ابراهيم ١٤/١١) .

تؤكد البشرية للرسل، وتؤكد كل معانيها ، من إرادةٍ ورأيٍ واجتهادٍ ..

مع أن الآيات نفسها فيها الرد كل الرد ، وهى فى سورة إبراهيم ١٤ / ٩ — ١١ ، إنما تتحدث عن المشركين والكافرين والمعاندين لرسل الله ، وترد عليهم :

« . . . وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ، وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ، فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ . . . » .

وقوله سبحانه فى سورة الإسراء (١٧ / ٨٩ — ٩٣) :

« وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً * وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً *

أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تفجيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ، أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً ؟؟ » .

ثم لم يفرد القرآن أبداً لمحمد صلى الله عليه وسلم مثلا صفة البشرية وحدها . بل أفرد له صفات الرسالة ، وجعلها مقصورة عليه ، وجعله مقصوراً عليها في مثل قوله سبحانه :

« وما محمدٌ إلاَّ رَسُولٌ . . . » . (سورة آل عمران ٣/١٤٤) .

« . . . إنَّما أنتَ نَذِيرٌ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » . (سورة هود ١١/١٢)

« . . . إنْ عَلَيْكَ إلاَّ الْبَلاَغُ . . . » . (سورة الشورى ٤٢/٤٨) .

« إنْ أَنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ * إنَّا أرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . . . » (سورة فاطر ٣٥/٢٣ ـ ٢٤) .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » . (سورة سبأ ٣٤/٢٨) .

يا صاحبي : وتدبر معي قوله تعالى في سورة الأحزاب (٣٣/٤٠) :

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ . . . » .

واتخذ شعارك دائما من سورة الفتح (٤٨/٢٩) قوله سبحانه :

« مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ، رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ . . . » .

ثم ولقد بيّن الله سبحانه عمل الرسول فقال: « مَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ البَلاَغُ ... » .(سورة المائدة ٥/٩٩)

ويقول سبحانه للمؤمنين كافة فى سورة المائدة أيضاً ٥ / ٩٢ :

« وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ » .

كما يؤكد سبحانه ، أن هذا وحده هو شأن المرسلين جميعاً ، يقول رب العزة فى سورة النحل ١٦/٣٥ :

«... فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا البَلاَغُ المُبِينُ » .

والتبليغ لا رأى فيه ، فلا اجتهاد ...

قال صاحبى : وهل يمكن أن يفهم من هذا إنكار البشرية فى الرسول ...

قلت لصاحبى : معاذ الفهم والذوق والوجدان ، ومعاذ الإيمان والتسليم والإذعان ؛ أن يفهم هذا أىُّ إنسان ...

يا صاحبى : محمد الذى أرسله ربه رحمةً للعالمين ، كان قبيل الرسالة ، أى وعمره قبيل الأربعين سنة ، كان كمال الكمال للكمال البشرى ، فى الصفات الإنسانية كلها ، وفى الخُلق العظيم الكامل كله ، فلقد قال له رب العزة فى بدأ الرسالة وبكل أنواع التأكيد والتعظيم : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

فلما منحه الله الرسالة ، ارتقى به إلى أبعد مِمَّا يدرك الخيال من الكمالات البشرية ، لأن الخيال كالمعرفة ، وكالإدراك ... كلها مرتبطة من قريب أو من بعيد بالعناصر الأرضية ، والبيئة الثقافية ، والمعارف الإنسانية ، والعلوم الكونية ... وكلها مرتبطة كذلك بالزمان والمكان ...

فهو بشر قبل الأربعين من عمره ، رسول منذ الأربعين من عمره ...
بشر وليس برسول قبل الأربعين ، ورسول من لحظة نزول الوحى عليه صلى الله
عليه وسلم فى تمام الأربعين ، ولكنه أيضا بقى على كمال الكمال للبشرية ليستطيع
التبليغ للبشر ... بل زاد فى كمال بشريته، وما من كمال إلا وعند الله أكمل منه .

وهكذا ورد إليه الأمر فى القرآن :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ...». (سورة فصلت ٤١/٦) .

ومن وقف عند قوله تعالى :

« قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ... » .

أو عند قوله : « قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا ... »

ولم يكمل فى الأولى : « يُوحَىٰ إِلَيَّ » ولم يكمل فى الثانية : « رسولاً » .

يكون كمن وقف عند قوله سبحانه : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ... ولم يكمل :
«الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٭ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ٭ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .
(سورة الماعون ١٠٧/٤ – ٧) .

ولعل مما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم ؛
أن الله وهو يحدد أعمال محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يرجع هذه الأعمال إلى اسم يدل
من قريب أو من بعيد على بشريته ، وإنما يخاطبه دائما بما منحه من الرسالة والنبوة،
فى الأربعين من سنه بقوله سبحانه له : « يا أيها النبى » : « يا أيها الرسول » .

الله أكبر ، ثم وتدبر معى يا صاحبي الآن ؛ من سورة الأحزاب
٣٣/٤٥ – ٤٦ نداء رب العزة له :

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ : إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا ، وَمُبَشِّرًا ، وَنَذِيرًا ٭

وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ ، وَسِرَاجاً مُنِيرًا » ..

يا سبحان الله ! ! حتى وهو يدعو إلى الله ، لا يكون إلا بإذن الله ؟ ! فأين الاجتهاد . . . ؟ ؟ يا ناس ! يا عباد . . . !

قال صاحبي : الآن قد وضح الحق : قول الله هو الحق ، ورسالة الله حق ورسول الله إنما يبلغ الحق . .. وكل سُنَّته : قولاً ، وفعلاً ، وتقريرًا .. حق وحق ... وأنه لا اجتهاد لرسول الله الحق ؛ لأنه دائما مبلغ عن الله الحق ، ما دام داعياً إلى الله الحق ، وبإذن الله الحق ..

ولكن أو ليس فى كلام عمر ، وغيره من الصحابة ، أمام رسول الله فى هذا الحديث اجتهاد ؟ وكيف نمنع اجتهاد الرسول ، ولا نمنع الاجتهاد أمام الرسول ؟ ؟

وما دام قول الرسول هو الحق ، فهل يمكن الاجتهاد فى الحق ؟ ؟

قلت لصاحبي : ولعله قد وَضُحتْ الآن فى المقدمة الرابعة ، وهى الإجماع الأجمع — إن صح هذا التعبير — فقد أجمع الكل على أنه : «لا اجتهاد مع النص» ، ويقصدون بذلك : « أنه إذا وُرِد النص فلا يمكن الاجتهاد » ؛ لأن الاجتهاد إنما هو محاولة الوصول إلى مايقرب من النص .

قال : نعم ؛ فهل من مقدمة خامسة ؟

قلت : خامساً ، لا يتفق إيمان مؤمن برسول مع مناقشة هذا الرسول ، أو مخالفته ، أو عدم الرضا النفسى بحكمه ، أو عدم التسليم القلبى بقوله ... وإن جاز الاستيضاح والتعليم منه ، لقوله سبحانه وتعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

« فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .
(سورة النساء ٤/٦٥) .

وقوله : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ . . . » . (سورة الأحزاب ٣٣/٣٦) ؛

لأن الله تعالى يقول : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ . . . » .
(سورة الأحزاب ٣٣ / ٦) .

ويقول سبحانه: «...وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ...».
(سورة الحشر ٥٩/٧) .

قال صاحبي : هذا صحيح ولكن الصحابة اختلفوا ..

قلت لصاحبي : بل قد اجتهدوا ، وهذه هي : المقدمة السادسة ؛

لأن الاختلاف : قد يكون عن عنادٍ ، والغرض منه هو الهدم ، وله أسبابه ...

وقد يكون عن اجتهادٍ ، والغرض منه هو البناء ، وله مبرراته ..

كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا « مُعاذ بن جبل » لما أراد أن يرسله قاضياً ، وربَّى فيه ملكة القضاء ، . . . بأحدث الطرق التربوية ، وهي الطريقة الاستنباطية ، التي يفتخر بها الغربيون الآن على الإنسانية . .
وهي تحتاج إلى سنوات ، ولكن الرسول رَبَّى « معاذًا » بكلمات .

قال عليه السلام : « يا معاذ بمَ تحكم ؟ قال بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال: فبسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيي . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي وفّق رسول رسوله لما يرضى . . . »

قال صاحبي : نعم اجتهدوا لإقامة مراسم الشرع ، وإدامة مناهج الدين ؛

كما قلت فى تخريجك لـكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، ولـكن . . .

قلت لصاحبى : وماذا بعد ولـكن ؟؟

ولكنك قبل ولكن : خذ هذه المقدمة السابعة أولاً ..

قال هات ، ولعلها تمام السبع الشداد، التى هى سموات العلم ..

قلت لصاحبى : ناشدتك الله : إن هى إلا لَبنات ، لعلها تَصلح لبناء أو فهمٍ ، أو تُصلح من بنيانٍ فى العلم ..

يا صاحبى : الأمر من الله سبحانه : أمران : أمرٌ تـكوينىّ ، وأمر تـكليفىّ .
والأمر من رسول الله : أمران : أمر قضائى ، وأمر تعليمىّ .

وبحسبى أن أقدم لك بعض ما نفهم الآن ، من لفظ «رُوح » ، وقد تـكرر ٢١ مرة فى القرآن ، ومن لفظ « أمر » ، وقد تـكرر ٩٩ مرة فى القرآن الكريم للارتباط الوثيق ، بين كلٍّ من اللفظين ، وسأقدم إليك الآن من كلٍّ زوجين اثنين ، وإنْ شئت المزيد ، فارجع إلى كتابنا « العقيدة والفِطرة » ..

(ا) فلفظ « روح » : منه « أَمرِىّ » ، ومنه القرآن ، فى مثل قوله سبحانه لرسول القرآن صلى الله عليه وسلم فى أواخر سورة الشورى ٤٢ الآية ٥٢ :

« وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْـكِتَابُ وَلَا الإِيمانُ ، وَلَـكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

(ب) ومنه : « خَلْقِىّ » ، ومنه « جبريل » عليه السلام ، فى مثل قوله سبحانه فى سورة مريم ١٩ الآيات من ١٦ — ١٩ :

« وَاذْكُرْ فِى الْـكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَـكَانًا شَرْقِيًّا .

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا، فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا * قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا » * ..

والخلق والأمر كلاهما فقط لله رب العالمين ؛ قال سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف ٧/٥٤ :

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ؟ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

* * *

والأمر بالنسبة لله سبحانه : تكوينىّ ، وتكليفىّ :

(ا) فمن الأمر التكوينى : ما وردَ فى سورة مريم نفسها عن « الأمر التكوينى » عقب الآيتين السابقتين ٢٠ و ٢١ :

« قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ؟ ! * قَالَ كَذَلِكِ ، قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ، وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا * » .. إلى أن قال سبحانه :

« ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٣٥)..

وما ورد فى قوله سبحانه فى سورة يس ٣٦/٨٢ :

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

(ب) ومن « الأمر التكليفى » من الله سبحانه ، ما ورد فى مثل قوله جل شأنه ، فى سورة الكهف ١٨ الآية ٥٠ عن الأمر التكليفى الخاص ، الذى أصدره لإبليس المعاند اللعين ، بصيغة التهديد والوعيد .. آمرك أن تسجد . . . فى حين أن طلبَ السجود من الملائكة لم يكن بصيغة آمركم ، ولا آمر كل واحد منكم ، وإنما كان بمقتضى المفهوم من الفعل الدال على طلب السجود فقط ، وذلك دليل على سرعة امتثالهم ، حيث سجدوا كلهم أجمعون .. لأن إبليس ليس منهم ، ولا بد له من أمر خاص يتفق وعناده ، ويؤكد إن خالف — وهو مخالف طبعاً — عقابه : قال سبحانه :

« . . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا » .

وفى سورة الأعراف ٧ الآية ١٢ قول الله له :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتفصيل ذلك بأدلته العلمية والدينية فى كتابنا «العقيدة والفطرة» .

ومن الأمر التكليفى أيضاً قوله سبحانه فى سورة الطلاق ٦٥ الآيات من ٨ — ١١ :

« وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ ، فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا ، وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا ، فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ، وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ

الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْـكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُوعَلَيْـكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . . » .

* * *

ثم إن « الأمر » من رسول الله صلى الله عليه وسلم أمران : أمرٌ للقضاءِ وأمر للتعليم :

(١) أما أمر القضاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو كأمر القضاء التكليفي من الله تماماً : لا يمكن أن يجتمع في قلب أي إنسانٍ : « إيمان » ، مع مخالفته أو عصيانه ، أو حتى الاختيار أو الخيرة معه .

ومنه قوله تعالى في سورة الأحزاب ٣٣ / ٣٦ : « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً ، أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُبِيناً » .

فلم يقل الله مثلا : إذا أراد الله ورسوله أمراً ، أو إذا قضى قضاء ، أو إذا أمر فقط ، أو قضى فقط . . .

وهذا يؤكد أن من الأمر ما هو قضاء ، ومنه ما هو غير قضاء ،

ومما يؤكد ذلك أيضاً قوله سبحانه لحبيبه ورحمة العالمين — وهو يقسم بربوبيته له — من سورة النساء ٤ / ٦٥ :

« فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ياسبحان الله : مَن شعر في نفسه بأي حَرَجٍ أو ضيقٍ مما قضى رسول الله أيضاً ، ومَن لم يُسلم تسليماً عن رضىً ، وراحة نفس ، وهدوء بال ، لما يقضي رسول الله كذلك . . . لا يكون مؤمناً .

وفى هذا : العلاج كل العلاج النفسى والاجتماعى للأمة ، والدفع كل الدفع للتعاون والمحبة ، على أساس قوى من الأمن والأمان والاستقرار والمودة ..

ولعل فى هذا ما يأخذ بيد المجتمع المؤمن إلى وحدة الكلمة ، وتوحيد الصف ، وهدم الإشاعات ، وكل ما يؤدى إلى التفرق والانحرافات .. .

ومن عجبٍ أن الله لم يقل مثلا فى هذه الآية لرسوله :

« ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما أمرت ، أو مما حكمت ، أو مما قلت ...
وإنما قال : « مما قضَيْتَ »

قال صاحبي : شرح الله صدرك ، الآن فهمت موقف عمر .. وصحابة رسول الله .. فى اجتهادهم حول الدواة والقرطاس ..

قلت لصاحبي : استغفر الله .. لا اجتهاد مع رسول الله ، ولا بين يدى رسول الله ، بل لا اجتهاد بأية حال لمن يستطيع الوصول إلى رسول الله .

ياصاحبي : أمسك عليك فهمك ، واتق الله فى علمك وفقهك ، وكرر كثيراً بلا تردد ولا بأس : القاعدة الذهبية : « لا اجتهاد مع النص » .

واعلم أن الرسول صلوات الله عليه هو نَصٌّ النَّص ، وكلُّ أفعاله ، وأقواله ، وتقريراته ، وإقراراته ، وإشاراته .. كل شيء من ذلك هو فى ذاته : « نَصٌّ » ..

واقرأ دائماً من الآية السابعة من سورة الحشر (٥٩) قول الذى أنزل على عبده الكتاب : ..

« ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، واتَّقُوا اللهَ ، إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ » .

ثم اقرأ قول الله: « مَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فقدأطَاعَ اللهَ ...»(النساء ٤ / ٨٠).

وقوله سبحانه : « يَا أيهاَ النَّاسُ قَدْ جاءكُمُ الرَّسُولُ بِالحقِّ مِنْ رَبِّكم؛ فآمِنُوا خيراً لكم ...» .(النساء ٤/ ١٧٠) .

ثم اقرأ قول رب العزة ، من سورة محمد (٤٧) فى الآيتين ٣٢ و ٣٣ :
« إنَّ الذينَ كَفَرُوا وصَدُّوا عنْ سَبِيلِ اللهِ، وشَاقُّوا الرَّسُولَ من بَعْدِ مَا تَبيَّنَ لَهُمُ الهُدَى لَنْ يَضرُّوا اللهَ شَيئاً ، وَسَيُحْبِطُ أعمَالَهمْ * يا أيها الذَّينَ آمَنوا أطيعُوا اللهَ ، وأطِيعُوا الرَّسُولَ ،ولا تبطِلوا أعمالكُمْ » .

وقول العليم الخبير فى الآيات من ٣٩ — ٤٢ من سورة النساء : « وماذَا عَليهمْ لوْ آمنوا باللهِ واليَوم الآخِرِ ، وأنفقوا ممَّا رَزَقهمُ اللهُ ، وكَانَ اللهُ بِهمْ عَليماً * إنَّ اللهَ لاَ يَظلِمُ مِثقَالَ ذَرةٍ ، وإنْ تكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَدُنْهُ أجْراً عَظيماً * فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كلِّ أُمةٍ بِشَهِيد ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤلاءِ شَهِيداً * يَوْمئِذٍ يودُّ الذينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ: لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأرْضُ وَلا يَكتُمُون اللهَ حَدِيثاً .. »

وقد قال رب العزة سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فى سورة النحل ١٦/ ٦٤ : « وَمَا أنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إلاَّ لتُبَيِّنَ لَهُمُ الذى اختَلَفُوا فيه وهُدىً ورحمةً لقوم يؤمنونَ » .

ياصاحبي : ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل صحابته حتى عن أمور بديهية فيسكتون ، أو يقولون : الله ورسوله أعلم . . . مخافة أن يتحدثوا أمام رسول الله ، بما قد لا يرضى الله ورسوله ، أو تأدباً مع رسول الله ، أوتلقية من وحى الله على رسول الله ...

إلاّ إذا دفعهم الرسول صلى الله عليه وسلم دفعاً إلى الكلام ، أو إلى المشاورة ، أو إلى التعلم : قولا أو فعلا ..

من ذلك مثلا سؤاله صلى الله عليه وسلم صحابته عن اليوم ، والشهر ، والبلد . . . يوم خطبته عليه السلام يوم العيد الأكبر فى « مِنىً » من حجة الوداع ، حين قال فيما قال صلى الله عليه وسلم :

« أيها الناس : اسمعوا من قولى واعقلوه ، فإنى لا أدْرى : لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ! أيها الناس : أى شهر هذا ، فسكتوا ، وقال بعضهم : الله ورسوله أعلم ، فقال : هذا شهرٌ حرام . وأىّ بلدٍ هذا ؟ فسكتوا ، وقال بعضهم : الله ورسوله أعلم ، .. فقال : هذا بلد حرام . وأى يوم هذا ؟ فسكتوا ، وقال بعضهم : الله ورسوله أعلم ، فقال : يوم حرام . ثم قال : إن الله قد حرّم دماءكم وأموالكم وأعراضكم حُرْمَة شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، فى يومكم هذا إلى أن تَلقَوْا ربَّكم ، ألاَ هل بَلَّغْتُ ؟ قالوا نعم ، قال اللهم اشهد .. الخ » (كما ذكره المحققون والنص للمقريزى فى كتاب إمتاع الأسماع) .

وروى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما ج ٢ ص ١٧٧ قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم بمنى : « أتدرون أىّ يومٍ هذا ، قالوا الله ورسوله أعلم ، فقال : فإن هذا يوم حرام .

أفتدرون أىّ بلد هذا ، قالو الله ورسوله أعلم ، قال : بلد حرام .

أفتدرون أى شهر هذا ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : شهر حرام . قال : فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » . انتهى .

قال صاحبى : استغفر الله ، وأشهد أن رسول الله بلغ عن الله ، وهو دائماً مبلغ عن الله .

ولكنْ حدثنا بربك عن موقف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من حديث الكتاب والدواة ..

قلت ياصاحبى : لقد اتفقنا فى المتقدمات السابقة على ما يأتى :

١ — الرسول دائماً مبلّغ عن الله ، وهذه خصيصة رسالته .

٢ — الرسول دائماً رسول ، من لحظة رسالته إلى آخر نفس فى حياته ، لا ينفلت منها لحظة واحدة فى حياته كلها . .

٣ — لا يمكن أن يمنع الرسولَ عن الرسالةِ والتبليغ أىُّ مانع مهما كان ؛ حتى النوم .

٤ — « لا اجتهاد مع النص » ؛ لأن النص حق ، أما الاجتهاد فهو محاولة الوصول ؛ فهو صواب .

والاجتهاد : رأى ، لا تبليغ ، ولا رسالة .

والرسالة : تبليغ ، لا رأى ، ولا اجتهاد .

٥ — لا تجوز مخالفة الرسول عن أمره ، كما لا يجوز لمؤمن عدم الرضا بحكمه ، أو عدم التسليم القلبى بقوله ، كما لا يجوز بحال من الأحوال مناقشته لمجرد المناقشة ، ولا التباطؤ فى تنفيذ ما يفهم من طلبه ... وإنما الذى يجوز ، بل يجب هو : تلقى التعليم منه .

٦ — خلافات المسلمين جميعاً ، وبخاصة صحابة رسول الله ، خلافات اجتهادية للوصول إلى النص ، وغرضهم البناء ، لإقامة مراسم الشرع ، وإدامة مناهج الإسلام . . . بخلاف الاختلافات من الكفار والمنافقين فهى اختلافات عنادية ،

غرضهم منها الطعن ، والتفريق ، و الهدم .

٧ — الأمر من الله أمران : تكويني للتكوين والإيجاد ، وتكليفي لمن يستطيع من العباد .

والأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم أمران :

أمر قضائي ، وهو ملزم لكل مؤمن ومؤمنة : لا تجوز مناقشته ولا التفلت منه ، ولا التلاعب من حوله ، ولا الإهمال فيه ..

وأمرٌ تعليمي : يخرج عن القضاء والإلزام بقرينة ودلالة واضحة ..

إلى أغراض تربوية . . تعليمية . . توجيهية .. قيادية ..

تهذيبية ، إرشادية ..

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله .

وهو في الوقت ذاته ، المربي لأمته ، والمعلم ، و الموجه ، والقائد ..

هو معلم الكتاب ، وهو معلم الحكمة ، وهو معلم كل شيء ..

كما قال رب العزة لجميع المؤمنين ، عن الكفار ، والظالمين ، والمعتدين . . .

من سورة البقرة الآية ١٥٠ :

« ... فَلا تَخْشَوْهُمْ واخشَوْنِي ، ولأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

وعقب ذلك مباشرةً يوجه الله المؤمنين إلى العلم : سلاحاً لكل انتصار وإتماماً لكل نعمة واستقرار ، واهتداءً إلى كل عزة وسعادة وفخار .. ودحراً لأعداء الله وأعداء الوطن من الظالمين والمعتدين والفجار : بشرط أن يكون هذا العلم مَبْنِياً على تطهير الخلق وتزكية النفس بالفضائل ، والاتصال الدائم

بآيات الله ، ولـكن من الذى يتلو علينا آيات الله ؟ ومن الذى يطهر النفوس والأخلاق ؟ ، ومن الذى يعلم الـكتاب كتاب الله ؟ ومن الذى يعلم الحـكمة لـكل عباد الله ؟ ومن الذى يعلم جميع المؤمنين جميع ما يسعدهم فى الحياة ؟ وما يجعلهم دائماً فى مجد ومنعة وجاه ، وما يؤهلهم لدحر الظالمين والبغاة ؟ !! ليس إلا واحد الدنيا ، ليس إلا رسول الله رحمة العالمين وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .. فقد قال رب العالمين ، فى الآيتين التاليتين مباشرة (١٥١ — ١٥٢) ممتناً وموجهاً المؤمنين :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ :

يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ،

وَيُزَكِّيكُمْ ،

وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ ،

وَالْحِكْمَةَ ،

وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ، *

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ، وَاشْكُرُوا لِي ، وَلَا تَكْفُرُونِ » .

فهو صلى الله عليه وسلم : المعلم . . . الذى قال له رب العزة سبحانه فى الآية ١١٣ من سورة النساء ٤ :

« . . . وأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » .

نعم هو المعلم : يعلم الـكتاب ، ويعلم بالـكتاب كل شىء ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لأن الله يقول :

«...مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ...».(سورة الأنعام ٦/٣٨) .
ويقول له فى سورة النحل ١٦ الآية ٨٩ «...وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدًى ، وَرَحْمَةً ، وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

قال صاحى فى تمتمة حلوة ، وكأنه فى تأملات باطنية يستذكر : الله أكبر . . . الله أكبر . . . هذا هو الحق.. نعم.. نعم.. هو صلى الله عليه وسلم المعلم .. المعلم ..

من شأنه أن يربى ، وأن يوجه ، وأن يرشد ..

ولكن قد فهمت منك أنه لابد من قرينة واضحة ، تدل على أن أمره عليه السلام لم يكن للقضاء والإلزام . وإنما يكون قد خرج إلى التوجيه والتعليم ..

قلت لصاحي : نعم ، وهنا فى حديث الكتاب والدواة .. .. ..
كل القرائن تدل من أول نظرة ، على أن أمرَ رسول الله خرج من كونه قضاءً وإلزاما ، إلى أنه للتعليم والتوجيه إلى الاستمساك بكتاب الله .. .

ولعل مما يشير إلى هذه القرائن :

١ — اختلاف الرواية فى نص الطلب من رسول الله :

(ا) ائتونى بدواة وقرطاس أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى :

(ب) ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .

(ح) هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .

(ى) هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده .

٢ — اختلاف الرواية فيما حصل منه الاختلاف :

(ا) فقال بعضهم . . . فاختلف أهل البيت واختصموا فمنهم من يقول :

(ب) وقال عمر . . . واختلف أهل البيت .

(حـ) وفى البيت رجال فيهم عمر .

(ى) وفى البيت رجال فقال النبى ؛ (من غير ذكر عمرَ إطلاقا . . .)

٣ — اختلاف الرواية فيما يشير إلى الوقت الذى قال فيه ابن عباس : الرزية كل الرزية . . .

(ا) قال ابن عباس : الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله.

(ب) فخرج ابن عباس يقول : إن الرزيةَ كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كتابه .

(حـ) قال عبيد الله : فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم .

(ى) وقد كررت عبارة ابن عباس الأخيرة مرتين : مرة مع الرواية التى لم يذكر فيها اسم عمر ، ومرة فى الرواية التى ذكر فيها اسمه .

٤ — ومن أهم القرائن أن الصحابة جميعاً لم يسارعوا إلى تلبية أمر الرسول ، لأنهم جميعا فهموا — بما لا يمكن معه شك — أن الأمر للتوجيه ، والتعليم وليس للقضاء والإلزام . . وأن هذا الأمر للتعليم ؛ لجميع المسلمين أن يستمسكوا بكتاب الله . . .

٥ — بل أهم تلك القرائن « ابن عباسٍ » نفسه ؟ لِمَ لَمْ يُحضر بنفسه وسريعا الدواة أو الكتاب ، خصوصا وهو الحريص الحرص كله على تسجيل أية كلمة تصدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا المقام ؟ ! !

٦ — ولعل الأهم من ذلك عمر نفسه ، على الرواية التى ذكرت وجوده ورده ..

وقبل الرد أقول : لو فهم عمر أن الأمر للقضاء ما استطاع أن يتباطأ ، بل لكان أول المسرعين إلى التنفيذ قبل الجميع ..

ألم يكن هو القائل عن الحجر الأسود ، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحج بالناس :

« ... ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » ؟ كما سبق لتعليم المسلمين جميعا وجوب الامتثال والمسارعة إلى تنفيذ الأمر ، مهما حاول الشيطان أو تدخل الفكر ..

ثم إن عمر نفسه فى « حرب الردة » ، كان يعارض فيها بشدة وقوة وأدلة ، فلما قررها خليفة رسول الله أبو بكر ، كان عمر نفسه أول المندفعين إلى الحرب والمبررين لها ، امتثالاً وتسليما لرأى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فكيف به من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

٧ — رد عمر نفسه أو غيره من أهل البيت بقولهم : « حسبنا كتاب الله » : « عندنا القرآن » .. « عندكم القرآن » ، « عندنا كتاب الله حسبنا » .. :

كل هذا يؤكد أن القرائن دلت الجميع بوضوح على أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لدفع المسلمين وتوجيههم إلى الاستمساك بكتابهم .. .

٨ — إن القول الفصل فى هذا كله ، الأمر القضاء الملزم الذى صدر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوله : قوموا : « قوموا عنى لا ينبغى عندى التنازع » .. .

هذا الأمر القضاء الحتم بقيامهم وانصرافهم : يستلزم الأمر الحتم القضاء بعدم الكتابة من ناحية ، وتأكيد أن الأمر الأول لم يكن أمر قضاء ، وإنما كان تعليما من ناحية أخرى .

٩ — أما تاسعا فإن الدقيقة التاسعة هى فيما يفهم من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم: الأمر القضاء المؤكد، المكرر قبل ذلك، بالنهى عن الكتابة عنه عليه السلام، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال: « لا تكتبوا عنى غير القرآن، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » أو كما قال ..

ولم يسمح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة، إلا لرؤساء السرايا، أو للرسل إلى الأمراء، أو لمسافرٍ يمنىّ، حين طلب ذلك ...

وقد روى البخارى .. عن الشعبى عن أبى جُحَيفة قال: قلت « لعلىّ »: هل عندكم كتاب؟ قال لا إلا كتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم .. أوما فى هذه الصحيفة، قال: قلت: فما فى هذه الصحيفة قال العقل (يعنى الدية) وفكاك الأسير، وألا يُقتلَ مسلمٌ بكافرٍ » .

كما روى مسلم جـ ١١ ص ٧٨ و ٨٨ عن طلحة قال: سألت « عبد الله ابن أبى أوفى »: هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لا، قلت: فلم كتب على المسلمين الوصية؟ قال أوصى بكتاب الله عز وجل » .

ثم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على عرفات فى حجة الوداع التى نزل عليه فيها قوله تعالى: « اليوم أكملت لكم دينكم .. »
قال فيما قال عليه السلام من خطبته المشددة المؤكدة .. « فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت، اللهم اشهد » ..

ولا يزال أمر الرسول بالتمسك بكتاب الله يجلجل فى قلوب المسلمين وأسماعهم، ويملأ عليهم كل جوانحهم، بكل كلماته، وحروفه، ونبراته، ولم يمض عليه ثمانون يوما ..

١٠ — وأما كمال التوجيهات العشرة وتمام القرائن العشر، فآخر آية

نزلت من الله على رسول الله بعرفات ، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يطمئنّ ويدفع المسلمين إليها ، هى قوله تعالى :

...اليومَ يئِسَ الذين كفروا مِن دِينكُمْ فلا تخشَوْهم واخشَوْنِ اليَوْمَ أكملتُ لكُمْ دِينَكُمْ وأتممتُ عليكُمْ نِعمَتِي ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دِيناً...».(سورة المائدة٥/٣)، وهى التى أشار إليها عمر، أو أهل بيت النبي . . .

قال صاحبي : الحمد لله . . . لقد زالت كل شبهة حول قولهم : حسبنا كتاب الله ..

وبقى قول عمر أو قولهم : إن « رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع » . . . لأن هذه العبارة أثارت من الدساسين والحاقدين والمستشرقين كل الكوامن ، فدسوا ، وطعنوا ، وأقذعوا . . .

قلت يا صاحبي : هوّن عليك ، ولا عليك من الحاقدين المبطلين الهدامين ، وادعُ الله معي أن يشفِيَ صدورَ قومٍ مؤمنين . . .

يا صاحبي : أنت تعلم أن « من خُلقِ الإسلام » عدم اللغط عند المريض ومن باب أولى عند من غلبه الوجع ؟ ،

وأن صميم الإيمان عدم التنازع واللغط بين يدى النبي صلى الله عليه وسلم مطلقاً، ولو لم يكن مريضاً ؟

قال صاحبي : نعم ، والله يقول : « يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ ترفَعُوا أصوَاتكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبيِّ ، وَلاَ تجهَرُوا لَهُ بالقَوْلِ كَجَهرِ بَعضِكُمْ لِبعضٍ ، أنْ تحبَطَ أعمَالُكم وَأنتمْ لاَ تشعُرُونَ » . . .
(سورة الحجرات ٤٩ / ٢) .

قلت لصاحبي : وقبل هذه الآية مباشرة نجد قوله تعالى للمؤمنين جميعا :
« يا أيها الذينَ آمنوا لاَ تُقدِّموا بينَ يَدىِ اللهِ ورَسوله واتَّقوا اللهَ إنَّ اللهَ سَميعٌ عَليمٌ »

وعقبها مباشرة قوله سبحانه : « إنَّ الذينَ يَغُضُّونَ أصواتَهمْ عِندَ رَسولِ اللهِ أُولَئِكَ الذينَ امتَحَنَ اللهُ قُلوبَهُمْ للتَّقوَى لَهم مَغفِرةٌ وأجرٌ عظيمٌ » .

وعلى هذا يكون قول عمر ؛ إنما هو لتثبيت خلق الإسلام بالنسبة للمريض مطلقا ، ولتصحيح أساس الإيمان بالنسبة للنبي مطلقا .

فما بالنا لو كان المريض هو النبي ؟ ؟ بل من غلبه الوجع هو النبي ؟ !

أفيصح عنده اللغط أو التنازع ؟ ! اللهم لا . . .

فقول عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلبه الوجع ؛ إنما هو لتقرير هذه القواعد الخلقية الإيمانية ، وأنه لا يصح ذلك بحضرة الرسول ، ولتوجيه المسلمين — شأن عمر — إلى التمسك بآداب الإسلام ، وخلق القرآن . .

قال صاحبي : ورضى الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . .

قلت لصاحبي : وعن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أجمعين . .

* * *

قال صاحبي : وماذا تقول فى مسألتين : إحداهما عسكرية ، والثانية دنيوية ؟ قلت : هات .

قال أما العسكرية : فموقف « الحباب بن المنذر » فى غزوة « بدر » من اختيار مكان المعركة أدنى ماء بدر ؟

قلت : يا صاحبى : ألم أقل لك إن الرسول هو المعلم ؟ وهو القائد ؟ ! . .

وفى هذا يعلِّم رسول الله صحابته ، كيف يختارون أرض المعركة ، ويتلمسون الموقع الصحيح لميدان المعركة « الموقع الاستراتيجى » .

وإلا فاستمع إلى قول رب العزة عن هذه المعركة : « . . وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فى المِيعادِ ، وَلَـكن لِيَقْضِىَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً . . . » . « سورة الانفال ٨/٤٢ » .

ثم إن الرسول لم ينزل قبل ذلك نُزُلا قضاءً ؛ فلم ينزل فى المكان الأول ليدير منه المعركة ، بل ليعلم المؤمنين كيف يختارون ميدان المعركة ، . .

وعلى هذا فليس المنزل الأول عمل عادى ، وإنما هو العمل الحربى « التكتيك العسكرى » ، عرف ذلك كل الصحابة معه .

ثم استشار أصحابه فى المنزل وفى ميدان المعركة ؛ ليجعلهم معه فى الصورة من ناحية ، وليعلمهم أهمية اختيار أرض المعركة من ناحية أخرى ، ثم وليعلمهم كيف يَستطلعون أرض المعركة ، ويتحسسونها ، ويطهرونها ، وكيف يطمئنون على سلامتها وصلاحيتها . . . تعليما للمؤمنين ، وإرشاداً للعسكريين إلى آخر الزمان .

ومع هذا فإنه لما استشار الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، قال « الحُباب » ليتأكد من ذات أدبه مع القائد الرسول : « أهـذا منزل أنزلك الله إياه يا رسول الله ؟ أم منزل تأمرنا أنت به ، أم هى الحرب والمكيدة » ، فلما ابتسم الرسول وقال : إنها الحرب والمكيدة . . . أبدى الحباب اقتراحه لما تأكد واطمأن إلى أن الأمر للتعليم والتوجيه ، والتربية العسكرية . . .

ويسرنى يا صاحبى أن تقرأ للمقريزى فى « إمتاع الأسماع » تفاصيل هذه المسألة . . . ومما يقول فى صفحة ٧٦ :

« ونزل النبي صلى الله عليه وسلم أدنى بدرٍ عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان ، فبعث علياً ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وبَسبَس ابن عمرو : رضي الله عنهم يَتحسَّسُون على الماء ، وأشار لهم إلى ظُرَيب [مكان هناك قريب من الماء] ، وقال : أرجو أن تجدوا الخبر عند هذا القليب الذي يلي الظُّرِب ؛ فوجدوا على تلك القليب : رَوَايا قريش فيها سُقَّاؤهم . . . فأُتِيَ بهم النبي صلى الله عليه وسلم . . . فأقبل يسألهم . . فأخبروه أن قريشا خلف هذا الكثيب ، وأنهم ينحرون يوما عَشراً ويوما تسعا » . . .

من الإبل للأكل والرَّوايا : هي الإبل تحمل الماء للشرب والرِّيّ . . . .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : القوم بين الألف والتسعمائة ، وقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها . . . واستشار أصحابه في المنزل . . . »

أرأيت يا صاحبي أنها الخطط العسكرية ، وأنها القيادة المحمدية . . .

قال صاحبي : شرح الله صدرك ، والثانية تأبير النخل ؟

قلت لصاحبي : وهل يجهل عربي — مهما كان — قيمة الماء في الجزيرة وقت السلم ، فضلا عن وقت الحرب ؟ حتى يتنطع متنطع بأن الحباب كان أعرف بقيمة الماء ؟

قال .. لا .. وقد انتهت وزالت كل شبهة .

قلت ، وعلى منوالها : أفيمكن أن يجهل عربي ، أيا كان في جزيرة العرب ، وحياتها على النخيل وتأبير النخيل : أن النخيل لا يثمر بغير تأبير وتلقيح؟

قال صاحبي : هذا عجب . . . أظن لا يمكن . . .

قلت : أو يمكن أن يكون هناك واحد من قريش فضلا عن سيد قريش محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وقد رعى الغنم وتاجر . . . أن يترك تأبير النخل . . ؟ ونقل لقاح الذكر إلى الأنثى حتى تثمر . . . فضلا عن كونه

الرسول الأكرم الذى قال له ربه «... وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعلم، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَليكَ عَظِيماً» ؟. (سورة النساء ٤ / ١١٣).

قال صاحبى: وهذا أعجب وأضخم؟، وكيف هذا..؟!

قلت يا صاحبى: إنه المعلم، الموجه، القائد الحربى .. الحريص على أمته، وسعادة أمته فى الدنيا، وفى كل مجالات الحياة، وفى الآخرة وسعادتها... إنه يعلم الأمة ويربى الجميع: أن يندفع كل واحد إلى شئون حياته وحياة مجتمعه، على مرضاة من الله وصيانة المجتمع، بلاتنطّع ولاتزمت؛ حتى لا يتقول متقول إلى قيام الساعة: إن هذه «الشوكة» لم يأكل بها رسول الله فلا يصح أن نأكل بها، وهذا الشجر لم يكن على عهد رسول الله؛ فلا نأكل منه، وهذا المذياع، وهذه المرناة، والشاشة الصغيرة، والسيارة، والطيارة، وكل أعمال الحياة الدنيا، مما يجدّ...

وكما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: «أنتم أعلم بشئون دنياكم» ... فلا جمود، ولا وقوف، ولا مماحكة...

قال صاحبى: طمأن الله قلبك، فقد طمأنت قلوب المؤمنين...
ولكن...

قلت: إنّ لكن لا تنتهى ولا تحد، وهذا الكتاب محدود ولابد من أن ننتهى منه...

قال: واحدة أو اثنتين... تكملة لإزالة الشبهات، وتعميقا لهذا الأساس الجديد الخطير «الحق والصواب».

قلت: وأمرى إلى الله هات!

* * *

قال : القرآن حق ، والرسالة حق ، والرسول حق ، وتبليغ الرسول حق...
ففيم افترقت الأمة : فى الأصول ، وفى الفروع ؟ ؟
وما حديث الافتراق ؟

قلت : ياصاحبي . . لقد تحدثنا طويلا عن الاختلاف بين الصحابة حول حديث الكتاب والدواة ، ولعلك استشعرت الفرق الكبير بين « الاختلاف » و « الخلاف » .

وعرفت أنه لا خلاف مطلقاً بين الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا تفرق ، ولا افتراق ؛ وإنما هو اختلاف وجهة نظر فيما يمكن أن يكون فيه وجهة نظر ... اختلاف مَبنيٌّ على الاجتهاد ؛ لمحاولة الوصول إلى النص أو إلى الحق.

وعرفت أن غرضهم جميعاً : جمع كلمة الأمة حول النص القرآنى أو المحمدى، وبعبارة أدق : إن هذا الذى يبدو فى ظاهره — وللنظرة العجلى — اختلافا ؛ إنما هو الاتحاد نفسه ، هو الاتحاد بأعمق معانيه ، وأسمى غاياته . . الاتحاد حول الحق ، وعلى فكرة واحدة متحدة ؛ هى أن يسود الحق ، ويقود النص جميع البيئات ، ويعالج كل الانحرافات ، ويرد على جميع الشبهات ، ويقضى على جميع الشائعات والمرجفات ..

فكان الصحابة رضوان الله عليهم يبدؤون بكتاب الله ، فإن استطاعوا الوصول إلى نص أو ظاهر واضح : نزلوا على حكمه ، وإن لم يستطيعوا : ثنوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فإن لم يستطيعوا لجأوا إلى القياس والاجتهاد بالفكر الدقيق ، والنظر العميق . . محاولين الوصول — عن طريق هذا الاجتهاد — إلى نص يقود ، أو إلى حق مستقر ..

ولنضرب لك مثلا : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اختلف الأنصار

والمهاجرون على الموضع الذى يدفن فيه جثمانه الطاهر صلى الله عليه وسلم :

فقال قوم من أهل مكة المهاجرين : ندفنه فى مكة ؛ لأنها مسقط رأسه ومأنس نفسه ، وموطىء قدمه ، وموطن أهله ، وموقع رحله ..

وقال الأنصار من أهل المدينة : بل ندفنه فى المدينة ، لأنها دار هجرته ، ومدار نصرته ، وكمال رسالته .

وقال جماعة : ندفنه فى بيت المقدس ؛ لأنه موضع دفن الأنبياء ، وإليه كان الإسراء ، ومنه كان معراجه إلى السماء . .

وتمسك كل فريق بما رآه صواباً عنده يطابق وجهة نظره ، ولم ينكر — بإقذاع ولجاج وخصومة — ما تراءى من صواب عند غيره . . . وإنما هى المناقشة : الهادئة ، الهادفة ، البناءة الحرة ؛ للوصول إلى وحدة الكلمة ، واجتماع الأمة ..

وما أن جاء الحق ، فى رواية حديث حق ، عن الرسول صلى الله عليه وسلم الحق ، الذى لا ينطق عن الهوى ، وإنما هو مبلغ دائما عن الله الحق . . . حتى التفوا جميعا حوله ، وترك كل واحد أو كل فريق ما ترجح عنده ، واتفقوا بإجماع من غير تردد ولا دفاع ، على تنفيذ قول الرسول الحق ، بكل تسليم وخضوع وامتثال ؛ لأنه : ليس بعد الحق إلا الضلال . .

اتفقوا على دفنه صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، وفى نفس المكان ، لما روى عنه عليه السلام : « الأنبياء يدفنون حيث يموتون » .

وهكذا كان إجماع الصحابة ، لأنه لا اجتهاد مع النص ، وإذا ظهر النص بطل الاجتهاد . .

قال صاحبي : أو ليس النص هو كل كلام الله ، وسنة رسول الله ، وهو دائما ظاهر ؟

قلت لصاحبي النَص فى اللغة يدل على الرفع والارتفاع والانتهاء ، ومنه نصَّ فلانٌ الشيء : رفعه ونصَّ الحديث إلى فلان رفعه إليه . . ويشاع النَّصُّ فى جملة من القول منقولة كما هى ، ومنسوبة إلى صاحبها ، ومحافظ عليها ، ويحتج بها . . .

لكن « النص » هنا يأخذ معنى اصطلاحيا ، سار عليه كل علماء الأصول والفقه . . . وعلى هذا يكون « النَّص » هو : الكلام الذى لا يحتمل إلا معنى واحداً ، أو لا يحتاج إلى تأويل ، أو الذى يدل على معنى واحد دون أن يحتمل معنى آخر . . .

والظاهر : هو الكلام الذى يظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة ويكون محتملا للتأويل ، أو ما يظهر بوضوح فى معنى ، ولكنه قد يحتمل معنى آخر .

فعلى المعنى اللغوى : كل كلام الله وحديث رسول الله نص . . . يجب رفعه إلى قائله والعمل به . . . لأن القرآن كله محكم ، وكله متشابه يشبه بعضه بعضا . . .

أما على المعنى الاصطلاحى فالنص من القرآن ومن الحديث : ما يدل على معنى واحد ولا يحتاج إلى تأويل ، فهو الآيات الأم ، التى يجب على المجتهد أو المفسر أن يرجع إليها الآيات التى تحتمل أكثر من معنى ، أو التى تحتاج إلى تأويل .

وبهذا نستطيع أن نفرق بين الآيات المحكمة والآيات المتشابهة . . .

قال صاحبي . . وهذه مُعضلة ، فما هو المحكم وما هو المتشابه من ناحية ؟ وما دخل هذا فى الحديث عن الفرق والمذاهب ؟ ؟

قلت لصاحبي : أما دخله بالنسبة للفرق والمذاهب ، فهو الأساس . . .

لأنه لا يمكن أن تختلف الآراء أو تتعدد الفرق والمذاهب أبداً حول « المحكم » ، فالمحكم : مسلم به من الجميع ، ملزم للكل ، لا اختلاف فيه ، ولا اجتهاد ، ولا رأى . . .

أما المتشابه : فمنه يبتدىء الاختلاف ، وبتعدد تأويل الآية المتشابهة يكون تعدد الفرق والمذاهب بتعدد الآراء فى فهمها . . .

يا صاحبي : والقرآن كله محكم وحكيم لا اختلاف فيه ، ولا شك ، ولا ريب . . .

يقول رب العزة فى صدر سورتى « يونس ١٠ » و « لقمان ٣١ » :

« . . . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ » .

ويقول فى صدر سورة « يس ٣٦ » « يس * والقرآنِ الحَكِيمِ » .

كما يقول سبحانه فى صدر سورة هود ١١ :

« الر : كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

ويقول فى سورة فصلت ٤١/٤١ — ٤٢ :

«... وإنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » .

والقرآن كله متشابه ، يشبه بعضه بعضا فى الإحكام ، والتنزيل الحق من الله الحق ، والتحدى بمثله أو بمثل أقصر سورة منه أو بشىء من مثله ، والتعبد بتلاوته ، وصحة الصلاة به . . .

قال تعالى فى سورة الزمر ٣٩/٢٣ : « اللهُ نَزَّلَ أَحسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ...» ...

وقال سبحانه فى سورة النساء ٤/٨٢: «أفلاَ يَتدَبَّرُونَ القُرآنَ ولوْ كانَ مِنْ عِندِ غَيرِ اللهِ لوَجَدُوا فِيهِ اختِلافاً كَثيراً».

فى حين يذكر القرآن أن الاختلاف فى غير القرآن ؛ قد يكون من آيات الله التى يدفع الله بها العلم والعلماء ... إلى البحث والتعمق ، ومواصلة البناء ..

قال سبحانه فى سورة الروم ٣٠/٢٢ مثلا: «وَمِنْ آياتِهِ خلقُ السَّمواتِ والأرْضِ وَاختِلافُ أَلسِنَتِكُمْ وألوَانِكُمْ إنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ للعالِمينَ».

ثم ياصاحبى ؛ والقرآن منه آيات محكمات وآيات متشابهات :

آياتٌ مُحكماتٌ هُنَّ الأم التى لا تأويل فيها ، وتدل على معنى واحد .

وآيات متشابهات هُنَّ التفصيل ويمكن تأويلها، وتدل على كثير من المعانى..

« كِتابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثُمَّ فُصِّلتْ مِن لدُنْ حَكيمٍ خَبيرٍ » .

فلا بد من رجع الآيات المتشابهات إلى الآيات المحكمات ، ولا يصح بحالٍ التأويل أو الفهم لآية متشابهة بحسب الهوى ، أو الميل ، أو الرأى المطلق ... بل لابد من ربط المعنى الذى يذهب إليه المجتهد أو المفسر من الآية المتشابهة ، بالآية المحكمة ... لأن الذين يتبعون الآيات المتشابهة فقط ، ويُؤَولونها على حسب ميولهم وأطماعهم وأهوائهم .. إنما يبغون الفتنة ، ولا بد من أن يكون فى قلوبهم مرض ؛ لأن التأويل الحقيقى لا يعلمه إلا الله ..

أما العلماء فإنهم يخشون الله ولا يفهمون تأويلاً لآية محتملة متشابهةٍ إلا على ضوءٍ من الآية المحكمة .

وأما الراسخون فى العلم ، فيجتهدون ، ويحاولون ؛ فإن وصلوا اطمأنوا إلى الرباط المحكم بين الآيات المتشابهة والمحكمة ، وإن لم يصلوا : قالوا آمنَّا ،

وسلموا ، واطمأنوا أيضا إلى أن كل الآيات من عند الله ، وهو الحكيم العليم الخبير . .

قال سبحانه وتعالى فى سورة آل عمران ٣ الآية السابعة :

« هُوَ الَّذِى أنزَلَ عَليْكَ الكِتَابَ : مِنْهُ آياتٌ مُحكَمَاتٌ ، هُنَّ أمُّ الكتابِ ، وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمّا الَّذِينَ فى قُلوبِهِمْ زَيْغٌ فيتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ مِنهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنةِ ، وابْتِغَاءَ تَأوِيلِهِ .

وَمَا يعلَمُ تأويلهُ إلاَّ اللهُ .

والرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ يَقُولُونَ : آمنَّا بِهِ ، كُل مِنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الألبَابِ » .

يا صاحبي : القرآن نزل لإصلاح الناس ، ولخير الناس ، ولإسعاد الناس فى كل مجالات الحياة ... لإصلاح الفرد ، ولإصلاح المجتمع ، ولإصلاح الأسرة ولإصلاح الأمة . . . فمن التوى بالقرآن تفريقا لصف ، أو إشاعة لفتنة ، أو تمهيداً لتفريق ... فقد ضل وأضل ، وكان كما قال رب العزة : فى قلبه مرض وزيغ ، يبتغى الفتنة ، ويلعب بالنار ، لأنه يتلاعب بكلام الله العزيز الجبار ، ويحاول أن يخادع اللهَ والذين آمنوا ، وهو فى الحقيقة لا يخادع إلا نفسه ، ولا يهدم إلا نفسه . .

يا صاحبي : إننا على ضوء هذا نستطيع أن نفهم أن كل الفِرَق والمذاهب الإسلامية إنما بدأت من التأويل والاجتهاد فى الآيات المتشابهة ، وكان الواجب الحتم أن يربطوا تأويلهم واجتهادهم دائما بالآيات المحكمة ... وبهذا يكونون جميعاً متفقين ومتوحدين حول أن يُصلِح القرآنُ ، كلَّ إنسان ، وكلَّ بَنى

الإنسان ، فى كل زمان ومـــكان ..

قال صاحبي : ولـكن لم أنزل الله الآيات المتشابهات ؟ التى تفتح باب التأويل ، وتسمح بالتفرق الوبيل ؟ .

قلت : يا صاحبي : القرآن هو كلام الرحمن الذى خلق الإنسان ، لعلاج الإنسان وقيادته فى كل زمان ومكان ، والأحداث والحوادث والانحرافات والأمراض الإنسانية متـكررة متجددة ، قد لا يحدها حد ، ولا يحصيها عد ، وألفاظ القرآن من حيث إنها ألفاظٌ : محدودة معدودة ، والمحدود المعدود ، لا يمـكن أن يحيط بغير المحدود وغير المعدود . . لهذا كان لا بد أن تـكون معانى القرآن غير متناهية ولا محدودة ولا معدودة . . .

ومن هنا أيضا كان إعجاز القرآن وعجز الجن والإنس عن الإتيان بمثله ؛ لأن الإنس والجن محدودون متناهون .

ومن هنا أيضا كانت الآية الواحدة ، دائما متجددة ، دائما قائدة ، دائما رائدة . . دائما معالجة . . دائمـا يقول العـالم ، كأن هــذه الآية نزلت الآن ولهذه الواقعة ..

وصدق الله : « قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِـكَلِماتِ رَبِّى لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى ، وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً » .

(سورة الـكهف ١٨/١٠٩)

قال صاحبي : سبحان ربى . هذا هو الإعجاز .

ولـكن ، هل يمكن حصر الأسباب التى دفعت إلى تكوين الفرق والمذاهب؟

قلت يا صاحبى : يمـكن أن نحاول ، ولعل جملة هذه الأسباب ترجع إلى ما يأتى :

أولا — بالنسبة للفرق الكلامية .. كالمعتزلة والأشعرية .. وغيرهما:

١ — السياسة والحكم .. ولعل من أوضح الدلالات على ذلك ، الشيعة والخوارج .

٢ — الرد على الإسرائيليات ، فقد دس الإسرائيليون سمومهم الهدامة القاتلة ، خصوصا حول تفسير القرآن ، والأحاديث ، بل وضعوا كثيراً من الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما عجزت سيوفهم ودكت قلاعهم ، وانتثرت حصونهم ، وعجزوا عن النيل من الإسلام بالقوة ؛ فأعملوا الأقلام والأفواه والفكرة :

« يُرِيدُونَ أن يُطفِئوا نُورَ اللهِ بِأفْوَاهِهِمْ ويَأبَى اللهُ إلاَّ أن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

(التوبة ٩/٣٢ — ٣٣) .

٣ — الرد على شبهات المخالفين خصوصا بعد أن اتسعت ساحة الإسلام للدخلاء ، واستعان الحكام بالأجانب ، وتسربت الآراء الأجنبية الدخيلة الهدامة عن طريق الترجمة وغيرها .

أما أسباب تصارع هذه الفرق ، وتخاصمها ، فيمكن رده إلى ثلاثة أسباب أيضا :

١ — الهوى والأنانية ، وهما دخيلان على البيئة الإسلامية .

٢ — السلطان : انتصاراً به ، أو انتصاراً له . . لأنه لما ضعف السلطان والحكم ، حاول بعض السلاطين أن يتقووا بأصحاب الفرق وينتصروا بهم ، كما

حاول بعض المنحرفين أن ينتصروا بالسلطان ، على ضعفهم وضعفه .

٣ — البغى .وصدق الله: «... ومَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذينَ أوتُوهُ مِن بَعد مَا جاءتْهمُ البينات بغياً بَيْنهم فهدَى اللهُ الَّذين آمنوا لِمَا اختلفوا فيه من الحَقِّ بإذْنِهِ . . . » . (البقرة ٢١٣) .

« إنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ إلاَّ مِن بعد ما جاءَهمُ العلمُ بغياً بَيْنَهمْ ، ومَن يكْفرْ بآياتِ اللهِ فإنَّ اللهَ سَرِيعُ الحساب ».(آل عمران ١٩) .

ثانيا — بالنسبة للمذاهب الفقهية ، فإن اختلافهم رحمة بالأمة .

وقد ترجع جملة الأسباب إلى ما يلى :

١ — اختلاف البيئة التى يعيشها الفقيه . . .

٢ — اختلاف الثقافة .

٣ — اختلاف الزمان والحوادث .

قال صاحبى : هذا الإيجاز مفيد ومقبول ، وأطمع فى مَثَل واقعى ..

قلت لصاحبى : لقد طال وقوفنا هنا ..

قال : ولكنه « الحق والصواب » هذا الأساس الأصيل الذى يزيل الغمة ويوحد كلمة الأمة ، فى كل المجالات والأنحاء ، وعلى مختلف العلوم والمعارف والآراء . . .

قلت : أما عن الفِرَق وعلم الكلام مثلاً ، فإنهم اختلفوا فى تفسير كلمات نسبت إلى الله سبحانه فى القرآن ، مثل : اليد ، والوجه ، والاستواء : « يد الله فوق أيديهم » ، « ويبقى وجه ربك » ، « الرحمن على العرش استوى » . . .

قل لهم يا صاحبى : أوِّلوا ما شئتم ، وخذوا من معانى هذه الآيات المتشابهة

ما أردتم ، ولكن بشرط واحد ، هو ألاّ يخرج تأويلكم عن الآية « الأم » لمثل هذا كله ، وهى قوله سبحانه : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » .

وأود أن ألفتك سريعا يا صاحبى إلى أنه ليس هناك أبداً خلاف حقيقى ، لأن كل واحد ينظر من زاويته هو ، ولو وقف مكان الآخر لرأى مثل ما رأى... ولحكم بمثل ما حكم . . .

نعم ، نعم . . . ولحكم بمثل ما حكم . . .

لأن كل مؤمن ومسلم ، بل كل إنسان لابد أن يلتزم الحق ، وإن دار بعد ذلك فى فلك الصواب ، وارجع فى تفصيل هذا إلى تخريجنا لكتاب الملل والنحل » . . .

ولئن قالوا : « اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية » .

فإنّا نقول : « إن اختلاف الرأى يؤكد قضية الود » .

لأن صاحب الرأى بنّاء أصيل ، فإن تلاقى مع بناء أصيل آخر : سعد به وأسعده ، وتعاونا على تأسيس البنيان ورفع قواعده ، ليَسعد المجتمع وتعلو كلمة الحق ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل

* * *

قال صاحبى : وحديث الافتراق ؟.

قلت : لم يصحّ سنده ، ولم يسلمْ متنه ، ولم يستقمْ غرضه . . لم يُشر إليه واحد من الشيخين : البخارى ومسلم ، واستغربه « الترمذىّ » و « الحاكم » ، وأنكره الحافظ ابن حجر . . . وغيره . . .

أما متنه فلم يتفق على لفظه اثنان، بل إن فيه كثيرا من التناقض والمتناقضات .

كما لم يتفق على معناه شارحان، بل فيه الكثير من الالتواء والانحرافات ..

فترى رواية تقول : فواحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار ،

وأخرى تقول : كلهم فى النار إلا واحدة ،

وثالثة تقول : كلها فى الجنة إلا واحدة ،

ورابعة تقول : الهالكة منها واحدة ،

وخامسة تقول : إلا الزنادقة ،

وسادسة تقول : إنى أعلم أن أهداها الجماعة ،

وسابعة تقول : كلها فى الجنة إلا واحدة وهى الزنادقة ،

وثامنة تقول : أهداها فرقة الجماعة ،

وتاسعة تقول : كلهم فى النار إلا ملة واحدة قالوا من هى يارسول الله ؟ قال ما أنا عليه وأصحابى ،

وعاشرة تقول : وتخلص فرقة ، قالوا يا رسول الله ما تلك الفرقة ؟ قال فرقة الجماعة . . . إلى الكثير من الاختلافات والمتناقضات فى العجز ، فضلا عن الكثير جدا من الاضطرابات والتلفيقات فى الصدر . . .

قال صاحبى : إذن : هو مدسوس من الإسرائيليين لبثّ بذور الفرقة والهدم ، ولكنى أود الاستماع إلى ألفاظ كاملة لرواية . . . مع مناقشتها ؟ . .

قلت : نعم ، فلنقف عند ما نقله الإمام الأفضل الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ، تخريجنا ، لأن الشهرستانى ، هو حجة الحجج ، وقمة القمم ، فى هذا الباب ، وكتابه — بلا منازعة ولا مدافعة — خير كتاب ، وأجل كتاب ، وأدق كتاب ، صُنّف فى هذا الباب . .

ومع هذا فإنه لم يستطع أن يقف عند رواية واحدة ينقلها ويؤرخ لها . . . بل ذكر روايتين :

الأولى — : «افترقت المجوس على سبعين فرقة ، واليهود على إحدى وسبعين فرقة ، والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقة »

والثانية — : « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منهم واحدة ، والباقون هلكى ، قيل : ومن الناجية ؟ قال أهل السنة والجماعة ، قيل وما السنة والجماعة ، قال ما أنا عليه اليوم وأصحابى » .

وفى الأولى افترقت ، وفى الثانية ستفترق .

وفى غير هاتين الروايتين عجب ، مثل : والذى نفس محمد بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين . . ورابعا : وتفترق أمتى ، وخامسا : ستفترق أمتى على نيف وسبعين فرقة ، وسادسا : تفترق هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة ، وسابعاً : ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل . . وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة . . مما يطول نقله . . .

وأما المناقشة فيكفى الآن أن ننبه إلى أن تعبيرا واحدا من هذه الرواية الأقوى — كما يقولون — يؤكد الدس الإسرائيلى ، والوضع الإجرامى ، والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

هذا التعبير هو : « أهل السنة والجماعة » ، قيل وما « السنة والجماعة » قال : « ما أنا عليه اليوم وأصحابى » . ومن فضل الله أن يتكرر هذا التعبير ، ليدل على الدس الخطير ، لأن هذا التعبير لم يظهر فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا فى عصر الخلفاء الراشدين ، ولا فى عصر بنى أمية ، ولا فى صدر الدولة العباسية ؛ وإنما ظهر فى عجزها بل ظهر فى وقت تمزقها ، وتفرق حكامها ، واضطراب أمورها . . فى القرن الرابع الهجرى .

و « الشهرستانى » — نفسه — وهو أشعرى ، من هذا المذهب « أهل

السنة والجماعة » نفسه ، بعد أن يتحدث عن السلف من حيث إثبات الصفات الأزلية لله ، وتسميتهم بالصفاتية . . فى مقابلة المعتزلة الذين أطلق عليهم معطلة ، يقول :

إن من الصفاتية من بالغ إلى حد التشبيه . . ومنهم من تأول ومنهم من توقف . . .

ويقول : « وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدّفوا للتشبيه ، فنهم : مالك بن أنس رضى الله عنهما ؛ إذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .. حتى انتهى الزمان إلى : عبد الله بن سعيد الكلاَّبى ، وأبى العباس القلانسى ، والحارث بن أسد المحاسبي ، وهؤلاء كانوا من جملة السلف ؛ إلا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية ، وبراهين أصولية ، وصنف بعضهم ودرس بعض . . . حتى جرت بين « أبى الحسن الأشعرى » ، وبين أستاذه [أبى على الجبَّائى المعتزلى] مناظرة فى مسألة من مسائل الصلاح والأصلح ، فتخاصما ؛ وانحاز الأشعرى إلى هذه الطائفة ، فأيد مقالتهم بمناهج كلامية ، وصار ذلك مذهباً « لأهل السنة والجماعة » ، وانتقلت سِمَةُ الصِّفاتية إلى الأشعرية » .

إذن فالتعبير بأهل السنة والجماعة كمذهب ، لم ينشأ إلا بعد أن انحاز الأشعرى إلى طائفة الصفاتية ، ثم انتقلت إلى الأشعرية ..حتى استقرت هذه التسمية « أهل السنة والجماعة » ، بعد زمان طال أو قصر ؛ ولكن ليس قبل منتصف القرن الرابع على كل حال . . .

قال صاحبى : لله ما أحلى التحقيق العلمى ، ولكن لم لا يجوز أن هذا التعبير :

« أهل السنة والجماعة » كان موجودًا زمن الرسول صلى الله عليه وسلم : وهو كلام عربي .. ؟

ثم لم لا يجوز أن يكون الرسول عليه السلام قد أخبر به عن غيب سيقع ؛ فيكون معجزة للرسول الأكرم ؟

قلت يا صاحبي : هذه الألفاظ : عربية بلا شك ، وكانت متداولة في لغة العرب ، وعلى ألسنتهم جميعا ، بل لقد وردت في القرآن الكريم ... ولكن ككلمات مفردة ؛ لكل كلمة معناها كما يلي :

أهـل ... « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ... » ... (سورة طه ٢٠/١٣٢) .

سنـة ... « سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً » . (سورة الإسراء ١٧/٧٧) .

جماعة ... « إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » . (سورة آل عمران ٣/١٥٥) .

« سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » . (سورة القمر ٥٤/٤٥) .

ولم يرد في القرآن لفظ « جماعة » ، كما لم أر هذا اللفظ في أحاديث رسول الله إلا قليلا ، وبمعنى الأمة جميعاً ، في مثل قوله عليه السلام في مسجد الخيف بمنى في حجة الوداع : « ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم الجماعة .. » على كثرة تنقيبي عليه ، وبحثي عنه ، كما لم يرد لفظ «جماعة» أيضا في المعاجم الأصول والأمهات ، إلا بهذا المعنى ...

أما هذه التركيبة : « أهل السنة والجماعة » ، فلم تظهر فى لغة العرب إلا فى القرن الرابع للهجرة ، على ما وصلنا إليه من علم ، أو على ما وصل إليه العلم . . وظهرت كاصطلاح خاص لطائفة خاصة . .

ياصاحبى : ولو قالها الرسول صلى الله عليه وسلم كمعجزة لما سيقع ، لانتشرت هذه التركيبة ، ولتداولها الصحابة رضوان الله عليهم ، بل كان لا بد من أن تطلق على الصحابة ، وتشتهر عنهم ، خصوصاً فى هذا الذى زعموه حديثا : « قال أهل السنة والجماعة » ، قيل : وما السنة والجماعة ؟ قال ما أنا عليه و أصحابى فلو صدرت ، لانتشرت .

قال صاحبى : وما ذا يمنع من التحديث بالافتراق . . . خصوصاً وقد وقع خبره ، ولاتنس أنك قلت : « ولم يستقم غرضه » .

قلت يا صاحبى : إن رسول التوحيد ، والوحدة ، والاتحاد ، لا يمكن أن يشير إلى ما يؤدى إلى تفريق ، أو فُرقة ، أو عناد .

إن رسول السلام والاعتصام ، لا يمكن أن يلفت إلى منازعات أو خصام . .

ياصاحبى : إن الإسلام ينهى بشدة ، عن التحزب ، والتشيع ، والفُرقة . .

فلا أحزاب ، ولا شيع ، ولا تفرق . . فى الإسلام . .

حزب واحد لجميع المسلمين ، هو حزب الله ، ويجمع من عداهم حزب واحد أيضا هو حِزبُ الشيطان ، وله شِيَعُه . .

واقرأ قوله تعالى من سورة المجادلة ٥٨ من الآية ١٩ — ٢٢ :

« اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطانُ فأَنساهُمْ ذِكْرَ اللهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ

الشَّيْطَانِ ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ *.

لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا : آبَاءَهُمْ ، أَوْ أَبْنَاءَهُمْ ، أَوْ إِخْوَانَهُمْ ، أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ؛ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيها ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وقد أمر رب العزة بالاعتصام بحبل الله وعدم التفرق ، قال سبحانه :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ...» .

(سورة آل عمران ٣/١٠٣).

« وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . (سورة آل عمران ٣/١٠٥) .

بل إنَّ رب العزة أمر رسوله وكلَّ مؤمن : أن يبرأ ويتبرأ من كل الشيع والمتفرقين . . . قال سبحانه في سورة الأنعام ٦/١٥٩ :

« إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ...» .

وفوق هذا كله فإن رب العزة يؤكد : أن الذين يفرقون دينهم أو يكونون

شيعا ، أو أحزابا .. إنما هم من المشركين .. يقول سبحانه فى سورة الروم ٣٠/٣٠ — ٣٢ .

« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ ، وَكَانُوا شِيَعاً ، كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » .

يا صاحبى ، وبعد هذا كله ، فإن هذا التعبير الاصطلاحى لم يستقر حتى فى زمان « الأشعرى » نفسه ، الذى تنسب له ، أو ترجع إليه ، هذه الفرقة « أهل السنة والجماعة » .

و « أبو الحسن الأشعرى » توفى فى أواخر الثلث الأول من القرن الرابع الهجرى ، وقد ألف كتابا جامعا عنوانه « مقالات الإسلاميين » ، الذى نشره وحققه وقدمه لعلماء العرب والمسلمين بكل أسى وحسرة ، بل وبكل خزى وعار !! : المستشرق الألمانى « ريتر » أحد أعضاء جمعية المستشرقين الألمانية ، وطبع هذا الكتاب فى مطبعة الدولة فى استانبول : الجزء الأول منه فى سنة ١٩٢٩ م والجزء الثانى فى سنة ١٩٣٠ ، وفى سنة ١٩٣٣ طبع الفهرس .

وفى هذا الكتاب يؤرخ أو يتعرض الأشعرى لكل الفرق الإسلامية ويذكرها بأسمائها . . ويحاول أن يضع للفرقة التى يحاول تكوينها اصطلاحا ، أو اسماً ، ولكنه لم يستقر على تسمية لها ، ولم يضع إصطلاحا محدداً يدل عليها ،

ولو كان التعبير موجودا ، أو معروفا ، أو حتى وُضع جديدًا فى زمان الأشعرى لأطلقه على جماعته ، ولكنه أطلق عليها كثيرًا من الأسماء فى طول كتابه وعرضه ، حتى استقر الاصطلاح من بعده باسم : « أهل السنة والجماعة » .

ولا أدرى لماذا استقر هذا التعبير بالذات ، وهذا الاصطلاح على هذا النحو ؟ ! مع أن « الأشعرى » نفسه ، قد أطلق عليهم تسعة تعبيرات ، فى كتابه المقالات ؛ الذى جمع فيه جميع الفرق والمذاهب والجماعات .

أما التعبيرات التسعة التى أطلقها الأشعرى نفسه على هذه الجماعة ؛ فثمانية منها : استخدم فيها كل تعبير مرة واحدة هى :

١ — أهل الحق . ٢ — أهل السنة .

٣ — أهل الاستقامة . ٤ — أهل الجماعة .

٥ — أهل الحديث والسنة . ٦ — أهل السنة والحديث .

٧ — أهل السنة وأصحاب الحديث . ٨ — أهل السنة والجماعة .

مما يدل على محاولة الأشعرى نفسه وضعَ اسمٍ جديد لم يعرف من قبل ، على الجماعة التى انحاز إليها جديداً من بَعد . . .

ثم كرر تعبيراً واحدًا أطلقه عليهم ستَّ مرات ، هو : « أهل السنة والاستقامة » ، فهلا استقر الأشعرى على تعبير واحد ، غير هذا ؟ . . .

أوحتى كرر « أهل السنة والجماعة » ، كما كرر « أهل السنة والاستقامة » ! !

وهذا يؤكد مرة أخرى : أن شيخ الطائفة الرسمى ، قد أطلق على طائفته اسم : « أهل السنة والاستقامة » بعد ترددٍ وتخيُّر ، شغلاه مدة تأليفه للكتاب خاصة ، ومدة حياته عامة . . .

ويؤكد مرة ثالثة أن اسم « أهل السنة والجماعة » لو كان مستقرًّا أو معروفا لاستقر عليه الأشعرى نفسه فى كل الكتاب .

يا صاحبي : لعلك الآن قد اكتفيت ؟! ولعله قد آن للإنسانية أن تَفِيءَ إلى الحق والهُدى ، وأن تطرق أبواب الصواب على بصيرة وعلى هُدًى ؟ . .

قال : بل ارتويت .. فالحق حق ، والصواب قد اكتفى ..

قلت : الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ..



الفصل الثانى

الحكمة والعلم

تزاوج العلم والحكمة.

الحكمة من القرآن.

الحكمة هى الشطر الأساسى فى رسالة كل رسول . ميثاق النبيين .

الحكمة هى ما أوحى الله به إلى رسوله الخاتم .

الحكيم من القرآن : الله سبحانه ، القرآن نفسه ، أمر الله الحكيم .

العلم من القرآن : معناه . مادته . أدواته . مفاتحه . أسبابه .

العلماء، والراسخون فى العلم .

لفظ قرآن فيه كل العلم . أول كلمة « اقرأ » ، ويليها « ن » ثم : ألمَ .

مفاتح العلم من القرآن : المفتاح الأعم الأشمل بالقلم ،

المفتاح الأخص الأكمل التكوينى لمحمد صلى الله عليه وسلم

٧٥ حرفاً هى أول ما نزل من القرآن ، وكيفية تلقى الرسول لها .

مفاتح : التلقينى والتعليمى لآدم ، والاكتسابى الميراثى لأبناء آدم ...

ثم مفاتح : التقوى . العلم اللدنى . قانون السير والنظر .

مهمة الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم التعليمية .

الحكمة والعلم

قررنا أن « الحكمة » ليست إلاّ من « القرآن » بتعليم من « الرحمن » .

ونقرر أن « العلم » ليس إلا من « الرحمٰن » بتعليم من « القرآن » فإن انحرف شيء منهما ، فإلى الخسران ، وبتعليمٍ من الشيطان ..

والفلاسفة جميعاً لابد من أن يكون كل واحد منهم من مُحبّي « الحكمة » سعياً إلى تذوق « حق » ، أو طمعاً فى الوصول إلى « حق » ؛ للأخذ بيد الإنسانية ، وعلاج الأمراض الاجتماعية ؛ لإسعاد الخلق ، وتوفير أمنهم ، وإرضاء « الحق » والتقرب إليه ..

والعلماء جميعاً يجب أن يجمع كل واحد منهم ؛ بقدر طاقته البشرية ... بين اكتشاف الظواهر والخواص ؛ استغلالا « لمواد » ، وتحكُّما فى « عناصر » ، واستثماراً « لموارد » ، وتحسيناً فى طاقات ... وذلك هو العلم ..

وبين توجيه ذلك كله وتسخيره ، لإسعاد الخلق ، وتحقيق أمنهم ، وإرضاء « الحق » والتقرب إليه ... وتلك هى الحكمة ..

وهكذا يتزاوج العلم والحكمة ، وهكذا يلتقيان ، على أمنٍ وإيمان ، وليس بينهما تناوش ولا نقمة ، وليسا يبغيان ، بل إنهما يُسعدان .

ولهذا نرى القرآن الكريم يقصر خشية الله ، على العلماء من عباد الله ؛ ليعم الخير والأمن على أيديهم جميع عباد الله ، ولأنهم هم الأقرب إلى قراءة آيات الله ، والبحث العلمى المتواصل فى آيات الله ... سواء فى ذلك : الآيات القرآنية ، أو الآيات العلمية ، أو الآيات الكونية ، أو الآيات فى الأنفس ، أو الآيات فى الآفاق .

ولقد لفت رب العزة إلى ذلك ، فى قوله سبحانه ، فى سورة فاطر ٣٥ من الآيات ٢٧ — ٣٠ :

« ألمْ تَرَ أنّ اللهَ أنزلَ من السماءِ ماءً ، فأخرجنا به ثَمرَاتٍ مُختلفاً ألوانُها ، ومِن الجبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمرٌ مُختلفٌ ألوانها ، وغَرابيبُ سود * ومن الناس والدواب والأنعام مُختلفٌ ألوانهُ كذلك ، إنَّما يَخشَى اللهَ مِن عبادِه العلماء . إن الله عزيزٌ غفور * إنّ الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاةَ وأنفقوا مما رزقناهم سِراً وعلانيةً يَرجونَ تجارةً لن تبور * ليوفيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور . . . » . . .

وقد ورد لفظ « حكمة » فى « القرآن الكريم » عشرين مرة ، فى عشرين موضعا ، كما جاء فيه لفظ حكيم ٩٧ مرة ، وتدور « مادة الحكمة » فى القرآن كله ٢١٣ مرة ، ويكفى أن نشير إلى شىء منها الآن ، وموعدنا — بتوفيق الله — فى كتاب « مشارق الحكمة من القرآن » .

(ا) الحكمة : هى الشطر الأساسى لما آتاه الله سبحانه لجميع النبيين والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما كانت هى الشطر الأساسى أيضا فى نص « الميثاق » الذى أخذه الله سبحانه عليهم أجمعين ؛ لتقوم رسالة كل رسول على أسس ثلاثة : تصديق ، وتكميل ، وتمهيد :

تصديقٌ لجميع الرسل ، وبجميع الرسالات السابقة بعد تصفيتها وتنقيتها . .

وتكميلٌ بما تطيق البيئة الرسالية لكل رسول ، بعد تمحيصها وعلاجها ،

وتمهيدٌ لوجوب الإيمان بالرسول اللاحق ، ووجوب نصرته ؛ حتى ختامها وإكمالها وإتمامها . . .

ولكن لما كانت البيئة الرسالية لمحمد الخاتم صلى الله عليه وسلم: هى الإنسانية كلها؛ فلا داعى، ولا مطالب، بل ولايجوز أن يكون التمهيد من أسسها.

وعلى هذا؛ فإن الأسس التى تقوم عليها الرسالة المحمدية الخاتمة ثلاثة أيضا هى التصديق بكل الرسل والرسالات، وكلها سابقة عليها . .

ثم الإكمال والإتمام، قال تعالى لجميع المؤمنين من العالمين فى خاتمة هذه الرسالة الخاتمة: فى أواخر الآية الثالثة من سورة المائدة ٥:

« . . . اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ... ».

وفوق هذا وذاك الهيمنة والجمع؛ فقد قال الله لخاتم رسله:

وأنزلنا إليكَ الكتابَ بالحقِّ مُصدِّقاً لما بينَ يديهِ منَ الكتابِ، ومُهيمنا عليهِ . . . ». [سورة المائدة ٥/٤٨].

وبهذا يكون هذا القرآن هو الجامع لكل الكتب والرسالات، والمهيمن على جميع الكتب وكل الرسالات، وكل من يكفر به إنما يكفر بجميع الكتب وكل الرسالات، فلا يصح لهذا الكافر: أن يدَّعِيَ الإيمان برسالة أية رسالة، أو التصديق برسولٍ أى رسول، لأن من صميم كل رسالة وجوب الإيمان بالرسالة اللاحقة، ونصرتها، واتّباعها. ومن صميم دعوة كل رسول: وجوب الإيمان بالرسول اللاحق، ونصرته، واتّباعه . .

وعلى هذا كان المسلم المؤمن: هو الذى يسلم وجهه لله المرسل سبحانه، ويؤمن بجميع المرسلين منه سبحانه . . . الذين أرسلهم جميعا متكاملين

متعاونين على أداء رسالة واحدة ، وتبليغ دين واحد أنزله الله حلقات متتالية لجميع الأنام على يد المرسلين عليهم السلام :

« إنَّ الدِينَ عِندَ اللهِ الإسْلامُ ... » . (سورة آل عمران ٣ / ١٩) .

ولأن الكفر برسول أى رسول — سابق أو لاحق ، من أول الرسل إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم — يكون كفراً بجميع المرسلين ، بل يكون كفراً بالمرسل نفسه ، سبحانه وتعالى عما يقول المشركون . .

وإليكم نص « الميثاق » من سورة آل عمران ٣ من الآية ٨١ إلى الآية ٨٥ :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ : لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وحِكمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ولَتَنصُرُنَّهُ ؟ قَالَ : أأقرَرْتُمْ ، وَأخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إصْرِى ؟ قالُوا : أقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا ، وأنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَن تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ * أفغيرَ دِينِ اللهِ يبغُونَ ؛ وَلَهُ أَسلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً ، وَإلَيهِ يُرْجَعُونَ * قُلْ : آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنزِلَ عَلَى إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى والنبيُّونَ مِن رَبِّهِمْ ؛ لا نُفرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنْهُمْ ونَحْنُ لَهُ مُسلِمُونَ * وَمَن يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنهُ ، وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ » .

هذه هى الحكمة العامة لجميع الأنام ، التى آتاها الله لجميع المرسلين والنبيين

عليهم السلام ، فكانت « الحكمة » هى : شطر « الدين » بجميع حلقاته :

« إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ » . (سورة آل عمران ٣/١٩) .

(ب) « والحكمة » : هى ما أوحى الله به إلى رسوله الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، علاجا للانسانية كلها ، فى طول الأرض وعرضها ... إلى يوم الحساب ، ولا سعادة لأى مجتمع إلا باتباع هذه الحكمة ، وتنفيذ ما فيها من أوامر وآداب وسلوك وخُلُق ، وكلها تضمن السعادة الحقيقية للفرد والمجتمع جميعا ، فى واقع الحياة الدنيا ، وتمهد له سبيل السعادة فى الحياة الأخرى ..

ومن الحكمة التى جاءت فى القرآن الكريم : ما جاء فى سورة « الإسراء » ١٧ الآيات من ٢٣ إلى ٣٩ من قوله سبحانه :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ،

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً : إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ، فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ، وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * واخفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً * رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ، فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً *

وَآتِ ذَا الْقُرْبَى « حَقَّهُ » وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ،

وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً *

وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ، فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُوراً * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً *

وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً *

وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى : إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً *

وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً *

وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ .

وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً *

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ،

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *

وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً *

وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ ، وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُوراً » .

ثم هو سبحانه الذى يقول لحبيبه الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، فى سورة النساء ٤ من الآية ١١٣ :

« ... وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ! وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » .

وبهذا نستطيع أن نقرر فى اطمئنان ويقين : أن الحكمة كل الحكمة من القرآن الكريم .

فمن ابتغى حكمةً من غير القرآن ، وهو الكتاب المفصّل ، ومن ابتغى حكما غير الله ؛ وحكمه هو الفيصل ، فقد هوى بالإنسانية إلى الدرك الأسفل ...

وتذوق معى قوله تعالى فى الآيات ١١٤ — ١١٦ من سورة الأنعام ٦ :

« أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا ، وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ » .

* * *

(ح) أما « الحكيم » وقد ذكر فى القرآن الكريم ٩٧ مرة ، فإنه لم يطلق إلا على الله ٩٢ مرة ، وعلى القرآن ٤ مرات ، وعلى أمر الله الذى يُفرَق فى ليلة مباركة أنزل الله فيها القرآن ... مرة واحدة فقط .

١ — فالحكيم هو الله سبحانه لا غير ، وقد كرر لفظ الحكيم دالاً على الله

سبحانه فى القرآن الكريم ٩٢ مرة ، وتدبر بقلبك وبصيرتك معى الآية ٧٣ من سورة الأنعام ٦ وهى قوله سبحانه :

« وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ : كُنْ فَيَكُونُ : قَوْلُهُ الحَقُّ ، وَلَهُ المُلْكُ يَومَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ : عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ » .

وقوله سبحانه فى سورة الأنفال ٨/٧ — ١٠ عن نصر المؤمنين يوم بدر :

« . . . وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ ، وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُونَ * إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ المَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

١ — والحكيم كذلك فى لغة القرآن : هو القرآن نفسه ، لأنه كلام الحكيم سبحانه ، وآيات الحكيم جل وعلا ؛ وقد أطلق لفظ الحكيم على القرآن الحكيم أربع مرات منها : قوله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يقسم له بالقرآن الحكيم :

« يس [يسين] * وَالقُرْآنِ الحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ العَزِيزِ الرَّحِيمِ » . (سورة يس ٣٦/١ — ٥) .

وقوله فى سورة آل عمران ٣ فى الآيات من ٥٨ — ٦٠ :

« ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الحَكِيمِ * إِنَّ مَثَلَ

عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » .

وتذوق معى من مفتتح سورة لقمان ٣١ قول خالق الإنسان ، وقل لفلاسفة الدنيا وعلماء الأرض والنفس والاجتماع : تعالوا خاشعين إلى « حكمة القرآن » .

« الٓمٓ ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۞ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۞
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۞
أُولَٰئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ، كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۞ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۞ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَٰذَا خَلْقُ اللهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » .

٣ — والحكيم أيضاً : هو أمر الله الحكيم ، فى حديثه عن القرآن

الكريم ، وعن ليلة القدر ، وهى الليلة التى أنزل الله تعالى فيها هذا الكتاب المبين .

واقرأ معى من أول سورة الدخان ٤٤ قوله سبحانه :

« حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ، إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ : يُحْيِي وَيُمِيتُ : رَبُّكُمْ ، وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » .

نعم ، وصدق الله الحكيم : إن الذين يحاولون أن يتفلسفوا بعقولهم فقط بعيدةً عن القرآن ورب القرآن ، الذى لا إله إلا هو ، والذى يحييهم ، ويميتهم ، وهو ربهم ورب آبائهم ، وهو القاهر فوق عباده وبيده حياتهم . هؤلاء منحرفون ضالون ، « بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ » .

وإلا فليستقلوا : بوجودهم ، وإيجادهم ، والتحكم فى آجالهم ، قبل أن يستقلوا بتفكيرهم ، وفلسفتهم ، وعلمهم ، والتحكم فى توجيهاتهم .

* * *

أما لفظ « العلم » ، وأما معنى « العلم » وأما مادة « العلم » ، فلها جميعاً فى « القرآن » شأن يُذكر .. ويُذكر .. ويذكر ..

فضلا عن عناية القرآن بالطرائق التى يتأدى بها العلم إلى الإنسان ، وبخاصة عن طريق الحواس الإنسانية ؛ كالسمع ، والبصر ، والفؤاد ، والبصيرة ، والرؤية ، والنظر ...

أو عن طريق الأدوات الأخرى ؛ كالقراءة ، والقلم ، وكالتفكير ، والمعرفة ، والفقه ، والفهم ، واستنباط العبر .

وفضلا عن « المفاتح » العليا فى القرآن الكريم ، التى تؤدى بالإنسان إلى العلم ؛ كالتقوى ، وانشراح الصدر ، وخشوع القلب ، والتلقين الإلهى ، والتعليم اللَّدُنِّى ، والأمر التكوينى المحمدى .

ولعل من أدق ما أشار إليه القرآن ووجه إليه : تلكم القوانين العلمية الحقة التى تأخذ بيد العلماء والمتخصصين ، إلى أرقى مراقى الكمال العلمى ، وأعمق أعماق البحث المنهجى ؛ مثل « قانون السَّير والنظر القرآنى » . . .

مع عناية القرآن الكريم بالطرائق التى يؤدى بها الإنسان العلم إلى الناس وبخاصة عن طريق الحواس ؛ مثل التلاوة ، واللسان ، والنطق ، والقرآن ، والتبيين ، والبيان ..

أو عن طريق الأدوات الأخرى ؛ كالكتابة ، والقرطاس ، والمداد ، والقلم وكالتسطير ، وما يسطرون ، والرَّقّ المنشور ، والكتاب المرقوم ..

وقد نبه القرآن بقوة قوية إلى دركات علمية تنحط إليها الإنسانية ؛ فتنحرف بقَدر بُعدها عن الصواب ، وتعبث بالعقول وبالأفئدة وبالألباب وتلتوى بالمجتمع الإنسانى إلى التدمير وإلى الخراب ..

كما حذّر القرآن من هذه الدركات ، ولفت إليها جميع الثقافات وبين أضرارها فى المجتمعات .. فهى آفة الإنسان فى إنسانيته ؛ بل هى آفة الآفات .

ثم أكد القرآن فى غير موضع : أن كل هذه الدركات ليست من العلم فى شىء ، وإن تَزيّتْ منه ببعض السِّمات ، أو اتّشحت بظاهر منه أو توارتْ

خلف بعض الافتراءات .. مثل : الظن ، والريب ، والاختلاف ، والشك والامتراء ، والتَّخَرُّص ، والمجادلة بغير علم ، والبغى ، والجحود ، والافتراء والإفك ،والاختلاق...

وقد وضَّح القرآن بتفصيلٍ ودقة أسبابَ هذا كله.. من صَممٍ فى الأسماع وإن سمعت ، وعمىً فى الأبصار وإن نَظرتْ ، وغشاوةٍ على الحواسّ وإن أحسَّت ، وقسوةٍ فى القلوب وإن لانت ، وانحرافٍ فى العقول وإن فكرت ، ومرضٍ فى القلوب أو ختم عليها ، وغِلّ فى القلوب أو زيغ عن طريقها ، وعمىً فى قلوب أولئك الذين لم يتدبروا آيات الله الواحد الأحد ، كما قال سبحانه فى سورة النساء ٤ / ٨٢ :

« أفلاَ يتدبَّرونَ القرآنَ ؛ ولوْ كانَ منْ عِندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختلاَفاً كثيراً » .

وكما قال جل وعلا فى سورة محمد ٤٧ / ٢٤ :

« أفلاَ يتدبَّرونَ القرآنَ أمْ عَلىَ قلوبٍ أقفالُها » ؟! ...

ثم دفع القرآنُ الإنسانية كلها دفعاً قويا إلى درجات علمية ، تأخذُ بيد البشرية ، وتداوى الأمراض الاجتماعية ، وتحل العقد المستعصية ، وترد على كل الشبه والمفتريات ، فتسعد الأفراد وتسعد المجتمعات ، ويتشارك الكل مع الكل ، ويتمانع الكل بالكل ، ويتعاون الكل مع الكل ، بل يتفانى الكل فى مصلحة الكل . فلفت القرآنُ إلى كثير من هذا ، مثل التّدبر ، والتّفكر والهُدى ، والاستنباط ، والاطمئنان ، واليقين ، والحق ، والتعاون على البر والسعى إلى الخير . . .

وصدق الله ربُّنا الحق :

« سَنريهمْ آياتِنا فى الآفاقِ وفِى أنفُسِهمْ حتَّى يتبيّنَ لهمْ أنّهُ الحقُّ

أوَ لَمْ يكْفِ بِرَبِّكَ أنَّهُ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ » ؟ .(سورة فصلت ٤١/٥٣).

« ولِيَعْلَمَ الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ أنَّهُ الحقُّ مِن رَبِّكَ . . . » .

(سورة الحج ٢٢/٥٣) .

« لَكِنِ الرَّاسِخُون فى العِلْم مِنهم والمؤْمِنونَ يؤْمِنونَ بما أُنزِلَ إليكَ ، ومَا أُنزِلَ مِن قبلكَ ...» . (سورة النساء ٤ / ١٦٢) .

« والذِين آمَنوا وعَملوا الصَّالِحاتِ وآمنوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحمدٍ ، وهُوَ الحقُّ مِن ربِّهِمْ ، كفَّرَ عَنهُمْ سيئاتِهِم، وأصْلحَ بالهمْ». (سورة محمد٤٧/٢).

« إنَّ الدينَ عندَ اللهِ الإِسلامُ ، ومَا اختَلفَ الذينَ أُوتوا الكتابَ إلاَّ من بعْد ما جاءهمُ العلم ، بغياً بينْهم ...» . (سورة آل عمران ٣ / ١٩) .

ومما يلفت النظر كثيراً فى أمر « القرآن الحكيم »: أن « مادة الدين » أو « مادة الغيب» وما يدور عليهما فيه ، تعدّ بالعشرات والآحاد ، بينما « مادة العلم » وما يدفع إليه فيه : تعد بالآلاف والمئات . . . وهذا مِمَّا يجعلنا نؤكد : أن القرآن هو كتاب العلم ، قبل أن يكون كتاب الدين أو الغيب ، وبعد أن يكون كتاب الغيب أو الدين ؛ بل هو كتاب العلم والغيب والدين ، وهو كتاب الدنيا والآخرة لكل بيئة وفى كل حين ، وقد أنزله رب العالمين ، على رحمة العالمين... ؛ «ليكون للعالمين نذيراً » ، وللمتقين هدًى ونوراً...

لأنا نرى مادة « الدين » وما يشتق منها تكرر ٩٥ مرة فقط . . .

ثم نرى مادة « الغيب » وما يشتق منه تكررت فى القرآن كله ٥٩ مرة فقط . .

فى حين أن مادة « العلم » وحدها تكررت ٨٦٠ مرة ، ومادة « البيان »

تتكررت ٧٢٣ مرة ، ومادة « الكتابة » ٣٢٠ مرة ، ومادة القراءة ٨٨ مرة ومادة « الرأى » ٣٣١ مرة ، ومادة « السمع » ١٨٥ مرة ، ومادة « البصر » ١٤٨ مرة ومادة « النظر » ١٣٠ مرة ، ومادة « العقل » ٤٩ مرة ، ومادة « الفؤاد والقلب » ١٩٤ مرة ... إلى آخر المواد التى تؤدى إلى علم ، أو تقود إلى العلم ... فضلا عن اليقين والإيمان . .

وندعوا رب الدين والإيمان ، أن يوفقنا إلى تفصيل ذلك البيان ، فى كتابنا « مفاتح العلم من القرآن » ، والله الموفق وهو وحده المستعان . .

ولكننا لا نستطيع أن نتجاوز هذا المكان قبل أن نشير إلى بعض مفاتح العلم من القرآن ، وإلى بعض ما يوحى به القرآن من العلم .

ويكفى أن نعلم الآن :

أن لفظ « القرآن » نفسه مشتق من « القراءة » ، وهى أعمّ مفاتح العلم لبنى الإنسان ...

وأن أول كلمة منه نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، هى : « اقرأ » وفيها الأمر القوىّ المحكم ، والتوجيه العلمى الملزم ، لكل مسلم ومسلمة فى كل زمان ومكان . . . إلى العلم ، والتعلم ، عن طريق القراءة والكتابة مع الاستعانة باسم الله ، وعن طريق قراءة القرآن تقربا إلى الله ، مع الاستعانة على تكشف آيات الأكوان ، بتفهم آيات القرآن . . وذلك فى مفتتح سورة « العلق » : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » . . .

وأنّ أول قسمٍ فى القرآن كله ، أقسم به رب العزة ، فى ثانى آية نزلت بعد الأمر بالقراءة ، صُدِّر بحرفٍ من حروف الهجاء ، وكان بالقلم ، وبما يسطر العالمون . . . وذلك فى مفتتح سورة شرّف الله فيها « القلم » وكرّمه ، وسمّى

السورة بسورة « القلم » وأقسم به ، حيث يقول رب العالمين : « ن [نُونْ] ، والقلمِ وما يَسْطرُونَ » ، وما أروع هذا القسم وما يحمله من تشريف وتكليف . ولسرٍّ : يعلمه الله ، الذى يعلم السر فى السموات والأرض والذى يعلم السّرَّ وأخفَى

أنْ كانتْ أول سورة نزلت من القرآن ، هى سورة « العلق » ، ومن العلق يُخلَقُ الإنسان ...

وكانت السورة التالية لها فى النزول مباشرة ، هى سورة « القلم » ، وبالقلم يتعلم الإنسان . . .

وكأنَّ إنسانية الإنسان ، لا تكون إلا بالخلق والعلم ، من العلق وبالقلم وإذا ماتذوق الإنسان بقلبه ، الذى أشرق فيه نور الإيمان ؛ قول خالقه سبحانه الذى أنزل القرآن :

« الرحْمٰنُ * علَّمَ القرآنَ * خلقَ الإنسانَ * علَّمَهُ البيَانَ » . . .

أدرك على الفور : أن خلق الرحمن للإنسان ، كان بين تعليمين للإنسان من الرحمن هما : تعليم القرآن ، وتعليم البيان ، فإن فرَّطَ إنسان فى واحد منهما ، فقد فرط فى ذات إنسانيته ، وخرج بذاته عن آدميته ؛ فإن أهمل تعليم القرآن : انحجر إلى الشيطانية ، وإن أهمل تعليم البيان : انحدر إلى الحيوانية .

والقرآن هو كلام الله ؛ فهو قديم ، والإنسان حتى آدم عليه السلام هو مخلوق ؛ فهو حادث . . . فتعليم القرآن قبل خلق الإنسان . . .

ثم والبيان هو إظهار آيات الله فى الإنسان ، وفى اللسان ، وفى الأكوان وكالها جميعا : أن تكون على هُدًى من آيات القرآن .

ثم كان أمرُ الله الحكيم الخبير سبحانه بترتيب آيات القرآن فى المصحف ..

ولِسِرٍّ مَّا : يعلمه سبحانه الذى أحاط بكل شيء علما : أنْ كانت « سورة البقرة » فى أول المصحف ، وهى أول سورةٍ نزلت فى « المدينة »

عقب الهجرة ، وبعد انتهاء مرحلة الدعوة ، فكانت أول تشريع فى الإسلام ، لأول دولة الإسلام ؛ ولعلّ التأريخ الإسلامى بالهجرة يُشيرُ إليها ، أو يدل عليها ، أو يوجِّه لها . . .

والذى يجب علينا تأكيده الآن ، هو أنّ مفتتح هذه السورة — الذى هو مفتتح القرآن — قد بدأ بثلاثة أحرف من أحرف الهجاء ، لا يعرفها إلا من قرأ وكتب ، وتعلم ، وعلم : هى : « ألف . لام . ميم » .

ومن عجب وإعجاز أنها تقرأ هكذا .

ولكنها تكتب متصلةً هكذا « الٓمٓ » .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى عقبها : « ذلك الكتاب » . . أليس فى ذلك دفع هو أقوى دفع للمسلمين جميعا ، بل للإنسانية كلها ، أن يتعلموا ، وأن يحللوا كل كتب العالمين على تواليها . . . فى كل زمان ومكان ، وأن يحاولوا المقارنة بينها جميعا ، وبمستوى الإنسانية العالمة ، أو العلم الإنسانى ، على توالى الزمن على حكم واحد فقط ، هو : أن كل ما كُتب ، وكل ما يُكتب إلى يوم القيامة ، وكل ما زعمه الناس من كتاب ، أو أطلقوا عليه اسم كتاب : لا يصح أن يطلق عليه اسم الكتاب ، بجانب القرآن ، فالقرآن وحده هو الكتاب ، ولا غيره فلا شك فيه ، ولا التواء ، ولا اختلاف ، ولا ريب . . . « ذلك الكتاب لا ريب فيه » .

ولعلنا نستطيع بعد هذا وقبل ذاك ، أن نقرر فى ثقة واطمئنان ويقين ، أن هذا هو كتاب رب العالمين ، لجميع العالَمين والعالِمين ، ومنه العلم كل العلم للناس أجمعين وفيه ومنه كل ما يدفع الإنسان ويسعده ، فى دنياه وآخرته ، إلى يوم الدين ؛ يومَ يقومُ الناس لرب العالمين . . فلابد من تدَبُّرِ آياته الباقية المتجددة ، وتذكر

توجيهاته الخالدة القائدة ، وهل يتدبر إلاّ أولوا العلم والعلماء من الأصفياء ؟ وهل يتذكر إلا أصحاب القلوب السليمة ، والبصائر النيِّرة ، والأفئدة والصفاء ؟ !

فهل آن لنا أن نتذوق قول الله سبحانه لحبيبه الخاتم عليه السلام عن « ذلك الكتاب » : « كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ؛ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ » ؟ ! . (سورة ص ٣٨/٢٩) .

وقبل أن نتقحم على العلم محرابه ، أو نحاول — حتى مع الاستئذان — أن نطرق أبوابه ... لابد لنا من أن ننير له المصابيح ، وأن نتلمس الطريق إليه ونمسك بالمفاتيح ، فإن أفلحنا وفتحنا ، وأبصرنا وشاهدنا ، ولاحظنا وجربنا ... وجب أن نرجع البصر كرتين وكرتين ، ونكرر التجارب مرتين ومرتين ، وسنرجع دائماً من البصر بكثير من الإبصار ، ونعود فى التجارب إلى التكرار والتكرار ، لأنا فى كل مرة سنزداد فهما ، وبعد كل تجربة سنقول : إما .. وإما ... فلا يسعنا إلا أن نستجيب لقول الحق :

« وقُل رَبِّ زِدْنِى عِلْماً » .. فندعوا ونعود ، ثم نعود فندعوا .. حتى تنبهم النواظر ، وتستبهم الخواطر ..

حتى يدفع بنا « الكتاب » إلى صدر سورة تبارك « المُلْك » ٦٧ فنقرأ قول الحكيم الخبير :

« تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ المَوْتَ والحياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ * الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ، فارجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارجِعِ البَصَر

كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إليكَ البصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » . .

فيقف موقفنا ، ويدور مدارُنا ، وننساق إلى سورة الأنعام ٦/٥٩ فنصل إلى اليقين ، ونردد كلام رب العالمين :

« وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي البر وَالبَحْرِ ، وَمَا تَسقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعلَمُهَا ، وَلاَ حَبةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأرضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

ثم نُهرَع إلى سورة الأعراف ، لنتدبر قول أحكم الحاكمين :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فصَّلناهُ عَلىَ عِلمْ ، هُدًى وَرَحْمَةً لقومٍ يُؤمِنُونَ » . (سورة الأعراف ٧/ ٥٢) .

وعندئذ نؤمن بالعليم الفتاح ، ونسارع إلى كتاب رب العزة وفالق الإصباح لنتذوق منه « مفاتح العلم » ؛ على هدى ونور من الكريم الفتاح ، ونستمد منه العون والتأييد والفلاح ..

و « مفاتح العلم » من القرآن : مَوْصُولة المدد والإعداد ، متواصلة المدد والإمداد .

وأعمُّ هذه « المفاتح » وأشملها لبنى آدم ، هو التعليم بواسطة القلم ، وهذا عام لجميع أفراد الإنسان ...

أما أخصها وأعلاها ، فهو ما يكون بلا واسطة ، بل يكون بأمر « التكوين » الإلهى ، وباسم الله مباشرة من غير واسطة ، وهذا خاص لواحدٍ فردٍ من بنى الإنسان ، وهذه ميزة كبرى خص الله بها من جعله « رحمة للعالمين » ، وإكمالاً لدينه ، وإتماما لنعمته ... محمداً صلى الله عليه وسلم .

ومن عجب وإعجاز ، أن يهدى الله هذا المفتاح لهذا الفرد ، فى أول كلمة

نزلت من كلمات القرآن ، وفى الوقت ذاته يدفع سبحانه الإنسانية كلها إلى المفتاح الأشمل والأعم ، وهو القلم . . . لينير المفتاح الأكمل ، أمام المفتاح الأشمل ؛ لأن مَن لم يتذوق ربوبية الله الواحد ، وخلقه ، وتكريمه ،

لا يمكن أن يتعمق أسرارَ القلم ، وعلومه ، وتعليمه ؛

ثم ؛ وأن يجعل الخالق الرحمٰن « خَلق الإنسان » : بين أمرين بالقراءة

ويجعل « القلم » بين تعليمين من الله ، : « . . علّم بالقلم علّم . . . » .

ويجعل الإنسان بين خلقٍ وعَلق ، وبين علم وجهل وتعليم . . .

« علّم الإنسان مالم يعلم » .

وأن يظهر فى هذه الكلمات أمران يدفعان إلى القراءة والعلم ، وفعلان يذكّران بالخلق والعبودية ، وثلاثة توجه الإنسانية إلى التعليم والتعلم .

كل هذا وأكثر من هذا ، بما لا يتناهى ، مأخوذ من ٧٥ حرفا فى ٢٥ كلمة فى ٥ آيات ، هى أول القرآن نزولا على محمد صلى الله عليه وسلم ، لما اكتملت سنه الأربعين من الأعوام ، ونزل عليه جبريل عليه السلام بالسلام من السلام ؛ فى « غار حراء » حيث كان يتعبَّد الليالى والأيام . . .

وقال له : « اقرأ » إيذانا ببدء الرسالة والقرآن . . .

فقال محمد عليه السلام : « ما أنا بقارِىء » ، فضمه جبريل حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله ، وكرر أمر الله بالقراءة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يكرر له الجواب ، فيضمه ثم يرسله . . . ثلاث مراتٍ ، وبعد الثالثة تلا جبريل أمر الرحمن بالقرآن :

« اقرَأْ بِاسْمِ رَبكَ الذِي خَلقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَق * اقرَأْ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ * الذِى عَلَّم بالقَلَم * علَّم الإنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ * » .
(سورة العلق ٩٦/١ ــ ٥).

وكأنَّ محمداً يقول لجبريل عليهما السَّلام : كيف يأمرنى الله « بالقراءة » والأمر تكليف ، والتكليف لا يكون إلا بالوسع وبما يستطاع ؛ وليس فى وسعى أن أقرأ ولا أستطيع ، لأنى لم أتعلم القراءة من قبل : ما أنا بقارئْ ! !

وكأن جبريل عليه السلام يقول لمحمد صلى الله عليه وسلم : ربك يعلم أنك لم تتعلم القراءة ، ولم يكلفك بالقراءة بهذا الأمر : اقرأ ؛ فإن الأمر من الله كما يكون للتكليف يكون للتكوين ، فأمر الله أمران : تكليفى ، وتكوينى : « سُبْحَانَهُ إذا قضَى أمْراً ، فإنَّما يَقولُ لهُ كنْ فيَكون » ؛

فيا محمد : هذا الأمر « اقرأ » أمرٌ تكوينىّ ، والله يُكوِّن فيك القراءة باسمه مباشرة دون واسطة ، والعالمون جميعا يقرءون بواسطة القلم وهذا « المفتاح التكوينىّ » خاص بك من دون العالمين ، لأنك خاتم النبيين وإمام المرسلين، ورحمة للعالمين .

أما أسرار الضّمات الثلاث بين جبريل عليه السلام ومحمدصلى الله عليه وسلم .

وأما أسرار الجهد ، ومن الذى بلغ منه الجهد ؛ أهو جبريل الأمين وهو من العالمين ، أم هو محمد خاتم النبيين وهو رحمة العالمين . . . ؟ !

وأما أسرار التبليغ عن الله للأوامر الثلاثة بالقراءة ، من جبريل عليه السلام لمحمد صلى الله عليه وسلم

وأما الأسرار فى تكرار الأمر المباشر فى القرآن الكريم ، بالقراءة مرتين من الله العلى الأكبر ، لمحمد صلى الله عليه وسلم :

« اقرأ باسْم ربكَ الذى خلق . . . اقرأ وربُّكَ الأكرمُ . . . » . . .

فأنَّى لمخلوق أنْ يصل إلى شىء من أسرارها ؟ ؟ . . .

فلابدَّ من الاعتراف بالعجز والتسليم : « وأنَّ إلى ربِّكَ المنتهَى » ؛ لأنه هو وحده سبحانه الذى يعلم السر وأخفى . . .

وبين هذين المفتاحين : الأخص التكوينى « بكن » ، والأعم التكليفى « بالقلم »؛ مفاتيح كثيرة نشير إلى بعضها :

٣ — مفتاح التلقين التعليمى ، أو التعليم التلقينى لآدم أبى البشر : « وعَلَّم آدم الأسماء كلَّها » . ...

ولما بَنَى الملائكة قضية « الخلافة عن الله فى الأرض » على التسبيح والتقديس والتحميد لله رب العالمين ، لفتهم سبحانه إلى أن قضية الخلافة إنما تُبْنَى أولاً على العلم ، ليستطيع الخليفة أن يؤدى وظيفته فيما خُلِّف عليه ، فيكون سيداً لجميع الكائنات فى الأرض والمواد التى على ظهرها أو فى باطنها ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل المتواصلين ٠

٤ — مفتاح التراث والميراث لبنى آدم من أبيهم آدم .

٥ — التقوى : « ..واتقُوا اللهَ ويُعلِّمكُمُ الله .. » .(سورة البقرة ٢/٢٨٢).

٦ — العلم اللدُنِّى : « فَوجدَا عبداً من عبادنا آتيناهُ رحمةً مِن عِندِنا وعلمناهُ من لَدُنَّا عِلماً » ٠ (سورة الكهف ١٨ / ٦٥).

٧ — السير والنظر : السير فى الأرض لاكتشاف آثارها ، واستطلاع أخبارها ، والكشف عن حفرياتها ، والغوص وراء مخزوناتها ، والتنقيب عن عناصرها وموادها ، والبحث العميق المتواصل عن مكنون أسرارها . . . مصحوبا كل هذا بالملاحظة والتجربة ، والاستنباط والاستدلال . . . ليجىء الحكم على مقتضى ما تنطق به الآثار ، وتؤكده الأحفار ، وتؤيده الأخبار وتكشف عنه الأسرار .

ولسرٍّ مَّا كرر الله هذا القانون فى القرآن ثلاث عشرة مرة،بعدد سنوات الدعوة بفجاءت مواده فى ثلاث عشرة مادة .

ينعى دائماً على السابقين فى سبع مواد منه : إرسالهم الأحكام العلمية

دون سير وحذر ، وبغير بصر ونظر .

يقول سبحانه : « أفلمَ يسيرُوا فى الأرضِ فينظروا . . . » : (سورة يوسف ١٢/١٠٩ ، غافر ٤٠ / ٨٢ ، محمد ٤٧/١٠) .

« أوَ لم يسيروا فى الأرض فينظرُوا ... » ،(الروم ٣٠/٩ ، فاطر ٣٥/٤٤ ، غافر ٤٠ / ٢١)

« أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكُونَ لهم : قلوبٌ يعقِلونَ بها ، أو آذانٌ يسمعون بها ؟ ! فإنها لا تعمى الأبصارُ ، ولـكنْ تعمى القلوبُ التى فى الصدُور ». (سورة الحج ٢٢/٤٦) .

وفى ست « مواد » أخرى من هـذا القانون ، يأمر الله سبحانه فى قرآنه الحكيم :أن تمسك الإنسانية بهذا المفتاح ، ويسير العلماء على مقتضى هذا القانون :

« قُلْ سِيرُوا فى الأرض فانظرُوا » ، (النمل ٢٧ / ١٩ ، العنكبوت ٢٩ / ٢٠ ، الروم ٣٠ / ٤٢) .

« فَسيروا فى الأرضِ فانظروا ...» (آل عمران ٣/١٣٧ ، النحل ١٦/٣٦)

« قلْ سِيرُوا فى الأرض ثم انظرُوا ... » . (الأنعام ٦/١١) .

ومن عجيب أمر هذا القانون والعلم ، أنه يهدى العلماء إلى معرفة القوانين والسنن والمناهج السابقة ، ويأخذ بيد العلم إلى البحث والدرس والتقصى لأحوال السابقين ، حيث يقول ربّ العالمين :

« قد خلتْ منْ قبلِـكمُ سُننٌ ، فَسيروا فى الأرض ، فانظروا كيفَ كانَ عاقبة المـكذِّبين ؟ ! ＊ هذَا بيانٌ للناس ، وهُدًى وموعظةٌ للمتقين ＊ ولاَ تهِنوا ولاَ تحزَنوا، وأنتمُ الأعلوْنَ إنْ كنتم مؤْمنينَ » .

(آل عمران ٣ / ١٣٧ — ١٣٩) .

بل يأمر ربّ العزة الإنسانية كلها ، والعلماء خاصة ، والمتخصصين على

الأخص من المؤمنين بالعلم وبعلام الغيوب : أن يواصلوا السير فى الأرض بكل قوة ، وأن يدققوا النظر والاستنباط والقراءة الصحيحة بكل همة ، لكل ما يكتشفون أو يجدون من الحفريات ، والفقريات ، وغير الفقريات ، والآثار والركام ، والآبار ، والمعادن ، والعناصر ، والمواد ، والحقول الجوفية ، وغيرها وغيرها . . . حتى يصلوا . . . وسيصل العلم الإنسانى ، على هُدى من هذا القانون القرآنى . . إلى الإنسان الأول من الخلق ، بل إلى معرفة بدء الخلق ، ثم يتفرد رب الدنيا والآخرة ، بإنشاء النشأة الآخرة . . .

والأعجب منه أن تعلم أن الإنسانية الآن تفخر بما وصلت إليه من محاولة لاكتشاف « سفينة نوح » . . . مع أن القرآن يدفع الإنسانية إلى هذا وأكثر منه ، منذ أكثر من أربعة عشر قرناً مضت ، بهذا القانون :

يقول سبحانه : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا « نُوحاً » إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً ، فَأَخَذَهُمُ الطوفانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَأَنجيناهُ وأَصحابَ السفينةِ ، وَجعلْناها آيةً للعالمينَ » . . .

بل إن هذا القانون يدفع العلم إلى أبعد من هذا . . إلى معرفة كيفية بدأ الخلق فيقول رب العزة بعد ذلك :

« أَوَلَمْ يَروْا كَيفَ يُبْدِىءُ اللهُ الخلقَ ثمَّ يُعيدهُ ؟! إنَّ ذَلكَ عَلىَ اللهِ يَسيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِى الأَرضِ فانظرُوا كَيفَ بَدَأَ الخَلْقَ ! ! ثمَّ اللهُ يُنشىءُ النَّشأةَ الآخرَةَ ، إنَّ اللهَ عَلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ » .

(العنكبوت ٢٩ الآيات ١٤ — ١٥ / ١٩ — ٢٠) .

ومن أراد مزيداً من تفصيلات هذا القانون ومواده ، فليرجع إلى كتابنا

« عجالة فى تاريخ الأديان » القسم الثانى ، طبع مطبعة الأزهر الشريف سنة ١٣٦٥/١٣٦٦هـ (١٩٤٦ — ١٩٤٧ م).

ولا أدرى وهذا كله فى القرآن : كيف غفل عنه أصحابه طوال هذا الزمان ، ولكنه الاستعمار ، والانخداع ، والطغيان . . .

ولكن الذى أدريه وأؤكده: أنه قد حق لنا من الآن ، بل وجب علينا أن نقرر وننشر فى كل مكان :

أنّ واحد الإنسانية كلها هو الذى يتلو على الإنسانية كلها آيات الله ، كما أنزل الله . . . وهو وحده الذى يطهر المؤمنين كل المؤمنين من كل انحراف وطغيان فى أى اتجاه ، ثم هو وحده المعلم لكل عباد الله يعلمهم بعد أن يتلو عليهم آيات الله ، ويزكيهم ويطهر أخلاقهم ..يعلمهم الكتاب ، ويعلمهم الحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وهو محمد بن عبد الله خاتم النبيين ورحمة العالمين صلى الله عليه وسلم ؛ فلا معلم غيره ؛ لا أول ، ولا ثانى : لا أرسطو ولا الفارابى فليس هناك معلم أول ولا معلم آخر غير خاتم المرسلين ، الذى امتن به رب العالمين على المؤمنين؛ بقوله سبحانه فى سورة البقرة الآية ١٥١ :

« كَمَا أرسلنَا فيكمْ رسُولاً منكمْ : يتْلو عليكمْ آياتنَا ، وَيزُكيكمْ ، ويعَلمكمُ الكِتابَ والحكمةَ وَيعلمكم مَا لمْ تَكُونوا تَعلمونَ » .

وأن « الحكمة » ليست إلا من « القرآن » ؛ بتعليم من « الرحمن » .

وأن « العلم » ليس إلا من « الرحمن » ؛ بتعليم من « القرآن » .

فإن انحرف عن شىء من هذا إنسان فإلى الخسران ، وبتعليم من « الشيطان »

الباب الثانى

الفصل الثالث

العقل والإنتاج

العقل والرزق . العلاج الصحيح لاطمئنان كل واحد لعقله ، وتسخطه على رزقه ...

المادية والأنانية .

قصة الرجلين من سورة الكهف .

التوصل إلى معرفة الله بالعقل .

جهل العقل لنفسه .

مادة عقل من القرآن الكريم .

هل وردت ألفاظ: عقل ، وعاقل ، ومعقول ، وعقلاء ، وعاقلون ، وأعقل.. فى القرآن الحكيم ؟ !

مهمة الإنسان فى الأرض .

العقل والقلب بين الطب والدين .

القلب من القرآن الكريم .

مجالات التدبير العقلى على الأرض وفى الأرض .

تحقيق الخلافة عن الله فى الأرض .

العقل والإنتاج

إنْ تعَجبْ ؛ فعجبٌ أمر هذا الإنسان ، فى كل زمان ومكان ، وبخاصة فى هذه الأزمان : يرضى بعقله ؛ بل ويتفاخر به ،

ولا يرضى عن رزقه ؛ بل ويتسخط عليه . .

ضاق عنه علمه ، فطغى . . . وضاق هو عن رزقه ، فبغى . . .

وليت الأمر وقف بالفرد ، عند هذا الحد ، بل تجاوز به كل حد ، حتى أصبح من صميم علمه أن يُجَهِّل كل من عداه ، وأضحى من صميم عمله : أن يحطم كل من سواه . . لأن الفردية أعمته ، والأنانية أغوته ، والمادية غرته . .

وليس من جامع لهذه الثلاثة الخبيثة : إلا ما يسمونه : « الفلسفة الحديثة » ، أو « الفلسفة المعاصرة » ؛ ويجمعهما : الفجور ، والمكابرة . . .

أعمته « الفردية » عن جهود الآخرين ، فجهلها وعاداها ، والإنسان عدوٌّ لما يجهل ، واطمأن بعقله الفردى إلى أنه قد علم ، ومن اطمأن إلى أنه قد علم فقد جهل ، وعلى أساس من جهله وما جهله ، أخذ يُجَهِّل غيره ، ظانا بأن جهله بوجود شيء ، دليلٌ على عدم وجود ذلك الشيء . . . ولكن ! هل يستدل بالجهل على العدم ؟ !

ثم أغوته « الأنانية » فتعالى على الإنسانية ، وأخذ يزين له عقله أن يحطم مجهودات غيره ، ظانا أنه إن فعل ذلك وصل ، وأصبح فوق القمم ، أو أصبح هو كل القيم . . . ولكن بعد تحطيم القمم، وتمزيق القيم : أين يكون هو من القيم أو من القمم ؟ ! ! إنه يكون إذاً : إحدَى الرِّمَم .

ثم غرته المادية والأمانىّ ؛ فكفر بالروحية والحساب الأخروىّ ، واندفع بعقله المفتون ينكر الدين ، أو يحاول أن يستقل بتفكيره عن رب الدين ،

وظن أن « الإنسان وحده على الأرض » ، بعيداً عن بديع السموات والأرض ونسى أنه جميعا وبنى جنسه : أعجز من مقاومة دودة ، وأهون من لسعة بعوضة وأضعف من خرطوم ذبابة :

« يا أيّها النّاس ضُرِب مَثَلٌ فاستمعوا لَهُ : إنّ الذينَ تدعُونَ من دون الله لنْ يخلُقوا ذُبَاباً ، ولو اجتمعوا لَهُ ، وَإنْ يَسلُبْهُمُ الذبابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنقِذُوه منهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطلوبُ * مَا قدَرُوا اللهَ حَقَّ قدْرِه ، إنَّ اللهَ لَقوِىٌّ عزيزٌ » . . . (سورة الحج ٢٢/ ٧٣— ٧٤).

ومع هذا تغره الحياة الدنيوية ، والتكشفات الظاهرية ، لبعض المواد الأرضية ، .. ويطغيه التقلبُ فى البلاد ، والتحكم فى العباد ، فيشتط به العناد ، وينحرف عن سبل الرشاد ، ويعمى عن عاقبة الطغيان والفساد ، وما فعل الله بقارون وهامان وعاد وما حاق بفرعون ذى الأوتاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد :

« ما يجادِلُ فى آياتِ الله إلا الذّينَ كفروُا ، فلا يغرُرْكَ تقلّبُهُمْ فى البلادِ * كذَّبَتْ قبلهُم قومُ نُوحٍ والأَحزابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَهمَّتْ كلُّ أمةٍ برسُولِهم لِيأخذُوه وَجادَلوُا بالبَاطِلِ ليُدحضوا به الحَقّ ، فَأَخَذْتهمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ... ؟ ! * وكَذلِكَ حَقّتْ كلمةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذينَ كفَروُا أنهمْ أصْحابُ النَّارِ » . (سورة غافر ٤٠ الآيات ٤ — ٦) .

قف أيها الإنسان عند حدك ، وفلسف نفسك بنفسك ، واعقل عقلك بعقلك ، ووازن دائما بين « نفسك » و « كونك » و « ربك » . . .

« يَا أَيُّها الإِنسَانُ ! مَا غَرّكَ بِرَبِّكَ الكَريم * الَّذِى خَلَقَكَ فَسوَّاك ، فَعَدَلكَ * فى أىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ ركَّبَكَ * كَلاَّ بَلْ تُكذّبونَ بالدِّينِ * وَإنَّ عَليْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يعلَمونَ مَا تفعلونَ *

إِنَّ الأَبْرارَ لَفِى نعيم * وإنَّ الفجَّار لفى جَحيم * يصلوْنها يومَ الدِّين * وَما هُمْ عَنها بِغائبينَ * وَما أدْرَاكَ ما يوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ ماأدْرَاكَ مايوم الدِّينِ * يَوْم لا تَملِكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً ، والأَمرُ يَوْمئذٍ لله » .

(سورة الإنفطار ٨٢ الآيات من ٦ إلى ١٩ وكلها نزلت فى مكة) .

قال صاحبى : هذا « دين » والدنيا تتطور ، فأين العقل الذى يكثّر الأموال ، ويعز الرجال ، ويعلى المراتب ، ويحقق الآمال ؟ ! ...

فنظرت إلى صاحبى مَلِياً ، وطوَّفتُ ببصرى حوله . . . ثم قلت له : أو عُدتَ إلى العقل ؟

فثار صاحبى وقال فى فتون : أوَ مجنونٌ أنا ؟ أم كان بى جنون ؟ !

قلت لصاحبى : معاذ الحق أن أحكم على مفكّر بالجنون ، لأن أمر التفكير والعلم واليقين بيد خالقه ومانحه : الذى يقول للشيء كن فيكون ؛ ولكنه يا صاحبى قد يكون : « الغرور » أو « الفتون » ...

ثم ربتُّ على كتف صاحبى وأنا جالس ، وقلت له : اجلس ، فقد يكون أحدنا المغرور أو المفتون . . . فجلسَ ، وضحكتُ .

فقال : أتضحك علىّ ، وقد جلستُ ؟ .

قلت : بل أضحكُ منك ، وعلىَّ : أما أنت فقد انفعلت ، وأما أنا فقد تذكرت .

قال : وأى شيء تذكرتَ يا ترى ؟ ! .

قلت : تذكرت قصة رجلين ضرب الله بهما مثلا فى سورة « الكهف » .

قال : وماذا يُضحِك فى قصة من القرآن ، وقد مضى عليها أربعة عشر قرناً من الزمان ؟ .

قلت : ألم نتفق يا صاحبي من قبل على أن آيات القرآن دائما متجددة ، بل إنها قائدة ... فى كل زمان ومكان ، ولكل بيئة ولكل إنسان ؟ !

قال : صاحبي : نعم ، ولكنك تقول إنها قصة ! ، فقد تكون للمتعة ، أو فى زمان غير الزمان ، أو فى مكان غير المكان ..

قلت لصاحبي : نعم إنها قصة ، ولكنها من القرآن ، وكل قصة فى القرآن : تعالج مشكلة أو مشاكل إنسانية تعيش مع الإنسان ، ما دام الإنسان على الأرض ، وتلف الكرة الأرضية مع كل إنسان ، ومع كل بيئة بالطول وبالعرض ، والعبرة الفلسفية ، والحكمة الإنسانية ، والتوجيهات الإلهية ، من القصة القرآنية ، دائما ، متجددة ، بل إنها دائماً قائدة . فى كل زمان ومكان ، ولكل بيئة ولكل إنسان .

قال صاحبي : إذا كان كذلك ، فهات القصة التي تريد ، وللعقل كلمته .

قلت لصاحبي : يقول رب العزة :

« واضرِبْ لهمْ مَثلاً رَجُلينِ . جَعلْنا لأحدِهما جنَّتينِ منْ أعْنابٍ وحَففْناهُما بنخْلٍ وَجعلنا بينهُما زَرْعاً * كِلْتا الجنَّتينِ آتتْ أُكلَها ولمْ تظْلمْ منهُ شيئاً ، وفجرنا خِلالَهما نهراً * وكانَ له ثَمرٌ ؛

فقالَ لِصاحبِه وهو يحاوِرُه : أنا أكثرُ منكَ مالاً وأعزُّ نفراً * ودَخل جنَّتهُ وَهُو ظالمٌ لنفسه ، قالَ : ما أظنُّ أنْ تبيدَ هذِه أبداً * وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ، ولئِن رُدِدْتُ إلى ربى لأجدنَّ خيراً منها منقلباً *

قالَ لهُ صاحِبهُ وَهوَ يُحاوِرُهُ : أكفَرْتَ بالَّذى خلقكَ مِنْ تُراب ، ثُمَّ من نُطفَةٍ ، ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لـكنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلاَ أشرِكُ

بِرَبِّى أَحَداً * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَداً ه فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً ، فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً *

وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا ، وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَداً *

وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً *

هُنَالِكَ الوَلاَيَةُ للهِ الحَقِّ ، هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً ، وَخَيْرٌ عُقْباً *

واضْرِبْ لهم مَّثَلَ الحَيَاةِ الدُّنيا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوه الرِّيَاحُ ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ مُقْتَدِراً *

المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا ، والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عندَ رَبكَ ثَواباً ، وَخَيْرٌ أَمَلاً » . (سورة الكهف ١٨/٣٢ — ٤٦) .

وهنا سمعت صوت صاحبي وكأنه يصدر من أعماق بعيدة وهو يقول فى هدوء وتقطع : كفى .. كفى ... بالله عليك .. كفى ...

فنظرت إلى صاحبي ، وقد أمسك جنبه بيمينه وأطرق عليه برأسه ، وكأن الآيات قد امتلكت عليه كل مشاعره وحسه ، وكأنه يضمِّد بهذه الآيات جراحات نفسه ...

فأسعفته بهذه الكلمات : وهكذا ياصاحبي : يُطوِّرُ الإسلامُ الدنيا ، ويطهرها من كل زيغ ، ونفاق ، ورجس .

وهكذا ياصاحبي يطبُّ الإسلام للدنيا ، ويضمِّد الجراحات فى كل قلب ، وعقل ، وحِس . . . ويُصلح كل ما انحرف ، ويعالج كل ما تلف أوفسد . . . فى كل مجتمع ، وإنسان ، ونفس . . .

ولما استفاق صاحبي ، أخذ يتمتم بكلمات غير واضحة ولامفهومة ، ثم أصلح جلسته وقال : ولكن المعلم الأول « أرسطو » كبير فلاسفة الدنيا يقول : إن « المحرك الأول » عقل ، وعاقل ، ومعقول ... ويريد بذلك « رب العالمين » ؟

قلت لصاحبي ، وتلك أخزى مخزيات البشرية : أن تتلقى القول فى الربوبية أو عن الألوهية ، ممن لم يتصلوا بالله ، أو ممن لم يؤتوا الحكمة من الله ... وقد انتهينا من حكاية المعلم الأول والثانى .. فى آخر الفصل الثانى ...

ياصاحبي إن أصحاب العقول من هؤلاء ، وعلى رأسهم معلمهم الأول ، — كما يزعمون — إنما يقيسون بعقولهم : اللطيف العزيز الجبار ، الذى لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ... يقيسونه على ما تدرك أبصارهم ، ويقع تحت حواسهم ... فى حين أن الواحد منهم لا يستطيع أن يقيس بعقله شيئاً من أمعائه ، ولا يقع تحت حواسه شىء من أحشائه ، وهل يستطيع واحد منهم : أن يدرك عدد الدود فى بطنه ، أو عدد الذبذبات الصوتية حول أذنه ؟ ! .

قال صاحبي : أو تنكر التوصل إلى معرفة الله بالعقل ؟ .

قلت لصاحبي : بل أقرر أن التوصل إلى معرفة الله تعالى لايكون عقلياً ، إلا عن طريق الاعتراف بعجز العقل ، وقصور العقل ...

وهل عرف العقل عدد الشعرات فى رأس صاحبه ؟.

وهل عرف العقل لون هذا الشعر إلا بالمرآة ؟ وقد تكون مضللة ؟ ! .

وهل عرف اسم اللون الذى يحكم به إلاّ من غيره: وراثة ، أو تلقينا ، أو ترديداً كترديد الببغاء !؟.

وهل عرف العقل بنفسه وبلا واسطة ، سُمك شعرة واحدة فى رأس صاحبه ، أو طولها ، أو قطر فتحتها؟ أو سواد السوداء ، أو بياض البيضاء ؟ !

يا صاحبى . إن العقل لا يزال يجهل جوهره إن كان له جوهر ، ويجهل ذاته إن كانت له ذات ، ويجهل إدراكه إن كان له إدراك ، ويجهل فوق هذا وذاك : أهو المدرك أم هو الإدراك ؟ فإن وقف العقل عند حده ، واعترف بعجزه ، وتفكر صاحبه فى مخلوقات ربه ، وفى آثار رحمة ربه . . هداه الله وشرح من صدره :

« فَمن يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يَشرحْ صَدرهُ للإسلاَم ومنْ يُردْ أن يُضلَّهُ يَجعلْ صدْرهُ ضيقاً حَرجاً كأنما يصَّعدُ فِى السَّماء ، كذلِكَ يَجعلُ اللهُ الرِّجس عَلىَ الذَينَ لا يُؤْمِنونَ » . (الأنعام ٦/١٢٥) .

والتوصل إلى معرفة الله ، هو الهُدَى كل الهُدَى ، والذى يملك الخلق هو الذى يملك الهدى ، والعاجز عن أن يخلق نفسه ، أو أن يحيي نفسه ، أو أن يميت نفسه ، أو أن يملك بقاء نفسه ، أو الإبقاء على نفسه . . . كيف تطلب منه أن يهدى نفسه ؟ ! .

إن الهدى — يا صاحبى — مترتب على الخلق . « الذى خلقنى فهو يَهدين » والذى خلق الإنسان ، وخلق ما به يعقل الإنسان ، هو الذى أنزل القرآن « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ،

وقال عنه سبحانه وهو العزيز الأكرم : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » ،

ومن هنا وجب على كل مسلم : أن يكرر على الأقل فى كل يوم وليلة ، وفى صلواته المفروضة : أنه يخلص العبادة لله ، وأنه لا يستعين إلا بالله ، وأنه لا يطلب الهدى إلا من الله . . . سبع عشرة مرة ؛ على أقل تقدير : « الحمدُ لله ربِّ العالمين * الرَّحمٰن الرَّحيم * مالك يوم الدِّين * إياك نعبدُ وإياك نستعينُ * اهْدنا الصِّراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهمْ ، غير المغضوب عليهمْ ولا الضَّالين » .

قال صاحبي : آمين . . . وعلى هذا لا شأن للعقل بالمعرفة ، ولا داعى إذن للمناقشة ؟ .

قلت لصاحبي : بل له كل الشأن ، فعليه مدار التكليف ، ومناط المعرفة ، ولكن فى مجاله ، وعلى قدر حاله ، ميز الله به الإنسان ؛ ليكون خليفة له فى الأرض ، ومنحه سبحانه القدرة على أن يكون سيداً لكل ما فى الأرض ، وما على الأرض ، وما حول الأرض .. وليتدبر بنور القلب آيات الله القرآنية ، وليسيطر على ما يستطيع من آيات الله الكونية ، ليكون الإنسان عبداً لله ، وسيداً على أرض الله ، وأخاً لجميع الناس عباد الله ... فتلتقى فيه هذه الأبعاد ، وتنبعث منه هاتيك الآماد ، ولا يكون سيداً إلا بالعلم والعمل والمعرفة والفلسفة ، ولكن فى إطارين محكمين من الأخوة الصادقة ، والعبودية الخالصة . . ولا تكون سيادته إلا بمقدار عبوديته وأخوته ، كما لا تتحقق عبادته إلا بأُخوته وسيادته .

تدبر معى — يا صاحبي — قول الحكيم الخبير سبحانه ، من سورة البقرة الآيات ١٦٣ — ١٦٥ ، ١٧٠ — ١٧٢ .

« وإلٰهكُمْ ، إلهٌ وَاحدٌ لا إله إلاَّ هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحيمُ * إنَّ فى خلقِ السَّمٰواتِ والأرْضِ ، واختلاَفِ اللَّيلِ والنَّهارِ ، والفلكِ التِي تجْرِى

فِي البَحْرِ بِمَا يَنفعُ النَّاسَ ، وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن مَّاءٍ فأحيابِهِ الأرضَ بعدَ موتِهَا، وَبثَّ فيهامنْ كلِّ دابَّةٍ ، وتصريفِ الرياحِ ، والسَّحَابِ المسخَّرِ بينَ السَّماءِ والأرْضِ ، لَآياتٍ لقومٍ يعقِلونَ *

وَمنَ النَّاسِ من يَتَّخِذُ منْ دونِ اللهِ أنداداً يُحِبُّونَهُم كحبِّ اللهِ والذينَ آمنوا أشدُّ حبًّا للهِ ، ولوْ يرَى الَّذينَ ظَلَمُوا إذْ يَروْنَ العذابَ أنَّ القوَّةَ للهِ جميعاً ، وَأنَّ اللهَ شَديدُ العذَابِ * ...

وإذَا قيلَ لهمُ اتَّبِعوا مَا أنزَلَ اللهُ ، قَالوا : بلْ نَتَّبعُ ما ألفَينا عليهِ آباءَنا ، أوَ لوْ كانَ آباؤُهمْ لَا يعقِلونَ شيئاً ، ولاَ يهتَدونَ ؟ !* ومثَلُ الذينَ كفَروا كمثلِ الذِّي ينعِقُ بمالا يَسمعُ إلاَّ دعاءً ونداءً : صم ، بكْمٌ ، عُمْيٌ ، فهُمْ لا يعقِلونَ * يَا أيها الذينَ آمنُوا كلوا مِنْ طيبَاتِ ما رَزقْناكُمْ واشكُروا اللهِ إن كُنتمْ إيَّاه تعبدونَ » .

قال صاحبي : الآن قد اطمأن عقلي ، ما دام « العقل » قد ورد كثيراً في القرآن هكذا !

قلت لصاحبي : بل قل اطمأن « قلبي » : طمأن الله قلبَكَ ، وشرح صدرك ، لأن الاطمئنان ليس من طلبات العقل ، ولا من مدركات العلم ، فالعلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ، والعقل لا يحكم إلا بالصواب ...

وعلى كل حال : اطمئن ياصاحبي ، فقد دارت مادة « عقل » — فعلاً ماضياً ومضارعاً فقط — في القرآن الكريم ٤٩ مرة ، ولم ترد هذه المادة « ع . ق . ل » « عقل » في القرآن كله على معنى آخر ، فلم ترد اسماً ، ولا مصدراً ولا مشتقاً ، بل لم ترد فعل أمر ، ولا أفعل تفضيل ، ولا صفة مشبهة ... وإنما

ذكرت فى القرآن الكريم : موزعة على خمسة أفعال ، تفصيلها كما يلى .

عدد

١ عَقلوه : فى قوله تعالى : « أفتطمعونَ أن يؤمنوا لكمُ وقدْ كانَ فريقٌ منهمْ يسمعُون كلام الله ، ثمّ يُحرفونهُ مِن بَعدِ مَا عَقَلوهُ وَهم يعلمونَ » ؟. (البقرة ٢ / ٧٥).

٢٤ تعقلون : ومنه : « وَهوَ الذِى يُحيِي ويميتُ ، وَلهُ اختلافُ الليلِ والنهارِ ، أفلا تعقلونَ » ؟! . (المؤمنون ٢٣ / ٨٠) .

١ نعقِل : « وقالوا لوْ كُنَّا نَسمعُ أوْ نعقِلُ مَا كُنا فى أصحابِ السَّعير » . (الملك ٦٧ / ١٠) .

١ يعقلها : « وَتلكَ الأمثالُ نضربها للنَّاس ، وما يعقِلُها إلاَّ العالمُون » (العنكبوت ٢٩ / ٤٣).

٢٢ يعقلون : ومنه : « اعلمُوا أنَّ اللهَ يحيِي الأرْضَ بعْد موْتها قدْ بيَّنَّا لكم الآيات لعلكمْ تعْقِلونَ » . (الحديد ٥٧ / ١٧) .

٤٩

قال صاحبى : وأين « العقل » إذن ؟

قلت لصاحبى : إن « العقل » بهذا اللفظ لم يذكر فى القرآن ، بل لم يذكر « العقل » فى القرآن أيضاً بالمعنى الذى يزعمه كثير من الناس ، وهو أنه « جوهر » أو « ذات » أو « كائن » ، وإنما ذكر فى القرآن على أنه عمل لشىء آخر : كالمشى : عملٌ للرجل ، والبطش : عملٌ لليد ، والسمع : عمل للأذن ، والبصر : عمل للعين .

قال صاحبى : نعم نعم : و « العقل » عملٌ للمخ ، الذى فى مقدمة الرأس وبمقدار كثافة المادة السنجابية وعمقها فى تلافيف المخ يكون العقل .

قلت لصاحبي : أما من الناحية الطبية ، فالطب الحديث نزل بمركز التعقل — على ما وصل إليه الطب المعاصر — إلى أسفل المخ ؛ بعد كثير من التجارب والعمليات ... بل لقد اتجه الطب المعاصر جداً — وفى هذه الأيام بالذات — إلى إجراء عملية فى « مُخِّ المجنون » بِنزع جزئه، ليعود إلى عقله ، لا بأن يضيفوا إلى المخ قطعة أخرى ، ولا بأن يزيدوا المادة السنجابية فيه .. بل بأن يزيلوا قطعة من المخ ؛ فيعود إلى المجنون عقله .. ثم قارنوا بين مخ الإنسان وكثير من الحيوان ، فرجحت كفة الحيوان مُخًّا . . .

نعم وجد الأطباء بالتشريح أن الأعصاب المتصلة بالحواس تتلاقى فى الرأس . ولا يزالون مختلفين . . . ولكنهم سيقولون ، وسيقولون .

ولكنى أودُّ أن أهمس — على مسمع منك ياصاحبى — فى أذن الأطباء ، بما أدعو إليه جميع العلماء أو جميع الفلاسفة : « من أن الحكم بالنفى ، قد يكون مستحيلا فى لغة العلم والفلسفة » ؛ أعنى أن العلم من حقه أن يثبت شيئاً وصل إليه وليس من حقه أبدا أن ينفى شيئاً لم يصل إليه ، إلا إذا أحاط ، واستقرأ استقراء كليا كاملا تاما ، واطلع على كل الأسرار ... والعلم لا يطيق هذا ولا الفلسفة ولا التعقل ، إلا فى الماديات المحدودة ؛ إن كانت خالية من الأسرار ، وهى لا تخلو ... وإن استطاع العلم إلى ذلك سبيلا ... وهو لا يستطيع ...

فعلى العالم والفيلسوف أن يقول : هذا ما وصلت إليه الآن ، ولم أصل إلى غير هذا ... فلعل الغد يكشف عن الكثير جداً من هذا الغير ، على يد العالم نفسه أو على يد الغير ...

وفى كل لحظة ، يطرق الجديدُ بابَ العلم ألف مرة ومرة ، ويصرخ الإنتاج ، فى جميع الأبراج ، وفى كل المعامل والمصانع والحقول ، وفى مختلف

الفنون والمعارف والعلوم . . أيها العلماء . . أيها المفكرون . . تسمّعوا للطرق الجديد، وتلقفوا منه ما يفيد، وواصلوا الإنتاج والعمل ، لتسعد بكم الإنسانية ويتحقق على يديكم الأمل . . . فجميع العناصر والظواهر بين أيديكم ، وتحت أعينكم ، وقد خلق الله جميع ما فى الأرض لكم . . .

قال صاحبي : ولكن : ماذا وراء همسك هذا للعلماء وللفلاسفة وللأطباء !

قلت لصاحبي : إن الأطباء اليوم يقولون عن « القلب » إنه عضلة مادية تجمع الدم وتفرقه فى الجسم ، وقد شرحوا ، وحللوا ، وعالجوا . . فلم يجدوا إلى الآن فى القلب غير هذا ، ولم يصلوا إلى الآن بالنسبة للقلب إلى غير ذاك وهذا جميل ، وكان على العلم والعلماء ، أو على الطب والأطباء ، أن يقفوا به عند هذا الحد ، ويقولوا : نترك ما بعد هذا للغد ، ولكن : أن يدّعوا نفى الإدراك ، أو التعقل ، أو التدبر عن القلب . . . أو نفى أى شىء آخر غير هذا وذاك عن القلب ، بدليل عدم علمهم ، أوعدم وصولهم ، أوعدم وجودهم .. فهذا ما لا يرضى عنه العلم ، ولا ترضى عنه أبسط البديهيات . . ، لأن الجهل بالوجود ، ليس دليلا على عدم الوجود ... واكتشاف عمل ما للقلب ، لا ينفى وجود عمل آخر لنفس القلب ....

وإثبات العلم لشىء ما ، لا ينفى غيره فى قليل أو فى كثير ، خصوصا أن العلم لا يعرف القول الأخير ...

ولعل إنسانا لو تدبر قوله سبحانه فى قرآنه :

« أَفلاَ يَتدَبَّرُونَ القُرآنَ ، أَمْ عَلى قلوبٍ أقفَالُهَا » لعلم يقينا أن القلب هو الذى يتدبر أو يدبر ، ولعل من عمل العقل أن يبرّر أو يخطط أو ينفذ . . .

وقد جاء لفظ « القلب » مفرداً ، ومثنَّى ، ومجموعاً ، ومضافاً للمذكر ، وللمؤنث .... فى القرآن الكريم ١٣٢ مرة ، كما جاء الفؤاد كذلك ١٦ مرة .

وقد صرح القرآن بأن « القلب » هو الأداة أو المحل لكثير جداً من الصفات أو الأعمال التى تزيد على الخمسين ؛ منها : الفقه ، والتعقل ، والعلم والخشوع ، والهدى ، والاطمئنان ، والغلظة ، والقسوة ، والغل ، والزيغ والريب ، والإصغاء ، والتعمد ، والكسب ، والتقلب ، والحمية ، والحسرة والتزيين ، والتطهير ، .. وكثير جداً من مثل هذه المعانى .. وما يقابلها .

ويكفى أن أشير هنا ياصاحبى إلى بعض الآيات ، أما التفصيل ففى « المشارق » ،و «المفاتح» ،وباقى « التأليفات» .

جاء فى سورة الشعراء ٢٦ / ١٩٢ — ١٩٥ عن القرآن :

« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسانٍ عَرَبِىٍّ مُبِين » .

وفى سورة الأحزاب ٣٣/٥ :

« ... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ...» .

وفى سورة التغابن ٦٤ / ١١ :

« ... وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » .

وفى سورة الأعراف ٧/١٧٩ :

« وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ

لاَ يَفقهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسمعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالأَنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغافِلُونَ» .

وفى سورة البقرة ٢ — ٢٢٥ :

« لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ ، وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ، واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» .

وفى سورة الأنعام ٦ — ٤٦ :

« قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ ؟ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ، ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ » .

وفى سورة النحل ١٦ — ٧٨ :

« وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلمُونَ شَيْئًا ، وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

وفى سورة الحديد ٥٧ — ١٦ :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وما نَزَلَ مِنَ الحَقِّ . . .» .

وفى سورة النور ٢٤ — ٣٧ :

« . . . يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ وَالأَبْصَارُ » .

وفى سورة ق ٥٠ — ٣٧ :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمعَ وهُوَ شَهِيدٌ » .

قال صاحبى: والآن قد اطمأنَّ قلبى . . . ودوَّى همسُك فيه ، وستسمع الدنيا جميعًا همسَك ، لأنه من صوت الحق . . . ولكن كيف تَرُدُّ على من يقولون : إن لفظ القلب فى القرآن كثيرًا ما يراد به العقل ؟

قلت لصاحبى : القرآن « كتاب أحكمت آياته ثم فُصِّلت من لدُنْ حكيم خبير » ، فلا يصح لمخلوق أن يقول : يريد ، أو المراد ، أو يراد منه ، أو يقصد أو القصد . . أو يقصد به . . . لأنه من أخزى معايب المخلوق أن يقتحم على مراد خالقه ،أو أن يصل إلى مقصوده من غير طريقه المستقيم ؛ بالرجوع إلى الآيات المحكمات الأم .

يا صاحبى : إذا قال القرآن ، فقد قال . . . أما أنت فاسمع قول الحق سبحانه وتعالى :

« . . . وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . . . » . (من سورة الكهف ١٨/٢٨ — ٢٩) .

وصدق الله :

« . . . أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ الْعَالَمِينَ » .

(العنكبوت ٢٩/١٠) .

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

سورة آل عمران ٣/٢٩) .

واسمع قوله سبحانه فى سورة الحج / ٢٢ — ٤٦ :

«أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ، فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ؟ أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» .

وقوله سبحانه فى آخر سورة الروم ٣٠ / ٥٨ — ٦٠ :

«وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ * كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * فَاصْبِرْ : إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ * .

قال صاحبى : أشهد أن هذا حق من عند الله ، وسأعلنها عنك صريحة قوية : « إن الإنسان لا يُسيِّرهُ عقله ، وإنما يُسَيِّره قلبه » .

قلت لصاحبى : نعم .

ولهذا فإنه يجب على القادة : أن يمسكوا بأزمّة القلوب ، واتجاهاتها .

وعلى المصلحين : أن يصلحوا من الناس قلوبهم ، وانحرافاتها .

وعلى المعالجين : أن يبدءوا بعلاج القلوب من أمراضها ، والطب لها ..

وهل يستطيع العقل أن يسير بعض الأجهزة الداخلية من جسم صاحبه ؟ كالجهاز الهضمى ، والجهاز البولى ، والجهاز العرقى ، والجهاز الحرارى ، والجهاز الدموى ...؟؟ فضلا عن الأجهزة غير المنظورة وغير المادية ؟! ...

فلئن كان عاجزا عن أن يُسيِّر بعضاً من بعض أجهزة الإنسان — وهو عاجز لا محالة — فهو العاجز العجز كله عن أن يسيِّر كل الإنسان ، أو أن يسير الإنسان كلَّـه .

ولكن لا تنس أن العقل ، وهو المأمور من القلب ، قد يكون هو الآمر للحواس ، والمتلقى عن الحواس ، وهو المنظم لبعض الأعمال من الحواس والمنسق بين مدركات الحواس .. ومنها يستنبط ويحلل ويركب بالاستدلال وبالقياس .. . هذا هو إنتاج العقل بالنسبة للناس ما دام صحيحا وغير مفتون ، ومادام سليما وغير مجنون ، ومادام واضحا وليس بغائم ، ومادام مستيقظا وليس بنائم ...

فإن فجر العقل وتحكم فى الإنسان ، فبعقل من يا ترى يحكم ؟ وبأى ضمان ؟

.. ثم : كيف يرضى الإنسان أن يكون عبداً لعقله ؟ وهو جزء فيه ؟ ! ولِمَ لا يكون عبداً لشهواته ؛ وهى متغلغلة فى كل مناحيه ؟ .

ولم لا يكون حينئذ عبداً لأى شىء فى جسمه غير عقله ؟! ولو لجاريه ؟..

يا صاحبى : إن السيادة على الإنسان كله ، لا تكون إلا من خالق الكون كله ، وأنوار الرحمن إنما تشرق على الإنسان فى قلبه ، إن أسلم الإنسان ، واتبع الرسول الخاتم ؛ فهو على نور من ربه .

أما العقل فمجال سيادته على الأرض ، وأما إنتاجه الحقيقى ففى الأرض ، لأن الله سبحانه الذى خلق الأرض جميعا ، قال : « هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً » .. وقال عن الإنسان للملائكة : « إنى جَاعِلٌ فى الأرض خَليفَةً » .

فكل ما فى الأرض من العناصر والكائنات والمواد ، خلقها الله ملكا للانسان كله ؛ فلابد من التشارك والتعاون والاتحاد ، ولابد من معالجة الاغتصاب والطغيان والإفساد ، ولابد من محاربة الاستعمار والعدوان والاستبداد ..

ولقد منح سبحانه الخليفة علما يصلح به للخلافة ، حتى عن الملائكة ، فقال

سبحانه : « وَعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّهَا » ؛ ليكون الإنسان بهذا العلم المتواصل وما يلاحقه من عمل متكامل : خليفة عن الله فى الأرض ينظمها وينَسقها ، ويدير ما يستطيع من شئونها : ويكتشف كل ما يستطيع من موادّها ، ومن المواد يكتشف كل ما يطيق من عناصرها ، ومن العناصر يكتشف كل ما يتفهم من خصائصها ،ومن الخصائص يكتشف ظاهراتها وإنتاجاتها . . . وعلى ضوء هذه التكشفات جميعاً والإنتاج . . يتمكن من السيادة على الأرض . .

وهذا عمل جدّ خطير ، يجب أن يتوجه إليه التفكير كل التفكير ، كل فى تخصصه ، وبما يستطيع ، ثم يتعاون الجميع فى أخوة صادقة ومخلصة ...

على تجدد الابتكارات المتوالية ، والاختراعات النافعة والمثمرة ،

وعلى توالى التكشفات النيرة ، وعلى تنسيق الاستثمارات الخيرة . .

ليهنأ الفرد ويسعد ، ويستقر المجتمع ويتحد ، فتعيش الأمة فى أمن وسلام ، وتتقدم بجهود أبنائها دائما إلى الأمام . . .

وفوق هذا كله : فعلى العقل أيضاً أن يخطط وينفذ ويبرّر ، وأن يشرّع ويقنن ويستثمر من الأرض ، وفى الأرض ، وعلى الأرض ، وحول الأرض . . من المواد والجمادات ، والزروع والأشجار والنباتات ، والطيور والأسماك والحيوانات . . ثم فى طبقات الجو وما يستطيع من اكتشافات : براً ، وبحراً ، وجواً . . .

مع الإعداد المستمر ، والاستعداد المتواصل المستقر ، بكل القوى العلمية ، والعملية ، والعسكرية ، على أساسٍ قوى مستقر من الخلق والإيمان ، واتصال دائم برب الكون والإنسان ، وامتثالٍ لقوله سبحانه للمؤمنين عن المخادعين المفسدين الظالمين المعتدين ، وعن من يقفون وراءهم من البغاة الفاسقين ، ومن يسيرون فى ركابهم — ولا نعلمهم — من المنافقين ، والمفرقين ، والمخدوعين ... !

«وأعِدُّوا لَهمْ ما استَطعتُمْ منْ قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخيْل: تُرهِبُونَ بِه:

عدوَّ الله،

وعَدوكُمْ

وآخرينَ منْ دونِهمْ لا تعلمُونَهُمُ، اللهُ يَعلمُهم...»؟.

(سورة الأنفال ٨ / ٦٠).

وبهذا يكون الإنسان: سيداً لكل مافى الأرض، وكل ما على الأرض غير الإنسان.

وبهذا أيضا يكون الإنسان، كل الإنسان خليفة فى الأرض عن الرحمٰن

وبهذين وبالتعاون والأخوة يَسعد ويُسعد جميع بنى الإنسان.

قال صاحبى: وبهذا وحده يتحقق «الأمن» و«الأمان».

قلت لصاحبى: نعم، ولا يمكن أن يكون هذا إلا «بالإسلام» و«بالإيمان»، و«بالقرآن».

وصدق رب العالمين؛ فقد قال سبحانه للمؤمنين؛ فى سورة الأنعام ٦/٨٢:

«الذين آمنوا ولمْ يَلبِسُوا إيمانهمْ بِظُلْمٍ أولئك لهم الأمن وهم مهتَدون».

الفصل الرابع

الخلق والتفكير

بين الخَلْق والخُلُق . حاجة الإنسانية إلى الدليل الخلقى .

الخالق وحده هو مصدره الحقيقى . المدربون عليه هم رسل الخالق .

تمام التدريب والمدربين برحمة العالمين . تمام الدليل الخلقى بالقرآن .

علاقة الخلق بالسلوك والتفكير . الأساس الخلقى لكل علم وفن ومعرفة .

تجدد المصلحين . علاج الشائعات . توزيع التخصصات . تطبيق عمرىٌّ .

وضع الفلاسفة للقانون الأخلاقى وفساده . أزمة التفكير الحديث .

المذاهب الأخلاقية عند الفلاسفة . الأخلاق أولاً .

المقاييس الخلقية وتطبيقها . مذهب « كانت » الأخلاقى ومناقشته .

موقف رجل الإسلام ، والداعية إلى القرآن .

صرخة أمريكية للبحث عن الأخلاقية والسلوك البشرى .

ليس إلا القرآن والإسلام .

حق الشهادة والتفكير ، الشهادة والتفكير والأخلاق .

أولوا الألباب هم أصحاب الأخلاق الفاضلة .

الأوصاف الخلقية لعباد الله . عباد الرحمن .

جوامع الخلق الحميد من القرآن المجيد . الركائز الخلقية . أمهات الفضائل .

موقف إبراهيم الخليل عليه السلام من التعليم والتزكية .

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالأمة المسلمة ، وللأمة المسلمة .

ترتيب المهام الأساسية للدعوة المحمدية .

الأخلاق وعمل الخير : أقوى أسلحة الفلاح والنصر .

الخلق والتفكير

بين الخَلْق ، والخُلُق :

اعلم وفقنى الله وإياك ، أن قواعد الخُلُق ، هى الأساس لكل منطلق ومن العجب أن مادة خلق : الخاء واللام والقاف ؛ بكل مشتقاتها واشتقاقها: تدور على التقدير والملاسة ؛ كما يقول ابن فارس سنة ٣٩٥ هـ « فى معجم مقاييس اللغة » : « ومن ذلك الخُلُق وهى السجيَّة ، لأن صاحبه قد قُدِّر عليه ، وفلان خليق بكذا ، وأخلِق به أى ما أخلقه ، أى هو ممن يقدَّر فيه ذلك والخَلاق : النصيب ؛ لأنه قد قُدِّر لكل أحد نصيبه » .

ويقول صاحب القاموس المحيط « الفيروز أبادى » فى كتابه « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » فى الجزء الثانى من صفحة ٥٦٦ إلى صفحة ٥٧٠ تحت عنوان (٢٤ — بصيرة فى الخلق) ما نقتطف لك بعضه :

« الخلق هو التقدير وقيل التقدير المستقيم ، ويستعمل فى إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ... ويستعمل فى إيجاد الشيء من الشيء . . وليس الخلق بمعنى الإبداع إلا لله تعالى . . . وأما الذى يكون بالاستحالة فقد جعله الله لغيره فى بعض الأحوال كعيسى عليه السلام حيث قال : « وإذْ تخلق من الطين كهيأة الطير بإذنى . . .»

والخلق لا يستعمل فى جميع الناس إلا على وجهين : أحدهما فى معنى التقدير ... والثانى فى الكذب نحو قوله تعالى : « وتخلقون إفكا » . . . وكل موضع استعمل فيه الخَلق فى وصف الكلام فالمراد به الكذب ...

والخَلْق فى معنى المخلوق : والخَلق والخُلق فى الأصل واحد . . . ولكن:

خص الخَلْق ، بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر .

وخُص الخُلُق ، بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة .

قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وإنك لعلى خلق عظيم .) قال ابن عباس : لعلى دين عظيم لا دين أحب إلىّ ولا أرضى عندى منه وهو دين الإسلام ، وقال الحسن : هو أدب القرآن . . .

واعلم أن الدين كله «خُلُق» فمن زاد عليك فى الخُلُق زاد عليك فى الدين. وكذا التصوف قال الكتّانى هو خُلُق ، فمن زا عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف وقيل حسن الخلق : بذل الندى ، وكف الأذى . وقيل : فَكّ الكفّ ، وكفُّ الفك ، وقيل بذل الجميل ، وكف القبيح ، وقيل التخلى من الرذائل ، والتحلى بالفضائل ، وهو يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصبر ، والعفة ، والشجاعة . والعدل . . .

والخَلْق ورد فى القرآن على ثمانية أوجه :

الأول بمعنى دين الحق : « لا تبديل لخلق الله » . أى لدين الله . . .

الثانى بمعنى الكذب : « وتخلقون إفكا » . . .

الثالث بمعنى التصوير : « وإذ تخلق من الطين كهيأة الطير » . .

الرابع بمعنى التقدير : « لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون » . .

الخامس بمعنى الانطاق : «انطقنا الله...وهو خلقكم أول مرة» أى أنطقكم .

السادس بمعنى الجعل : « خلق لكم من أنفسكم أزواجاً » .

السابع بمعنى الإحياء فى القيامة : «بقادر على أن يخلق مثلهم» . أى يبعث.

الثامن بمعنى حقيقة الخلقة : «ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» . .

وهذا الذى ذهب إليه صاحب البصائر ، هو الموافق لماذهب إليه « الراغب » فى مفردات غريب القرآن .

ويقول السيوطى ،وابن الأثير : الخالق هو الذى أوجد الأشياء جميعها بعد أن لم تكن موجودة ... والخلق بضم اللام وسكونها [مع ضم الخاء] : الدين ، والطبع ، والسجية ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهى نفسه وأوصافها ومعانيها ، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة » ...

* * *

وهكذا نرى الحروف واحدة ، والمادة تكاد تكون واحدة :

خَلق ، وخُلْق ، وخُلُق.. ومنها :خالق ، ومخلوق ومُخلَّق ، ومُتَخلِّق...

وكأن الخلق هو الرباط المحكم بين الخالق والمخلوق ،

هذا الرباط : فطرى ، ضرورى . . فى جميع الكائنات . . .

ولكنه فطرى اكتسابى...فى بنى آدم..قدينحرفون عنه باختيارهم أوبوسوسة الشيطان لهم وإغوائهم ، إرضاءلشهواتهم ، وإغضاء عن آخرتهم .

وقد دارت مادة « خلق » ومشتقاتها واشتقاقاتها فى القرآن الكريم ٢٨١ مرة منها ٢٣٢ فيما نزل من القرآن بمكة ، و ٤٩ فيما نزل من القرآن الكريم فى المدينة .

وجاءت فى القرآن : فعلا ماضياً ، ومضارعاً فقط ، وليس فيه فعل أمر. كما جاءت فيه كذلك : مصدراً ، واسم فاعل : « خالق » وكلها لله وحده .

وأما الخالقون ،فتبكيت للناس فى ادعاءاتهم أربع مرات . .

وأما خَلاَّق ، فلم تطلق على غير الله سبحانه .

ثم ورد فى القرآن الكريم أيضاً من هذه المادة : اختلاق — بما يفيد الكذب — مرة واحدة، وخَلاَق ٦ مرات ؛ بما تدور على النصيب الكبير

فى الدنيا وعدم النصيب فى الآخرة .

وأما خُلُق بضمتين فوردت فى القرآن الكريم مرتين: مرة من حول قوم عاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وظنوا أنهم خالدون وأنهم أشد قوة .. لما قالوا لرسولهم هود عليه السلام فى سورة الشعراء ٢٦/ ١٣٦ :

« قالوا سواءٌ علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إنْ هذا إلاَّ خُلُقُ الأولين * وما نحن بمعذَّبين * فكذَّبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

والمرة الثانية التى ورد فيها لفظ خُلُق فى القرآن الكريم ؛ هى التى تفرد بها رحمة العالمين ، وخاتم النبيين: محمد صلى الله عليه وسلم، وكانت فى ثانى مرة نزل فيها الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى صورة القلم [ن] ٦٨ حيث قال له رب العزة سبحانه :

« نٓ والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم » .

أقسم الله سبحانه وتعالى له فيها بأقسام ثلاثة متوالية :

ن . القلم . ما يسطرون .

حروف اللغة ، وأداة الكتابة ، والنتيجة الكاملة . .

وكان الذى أقسم عليه رب العزة لحبيبه رحمة العالمين صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيضا: ما أنت بنعمة ربك بمجنون . إن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم .

وكان الكمال الأكمل : بسَلْبِ كل ذم ، وتأكيد كل مدح : هو الخلق . . . حيث أكده الله سبحانه لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بتأكيدات ثلاثة أيضا : إنَّ ، واللام ، وعلى . للتمكن والتوثق والتكريم حيث قال له سبحانه : « وإنك لعلى خُلُق عظيم » .

حاجة الإنسانية إلى الدليل الخلقى :

إن الذى يملك وحده : تكوين أى شىء وخَلقَه . . .

هو وحده الذى يملك : توجيه هذا الشىء وخُلُقَه .

وإن الذى يتفرد وحده : بإنشاء الأجهزة لأى شىء ، وتقويمها . . .

هو وحده الذى يتفرد : بتحديد السلوك لهذه الأجهزة وتعليمها .

وإن الذى يتفرد وحده : بالإبداع ، وبالتنظيم ، وبالتصوير . . .

هو وحده الذى يتفرد : بالإمداد ، وبالتدبير ، وبالتفكير .

وإن الذى يتفرد وحده : بالإحياء ، وبالإمساك على الحياة ، وبالإفناء . . .

هو وحده الذى يتفرد : بزمام الأحياء ، وسلوكهم فى الحياة ، وما ينفع للبقاء .

ثم . . . يشترى الإنسان « جهازاً » من صنع أخيه الإنسان ، ولكل منهما : اليد ، والعين ، والعقل ، واللسان . . . ومع هذا يُلحّ المشترى على البائع أن يعلمه كيفية الاستعمال ، أو أن يرسل إليه رسولاً ليرشده إلى طريقة التشغيل والاستغلال ، إذا لم يكن قد استعمل هذا الجهاز من قبل ، أو درس عليه طرائق الاستعمال . . .

وفوق هذا يلح المشترى فى طلب « الدليل » أو « الكتالوج » لما يشترى ؛ ليعرف منه الأوصاف والمواصفات وكيفية التصرف فى المفاتيح والفتحات ؛ وليرجع إليه دائماً عند تشغيل الجهاز أو الآلات ، أو عند وقف الجهاز كله أو بعض الصمامات . . .

وليسترشد به عند التعطيلات أو الإتلافات أو التوقفات . . .

وما على المدير أو المستغل ؛ إن استعمل هذا الجهاز متى شاء ، إلا الإذعان والتسليم ؛ بلا معارضة ، وبلا مراء . . . لصانع هذا الجهاز ، أو المدرب عليه.

ثم ... يصف الطبيب المريض الدواء ، ومع هذا لا بد من أن يحدد له : المقدار ، والوقت ، والغذاء ... وفوق هذا ؛ تضع كل شركة من شركات الأدوية « الدليل » مع كل دواء ، لكل من المريض والطبيب على السواء .. وإن اختصت بالنشرات التفصيلية حضرات الأطباء ...

ولكن من الذى يبدع « الدليل » ويصنع « النشرة » ؟ !

ليس إلا مبدع الدواء وصانع الدواء ...

وما على المريض إن استعمل الدواء ، وما على الطبيب إن وصف هـذا الدواء: إلا الإذعان والتسليم بلا معارضة ولا مراء .. لصانع هذا الدواء ، أو المتمرّن عليه ..

هذا فى الأدوية : للتطبيب ، والوقاية ؛ من أجل العلاج ، والإبراء ، وذاك فى الأجهزة : للتشغيل ، والصيانة ؛ من أجل الإنتاج ، والإبقاء .

ولابدّ فى هذا وذاك من الإذعان والتسليم ؛ بلا معارضة ، وبلا مراء ... للصانع وحده ، أو المرشد إليه ...

وهل الأخلاق إلاّ نتاجٌ من تشغيل أجهزة الإنسان ، وما تشتمل عليه ؟
وهل الأخلاق إلاّ ترجمات عمليـة لسلوك الإنسان ، وما يتصل به ؟
وهل الأخلاق إلاّ صِلاتٌ بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وما يحيط به ؟
وهل الأخلاق إلاّ أربطة إنسانية تربط الإنسان ، بمجتمعه وبيئته ؟
وهل الأخلاق إلاّ إشعاعاتٌ داخلية تصل الإنسان ، بكونه وربّه ؟

فلا بدّ إذن لهذا كله من «الدليل» .. « الدليل الأخلاقى » للإنسان كله لتشغيل هذه الأجهزة وتنظيمها ، وتوجيه هذه العمليات السلوكية ، وتهذيبها وتوضيح تلك الصلات الإنسانية وتوكيدها ، وتقوية هذه الأربطة ، وتقويمها وتنمية هاتيك الإشعاعات ؛ وتصفيتها ...

ولا بد فى هذا كله من الإذعان ، والتسليم ، بلا معارضة ، وبلا مراء . . . لصانع هذه الأجهزة عن طريق المدربين المرسلين من قبل الصانع الحكيم ..

الخالق وحده هو مصدره الحقيقى :

ولكن يجب قبل هذا كله ، أن نطمئن الاطمئنان كله ، إلى « المصدر » الذى يستطيع أن يمدنا بهذا « الدليل الأخلاقى » ، ثم نتصل بهذا « المصدر » ليعلمنا ، أو نطلب إليه أن يرسل إلينا من يعلمنا . . . فإن توصلنا إلى هذا ووصلنا : صلحت حالنا ، واستقامت أخلاقنا ، وفنيت شرورنا ، وفاضت خيراتنا وسعدت أيامنا ، وأمنت مجتمعاتنا ، واتجه إلى السلام العالمى عالمنا . . .

ولعل من أبسط البديهيات أن نتلقى هذا « الدليل الأخلاقى » من مصدره الحقيقى ، حتى لا نضلّ ، ولا نشقى . . . وليس هناك من صانع لهذا « الدليل » إلا صانع الإنسان نفسه ، المتفرد سبحانه بالإنشاء ، وبالإبداع ، وبالإحياء وبالإبقاء ، وبالإفناء ، ثم بالبعث ، وبالجزاء .

فلا بد إذن : من الإذعان ، والتسليم ، بلا معارضة ، وبلا مراء . . . للخالق، الصانع ، الواحد ، الخبير ، الحكيم ، رب العالمين . . .

المدربون على الدليل الخلقى هم رسل الخالق سبحانه :

ولقد أرسل لنا سبحانه المعلمين ، وهم رسل الله الأكرمون ، ليدرّبوا الإنسانية على استعمال هذا « الدليل » ، وأخذت الإنسانية ، تتدرج فى مراحلها الأخلاقية التعليمية ، على يد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد أمر رب العزة كل رسول أن يقرأ من هذا « الدليل » ما تطيق المرحلة الإنسانية التى أرسل إليها ، ويأخذ بأيدى الناس إلى التطبيقات العملية التى يستطيعونها . . .

تمام التدريب والمدربين :

وهكذا أرسل الله هؤلاء المرسلين ، معلمين متكاملين ..حتى كملت المراحل الأخلاقية فى الإنسانية ، وكان لا بد من الإتمام والإكمال ، فكان « محمد » صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، هو تمام المدربين على « الدليل الأخلاقى » .

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « إنما بُعثتُ لأُتَمِّمَ مكارمَ الأخلاق ».

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم: « أدَّبني ربي فأَحسنَ تأْديبى » .

وقالت عنه صلى الله عليه وسلم أمُّ المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها ، لما سئلت عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : « كان خُلقه القرآن » .

تمام الدليل الخلقى بالقرآن :

وفى كل إنسان الكثير جداً من الأجهزة المنظورة وغير المنظورة ، المعروفة وغير المعروفة ، الظاهرة والباطنة ، المتشابكة والمتداخلة ، المتفرقة والمتكاملة . . . لا يحيط بها إلا صانعها ، ولا يدرك كل أسرارها إلا خالقها . . .

فلا من أن يكون الدليل السلوكىّ أو الأخلاق لهذه الأجهزة كلها؛من وضع الصانع ، وقول الخالق لهذه الأجهزة ، وما يحيط بها فى العالمين :

« الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شىءٍ خَلَقَهُ ، وبَدَأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طين ٭ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِين ٭ ثم سَوَّاه ونَفَخَ فيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ » . (سورة السجدة ٣٢/٧ — ٩) .

هذا « الدليل الأخلاقى » إذن : لا يكون إلا « القرآن الكريم » الذى قال فيه رب العِزَّة لخاتم النبيين ، وتمام المدربين : « وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عظيم » .

والذى قال فى ختامه ربُّ الناس للنَّاس: « ...اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينكُمْ وأَتْممتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ..» .(المائدة٥/٣).

فلا بد إذن من الإذعان ، والتسليم بلا معارضة ، ولا مراء .

قال صاحبي : أولا نستطيع أن نستمد هذا الدليل الأخلاقي من المصلحين الاجتماعيين ، أو من الهداة المرشدين ؟ .

قلت لصاحبي : نعم ؛ ولكنّ المصلحين الاجتماعيين في العالمين ، والهداة المرشدين للصالحين .. ليسوا إلا رُسُل الله أجمعين متكاملين ... ثم من بعدهم مَن سار على دربهم ، واتصل بحبلهم ، ودعا إلى الله على بصيرة ...

وهم وحدهم كما قال الله الذى أرسلهم : « الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ ، وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إلاّ اللهَ ... »(سورة الأحزاب ٣٣/٣٩) .

أمّا غيرهم ؛ فأنّى لهم ، مهما بلغ إصلاحهم ، أو عمق إرشادهم ، إن لم يتصلوا بحبلهم ، ويسيروا على سننهم ؟ ! ! ...

قال صاحبي . وبعد ختام الرسالات والمرسلين ؛ كيف يدرب الدعاة والمرشدون ؟ !

قلت لصاحبي : لقد أنزل الله « الدليل الأخلاقي » ، أو إن أنصفتَ فقل « الدليل الإنساني » وتكفل سبحانه بحفظه من الضياع ، أو التلف ، أو التحريف .. للناس أجمعين ، فقال سبحانه : « إنا نحنُ نزلنا الذكر وإنا لهُ لحافظون » . (سورة الحجر ١٥/٩) .

فلا حاجة معه — بعد أنَ أتم الله التدريب عليه ، وأكمل به على المؤمنين النعمة — إلى الأشخاص المعلمين والمرسلين ،ما دام هؤلاء قد دربوا الإنسانية عليه ، وأخذوا بيد البشرية إليه ، فأرشدوا الناس أجمعين ، إلى « دليل رب العالمين ...»

وما على الدعاة إلا أن يسلكوا سبيل خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ...

علاقة الخلق بالسلوك وبالتفكير:

قال صاحبي : وما علاقة هذا بالسلوك أو بالتفكير ؟ .

قلت لصاحبي : أوَ ليس التفكير الإنسانى إلا عمليات متفاعلة وناتجة من استخدام أجهزة الإنسان الداخلية والخارجية ؟

وإلا الترجمات العلمية والعملية لسلوك الإنسان مع نفسه، ومع بنى جنسه من بنى الإنسان ، ومع الكائنات الأرضية ؟

وإلا البيان لصلات الإنسان بما يحيط به ، أو يحيط بالإنسانية ؟ .

وإلا التوضيح لأربطة الإنسان التى تمسكه ببيئاته العلمية والثقافية ؟ .

وإلا الإشعاعات التى تصل الإنسان بما يستطيع من مجموعته الشمسية وآيات ربه القرآنية والكونية ؟ ! . .

ولابد فى هذا كله من الدليل التنظيمى، للسلوك الإنسانى، والتفكير البشرى...

ولا يمكن أن يكون هذا إلا « بالدليل الأخلاقى » .

الأساس الخلقى لكل علم وفن ومعرفة :

يا صاحبي : الصدق والأمانة والإخلاص ، من أهم ركائز الأساس : لكل علم وعمل ، وكل فن ومعرفة ، وكل ثقافة وفلسفة . . . وهذا الأساس وحده هو « الخُلُق » : . . .

فالحكم لا يستقر إلا إذا احترم الذمم . . .
والعلم لا يبتكر إلا إذا احترم القلم . . .
والعمل لا يسعد إلا إذا احترم الهمم . . .
والسعى لا يُحمد إلا إذا احترم القدم . . .
والطب لا يفيد إلا إذا احترم الألم . . .
والفن لا يجود إلا إذا احترم القيم . . .
والأدب لا يَرُود إلا إذا احترم الكلِم . . .

تجدد المصلحين :

قال صاحبي : وكل هذا الذى ذكرته إنما هو أمور متجددة ومتواصلة ؛ فلابد من تجدد المصلحين أو المنظمين ، وتواصلهم .. على مر الأجيال والسنين .

قلت لصاحبي: نعم ، وارجع معى إلى صفحة ٢٥٩ السابقة تجد أيضاً : نعم . ولكن لابدأن يكون المصلحون المتجددون المنظمون : من المتبعين لاالمبتدعين، ومن المستنبطين المخلصين الخيرين . . . الذين يستطيعون الاجتهاد ، مع رعاية حقوق العباد ورب العباد ،فى كل عصر ومصر ، وزمان ومجتمع ، وصدق الله ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ .

« وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الخَوْفِ ، أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ ، لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُم الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً » .

(سورة النساء ٤/٨٣) .

علاج الشائعات :

أرأيت يا صاحبي الخلق الإسلامى ، والتوجيه العلاجى القرآنى ؛ بالنسبة لمشكلة المشكلات فى كل زمان ومكان ، وهى مشكلة الإشاعات والشائعات ، التى تؤدى إلى الاختلافات والاضطرابات والمنازعات ، والتى تتولد عنها كل الانحرافات ؟ ! . .

وهى مشكلة متغلغلة فى كل أمر ، سواء فى ذلك كل أمور السلم وكل أمور الحرب وكل أمر من أمور الدنيا جميعا : إما أمر من أمور الأمن، أو أمر من أمور الخوف..

والله سبحانه : يندد بمجتمع هذه حاله ، ثم يوجه إلى علاجه فيقول : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » .. ياسبحان الله.. لم يقل أذاعوه..

أو تناقلوه .. أو رددوه .. فقط .. وإنما قال : «أذاعوا به» فجعلوه إذاعة في أفواههم، ينفثون فيه سموم أغراضهم وأمراضهم ، ويبثونه في المجتمعات والطوائف : إثارة للفتنة ، عن قصد أو غير قصد : فلابد من العلاج والفصل .

توزيع التخصصات والاختصاصات :

ثم يوجهنا سبحانه إلى العلاج الحاسم ، بالقضاء على هذا الوباء ، ورد كل أمر إلى ولي الأمر فيه ، وإلى المستنبطين من العلماء والمتخصصين وأهل الذكر الذين يستطيعون ردّ كل أمر إلى أصوله ، من كتاب الله وسنة رسوله .. ثم يستنبطون منهما ما يُصلح حال المجتمع ، ويأخذ بيد الأمة ، ويكشف سريعا كل غُمّة فيتوحد الصف ، وتجتمع الكلمة . . .

تطبيق عمري :

وقد طبّق ذلك عمليا «عمر بن الخطاب» كما فهم من السنة والكتاب وعرَف من تطبيق الصديق وعمله ؛ وبعد أن وليَ الخلافة بعد «أبي بكرٍ» عمرُ بن الخطاب ، في صدر الإسلام قديما ، ونشره على الناس في خطبه ؛ ليكون منهاجاً يسيرون عليه في كل زمان ومكان ، فقال بعد أن حمد الله أثنى عليه : «أيها الناس :

من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أُبيّ بن كعب ،

ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ؛ فليأت زيدَ بن ثابت ،

ومن أراد أن يسأل عن الفقه ؛ فليأت مُعاذ بن جبل ،

ومن أراد أن يسأل عن المال ؛ فليأتني ؛ فإن الله جعلني عليه خازناً وقاسماً ..»

أرأيت يا صاحبي إلى التخصصات ، وتوزيع الاختصاصات .. ؟ !

وضع الفلاسفة للقانون الأخلاقي ، وفساده :

قال صاحبي ؛ وقد تهلل وجهه : إذن فلقد وجدته ! ! .

قلت لصاحبي : وما هذا الذى وجدته ؟ خيراً إن شاء الله ! .

قال صاحبي : الدليل . . . « الدليل الأخلاقى » الذى تريده ، فهو بين أيدينا ، وهو موجود ، فلقد وضعه من قريب أو من بعيد الفلاسفة العقليون القدامى منهم والمحدَثون ، ولا يزال المعاصرون يجدِّدون ، وكل فيلسوف عقلىّ هو فيلسوف خُلُقى ، لأن الأخلاق جزء من الفلسفة ، والكلام فيها قديم وهو ، إنسانى ، ولعلك تعرف « القانون الأخلاقى » ! ! أوَ ليس هذا هو « الدليل » ؟ !

قلت لصاحبي فى دهشة المفئود : نعم . . نعم . . لا يستقيم الظل إلاّ إذا استقام العُود . . . يا صاحبي : أوَ بعد أن سَلَّمتَ وأسلمت . . . تعود؟ !

يا صاحبي : ... الذى ذكرتَه الآن : تناقضٌ مردود .

وفى هذا الذى تحدثتَّ به كإنسان : تجاوزٌ لكل الحدود ؛

وبهذا : اضطرب التفكير ، وتضاعفت عليه القيود .

ولهذا : كانت « أزمة التفكير الحديث » التى أشرنا إليها فى المقدمة وبدء الحديث ، فارجع إليها ، واقرأ الكتاب من أوله ، وذاكر مناقشاتك السابقة . . . ولعلك تعود .

قال صاحبي فى خفوت أخذ يعلو ويشتد : أنا لا أنسى : لقد حاورتك بشدة مرتين ، وفى كل مرّة أرجع ولا يُخفىً حُنَيْنٍ . . . أما فى هذه المرة ولعلها تكون آخر كرّة ، فلابد من أن نصل معاً إلى حسم « أكيد » .

فإما على يديك ، فأستقر وأتلقى عنك ، وإلى « المحاورة » لا أعود . . .

وإما على يدىّ ، فأحاور وأملأ الندىّ ولك — إن أحببت — أن تعود . . .

يا صاحبي أى تناقض ، أو تجاوز ، أو بهتان ، فى أن يضع الفلاسفة

« القانون الأخلاق » للانسان ؟ ! . أوَ ليسوا هم المخصصون فى هذا الميدان ؛ وأنت تطالب بالتخصص ؟ ! . . .

قلت لصاحبي : قبلت الثالثة ، ولـكن ليس فقط إلى حسم أكيد ، بل إلى يقين ثابت ، ودفاع رشيد ، ثم إلى اندفاع وتبليغ وتجديد . . . إلى أخلاق إسلامية قائدة ، وإيمان رائد بالقرآن المجيد .

يا صاحبي : واحدة من اثنتين لهؤلاء الذين تقول عنهم إنهم « فلاسفة عقليون » القدامى منهم والمحدثون والمعاصرون ؛ بالنسبة لوضعهم « الدليل الأخلاقى » ، أو كما تقول : « القانون الأخلاق » :

إما أن يكونوا قد تم « الوضع » ، وإما أن يكونوا جميعا فى حالة « وضع » ..

فإن كانت الأولى : كان التناقض ، والتخابط والتضاد . . . والوضع فاسد .

وإن كانت الأخرى : وجب أن ننتظر حتى يتم المخاض . . . والحمل فاسد .

يا صاحبي : إن كانت الأولى ، وقد تم « الوضع » من الأقدمين ؛ فليس هناك وضعٌ بعد ذلك للمحدثين ، أو للمعاصرين : إنّ من يحاول أن يثبتَ لهم الوضع بعد ذلك ، يكون متناقضاً مثلهم ؛ لأن الوضع قد تم من قبلهم .

وإن كان وضع « القانون الأخلاق » من المحدثين ؛ فالتناقض بالنسبة للقدامى والمعاصرين ظاهر ، سواء وضعوا أم لم يضعوا . . لأن القدامى قد سبقوا ، سواء وضعوا وليداً شرعياً ، أو اتضعوا . .

وهو حتى بالنسبة للمحدثين فيه تناقض وخلط ؛ لأنهم ليسوا متفقين ولا متقاربين ، بل تراهم دائماً متنافرين : يُخَطِّىء بعضهم بعضاً ، ويهدم بعضهم بعضاً ، ومع هذا وذاك ؛ فقد تناقضت أحكامهم ، واضطربت أحلامهم وشاعت فيهم الفردية ، فلا تزاوج ، ولا نتاج ، ولا مخاض ، ولا وضع .

وإن كان وضع الدليل الأخلاقى قد تم من المعاصرين : كان التناقض واضحاً ، بالنسبة للقدامى والمحدثين ، وكان أيضاً التخابط والتهافت ، بالنسبة للمعاصرين ... وبهذا : يكون الكل فى حالة عُسرٍ أو إجهاض ، وهو يدّعى سلامة الوضع أو المخاض ، وكل واحدٍ من هؤلاء وهؤلاء ، يطعن على معاصريه والقدماء ، ويهدم على الجميع كل محاولة أو بناء ...

لأنه لا اتفاق ، ولا وفاق ، فلا إخصاب ، ولا إنتاج ، ولا وضع .

أما إن قلت : إنهم جميعاً متعاونون ، ولا يزالون ، وقد لا يشعرون . . . فهذه « كارثة » على الإنسانية ، وعلى الأخلاقية .

على الإنسانية ، لأن الإنسانية فى هذه الحال ، تكون قد تعايشت إلى الآن على غير الأخلاق العامة الكاملة ، ويجب أن تستمر كذلك بلا أخلاق شاملة أو فاضلة ، حتى ينتهى المعاصرون ، وهل ينتهون ؟ وفى كل عصر لاحقٍ أيضاً معاصرون ؟ ! . . .

وعلى هذا : فإن الإنسانية ستعيش دائماً بغير أخلاق عامة ، بل هى الفردية ، والأنانية ، والفوضوية ، والوجودية ، والانحرافية . . .

وعلى الأخلاقية ، لأن الأخلاقية فى هذه الحال ، تكون غير مفهومة لبنى آدم فى أى مجال ، ولا واضحة للجميع : لا فى الأقوال ، ولا فى الأفعال . . . بل تكون أيضاً غير مجدية ولا نافعة ، فليست إذاً بلازمة .

لأن كل فرد يتعايش كما يشاء . . .

فلا حل ، ولا وضع ، ولا رجاء . .

ولا استقامة ، ولا سعادة ، ولا دواء ...

ولا فضيلة ، ولا استقرار ، ولا بناء . . .

المذاهب الأخلاقية عند الفلاسفة :

قال صاحبي : ألم يربط « سقراط » بين الفضيلة والمعرفة ؟ فحطم بذلك الرذيلة والسفسطة ؟ ! ثم تتابع المفكرون من بعده .

فقال أفلاطون بالخير الأقصى .

وقال أرسطو بالوسط الأخلاقى . . .

ثم تعاقبت مذاهب ، اللذة والمنفعة ، والسعادة ، والزهد . . .

حتى جاء الحدسيون ، والتجريبيون ، والمثاليون ، والعقليون . . ؟؟ .

وتوج هؤلاء جميعاً عملاق الفكر الحديث « كانت » الألمانى ، الذى نادى بالحاسة الخلقية ، وبالضمير ، وبالواجب . . .

ولا يزال كل فيلسوف عقلى، وكل مصلح اجتماعى ، يعنى بالأخلاق أكبر عنايته ، ويربطها ربطاً وثيقاً بفلسفته وثقافته . . ؟ !

قلت لصاحبي ، ومرة أخرى : « فى هذا : تجاوز لكل الحدود » ؛ لأن كل فيلسوف أو مصلح ممن تدعى يخضع الأخلاق للفكر ؛ والفكر متخالف غير مستقر ، أو يربط نظريته الأخلاقية بنظريته فى المعرفة ؛ ونظريات المعرفة متطاحنة متضاربة ، لا اطمئنان لها ولا أمان ، وهذا عكس ما يجب أن يكون . . .

الأخلاق أولاً :

يجب — ياصاحبي — أن تصدر المعرفة عن الأخلاق ، فالأخلاق أولاً ثم المعرفة ثانيا ، ثم التفكير ثالثا ، ثم الإنتاج رابعاً ، وهكذا وهكذا . . .

الإنسانية اليوم متخمة بالتفكير ، ولكنها فى مخمصة خلقية ، فى مجاعة

جائعة بالنسبة للأخلاق ، فى أزمة خلقية مزمنة ، فى كل مناحيها ونواحيها ، فى كل اتجاهاتها وثنياتها . .

ومرد هذا كله إلى هؤلاء العقليين ، الذين أخضعوا الأخلاق لعقلهم وتفكيرهم ، وعقلهم محدود بالبيئة والثقافة ، والميول والاتجاهات ، والصحة والمرض والاحتياج والاستغناء ، والتقدير والإزدراء . . . ثم هم أنانيون ماديون . . .

المقاييس الأخلاقية وتطبيقها :

ومع هذا كله يصرخ كل واحد منهم بأعلى صوته : أن تكون المقاييس الأخلاقية عامة ، غير محدودة بزمان ، ولا متقيدة بمكان ، وأن تكون إنسانية : تشمل الإنسان كله ، ذاتية : تنبع من الإنسان ذاته . . . إلى غير ذلك من الشروط التى أجمعوا عليها نظريا ، ولم يستطع واحد منهم أن يحقق شرطاً واحدا منها عمليا .. وبهذا يكون كل واحد منهم قد حدد نفسه بنفسه ، وتجاوز أيضاً كل الحدود بنفسه .

ثم هل استطاع واحد منهم أن يطبق ما ذهب إليه من أخلاق على نفسه ، أو حتى على تلاميذه ومحبيه وعُرسه ، فضلا عن جيرانه ومواطنيه وبنى جنسه ؟ ! حتى يحاول بذلك أن يجاوز حدود نفسه وأهله ووطنه وجنسه .. إلى كل زمان ومكان ؟ ! ..

يا صاحبى : لعل الغربيون معذورون فى هذا الهذيان ، فليس فى يدهم ولا لديهم صحيح من الأديان ، ولكن ما عذرنا نحن ، ونحن ندعى الإيمان بالقرآن ؟ ! .

مذهب « كانت » الأخلاقى ومناقشته :

قال صاحبى : لو رجعنا إلى عملاق الإنسانية الأكبر « إما نويل كانت »

الالمانى لوجدنا فى أخلاقياته ما يقنع، وبخاصة فيما كتبه فى « نقد العقل العملى » عن : الواجب ، والحرية ، والخلود ، والله .

قلت لصاحبى : لا أريد أن أحيلك الآن على كتابنا « المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب » ، كما لا أريد أن أناقش معك تفصيلات المذهب « الكانتى » فى الأخلاق . . . إن صح هذا التعبير ، لأن المقام وهذا الكتاب لا يتسعان لشىء من هذا ، وإنما أريد أن أضع يدك الآن فوراً على نصّين لرجلين ، كثيراً ما أثنيت أنت عليهما ، واعتبرت كل واحد منهما « حجة » كبرى . . .

قال صاحبى : نعم . . وأحدهما بلا نزاع هو « يوسف كرم » ولابد من أن يكون الثانى هو « جون ديوى » ! . . . إن كان كذلك ، فهات ، لأن كلا منهما حجة عندى .

قلت لصاحبى : افتح كتاب « البحث عن اليقين » لـ« جون ديوى » الذى تحدثنا عنه فيما سبق — من هذا الكتاب — ترجمة الدكتور « الأهوانى » وأخرج الفصل الحادى عشر واقرأ قوله فى صفحة ٣١٥ :

« . . . إن ثورة « كانط » المزعومة تقوم على إظهار ما كان منطويا يتضمنه التراث القديم ، وقصارى القول : أن الفلسفة القديمة قررت أن المعرفة تتحدد بالتكوين الموضوعى للكون ، ولكن تلك الفلسفة لم تقرر ذلك إلا بعد أن افترضت أولا أن الكون نفسه قد نسج على منوال العقل ، فالفلاسفة أقاموا أولاً نظاما معقولا للطبيعة ، ثم استعاروا منه الملامح التى تتميز معرفتهم بها . الواقع لقد نبه « كانط » الأذهان إلى هذه الاستعارة ، ثم ألح فى القول بأن المادة المستعارة يجب أن تنسب إلى العقل البشرى لا إلى العقل الإلهى .

لقد كانت « ثورته » تحولا من السلطة اللاهوتية إلى السلطة الإنسانية ،

وفيما عدا هذه النقطة كانت ثورته اعترافا صريحاً بما قام به الفلاسفة من القديم إلى عصره مضمنا عن غير وعى » .

أفرأيت يا صاحبي كيف هدم « ديوى » كل فلسفة « كانت » ؛ لأنه أقامها على ما رفضه من التراث القديم ، وبدون وعى . . ؟ ولم يبق له إلا مجرد تنبيه الأذهان ، وإلى فكرة خاطئة هى محاولة فصل التفكير عن الدين ؛ وإن كان « كانت » يحاول أن يتخلص من سلطة دينية خاصة ؛ هى السلطة اللاهوتية . . [للكنيسة] . .

قال صاحبي : لعل حسداً داخل « ديوى » من « كانت » ، فحاول هدمه ! . . . هيا إذن : إلى « يوسف كرم » .

قلت لصاحبي : لعلك تعرف جيداً أن « كانت » ألمانى ، أما « ديوى » فأمريكى جاء بعده بقرن ونصف قرن من الزمان .

وعلى كل فخذ : هذا كتاب « تاريخ الفلسفة الحديثة » ليوسف كرم ؛ واقرأ تعقيبه على « كانت » من صفحة ٢٤٦ إلى صفحة ٢٥٠ ، وسترى بعينيك قوله : «وقد أخفقت محاولة « كنط » فيما نرى لإقامة الأخلاق على أسس وطيدة . . لقد أشفق « كنط » على حريتنا من العلم النظرى بالخلود وبالله ، فكيف لا يشفق عليها من الإيمان وهو يريده قوياً راسخاً رسوخ فكرة الواجب ؟ .

إن حل « كنط » لمسألتى « الخلود » و « الله » حل لفظى ؛ فإنه يقيم هاتين الفكرتين على فكرة الواجب ، وهى صورة صرفة لا تمتاز بشىء عن باقى الصور العقلية التى يأبى « كنط » أن يعترف لها بالموضوعية ، فيكون الخلود ، ويكون الله مجرد صورتين .

فكنا إذن متسامحين حين سمينا : الحرية ، والخلود ، والله ؛ « مُسلَّمات

العقل العملى » ، وهى فى الواقع « مصادرات » لا يسمح المذهب [الذى حاوله كانت] بقبولها ، ويضعها الفيلسوف وضعاً .

وماذا فعل فى النهاية ؟ محا الميتافيزيقا أول الأمر ، فأخطأ فهم المعانى الأخلاقية الكبرى ، وقلب الوضع الطبيعى لفلسفة الأخلاق رأساً على عقب .

ثم عاد فأثبت الميتافيزيقا ليحتفظ للأخلاق ومعانيها بقيمةٍ ما ، فدلنا على استحالة الاستغناء عن الميتافيزيقا .

وأقول بعبارة موجزة : إنه هدم بيده البناء الذى شاده ، وتلك عاقبة المبطل مهما يؤت من مقدرة » .

ثم أفرأيت ياصاحبى كيف أجهز « يوسف كرم » على « كانت » وبيد « كانت » نفسه ، فى كل ما ادعاه من فلسفة أو أخلاق ؟ .

قال صاحبى : أ إلى هذا الحد انحط « كانت » وصار قزماً ، وكنا نظنه قمة شامخة ، وعملاقا ضخما ؟ ! . . .

ثم كيف قرأت أنت كل هذا ؟ وكنت أظنك تدعو إلى القرآن ؟ .

موقف رجل الإسلام والداعية إلى القرآن :

قلت لصاحبى : ألم أقل لك ياصاحبى : إن رجل « الإسلام » والداعية إلى « القرآن » لا يصح أن يبدأ إلا من حيث ينتهى المتخصصون جميعاً ؟ ؛ لأن رجل الدين الذى يريد أن يمتدّ من قيم السماء ، لابد من أن يرتقى أولاً فوق قمم الأرض ؟ ! أوَ لم تسمع ربَّ القرآن ، يقول لنبىِّ القرآن صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي : أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ؟ .(سورة يوسف ١٢ / ١٠٨) .

قال صاحبي : لقد وضح تماماً اضطراب التفكير لدى العقليين كما ذكرت ، ولكنك قلت : وبهذا تضاعفت عليه القيود ، مع أن العقليين جميعاً وأصحاب التفكير ، يتحررون من كل قيد ؟؟

قلت لصاحبي : إنك لاحظت بلا شك أن : الفردية ، والأنانية ... شائعة في تفكير كل واحد من هؤلاء العقليين أو المفكرين . . .

قال صاحبي : وهذه علامة التحرر كل التحرر من كل قيد . . .

قلت لصاحبي : ألم تعلم أن كل واحد منهم يحاول جاهداً ، بل ويوجب أن يسود مذهبه في كل عصر ، وتنتشر نظريته في كل مصر ... ؟ وليس بإنسان — في نظره — من يخالفه ، أو يعتنق غير رأيه ؟ .

قال صاحبي : طبعاً . . . طبعاً . . لأنه متمتع تماماً بصحة نظريته ، وبأن رأيه هو الرأى الحق .

قلت لصاحبي : إذن كل واحد منهم يقيد الجميع بآرائه ، فتتعدد القيود ، بل يتضاعف عددها على الجميع ، بتعدد العقليين من الفلاسفة والمصلحين ، وهكذا ، تجد ياصاحبي : أنه كلما : تضاعف عددهم تضاعفت على التفكير القيود ... وسأترك لك الفرق بين « الحق والصواب » .

قال صاحبي : هذا صحيح . . . هذا صحيح . . . نعم . . . وهذا صحيح . . . ولكن أفلا نستطيع أن نقول .. إن في « العقليين المعاصرين » من « الفلاسفة » و « المصلحين » مَن اهتدى إلى « القانون الأخلاق » ؟

قلت لصاحبي : تفضل ، وخذ هذا الكتاب ، واقرأ بنفسك ؛ وأسمعني معك .

صرخة أمريكية للبحث عن الأخلاقية والسلوك البشرى :

قال صاحبي : ولمن هذا الكتاب ؟ ومتى كتب ؟ .

قلت لصاحبي : هذا الكتاب يحمل كثيرا من الأسماء ، فهو : « قصور الفلسفة » جمع « قصر » طبعا ، وهو « صروح الفلسفة » ثم هو أخيرا « مباهج الفلسفة » أما مؤلفه فهو « وِلْ دِيورَانت » الكندى الأمريكى ، الذى طوف بكثير من بلاد العالم ، وزار كثيرا من الجامعات وحاضر فيها ، وله الكثير من المؤلفات ، ثم هو قدْ حَوّم حول الثمانين من العمر ، فقد ولد سنة ١٨٨٥م أما زمن تأليف هذا الكتاب، فإن طبعته الأولى تمت سنة ١٩٥٥م أما طبعته الثانية فقد طبعت فى « نيويورك » ، وأما ترجمته العربية ، التى قام بها الدكتور « الأهوانى » فقد قامت مؤسسة فرانكلين بنشرها سنة ١٩٥٧ م وقد كتب فيه عن « مشكلات الأخلاقية » ثمانية فصول فى ١٦٧ صفحة .

قال صاحبي : شكرا ، شكرا ، فهذا الذى أريد ، وسنرى ...

قلت لصاحبي : أسمعنى الآن إذاً السطور الأخيرة من صفحة ١٣٧ ، ثم السطور الأخيرة أيضا من صفحة ٢٧٩ وسترى عينك ، ويعى قلبك . . ولك أن تقرأ بعد ذلك كل الفصول من صفحة ١١٧ إلى صفحة ٢٨٣ ..

فأخذ صاحبي يقرأ قول « ديورانت » : « . . . وأين نجد قانونا أخلاقياً يتفق مع شروط حياتنا المتغيرة ، ويرفعنا مع ذلك ، كما رفع القانون القديم الناس ، إلى الرقة ، والدعة ، والحياة ، والأدب ، والنبل ، والكرامة ، والفتوة ، والنجدة ، والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل ؟

وكيف نعرّف الخير تعريفا جديداً ؟ وكيف نعيد بناء الأساس الخلقى للمجتمع الكبير ؟ . . .

... لقد ازدادت الآن قدرة الإنسان العقلية وتعددت حتى ليبدو أن أصحاب العقول الراقية فى العصر الحاضر ينتمون إلى نوع يختلف عن نوع الفلاح البطىء الاستجابة ، وحين يأتى اليوم الذى تساير فيه أذهاننا آلاتنا ، وحكمتنا معرفتنا ، وأغراضنا قوانا ، عندئذ نسلك سلوك البشر » .

وإلى هنا أطرق صاحبى فى صمت عميق ، بعد أن أطبق الكتاب ، وأطبق عليه بكلتا يديه . . وفجأة انتفض صاحبى ، ورمى الكتاب بعيداً عنه ، وأخذ يتصايح مع نفسه كالمحموم : فلسفتهم ، كتبهم ، أخلاقهم ، لا ، لا . إنهم لم يتذوقوا طعم الفلسفة ، إنهم لم يشموا رائحة الأخلاق ، إنهم مفلسون معدمون ، خدعونا ، خدرونا ، استعمرونا ، إنهم يبحثون عن أى قانون للأخلاق ، إن « ديورانت » فضحهم ، إنه يؤكد بلسانهم ، لا ، بل بلسان المنصفين منهم : أنهم مجردون من الرقة ، والحياء والأدب ، وليس عندهم كرامة ، ولا نبل ، ولا حب ؟ ! . . . أهؤلاء هم الغربيون ؟ ! . . . أهؤلاء هم الفلاسفة العقليون ؟ ! . . . أهؤلاء هم المحدثون والمعاصرون ؟ ! . . . إنهم يتطلعون إلى يوم يسلكون فيه سلوك البشر ، وإنهم يتطلعون إلى أساس خلقى ، وهم يرون أنفسهم عنه بعيداً بعيداً .

ثم التفت إلىّ ، وفى طريق عينيه إلىّ ، وقعت عينه على كتاب « مباهج الفلسفة » فأزاحه بظهر يسراه ، وقال هذه مناهج السفه ، ليس لمثلى أن يقرأ لهم أى كتاب فى هذا الباب ، ليس لمن لم يتعمق فى دينه أولا : أن يطرق مثل هذه الأبواب . ولعله لم يبق للدنيا إلا القرآن : ذلك الكتاب . . .

* * *

ليس إلا القرآن والإسلام:

فقاطعته بابتسامة ويدى إلى صدره « بالقرآن » نعم . نعم: ليس إلا القرآن والإسلام

وقلت : خذ يا صاحبي : « ذلك الكتاب » : « ذلك الكتاب لا ريب » :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه » :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » ...

واقرأ من سورة « الطور ٥٢/٢٩ — ٤٣ » قول رب العالمين ، لرحمة العالمين ، صلى الله عليه وسلم :

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ؟! * أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ؟ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ، إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ؟ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ؟ بَلْ لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ ؟ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ ؟ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ؟ * أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ؟! * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ؟ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ؟ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ؟ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ؟! سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ » .

قال صاحبي : أشهد أن لا إله إلا الله ... هذا هو هو الإعجاز :

قلت لصاحبي : أو علمت ؟! أو شهدت ؟! ..

إذاً بحقها ، وحق الشهادة عظيم :

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَالْمَلاَئِكَةُ ، وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ ، فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » .

(سورة آل عمران ١٨ — ١٩).

حق الشهادة والتفكير :

قال صاحبي : نعم شهدت ، نعم شهدت : فما حقها ؟

قلت : حق الشهادة يا صاحبي : الحضور ، والمشاهدة ، والتعليم ، والتذوق والأداء . . . وإن شئت فقل « الالتزام » . . .

وهل يُقبل « الالتزام » . . . إلا من صاحب الأخلاق الفاضلة ؟ !

فإن صدقت الشهادة ياصاحبي ، كان حقها : اليقين ، والشهود ، والتسليم والتحقق ، والقضاء . . . وإن شئت فقل « الإسلام » . .

وهل يُعقل « الإسلام » . . . إلا من صاحب الأخلاق الفاضلة ؟ !

وهكذا يصل أولوا العلم من كل شيء — فى الآفاق وفى أنفسهم — إلى الله ، وإلى الإيمان بالله الواحد : « عالم الغيب والشهادة » . . وفى كل شيء له آية .

ثم هكذا يصل أولوا العلم من كل « إيمان » و « شهادة » إلى اليقين : بأن « الإسلام » هو الدين كل الدين وبأن رسول الإسلام هو خاتم النبيين . وبأن القرآن هو كتاب رب العالمين للعالمين . . . فيجب التفكير فى كل آية .

« كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة » . . .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ؟ . . . للتدبر فى كل آية .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . . . للعمل بكل آية .

وصدق الله إذ يقول لكل أهل العلم . . من الراسخين فى العلم :

« وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة آل عمران ٣/٧) .

قال صاحبى : حقاً : وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وسلم .

قلت لصاحبى : وهكذا يقود التفكير الصحيح المستقيم : عن طريق العلم أو عن طريق الفلسفة ، إلى الإيمان الحق ؛ بالله الواحد الحق ، سبحانه رب العالمين ، وإلى التصديق المصّدق ، بالرسول الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، وبرسل الله أجمعين . . وإن شئت فقل : يقود إلى « الإسلام » . . . وإلى « القرآن » .

ولكن بحق التفكير ، وحقُّ التفكير عظيم .

حق التفكير :

قال صاحبى : وما حق التفكير الفلسفىّ ؟ .

قلت لصاحبى : أليس التفكير الفلسفى شهادةً : إما بالأداء ، وإما بالقضاء ؟ وكذلك التفكير العلمى ؟ ! .

فنظر إلىّ صاحبى نظرة فيها كثير من الاستيضاح ، وعلى فمه ابتسامة فيها كثير من الرجاء ..

فقلت ، يا صاحبى : التفكير كله من ألفه إلى يائه ، من أبسط أنواع الملاحظة إلى أعلا قمم الفلسفة ، ومايستلزمه من التعبير . . . إما أن يكونَ ، بأنّ ينقل المفكر آراء الآخرين ، وحياتهم ، وأحكامهم ، فى المسائل التى يعرضها أو يعرض لها ؛ فيكونَ مؤرخاً — كما يقولون — وهو فى كل هذا إنما ينقل عن الغير للغير ؛ فهو إنما يؤدى للغير عن الغير ؛ وإذاً فهو إنما يدلى بشهادته ؛ فتأريخه إذاً يكون شهادة بالأداء .. لأنه يشهد على نفسه ، وعلى غيره كتابةً ، أو نطقاً : لغيره ، أو أمام غيره . . . فهو شاهد .

وإما أن يكون التفكير ، بأن يحكم المفكر ويدلى برأيه هو ، فى مسألة من المسائل التى يعرضها ،أو يعرض لها... ولابد حينئذ من أن يستعرض مستندات القضية أو النظرية أو الفكرة التى يتعرض لها ، وأن يبين أسباب الحكم الذى اتجه إليه ، وأن يصدر حكمه مؤيداً بالحيثيات والمستندات ؛ فحكمه حينئذ يكون بالقضاء . . . لأنه يقضى لنفسه ، ولغيره ؛ فهو قاض .

ويجب أن تتحقق فى الشاهد أخلاق فاضلة معروفة ، وشروط أهمها : الصدق ، والتحرى ، والعدالة ، وعدم التحيز . . . فإن لم يتحقق فيه شرط من شروط الشهادة ، رُفضت شهادته ، وربما سجن . . . وسقطت إنسانيته .

كما يجب أن تتحقق فى القاضى أخلاق فاضلة معروفة وشروط ، أهمها : العدل ، والإنصاف ، والبعد عن الميل والهوى ، ونفاذ البصيرة ، وصدق النية ، وسلامة الطويّة ؛ فإن لم يتحقق فيه شرط من هذه الشروط ، عزل عن القضاء ، وطرد ، وحوكم ، ولعن . . . وسقطت إنسانيته . . .

فلابدّ « للتفكير كله » من الأخلاق الفاضلة .

وأصحاب التفكير الصحيح الصادق ، هم: « أولوا الألباب » ؛ فهم أصحاب الحق فى التفكير الفلسفى ؛ بل فى التفكير العلمى ، وهم الذين يصلون إلى علم صحيح ، أو إلى فلسفة صادقة :

« . . . قُل هلْ يستَوِى الَّذينَ يعلَمونَ والذين لا يعلمون ؟ إنَّما يتذَكَّرُ أُولُوا الألبابِ » . (سورة الزمر ٣٩/٩) . نزلت فى مكة .

«قُل لاَ يَستوِى الخبيثُ وَالطيبُ ولوْ أعجبكَ كَثرةُ الخبيثِ ، فاتقوا الله يَا أُولى الألباب لعلَّكم تُفلِحُونَ ».(سورة المائدة٥/ ١٠٠) . نزلت فى المدينة.

وهنا : تهلل وجه صاحبى ، وأشرق ، وقال : الآن وجدت نفسى

الآن عرفت عقلي ، الآن صلح تفكيري ... فحدثني « عن أولي الألباب»

١٧ - أولوا الألباب هم أصحاب الأخلاق الفاضلة :

قلت لصاحبي : « أولوا الألباب » هم أصحاب الأخلاق الفاضلة ، الذين يتذكرون ، ويتدبرون ، ويتبصرون ، ويستجيبون ، ويحسنون الاستماع ، ويحسنون الاتباع . . .وهم الذين :يوفون ، ويصلون ، ويصبرون ...

وهم الذين يجب علينا أن نرفع القواعد من خُلقهم ، وأن نستمد خلقتنا جميعاً من عملهم ، وصفاتهم ، وسلوكهم ؛ فهم من عباد الرحمن .

ولقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ١٦ مرة ، في ١٦ موضعاً ؛ منها :

« يُؤْتِى الحِكْمَةَ مَنْ يَشاء وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً ؛ وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُوا الأَلْبَابِ » . (سورة البقرة ، ٢ / ٢٦٩):

وقوله سبحانه لمحمد صلى الله عليه وسلم في سورة الرعد ١٣/١٩ — ٢٤) .

« أفَمَنْ يَعْلَمُ أنما أُنزِلَ إلَيْكَ مِنْ ربِّكَ الحَقُّ كَمَنْ هُوَ أعْمى ؟ إنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُوا الألباب *

الَّذِينَ يُوفونَ بِعَهْدِ اللهِ ولاَ يَنقُضُونَ المِيثَاقَ *

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أمَرَ اللهُ بِهِ أنْ يُوصَلَ ، وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، وَيَخافُونَ سُوءَ الحِساب *

والَّذِينَ صَبَرُوا ابتِغاء وجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأقَامُوا الصَّلاَةَ ، وَأنْفقوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وعَلاَنِيَةً ، وَيَدْرَءُونَ بالحَسنَةِ السَّيِّئَةَ :

أولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدن يَدْخُلُونها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِمْ ، والمَلاَئِكَةُ يدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ من كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار »

وقوله سبحانه فى سورة آل عمران ٣/١٩٠ — ١٩٥ :

« إنْ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولِى الألبابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِهِمْ، وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ :

رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذَا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ *

رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا للظَّالِمِينَ مِنْ أَنصار *

رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِى لِلإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ،

رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا ، وكَفِّرْ عنَّا سَيِّئاتِنا ، وتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ *

رَبَّنا وآتِنا مَا وعَدتنا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنا يَوْمَ القِيامَةِ ، إنَّكَ لا تُخْلِفُ المِيعادَ *

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ . . . » .

وقوله تعالى فى سورة الزمر ٣٩ / ١٧ — ١٨ :

« والَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ، وَأَنابُوا إلى اللهِ : لَهُمُ البُشْرَى ؛ فبَشِّرْ عِبادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ هداهُمُ اللهُ ، وأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الألبابِ » .

وقوله سبحانه فى سورة ص ٣٨ / ٢٩ لخاتم رسله عليه الصلاة والسلام :

« ومَا خَلَقْنا السَّماءَ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُما باطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ » .

وقوله سبحانه فى سورة البقرة ٢ الآية ١٩٧ :

« . . . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ » .

قال صاحبى : إنه الحق ؛ من الله الحق ، على خاتم رسله بالحق :

الآن أذعنت ؛ وأيقنت . . .

وليشرح الله العليم الحكيم : صدور العلماء ، والفلاسفة ، والمفكرين . .

وليوفق اللهُ الهادى : ربُّ العالمين : الدعاةَ ، والمصلحين . . .

أما أنا فكلىٌّ آذانٌ لك ، فخذنى معك ، وعلمنى مما علمك الله ؛ وحدثنى . .

وأستحلفك بالله : ألا تتركنى حتى تحدثنى . . . ياصاحبى : حدثنى . . .

عن الأوصاف الخلقية لعباد الله ، التى يجب أن نشيد عليها كل بنيان خُلقى ، والتى يجب أن يحاول تطبيقها خلقياً كلُّ مؤمن ، بل وكلُّ إنسان ..

ثم ؛ ومن هم عباد الرحمن ؟ ..

وما موقف الخليل إبراهيم عليه السلام من العلم ، والحكمة ، والتزكية ؟ ..

ألم يقدم تعليم الكتاب أولا ، ثم المعرفة ثانيا ، ثم الخلق ثالثاً . . .

عند دعائه بالأمة المسلمة ، وللأمة المسلمة ؟ ! .

قلت لصاحبى : أستغفر الله : كلنا من الله ، وكلنا لله ، وكلنا إلى الله ، وهو وحده الموفق والمستعان : أنزل القرآن ، وقال فى آخر سورة يوسف ١٢/١١١ :

« لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، وَلَكِنْ : تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

فإلى « الدين والمعرفة » ، إلى القصص والعبرة ، إلى التفصيل والهدى إلى الإيمان والرحمة .

ولكنى سأعجل لك فى إيجاز ما تريد ...

الأوصاف الخلقية لعباد الله :

يا صاحبى : إن الأوصاف الخلقية لعباد الله ؛ هى كل آية فى كتاب الله وكل سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفصيلها المفصّل الآن ، هو أن تتلو بقلبك ووجدانك وفطرتك ما تستطيع من القرآن ...

ولم تصل هذه الأوصاف الخلقية القرآنية إلى كمالها الأكمل وتمامها الأتم ؛ إلا فى محمد صلى الله عليه وسلم: الذى أطلق الله عليه لفظ عبده ، بدون ذكر اسمه فى أرقى مراقى التشريف والتفرد والعظمة ؛ فقال سبحانه :

« سُبْحَانَ الذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً من المسجد الحرام إلى المسجدِ الأقصى الذى باركنا حوله . . » . (أول سورة الإسراء ١٧) .

« فأَوْحَى إلى عبده ما أَوْحَى * مَا كَذَبَ الفُؤَادُ ما رأى * أفتمارونه على ما يرى ؟ » . (سورة النجم ٥٣ / ١٠ — ١٢) .

« الحمد لله الذى أنزل علَى عَبدِهِ الكتابَ... » . (أول سورة الكهف ١٨) .

وهو صلى الله عليه وسلم: الذى قالت عنه أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها لما سئلت عن خلقه ؛ قالت : « كان خلقه القرآن » .

وهو الذى قال له رب العزة : فى سورة الأنعام ٦ / ١٦٣ :

قلْ : إنَّ صلاتى، ونُسُكى، ومحيايَ، ومماتى ؛ للهِ رب العالمين لا شريك له، وبذلك أُمِرْتُ، وأنا أولُ المسلمين » .

عباد الرحمٰن :

أما عباد الرحمٰن فى الأصل فهم الملائكة، لقوله تعالى عن المشركين :

« وَجَعَلوا المَلائكةَ الذين هم عباد الرحمٰن : إناثا أشَهِدوا خَلْقَهُم ؟ ستكتب شهادتهم ويُسألون» .(سورة الزخرف ١٩/٤٣).

وأما العابدون من بنى آدم فيمكن أن يصلوا إلى درجة الملائكة؛ إن تحققت فيهم الصفات الخلقية التالية، كما قال تعالى فى آخر سورة الفرقان:

« وعبادُ الرَّحمٰن : الذينَ يمشُونَ على الأرضِ هَوْناً ، وإذا خاطبهُمُ الجاهلونَ قالوا : سلاماً *

والذين يبيتونَ لربِّهم سجَّداً وقياماً *

والذين يقولونَ ربَّنا اصرِف عنَّا عذابَ جهنَّمَ إنَّ عذابها كان غَراماً * إنها ساءَتْ مُستقرّاً ومُقاماً *

والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفُوا ولم يَقتُرُوا وكانَ بينَ ذلك قَواماً

والّذينَ لا يدْعُونَ معَ اللهِ إلهًا آخرَ ولا يَقتلونَ النَّفسَ الَّتى حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ، وَلا يَزْنونَ ؛ وَمَنْ يَفعلْ ذلكَ يَلقَ أثاماً * يُضاعَفْ لهُ العذابُ يومَ القيامَةِ وَيخلُدْ فيهِ مُهاناً * إلاَّ مَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ عَملاً صالحاً، فأولَئكَ يُبدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهِمْ حسَناتٍ ، وكانَ اللهُ غفوراً رَحيماً * ومَنْ تابَ وَعملَ صالحاً فإنَّهُ يَتوبُ إلى اللهِ مَتاباً *

والذينَ لاَ يَشهدُونَ الزُّورَ ، وإذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِراماً *

والذينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهِمْ لمْ يَخِرُّوا عَليها صُمّاً وَعُمْياناً *

والذِينَ يَقولُونَ رَبَّنا هَبْ لنَا مِنْ أزْوَاجِنا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وَاجْعلنا للمُتَّقِينَ إماماً *

أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وسَلاَماً *

خَالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَراً ومُقاماً *

قُلْ : ما يَعْبأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلاَ دُعاؤُكُمْ ، فَقَدْ كذَّبتُمْ ؟ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاما » .

وتفصيل هذا خُلُقياً يحتاج إلى كتاب ، بل كتب . . .

* * *

وفى القرآن : جوامع الخُلق ، وركائز الخلق ، وأمهات الفضائل الخلقية : الإيجابية منها والسلبية ، وفيه النماذج الكاملة ، والمناهج التامة للآداب العامة . . . فى كل مجالات الحياة الدنيا ، وواقع المجتمع ؛ فى كل الحالات . . .

حتى الاستئناس من خارج البيوت والسلام على أهلها ،

والاستئذان فى داخل البيوت من أهلها على أهلها ،

والتفسح فى المجالس ، وآداب الطُّرق . والتجارة ، والزراعة والصناعة ، والعمل والأجر ، والنوم واليقظة ، والأكل والشرب ، والإعلام والحرب ، والاستعداد والإعداد للحرب ، وأخلاق المعركة للنصر فى الحرب . . .

جوامع الخلق الحميد من القرآن المجيد :

ومن جوامع الخلق فى القرآن ؛ مايمكن فهمه ، من مثل قوله : جل شأنه :

« يا أيُّها الّذينَ آمَنوا أوْفُوا بالعقُود . . . » . (سورة المائدة ٥/١) .

« .. وَأوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً » . (الإسراء ١٧/٣٤) .

« ...وَيُؤْثِرُونَ عَلى أنفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » (الحشر ٥٩/٩) .

وقوله تبارك اسمه : « ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » .

(سورتى الحشر ٥٩/٩ ، التغابن ٦٤/١٦) .

وقوله سبحانه : « كُنتُم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ : تأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ ، وتَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ ، وتُؤمِنونَ بالله ... » .

(سورة آل عمران ٣/١١٠) .

وقوله سبحانه : « وَالعَصْرِ * إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إلاَّ الذينَ آمَنُوا وَعمِلوا الصَّالِحاتِ وتَوَاصَوْا بالحَقِّ وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ » .

(سورة العصر ١٠٣) .

وقوله : « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقوا ... » .

(سورة آل عمران ٣/١٠٣) .

ومنه : « خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِض عَنِ الجاهِلِينَ » .

(سورة الأعراف ٧/١٩٩) .

ومنه : « وَلَوْ أن أهْلَ القُرى آمنوا واتَّقوا لَفتَحْنا عليْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرْضِ ... » . (سورة الأعراف ٧/٩٦) .

ومنه : « ..وتَعاوَنُوا عَلَى البِرّ والتَّقْوى ولا تعاوَنُوا عَلَى الإثمِ والعُدْوَانِ .. »

(سورة المائدة ٥/٢) .

ومنه : « لا إكْرَاهَ فى الدِّينِ قدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ منَ الغَيِّ ... » .

(سورة البقرة ٢/٢٥٦) .

الركائز الخلقية :

ثم إن من الركائز الخلقية : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى والإخلاص ، والصدق ، والأمانة ...

ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ ، وَالإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ ، وَالمُنكَرِ وَالبَغْيِ ». (النحل ١٦/٩٠).

كما ينهى عن الكذب ، والنفاق ، والغش ، والخداع ...والغى ...

ومنه : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ». (النساء ٤/٥٨) .

أمهات الفضائل :

ومن أمهات الفضائل : الرحمة والحياء ، والحلم والإباء ، والإنفاق فى السراء والضراء ، والإصلاح بين الناس ، والأخذ بيد الضعفاء ، والبر وفعل الخير فى الجهر وفى السر ...والبذل والتضحية والفداء ، والمشاركة والمساواة والإخاء ...

ثم ؛ والبعد عن : الغل ، والحقد ، والحسد ، وعن الغيبة ، والنميمة وما يضر البلد . . وعن بخس الناس أشياءهم ؛ أو تطفيف الكيل والميزان إذا اشترى منهم ، أو خسران الكيل والميزان إذا باع لهم ... وعن كل شر وضرر وانحراف ، وترف وميوعة وإسراف . . .

كل هذا وغيره أكثر وأكبر من خلق الإسلام ؛ كصلة الأرحام ، ورعاية الأيتام ، وإفشاء السلام ، والترابط ، والألفة ، والتسامح ، والمحبة ، وإغاثة المنكوبين ، وإعانة المحتاجين ، وتوفية الأجر للعاملين ، وتكريم المجاهدين ، وإعداد كل القوى المادية والمعنوية والفكرية لصد المعتدين ...

ولعلك يا صاحبى تستطيع : أن تجمع من العناوين : ما يملأ الكثير من الدواوين . . . وأن تكتب تحت كل كلمة أو عنوان ، من آيات القرآن ، وسنة رحمة العالمين : ما يملأ الكتب والرسائل والدواوين .. .

قال صاحبى : نعم : بل ويستطيع كل إنسان ، إذا تزود بالتقوى وبالإيمان وتسلح بالعلم عن بصيرة وعلى إيمان ، وابتعد عن المزالق ونزغات الشيطان . . .

وأرجو أن تكمل جميلك بالحديث عن خليل الرحمن ، وموقفه من ترتيب للعلم ، والحكمة ، والتزكية ؛ على تلاوة القرآن .

موقف الخليل إبراهيم عليه السلام من التعليم والتزكية :

قلت يا صاحبي : لقد وضح لنا بالحق ، أن الحق كل الحق ، إنما هو آيات الله الحق .. وأن أسرار الآيات المبثوثة فى الأكوان : لا تنفد ولا تحد ؛ وهى جميعا ضمن الأسرار المسطورة فى القرآن ، التى لا تحد ولا تنفد ...

وأن كلمات ربِّى القرآنية ، إنما هى الهدى والسعادة لجميع البشرية .. تهدى للتى هى أقوم ، وتقود للتى هى أحكم ، وتدفع للتى هى أعز وأكرم ... وما يعقلها إلا العالمون .

فهى الهدى ، والرحمة ، والبشرى ؛ والنصر ، والفلاح ... لقوم يؤمنون... أنزلها رب العزة ، على نبى الرحمة : تزكيةً ، وزيادةً ، وبركةً ...

تَزْكِيةٌ ، وتطهيراً : للإحساس ، والخُلق ، والنفس ..

زيادةً ، وتطهيراً : للادراك ، والتخطيط ، والعلم ..

بركةً ، وتطهيراً : للتنفيذ ، والعمل ، والحكم ..

ثم ، تِبياناً لكافة الأصول لكل شىء ، من معرفة ، وسعادة ، وخير..

ودفعاً قوياً لتحصيل كلّ التفاصيل لكل علم ، وفن ، وبِرٍّ ...

وانطلاقاً جاداً لتعليم كل ما لم نكن نعلم فى كل عصر ...

ثم أمراً حازماً لإعداد كلّ قوة تكسب الفلاح والنصر ...

لهذا كان الواجب الحتم على جميع عباد الله ، أن يبدءوا جميع انطلاقاتهم بتلاوة آيات الله ...

دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالأمة المسلمة ، وللأمة المسلمة :

وهكذا بدأ الذبيح إسماعيل مع أبيه خليل الرحمٰن ، الدعاء بأُمّةِ القرآن ، والدعاء لأمة القرآن ، بعد أن دعيا الله لنفسيهما عليهما السلام ، وهما يرفعان القواعد من بيت الله الحرام : أن يجعلهما الله مُسْلِمَيْنِ ، وأن يجعل من ذرية إسماعيل — التى هى ذرية إبراهيم أيضاً — أُمَّةَ الإسلام ، وأن يبعث فى هذه الأمة خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام .

ثم حدّدا المهامّ المنوطة ببنيّ الإسلام لأمة الإسلام ورتّباها ، وجاء ترتيبهما لهذه المهامّ المترتبة على تلاوة آيات الله كما يأتى :

أولا — تعليم الكتاب : تطهيراً ؛ للادراك ، والتخطيط ، والعلم .

ثانيا — تعليم الحكمة : تطهيراً ؛ للتنفيذ ، والعمل ، والحكم .

ثالثا — تعليم التزكية : تطهيراً ؛ للاحساس ، والخلق ، والنفس .

وهذا الذى نستطيع الإشارة إليه الآن ، من قول رب العزة فى سورة البقرة الآيات ١٢٧ و ١٢٨ و ١٢٩ :

« وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ : رَبَّنا تَقبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنا وَاجْعلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمةً لَكَ ، وأرِنَا مَنَاسِكنَا ، وَتُبْ عَلَيْنا ؛ إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ : يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ ، ويُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ ، والحِكْمَةَ ، ويُزَكِّيهِمْ ؛ إنَّكَ أنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ » .

والتزكية هى جماع : النماء ، والزيادة ، والبركة ، والطهارة . . . للأخلاق الفاضلة ، وأنواع السلوك الكاملة ؛ الظاهرة منها والباطنة . . .

فجعل إبراهيم الخليل ومعه ابنه إسماعيل عليهما السلام : الأساس ، والقاعدة للأمة المسلمة : تلاوةَ آياتِ الله ...

ثم جملا البنيان من فوق القاعدة ، والفوائد المترتبة هى : تعليم الكتاب ، وتعليم الحكمة ، والتزكية . . .

وقد يُلمح من هذا الترتيب : أنّ تزكيةَ الخُلُق مترتبةٌ على تعليم الكتاب والحكمة ، أو على الأقل تالية لهما ، أومعطوفة عليهما . . . مع أن الكل مترتب على تلاوة آيات الله . . وآيات الله القرآنية ، هى تمام الأخلاق للانسانية . .

* * *

أما الذى ذهب إليه جميع الفلاسفة : من أن الأخلاق مترتبة على المعرفة أو كما يزعمون : المعرفة أولاً ، والأخلاق ثانياً ، أو كما يدّعون : علم الأخلاق جزء من المعرفة — لا شأن لهم بتلاوة آيات الله — فهو الذى أوْدَى بالإنسانية . .

وقد أدّى هذا إلى كثيرٍ من الانفصالية بين الأخلاق ، وبين العلم ، والعمل والإنتاج . . . حتى أصبحنا نسمع فى كل مجالات الحياة ، والإدارة ، والعمل ، والإنتاج ، وحتى التوجيه والإرشاد ... مَن يقول عن فلانٍ مثلا : لنا علمه أو عمله أو إنتاجه . . وله خُلقه وسلوكه الشخصى . . وعلى هذا نصبوا الحساب والجزاء . .

وقد أدّى هذا بالإنسانية كلها الآن ، إلى أن تتراقص داخل فوهة البركان وأن تتلاعب فى خفةٍ ورعونةٍ على قرون الشيطان ...

فالعلم قد اندفع لإشعال الحرب ، والإنتاج قد توجّه لإثارة الرعب والتدبير قد تخصص فى التدمير ، فى حين بَعُد التفكير عن التعمير ، حتى أصبح الشعار : الاغتصاب ، والعدوان ، والدمار ... وعجزت عصبة الأمم ، وهيئة الأمم ، ومجلس الأمن ... عن معرفة معانى السلام والعدل والأمن ...

فضلاً . . عن استتباب أى شىء من هذا كله، فى أى وطن . . .

ويرجع هذا كله فى كل ما سبق ، إلى الانحراف عن الفضائل والخلق ، والبُعد عن تعاليم رب الفَلَق ، « الذى خَلَق ، خَلَق الإنسان من عَلَق » . والبعد بالعلم عن الذى « علَّم ، بالقلم : علَّم الإنسان ما لم يعلم » . . بالقلم وبغير القلم . . .

* * *

ترتيب المهام الأساسية للدعوة المحمدية :

ولقد استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء إبراهيم الخليل وابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام ؛ فجعل من ذريتهما الأمة المسلمة ، وبعث خاتم النبيين ورحمة العالمين محمداً صلى الله عليه وسلم فى هذه الأمة ، ومن هذه الأمة ، للناس كافة ، وإلى العالمين جميعاً ، وأنزل عليه آياته القرآنية يتلوها عليهم ، ليخرج الناس بها من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد ؛ كما قال له ربه فى آخر سورة الشورى ٤٢ / ٥٢ — ٥٣ :

«وكَذَلكَ أوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أمرِنا مَا كُنتَ تَدرِى ماالكتابُ ولاالإيمانُ وَلكنْ جعلناهُ نوراً نَهدى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِن عِبادِنَا ، وَإنَّكَ لَتهدِى إلى صِراطٍ مستقيمٍ * صراطِ اللهِ الذى لَهُ مَا فى السَّمواتِ ومَا فى الأرضِ ، ألاَ إلى اللهِ تصيرُ الأُمورُ» .

والصراط لا يستقيم فى أى أمر ، إلا على الخلق القويم .

ومع أن الله سبحانه استجاب لإبراهيم الخليل الدعاء لله ، وأقره سبحانه

على الأساس والقاعدة بتلاوة آيات الله ، وعلى جملة المهام المترتبة على الإسلام ، والمنوطة بنبي الإسلام ، لأمة الإسلام ...

فإنه سبحانه لفت إبراهيم الخليل ، كما لفت الإنسانية في كل زمان وقبيل إلى هذه المهام وترتيبها ، ثم زاد سبحانه عليها .. في ثلاثة مواضع من كتاب الله ، وكلها تؤكد : الخلق أولاً ، ثم تعليم الكتاب ثانياً ، ثم الحكمة ثالثاً ... ثم زاد رب العزة رابعاً .

١ — فقال سبحانه في سورة الجمعة ٦٢ في آيتها الثانية :

« هُوَ الذي بعَثَ في الأميين رَسُولاً منهم ، يتلُو عليهم آياته ، وَيُزَكيهم ، وَيعلمهُمُ الكتابَ ، والحِكمَةَ ... »

٢ — وفي سورة آل عمران ٣ الآية ١٦٤ قال رب العزة :

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنينَ ، إذْ بَعثَ فيهمْ رَسُولاً مِنْ أنفسهمْ : يتلو عليهم آياته ، ويُزكيهم ، ويعلمهم الكتابَ ، والحِكمَةَ ... »

٣ — أما في سورة البقرة نفسها — التي فيها دعاء الخليل إبراهيم — بعد إحدى وثلاثين آية فقط من هذا الدعاء ، فقد قال سبحانه في الآية ١٥١ ممتناً على المسلمين في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة :

« كَمَا أرْسَلْنَا فِيكم رَسُولاً مِنكم ، يتلُوعليكمْ آياتنا ، ويُزَكيكم ، ويعلمكمُ الكتابَ ، والحكمَةَ ، ويعلمكم مَا لمْ تكُونوا تعلمُونَ » .

ولعل في هذه الزيادة : « ويُعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » جماع التبيان ، والدفع ، والانطلاق ، والأمر ... التي أشرنا إليها فيما سبق ؟؟

وعلى هذا كله : كان الأساس هو الأخلاق ، الأخلاق ، الأخلاق ... لأنها هي وحدها أساس الأساس ، لكل انطلاق ، وصدق رسول الله

صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . .

فالخُلق أولاً : كنتيجة حتمية مخلصة لتلاوة آيات الله : تلاوة مخلصة . .

ثم العلم ثانياً : وكل ما يستتبعه من إدراك وتخطيط وغيرها ، يستمد من كتاب الله . .

ثم الحكمة ثالثاً : بكل ما تنطبق عليه من تنفيذ ، وعمل ، وحكم ، وغير ذلك ، من ذلك الكتاب ، كتاب الله .

ثم العمل رابعاً : بكل مايشمل من تبيان ، ودفع ، وانطلاق ، وأمر . . . على نور من كتاب الله وهُدًى من الرسول الأكرم ، صلى الله عليه وسلم . .

ثم الإنتاج ، والابتكار ، والإنشاء ، والتعمير ، وكل متطلبات الحياة ، والنظام ، والأمن ، لسعادة الفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، والدولة ، والأمة والوطن . . .

سواء أكان ذلك كله فى وقت الحرب ، أم فى وقت الإعداد للحرب ، أم فى وقت السلم . . فى كل شىء يقصر أو يطول . . ، فى الكثير وفى القليل ، وفى الجملة ، وفى التفصيل .

قال صاحبي : لقد فرجت كربى ، وجمعت أشتات لُبِّى ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال : . . فرج الله كربك ، وجمع أشتات لُبِّك . . .

وفجأة امتدت يداه نحوى ، وبسرعة كأنما أحاطتا بوجهى ، وقال بصوت لهيف انساب إلى قلبى ، ثم أخذ صوته يتزلزل ويرن وهو يقول :

ناشدتك : الله ، والوطن ، والحب . . . إلا حدَّثتنى عن علاقة الأخلاق بالحرب ، وكيف تتدخل الأخلاق وقت القتال والضرب ؛ والعمل فى القتال هو عمل الأسلحة ، والتخطيط ، والثبات ، وإلقاء الرعب . . ؟ !

قلت ياصاحبى : إن هذا الـكتاب إنما هو تأسيس القواعد ، ولا يتسع لتفصيل المقاصد ، وكل فقرة منه يمكن بسطها فى كتاب ؛ لأنها تعتمد على السنة المحمدية و « ذلك الـكتاب » ، الذى هو : تنزيل العزيز ، الحـكيم ، الوهاب . . .

ياصاحبى : ليس من غرضنا الآن : أن نفصل القول فى أخلاق الإنسان ؛ على اختلاف أحواله ، وتنوع أعماله ، وتعدد أفعاله وأقواله . . . فرداً كان أو أسرة ، مجتمعاً كان أو أمة . . . عالما أو متعلما ، مخططا أو منفذاً ، صانعاً أو عاملا ، مسالما أو مقاتلا . . . فى كل المجالات ، وعلى اختلاف المستويات ؛ لأن ذلك كله وغيره له من الأخلاقيات ، مايجب أن تمتلىء به كتب ومجلدات . . . مما صرحت به أو أشارت إليه آيات الله البينات . . .

ولـكنى سأشير إليك الآن ، إلى لبنةٍ فى أساس البنيان، مؤسسة على تأسيس القواعد من القرآن : تحت عنوان :

الأخلاق وعمل الخير : أقوى أسلحة الفلاح والنصر :

ياصاحبى : إن الأسلحة الحربية فى كل عصر ومصر : ليست إلا نتيجة لاكتشاف ظاهرة فى عنصر ، أو اكتشاف المادة نفسها أو العنصر . . . وليس من عمل الإنسان أبداً أو العلم ؛ إيجـاد مادة أو عنصر أو ظاهرة من العدم . . .

قال صاحبى : نعم . . . نعم . . هذا مما يُجمع عليه كل تفـكير أو فهم . .

قلت لصاحبى : وخالق المادة والعنصر والظاهرة : واحد أحدٌ ، فردٌ صمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفُواً أحد ، وهو العزيز القوى ، الحـكيم العلىّ . . .

قال صاحبي : نعم . . . نعم . . . وهو رب العالمين ، يقول للشيء كن فيكون . .

قلت لصاحبي : وهو وحده سبحانه القادر على أن يسلب من المادة خواصها، ومن العنصر مفعوله ، ومن الظاهرة استمرارها . . . !

قال صاحبي : نعم ياسيدى نعم ! وهو سبحانه الذى سلب من نار إبراهيم عليه السلام خاصية الإحراق ، وسلب من ماء موسى عليه السلام خاصية الإغراق وسلب من ريح عاد الإحياء والإبقاء على الأحياء . . وسلب من الحجر خاصية الإمساك فانبجس منه الماء . . . ! لكن ما شأن هذا كله بالأسلحة الحربية ، ومخترعات التدمير والإفناء ؟ ! . . .

قلت يا صاحبي : إن خالق المواد والعناصر والظواهر لكل الأسلحة الحربية ومخترعاتها ، هو وحده القادر على سلب خصائصها وآثارها ، إن شاء دمّرها أو دمدم عليها ، وإن شاء ردّها وبالاً ودماراً فى نحور المسكين بها . . . ومهما سبق الذين كفروا باختراع أو سرعة أو قوة ، فإنهم عاجزون أمام رب العزة والقوة ، ولا يعجزونه ، ولا يسبقونه . . .

يقول سبحانه : « ولاَ يَحْسَبَنَّ الذينَ كَفَرُوا سَبَقُوا : إنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ » . . .

وعقبها مباشرة يأمر رب العزة المؤمنين بقوله :

« وَأَعِدُّوا لهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِباطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ : عَدُوَّ اللهِ ، وَعَدُوَّكُمْ ، وآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعلَمُونَهُمْ اللهُ يَعلَمُهُمْ ...» . (سورة الأنفال ٨/٥٩ — ٦٠) .

فكيف يا صاحبي : يعتز أو يتقوى إنسان ، بما اكتشفه العلم أو الإنسان ؟ ولا يعتز أو يتقوى بخالق الكل، وخالق العلم ، وخالق الإنسان ؟ ! !.

وكيف يعتمد إنسان فى اكتساب النصر على مادة أو عنصر أو ظاهرة ، ظهر له بعض البعض من خواصها . . . ولا يستمد النصر كل النصر من خالق المادة والعنصر والظاهرة وهو وحده المحيط بكل أسرارها ، وإن شاء سلب كل خواصها ، أو أودع فيها غير ما نعرف من خواصها ، كما أودع فى نار الخليل عليه السلام : البرد والسلام على إبراهيم ، فقال لها سبحانه ؛ فكانت كما قال :

« . . . يا نارُ كُونى برداً وسَلاَماً علَىْ إبرَاهيم » .

وهنا أغمض صاحبي عينيه وأطرق فى خشوع وأخذ يردد : سبحان ربنا القوى ، سبحان ربنا القادر ، سبحان ربنا العزيز ، سبحان ربنا الناصر . . .

فقلت لصاحبي : أفق ، وتأمل : كيف أمر رب العزة المؤمنين بالجهاد ، بعد أن بيَّن سبحانه كيفية تطهير نفوس الناس من كل فساد ، ثم أمر المؤمنين بالإعداد والاستعداد ، بتطهير نفوسهم وأخلاقهم أولاً ؛ وفعل الخير والهُدَى والرشاد ، فقال سبحانه فى آخر سورة الحج ٢٢/٧٣ — ٧٨ :

« يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لَهُ : إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخلُقُوا ذُباباً ولَوْ اجْتَمَعُوا له ، وإنْ يَسْلبْهُمْ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَستَنْقِذُوه منهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطْلُوبُ * مَا قَدروا اللهَ حَقَّ قدْره إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ *

اللهُ يَصْطَفِى مِنَ المَلائِكةِ رُسُلاً ومِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * يَعلَمُ مَا بينَ أيدِيهِمْ ومَا خَلْفَهُمْ ؛ وإلَى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ *

يَا أَيُّها الذِينَ آمنُوا : اركَعُوا ، واسجُدوا ، واعبُدُوا رَبَّكُمْ وافعَلوا الخَيْرَ ، لعلكُمْ تُفلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجتَبَاكُمْ ومَا جَعَلَ علَيكُمْ فى الدِّينِ منْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبرَاهِيمَ هُوَ سمَّاكُمُ المُسْلمِينَ منْ قَبلُ ، وفى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا علَيكُمْ وتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ واعتَصِمُوا باللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصِيرُ » .

قال صاحبى : الله أكبر . . هذا هو النصر الأكبر .

قلت لصاحبى : النصر الأكبر فى « بدر » ، وقد خطط رب العزة لهذه المعركة الفاصلة وأدار النصر فيها على كلمات ثلاث ، توجيها لكل المؤمنين : المحاربين والعسكريين ، وكلمات النصر فى « بدر » وزع رب العزة أعمالها ، فاختص سبحانه بعامل النصر الأكبر ، وأمر ملائكته بعمل وهو معهم ، وأمر المؤمنين بالثالثة ، وثلاثتها : ثباتٌ ، ورُعبٌ ، وضَرْب .

ومن عجب أن يكون الأمر الإلهى بالضرب للإجهاز ، أو للتعجيز :

للإجهاز على العدو ، بضرب الرأس والعنق :

أو للتعجيز بتقطيع الأصابع والأيدى والأرجل . . . إذا لم يتمكن المؤمن من الإجهاز على العدو . . .

وفى هذا يقول رب العزة فى سورة الأنفال ٨ فى الآية ١٢ عن النصر الأكبر فى بدر :

« إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى المَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ،

«سَأُلقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ، وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ».

ثمّ يا صاحبى : ولقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم « بدر » فى المجاهدين ، وأصدر إليهم الأوامر : الأوامر الأخلاقية التى هى أقوى أسلحة النصر ...

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أمّا بعدُ ، فإنِّى أحُثُّكُمْ على ما حَثَّكم اللهُ عليهِ ، وأنهاكم عمّا نهاكُمْ عنهُ .

فإنّ الله عظيمٌ شأنه ، يأمرُ بالحقّ ، ويُحِبُّ الصّدق ، ويُعطِى على الخيْرِ أهلَهُ ، على منازِلهم عنده ، به يُذْكرون ، وبه يتفاضَلون .

وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحقّ : لا يقبلُ اللهُ فيه من أحدٍ إلاَّ ما ابتغَى به وجهَه .

وإن الصّبْر فى مَواطِن البأس . مما يفرِّج اللهُ به الهمَّ ، ويُنجِّى به من الغمّ ، وتدركُونَ النّجَاةَ فى الآخرة .

فيكم نَبِيُّ الله : يُحذِّرُكم ، ويأمُرُكُمْ .

فاستَحْيُوا اليوم أن يَطَّلِعَ اللهُ عزَّ وجلّ عَلَى شَىء مِن أمْرِكم يَمْقُتُكم عليه ، فإن الله يقول : « لَمَقْتُ الله أكبرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أنفسَكُم » .

انظُرُوا الذى أمركم به مِن كتابه ، وأراكم من آياته ، وأعزَّكم [به] بعد ذِلَّةٍ ، فاستَمْسِكوا به ، يَرْضَى به ربُّكم عنكم ، وأبلوا ربَّكم فى هذه المواطِنِ أمرًا تَستوجِبُوا الذى وَعدكم به من رحمته ومغفرته ، فإنَّ وَعْدَه

حَق ، وقولَ صِدْقٌ ، وعقابَ شديدٌ .

وإنّما أنا وأنتم بالله الحىِّ القيُّوم ، إليهِ ألجأنا ظُهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، وإليه المصيرُ ، يغفرُ الله لِى وللمسلمين » .

(المقريزى فى « إمتاع الأسماع » ج ١ صفحة ٨١)

قال صاحبى : أمدك الله بمدده ، وأسبغ عليك نعمه . . .

وصدق الله ،وصدق رسول الله، وما النصر إلا من عند الله ...

ولكن ، هل طبّق هذا عمليا صحابة رسول الله رضى الله عنهم ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ !

قلت يا صاحبى : هذه بعض الأوامر الإلهية ؛ للانتصارات الحربية ، لا بد من تطبيقها ، والعمل بها ، فى طول الأمة الإسلامية وعرضها ، للوصول سريعا إلى الانتصار ، واكتساب المعارك الحربية والعزة والفخار ، وكان أول المطبقين لها والملتزمين بكل تعاليمها ، هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويكفى الآن أن نشير بكل اعتزاز وثناء ، إلى بعض المواقف من الصحابة والخلفاء ، وبكلماتهم وحروفهم فهى النبراس والضياء . .

١ — خطب أبو بكر الصديق رضى الله عنه يندب الناس لفتح الشام ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« ألا إنّ لكل أمرٍ جوامع ، فمن بلغها فهى حَسْبُهُ ، ومَن عمِل لله كفاه الله ، عليكم بالجدِّ والقَصْد ، فإنّ القصدَ أبلغ .

ألاَ إنه لا دِين لأحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حِسْبَة له ، ولا عملَ لمن لا نِيَّة له .

ألا وإن فى كتاب الله من الثواب على الجهاد فى سبيل الله ، كما ينبغى للمسلم أن يحبّ أن يُخَصّ به ، هى التجارة التى دل الله عليها ، ونجّى بها من الخِزى وألحق بها الكرامة فى الدنيا والآخرة » .

(الطبرى ٤ / ٣٠ — جمهرة خطب العرب ١ / ٧٣) .

٢ — ووصّى الصديقُ أبو بكر : يزيد بن أبى سفيان وقد وجهه فاتحا ؛ فقال له فيما قال :

« إنى قد وليتُك : لأبلوَك، وأجرّبك، وأُخرّجكَ ، فإن أحسنت رددْتُك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك .

فعليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك ... »

(ابن الأثير ٢/١٩٦ — جمهرة ١/٧٧) .

٣ — وصّى عمر بن الخطاب : ابن أبى وقاص ، فقال له فيما قال :

« إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه ، لا يُخلّصُ منه إلا الحقُّ ؛ فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به ... »

(الطبرى ٤/٨٥ جمهرة ١/٩٢) .

٤ — وكتب عمر أوامر حربية إلى سعد بن أبى وقاص ، ومما كتب :

« أما بعد ، فإنى آمرك ومن معك من الأجناد : بتقوى الله على كل حال ؛ فإن تقوى الله أفضل العُدّة على العدوّ ، وأقوى المكيدة فى الحرب .

وآمرك ومن معك : أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم .

وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛

لأن عددنا ليس كعددهم .. ولا عُدَّتنا كعدَّتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا ، فى القوة ، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفَظةً من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله .

ولا تقولوا إن عدونا شرٌّ منا ، فلن يسلط علينا ؛ فرب قوم سلط عليهم شرٌّ منهم . . .

واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .. » . (العقد الفريد ١/٤٠ — جمهرة ١/٩٣) .

٥ — من خطبة النعمان بن مقرن من الصحابة الفاتحين — بين يدى يَزْدَجِرِ ملك الفرس قال النعمان فيما قال :

« إن الله رحمنا ، فأرسل إلينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ... » .

(الطبرى ٤/١٠٦ — ابن الأثير ٢/٢٧٧ — جمهرة ١/١١٤) .

٦ — وافى خالد بن الوليد جيوش المسلمين وقد اجتمعوا باليرموك لحرب الروم . . . فخطبهم خالد ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال فيما قال :

« إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ... » .

(الطبرى ٤/٣٣ — ابن الأثير ٢/٢٠٠ — جمهرة ١/١١٨) .

٧ — حضرت « الخنساء » حرب القادسية ، ومعها بنوها أربعة رجال ،

فقالت لهم : « يابَنىَّ أنتم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، ووالله الذى لا إله غيره ، إنكم لَبَنُو رَجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خُنتُ أباكم ، ولا فَضَحتُ خالكم ، ولا هَجَّنتُ حسبكم ، ولا غَيَّرتُ نسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم فى حرب الكافرين .

واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجلّ :

« ياأيها الذين آمنوا : اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فإذا أصبحتم غداً ، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين ، ولله على أعدائه مستنصرين » .

فانطلقوا إلى المعركة ثم قُتِلوا جميعا ، وبلغها الخبر ، فقالت :

« الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » .

(خزانة الأدب ١/٣٩٥ — جمهرة ١/١٢٠ — ١٢١) .

أفرأيت يا صاحبي الأخلاقَ وأعمال الخير ، أأنت ترى سلاحا يُدانيها للفلاح والنصر ؟. ثم ارجع ياصاحبى فى هذا الكتاب إلى صفحات ٨٩ — ٩١ واقرأ فقرة فى أول صفحة ٩١ قول مونتجومرى من خطبته أمام الجيش الثامن فى ٤ مارس سنة ١٩٥١م حيث يقول :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاق » ...

ثم تقدم يا صاحبي مع هذا الكتاب إلى الفلاح والنصر : الفصل الثالث من الباب الثالث ، وقف بين يدى عمر ، فى أوامره العسكرية ... أو إن شئت فقل فى أوامره العمرية الإسلامية . . وحَلِّل ، وقارن . . لترى بنفسك : أن كل ما انتصر به القواد من الغربيين ؛ ليس إلا الفُتات المتساقط من حول موائد القواد المسلمين ...

وهكذا كل ما انتصر به الغربيون ، مما غفل عنه أو أغفله العرب والمسلمون . . .

وهنا أطرق صاحبي فى ذهول وأنين ، فضممته، وربتُّ ،على كتفه باليمين ، وقلت له : اطمئن ، فقد هيأ الله الربَّان للسفين ، ولقد بدأنا نُرسى قواعد النصر المبين ، على الخلق الإسلامى المتين ، ونستمد من كتاب العزيز الناصر رب العالمين . . .

* • *

يا صاحبى : أما بعد . . .

فإلى تفصيلٍ مفصَّل بتوفيقٍ من الرحْمن ، فى كتابنا : « أصول الأخلاق من القرآن » . .

أما الآن ، فإلى قاعدة الأُساس الخامسة . . . إلى الفصل الخامس : «الدين والمعرفة » .

أسبغ الله علينا وعليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة .

الباب الثانى

الفصل الخامس

الدين والمعرفة

اتهام الدين بالصدّ عن المعرفة .

الدين الحق هو المصلح وحده لكل سلوك وعلم ومعرفة .

الإشارة إلى بعض الحلقات الدينية الأولى .

تذوق المعرفة كلها ؛ من : « وعلم آدم الأسماء كلها » .

إشارة إلى المعرفة كل المعرفة من كلام نوح عليه السلام .

لمحة عن الحضارة والمعرفة والقوة .

من قول رسول عاد إلى قومه .

ومن قول رسول ثمود إلى قومه .

الدين يرشد العلم والمعرفة والتخصص والابتكار .

الدين والمعرفة

اتهام الدين بالصدّ عن المعرفة :

إن أى إنسان ، مهما كان ، لا يستطيع أن يتهم أى دين من الأديان بصدّ أىّ إنسان عن الثقافة ، أو المعرفة أو العرفان . . . إلا إذا أطبق عليه العناد ، أو الزور ، أو البهتان .

ولا يستطيع إنسانٌ مّا ، أن يتهم ديناً مّا ، بالوقوف في وجه معرفةٍ مّا ، إلاّ إذا أصيب هذا الإنسان بالجهل أو بالغرور ، أو إلاّ إذا أصيبت هذه المعرفة بالفسق أو بالفجور ، أو إلا إذا أصيب هذا الدين أو المنتمون إليه بالتحريف ، أو بالتخريف ، أو بالقصور ...

ولكنه الكفر والإلحاد والغرور ، أو الجمود والركود والقصور ، أو التخلف والتواكل والتقصير ، أو الطغيان والاستعمار والفجور ، أو النفاق والدس والتخدير . . .

الدين الحق هو المصلح وحده ، لكل سلوك وعلم ومعرفة :

أما كل منصف عالم ، وكل متذوق فاهم ، وكل دارس هاضم . . فإنه لابد له من أن يدرك بداهةً وسريعاً وبكل صدق ، ولابد له من أن يحكم بداهة وسريعاً وبكل صواب وحق ؛ بأن « الدين الحق » هو كل المعرفة الحق وهو الدافع الأقوى لكل عِلم ومعرفة ، بل هو الدافع الوحيد إلى التبّحر في كل علم ومعرفة ؛ بكل إخلاص واندفاع وعمق . .

وبأن الدين وحده ، هو الذى يُصلح إنسانية الإنسان ، التى يتميز بها عن كل خَلْقٍ وحيوان ، وهو الذى يعالج الإنسان كإنسان ، فى كل زمان

ومكان ، وفى كل مجتمع وأوان فى كل نواحى العلم ، و كل مجالات المعرفة،وعلى كل مستويات السلوك : للفرد ، والأسرة ، والمجتمع . والأمة ، والإنسانية . . .

لأن الذى خلق الإنسان بين هذه الأكوان ، هو الذى فطره على الدين وأنزل إليه الشرائع والأديان ، لتتحقق بها إنسانية الإنسان : سيادةً ، وأخوةً ، وعبودية :

سيادة بعلم ومعرفة .

وأخوة بترابطٍ ومحبة .

وعبودية بعبادة وعزة ؛ « ولله العزَّة ولرَسوله وللمؤمنين ، ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون » .

وعزة الإنسان فى علمه ومعرفته ، أو عزته بعلمه وثقافته ومعرفته:لا تكون إلا من خالقه الذى خلق له وسائل المعرفة ، وهيأ له سبلها جميعاً . . .

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » ، ولعل فى المقاييس السابقة مايفى ؛ وفى الإشارة إلى المفاتح العلمية السالفة ما يكفى ؛ لبيان موقف الدين جملة من الإنسان ومعرفة الإنسان . .

الإشارة إلى بعض الحلقات الدينية الأولى :

ولعله من الخير لنا أن نشير إلى بعض الحلقات الدينية السابقة ، وموقفها من العلم والمعرفة ، ليتأكد لكل ذى عقل وعلم ومعرفة ، أن الدين كل الدين ، وأن الدين كل دين ، وأن الحلقات الدينية كل حلقة ، إنما هى الكمال الأكمل للإنسان فى هذه الحلقة ، الكمال الأكمل لإنسانيته كلها : الفردية والاجتماعية ، العلمية والثقافية ، المدنية والعسكرية ، الجسمية والروحية ، الدنيوية والأخروية...

الذى يملأ جوانب الإنسان كله ، ويُسعد الإنسانَ كلـه بالأمن ، والأمان ، والإيمان .

تذوق المعرفة كلها من : « وعلم آدم الأسماء كلها » :

لا أريد أنْ أرجع بكم إلى المعرفة كلها ، فى قوله سبحانه : « وَعلَّم آدمَ الأسماء كلها » ، وإنما أريد أن أدفع بكم إلى تذوق المعرفة كلها ، التى زوّد الله بها آدم عليه السلام . . . لمّا أراد سبحانه أن يهبط « آدم » ومعه زوجه « حواء » إلى الأرض ، وكان لابدّ لهما من المعرفة .

والمعرفة الإنسانية للإنسان فى الأرض ، إنما تتركز حول ما يحفظ حياة الإنسان على الأرض ، وما يحافظ على بقاء جنس الإنسان فى الأرض . .

وكل معرفة ، وكل علم ، وكل فن ، وكل ثقافة للإنسان ، إنما تُستخدم فقط لحفظ الإنسان الفرد ، وجنس الإنسان فى الأرض ، وإسعاد الإنسان كفرد وجنس الإنسان كخليفة عن الله فى الأرض ، وتحقيق مطالب الإنسان وجنسه على الأرض بما تتطاول إليه الآن أعناق المفكرين ، من الغربيين وغير الغربيين ويجدُّون ويحاولون ويبحثون عن المطالب الأساسية أو الضرورية ؛ لحفظ حياة الإنسانية ، وهم يتخبطون ، ويتأرجحون بين ١٦ ، وما فوق الخمسين مطلباً ، ولا يزالون . . .

وكل هذا إنما يتركز فى أربعة أمور فقط لا يخرج عنها :

إشباع من جوع .
وكساءٌ من عُرى .
وريٌّ من ظمأ .
ومأوى أو مسكن من ضُحىً ؟ ..

لأن الأربعة القاتلة المفنية هى : الجوع ، والعرى ، والظمأ ، والضحى ..
والمعرفة كل المعرفة للإنسان فى الأرض هدفها الأول ، هو دفع هذه الغوائل القواتل ...

وهكذا يدفع ربُّ الدين « آدم » إلى المعرفة ، ويزوده بروح الكفاح والعمل ، والشقاء والتعب ، لدفع هذه الغوائل الأربع ، واتقاء أضرارها ...

كل هذا وغيره مما يطول ، كان فى الفترة التدريبية ، التى أسكن الله فيها آدم وزوجه الجنة ، ليُهَيِّأَهُ ليتولى مهام عمله فى الأرض ، قبل أن يُهبطه إلى الأرض : تكريما واجتباءً : للتعمير فى الأرض ، وتعليما واصطفاءً للسيادة على الأرض ، بالعلم والفطرة ، وقبولَ توبةٍ وهُدًى لإصلاح الأخطاء الآدمية ، بالرجوع الى الفطرة . مما هو مبسوط فى كتابنا : « العقيدة والفطرة » .

يقول الله فى سورة طه ٢٠/١١٦ — ١١٩ :

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ : إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى »

كل ذلك : فضلاً عما فى هذه « المعرفة » لآدم عليه السلام ، بواسطة : التعليم ، وإسكان الجنة ، والسكن إلى زوجه ، ووسوسة الشيطان . . .
من العداوة ، ومعرفتها ، والحذر منها ، وإصلاح أضرارها ، واتقاء أضرارها ...
ومن السكن ، والمودة ، والتعاون والرحمة . . واجتلاب خيراتها . .
مما هو مفصَّل فى كتابنا : « العقيدة الفطرة » . . .

إشارة إلى المعرفة كل المعرفة من كلام نوح عليه السلام :

ثم إذا ما انتقلنا إلى أبى البشر الثانى « نوح » عليه السلام ، وهو الحفيد الثامن من السلسلة الآدمية . . . الذى قال الله عنه لخاتم رسله :

« إنا أوْحَيْنا إليْكَ كما أوْحَيْنا إلى نوحٍ والنبيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

وقال عنه رب الإنسانية للإنسانية ، وهى أمة الدعوة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

« شَرَعَ لكُمْ منَ الدِّينِ ما وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً ، وَالذى أوْحَيْنا إلَيْكَ ؛ وَما وَصَّيْنا بهِ إبْراهِيمَ ، ومُوسى ، وَعِيسى ، أنْ أقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقوا فِيه ؛ كَبُرَ عَلى المشْرِكين ما تَدْعوهُمْ إليه . . »

نجد فى هذا الزمان المبكر ، وفى بواكير الدين : المعرفة كل المعرفة . .

نجد السحاب المدرار ، عقب الأمر بالاستغفار ، وطرق أبواب الواحد القهار . . . كما نجد الأموال ، والبنين ، والجنات ، والأنهار . . .

ونجد « الدين » فى أول نصوصه الأولى : يعتمد على المشاهدة ، والملاحظة والاستنباط ، والاستدلال ، فهو كما يعتمد على « الحس » فى أنقى تصوير :

يعتمد على « العلم » فى أرقى تفكير .

وفى الوقت ذاته يعتمد على « التخصصات » فى أغوار أعماقها ، وأبعاد آمادها . . .

فيهز فيما يَهُزُّ : تخصصات الاقتصاد ، والأجنة ، والزرع ، والرى والتطور ، والفلك ، والنبات ، والحيوان ، والجغرافيا ، والتخطيط ، وإصلاح الطرق والمواصلات . . .

هذا موقف « نوح » من قوم نوح ، فى سورة نوح ٧١ / ٥ — ٢٠ عليه السلام :

« قَالَ ربِّ إنى دَعَوْتُ قَوْمِى ليْلاً وَنهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِى إلاَّ فِرَاراً * وَإنِّى كلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لهُمْ جَعَلُوا أصابِعَهُمْ فى آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ، وَأصَرُّوا ، وَاسْتَكْبَرُوا استِكْباراً * ثمَّ إنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إنى أعْلَنْتُ لهُمْ ، وَأسْرَرْتُ لهُمْ إسْرَاراً * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً * ويُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ ، وَيَجْعَلْ لكُمْ أنْهَاراً * مالَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أطْوَاراً * ألَمْ تَرَوْا كيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا * وجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نوراً ، وجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً * وَاللهُ أنبَتَكُمْ منَ الأرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيها ويُخرِجُكُمْ إخرَاجاً * وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ بِسَاطًا * لتَسْلُكُوا مِنْها سُبُلاً فِجَاجاً »

هذا عن قوم « نوح » عليه السلام ؛ وهم فى أوائل الإنسانية .

لمحة عن الحضارة والمعرفة والقوة من قول رسول عاد لقومه :

« فأمَّا عادٌ فاسْتَكْبَرُوا فِى الأرض بِغَيْرِ الحقّ ، وقَالُوا مَنْ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أوَ لَمْ يَرَوْا أنَّ اللهَ الذى خَلَقَهُمْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وكانُوا بآياتِنَا يَجْحَدُونَ » .(سورة فصلت ٤١ / ١٥).

« أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي البِلَادِ » .(سورة الفجر ٨٩/٦ — ٨) .

وقوم «عاد» هؤلاء هم الذين تسلموا زمام الحضارة والمعرفة من قوم « نوح » وسلموها إلى قوم « ثمود » ، وهم الذين خاطبهم رسولهم بالمشاهدة ، والتعقل ، والعلم ، والقوة ؛ كما روى القرآن الحكيم :

« وَإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلا مُفْتَرُونَ ٭ يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلا تَعْقِلُونَ ؟ ٭ ويا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلى قُوَّتِكُمْ ، وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ » . (سورة هود ١١ / ٥٠ — ٥٢).

ومن قول رسول ثمود إلى قومه :

ثم يخاطب « صالحٌ » عليه السلام قومَ ثَمُودٍ بقوله : « واذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعدِ عادٍ ، وبَوَّأَكُم فِي الأَرْضِ ، تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً ، وتَنْحِتُونَ الجِبالَ بُيُوتاً ، فاذْكُرُوا آلاءَ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .(سوره الأعراف ٧ /٧٤).

ثم فلتنصت الإنسانية لتسمعَ بعضاً من حضارتها الأولى ، وطَرَفاً يسيراً من معارفها هناك ، يهديها الدين إليهما إلى اليوم ،وفى كل آن . . .

ولا بد من تصحيح الأخطاء التاريخية ، والأخطاء الحضارية ، والأخطاء العلمية ، ولن تُصحَّح إلا بالدين . . . وإلا بالقرآن كلام رب العالمين :

« كَذَّبَتْ عادٌ المُرْسَلِينَ * إذْ قَالَ لَهُمْ أخُوهُمْ هودٌ . ألاَ تتقون *
إنّى لكُمْ رسُولٌ أمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ * ومَا أسْألُكُمْ عليهِ مِنْ
أجْرٍ، إنْ أجْرِىَ إلاَّ عَلَى ربِّ العالمِينَ * أتبْنُونَ بِكلِّ رِيعٍ آيَةً
تَعْبَثُونَ ؟ * وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإذَا بَطَشْتُمْ
بَطَشْتُمْ جبَّارِينَ * فاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِى أمَدَّكُمْ بِمَا
تَعْلَمُون * أمَدَّكُمْ بِأنعامٍ وَبنِينَ * وجنَّاتٍ وعيُونٍ * إنِّى أخافُ
علَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *
قالُوا سوَاءٌ علَيْنا : أوَعَظْتَ أمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الوَاعِظِينَ *
إنْ هَذَا إلاَّ خُلُقُ الأوَّلِينَ * ومَا نَحْنُ بِمعَذَّبِينَ *
فكَذَّبُوهُ فأهْلَكْناهُمْ: إنَّ فِى ذَلِكَ لآيةً وَمَا كَانَ أكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ *
وإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العزِيزُ الرَّحِيمُ *
كَذَّبَتْ ثَمُودُ المرْسَلِينَ * إذْ قال لَهُمْ أخُوهُمْ صَالِحٌ : ألاَ تَتَّقُونَ *
إنى لَكم رسُولٌ أمِينٌ * فَاتَّقوا اللهَ وَأطِيعُونِ * وَمَا أسْألُكُمْ عليْهِ منْ
أجْرٍ إنْ أجْرِىَ إلاَّ عَلَى ربِّ العالمِينَ * أتُتْرَكُونَ فِى ما هَهُنَا آمِنِينَ *
فِى جنَّاتٍ وَعيُونٍ * وزُرُوعٍ ونَخْلٍ طَلْعُها هَضِيمٌ * وتَنْحِتونَ مِنَ
الجبالِ بيُوتاً فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأطِيعُونِ * ولاَ تُطِيعُوا أمْرَ
المُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدونَ فِى الأرْضِ ولاَ يُصْلِحُونَ *
قَالُوا إنَّما أنْتَ مِنَ المُسَحَّرِينَ * ما أنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا . . . » .
(سورة الشعراء ٢٦ / ١٢٣ — ١٥٤)

الدين يرشد العلم والمعرفة والتخصص والابتكار :

هذا هو الدين فى بواكيره إلى الإنسانية : يدفعها أقوى دفع ، وأكرم دفع ، وأعمق دفع ... إلى المعرفة كل المعرفة ؛

على أدق ما تعرف الإنسانية اليوم من « نظرية المعرفة » ؛

وعلى أعمق وأصدق ما يجب أن تصل إليه الإنسانية وتعرفه عن المعرفة ...

وفوق هذا كله ، فهناك « الاستبصار » الذى يدفع الله به الإنسانية كلها إلى قيام الساعة ، بأن تستبصر ما كان عليه هؤلاء من استبصار ...

والدين يرشد العلم والمعرفة والتخصص والابتكار : إلى اكتشاف الآثار والأحفار والأغوار .. ويدفع الى اكتشاف بعض ما فيها من أسرار وأسرار .

« وَعَاداً وثَمُودًا ، وقَدْ تبَيَّنَ لكُمْ مِنْ مَساكِنِهمْ ، وزَيَّنَ لهُمْ الشَّيْطَانُ أعْمَالَهمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وكانُوا مُسْتبصِرِينَ » .

(سورة العنكبوت ٢٩/٣٨) .

وهكذا توالت الحلقات الدينية ، تدفع الإنسانية ، وتهدى البشرية ...

ولعل فى هذا بعض ما فيه الغَناء الآن ...

أما «أصول المعرفة من القرآن» ، وأما « أنواع المعرفة من القرآن » ، وأما « مفاتح العلم من القرآن » ، وأما « الحضارات الأولى من القرآن » .. فلها مطوَّلات فى غير هذا المكان .

والله وحده هو الموفّق والمستعان .

الباب الثانى

الفصل السادس

الإنسان والحضارة

الإنسان على الأرض : تاريخا وحضارة .

الإنسان سيد الكائنات الأرضية .

إشارة سريعة إلى آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس .

حضارة المواد الأرضية .

محاولات علمية حول الذرة والمادة .

العلم كل العلم من القرآن ؟ .

علوم الذرة قديما وحديثا .

رد الحضارة المادية إلى أصولها الإنسانية .

جنون التسلح العالمى ومن أقوالهم .

العلاج من القرآن .

أين حضارة الإنسان ؟ .

الاستخراب اللغوى وتعليم اللغات .

الحضارة الإنسانية الصحيحة .

عجز الإنسان عن صنع الحضارة للإنسان .

الحضارة الحقة للإنسان من القرآن .

الإنسان والحضارة

الإنسان على الأرض تاريخاً وحضارة :

لئن كان « التاريخ » — فى الكثير الغالب — من صُنْع الإنسان . . .

فإن « الحضارة » — فى الأكثر الأغلب — من بدْع الإنسان . . .

ولكنْ أىُّ « تاريخ » ؟ ، وأية « حضارة » يا تُرى يكونان من عمل الإنسان ؟ !

إنه « تاريخ » الأسرة الإنسانية فى الأرض ،

وإنها « حضارة » المواد الجمادية على الأرض ..

ومن الأرض يابسة ومنها ماء ، وفى الأرض أحياء وفيها غير أحياء وعلى الأرض زينة وعليها بلاء ، وحول الأرض أبخرة وحولها هواء ؛ ومن كل ملايين الأنواع ، ولكل نوع مالا يُعدّ ولا يحصى من الأفراد والذرات والأتباع ..

وفى كل شيء : من آيات الله ما يؤكد : الخلق ، والاختراع ... ودليل على أنه سبحانه المتفرد بالإنشاء ، والإبداع .

كل ذلك : فضلاً عما لا يصل إليه علمنا من أكوان ، وما يعجز عن إدراكه كل إنسان .

الإنسان سيد الكائنات الأرضية :

والإنسان من كائنات الأرض ، ولكنه سيدها ، والإنسان من عناصر الأرض ، ولكنه أرشدها ؛ فتنساق إليه موادها ، وتتساوق معه عناصرها

وتتكشف له ظواهرها ، وتستبين أمامه خصائصها ... بمقدار ما يحصل من علم ؛ وما يتعمق من فهم ، وما يبذل من جهد ، وما يتقن من عمل ، فيحللها ويركبها ويجمعها ويفرقها ، ويكشفها ويخلخلها ، ويستغلها ويستثمرها ، ويسخرها ، ويفجرها ..

يبتكر من « المواد » ، ويخترع ويقنن « للعناصر » ، ويشترع ؛ فيقيم السدود ويحول الأنهار ، ويمهد الصحراء ويحيلها إلى عمار ، ويجفف البحيرات ويعذب ماء البحار ...

ثم هو يبنى الناطحات والآيات ، ويخترع الغواصات والنفاثات ، ويطلق الصواريخ وعابرات القارات ، ...

إشارة سريعة إلى آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس :

والإنسان إحدى آيات الله فى الأرض ، ولكنه الوحيد من كائنات الأرض ، الذى يحاول دائما ، بما أودع الله فيه من أسباب السيادة على الأرض: أن يتكشف كل ما على ظهر الأرض، وما فى باطن الأرض ، ثم يتطلع إلى ما فوق الأرض ، وما يحيط بالأرض ..

وهو يتطلع إلى الكواكب والسموات ، ويحاول التغلب على الشهب والمذنبات ، والوصول إلى الأقمار والنجوم والسيارات ، وقد يطمع قريبا فى تقحم المجرات .. بما فجَّرَ من ذرات وطاقات ...

وهو فى كل هذا وذاك ، إنما يقرأ من بعض « آيات » الحق :

«سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ، وفى أَنفُسِهِم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ...» ، (سورة فصلت ٤١/٥٣) .

اكتشف — مثلا — بعض منافع الحديد ، وما أنزل الله فيه من بأس

شديد ، فترقى الحديد فى يديه إلى ملايين الأضعاف أو يزيد ، وتكشف الإنسان من بأس الحديد : المغنطة ، والكهربة ، والسيوف ، والدروع ، والتروس ، والأماس .. وكأن العلم يقرأ كل يوم على الناس ؛ قول رب الناس : « . . . وأنزلنا الحديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناسِ ... » . (سورة الحديد ٥٧/٢٥) .

حضارة المواد الأرضية :

وهذه بعض حضارات الحديد ، ولنا فيها المزيد . . .

ولكثير من المواد الأخرى حضارات ، ومن بعض أمثلتها :

أنْ تحَضُّر « الخشبُ » من وتدٍ تُربط إليه النعاج ؛ إلى سارية تحمل « العَلَمَ » فوق الأبراج .

وتحَضُّر « الحجر » من قاعدةٍ لمرحاض ، أو جدار تجتمع إليه القذارة ، إلى قاعدة لنافورة ، أو نافذة فى برج ، أو رأس لتمثال أو منارة .

وتحضرت حبات الرمال من أكداس على الأرض تُداس ، إلى أكواب تشتهيها الشفاه ، أو قناديل ، أو أعداس ، أو قلائد ، أو مصابيح تنير للناس .

وتحضَّرت أكوام « العفن » فى الطين ، وأكداس « الفُطُر » فى التراب والمخلفات القذرات فى خزانات المخلفات أو المخمرات . . . من مصادر الأوبئة والأمراض ، إلى مركبات من « البنسلين » وعائلات من « الاستربيتوميسين » وفيتامينات ب ١٢ ، بل وأحدث أنواع الفيتامينات . . . وكلها تفوق جميع الأدوية ، وتعالج الكثير جداً من أنواع الأمراض .

وتحضُّر الحديد وبعض العناصر المعدنية ، من مواد أولية ، وركامات أرضية ، إلى مصورات ، ومصدّرات ، وإذاعات ، ومذيعات هوائية :

سمعية ، وبصرية …

ثم إلى رسامات للقلوب ، وآلات حاسبة بدل العقول ، بل إلى «عقول إلكترونية».

ثم تحضّر « اليورانيوم » وبعض العناصر المشعة والنظائر ، من أتربة أو حجارةٍ فى الأرض تدوسها الأقدام ، إلى طاقات مدمرةٍ ، بل مرعبة لجميع الأنام ، بتفجير بعض ذراتها إذا فقدت توازنها وأفلت الزمام.

والويل كل الويل للبشرية ، يوم أن تكتمل الحضارة المادية ، لبقية الأسلحة النووية ، وغير النووية ، يوم أن ينتهى الإنسان من «الانشطار النووى» «لليورانيوم» وأمثاله ونظائره ، إلى « الاندماج » النووى « للإيدروجين » الثانى أو الثقيل (الديوترونات) ، أو لأمثاله ونظائره … التى تزيد مدّتها وشدة تفجيرها ومداها ، عن « الانشطار النووى » بأكثر من خمسين ضعفاً وتتعداها ، إلى غير حدٍّ يقف عنده مداها .

محاولات علمية حول الذرة والمادة :

ثم … يحاول الإنسان اليوم أن يدخل الحضارة على المعادن الخسيسة ، لتتحول إلى معادن نفيسة ، لا بتحطيم الذرة واستخراج طاقاتها الكبرى ، بل بالمحافظة على الذرة وتحويلها إلى « ذرة » أخرى ، ويتم ذلك بإخراج « بروتون » واحد ، ومعه « إلكترون » واحد ، دفعة واحدة ، من ذرة واحدة ، فيهبط العدد الذرى للذرة ، ويتكون عنصر جديد من هذه الذرة ؛

لأن كل ذرة تتكون من « نواة » تحتوى على عدد من « البروتونات » الموجبة ، يحيط بها ويدور حولها — فى فضاء واسع بالنسبة لها — عدد من « الإلكترونات » السالبة ، يتساوى فى العدد مع عدد « البروتونات » ، وكثيراً

ما يوجد فى «النواة» عدد من «النيوترونات» المتعادلة ، ولا يزال العلم يكتشف من أسرار الذرة وجزئياتها . . .

لكن الذى ثبت معمليا الآن أن كل العناصر الأرضية — التى زادت على المائة — تتكون جميعاً من ذرات لا تفاوت بينها ، وإنما تتميز « العناصر » بتفاوت العدد الذرى فى كل ذرة .

و « العدد الذرى » هو عدد « البروتونات » فى الذرة الواحدة ، وهو هو عدد الإلكترونات فى كل ذرة على حدة ...

وتتميز « النظائر » بتفاوت « الوزن الذرى » وهو : مجموع البروتونات والنيوترونات فى الذرة الواحدة . .

وجميع الكائنات مكونة من ذرات ، والذرات متشابهات ، متساويات: فى الشكل وحجم المكونات ، وفى التركيب والمدارات : نواة فيها بروتونات ، وحولها بعددها إلكترونات ، سابحات فى مدارات ، ولا يزيد عدد المدارات عن سبع طبقات محيطات . . . كالشمس وحولها النجوم والسيارات ، أو كالأرض والسبع سماوات ، أو كبقية خلق الله وما فيه من ملكوتات . . .

العلم كل العلم من القرآن :

هذا هو الذى يقوله العلم الآن ، ولكن أين كل هذا العلم الحديث ، والحضارة الحديثة ، والفلسفة الحديثة . . . من قول خالق العناصر والمواد والأكوان ، الذى أنزله على رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم ، من أربعة عشر قرناً من الزمان ؟ ! .. فليتدبر العلم ، وليتدبر الإنسان ؛ قول العليم الخبير :

« تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي

خَلَقَ المَوْتَ وَالحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أيُّكُمْ أحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ * الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِباقًا مَّا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ ؛ فَارْجِعِ البَصَرَ : هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ؟! * ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ » .

(سورة الملك ٦٧/١ — ٤).

وقوله سبحانه فى سورة يونس ١٠/٦١ :

« ... وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ،

وَلاَ أصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أكْبَرَ إلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ »

فلا تفاوت فى خلق الله ، وأصغر من الذرة يحصيه الله .

علوم الذرة قديما وحديثا :

ثم إن العلم قد عرف الآن : أن « العدد الذرى » « للزئبق » هو ثمانون (٨٠) ، فى حين أن العدد الذرى « للذهب » هو تسعة وسبعون (٧٩) ؛ وعلى هذا يمكن تحويل « الزئبق » إلى « ذهب » ؛ بإخراج « بروتون » واحد ومعه « إلكترون » واحد من كل ذرة من ذرات « الزئبق » .

ولكن الحضارة الحديثة ، والفلسفة الحديثة ، رأت أن التكاليف باهظة ، وأن العملية مرهقة وغير مجدية . . .

ومن عجيب العجب : أن «الزئبق» الذى يمكن تحويله الآن إلى «ذهب» لولا التكاليف والإرهاق والتعب ، قد حوله بالفعل — من قديم — علماء العرب ، منذ قرابة أربعة عشر قرنا مضت من الزمان ، وحوله بالفعل « خالد بن يزيد بن معاوية » ، ثم « جابر بن حيان » ، وكانت هذه العمليات

تعرف « بالصنعة » ، وغايتها تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة ، وقد تركوا للعالم من بعدهم الكثير من المخطوطات المتناثرة فى أنحاء الدنيا ؛ وهى تدل على ذلك .

يقول الأستاذ الدكتور « على مطاوع » عميد كلية الطب بجامعة الأزهر ، فى بحث له عنوانه : « الذرة بين الماضى والحاضر » فى صفحة ٢ ما نصه :

« وقرأنا فى كتب الكيميائيين العرب وصفا لتركيب « الذرة » لا يختلف عما نعرفه اليوم :

ففى كتاب « تيسير الأرب فى زراعة الذهب » — وهو مخطوط بمكتبة دمشق — وصفٌ لتركيب الذرة فى أبيات من الشعر ، يبين فيها قائلها أن الذرة مكونة من نواة تدور حولها مكوكبات .

لقد كان علماء العرب فلاسفة ، وكانوا متصوفة ، ولعلهم وصلوا إلى ذلك استنتاجا بالقياس، وتطبيقا لقول الله تعالى: « ... فَهل يَنظرونَ إلا سُنة الأولينَ ، فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبديلاً ، ولن تجدَ لِسُنَّة الله تحويلاً » . [الآية ٤٣ من سورة فاطر ٣٥] .

ويقول فى صفحة ٨ ، ٩ : « لقد أثبت العلم أنه يُمكن تحويل العناصر بعضها إلى بعض بإضافة « النيوترونات » إلى « أنويتها » فى المفاعل الذرى » ، وتحقق لعلماء القرن العشرين ، ما كان ينادى به ويمارسه علماء العرب ، ومن قبلهم علماء مصر فى عهد الفراعنة . .

أما علماء العصر الحالى فقد تمكنوا من تحويل الزئبق إلى ذهب، وإن كانت تكاليفه تفوق قيمة الذهب الناتج ، ولكنهم آمنوا بعلم الأولين وبقدرتهم، وبقصور علمنا اليوم عنهم » ! ! .

* * *

ومع كل ما سبق كان الـكثيرون، ولا يزالون يتندّرون على علماء العرب «بالصنعة» والمعادن الخسيسة والنفيسة . . . ويحاولون أن يلصقوا — زوراً وبهتانا — على جدار الحضارة العربية ، كلَّ إعلان خبيث وكل نقيصة، عن « التفـكير » أو « الصنعة » أو المعادن النفيسة والخسيسة . . .

ومرّةً أخرى : لـكنه الاستعمار ، والدّس ، والطغيان ، والبهتان . . .

رد الحضارة المادية إلى أصولها الإنسانية :

وقد لا تتسع هنا الآن تحقيقاتنا العلمية ، لرد الحضارة المادية إلى أصولها الإنسانية ، من يوم أن أهبط الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام، ليتولى مع بَنيه مهام «الخلافة» فى الأرض... ولإبراز ما ارسى قوم نوح من حضارة وعمران ، وما أسس أصحاب « الحِجْر » و « الأحقاف » من ثمود وعاد وفرعون ذى الأوتاد ، وما بلغوا من حضارة مادية ، تهزُّ — على القرون — كل الإنسانية وما قدّم للحضارة « يعرب بن قحطان » وقارون وفرعون وهامان ، وخالد وتلاميذه ، وبنُو حيّان ، وغير بنى حيان . . وموعدنا بتوفيقٍ من الرحمٰن فى « الحضارة المادية من القرآن » .

قال صاحبي : هذا هو الرشد العلمى ، وهذا هو الرشاد ؛ نعم هذه الحضارة هى حضارة للمواد ، إنها حضارات للجماد ، وليست من بدعْ إنسان اليوم إنها حضارات تُعادُ أو تُستفاد ، إنها من قوم عادٍ ومن قبل عاد . . . ولكنهم يقولون : إن هذا اللون من الحضارة يمد الإنسان بالرّفاهة والإسعاد ، وهو جزء من حضارة الإنسان ، ودليلٌ على تقدم الإنسان ؟ . . .

قلت لصاحبي : لعلنا فى حاجةٍ ماسةٍ إلى تعميق مفهوم الإنسان ، وكأن واحداً من هؤلاء الذين يقولون ذلك ، لم يفهم معنى الإنسان . . .

نعم ، يمكن أن تنفع هذه الحضارات الإنسان إذا اتجهت إلى خير الإنسانية في الإنسان ، وعملت متعاونة على إسعاد « الإنسان » ورفاهية الإنسان ، بعد أن تفرغ من تثبيت الإنسانية في الإنسان ، على أصولها الحقيقية من الأمن والاستقرار والأمان . . .

جنون التسلح العالمي ومن أقوالهم :

ياصاحبي : قل لهؤلاء إن جنون التسلح العالمي أحرق في كل إنسان إنسانيته وسعادته من يوم أن أحرقت القنبلتان في « هيروشيما » و « ناجاساكي » إنسان اليابان وأمنه وهناءته ، فضلا عما أفسدتا من برٍّ وبحر ، وزرع ، وضرع ، وخير وبِر . . . والإنسانية تصرخ منادية بالطعام . . . وها هو « أنشتاين » نفسه ، صاحب نظرية « النسبية التي قدمت الأساس النظري للأعمال النووية جميعاً ، والممهد الأكبر لهذه الحضارة يصرخ في سنة ١٣٦٦ هـ . (١٩٤٦ م) بعد شهور من إطلاق هاتين القنبلتين : « إن رصاص البنادق يقتل الرجال ، ولكن القنابل الذرية تقتل المدن .. : إن الدبابة أداة دفاع ضد الرصاص ، ولكن العلم لم يعرف بعد وسيلة للدفاع ضد السلاح الذي يستطيع أن يدمر الحضارة .. إن دفاعنا ليس في التسلح ، ولا في العلم ، ولا في الاحتماء بالمخابىء تحت الأرض ! بل في القانون والنظام » . ! !

وليت « أنشتاين » تذوق شيئا من الإسلام ، وليته قرأ شيئا من القرآن ، إذاً لقال معنا : « إن دفاعنا الحقيقي ليس إلا في القرآن من القرآن ، وليس إلا من الإسلام وفي الإسلام ، ولن يعمَّ السلامُ جميعَ العالم إلاّ بالإسلام » .

قل لهم ياصاحبي : ارجعوا إلى ما قبيل عشر سنوات خلت ، وأنصتوا إلى شرفات الأمم المتحدة وما حوت ، وميزوا الأصوات فيها يوم ٢٣ من شهر

جمادى الأولى سنة ١٣٧٧ هـ (١٥ يناير سنة ١٩٥٨ م) ، اتشاهدوا الدكتور « لينوس باولنج » من كبار علماء أمريكا والعالم ، يقدم بيديه مذكرة علماء العالم ، إلى « داج همرشلد » سكرتير الأمم المتحدة ، ولتسمعوا صراخاً عالياً ومدوياً من عدد غفير من علماء العالم يبلغ عددهم ٩٢٣٥ عالماً من ٤٤ دولة ، منهم ٣٦ من حملة « جائزة نوبل » و ١٠١ هم أعضاء أكاديمية العلوم للولايات المتحدة الأمريكية ، و ٣٥١ « زميلا » فى الجمعية الملكية بلندن ، و ٢١٦ عضوا بأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى ، و ٥٣٥ من علماء الطبيعة بالهند . . . وغيرهم . . . وغيرهم . . .

والكل يردد فى نفس واحد ما نصه : « نحن العلماء الموقعين بأسمائنا أدناه : نطالب ملحين ، بأن يعقد الآن اتفاق دولى ، لوقف تجارب القنابل النووية فورا . إن كل تجربة من تجارب القنابل النووية ، تنشر عبئا زائداً من العناصر ذات النشاط الإشعاعى فوق كل مكان من العالم وكل قدر زائد من الإشعاع ، يسبب ضرراً لصحة الكائنات البشرية فى جميع أنحاء العالم ، ويسبب ضرراً لمركز « البلازما » البشرية ، من شأنه أن يؤدى إلى زيادة عدد الأطفال الذين يولدون بعيوب جسدية وعقلية جسيمة فى الأجيال المقبلة . . . إننا نشارك إخواننا فى الإنسانية حرصهم العميق على صالح الكائنات البشرية وخير المجتمع الإنسانى ، على أننا كعلماء نعرف الأخطار القائمة ، ومن ثم نحمل مسئولية خاصة لجعل هذه الأخطار معروفة . . . »

ثم قل لهم : إن الدكتور « باولنج » يختم كتابه : « الأسلحة النووية ومستقبل الإنسان » فى صفحة ٢٥٣ منه بقوله :

« لقد آن الأوان اليوم لكى تشغل الأخلاق مكانها الملائم فى توجيه

شئون العالم.. لقد حان الوقت لكى تخضع دول العالم لأحكام القانون الدولى العادلة».

وليت « باولنج » يتذوق شيئاً من الإسلام، وليته يقرأ شيئاً من القرآن! إذاً لقال معنا: « لقد آن الأوان لتشغل الأخلاق القرآنية مكانها الملائم فى توجيه شئون العالم، ولن يسعد العالم إلا بها ».

وإذ ذاك يكرر معنا: « لقد حان الوقت لكى تخضع دول العالم لأحكام القرآن، وقانون الإسلام، ولن يستقر السلام العالمى ويعم دول العالم إلا بهما ».

العلاج من القرآن:

يا صاحبى: قل لهؤلاء العشرة آلاف من العلماء الذين رفعوا المذكرة؛ ولعشرات الآلاف من العلماء الذين سبقوهم بالاحتجاج أو لحقوا بهم... قل لهم: ألستم أنتم الذين اخترعتم وأنتجتم؟! ألستم أنتم الذين صنعتم هذه الحضارة النووية فيما صنعتم؟؟ ألستم أنتم الذين تفجرون هذه الطاقات فى البر والبحر بأيديكم وبما قدمتم؟! ألستم أنتم الذين ظهر على أيديكم الفساد فى البر، وظهر الفساد فى البحر بما تجربون، وببعض ما كسبتم؟! ألستم تحاولون إلى الآن فصل « اليورانيوم ٢٣٥ » القابل للانشطار عن نظيره ٢٣٨ الأصم نهائياً وما استطعتم؟! ألستم تقدمون للتفجير « الخام الطبيعى لليورانيوم » فلا تتفجر منه إلا نسبة ٧ فى الألف (يورانيوم ٢٣٥) وهذا بعض ما عملتم وقدمتم؟! ألستم تحاولون بناء « الفخاخ المغناطيسية » وتتسابقون فى ابتكار أسلحة الدمار؟؟!، وما توقفتم؟!»... ألستم تستطيعون تحويل هذا كله لمرضاة الله بتعمير أرض الله، ولصالح الإنسانية وخيرها وسعادتها ورفاهيتها؟! إنكم إن فعلتم أحسن الله إليكم، ونجت الإنسانية على يديكم، ونجوتم...

وإلا فذوقوا تَقطُّعَ نفوسكم حسراتٍ على ما قطَّعتم من أرحام الإنسانية وأفنيتم ! . . . وإلا فذوقوا تدمير إنسانيتكم جمراتٍ على ما دمَّرتم من أقوات الإنسانية وخربتم !. لعلكم ترجعون إلى ربكم ، فترجعون إلى نفوسكم ، وترجع إليكم إنسانيتكم . . . وتوجهون هذه المجهودات الضخمة ، وهذه الطاقات الجبارة . . . إلى خير الإنسانية ومرضاة خالق السموات والأرض ؛ بلا إفساد في الأرض ، ولا فساد في البر والبحر ؛ وفسادهما يكون بخروجهما عن طبيعتهما ؛ فلا يمسكان بالحياة ، ولا يبقيان على الأحياء .

أيها العلماء : لقد أنذركم ربكم منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، لعلكم ترجعون . . أنذركم علناً ورسمياً في قرآنه الكريم ، الذي أنزله على خاتم رسله الأمين ، ولا يزال هذا الإنذار يدوى في سمع الزمان ، وسمع العالَمين والعالِمين إلى يوم الدين ؛ لعلهم يرجعون . . اسمعوا أيها الناس نص الإنذار الدائم للناس :

« ظَهَرَ الفسادُ فِي البرِّ والبحرِ بِماَ كَسبَتْ أَيْدى ِالناسِ ؛ ليُذِيقَهم بعض الذِى عَملوُا ؛ لعَلَّهمْ يرجعُونَ » . (من سورة الروم ٣٠/٤١) .

أين حضارة الإنسان :

قال صاحبي : نعم لقد آن الأوان لأن نرجع إلى الإنسان حضارته ؛ فليسمع العالمون . . .

ولكن ما رأيك فيما يقولون ، من أن حضارة الإنسان العربي تنحصر في تعليم اللغات ، والتزين بالماديات ، واقتناء الكماليات ، والتزِّي بزىِّ الغربيين ، والغربيات ، والتحرر في الكلام ، وفي الفنون ، وفي الشعر ، وفي الأفلام ، وفي الأقلام ... وتقليد الأجانب ؟ ! .

قلت لصاحبي : على مهل ، بلا عجل ... واحدة ، واحدة ، فليس في كل

ما تقوّلوا « حضارة إنسانية » ولا فى واحدة : بل إن شئت فقل : فيها جميعا « خسارة إنسانية » وفى كل واحدة ، فيها جميعا تفجيرات فاجرة دمرت كل إنسانىّ فى الحضارة الحاضرة .. وتحاول أن تدمر فى الإنسان إنسانيته ، وإيمانه ، وأخلاقه ، وأصالته ، وسيادته . . .

وكل واحدة من هذه التى ذكرت تحتاج إلى فصول وأبواب ، لا يتسع لها هذا الكتاب ، فراجعها إن شئت فى كتابنا : « الدعوة إلى سبيل الله ووسائلها » ، ولك أن تختار الآن واحدة منها لتناقشها ، ثم تنسج على منوالها . .

ولكن يجب أن تعلم أولا وقبل كل شىء بصفة إجمالية ، أن هذه جميعاً هى المدمرات الحضارية ، وهى التفجيرات النفسية الحقيقية ؛ وهى أقوى من كل التفجيرات المادية النووية ، لأنها تدمر فى الإنسان كل قيمة للروحية ، بل كل القيم الروحية ؛ وبهذه القيم فقط يتحقق معنى الإنسانية...

وفوق هذا فإنها جميعاً سموم استعمارية وصهيونية ، نفثها المستخربون فى دنيا العروبة والإسلام عن حقد وكراهية ، بل عن محاولة جبارة لإبادة القومية العربية ، والعزة الإسلامية .. وما العدوان الصهيونى القذر عنا ببعيد ، وما موقف أمريكا — التى تزعم الحضارة والإمارة — فى فيتنام برشيد . . .

ولا بدّ من أن تدور الدائرة قريبا على كل طغيان ، وتدور سريعا — بعزمة المؤمنين الأحرار — على كل دولة قامت على الاغتصاب والعدوان ، وتنمحى كل آثار الظلم والفجور ، وتتطهر الأرض من كل : فساد ، وإفساد ، وزور . .

قال صاحبى : قل ما شئت عن كل شىء ما عدا اللغات ، ولعلها لا تحتاج إلى كثير من المناقشات ، فإن سلمنا بتعليمها وتعميمها ، وجب أن نناقش أى شىء غيرها ... أما إن خفّت موازينها ، فقد تردّى كل شىء فى الهاوية من ورائها ،

ولا عليك منها ، فإني سأقوم عنك بوأدِها .

الاستخراب اللغوى :

قلت لصاحبي : يجب أن تعلم وتُعَلِّم الجميع أن من أخطر أنواع الاستخراب — وهو ما يسمونه « الاستعمار » — « الاستخراب اللغوى » ، وأقول : استخراب اللغة ؛ لأن اللغة هى ميزان الحضارة فى الأمة ، وهى مقياس تقدم الشعب والدولة ... ولهذا كان من أول أعمال المستعمر : أن يقضى على لغة البلاد ولسانها ، مع محاولة القضاء على يقينها وإيمانها وأخلاقها . . . سل الجزائر وتونس ... وسل كل دول جنوب أفريقيا ، وغرب أفريقيا ، وشمالها ، ثم سل دول آسيا المستعمرة . . . وسل الهند والسِّند وبلاداً تركب الأفيال ، وتروض الوحوش وتستأنس الأشبال ... حتى الأفيال وحتى الوحوش وحتى الأشبال : ركبوها وروضوها واستأنسوها بغير لغتهم ، وغير لغتها ، بل بلغة المستعمر وحروفها ورطانتها . . .

ثم سل الدول التى استقلت بعد الاستعمار ، كيف تعانى الأمرين من تغلغل لغة الاستعمار ، وما يتبع اللغة من كتب ، وأقلام ، وآراء ، وأفكار .

وأخرى : لماذا نعلِّم اللغات الأجنبية لكل المتعلمين ؛ وهم العُدة المرجوة للبلاد : وطليعة المثقفين ؟ : ألينتقلوا إلى البلاد الأجنبية غازين فاتحين مستعمرين ؟! أم ليشتغلوا أمام الأجانب هنا وهناك أدلاء وتراجمة ومترجمين ؟ ! . . .

أم ليكونوا فى أوطانهم مستغربين ؛ فيديروا دفاتها وأشرعتها بأيدى المستشرقين ، وعلى هوى الغربيين ؟ ؟ ! ! . . .

وثالثة : إن تحتيم تعلم اللغات الاجنبية وتعميمها ، يؤكد فى نفوس المتعلمين ضعف لغتهم وعجزها ، وبالتالى يثبت فى نفوسهم قصور أفكارهم وتقصيرها . .

ويهدم فى نفوس المتعلمين عزة أوطانهم، واستقلالها ؛ ويزق بالتالى فى نفوسهم قوة عروبتهم ، واستغناءها . . ويزلزل فى نفوس المتعلمين القيم الإسلامية ، وآثارها ، ويُحطم بالتالى فى نفوسهم كل المعانى الروحية ، وثمارها . . . لأن الذى لا يستطيع أن يَستقل فى لغته ، لا يمكن أن يستقل فى فكره ، ولا فى عروبته ، ولا فى دينه ، ولا فى خلقه ، ولا فى إنسانيته . . والذى لا يستطيع بالتالى أن يعتز أو يعزّ بلغته ، أو بلسانه ؛ فإنه لا يمكن أن يعزّ أو يعتز بشىء من هذا كله ، ولا بكيانه . . .

ولهذا نرى الكثيرين يُطَبِّلون ويزمرون لكل ما هو أجنبى . . .

ويتنقصُون ويهوِّنون من شأن كل ما هو عربى .

ورابعة : كم فى المائة من خريجى الجامعات يستطيعون الاحتفاظ بما يحفظون من لغات ، بعد تخرجهم بخمس سنوات ؟ إذا لم تضطرهم أعمالهم لهذه اللغات ؟ ! . وكم فى الألف من خريجى التعليم العام ، يحتفظون بما يحفظون من لغات بعد عام ؟ ! . وكم فى المليون من كل هؤلاء وهؤلاء ، يستطيع بعد عشر سنوات أن يقرأ جريدة بهذه اللغات ، أو أن يكتب بها موضوعا يُملى عليه ، أو أن يعمق كتاباً فنياً ألقى إليه ، أو أن يقرأ خطاباً بهذه اللغات ، أو أن يردّ عليه ؟ ، أيرضى الاقتصاد الوطنى وصالح البلاد أن ننفق الملايين على كل هؤلاء ؛ بلا فائدة ، وبلا ثمن ؟ !. .

وخامسة : كم من الوقت والجهد والفكر ينفق الطالب فى تعلم هذه اللغات ؟ ! وعلى حساب أى جهة ينفق كل هذه المجهودات ؟ ! أليس على حساب : لغته الأصلية ؟ ! وقوميته العربية ؟ ! وتربيته الوطنية ؟ ! وما يجب أن يحصِّل من المعارف الإنسانية ؟ ! والعوارف الدينية ؟ ! والتربية الاجتماعية

والأخلاقية ؟! ، ثم هى فى النهاية مجهودات ضائعة بلا ثمرة ، واستخرابات ضالعة تَستلُّ من كل طالب أصالته وفكره .

وسادسة : كم تبلغ الملايين من الجنيهات فى الميزانية ؛ لتعليم اللغات الأجنبية ؟! وعلى حساب أى باب من الانطلاقات الثورية ، والمشروعات التقدمية ، والإنشاءات الصناعية ؟! . . . أو من الدراسات الإشتراكية ، والتراثات العربية ، والمكونات الإسلامية ، والمقومات الدينية ؟! . . . خصوصا بعد أن انتهت « بالثورة الشعبية » الامتيازات الأجنبية ؛ التى كانت تفرض على كل مدرسة وكل كلية : أن يكون فيها « مستعمر أجنبى » أو أكثر ، باسم تعليم لغة أجنبية أو أكثر ! وهل يمكن التحرر نهائيا من أشخاصهم واستعمارهم ، إلا بعد التحرر نهائيا من ألسنتهم ولغاتهم ؟ ! .

لا تَقْطَعنْ ذَنبَ الأفعَى وتُرسلَها

إنْ كنتَ شهماً فأتبعْ رأسَها الذَّنبَا

وسابعة . . . وثامنة . . . وتاسعة . . الخ .

وهنا صاح صاحبى قائلا : كفى . . كفى . . كفكِفْ من ثورتك وحدّتك أليست لنا اتصالات خارجية ؟ أليست لنا مصالح فى البلاد الأجنبية ؟ أليست علينا واجبات نحو المسلمين والبلاد الإسلامية ؟ أليست اللغات هى المفتاح لكل هذا ، وللثقافات والحضارات العالمية ؟!

قلت لصاحبى : لابد هنا من الثورة ؛ لأننا نعيش ثورة ، ولأننا لا نعيش إلا بالثورة ؛ لنطهِّرَ الوطن العربى والفكر الإسلامى من الدخيل والأجنبى ، ثم لا بد لنا من الحزم والحدة ، لأننا من بناة الثورة ، والبناء الثورى لا يتم إلا على

أساس من العمق، والتطهير، والإخلاص، والحزم، والجدّة.

ياصاحبي: نعم لنا كل هـذا وأكثر، وعلينا كل ذاك وأكثر؛ لأن اتصالاتنا الخارجية تتسع وتتعدد، وتكاد تشمل العالم كله . . . ولأن مصالحنا فى البلاد الأجنبية تتشابك وتتزايد، وتكاد تشمل العالم كله... ولأن واجباتنا نحو المسلمين والبلاد الإسلامية تتضاعف وتتأكد، وتكاد تشمل العالم كله ...

ولكن ليس تعليم اللغات لكل أبنائنا المتعلمين، هو المفتاح لشىء من هذا أو ذاك:

وإلا لوجب أن نعلم جميع أبنائنا المتعلمين كل لغات العالم ... وهذا مستحيل ..

وإلا لوجب — من باب أولى — أن يتعلم رؤساء الدول ووزراؤها: جميع اللغات لجميع البلاد التى يزورونها، أو يتصلون بها، أو يتبادلون المصالح معها ... وهذا غير مجد ولا نافع؛ فوق أنه مستحيل.

ثم: كم يكسب الزعيم لنفسه ولأمته، إذا تكلم خارج وطنه بلغته وحافظ على قوميته؟ . . . وكم تتغنى الدنيا بالرئيس الذى يتمسك بدينه وبعروبته؟ ...

ياصاحبي: إن المفتاح الفاتح فى نظرى: هو بناء المواطن بناء قوياً متيناً فى وطنيته، وعروبته، وإيمانه، وأخلاقه، وثقافته، وإنسانيته ... فإن اكتمل فيه هذا البناء الصالح، صدّرناه إلى أى بلد، وفى أية مهمة؛ فيكون هو بنفسه المفتاح الفاتح ...

ولنا أن نشترط لكل «مهمة» اشتراطات بامتحانات؛ مثل: تاريخ البلد المرسل إليه وما فيه من تيارات، ومثل: تعميق «المهمة» المرسل إليها؛ وما قد يتفرع عنها من مهمات، ومثل معرفة لغة القوم الموفد إليهم، وما يتمسكون به من العادات ... وعلى الطالب أن يحصّل كل

المطلوبات ، وللدولة أن تخصص مدارس لتعليم جميع اللغات ، فى غير أوقات الدراسات . . . وللدولة أن تجرى ما ترى من اختبارات لمصلحة بعض الوظائف، أو الأعمال ، أو المهمات .

قال صاحبى : نعم . . . نعم . . . هذا صحيح . . وهذا واجب ، ولكن بقيت الخصيصة الكبرى لتعميم اللغات ، وهى الاطلاع على جميع الثقافات العالمية والحضارات ، وكل متعلم لا بد له من معرفة أحداث العالم الكبرى وما فيه من اتجاهات . . . والعالم أو الفيلسوف لا بد لهما من سرعة الاطلاع على كل ما يجدّ فى العلوم أو الفلسفات .

قلت لصاحبى : أوَ يكفى لهذا تعلّم لغة واحدة ؟ أم لغتين . ؟ ! أم سبع لغات ؟ ! أم لا بد من تعلم كل اللغات !؟ . . . وهنا يجب أن نكرر كثيراً كل ما فات فنقول : كم فى الألف يحتفظ بما تعلم من لغات ؟ وكم فى المليون يستطيع أن يقرأ بما تعلم فى أى تخصص من التخصصات ؟ وكم ، وكم ، وكم ؟ !!

كما يجب أن نذكر وسائل الإعلام العربية الآن والصحف والإذاعات ، بكل فخار وتقدير لما تقدم من المجهودات ، إنها تقدم كل يوم باللسان العربى أحداث العالم وما فيه من اتجاهات ، وأخبار وأنباء ونشرات عشرات المرات ، فيعرفها الجميع ويتصل بها الكل دون حاجة إلى لغات . .

وليتها تتولى عن المتخصصين ترجمة العلوم ، والثقافات ، والفنون ، والفلسفات !.

قال صاحبى : إنهم يقولون إن كل لغة من اللغات الكبرى ، تترجم سريعاً من كل اللغات ، فمن تعلم لغة منها اطلع سريعاً على ما يريد من ثقافات وعلوم وفلسفات ، واللغة العربية ليست من الكبريات .

قلت لصاحبى : ومتى كانت اللغة العربية من الصغريات ؟! أليست هى لغة

القرآن : الذى دوَّى ويدوِّى بلسان كل عربى ، وكل مسلم ، فى جميع الجهات ؟ أليست هى اللغة التى أنزل الله بها « كتابه » الخالد ما دامت الإنسانية والأرض والسمٰوات ؟ ! أليست هى أم اللغات فى أم القرى ؟ وأعمق اللغات فى جميع الورى ؟ ! ومَهْدُ اللغات لقوم « عاد » و « ثمود » ، الذين خلفوا « قوم نوح » فى هذا الوجود ؟ . . .

فهى إذن لغة « نوح » الحفيد ، ولغة « آدم » جد الجدود ، وهى أصل اللغات وأبقاها ، وأوسع اللغات وأرقاها ، وإليها كل اللغات تعود ، فوجب عليها ، بل حق لها أن تكون أكبر اللغات وعلى جميعها تسود ، خصوصاً ؛ أن بها وفيها القرآن المعجز لجميع العالمين ، والمتحدَّى بمثله الإنس والجن متعاونين متظاهرين، وإن أنكر ذلك غيرُ المؤمنين ، « فليأتُوا بحديثٍ مثله إن كانُوا صادِقِين » ؟ !

يا صاحبى : أو ليست اللغة العربية هى التى وسعت لغات العالم أيام « المنصور » و « الرشيد » و « المأمون » ؟ ! وإليها ترجمت كل العلوم والفلسفات والثقافات والفنون ؟ ! ، لم لا نعيد إذاً هذه الأيام رشيدةً مأمونة ، فنترجم إلى العربية من كل اللغات ، لنقرأ كل ما نريد بلسان عربى ، ونعلم أبناءنا كل ما نريد باللسان العربى ؟ ! . ومن يخيل إليه الوهم أن اللغة العربية تضيق عن أسماء الآلات والمخترعات ؛ فليسمع بلسان « العربية » على لسان « حافظ إبراهيم » شاعر النيل : من « قصيدته » التى قالها فى سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) منذ أكثر من ستين سنة مضت ، بعض أبيات متفرقات :

أنا البحر فى أحشائه الدُّرُّ كامِنٌ ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى
رَمَوْنى بِعقمٍ فى الشباب وليتنى ... عَقِمتُ فلم أجزع لقول عداتى
وسِعتُ كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضِقتُ عن آيٍ به وعِظات

فكيف أضيقُ اليوم عن وصفِ آلةٍ وتنسيق أسماء لمخترعات
أرى لرجال الغرب عِزاً ومَنْعَةً وكم عزَّ أقوامٌ بعزِّ لغات
أيطربكم مِن جانب الغرب ناعبٌ ينادى بِوأْدِى فى ربيع حَياتى ؟
أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهمُ ـ إلى لغةٍ لم تتصل بِرُواةِ ؟
سرتْ لوثةُ الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعى فى مسيلِ فُراتِ

يا صاحبى : ثم إن الذى يقتصر على لغة أو لغتين ، إنما ينظر إلى العالم كله بمنظار أصحابها ، وبوجهة نظرهم هم . . . فلابد لبناء حضارتنا من أن نسارع إلى تأهيل المترجمين المتخصصين فى الترجمة ، وأن ننشر هذه التخصصات على جميع اللغات ، وفى جميع الفروع والمعارف والتخصصات . . . لا بد من حركة نشيطة واسعة ورسمية ومسئولة . . . تقدم لنا تراث العالم كله صحيحاً دقيقاً عميقاً . . . لِنقيِّمه ونضعه فى المكان اللائق به من سلسلة التراث الإنسانى ، إن كان له تقييم أو مكان . . . وبهذا يتوافر للدولة الكثير من ملايين الجنيهات التى تتحملها الميزانية فى تعليم اللغات ، دون إضرار بأحد ، ودون تحمل أعباء جديدة مالية ، لأن الأساتذة والعلماء الذين يقومون بتدريس اللغات الأجنبية والإشراف عليها ، هم الذين يتولون أجهزة الترجمة جميعاً ، ويقومون بالإشراف عليها ، فتتحول أجهزة التدريس إلى أجهزة للترجمة ، وبهذا يقرأ كل عربى بلسان عربى ، كلَّ ما يريد من أى لسان أجنبى ، فضلاً عن إحياء التراث العربى ، وتقويم الفكر الأجنبى.

قال صاحبى : هذا يحتاج إلى زمن طويل ؛ وقد يطول . . . ؟

قلت لصاحبى : نحن فى ثورة ، والثورة الصحيحة البناءة ، لا يعترضها زمن ، ولا تقف فى سبيلها عقبات والهدف الرئيسى للثورة ، هو القضاء السريع

على الاستعمار كله ، ومن أخطر أنواع الاستعمار : « الاستعمار فى اللغة » . . .
فليسارع فوراً كبار الأساتذة والعلماء ممن يجيدون الترجمات ، القائمين فعلا بتدريس اللغات ، كل فى دائرة تخصصه وفى فرع تخصصه ؛ ليقدِّم على التوالى للمكتبة العربية ؛ باللسان العربى : كلّ ما يستطيع من ترجمات ، وتعليقات . . .

وإلاّ حُقّ للدولة أن تجندَ ، وأن تُفَرِّغ ، وأن تتابع . . . لنقضِىَ سريعة على الاستعمار اللغوى ، الثقافى منه والعلمى والفلسفى . . .

قال صاحبى : وما شأن الطلاب وتعليم اللغات الآن ؟ ! .

قلت لصاحبى : يجب أن يتعلموا بكل إخلاص وابتهاج ؛ نعم لابد من المواصلة والمثابرة ؛ حتى تتم الترجمة ، ويتغير المنهاج .

قال صاحبى : والبعثات إلى مختلف الجامعات ؟ ألا تحتاج إلى لغات ؟ !

قلت لصاحبى : إذا تمت ترجمة الأمهات ، وتلاحقت الترجمات ، فإنه لا يبقى هناك معنى للبعثات ؛ إلا للتمرينات على بعض العمليات . . . حتى نستكمل سريعاً كل ما نحتاج إليه من آلاتٍ ومُعدات ، وإلاّ للخبرات الخاصة . . . حتى نستكمل كل خبرة .

ثم إلى أن يتم ذلك ، وندعو الله أن يكون قريباً جداً : لا بدّ من أن تكون البعثات فى حدود الضرورة القصوى لها ، وفى الفروع والتخصصات التى لا نظير لها ، والتى لا يمكن الاستغناء عنها ؛ إذ لا يمكن لأى فرع أو تخصص أن يحل محلها .

ويجب أن تكون من المهمات الأصلية ، لجميع أفراد البعثات الخارجية : الترجمات الدقيقة العلمية ، لأمهات الأفكار العالمية ، فى جميع اللغات الأجنبية .

ثم إن الترجمة العلمية لها قواعد وضوابط ، وتخصصات وبرامج ، واشتراطات

ومناهج ، وتصنيفات ووظائف ، مثل أكبر التصنيفات والوظائف التى مهّد « خالد بن يزيد بن معاوية » لها ، وفتّح « المنصور » أبوابها ، وأرسى « الرشيد » قواعدها ، وأحكم « المأمون » بنيانها ، ورفع كثيراً من شأن القائمين عليها . . فحفظت اللغة العربية للإنسانية تراثها ، وأقامت — مع التراث الإسلامى — لأوربا نهضتها ، وجدتها . .

قال صاحبي : والبعثات الأزهرية ، للحصول على درجات علمية من الجامعات الأجنبية ؟ ! .

قلت لصاحبي : أمسك عليك عقلك ، واتّقِ الله ربك . . إن الأزهر هو القَوّام على التراث الإسلامى ، وإن شئت فقل : على التراثين : الدينى والعربى . . وهو المنبع الوحيد للروحية التى تسعد العالم كلّه .

ثمّ إن الأزهرَ يا صاحبى هو الكعبة العلمية ؛ لجميع العلوم الدينية ، ولجميع العلوم العربية ، لا يصح أن يعترف العالم كله بشهاداتٍ فيهما ؛ إلا منه . .

ولا يصح أن يرسل العالم كله بعثات للتخصص فيهما ، إلا إليه . .

والغربيون جميعاً يعترفون ... والمستشرقون جميعاً يشهدون . .

أما أن يُرسل « الأزهر » من أبنائه بعثات للحصول على درجات علمية أو تخصصات جامعية ، من أية جامعة أجنبية ، فى أى تخصص لأى المواد الإسلامية ، أو فى أى فرع من العلوم الدينية أو العربية . . فهذا تخريب مقصود ، وتدمير معهود ؛ من الاستعمار وأذناب الاستعمار ، عن حقد وضراوة ؛ وتدبير وإحكام للقتل العمد ؛ مع الترصد وسبق الإصرار . . .

وقد أعلنها صريحة فى مطلع القرن العشرين الميلادى — بعد أن مهد لها خمس قرون من الزمان — داهيةُ الاستعمار الإنجليزى اللورد « كرومر » يوم أن أمسك

المصحف على باب الأزهر ، وقال : «لا يمكن أن يستقر الاستعمار فى مصر ما دام فيها الأزهر وهذا الكتاب . . . فلا بد من القضاء عليهما » . .

وقد حضر « كرومر » إلى مصر مع الحملة الإنجليزية فى سنة ١٣٠٠ هـ (١٨٨٣م) ، وبقى فيها إلى أن جثم على صدرها عميداً للدولة البريطانية ، وما أن تولى الزمام ، حتى أخذ يقضى على اللغة العربية وعلى الإسلام ؛ وجعل دراسة أكثر العلوم فى المدارس باللغة الإنجليزية ، وأقام فى كل مدرسة أكثر من مستعمر.

وبحسبنا أن نستمع إلى بعض ما ودّعه به أمير الشعراء « أحمد شوقى » ، وشاعر النيل « حافظ إبراهيم » سنة ١٣٢٥ هـ (١٩٠٧م).

فقد قال له « شوقى » فيما قال :

لمّا رحلتَ عن البلادِ تشهّدتْ ... فكأنك الداء العياء رحيلا . . .
إنّا تمنّينا على اللهِ المُنى ... واللهُ كان بنَيْلهنّ كفيلا
من سبٍّ دينَ محمدٍ ؛ فمحمدٌ ... متمكنٌ عند الإلٰه رسولا

و « شوقى » يشير بذلك إلى ما كتبه « كرومر » فى تقريره ، قبل رحيله بعام والذى قال فيه : « إن محمداً ودين محمد لا يصلحان لهـذا العصر . . . » وظل يوالى السباب والطعن.. ويوصى بتعليم لغتين ، وتجميد الأزهر والقرآن.

ومما قاله « حافظ » ، فيما قال ، يوم رحيله أيضاً :

وإنك أخصبت البـلادَ تعمُّداً ... وأجدبتَ فى مصر العقولَ تعمُّداً
قضيتَ على أُمِّ اللغات ، وإنه ... قضاءٌ علينا ، أو سبيل إلى الرَّدى . . .
وأودعت تقرير الوداع : مَغامِزًا ... رأينا جَفاء الطبع فيها مُجسَّدا
غمزتَ بها « دينَ النبيِّ » ، وإننا ... لنغضبُ إنْ أغضبْتَ فى القبر «أحمدا»

قال صاحبى : يا للهول ! إذاً فالاستعمار هو الذى أدخل اللغات الأجنبية إلى مصر ؛ ليقضى على عروبتها ودينها ، وهو الذى حاول تحطيم الأزهر ؛ ليقضى على يقينها وإسلامها ! ! . .

قلت لصاحبى : نعم ، نعم . . . الاستعمار هو الذى مزّق الحياء ، وفرق الأزياء ، وأغرق فى الاقتناء ، وزحلق إلى الفن العارى ، والجسد العارى ، والشعر العارى ؛ بعضَ الأقلام والأفلام . . . من بعض الفنانينَ والكتّابِ والشعراء . . .

يا صاحبى : وإن الله سبحانه قد نبَّهَ عباده المؤمنين إلى طرائق المستعمرين ليحذروهم ، فيقول سبحانه فى (سورة المائدة ٥/٥٧) :

« يَا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تتَّخِذوا الذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزواً ولعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفارَ أَوْلِياءَ وَاتَّقُوا اللهَ إنْ كُنتُمْ مُؤمِنينَ » .

ويقول سبحانه فى آخر (سورة المجادلة ٥٨/٢٠ — ٢١) :

« إنَّ الذِينَ يحادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فى الأذلِّينَ * كَتَبَ اللهُ لأَغلبنَّ أَنَا وَرُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِىٌ عَزِيزٌ * لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمنونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آباءَهُمْ أوْ أَبْناءَهُمْ أوْ إخْوانَهُمْ ، أوْ عَشِيرَتَهُمْ . . . » .

ويقول سبحانه منبِّها إلى أذناب الاستعمار من المنافقين والمخادعين فى (سورة النساء ٤/١٣٨ — ١٣٩) :

« بَشِّرِ المنافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ

الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً » .

قال صاحبي : الحمد لله ، هذا حق . . . وبه خَفَّتْ الموازين لكل ما زيّنه المستعمرون ، وحاولوا به إفساد إنسانيتنا . . . وأخلاقنا . . . ويبقى الأزهر من وجهة نظر « قانون التطوير » فيما يتعلق بالبعثات ! ؟

قلت لصاحبي : إنه « القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها » : الذي مَكَّنَتْ به الثورة للأزهر فيما كان له ، وعمقته كثيراً وزادت عليه ، بل ضاعفته كثيراً وهيأت السبيل إليه . . . وقد حلا لبعضهم أن يتمشدق به ، ويطلق عليه : «قانون التطوير» ، ويلتوى به — لحاجة في نفسه — نحو التحطيم أو التطهير .

هذا القانون : هو الذي يُخرس كل لسان يتطاول على الأزهر ، ويقطع كل يد تمتدُّ — بسوء — إليه ، خصوصا فيما يتصل بمكانته وأهله ، أو فيما يتعلق بالبعثات والجامعات . . . وهو الذي قدّم مشروعه ومذكرته الإيضاحية رجل من رجال الثورة ، هو وزير الدولة — إذ ذاك — « كمال الدين محمود رفعت » إلى مجلس الأمة ، فقرر المجلس هذا القانون ، ثم أصدره رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ، في ٢٢ من المحرم سنة ١٣٨١ هـ (٥ يوليه سنة ١٩٦١ م) . . . وهو الذي تُفتتح مذكرته الرسمية « الإيضاحية » بما يأتي :

« لقد قام الأزهر بدور عظيم في تاريخ العلم ، وفي تاريخ الإسلام وفي تاريخ العروبة ، وفي تاريخ الكفاح القومي على توالى العصور . ووقف قلعة شامخة في وجه كل المحاولات لاستعبادنا ، والسيطرة علينا ، وتحطيم كياننا القومي والروحي .

وكانت التقاليد العلمية فى الأزهر أساسا للنظام الجامعى والتقاليد الجامعية فى كل بلاد الدنيا ، فهو أقدم جامعة فى العالم ؛ وإن لم يكن اسمه بين أسماء جامعاتنا . . .

ومن عِلم الأزهر شعَّ نورُ الإسلام فى بلاد كثيرة من إفريقيا ومن آسيا وزاد عددُ المسلمين عشرات الملايين ، وكانت بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر سبباً فى توثيق علاقاتنا ببلاد كثيرة ، وشعوب كثيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم ، وقد اكتسب اسم الأزهر بذلك قدسية ، واكتسب المنتسبون إليه احتراما ، وصار رأيه هو الرأى فى كل ما يتعلق بالعقيدة والشريعة ، وصار هو الجامعة الإسلامية الكبرى فى الشرق والغرب ، لا يطلب أحد علوم الإسلام إلا عن طريق الأزهر ، ولا تتجه قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى معهد يوفدون أولادهم إليه للتزود من أسباب المعرفة ، غير الأزهر » .

وجاء فى هذه المذكرة الرسمية أيضا :

« وعلى أساس المبادىء التى انتهينا إلى تقريرها كان مشروع الإصلاح الذى يتضمنه هذا القانون ، وهذه المبادىء هى :

أولا — أن يبقى الأزهر ، وأن يدعم ، ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب .

ثانيا — أن يظل كما كان منذ أكثر من ألف سنة ، حِصناً للدين والعروبة » . . .

أمَّا « القانون » نفسه ، فقد جاء فى صدر الباب الأول منه ما نصه :

المادة ٢ — الأزهر هو الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقومُ على حفظ

التراث الإسلامى ودراسته وتجليته و نشره ، وتحملُ أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب ، وتعمل على إظهار حقيقة الإسلام وأثره فى تقدم البشر ، ورقى الحضارة ، وكفالة الأمن والطمأنينة ، وراحة النفس لكل الناس فى الدنيا والآخرة ، كما تهتم ببعث الحضارة العربية والتراث العلمى والفكرى للأمة العربية ، وإظهار أثر العرب فى تطور الإنسانية وتقدمها ، وتعمل على رقى الآداب وتقدم العلوم والفنون ، وخدمة المجتمع والأهداف القومية والإنسانية والقيم الروحية ، وتزويد العالم الإسلامى والوطن العربى بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية ، والثقافة الدينية والعربية ولغة القرآن ... »

قال صاحبى : شكرا . . شكرا . . إذن فلقد أنصف القانون الأزهر ، وليت القائمين على أمر الأزهر ، ينصفون أنفسهم ، وينصفون الأزهر ـ دائماً ـ فالبعثات من جميع أنحاء العالم فى كل ما يتعلق بالعلوم الإسلامية والثقافة الدينية والعربية لم تكن ولن تكون إلا إلى الأزهر ، وفيما عدا هذا كله ، فإن البعثات فى الأزهر ، ومن الأزهر ، شأنها شأن البعثات الأخرى .

ثم جال صاحبى بكلتا عينيه فى جميع أرجاء « المكتبة » ، ورأسه تدور مع عينيه إلى كل جدرانها ، ومن أرضها لسقفها ... وقال وعيناه مشدودتان إلى كتبها : ولكنى أرى مكتبتك العامرة نادرة ، تجمع الكثير والنادر من كتب الغربيين والمستشرقين ؟ ! .

قلت لصاحبى : شكرا لك ولربى ، والحمد لله وحده : . . ياصاحبى : الكتب فى يد العالم ، هى الأسلحة فى يد المجاهد ، وكما لا يصح للمجاهد أن يخوض معركة إلا وهو مزود بكل أسلحتها ، كذلك لا يصح للعالم أن يقتحم ميداناً إلا وهو مزود بكل كتبه ، وعلى مقدار جودة الأسلحة والكتب

وإحكام النظر إلى الهدف ودقة التصويب . . . يكون الوصول إلى المطلوب ، وما دام حديثنا القريب ، قد تناول اللغات ، والبعثات الأزهرية وغير الأزهرية ، للتخصص فى علوم اللغة العربية أو فى العلوم الإسلامية ، فخذ بعض الأسلحة النادرة من المستشرقين والغربيين أنفسهم ، وسأترك لك التعليق والحكم ، لترى بنفسك أنهم يؤكدون عجزهم ، فكيف نأخذ عنهم ؟ :

١ — هذا كتاب ألفه الدكتور « ا . ج . آربرى » عنوانه : « المستشرقون البريطانيون » ، طبع فى « لندن » سنة ١٣٦٥ ﻫ (١٩٤٦ م) وعرّبه الدكتور « محمد الدسوقى النويهى » . . . يقول مؤلفه فى صفحة ٩ ما نصه :

« واللغة العربية عبقرية التركيب ، صلدة البناء ورقيقة الإحساس فى وقت معاً ، وذات مفردات تكاد لا تحد ، أمدتها كل قبيلة بمترادفاتها ، وهى من وجهة النظر اللاهوتية أداة كاملة ، فإن القرآن يعتبر كلام الله بلفظه ، فهى بذلك كله صارت موضوعا جديراً بالدراسة .

وليس من أدب غربى يستطيع بحال أن يعدل اللغة العربية فى ميادين النحو وعلوم البلاغة ، وتدوين المعاجم ، وكل فروع الدراسة اللغوية ، فإذا أضيف إلى كل هذا ذلك الأدب الغزير من علم اللاهوت والفقه والفلسفة والرياضيات والعلوم : اتضح أن تراث العرب شىء يزيد على قصص ألف ليلة وليلة التى تمثل لدى معظم أبناء الغرب مجموع الأدب العربى » .

ثم يقول فى صفحات ١٠ ، ١١ ، ١٢ ما نصه بالحرف الواحد :

« . . . وهناك أيضاً طائفة من ذوى الجسارة والإقدام الذين ذهبوا إلى

الشرق ليبشروا فيه بدينهم ، وآل بهم المـآل إلى أن اعتنقوا هم ديانة الشرق اعتناقاً جزئياً ، أولئك هم العلماء المبشرون الذين نحن مدينون إلى جهودهم الموفقة بدين عظيم من الشكران . . إن تـاريخ الاستشراق مفعم بأسماء المشعوذين الدجالين » . .

٢ — وهذا كتاب « علم الفلك : تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى » الذى ألفه السنيور « كرلونلينو » الأستاذ بالجامعة المصرية القديمة والأستاذ بجامعة بلرم فى إيطاليا ، وقد طبع فى مدينة « روما » العظمى سنة ١٣٢٩ ﻫ « ١٩١١ » م يقول فى الصفحة الثالثة عقب ثنائه على الأزهريين الأفاضل أئمة اللغة والعلم ، ما نصه:

« فاعتبروا أننا المستشرقون الباحثون فى أوربا عن لغات أهل الشرق ، واعتقاداتهم ، وعوائدهم ، وآدابهم ، وتاريخهم وجغرافية بلادهم ... وهلم جرا — ما تعلمنا تلك اللغات إلا بمطالعة الـكتب ، دون أن تمـكننا الاستفادة من محادثة الوطنيين . . . وبالجملة صار مثلُنا كمثل الصم والبـكم ، وأصبحنا فى كنوز العربية مترددين ، وفى بحورها متحيرين ، مع صرف همتنا إليها ومثابرتنا عليها »

٣ — وهذا « الفرد جيوم » أستاذ جامعة أكسفورد ، وأستاذ اللغات الشرقية فى جامعة دور هام ، ثم رئيس كلية « كلهام » الذى أخرج كتاب « نهاية الإقدام » للشهرستانى ، وطبعه باللغة العربية فى أكسفورد بلندن سنة ١٣٥٣ ﻫ (١٩٣٤ م) وألف القسم الخاص بالفلسفة والإلهيات فى كتاب « تراث الإسلام » طبع لجنة التأليف والنشر والترجمة سنة ١٣٥٥ ﻫ « ١٩٣٦ م » . . يقول فى « تراث الإسـلام » فى الصفحة ٣٢٣ ما نصه : « وقد قضى

جهل أسلافنا من أهل الغرب بلغة العرب ألا يتذوقوا إلا القليل من هذه الحياة الخصبة المتنوعة . . . » مع أن هذا المؤلف نفسه يقول فى نفس الكتاب بصفحة ٢٧٢ : « ولم يحن — بعد — الوقت الذى نتمكن فيه من أن نكتب تاريخ الفلسفة الإسلامية ، وحتى إذا قدّر لنا أن ننشر ما يتصل بها من أبحاث مودعة فى المخطوطات ، ومنبثة فى مختلف المكاتب فى أوربا والعالم الإسلامى ، وقدّر للعلماء أن يتداولوا هذه المطبوعات ، فإن علينا أن ننتظر حتى تهيىء الأبحاث الخاصة والدراسات المسهبةُ السبيلَ إلى الإحاطة بالفلسفة الإسلامية إحاطة تتناول مداها الواسع . . . »

حضارة الإنسان الصحيحة :

وهنا صاح صاحبى : أمسك . . أمسك . . إنه الاستعمار . . إنه الاستعمار . . والله لا حضارة لنا إلا فى ديننا ، وإلا بلغتنا ، إلا فى الإسلام ، وإلا بالعروبة . . . فما حضارة الإنسان ؟ !

قلت لصاحبى : نعم . . اتفقنا وهذِى حضارتنا ؛ بل حضارة كل إنسان .

يا صاحبى : إن لكل شىء حضارة ، وحضارة كل شىء على الأرض هى : أن تُكتشف جواهره وظواهره ، وأن تتأكد ذاتيته وعناصره ؛ ثم أن تتحقق مهمته وما خُلق له ، وأن يترقى فى نوعه وعمله وثمره .

أما حضارة الإنسان ؛ فإنما تتميز بما يتميز به الإنسان ، فحضارته إذن : هى : أن يَكتشف هو ظواهره وبواطنه ، وأن يؤكد إنسانيته وأواصره ؛ ثم أن يحقق خلافته وما خُلق من أجله ، وأن يترقى بعبادة ربه لعمارة أرضه .

وعلاقة الإنسان بالحضارة على الأرض هى من أعجبِ العجبِ بالنسبة لجميع كائنات الأرض . . .

فالإنسان يبدع الحضارة فى الجمادات ، ويحاولها فى النباتات ، ويبتغيها فى الحيوانات! ؛

يبدعها فى الجمادات ؛ لأن اكتشاف ظواهرها ، واستخراج طاقاتها ... مما يستطيعه الإنسان .

ويحاولها فى النباتات ؛ لأن إنباتها ، وإنماءها ، وإثمارها ... مما لا يتفرد به الإنسان .

ويبتغيها فى الحيوانات ؛ لأن تنوّعَ أُممِهَا ، وتسلسل أنواعها ... مما لا يطيقه الإنسان .

وبمقدار ترقى الكائنات فى سلالم المخلوقات ، وكثرة مطلوباتها ، وتنوع احتياجاتها ... يكون عجز الإنسان عن صنع الحضارة لها ؛ بقدر عجزه عن إبداع متطلباتها ، وتحقيق حاجاتها .

عجز الإنسان عن صنع الحضارة اللاإنسان :

وبهذا ، يكون عجز الإنسان عن صنع الحضارة اللإنسان أقوى وأظهر ؛ مهما شارك الإنسان أو أشرك أو تقدم أو فجر ، ومهما أوتِىَ من علمٍ أو انطلاق أو قُوًى أو قُدَر ... لأن الإنسان لم يخلق نفسَه ولا جنسه ، ولم يرزق أحداً حتى نفسه ، ولن يُميتَ النوع الآدمى ؛ وإنما هى الآجال ، ولن يُحْيِيَهُ للبعث الأخروى ؛ وإنما هو الحساب على الأعمال ، من الله الواحد الأحد « مالِكِ يوم الدِّين » ؛ فحضارة الإنسان لا تُستمدُّ إلا من الله ، وبقدر ابتعاد الإنسان عن ربه ، يكون بعده عن حضارته .

فيا كلَّ إنسان ، ويا جميعَ بنى الإنسان : ارجعوا إلى ربكم ، ترجعْ إليكم

حضاراتكم ، بل إنسانيتكم ، ثم تذوقوا بقلوبكم ، قول ربكم :

« اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ، ثُمَّ رَزَقَكُمْ ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُم : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُم مِنْ شَىْءٍ ؟ سُبْحَانَهُ وتعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » . (الآية ٤٠ من سورة الروم ٣٠) .

« يَا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لهُ ، إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلقُوا ذُبَاباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لهُ وإِنْ يَسْلُبْهُم الذُّبَابُ شَيْئاً ، لاَ يَسْتَنقِذُوه مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمطْلوبُ * مَا قدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ » . (سورة الحج ٢٢ / ٧٣ — ٧٤) .

« يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، وَاخْشَوْا يَوْماً لا يَجْزِى وَالِدٌ عنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عنْ وَالِدِهِ شَيْئاً ، إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ؛ فلاَ تَغُرَّنكُمُ الحَيَاةُ الدُّنيَا ، ولاَ يَغُرَّنكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ * إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ ، ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ، ويَعْلَمُ ما فى الأرْحامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ ما ذَا تَكْسِبُ غَداً ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيرٌ » . (سورة لقمان ٣١/٣٣—٣٤) .

« . . . يَا أَيُّها النَّاسُ ؛ إنَّما بَغْيُكُم عَلَى أنفُسِكُم مَتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنيا ، ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُكم فَنُنَبِّئُكم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إنَّما مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنيَا كَمَاءٍ أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأنْعَامُ حَتَّى إذَا أَخَذَتِ الأرْضُ زُخْرُفَهَا ، وَازَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قَادِرُونَ علَيْها ، أتاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أوْ نَهَاراً ؛ فَجَعَلْنَاها حَصِيداً

كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ».

(سورة يونس ١٠/٢٣ — ٢٤).

يا صاحبي : قل لكل إنسان : « يَا أَيُّها الإِنْسَانُ ، مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ * الذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ».

(سورة الانفطار ٨٢/٦ — ٨).

قل له قول خالق الإنسان : « إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا ، وَإِمَّا كَفُورًا » . (سورة الإنسان ٧٦/٢ — ٣) .

وقل يا صاحبي قول ربه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ * أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ؟ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ؟! » .(سورة البلد ٩٠/٤ — ١٠) .

« أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً ، فَخَلَقَ ، فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ المَوْتَى ».

(سورة القيامة ٧٥/٣٦ — ٤٠).

قال صاحبي : سبحان ربي ... إنه هو وحده القادر ، وليس غيره أبداً بقادر .

ثم أخذ نفساً عميقاً بصوت مسموع ، وحبسه قليلا في صدره ، ثم أخرجه في هدوء وهو يهز رأسه ويقول : « لا إله إلا الله » ، وكأنما يترحّم على عزيز ،

ثم قال فى لهفة وأسى . إذن لقد ضل كثير من النـاس السبيلَ إلى الحضارة الإنسانية فهل من علاج ؟

الحضارة الحقة للإنسان من القرآن :

فأخـذت بيد صاحبى إلى « المصحف » أمامنا ، وقلت يا صاحبى ، فى هـذا القرآن كل العلاج ؛ بل كل الشفاء . . .

يقول رب العزة فى (سورة الإسراء ١٧/٩ ، ٨٢) :

« إنَّ هذَا القُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ . . . » .

« ونُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هُوَ شِفَاءٌ ورَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنِينَ ، ولاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلاَّ خَسارًا » .

ويقول سبحانه فى (سورة يونس ١٠/٥٧) :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتكُمْ مَوْعِظَةٌ مِن رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُورِ، وهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنِينَ » .

يا صاحبى : الإنسان يتمـيز عن جميع الـكائنات الأرضية ؛ بنفسه الإنسانية ، وببواطنه الروحية ، ثم يتميز بعمله عن جميع الـكائنات ؛ بخلافته عن الله فى الأرض ، وعبادة ربه لعمارة الأرض ، وفوق هذا وذاك ؛ فإن الله مـيّزه بالإدراك لـكل هذا وذاك ، وبالقـدرة على التصرف فى حـدود هذا وذاك . . .

ولـكنه مكوّن من : الحيوانية ، والإنسانية ، ومن : المادية ، والروحية ، وحضارته فى تـكامل الجميع ، فإن أهمل الروحية انحدر إلى المادية ، وإن أهمل الإنسانية ارتكس إلى الحيوانية .

وعلى هذا تنحصر ركائز الحضارة الإنسانية فى أربع هى: أن يكتشف الإنسان حقيقته ،ويؤكد إنسانيته ، ويحقق خلافته ، ويخلص لربه عبادته .

١ — فحقيقته فى أن يستبصر فى نفسه ويبصرها : « بَلِ الإِنسانُ عَلَى نفسِهِ بَصِيرَةٌ » ، « وفِى أنفسِكم أفلا تُبْصِرُونَ » ؟..

حقيقته فى أن يتكشف من نفسه وبنفسه : أحاسيسه ، ووجداناته ، وقواه الروحة والباطنية . . . ومركزه من الكون ، ومن الإنسان ، ومن الله . . .

٢ — ويؤكد إنسانيته بتوثيق أواصر الإخوة ، والحب ، والودّ ، والتعاطف ، والتعاون ، والتشارك مع أخيه الإنسان : زوجاً كان ، أو أباً ، أو أخا ، أو شريكا ، أو جاراً ، أو رئيساً ، أو مرءوساً . . . ثم يرتبط بإنسانيته مع خالقه ، ومع الكون . . .

٣ — ويحقق خلافته بأن يراعى حقّ من خلّقه بالطاعة ، وحقّ ما خُلِّف عليه بالسيادة ؛ بالعلم وبالعمل وبالاستثمار ، وبإبداع الحضارة لكل الأنواع ، والترقى بالماديات والنباتات والحيوانات ، ويراعى حقّ شركائه فى الخلافة بالأخوة .

٤ — ويحقق عبادته بإرضاء ربه ، فيبذل ما هو مطلوب منه ، وما هيىء له ، وقد هيىء الإنسان للسيادة على جميع كائنات الأرض ، والأخوة لجميع الناس ، والعبودية لرب الأرض والناس ، فالعبادة مجموع هذا كله .

لهذا كانت « العبادة » هى المطلب الأساسى من كل الناس ، لأنها « الحضارة الإنسانية » لكل الناس ، يقول رب العزة :

« يَا أَيُّها النَّاسُ : اعبُدُوا ربَّكُم الذِى خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لعَلكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُم الأرْضَ فِرَاشاً ، والسَّماءَ بِنَاءً

وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، فَلاَ تَجْعَلوا لِلهِ أنداداً وأنتمْ تعلمون » (سورة البقرة ٢/ ٢١ — ٢٢) .

وعلى هذا نستطيع أن نتذوّق قول رب العالمين :

« وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكرَى تنفعُ المؤمنينَ * ومَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنسَ إلاَّ ليَعْبُدونِ * ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِن رِزْق ومَا أُرِيدُ أنْ يُطعِمُونِ * إنَّ اللهَ هُوَ الرَّزاقُ ذُو القُوَّةِ المَتينُ » . (سورة الذاريات ٥١ /٥٥ — ٥٨) .

وبهذا نستطيع — يا صاحبي — أن نقرر مطمئنين : أن « حضارة الإنسان » في كل زمان ومكان ، ليست إلا في القرآن ، وليست إلا من القرآن ، وليست إلا بالقرآن .

قال صاحبي : قررنا وأقررنا ، والله معنا ، وهو نعم المولى و نعم النصير .

الباب الثانى

الفصل السابع

الإسلام والتطور

آيات وحضارات .

الوحدة والتوحيد أصيلان فى الإنسانية، والاختلاف والكفر طارئان عليها .

أول اختلاف فى الأسرة الإنسانية كما فى قصة ابنى آدم .

أول انحراف إيمانى فى الأمة الإنسانية . حتمية الحكم والتشريع .

تعدد الرسالات والرسل من مرسِل واحد ، بشرعٍ واحد .

تمام الكل وختامهم .

المسلمون قبل الأمة المسلمة .

١ — الأنبياء والمرسلون من المسلمين .

٢ — الصدِّيقون من أتباع الرسل السابقين ؛ كسحرة فرعون والحواريين .

٣ — ثم أمة محمد صلى الله عليه وسلم جميعا من المسلمين .

أول المسلمين . أول العابدين .

هكذا التطور فى العبادة وفى الإسلام .

أسباب التفرق والانحراف والتحريف .

يا حملة الكتاب ، ويا ورثة الأنبياء .

تطور الإسلام وكماله .

ظاهرة التطور : مشاهدتها ، وقراءتها ، وتفسيرها .

ردّ على بعض الشبهات والافتراءات يدعيها من يدّعون التطور .

الإسلام والتطور

آيات وحضارات :

طغَىٰ إبليس بالمادة التي خُلق منها ، واستكبر بها ؛ لمّا فرح بعقله . . .

وبغىٰ الإنسان بالمادة التي خلق عليها ، واستُخلف فيها ؛ لمّا فرح بعلمه . . .

وتمرُّ على أعين الناس آيات ، وتتوالى عِبَرٌ وعِظات ؛ وكأنهم لا يبصرون ، ولا يشعرون . . .

وتتفتح آذانهم على حضارات ، أذهلت التاريخ والعبرات ؛ وكأنهم لا يسمعون ، ولا يعقلون. . .

« أفلَمْ يَسيرُوا فِي الأرْضِ ، فيَنظُروا كيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ : كانُوا أكثرَ مِنهُم ، وأشَدَّ قُوَّةً وآثاراً في الأرْضِ ؛ فَمَا أغنَى عَنهُم مَّا كانُوا يَكسِبونَ ۝ فلمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بالبَيِّنَاتِ ، فَرِحُوا بِمَا عِندَهُمْ مِنَ العِلْمِ ، وحَاقَ بِهِمْ ما كانُوا به يَستَهْزِئُونَ ۝ فَلمَّا رَأوْا بَأسَنا قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ ، وكَفَرْنا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إيمانُهُمْ لمَا رَأوْا بأسَنا ، سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبادِهِ وَخَسِرَ هُنالكَ الكافِرُونَ » .

(آخر سورة غافر ٤٠/٨٢ — ٨٥).

الوحدة والتوحيد أصيلان في الإنسانية، والاختلاف والكفر طارئان عليها :

لقد أهبط الله سبحانه آدم عليه السلام إلى الأرض ، ليتولى مهمة الخلافة ،

بعد أن اجتباه وتاب عليه وهَـدَى ، وبدّل عصيانه إلى طاعة ، وغوايته إلى هُدًى ، يقول رب العزة :

« . . . وعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوىٰ * ثمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ ، فتَابَ علَيْهِ ، وهَدَى * قَالَ اهْبِطا مِنْها جَمِيعاً بَعضُكُمْ لِبَعْضٍ عدُوٌّ ، فإمَّا يأْتِينَّكُمْ مِنِّي هُدًى فمن اتَّبعَ هُدَاىَ فلاَ يَضِلُّ ولاَ يَشْقَى » .

(سورة طه ٢٠ / ١٢١ — ١٢٣) .

وبهذا تكون الأسرة الإنسانية على الأرض قد بدأت على الفطرة : على التوحيد والوحدة ، وكل اختلاف بعد ذلك وكل انحراف ، وكل طغيان وكل كفر . . . يكون قد طرأ عليها بعد أن لم يكن . . . وتفصيل ذلك فى كتابنا : « العقيدة والفطرة » .

يقول رب العزة سبحانه :

« وَما كَانَ النَّاسُ إلاَّ أُمَّةً واحِدَةً ، فاخْتَلَفُوا ، ولَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيماَ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ » .

(سورة يونس ١٠ — ١٩).

ويقول جل شأنه :

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بِالحَقِّ ، لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيماَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُم البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الذِينَ آمَنُوا لِمَا اختلفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .(الآية ٢١٣ سورة البقرة ٢).

وهكذا كانت الأسرة الإنسانية الأولى أمةً واحدة على التوحيد والوحدة ، لا اختلاف بين أفرادها ، ولا انحراف يتسرب إلى إيمانها .

وإنما كانت الأسس الأصلية التى تقوم عليها وحدة الأمة الاجتماعية ، هى : التمانُعيّة ، والتعاونية ، والاشتراكية ، والإنسانية ...

ليحفظوا بالتمانع ما يُحصِّلون ...

وليُحَصِّلوا بالتعاون ما يتبادلون ...

وليتبادلوا بالاشتراك ما يطلبون ...

وليطلبوا بالإنسانية ما يريدون ..

أول اختلاف فى الأسرة الإنسانية كما فى قصة ابنَىْ آدم :

ولكن سرعان مادب الخلاف ، وتطرّق الانحراف ، حين فرح الإنسان بعلمه ، واستقل بعقله ، وبَعُدَ عن ربه ، ومال إلى شيطانه ، وقد آتاه الله ؛ « ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » ...

وكان أول مظهرٍ لهذا الاختلاف بين الأفراد على الأرض ، بسبب متاع الدنيا وحطام الأرض : كما ذكره رب العزة الحق ؛ فى قصة ابنَىْ آدم بالحق .

لما بغى « قابيل » بعلمه وشيطانه ، ودلّ بزرعه أو ضرعه أو قربانه ، وأراد أن ينفرد عن أخيه « هابيل » بسلطانه...

فقتله عن علم ، وقصد ، وإنذار ؛ وهو يعلم الجزاء ، والإثم ، والظلم ، والنار ... بل ويعلم عقاب الله القوى الجبار ...

ولهذا عاقبه الله فى الدنيا بالخسران ، وكان يريد متاع الدنيا .

وبالجهل والعجز ، وكان يظن أنه أغنى وأقنى .

وبالندامة والندم ، وكان قد رتّب لنفسه الحظ الأسنَى .

هذا بعض ما يمكن أن نسارع إلى فهمه أو تذوّقه ، من كلام رب العالمين :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقِّ ، إِذْ قَرَّبا قُرْبانًا ، فتُقُبِّلَ مِن أحدِهِما وَلَمْ يُتَقَبلْ مِن الآخرِ ، قَالَ لأقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إِنَّمَا يَتقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقين * لَئِنْ بَسَطتَ إِليَّ يَدَكَ لِتقْتُلَنِي مَا أنا بِباسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأقْتُلَكَ ، إِنِّي أخافُ اللهَ رَبَّ العالمِينَ * إني أُرِيدُ أنْ تبُوأَ بإثمي وَإِثمِكَ ، فتَكُونَ مِنْ أصْحَابِ النَّارِ ، وذلِكَ جزَاءُ الظالِمِينَ * فطَوَّعَتْ لَهُ نَفسهُ قتْلَ أخِيهِ ، فقتَلَهُ ، فأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأرْضِ ، لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأةَ أخِيهِ ، قَالَ : يَا وَيْلَتَىٰ ! أَعجزْتُ أنْ أكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأةَ أخِي ؟! فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » . (سورة المائدة ٥/٢٧ — ٣١) .

وهكذا زل العقلُ أول ما زل ، وأضل العلم أول ما أضل . وتدخل الشيطان أول ما تدخل ، فذل الإنسان بالإثم والشر ، فقتل الأخ أخاه وندم وخسر . . .

مما يدل على أن الأسرة الإنسانية ، بقيت على فطرتها الدينية ، وإن لوثتها الأنانية ، لكن الندم بعد الشعور بالخسران ، يؤكد التوبة والتوحيد والإيمان ، كما يشير إلى أصابع الشيطان . . .

أول انحراف إيمانى فى الأمة الإنسانية :

ثم بدأ الاختلاف يدب إلى الأمة الواحدة ، بعد أن تكونت الأمة على التوحيدوالوحدة ... كما بدأ الشقاق والانحراف — من قبل — يتطرقان إلى الأسرة الإنسانية ، فى أوائل تكوين الأسرة ...

إلى أن تمكن الاختلاف ، واستحكم الانحراف ، ولا يزال الناس أمة واحدة :

« فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » . ! !

حتمية الحكم والتشريع :

إن حتمية الاختلاف بين الناس وواقعيته : يؤكدان ضرورة « الحكم » بين الناس وحتميته ...

ويوجبان أن يكون « الحاكم » فوق الناس : محيطاً ، حكيماً ، خبيراً ... ممسكا بزمام الكل ، سميعاً بصيراً ... وصدق الله :

« وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ، ذلكم الله ربى ، عليه توكلت ، وإليه أنيب * فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع ، البصير * له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم * شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به

إبْرَاهِيم ومُوسَى وعِيسَى : أنْ أقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ . . . » .
(سورة الشورى ٤٢/١٠ — ١٣).

تعدد الرسالات والرسل من مرسل واحد بشرع واحد :

ثم تعددت الرسَالات فى كل أمة ، وتعدد المرسلون ؛ والمرسِل واحد .
وتعددت الحلقات الدينية بمقدار ما تطيق البيئات الرسالية ؛ والدين واحد.
وأنزل الله مع كلّ رسول « حاكماً » من كتاب الله بالحق ؛ ليحكم بين المرسَل إليهم فيما اختلفوا فيه ؛ والكتاب واحد . . .
وهكذا توالى على الإنسانية المرسلون ممن اصطفاهم الله ؛ كنوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ؛ عليهم السلام ... وكان تمامهم هو محمد صلى الله عليه وسلم .
وتوالت الحلقات الدينية ؛ كدين نوح ، وملة إبراهيم ، وكاليهودية ، والنصرانية . . . وكان تمامها هو الإسلام.
وتوالى ما أنزل الله من الكتب ؛ كالصحف ، والزبور ، والتوراة ، والإنجيل . . . وكان تمامها هو القرآن .

تمام الكل وختامهم :

وتعاون الجميع : تثبيتاً لدين الله ، وتطبيقاً لحكم الله ، وتنفيذا لكتاب الله. . .
حتى اكتمل رشد الإنسانية الإيمانىّ ، وتكامل وعيها الدينى ، وأصبحت تستطيع أن تطرق وحدها أبواب الدين ، على بصيرة من الكتاب المبين ، ودون حاجة إلى المرسلين . . . فكان لابد من خاتم المرسلين ، ومن إكمال الدين ، ومن إتمام الكتاب . . .
وَكان الخاتم هو : محمد صلى الله عليه وسلم .
وإكمال الدين هو : الإسلام .
وَتمام الكتاب هو : القرآن .

وَقال المرسِل سبحانه لخاتم رُسُله وأنبيائه : « وَأنزلنا إليكَ الـكتاب بالحقِّ مُصدِّقاً لما بَيْنَ يَديهِ مِنَ الـكتابِ وَمُهَيْمِناً عليه ... » . (سورة المائدة ٥/٤٨).

وقال سبحانه للإنسانية جمعاء فى آخر ما أنزل من القرآن :

« ... اليومَ أكملتُ لَكم دينَكم وَأتممتُ عليكم نِعمتِي ، وَرضيتُ لَكمُ الإسلامَ دِيناً .. » . (سورة المائدة ٥/٣) .

كما قال سبحانه لرسول الإنسانية جميعا : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نوحاً ، وَالذى أوْحينا إليكَ ، وَما وَصَّينا بِهِ إبراهيمَ وَموسى وَعيسَى أن أقيمُوا الدِّينَ وَلاَ تتفرَّقُوا فيهِ ... » . (سورة الشورى ٤٢/١٣).

وهذه الآية ، لسرٍّ يعلمه رب السرّ ، تنص على أن الدين قد أوحى الله به إلى خاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام ... أما باقى المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. فقد وصّاهم به ، لأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يحتاج إلى توصية ولا إلى وصية ...

وقد عبرت الآية فى جانب الوحى للخاتم صلى الله عليه وسلم « بالذى » ، وفى جانب الوصية للباقى « بما » : « الذى أوحينا إليك ، وما وصى به نوحا ... وما وصينا به إبراهيم ، وموسى وعيسى » ... فكمال الصلة الدينية لمحمد صلى الله عليه وسلم وحده .

وقد بدأت الآية بنوح أول المرسلين من أصحاب الشرائع : « ما وصى به نوحاً » وثنّت بخاتم المرسلين والنبيين : « والذى أوحينا إليك » ، وفى هذا بدءٌ وختام ، لجميع حلقات الإسلام .

ثم ذكرت الآية العمد الكبرى ، التى تقرع أسماع الدنيا فى سلسلة الإسلام

الـكبرى : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى . . . عليهم السلام .

المسلمون قبل الأمة المسلمة :

وعلى نور من آيات الله البينة ، نستطيع أنْ نتبَيَّن أنه قبل الأمة المحمدية ؛ لم تكن هناك أمة مسلمة . . .

وإنما الذى كان هناك : أفراد من المسلمين ، أو جماعات من المسلمين . . . كالأنبياء جميعا والمرسلين ، والمؤمنين إيمانا صحيحا بالله رب العالمين ؛ مع المرسلين مثل : سحرة فرعون ، والحواريين ، وملـكة سبأ التى قالت :

« ... وَأسلمتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمينَ » . (سورة النحل ٢٧/٤٤) .

ولقد كان « نوح » وجميع المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين : من المسلمين ...

بل وكان أتباعهم ممن آمن معهم بالله رب العالمين ، وبجميع رسل الله أجمعين ؛ من السابقين واللاحقين أيضا : من المسلمين . . .

ولم تـكن الأمة المسلمة قد ظهرت ؛ لأن الرسالة المحمدية الخاتمة لم تـكن قد عَلنتْ . ..

١ — الأنبياء والمرسلون من المسلمين :

هذا « نوح » نفسه عليه السلام ، يؤكد أنه من المسلمين ، وأن دينه الإسلام ؛ كما يقول رب العزة سبحانه :

« وَاتلُ عليهِمْ نَبأَ نُوحٍ إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إن كَانَ كَبُرَ عليْـكُم مَقَامِى وتذْكِيرِى بآياتِ الله فَعَلَى الله توَكَلْتُ ، فأَجْمِعُوا أمْرَكُم وشُرَكَاءَكُمْ ، ثمَّ لا يكُنْ أمرُكُمْ عليْـكُمْ غُمَّةً ، ثم اقْضُوا إلىَّ ولاَ تُنظِرُونِ * فإنْ تولَّيْتُمْ فمَا سألتُكمْ مِنْ أجْرٍ إنْ أجْرِىَ إلاَّ علَى اللهِ ، وأُمِرْتُ أنْ

أكُونَ منَ المُسْلِمِينَ » . (سورة يونس ١٠ / ٧١ — ٧٢) .

وهذا « إبراهيم » الخليل عليه السلام ، يقول عنه ربه :

« ما كَانَ إبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا ، ولَـكِن كَانَ حَنِيفاً مُسلماً ، ومَا كانَ منَ المُشْرِكِينَ » . (سورة آل عمران ٣/٦٧) .

وهذا « إبراهيم » و « إسماعيل » عليهما السلام ، يدعوان الله لهما ولذريتهما بالإسلام ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة ، بل ويدعوان بأن يبعث الله من ذرية إسماعيل الأمه المسلمة ، وأن يبعث : من هذه الأمة المسلمة ، وفيهم : رسولَ الإسلام محمدا عليه الصلاة والسلام . . . للناس كافة بشيراً ونذيراً . . .

وهذا إبراهيم وابن ابنه الثانى أيضا : « يعقوب بن إسحق » عليهما السلام ، يوصى كل واحد منهما بنيه بالإسلام ، بل ويستوثق « يعقوب » من بنيه لما حضره الموت ، ليتأكد ويطمئن عساهم يموتون على الإسلام ، فيقول سبحانه :

« وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعِيلُ : رَبَّنا تقبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ، وَمن ذُرِّيتنا أُمةً مُسـلِمةً لَكَ ، وأرِنَا مَنَاسِكَنَا ، وَتُبْ عَلَيْنَا ، إنَّكَ أنْتَ التَّوابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنـا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنهُمْ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمْ الكِتابَ والحِكْمَةَ ، ويُزَكِّيهِمْ ، إنَّكَ أنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبُ عنْ مِلَّةِ إبرَاهِيمَ إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنيا ، وَإنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالحِينَ * إذْ قَالَ لَهُ رَبُّه : أسْلِمْ قال : أسْـلَمْتُ لِرَبِّ العالَمِينَ *

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ ، فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ؟ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلَهًا وَاحِداً ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » . (سورة البقرة ٢/١٢٧ — ١٣٣) .

ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى للمؤمنين أتباع محمد صلى الله عليه وسلم :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : ارْكَعُوا ، وَاسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الْخَيْرَ ، لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ، وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .
(آخر سورة الحج ٢٢ / ٧٧ — ٧٨) .

وهذا يوسف الصديق بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، يقول بعد أن منَّ الله عليه ، وجمع شمله بإخوته وأبويه :

« رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ ، وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ، فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ : تَوَفَّنِي مُسْلِماً ، وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » . (الآية ١٠١ سورة يوسف ١٢) .

٢ – الصديقون من أتباع الرسل السابقين ؛ كسحرة فرعون،والحواريين:

ثم هؤلاء الذين يؤمنون حقاً – بالله المرسل الواحد – مع أيّ رسول من رسل الله أجمعين، ولا بد من إيمانهم بجميع المرسلين الذين يعرفون من السابقين واللاحقين .. هؤلاء : يكونون أيضاً من المسلمين ؛

ومن هؤلاء « السحرة » حين جمعهم « فرعون » لموسى عليه السلام كما قال رب العزة :

«وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرعونَ قَالُوا إنَّ لَنَا لأَجْراً إن كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ، وَإنَّكُمْ لِمنَ المقرَّبينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إمَّا أنْ تُلْقِيَ، وَإمَّا أنْ نَكُونَ نَحْنُ المُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا ، فَلمَّا أَلْقَوْا : سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاس ، واسْتَرْهَبُوهُمْ ، وجَاءُوا بِسِحْرٍ عظيمٍ *

وَأَوْحَيْنا إلَى مُوسَى أن ألقِ عصَاكَ ، فَإذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الحَقُّ . وَبطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبوا هُنَالِكَ ، وَانقَلَبوا صَاغِرِينَ *

وأُلقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ * قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ *

قَالَ فِرْعَونُ آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ ؟ ! إنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي المَدِينَةِ لتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوفَ تَعلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ، ثمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ *

قَالُوا إنَّا إلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إلاَّ أنْ آمنَّا بِآيات

رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنا ؟ رَبَّنا أفرِغ عَلَيْنا صَبْرًا ، وتَوَفَّنا مُسْلِمِينَ » .

(سورة الأعراف ٧/١١٣ — ١٢٦)

ومن هؤلاء أيضاً « الحواريون » لما دعا « عيسى » عليه السلام بني إسرائيل للإيمان به ، واتّباعه ، وكاد يستيئس منهم :

« فَلَمَّا أحَسَّ عِيسَى مِنْهُم الكُفرَ ، قَالَ : مَنْ أنْصَارِي إلى الله ؟ ، قَالَ الحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أنصارُ اللهِ : آمَنَّا باللهِ ، واشْهدْ بأَنّا مُسْلِمونَ * رَبَّنا آمنّا بِما أنزَلْتَ ، واتَّبعْنا الرَّسولَ ، فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

(سورة آل عمران ٣/٥٢ — ٥٣).

وهكذا كان جميع رسل الله قبل محمد عليهم الصلاة والسلام : من المسلمين .

وهكذا كان جميع أتباع كل رسول ، ممن آمنوا بالله وبجميع من أرسل الله ، ويؤمنون بجميع من يرسل الله — كانوا من المسلمين .

٣ — ثم أمة محمد صلى الله عليه وسلم جميعاً من المسلمين :

وهكذا أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم جميعاً يؤمنون بالله ، وبجميع رسل الله —. دائماً من المسلمين . وهم وحدهم : هم الأمة المسلمة : التي دعا بها إبراهيم الخليل عليه السلام وابنه إسماعيل جدهم ، والتي دعا لها كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم » ...

فكان : رحمة العالمين ، وخاتم النبيين ... محمداً صلى الله عليه وسلم.

* * *

أول المسلمين :

أما « محمد » خاتم النبيين ، صلوات الله عليهم أجمعين ؛ فلأن الله قد أكمل

به الدين ، وأتم به النعمة ، وأنزل عليه القرآن الكريم ، المصدق لجميع الرسل والرسالات السابقة ، والمكمل لها والمهيمن عليها . . .

لا بدّ من أن يكون أول مؤمن حقاً ، وواقعاً ، وفعلا ، بجميع دين الله الذى أنزله الله : حقاً ، وواقعاً ، وفعلا ، لجميع الإنسانية إلى يوم يبعثون ، ولا بدّ من أن يكون صلى الله عليه وسلم ، هو « أول المسلمين » .

أنزل الله على رسوله الخاتم للرسل والرسالات والنبيين ، فى منتصف الفترة المكية ما أُنزلَ من القرآن .

وبعد ست وأربعين سورة منه (٤٦) ، أعنى فى آخر سورة النمل (٢٧) ، وترتيب نزولها (٤٧) ، أمرهُ اللهُ أن يقول :

« إنَّما أُمِرْتُ أَنْ أعبُدَ رَبَّ هذهِ البَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا ، وَلَهُ كلُّ شَىْء وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلمينَ * وَأَنْ أَتلُوَ القُرْآنَ ، فَمَن اهتَدَى فَإنَّما يهْتَدى لنفْسهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فقُلْ إنَّما أَنَا مِنَ المُنْذِرِينَ * وَقُلِ الحَمْدُ للهِ ، سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم أنزل الله على خاتم رسله محمد عليه الصلاة والسلام من سورة الأنعام ٦/١٤ وترتيب نزولها الرابعة والخمسون (٥٤) من بين سور القرآن ، قوله فى أوائلها :

« قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطعَمُ ، قُلْ إنِّى أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ . . . » .

وقوله فى آخرها له صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ، إنَّما أمْرُهُمْ إلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أمْثَالِهَا ، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا ، وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ * قُلْ إنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إنَّ صَلاَتِي ، ونُسُكِي وَمَحْيَايَ ، ومَمَاتِي للهِ ربِّ العالمينَ * لاَ شرِيكَ لهُ ، وبذلِك أُمِرْتُ وأنا أولُ المسلمين » .

ثم أنزل عليه سبحانه فى سورة الزمر ٣٩/١١ — ١٢ ، وترتيب نزولها (٥٨) — أى بعد «سورة الأنعام» بأربع سور ، وبعد «سورة النمل» بـ ١١ سورة — قوله لحبيبه وخاتم رسله صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ إنِّى أُمِرتُ أنْ أعبُدَ اللهَ مخلِصاً لهُ الدِّينَ * وأُمِرتُ لِأَنْ أكونَ أوّلَ المُسلمِينَ » .

ومن العجب أن يربط الله سبحانه وتعالى بين الأولوية فى الإسلام ، وبين كمال العبادة هكذا . . . وكأن درجات الترقى فى الإسلام مرتبطة تماماً بدرجات الإخلاص فى العبادة لله ، وإخلاص الدين كله لله ، وإخلاص العبودية كلها لله . . .

ومن هنا نستطيع أن نتذوق كيف يكون محمد الخاتم صلى الله عليه سلم ، أولَ المسلمين ، وهو آخر النبيين والمرسلين ؛ وكلهم من المسلمين . ، لأنه أول العابدين ، ولأنه أكمل خلق الله : عبدَ عبادةٍ وعبدَ عُبودةٍ . . .

لأن العبد عبدان : عبدٌ من العباد ، وهو عبد العبادة .

وعبدٌ من العبيد، وهو عبد العبودة .

أول العابدين :

أما أنه أول العابدين : فلأن رب القرآن فى القرآن ، وفى سورة الزخرف (٤٣) يؤكد أن محمداً عليه الصلاة والسلام، هو أول العابدين، وهى السور التى نزلت بعد سورة الزمر بأربع سور فقط ؛ لأن ترتيب نزولها (٦٢) وقد أكد الله فيها أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو أول المسلمين . . . يقول الله الواحد ، لخاتم رسله الواحد ، رداًّ على من أشرك مع الله بالولد أو الوالد:

«قلْ : إنْ كان للرحمنِ ولَدٌ، فأَنا أَولُ العابدينَ *سبُحانَ ربِّ السَّمواتِ والأرضِ ربِّ العرشِ عما يَصِفُونَ » . (من سورة الزخرف ٤٣/٨١—٨٢) . بعد أن قال سبحانه فى أوائل « سورة الزمر » نفسها :

« لوْ أَرادَ اللهُ أن يتَّخذَ ولَداً لاصطَفى مِمَّا يَخلُقُ مَا يشاء ، سُبحانهُ هو الله الواحدُ القهارُ » .

وأما أنه أكمل خلق الله : عبد عبادة ، وعبد عبودة . . . ، فلأن لفظ « عبده » الذى ذكر فى القرآن الكريم سبع مرات ، لم يطلق على غير محمد صلى الله عليه وسلم بإطلاقٍ ؛ ولا مرة ، ولكن ذكر مع غيره مرةً واحدة فقط ؛ ومع التصريح باسم ذلك الغير ، وذلك فى قوله تعالى فى أول سورة مريم..

« ... ذِكرُ رحمةِ ربِّكَ عبدَه زكريا » .

كما تقول أنت عن عمك « مصطفى » : هذا « أبى مصطفى » أو « والدى مصطفى » ، أما إن تحدثت عن أبيك الحقيقى ، الذى هو والد حقيقى لك ، فلا يصح أن تصرح باسمه إلا لمن يريد معرفة اسمه ، أو للفخر به ، أو للتأكيد مع

القرينة ... فتقول: حضر أبى ، أو سافر والدى ، دون حاجة إلى ذكر اسمه ...

ولله المثل الأعلى... قال ربنا عن محمد صلى الله عليه وسلم: «فأوحى إلى عبده ما أوحى» . وقال ربنا عن غير محمد: «عبده زكريا» ،وورد ذلك مرة واحدة فقط ،

أما عن محمد صلى الله عليه وسلم فهو « عبده » الحقيقى الذى كملت فيه العبادة والعبودة ؛ فلا يصح أن يذكر الاسم معه ، لأن لفظ « عبده » إذا أطلق لا ينصرف ، ولن ينصرف ، إلا « لمحمد » عليه الصلاة والسلام . . .

وقد كرره الله فى قرآنه ست مرات ، فى أرقى مراقى التكريم والتشريف :

«سبحان الذى أسرىَ بعبده ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصَى الذى باركنا حوله ... ». (أول سورة الإسراء ١٧).

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ... » . ! . . .

(أول سورة الكهف ١٨) .

« تباركَ الذى نَزّلَ الفرقانَ عَلى عبده ليكونَ للعالمين نذيراً » .

(أول سورة الفرقان ٢٥) .

« أليسَ اللهُ بكاف عبدَهُ . . . » (الآية ٣٦ سورة الزمر ٣٩) .

« فأوَحى إلى عبده ما أوَحى * ما كذبَ الفؤادُ ما رأىَ * أفَتمارونه على مَا يرى ؟ ! » . (سورة النجم ٥٣/١٠ — ١٢) .

وكل هذه الآيات الخمس، التى ورد فيها لفظ «عبده» : نزلت على «عبده» محمد صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة ، وتفرقت فى طول هذه الفترة وعرضها . . .

أما الفترة المدنية ، فلم يُنزِل الله لفظ « عبده » على « عبده » فى القرآن كله إلا مرة واحدة فى (سورة الحديد ٥٧ /٧ — ٩) ، حيث يأمر ربُّ العالمين الناسَ أجمعين: أن يقفوا خاشعين متدبرين منفقين: أفراداً ومجتمعين.. . بقوله :

« آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير * وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم؟ وقد أخذ ميثاقكم ؟ إن كنتم مؤمنين * هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم » .

نعم يدعوكم الرسول لتؤمنوا بربكم، الرسول الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام...

لأن رسالته فوق أنها هى الخاتمة ، وهى المصدقة ، وهى المهيمنة . . . فهى وحدها الباقية إلى يوم الدين ، وفيها وحدها السعادة لجميع العالمين . . .

ولأن دعوته فوق أنها هى الجامعة ، وهى الشاملة ، وهى الكاملة . . . فهى وحدها القائمة إلى يوم يبعثون . . وفيها وحدها السعادة لجميع العالمين ...

ولأن رسالته ودعوته هما الإسلام وهما القرآن ، والإسلام والقرآن عامان خالدان ، لأن الإسلام هو « الدين » عند الله ، ولأن القرآن هو كلام الله الذى أنزله على خاتم رسل الله . . . ففيه وحده السعادة لجميع العالمين .

وكذلك أنزل الله سبحانه قوله : « عَبْدَنا » فى القرآن خمس مرات : فى ثلاث مرات منها قيد هذا اللفظ بأسماء: نوح ، وداود ،وأيوب ، عليهم السلام وكلها «مكية» ، وفى مرتين جاء هذا اللفظ مطلقا لا ينصرف إلا إلى « لمحمد » الحبيب ، صلى الله عليه وسلم ، والمرتان « مدنيتان » . . .

« كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا ، وقالوا مجنون وازدجر » .

(الآية ٩ سورة القمر ٥٤) .

« اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد ، إنه أواب »

(سورة ص ١٧/٣٨) .

« واذكر عبدَنا أيوبَ إذْ نادَى ربَّهُ ..». (سورة ص ٣٨ أيضا ٤١).

أما المرّتان المدنيتان المطلقتان اللتان لا تنصرفان إلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، فهما :

« يا أيها الناسُ اعبدوا رَبَّكم . . . * وإنْ كنتم فى رَيبٍ مما نزّلنا على عبدِنا فأتوا بسورة من مِثلهِ ، وادْعوا شهدَاءكم مِن دون الله إن كنتم صادِقينَ » . (الآية ٢٢ من سورة البقرة ابتداء من الآية ٢١) .

« واعلموا أنما غَنِمْتُمْ من شىء ، فأَنَّ للهِ خُمسَهُ ، وللرسولِ ، ولذِى القُرْبى ، واليتامَى ، والمساكين ، وابن السبيلِ ، إنْ كنتمْ آمنتمْ باللهِ وما أنزلنا على عبدنا يومَ الفرقانِ يومَ التقى الجمعانِ ، واللهُ على كلِّ شىء قديرٌ » . (الآية ٤١ من سورة الأنفال ٨) .

أما الأمر بالعبادة من الله الواحد ، للفرد الواحد ، فلم يرد فى القرآن كله بصيغتَى « اعْبُدْ » و « أعْبُدْهُ » إلا لمحمد عليه السلام خمس مرات تكريما وتثبيتا :

« وَلَقَدْ نعلمُ أنَّكَ يَضِيقُ صدْرُكَ بِما يَقولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك وكُنْ مِنَ السَّاجِدِين * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يأْتِيَكَ اليَقِينَ » .

(آخر سورة الحجر ١٥/٩٧—٩٩).

« تَنزِيلُ الكِتابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم * إنَّا أنزَلنا إليْكَ الكِتابَ بِالحقِّ ، فَاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا لَهُ الدِّين * ألاَ لِلهِ الدِّينُ الخالِصُ ... *

« بلِ اللهَ فاعبُدْ ، وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ » . (سورة الزمر ٣٩/١—٣ ، ٦٦) .

« ربُّ السَّمٰوَاتِ والأرْضِ ومَا بَينَهُما ، فَاعْبُدْهُ ، وَاصْطَبِرْ

لِعِبَادَتِهِ ؛ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » . (الآية ٦٥ من سورة مريم ١٩) .

« وكلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أنبَاءِ الرسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحقُّ ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إنَّا عامِلُونَ * وانتَظِرُوا إنَّا منتَظِرُونَ * ولِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ ، وإلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » . (آخر سورة هود ١١).

وكلُّ هذه المرات الخمس نزلت فى « مكة » .

هكذا التطور فى العبادة وفى الإسلام :

وعلى هذا يكون « نوح » عليه السلام ، هو أول رسول ذكره الله فيمن ذكرهم من المرسلين بقوله « عَبْدنا » ، ويكون « محمد » عليه السلام ، وهو خاتم الرسل ؛ هو وحده الذى أطلق الله عليه قوله : « عَبده » ، « وعَبْدنا » ؛

بل هو وحده صلى الله عليه وسلم الذى أفرد له الأمر بصيغتى « اعْبد » و « اعْبده » فى القرآن كله تكريما له وتشريفا على العالم كله ، وإن كان الخطاب الإلهى يتوجه للإنسان كله . . .

بل هو وحده صلى الله عليه وسلم الذى أكد الله له فى القرآن كله أنه « أول العابدين » .

وعلى هذا أيضاً يكون « نوح » عليه السلام هو أول رسول ذكر الله عنه أنه « من المسلمين » ، ويكون « محمد » صلى الله عليه وسلم ، وهو آخر المرسلين زماناً ، وخاتم النبيين ، هو وحده الذى أكد الله — سبحانه — أنه : « أول المسلمين » ، و « أول العابدين » .

وهكذا يكون « التطور » فى العبادة وفى الإسلام : من « نوح » إلى « محمد » عليهما الصلاة والسلام .

وهكذا يجب أن يفكر المفكرون، ويتفلسف المتفلسفون ، ويستنبط الباحثون ، ويستدل العلماء والمؤلفون . . .

« لكِنِ الرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ مِنهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنزِلَ إِلَيكَ ومَا أُنزِلَ مِنْ قَبلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّلاةَ والمؤْتُونَ الزَّكاةَ والمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أُولَئكَ سَنُؤْتِيهِمْ أجْراً عَظِيماً * إنَّا أوْحَينا إلَيكَ كَما أوْحَينا إلى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بعْدِهِ ، وأوحَينا إلى إبْرَاهِيمَ ، وإسْماعِيلَ ، وإسْحٰقَ ، ويَعْقُوبَ ، والأسْباطِ ، وعِيسَى ، وأيُّوبَ ويُونُسَ ، وهرُونَ ، وسُلَيمَانَ ، وآتَينا دَاوُدَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيكَ مِنْ قَبلُ ، ورُسُلاً لمْ نَقْصُصْهُمْ علَيكَ ، وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكلِيماً * رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِئَلَّا يَكونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أنزَلَ إلَيكَ ، أنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، والمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وكَفَى بِاللهِ شَهِيداً » .

(سورة النساء ٤/ ١٦٢ — ١٦٦) .

* * *

أسباب التفرق والانحراف والتحريف :

هؤلاء هم رسل الله الواحد ، الذين أرسلهم إلى الإنسانية كلها بدين واحد ، ولكن كثيراً من أتباعهم ، وممن جاءوا بعدهم اختلفوا ، واقتتلوا ،

وتنازعوا ... بغياً بينهم ، فإذا ما جاءهم الرسول اللاحق لرسولهم ، وجاءتهم البينات على يديه من ربهم :

اختلفوا ؛ فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر . . .

وانحرفوا ؛ فمنهم من كتمَ ، ومنهم من فجر . . .

ثم حرَّفوا ؛ فمنهم من بدَّل وغيَّر ، ومنهم من أوَّل وفسَّر . . .

ثم خرَّفُوا ؛ فمنهم من انكمش وقصَّر ، ومنهم من انفجر وفَجَّر . . .

ولقد أشار الله إلى كل هؤلاء من أربعة عشر قرنا من الزمان ...وما يزالون ، ولا يَزالون ؛ حتى يطهر الله الأرض منهم على أيدى المؤمنين ...

قال رب العزة فى سورة البقرة لخاتم رسله صلى الله عليه وسلم :

« تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوها عليْكَ بِالحق ، وإنَّكَ لِمَنَ المرْسَلين » .

« تِلْكَ الرّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ، وَرَفَع بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ ، وآتيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأيَّدْناهُ برُوحِ القُدُسِ .

وَلَوْ شَاءَ اللهُ ما اقْتَتَلَ الذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهم البَيِّنَاتُ ، ولَكِنِ اخْتَلَفُوا ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ ، ومِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ... » . (سورة البقرة الآيتان ٢٥ — ٢٥٣) .

ويقول سبحانه فى سورة آل عمران ١٩/٣ :

« إنّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسْلَامُ ، وما اخْتَلَفَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمْ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ... » .

ثمّ يقول فى سورة البقرة :

« الّذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبنَاءَهُمْ ،

وَإنَّ فَرِيقاً مِنهُمْ ليَكتمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعلَمُونَ * الحقُّ من رَبكَ ..» ١٤٦..

« إنَّ الَّذِينَ يكتمُون ما أنزَلنا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالهُدَى مِنْ بَعْدِ مابيَّناهُ للنَّاسِ فى الكِتابِ ، أولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ ويَلعَنُهُمُ اللاَّعِنونَ * إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وأصْلَحُوا وبيَّنُوا ، فَأُولَئِكَ أتوبُ عليْهِمْ ، وأنَا التَّوابُ الرَّحيمُ ». (١٥٩ — ١٦٠)...

« إن الذينَ يكتُمُونَ ما أنزَلَ اللهُ مِنَ الكِتابِ ويَشتَرُون بهِ ثمناً قليلاً ، أولئكَ مَا يَأكلُونَ فِى بطُونِهِمْ إلاَّ النَّارَ ، ولاَ يُكلِّمُهُم اللهُ يَومَ القِيامَةِ ، وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ، ولَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ * أولَئِكَ الذينَ اشتَرَوا الضَّلاَلَةَ بالهُدَى ، والعَذَابَ بالمَغفِرَةِ ، فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأنَ اللهَ نَزَّلَ الكِتابَ بالحَقِّ ، وإنَّ الذينَ اختَلَفُوا فى الكِتآبِ لَفِى شِقاقٍ بَعيدٍ ». (١٧٤ — ١٧٦).

ثم يقول الله للمؤمنين عن بنى إسرائيل :

« أفتَطمَعُونَ أنْ يُؤمِنُوا لَكُمْ ، وَقدْ كانَ فَرِيقٌ مِنهُمْ يَسمَعونَ كَلاَمَ اللهِ ثمَّ يُحرِّفونَهُ مِنْ بعْدِ ما عَقَلُوهُ ، وهُمْ يَعلمونَ * ! ؟ ...

فَوَيلٌ للَّذِينَ يكتُبونَ الكتابَ بِأيديهِمْ ، ثمَّ يَقولُونَ هذَا مِنْ عِندِ اللهِ لِيَشتَرُوا بهِ ثَمَناً قَليلاً ، فَوَيلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيديهِمْ ، وَوَيلٌ لهُمْ مِمَّا يكسِبُونَ ». (سورة البقرة ٢/ ٧٥ ، ٧٩) .

ويقول فى سورة المائدة ٥/ ١٢ — ١٦ :

« وَلقدْ أخَذَ اللهُ مِيثاقَ بَنِى إسْرَائيل... * فبِمَا نَقضِهِمْ مِيثاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ

وجَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً : يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ ... * وَمِنَ الذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى أخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ ، فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبغْضَاءَ إلى يَوْمِ القِيامَةِ ، وَسَوفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * يَا أهْلَ الكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ ، وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بِإذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

يا حملة الكتاب، ويا ورثة الأنبياء:

فيا حملة الكتاب : بيّنوا ولا تكتموا ، وقولوا الحق ، ولا تقولوا على الله إلاّ الحق ، تسعد بكم الدنيا ، وتسعدوا . . .

ويا ورثة الأنبياء : اعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا ، ولا تنحرفوا ... وجاهدوا فى الله حقّ جهاده ... وتعاونوا . . ولا تختلفوا . . .

فما اختلت فى الدنيا موازين : إلا باختلاف رجال انتسبوا إلى الدين . . .

أو بانحراف رجال انتسبوا إلى العلماء أو العاملين . . .

أو بانصراف الموهوبين ، القادرين ، المخلصين . .

وكأن أحداً لم يتذوق ميثاق النبيين المذكور فى هذا الكتاب ، وهو الذى أخذه رب العزة على جميع الأنبياء والمرسلين ليسيروا بالإنسانية ، مصدقين

ومكملين ، وممهدين . . . إلى كل أنواع البر والخير والسعادة آمنين ، سالمين . . . ومسلمين .

وبإتمام الدين بمحمد خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم ، كمل « التطور » للإسلام من رب العالمين .

ومن أراد « التطور » حقا ، إلى أسعد وأكمل ، فليرجع إلى الدين في صفائه الأول . . .

ومن أراد المزيد أو التفصيل أو العبرة ، فليرجع إلى كتابنا « العقيدة والفطرة »

تطور الإسلام وكماله :

قال صاحبي : ولكنهم يقولون : إنَّ كل شيء يتطور ، فلِمَ لا يتطور الدين ؟ ! . . أو يفسح المجال للمفكرين ؟ ! ! .

قلت لصاحبي : إن التطور هو محاولة الوصول من نقص إلى كمال ، وقد عرفنا أن كل حلقة سابقة من حلقات الدين هي الكمال الأكمل لمن أرسل الله إليهم هذه الحلقة الدينية ، وقد توالت الحلقات على الإنسانية ، حتى بلغت كمالها الأكمل ، بخاتم النَّبيينَ محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنزل الله عليه الإسلام كل الإسلام : « إن الدين عند الله الإسلام » ، وقال للعالمين في ختامه :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا » .. فأي تطور للدين بعد أن أكمل الله الدين؟ وأي تطور للنعمة بعد أن أتم الله النعمة ؟ وأي تطور إلى مرضاة الله بعد أن رضي سبحانه الإسلام دينا ؟

والدين كل الدين وهو الإسلام ، أنزله الله لكمال سعادة الإنسان ، فهل كملت سعادة الإنسان ، في غير إتّباع تعاليم الرحمان . في أي زمان ومكان؟ وهل كملت إنسانية الإنسان ، وأخلاق الإنسان بعيداً عن الهُدَى والقرآن؟ ..

يا صاحبى إن الإنسان هو الذى يحتاج إلى أن يتطور فى إنسانيته وأخلاقه وسلوكه وقيمه ، وعلمه وعمله؛ ولا كمال له إلا بالإسلام ،وباتباع تعاليم الإسلام .. ثم أوليس الإنسان شيئاً؟ فلِمَ لايتطور الإنسان إلى كمال إنسانيته؟ إلى تحقيق خلافته ، إلى استكمال سيادته ، وأخوته ، وعبادته . . . إلى الدين الحق . . إلى كمال الدين ؟ ! . إلى الإسلام : « إن الدين عند الله الإسلام » .

وكل مذهب، وكل حزب ، وكل نظام لابدّ له من مؤسس، أوموجّه ... فلم لا يتّبع كلُّ مؤمنٍ رسولَ الإسلام ، عليه السلام ؛ لتتوحد الأمة ؟ . . مع أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ، إنما هو مبلّغ الكمال الأكمل ، عن الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الحكيم الخبير المحيط ، الذى له وحده سبحانه الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين . . .

يا صاحبى : إن التطور ظاهرة لم يحسنوا قراءتها ، ولم يتعمقوا شيئا من أسرارها ، ولو أحسنوا ، ولو تعمقوا . . . لوصلوا إلى واحدٍ أحَدٍ ، يملك وحده أن يُطوِّر ، ولا يمكن أن يتطوَّر . . .

نعم إن المادة فى جمودها يستطيع الإنسان بالعلم أن يطوِّرها ، بمقدار ما يتكشف من خصائصها . . . لأنه سيّدها وقد خلّفه الله عليها ، أو إن شئت فقل : إن الإنسان هو الذى يتطور مع المادة بمقدار ما تتكشف له . . .

ولكنْ من الذى يملك بثَّ الحياة فى المادة : فى حيويتها ؟ أو فى حياتها ؟ أوْ يملك الإبقاء على حياتها ؟ ! . . وهل الإنسان نفسه يستطيع أن يمدّ نفسه بحياته ، أو أن يُبْقِيَ عليها ؟ ! .

ظاهرة التطور: مشاهدتها ، وقراءتها ، وتفسيرها:

إن التطور ظاهرة تشاهَد ، ولكن كيفَ تُقرأ ؟ وكيف تُفسَّر ؟ ! .

قالوا : لقد تطور الإنسان من الأميبا ، كما قال « دارون » ، أو عشرات العناصر أو الحيوانات قبل الأميبا ، كما اكتشف العلم بعد « دارون » ، وسيكشف العلم ويكشف ، لأن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ،

فلم لا يتطور العلم إلى الإسلام ؛ وقد قال الإسلام الكلمة الأخيرة ، لأن الذى أحكم آيات الأكوان وفصلها : هو سبحانه الذى أحكم آيات القرآن وفصلها...

ولقد سبق علماء المسلمين إلى القول بالتطور، ولكنه التطور العلمى الجاد ، التطور فى الخلق والايجاد . . سبقوا بعشرات القرون من أمثال الجاحظ فى « حياة الحيوان » ، والدميرى فى عجائب المخلوقات .. وغيرهم وغيرهم .. وقد سبقهم القرآن بمئات القرون حكاية عما يعرف العامة من قوم نوح ، حيث لفتهم إلى ما يعرفون من الخلق المتطور ، أو التطور الخالق فقال لهم :

« مالكم لا ترجون لله وقاراً ، وقد خلقكم أطواراً » ..

أما أصحاب نظريات التطور من الغربيين ، فقد أخذوا أطواراً ، وتركوا « خلقكم » ، فشوهوا النظرية وانتكسوا بها . .

ثم إذا كان عمر الإنسان اليوم — على مقتضى قوانين التطور — هو مئات الملايين من السنين ؛ من يوم أن كان أميبا ، أو خلية ؟ . . فما عمر النملة ، وما عمر الأميبا أو الخلية ؟ ! ثم ما عمر « البلازما » الآن ؟ ؟ بل ما عمر الحجر الذى يتحول — إن تحول — إلى خلية ؟ ! بل ما عمر « النُوّية » التى تعيش فى كل ذرة من ذرات الحجر ، قبل أن ينفجر وبعد أن ينفجر . . . ؟ ! !

ثم إذا هرب القائلون بالتطور من سلطان المبدع الخالق إلى سلطان الطبيعة الخارق ، فإلى أى مهرَبٍ هَربوا ، وإلى مَنْ هربوا ؟ ! أ إلى سلطانٍ ذاتىٍّ عاقل مدبِّر ؟ ! أم إلى سلطانٍ عزيز قوى مسيطر ؟ . . .

وإذا كانت الطبيعة فى نظرهم هى فاعلة التطور ، وكل كائن طبيعة تتطور...

فليعبدوا مايشاهدون من مطورين ومطورات ، لكثير من أنواع الديدان والميكروبات ؛

أو فليعبدوا : الروث ، والمش والقاذورات ؛

أو فليعبدوا العفَن والكفَن والمستنقعات .

ردّ على بعض الشبهات والافتراءآت يدعيها من يدّعون التطور :

قال صاحبي : أستغفر الله ، وحاشا لعاقل أن ينزل إلى هذه الدركات . . . واتّباع الرسول الخاتم ، خير من اتباع أصحاب الادعاءات ؛

ولكن أعداء الإسلام يثيرون حوله كثيراً من الشبهات . مثل : الرِّق ، والطلاق ، وتعدد الزوجات . . .

أو مثل ما يشاهدون فى بعض البلاد الإسلامية من الخرافات . . .

قلت لصاحبي: كل هذه محض ادّعاءات وافتراءات، لا يمكن أن تُسمع إلاّ من جاهل أو معاند أو كافر أو مفتات ،

ومع هذا فإن شرحها ، والتعليق عليها : يحتاج إلى مجلدات . .

ولكن هل يصح أن يُطعَن على أى نظام ، بما انحرف إليه بعض المنتسبين إلى هذا النظام ؟ ؟

يا صاحبي : إن القرآن وحديثَ رسول الإسلام ، هما وحدهما الحجة على الإسلام ، فلا يصح أن يُحتج عليه بأفعال بعض المنتسبين إليه .

ثم إن التشريع الإسلامى معجز محيط ، لأنه من القادر الخبير المحيط ، ومن أبرز الفروق بينه وبين جميع التشريعات الأُخرى ، أنه هو وحده الذى حصر : النادر ، والضرورة ، والنُّشوز . . . فى كل ما يجرى على طول الزمن ثم شرّع له : أوسع تشريع ، وأعمق تشريع ، وأجمع تشريع .

وكل التشريعات الأُخرى إنما تشرِّع للأغلبية أو للمجموع ، أما الإسلام

فقد شرّع لـكل فرد ، ولـكل حالة ، بل شرع للجميع ، وقد تبدو التفصيلات الواسعة فى تشريعه للضرورات ،وتعَدّ بمئآت الآيات ؛ بينما التشريع فيه للأغلبية ، أو للأحوال العادية قد يبدو فى كلمات ،

فمثلاً فى الحياة العادية ضَمن لـكل فرد أجمل حرية ، ولـكن فى الضرورة الحربية ، التى ينتج عنها حتما « أسارى » مغلوبين ، لابد حتما من التشريع لهؤلاء كيف يؤسرون ، ويعاملون ، ويتحررون . . .

فإن نتجت عن الحرب زيادة زائدة مخلة بالمجتمع ، من الأرامل واليتيمات ، وممن كان يعولهن من قتلوا فى سبيل الله . . . فلابد حتما لعلاج هذه الضرورة من التعدد ، وقد يقاس على هذه الضرورة ، بعض الضرورات الأخرى حفظاً لـكيان الأسرة ، وسلامة المجتمع .

والعجيب حقاً فى أمر التشريع للأسرة الإسلامية ، أن تشريعاتها — فى الأمور العادية وللأغلبية — قد لا تتجاوز كثيراً قوله تعالى : « ومن آياته أن خلَقَ لـكُم مِن أنفسكُم أزواجا لتسكنوا إليها وجعَل بينـكم مودةً ورحمةً » وقوله : « ولهنَّ مِثلُ الذى عَليهنّ بالمعروف وللرجالِ عليهنّ درجة » .

أما التشريعات لدفع ضرر أو لتسرُّبِ الشقاقِ أو المرض إلى الأسرة ، عن طريق المرأة ، أو عن طريق الرجل ، أو عن طريقهما معا ، أو عن طريق المجتمع ... فلـكل منها علاجات،وهى كثيرة ومُتنوعة ، وقدردت فيها عشرات العشرات من الآيات ، إن استعملت حقا لم يفلت منها مرض ولم يستعص عليها نشوز ؛ لأنها متنوعة وشاملة وتستوعب جميع العلل والآفات . . .

وفوق هذا كله فقد وضع الإسلام تشريعا لـكل ما يترتب على علاج أى ضرورة من هذا كله ، وكل هذا يحتاج إلى مجلدات ومجلدات :

قال صاحبي : أشهد أن التشريع للإنسان ليس إلا من الخالق الرحمٰن ،

وأن التطور للإسلام وللإنسان ليس إلاّ إلى القرآن ، وليس إلاّ من القرآن ، ولكن إبراز هذه التشريعات الإسلامية هكذا ، يتطلب منك فوق طاقة الإنسان ! . . .

قلت لصاحبي : وفَّقَ الله وأعان ، وأمدّنا سبحانه بالمزيد من التوفيق والإخلاص ، والإيمان . . . وسيتضمن الباب الثالث : تطبيقات عملية من القرآن .

ومن أراد الوقوف على شيء من أصل التكوين أو التشريع أو العبرة ، فليرجع إلى كتابنا « العقيدة والفطرة » .

ومن أراد التوسع فى معنى الدين والأديان ، فليرجع إلى كتابنا : « المدخل إلى دراسة الأديان » . والله المستعان . . .

* * *

وبعد ، فهذا هو الذى استطعنا تأسيسه من القواعد الآن ، للفلسفة الحديثة والمعاصرة ، وهو دائما من القرآن . « إنّ هذا القرآنَ يَهْدِى للتى هى أقْومُ ، ويُبشِّرُ المؤمنين . . . »

ولعل من خير ما نتمثل به قول الإمام « أبى حنيفة النعمان » رضى الله عنه : « عِلمُنَا هذا رأىٌ وهو آخر ما قدرنا عليه ، فمن قدر على غير ذلك ، فله ما رأى ولنا ما رأينا » .

وقول « الإمام الشافعى رضى الله عنه : « رأينا صوابٌ يحتمل الخطأ ، ورأىُ من يخالفنا خطأ يحتمل الصواب » . . . مكررين : دُعاءً ، وتَأَسّياً ، وغُنْماً : « وقُل ربِّ زِدْنى عِلماً » .

الباب الثالث

تطبيقات عملية من القرآن

توجيه وترشيد

المقدمة : عناية القرآن بواقع الإنسان .

الفصل الأول : الدعوة إلى الله وسبيلها ، ووسائلها .

الفصل الثانى : التاريخ الحق وبنو إسرائيل .

الفصل الثالث : الفلاح والنصر .

الفصل الرابع : الماء والمال هما عصب الحياة :

الإحياء والإبقاء .

الماء عصب الحياة الطبيعى .

المال عصب الحياة التنظيمى .

الباب الثالث

تطبيقات عملية من القرآن

توجيه وترشيد

المقدمة

عناية القرآن بواقع الإنسان

حال العالم اليوم .

بذل الجهود العلمية والعملية .

الفلسفة المادية الواقعية من القرآن .

عناية القرآن بأقوال الناس .

عناية القرآن الكريم بالعمل .

عناية القرآن أيضاً بالفعل .

عناية القرآن بالاكتساب والاقتراف .

عناية القرآن بالأجر والجزاء .

العبادات والعبادة .

الدنيا كلها متطلعة إلى الدعوة الواعية .

تطبيقات عملية من القرآن

توجيه وترشيد

المقدمة

عناية القرآن بواقع الإنسان

حال العالم اليوم :

تتسارع الدنيا ولكن إلى تصارع . . .

ويتطاول العالم ولكن إلى تقاتل . . .

ويتسابق العلم ولكن إلى تراشق . . .

ويتفاخر العلماء ولكن إلى تناحر . . .

وتتراكض الإنسانية الآن ؛ ولكن داخل فم الثعبان . . .

وتتراكل البشرية الآن ؛ ولكن داخل حمم البركان . . .

وكأن الشيطان قد نفخ فى الآذان . . .

وكأن العدوان فى طبيعة الإنسان . . .

وكأن الخلق والأمان ، استترا فى خبر كان . . .

ولا نجاة ولا رجاء إلا بالإيمان ،

ولا سعادة ولا هناءة إلا بالقرآن . . .

بذل الجهود العلمية والعملية :

لا بد من بذل الجهود ، كل الجهود ، ولا بد من التوجيه والترشيد ، بعزم أكيد ، وحزم شديد ، وعلى بصيرة وبصر حديد ، وفى إخلاص ومثابرة وترديد . . .

فقد قررنا أنه لا قوام للفلسفة والعلم . . . إلا بالتزام الحق والصواب . . .
وعبّدْنا طرائق الخلق والتفكير والمجتمع . . لذوى البصائر والألباب . . .
ولحنا إلى العقل والإنتاج ، وكشفنا عن مصدر التدبر والتعقل والحجاب ...
وأشرنا إلى أن المعرفة كلها من الدين مهما اختلفت الأساليب والأسباب .
وقارنا فى إيجاز بين حضارة الإنسان ، وحضارة المواد والعناصر والتراب ...
وفتّحنا — على قدر طاقتنا — لفهم الإسلام والمسلم والتطور بعض الأبواب..
ومزقنا فى هذا كله ألا عيب الصهيونية والاستعمار ، وكشفنا عنها النقاب ..
وحطمنا الأغلال، وكسرنا القيود والأسوار بحكمة الشيوخ وعزمة الشباب ...
مستلهمين التوفيق وكتاب الله الذى لا يطلق على غيره : « ذلك الكتاب » ...

الفلسفة المادية الواقعية من القرآن :

بقى أن نشير فى إيجاز الآن ، إلى بعض تطبيقات عملية ، ومادية ، وواقعية من القرآن ؛ لنمحق بها كل افتراء ، وخداع وسراب ...

وسنرى أنها المعجزة لكل البيئات والتخصصات ، المتغلغلة فى صميم الواقع وفى كل المجالات ، المشتملة على كل شئون الأفراد والمجتمعات ، المحيطة بكل مطالب الحياة مهما اختلفت المسالك والشعاب ...

سنراها : فى القول ، وفى العمل ، وفى الفعل ، وفى الاكتساب ...

وسنراها : فى الجزاء ، وفى الأجر ، وفى الثواب ، وفى العقاب ...

وسنراها : فى الرباط المحكم الوثيق ، بين التدبير والتخطيط والتطبيق ، فيما بين النظريات والعمليات ، وفى الدعوة إلى الله وسبيلها ، وفى مناهج الإعلام ووسائلها ...

سنراها فى التاريخ وما يكتنفه من التزييف والتضليل ؛ خصوصا حول

المعتدين المفسدين من بنى إسرائيل ، كشفاً لأباطيلهم النكراء ، وتصحيحاً لتاريخهم الغارق فى الدماء ، وإنقاذاً للإنسانية من سموهم الرقطاء ، وإزالة لإفسادهم من على وجه الغبراء . . .

سنراها فى مُقوّمات الفلاح ومعدات النصر ، وما يجب أن يتسلح به المؤمنون لكسب المعارك وإزالة العدوان والشر . . .

سنراها ببساطة وعمق فى مادتين هما عصب الحياة وشريان البقاء . . .

فى المال : زينة الحياة الدنيا ، ومصدر البغى والتصارع والعداء . . .

وفى الماء : مصدر الحياة لكل حىّ ، ومقوم الحياة لجميع الأحياء . . .

قال صاحبى : وهل ستتحدث عن كل هذا من القرآن ؟ ! .

قلت : ياصاحبى ، ليس هذا كله إلا بعض نظرات من بعض قطرات من محيط القرآن الذى لا يتناهى ولا يُحدّ . . . والذى سيظل الرّىّ الوحيد للدنيا ما دامت الدنيا إلى الأبد ، والذى تنفد من حوله أقلام الأرض ومشاكل العالمين وأحداث الدنيا وحوادثها ولا ينفد . . .

واقرأ معى كثيراً من سورة الإسراء ١٧ فى الآيتين ٨٨ ، ٨٩ : . .

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هـذَا القُرآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ‌« ولَقَدْ صَرَّفْنا للنَّاسِ فِى هذَا القرآنِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ ، فَأَبَى أكْثَرُ النَّاسِ إلاَّ كُفُوراً » .

ومن سورة الكهف ١٨/٥٤:

« ولَقَدْ صَرَّفْنا فى هذَا القُرآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كلِّ مَثَلٍ ، وكَانَ الإِنْسَانُ أكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلاً » .

وقوله سبحانه فى سورة الزّمر ٣٩ فى الآيتين ٢٧ و ٢٨ :

« وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ، لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ».

وقوله سبحانه فى سورة الحشر ٥٩ فى الآية ٢١ :

« لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وفى سورة العنكبوت ٢٩/٤٣ :

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ، وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ » . . .

إلى أن قال عن القرآن فى الآية ٤٩ من نفس السورة :

« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

وذلك فضلا عن قوله سبحانه فى سورة الأنعام :

« مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » . . . وقوله أيضاً :

« قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . . . لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . . . لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ . . . » .

وفضلا عن قوله سبحانه فى سورة الإسراء ١٧/١٢ :

« وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا » .

وحتى عن التاريخ والقصص قال تعالى فى أواخر سورة يوسف ١٢ :

« لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأولِى الألبَابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفتَرى، ولَكِنْ تَصْدِيقَ الذى بَيْنَ يَدَيْهِ، وتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ... »

وعن القرآن لرسول القرآن، قال سبحانه فى سورة النحل ١٦ / ٨٩ :

« ... ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ ... » .

عناية القرآن بأقوال الناس :

يا صاحبى : إن القرآن فى كلمة واحدة يصلح كلَّ أقوال الناس، ويحبِّب كل الناس، إلى كل الناس، ويقرب الناس إلى الرحمة من كل باب، ويبعدهم عن الفُحْشِ والبذاءة والسِّباب، ويباعد بينهم وبين الغيبة والنميمة والوسواس، ويجنِّبهم كل ما يؤذى أى واحد من الناس.. حيث يقول سبحانه فى سورة البقرة ٢ فى الآية ٨٣ :

« وقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً .. » .. وهذا من أهم مفاتح الدعوة إلى الله ...

ثم هو يهدد كل متنطع، طويل اللسان، متغطرس عنيد، بقوله تعالى وتقدس فى سورة (ق) ٥٠/١٨ :

« مَا يَلفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » .

وقوله فى سورة المُلك ٦٧/١٣ :

« وأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أو اجْهَرُوا بِهِ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

كما يوجه سبحانه إلى القول المحكم النافع، الذى يُصلح العمل، ويسدِّد الخلل، ويداوى العلل، فيقول سبحانه فى سورة الأحزاب ٣٣/٧٠ :

« يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلاً سَديدًا * يُصلحْ لَكمْ أَعْمالَكُمْ ، ويَغفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكمْ ...»

فبين سبحانه أن مفتاح صلاح الأعمال ، إنما هو فى تسديد الأقوال ...

ثم عتب بشدةٍ وتهديد وغضب ومقت ، على أولئكم الذين يخالف فعلهم قولهم ، مشيرا إلى أنهم لا ينتصرون ولا يفلحون فى وحدة صف ، ولا فى جمع كلمة ، ولا فى محاربة عدو .. فقال سبحانه فى سورة الصف ٦١ فى الآيات ٢ ـ ٤ :

« يَا أَيُّها الذينَ آمنُوا: لِمَ تَقولُونَ مَا لاَ تَفعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفعَلُونَ * إنَّ اللهَ يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُون فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » .

وتأمل يا صاحبى قوله سبحانه فى سورة البقرة ٢/٢٠٤ — ٢٠٦ :

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعجِبُكَ قَولُهُ فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا ويُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ * وإذَا تَوَلَّى سَعَى فى الأرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهلِكَ الحرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ * وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أخَذَتهُ العِزَّةُ بِالإثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمَ ولَبِئْسَ المِهَادُ » .

ثم تدبر كيف ومتى يكون القول خيراً حتى من الصَّدَقة ، فى قوله سبحانه فى سورة البقرة ٢/٢٦٣ :

« قَولٌ مَعرُوفٌ ومَغفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتبَعُهَا أذًى ...» .

ثم وكيف يقرن الله قول الزور وشهادة الزور بعبادة الأوثان فى قوله سبحانه فى سورة الحج ٢٢/٣٠ :

« ... فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ، واجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ » .

حتى ولو كان الذى نشهد عليه ، أو نحكم فى قضيته ، أو نتحدث عنه من ذوى قرابتك . . . يقول سبحانه فى سورة الأنعام ٦/١٥٢ :

وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كانَ ذَا قُرْبَى » .

ثم بين سبحانه أنّ مفتاح الدعوة إلى الله ، ومفتاح العمل الصالح ، ومفتاح تقبُّل الإسلام ممن يدعيه ؛ إنما هو القول الطيب الحسن ، وهو الحسنة ... وتدبر مثلا قوله سبحانه فى سورة فصلت ٤١/٣٣ — ٣٤ :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ، وقَالَ إنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ * وَلاَ تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ . . . » .

ويحذرنا الله بشدة من أقوال المنافقين ، والمخادعين ، والكافرين ، ويلفتنا العليم الخبير سبحانه إلى عدم تصديقهم . ولو أقسموا بأغلظ يمين ؛ بل ويؤكد سبحانه أنهم دائماً هم الكاذبون ، حتى ولو قالوا الصدق كل الصدق ، أو الحق كل الحق ؛ لأنه لا بد من أنهم يمكرون ، ويخادعون ، وينافقون ؛ حتى وهم يحلفون ، ويغلظون أيمانهم ويؤكدون . . .

فقال سبحانه لخاتم رسله عليه الصلاة والسلام فى أول سورة المنافقون ٦٣ :

« إذَا جاءَكَ المُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، واللهُ يَعْلَمُ إنَّكَ لَرَسُولُهُ ، واللهُ يَشْهَدُ إنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ؛ إنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ولو حاولنا أن نستوعب ألفاظَ القول ، ومادة القول من القرآن الكريم ، لاحتجنا إلى سنواتٍ ومجلدات ، ويكفى أن نعلم الآن أنها تكررت فى القرآن

١٧٢٢ مرة ، وهذا وحده دليل على أهمية إصلاح القول ، لإصلاح الإنسان كله . وكلنا يعلم أن اللسان نصف الإنسان ، وأن مفتاح الإنسان هو اللسان ، كما قال عليه الصلاة والسلام « المرء بأصغريه : قلبه ، ولسانه » .

قال صاحبي ونظره مشدودٌ إلى القرآن ؛ يا سبحان الله : حقًّا إنه الإعجاز وإنه الفرقان ؛ لإصلاح الإنسان كله عن طريق إصلاح القول واللسان ، ولا يمكن أن يكون هذا إلا من الخالق الحكيم الرحمٰن .

ولكنهم يتمشدقون في فلسفاتهم المادية العرجاء بالعمل والاكتساب وبالأجر وبالجزاء . . .

قلت لصاحبي : ليس إصلاح ذلك كله وغيره ، إلا من القرآن وبالقرآن . . .

عناية القرآن الكريم بالعمل :

ياصاحبي : إن العمل في كل مجالات الحياة ، وعلى كل المستويات ؛ لإصلاح المجتمع في كل زمان ومكان ، ولإصلاح الفرد والأسرة والأمة وكل إنسان . . . لا يمكن أن يستقر ويسعد ، ويؤدى إلى الأمن والسلام ، إلا إذا انطلق على هُدًى من القرآن ، كتاب الهدى والإسلام . . .

ولقد تكررت مادة العمل في القرآن ٣٥٩ مرة ، بما لا تستطيع الدنيا تبيانه أو استيعابه ، أو حصره ؛ لأنه يعيش الدنيا جميعاً ويمتد إلى سعادة الآخرة . . . ولعلك على ذكرٍ من مادة « العلم » ، في الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب ، وعنوانه « الحكمة والعلم » ، صفحات ٢٠١ — ٢٢٦ وبقية فصول الكتاب . . .

ولكن الذي أحب أن أشير إليه الآن ، هو أن القرآن ، قد أكدّ ضرورة العمل المستمر للإنسان . .

لأن خالق الإنسان سبحانه ، قد خلقه ليعمل ما يستطيع على آخر وسعه وقدره ، وأنه بمقدار عمله يكون جزاؤه وأجره ، وأن أجر العامل لا يضيع خصوصاً إذا أحسن عمله وأتقنه . .

وأن العمل والإيمان متعانقان فى القرآن ، وقد يسبق العمل ، وقد يسبق الإيمان ، وأن العمل والأكل أيضاً متكاملان ، فضلا عن الشرب والكسوة والمسكن وكل متطلبات الإنسان . . .

وأن الانتصار على العدو لا يكون إلا بالأعمال الصالحة فى كل مجالات الحياة إعداداً واستعداداً وتخطيطاً وتنفيذاً . . .

وأن آفة الأعمال هى التى تهبط بأصحابها إلى دركات الأخسرين ، وأن الأخسرين أعمالا هم المخدوعون المغرورن ، مهما حسبوا أنهم يحسنون :

وتدبَّرْ معى من سورة الكهف١٨/١٠٣ — ١٠٥ قول العزيز الحكيم :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمالاً * الذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ، فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا » . . .

وآيات القرآن فى هذه المعانى واضحة لا تحتاج إلى بيان ، فاستمع من سورة الكهف أيضًا الآية ٧ إلى قول الخالق سبحانه :

« إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا ، لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحسَنُ عَمَلاً » .

وقوله فى مفتتح سورة الملك ٦٧/١ — ٢ :

« تَبارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ ، وَهُوَ عَلَى كلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِى خَلَقَ

الموتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً . . . » .

وقوله فى سورة آل عمران ٣/١٩٥ :

« فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ : أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ . . » .

وقوله فى سورة الأحقاف ٤٦/١٩ :

« وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » .

وقوله فى سورة الزلزلة ٩٩/٧ — ٨ :

« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

وقوله سبحانه فى سورة النحل ١٦/٩٧ :

« مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً . . . . »

ثم قوله فى سورة المؤمنون ٢٣/٥١ :

« يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً . . . » .

عناية القرآن أيضا بالفعل :

وأما الفعل ، فقد تكررت مادة « الفعل » ومشتقاته فى القرآن ١٠٨ مرات ويقابل عدده عدد « الأجر » تماما ،

ويكفى أن نقرأ معًا قول الله سبحانه فى سورة المائدة ٥/٧٨ — ٧٩ :

« لُعِنَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إسْرَائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » .

وأن نقف طويلاً عند طائفة من المغرورين الذين يحبون التعالى والأنانية وينسبونَ إلى أنفسهم أفعالَ غيرهم ؛ حيث يؤكد الله عذابهم ويشدّد عقابهم ؛ فقال سبحانه فى سورة آل عمران ٣ الآية ١٨٨ :

« لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ العَذَابِ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

وأن نتدبّر كثيراً من آيات القرآن مثل قوله سبحانه :

« وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الأرْضِ وفَسَادٌ كَبِيرٌ » . (سورة الأنفال ٨/٧٣) .

وقوله: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ » . (الصف ٦١/٢ — ٣) .

ثم ولنقف خاشعين أمام قول رب العالمين :

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » .
(سورة الانفطار ٨٢/١٠ — ١٢)

ويجب أن نبذل جميعاً كل طاقاتنا ، لإسعاد مجتمعنا ، وبناء نهضتنا ، وتحقيق آمالنا وفلاحنا ونصرنا . . . ولا يكون ذلك إلا بفعل الخير من كل واحد منا ، وأن ننطلق جميعاً لنحقق دائماً أمر الله لنا فى قوله سبحانه :

« . . . وافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (سورة الحج ٢٢/٧٧) .

وقوله : « . . . وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ » . (سورة البقرة ٢/١٩٧) .

عناية القرآن بالاكتساب والاقتراف :

يا صاحبي : إننا على امتداد العمل والفعل ، نجد الاكتساب والاقتراف في القرآن . . وقد تكرر الكسب والاكتساب في القرآن الكريم ٦٧ مرة ، منها في أواخر سورة البقرة الآية ٢٨٦ قوله تعالى :

« لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ ، وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . . » .

ومنها في سورة فاطر ٣٥/٤٥ :

«وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ...».

وفي سورة الزُمر ٣٩/٥١ :

« فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا . . » .

وفي سورة الشورى ٤٢/٢٣ :

« . . . وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا . . . » .

عناية القرآن بالأجر والجزاء :

أما الأجر فعدده في القرآن بعدد الفعل ، فكل منهما تكرر ١٠٨ مرات ، وأما الجزاء فقد تكرر في القرآن الكريم ١١٧ مرة .

ومنه ماجاء في توفية الأجر للعاملين المخلصين المحسنين . .

وما يتضمن أن الدنيا كلها قد لا تتسع لتوفية أجر عامل أخلص في عمله ،

ولا بد من توفية أجره، وقد وعد الله بذلك وبيّن أن التوفية الكاملة للأجر إنما تكون يوم القيامة . . .

فقال سبحانه في سورة آل عمران ٣ الآية ١٨٥ :

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . . » .

وقوله سبحانه في سورة النحل ٤١/١٦ :

« ...وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

هذا إلى أنّ أجر الدنيا يتحتم أن يكون على قدر العمل « جَزَاءً وِفَاقًا » ، فضلاً عن أجر الآخرة الأكبر . . .

كما بين رب العزة أن الإحسان في العمل له أجره ، وأن الإيمان بالعمل وفي العمل له أجره . . . بل إن الصبر على مكاره العمل له أجره . . .

ولنتدبّر الآن قوله سبحانه :

« . . . إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » . (سورة الأعراف ١٧٠/٧) .

وقوله: « ..إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا » . (سورة الكهف ٣٠/١٨) .

وقوله : « ...إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » . (سورة التوبة ١٢٠/٩) .

وقوله: « ...وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . (سورة آل عمران ١٧١/٣)

وقوله : « ... إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . (سورة الزمر ١٠/٣٩) .

وقوله: « آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » (سورة الحديد ٧/٥٧) .

ثم قوله سبحانه في سورة الشورى ٤٠/٤٢ :

« وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » .

وقوله سبحانه فى سورة النحل ٩٦/١٦ :

« .. وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ».

وقوله سبحانه فى سورة إبراهيم ٥١/١٤ :

« لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ » .

يا صاحبي : وتفصيل هذا كله ، أو تفصيل شيء من هذا كله : يحيا مع الإنسان ، ويتجدد مع الزمان : فى كل مكان . . . لأنه القرآن . . .

العبادات والعبادة :

قال صاحبي : يا سبحان الله . . . وأين العبادات ؟ وما معنى العبادة فى الإسلام ؟ وأين ما ورد فى الصلاة مثلا ، وعن الصيام ؟ ؟ إذا كان هذا كله فى القرآن ؟ ! !

قلت لصاحبي :

يجب أنْ تعلَمَ أنَّ آيات العبادات ، تُعَدُّ بالعشرات . . .

أما آيات المعاملات ، فتعدُّ بالمئات . . .

وأما آيات العمل ، والحياة ، والمجتمع ، فتعدّ بعشرات المئات . . .

وكلها متكاملة من الله ، تحقق معنى العبادة لله ؛ لأنها جميعها هى أوامر الله .

ولا بد من العمل بها جميعاً ، لتحقيق معنى الخلافة عن الله ، وتحقيق معنى السيادة على أرض الله ؛ لأن أبعاد الخلافة ثلاثة . . خليفة عن ؟ وخليفة على أوْ : فِي ، ومن هو الخليفة ؟ .. كما أن العبادة لا تقوم — بل ولا تتحقق — إلا على

ركائز ثلاث : سيادة ، وأخوة ، وعبودية . . . والسيادة على كل كائنات الأرض وما حول الأرض لا تتم إلا بمواصلة العلم والعمل و . . . وتفصيل ذلك فى كتابنا : « العقيدة والفطرة » .

ثم لا بد من مواصلة الدعوة بهذا كله إلى الله . . . ليمدنا الله بالفلاح وبالنصر ، وما النصر إلا من عند الله . . .

الدنيا كلها متطلعة إلى الدعوة الواعية :

قال صاحبى : إن الدنيا جميعًا الآن ، تتطلع إلى هذه الآيات من القرآن ، التى تعنى بواقع الإنسان .

والدنيا كلها آذان صاغية ، إلى الدعوة الواعية ، المشتملة على الفلسفة المادية والواقعية مستمدة من آيات الله القرآنية والإنسانية والكونية ؛ على بصيرة وعمق واتساع آفاق . . .

قلت : يا صاحبى : سل الله التوفيق والعون . . . وأين نحن من القرآن ؟ وأين الدنيا جميعا إلى قيام الساعة من القرآن ، فهو وحده الذى يُصْلِحُ كلّ زمان ومكان ، فى كل بيئةٍ ولكل إنسان . . .

قال صاحبى : لقد وجبت الدعوة ، لجمع الكلمة ، وتوحيد الأمة . . ؛ فكيف السبيل إليها ؟ وما هى وسائلها ؟ . . . ومن الذين يجب عليهم أن يقوموا بها ؟ وكيف نُعدّهم الإعداد الصالح لها ؟ . . لأنه بمقدار صلاح الدعوة ، يكون صلاح الأمة .

قلت لصاحبى : ليس إلا القرآن ، والله وحده هو الهادى وهو المستعان .

الباب الثالث

الفصل الأول

الدعوة إلى الله ، وسبيلها ، ووسائلها

حتمية الدعوة لكل نظام . توقف نجاح النظام على الدعاة وجهودهم .
اختيار الدعاة . صفات الدعاة وشروط نجاحهم .
تكامل صفات الدعاة إلى الله فى رسل الله . أنواع الدعوة .
دعوة الله المباشرة : ١ — دعوة الله الحق هى الدعوة الحق.
٢ — دعوته سبحانه لما فيه الحياة والنجاة ٣ — دعوته سبحانه إلى السلام .
٤ — دعوته إلى الجنة والمغفرة ٥ — دعوته كل أمة إلى كتابها لحسابها.
٦ — دعوته سبحانه للإنفاق فى سبيله ٧ — دعوته سبحانه إلى الحق .
دعوة الشيطان لحزبه . دعوة غير الله باطلة وهالكة .
الدعوة إلى الله خصيصة الرسل و الرسالات . الأسس التى تقوم عليها كل رسالة.
ميثاق النبيين . تكامل الرسل والرسالات . رسل الله هم الدعاة الحق إلى الله .
أول من دعا إلى الله . من أبرز الدعاة إلى الله .
أول الدعاة إلى الله وخاتمهم . ابتداء الدعوة و إكمالها . رأى فى الدعوة ووسائلها.
عموم الدعوة المحمدية . مراحل الدعوة المحمدية . أساس الدعوة المحمدية وقواعدها.
الإشارة إلى القاعدة التعليمية فى الدعوة المحمدية . منهاج الدعوة المحمدية ووسائلها.
سبيل الدعوة المحمدية . الدعوة بعد الرسول الخاتم واجبة على أتباعه .
العمد التى تقوم عليها الدعوة بعد رسول الله . الدعوة فرض على الأمة المحمدية.
وجوب التخصص فى الدعوة . التخصص فى الدعوة إلى الله أقوى أسلحة النصر.
فلاح الأمة بفلاح المتخصصين فى الدعوة . الوسائل المتجددة للدعوة .

الدعوة إلى الله، وسبيلها، ووسائلها

حتمية الدعوة لكل نظام :

كل نظام وكلّ اتجاه، فى أى شأن من شئون الحياة، يجب أن يتوافر له الدعاة ... يدعون إليه، ويُبَصِّرون به، ويُدرِّبون الناس عليه، ويجمعونهم حوله ... حتى يقبلوا عليه بقلوبهم، وتتشرب به نفوسهم، وتنفعل به أحاسيسهم وتتأثر به مشاعرهم، وتتجاوب معه عواطفهم؛ ليسيروا عليه فى حياتهم وتنطلق منه أقوالهم، وأعمالهم، وتصرفاتهم ...

توقف نجاح النظام على الدعاة وجهودهم :

وهؤلاء الدعاة : هم الذين يتوقف النجاح عليهم، ويستمر النظام ويستقر بفضل جهودهم، ولا يكون نجاح النظام إلاّ بقدر إيمانهم به، وإخلاصهم له وتضحيتهم فى سبيله، مع فهمهم للرسالة، وصدق العزيمة، ونفاذ البصيرة والمقدرة على الإقناع، بعد كمال الاقتناع، والرد على ما يثار وما يشاع، ودفع المفتريات عنه، ودحض الشبهات من حوله ..

ولا يكون ذلك إلاّ : بالسلوك الشخصى أولا وهو الأهم ...

وبتطبيق النظام كله على أنفسهم وهو المهم؛

بل بالانطلاق الحقيقى المستمر على مقتضياته،

والانفعال النفسى المستقر بكل متطلباته،

والاندفاع الذاتى إليه بالأعمال، لا بالتظاهر والتّصنّع والأقوال،

ولقد صدق الصدق كله من قال : « تأثير الفعل من إنسان فى ألف إنسان، أقوى من تأثير القول من ألف إنسان فى إنسان » . أو كما قيل :

« عمل رجل فى ألف رجل ؛ أقوى من قول ألف رجل فى رجل » ..

ولهذا كان الأساس لكل الرسل ؛ عليهم الصلاة والسلام هو قوله سبحانه عن واحد من رسله ، هو شعيب عليه السلام حيث قال لقومه :

« . . . ومَا أريدُ أن أُخالِفكُمْ إلىَ ما أنهاكُمُ عَنه : إنْ أريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ ، وما توفيقى إلا بالله:عليه توكلتُ ، وإليه أنيب » .

(سورة هود ١١/٨٨) .

ولكن من ذا الذى يصطفى الدعاة ويختارهم ؟

وما هى الصفات التى يجب أن تتحقق فيهم ؟ ...

اختيار الدعاة :

لا يصح اختيار الدعاة لنظام بعينه ؛ إلاَّ باصطفاء من واضع النظام نفسه فإن تعذر عليه ذلك فلا أقل من القوّام عليه والمؤسس له ؛ لأنه هو الأعلم بمتطلباته ، الأحرص على تحقيق أهدافه ، الأدرى بمراميه وغاياته . . .

وعلى ضوء هذا نستطيع أن نفهم قوله سبحانه :

« . . اللهُ أعلَمُ حَيْثُ يَجعلُ رِسَالَته . . » . (الأنعام ٦/١٢٤) .

وقوله : « وَرَبُّك يَخلقُ مَا يَشَاء وَيَختَارُ ...» . (القصص ٢٨/٦٨) .

وقوله : « اللهُ يَصْطَفى مِن الملائكةِ رُسُلاً ومِنَ الناسِ . . . »

(سورة الحج ٢٢/٧٥) .

صفات الدعاة وشروط نجاحهم :

أما الصفات التى يجب أن تتحقق فى الدعاة ، وأما الشروط التى تكفل لهم النجاح والنصر بإذن الله ، فكثيرة جداً ، ومن أهمها :

الخلق القويم ، والسلوك المستقيم ، والقدوة القائدة ، والريادة الرائدة . . والمثابرة فى عزم ، والرحمة فى حزم ، على صدقٍ وأمانة ، وتبليغ وفطانة . . .

ثم إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، والعمل الصالح المستمر ، والفهم الواعى المستقر ، والبعد عن كل النقائص والشرور ، وعن كل ما يؤدى إلى الأنانية والفجور . . .

ثم القدرة على التبشير والإنذار ، والنصح فى أمانة ولباقةٍ وتحمُّل وإصرار . . بحيث يؤكد كل ذلك الثقة والتقدير والاحترام وارغبة والإكبار..

ثم التغلغل فى دراسة الظروف البيئية ، والمقدرة على حل المشاكل الاجتماعية ، والتعمق فى فهم الاتجاهات النفسية ، ومعالجة كل الانحرافات : الخلقية والإجماعية ، والعلمية ، والعملية . .

ويجمع هذا كله : امتلاك مشاعر الناس وأحاسيسهم ، والوصول إلى أفئدتهم وقلوبهم ، وكسب محبتهم وثقتهم وتقديرهم . . . خصوصاً فى النواحى الدينية ، التى هى مِلاك الأمر كله فى كل اتجاهاتهم وتصرفاتهم . . .

ثم مخاطبة الناس بلسانهم ، وسرعة الوصول إلى قلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم ، وحسن اختيار الظروف المناسبة ، ووضع كل إنسانٍ وكل عمل فيما يناسبه ، وتقديم مصلحة الجماعة على رغبة الفرد ، وسلامة النية والاتجاه والقصد ، مع صدق الهدف ، وإحكام المنهج ، ووضوح الرؤية ، ودقة التصويب . . . فى رحابة صدر ، ونفاذ بصيرة . . .

تكامل صفات الدعاة إلى الله فى رسل الله:

إننى قد سُقتُ إليك فى الحديث عن الدعاة ، بعض الصفات التى تكاملت فى رسل الله ، وهم — عليهم أفضل صلوات الله — هم الدعاة الحقيقيون إلى الله

وعلى شاكلتهم ومنهاج خاتمهم — صلى الله عليه وسلم — يجب أن يسير الدعاة ... في كل زمان ومكان ، ولكل نظام واتجاه ... في حكمة ، وعلى بصيرة ..

ولقد تكاملت كل الصفات التي أشرنا إليها من قبل ، وكل الصفات التي سنفصلها من بعد ، في كل رسول من رسل الله ... حتى بلغت كمالها الأكمل في رحمة العالمين ، الذي أكمل الله به الدين ، وأتم به النعمة ، ورضيه داعياً إلى الله بالإسلام ، إلى جميع الأنام ...

ولقد تكامل رسل الله كذلك ، على : تثبيت قواعد التوحيد والبر ودفع الإنسانية إلى كل خير ، ودفع الإنسانية عن كل شر ...

وهذا ما نستطيع أن نشير إليه الآن ، وأن نقدمه من بعض آيات القرآن ؛

ومنه قوله سبحانه في سورة النحل ١٦ / ٣٦ :

« وَلقدْ بَعثنا في كُلِّ أمةٍ رَسُولاً : أن اعبدُوا اللهَ ، وَاجْتَنِبُوا الطاغوت ... » .

وقوله في سورة المؤمنون ٢٣/٥١ :

« يَا أيها الرُّسُلُ كلُوا مِنَ الطيباتِ ، وَاعملوا صَالِحًا ؛ إنِّي بِمَا تَعْملونَ عَليمٌ » .

وقوله في سورة الأنعام ٦ / ٤٨ :

« وَما نُرسِلُ المرسَلِينَ إلاَّ مُبشِّرِينَ وَمُنذِرينَ ، فمَن آمَنَ وَأصلحَ فَلاَ خَوفٌ عليهمْ وَلا همْ يحزنُونَ » .

وقوله سبحانه في سورة إبراهيم ١٤ / ٤ :

« وَما أرْسَلنا مِن رسولٍ إلا بلسانِ قَوْمهِ ليُبيِّنَ لَهُمْ ... » .

وقوله سبحانه حكايةً عن قول نوح لقومه :

« أُبلغكُمْ رِسالاتِ رَبى وَأنصَحُ لكُمْ وَأعلَمُ مِنَ اللهِ مَالا تَعلمون » . (الأعراف ٧ / ٦٢) ،

وشرحاً لموقف هود عليه السلام من قوم عاد فى سورة الأعراف أيضاً الآيات من ٦٥ — ٦٩ :

« وإلى عَاد أخاهم هُوداً ، قالَ ياقوم اعْبدُوا اللهَ مَالَكم مِن إلٍ غيرُهُ ، أفلاَ تتقونَ * قَالَ المَلأُ الذينَ كفَروُا مِن قومِه إنَّا لنرَاكَ فى سفاهةٍ ، وإنَّا لنُظنُّك منَ الكاذبينَ * قَالَ ياقومِ ليْسَ بى سَفاهةٌ وَلكنى رَسُولٌ مِن ربِّ العالمينَ * أُبلغكم رِسالاَتِ ربى وَأناَ لكُمْ نَاصِحٌ أمينٌ * أوَعَجِبْتم أنْ جاءكمْ ذِكرٌ مِن ربكمْ عَلىَ رَجلٍ منكمْ لينذركمْ ؟ واذكرُوا إذْ جعلكمْ خُلفاءَ مِن بعدِ قومِ نوحٍ ، وزادكمْ فى الخلق بَسْطةً ، فاذكروُا آلاءَ اللهِ لعلَّكمْ تُفلِحونَ » . .

أنواع الدعوة :

وقبل الحديث عن الدعوة إلى الله ، يجب أن نشير إلى أنّ الدعوة تكون:

من الله سبحانه وتعالى ...

ومن الشيطان ؛ لحزْبِه ...

ومن دون الله ؛ للمنحرفين عن الله . . .

وسنشير إلى كل منها ؛ لأن تأسيس القواعد لا يتسع لتفصيلها ، وموعدنا بتوفيق الله إفراد مؤلف لها . . .

دعوة الله المباشرة :

وقد عرفنا أن الدعاة إلى الله هم رسل الله صلى الله عليهم وسلم ، وقد جعل الله لكل رسول شِرْعةً ومنهاجاً . .

ومع هذا فإنا نستطيع أن نتفهم من آيات الله ، أن هناك دعوةً مباشرة من الله ؛ يدعو سبحانه عباده لكل ما فيه سعادتهم، وحياتهم، وهداهم ، وخيرهم . . في الدنيا وفي الآخرة . .

١ — دعوة الله الحق هي الدعوة الحق :

أما دعوة الله فهي دعوة الحق ، وهي الدعوة الحق ... وقد دارت مادة « الدعوة » في القرآن الكريم ٢١٢ مرة وتنوعت أنواعها ، وتعددت صيغها وعباراتها ، وكثرت أساليبها ومناهجها ؛ بما قد يستدل منه عند النظرة الأولى السطحية على أن الدعوة متشعبة الأهداف ، أو أن فيها كثيراً من التباعد أو الاختلاف . . . مع أن الدعوة الحق من الله الحق واحدة ؛ لخيري الدنيا والآخرة ، وإن تعدد الدعاة ، واختلفت البيئات وتنوعت أساليب الحياة . . وسنحاول أن نشير الآن إلى بعض ما نستطيع فهمه عنها من القرآن . .

٢ — دعوته سبحانه لما فيه الحياة والنجاة :

والله يدعو المؤمنين لكل ما فيه حياتهم ، وعزهم ، وأمنهم ، وسعادتهم . . ولو بالقتال والجهاد في سبيل الله ؛ لإعلاء كلمة الله ، والدفاع عن الوطن والعرض والمقدسات ، أو لطرد الغاصبين الظالمين المعتدين المنتهكين للحرمات . .

يقول سبحانه وتعالى في سورة الأنفال ٨ / ٢٤ — ٢٥ :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُم

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » .

٣ — دعوته سبحانه إلى السلام :

والله يدعو عباده إلى السلام ، وإلى دار السلام ، وإلى الصراط المستقيم كما يكفل لعباده عز الدنيا والآخرة ، والسعادة المستقرة الدائمة فى كل مناحى الحياة ، وأن التفكير السليم البسيط يقود صاحبه إلى الخير كل الخير ويبعد صاحبه عن الشر أى شر ، لأنه يتكشف سريعاً أن الحياة الدنيا أخلاط من حيوان ونبات ، وأن ماء الأرض ونبات الأرض يشترك فيهما الإنسان والحيوان ، ويعيش عليهما الناس والأنعام ، وأن الذى بيده الخلق والإحياء هو وحده الذى بيده الإهلاك والإفناء ، وهو سبحانه وحده الذى يمنح العزة للذين يحسنون ، وينقذهم من الذلة والإرهاق والهون ، ويجزيهم الفلاح والنصر بأحسن مما يعملون .

يقول رب العزة فى سورة يونس ١٠/٢٤ — ٢٧ :

« إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ، فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *

للذينَ أحسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ، ولاَ يَرْهَقُ وجُوهَهُمْ قَتَرٌ ولاَ ذِلَّةٌ أولَئِكَ أصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون *

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَالَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » . . .

وبهذا يلفت الله عباده إلى أن الأرض كل الأرض ، إذا اكتملت زينتها ، واكتمل زخرفها ، وفجر أهلها ، وطغوا بعلمهم فيها ، وظنوا أنهم قادرون عليها . . . قامت قيامتها ، وزلزلت زلزالها ، وانفرط حصيدها . . . مرة واحدة : ليلاً لمن عندهم ليل ، ونهاراً لمن عندهم نهار ، فتنتهى حياتها ، وكأن لم يكن بالأمس شيء عليها . . .

أما الناس ، فإلى رب الناس : حساباً ، وثواباً ،وعقابا . . .

ثم يذهب كل واحد إلى مستقره ؛ فإما إلى جنة عالية قطوفها دانية وإما إلى نار حامية ، وقودها الناس والحجارة . . .

٤ — دعوته سبحانه إلى الجنة والمغفرة :

والله يدعو عباده إلى الجنة ، ويفتح لهم أبواب التوبة والمغفرة ؛ لمن بدل أعماله السيئة ، ولمن ابتعد عن المشركين والمشركات ؛ لأن أولئك يدعون إلى النار . . .

يقول سبحانه فى سورة البقرة ٢/ ٢٢١ :

« ولاَ تَنْكِحُوا المشركاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ؛ ولأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِن مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ .

وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ .

أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، واللهُ يَدْعُو إِلَى الجَنَّةِ والمَغْفِرَةِ بإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

٥ — دعوته سبحانه كلَّ أمة إلى كتابها لحسابها :

ويوم القيامة تُدْعى كل أمة إلى كتابها ، وتُجْزَى بعملها ، كالأفراد تماما لـكل فرد كتابه ، ويجزى بعمله ، والخسران يومئذ للمبطلين المفسدين الضالين . . .

يقول سبحانه فى سورة الجاثية ٤٥/٢٧ — ٢٩ :

« وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلونَ *

وتَرَى كلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ، كلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلى كِتَابِهَا : اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنتمْ تَعْمَلونَ * هَـذَا كِتَابُنَا ينطِقُ عليكُم بِالحقِّ إِنا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تعملونَ . . . » .

٦ — دعوته سبحانه للإنفاق فى سبيله :

والله يدعو عباده للإنفاق فى سبيله : جهاداً بالأنفس وبالأموال ، وجهاداً بالأقوال وبالأعمال ، كل بحسب طاقته ومقدرته ، ومن جنس ما أنعم الله به عليه ، والمؤمنون لاشك منتصرون : ما داموا يعملون .

يقول سبحانه فى سورة محمد (٤٧/٣٥ و ٣٨) للمؤمنين . . .

« فَلاَ تَهِنُوا وتَدْعُوا إلىَ السَّلْمِ وأنتمُ الأعْلَوْنَ ، واللهُ مَعكم ولنْ يَتِرَكُمْ أعمَالَكم * . . . هَا أنتم هؤلاء تُدعونَ لِتُنفقُوا فِي سَبيلِ اللهِ ؛ فَمنكمُ مَّن يَبخلُ ، ومَنْ يَبْخلْ فإنَّما يَبخلُ عن نَفْسهِ ، واللهُ الغَنىُّ وأنتمُ الفقراء ، وَإن تتولَّوْا يَستبدِلْ قَوْماً غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالَكمُ ».

٧ — دعوته سبحانه إلى الحق :

والله يدعو إلى الحق ، ودعوته هى الحق . . .يدعو عباده دائما إليه ، فإن انتكسوا أو ارتكسوا أو بعدوا عنه ، طالبهم بالرجوع إليه ، وحثهم على تغيير ما بأنفسهم ، ليغير الله حالهم ، ويصلح بالهم . .

يقول سبحانه فى سورة الرعد ١٣/١١و١٤ :

« . . إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ مَا بِقومٍ حتىَّ يُغيِّروا ما بأنفسهمْ وَإذا أرادَ اللهُ بقوم سُوءاً فلاَ مَردَّ له ، ومَا لهمْ مِن دونِهِ مِنْ والٍ !! . . .

لهُ دَعْوَةُ الحقِّ ، والذينَ يدْعونَ مِن دونِهِ لا يَستَجيبُونَ لهم بشَىْءٍ إلاَّ كباسِطِ كفَّيه إلى الماءِ لِيبلغَ فاهُ ومَا هُوَ بِبالِغهِ ، وما دُعاءُ الكافرين إلاَّ فِى ضَلالٍ » .

دعوة الشيطان لحزبه :

وأما دعوة الشيطان، فإلى الخسران والنيران، والشيطان عدوٌّ للإنسان، وله حزب وله أعوان ، وله ذرية وله أقران . . . وكلهم حطب جهنم بما قدموا من طغيان . .

والشيطان إذا أُطلق لا ينصرف إلا إلى اللعين الأول إبليس ، الذى يُجمع الجن مؤمنهم وكافرهم ، على أنه سفيههم ، وأن منهم المؤمن والكافر

فمن آمن منهم بالقرآن ، فإنه لا يخاف البخس ولا الرَّهق ؛ بل فهو الآمن ، ومن كفر منهم وعدل بالله غيره ، أو عدل عن الله إلى غيره ، كان مصيره إلى جهنم ، بل كان حطبا لجهنم . . .

يقول رب العالمين سبحانه فى صدر سورة الجن (٧٢ / ١ — ١٥) لحبيبه ورحمة العالمين محمد صلى الله عليه وسلم :

« قُلْ أُوحِيَ إليَّ أنه استمعَ نفَرٌ من الجنِّ ، فقالوا إنَّا سَمِعْنا قرآنا عجباً * يهدِي إلى الرُّشْدِ فآمنَّا به ولنْ نُشْرِكَ بربنا أحداً * وأنه تعالى جَدُّ ربِّنا ما اتَّخذ صاحبةً ولا ولداً * وأنه كانَ يقول سفيهنا على الله شططاً * وأنَّا ظنَنَّا أن لن تقول الإنس والجنُّ على الله كذباً * وأنَّه كان رجالٌ من الإنسِ يعُوذُون برجالٍ من الجن فزادوهم رهقاً * . . وأنا لمَّا سَمعنا الهدَى آمنَّا به ، فمن يؤمن بربه فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً * وأنَّا مِنَّا المسلمون ومنَّا القاسطون . فمن أسلم فأولئك تحرَّوْا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنمَ حطباً . . »

والشيطان هو قرين السوء للغاوين المنحرفين الضالين ، الذين تعمى أبصارهم ، وتعشى قلوبهم من ذكر الرحمٰن . .

يقول رب العزة جل شأنه فى سورة الزخرف ٤٣/٣٦ — ٣٨ :

« وَمن يَعشُ عن ذِكر الرحمٰن نُقَيِّض له شيطاناً فهو له قرين * وإنهم ليصدُّونهم عن السبيل ويَحسَبُون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بُعدَ المشرقَينِ ، فبئسَ القرين » .

أما حزب الرحمٰن فليس للشيطان على واحد منهم من سلطان ؛ لأن الله سبحانه قال لإبليس اللعين : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا مَن اتبعك

من الغاوين * وإن جهنم لموعدُهم أجمعين » . (سورة الحجر ١٥/٤٢—٤٣) .

وتفصيل ذلك فى كتابنا : « العقيدة والفطرة » .

وكما أن الله سبحانه الحق ، وله وحده دعوة الحق ، فله كذلك وحده الوعد الحق . . يقول سبحانه فى سورة فاطر ٣٥/٥ — ٧ :

« يا أيُّها الناسُ : إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، فَلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا ولا يَغُرَّنَّكم باللهِ الغَرُورُ * إنَّ الشيطانَ لكم عَدو فاتخذوُه عَدوّاً ، إنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ ليكونوا من أصحابِ السعير * الذينَ كفروا لهم عَذابٌ شديدٌ والذينَ آمنُوا وَعملوا الصالحاتِ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ » . .

دعوة غير الله هالكة وباطلة :

وأما دعوة غير الله فضعيفة وباطلة وهالكة ، لأن كل شىء من دون الله ضعيف وهالك.

يقول سبحانه فى سورة الحج ٢٢ / ٦٢ :

« ذَلِكَ بِأنّ اللهَ هُوَ الحقُ ،وأنّ مايَدعونَ مِن دُونِه هُوَالبَاطِلُ ...» .

ويقول سبحانه فى آخر سورة القصص ٢٨/٨٨ :

وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخرَ لاَ إلهَ إلاّ هُوَ ، كلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلاّ وجْهَهُ ، لَهُ الحكمُ ، وإليه تُرجَعُونَ » .

ويقول سبحانه فى سورة الحج ٢٢/٧٣ و ٧٤ :

« يَا أيُّها الناسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستمعُوا لَهُ : إنّ الذينَ تَدْعُونَ من دونِ اللهِ لنْ يَخلقوا ذباباً وَلو اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإنْ يَسْلُبهم الذُّبابُ شيئاً

لا يستنقذُوهُ منهُ ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوبُ * ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قدْرِه ، إنّ اللهَ لَقَوِىٌّ عَزيزٌ » .

الدعوة إلى الله خصيصة الرسل والرسالات :

فإذا ما أتممنا الحديث بالدعوة إلى الله ، وجب أن نشير فى إيجاز إلى أن الدعوة إلى الله ، هى الخصيصة الخاصة لجميع الرسالات ولجميع رسل الله ، وأنهم جميعاً — عليهم صلوات الله — هم الدعاة بإذن الله ؛ لأنهم هم المبلغون عن الله ... لم يدَّع واحد منهم أنه جاء بشىء من عنده ، ولم يقل واحد منهم إنه شرع من ذات نفسه ، بل أكد كل واحد منهم لقومه : أنه رسول من رب العالمين ، وأنه مبلغٌ عن الله العزيز القهار . . . حتى أكملهم رب العزة بالمصطفى المختار صلى الله عليه وسلم ، واختص أمته برحمته ، وبإتمام دعوته . . .

قال العليم الخبير الحكيم سبحانه فى سورة البقرة الآية ١٠٥ :

« مايَوَدُّ الذينَ كفروا من أهلِ الكتابِ ، ولا المُشرِكينَ أن ينزَّلَ عليكم من خَيرٍ من ربكم ، واللهُ يَختَصُّ برحمته مَن يشاءُ . واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ » .

الأسس التى تقوم عليها كل رسالة :

ولقد أخذ الله الميثاق على جميع النبيين : أن يتكاملوا ، ويتعاونوا ، ويتشاركوا جميعا فى العمل على خير البشرية ، وإسعاد الإنسانية ؛ بما يؤتيهم الله من كتاب ومن حكمة . . . يكمل منهم اللاحق ما بدأ به السابق ، ويمهد السابق منهم للاحق ؛ بل يأمر كل رسول أتباعه بوجوب اتّباع الرسول اللاحق والإيمان به ونصرته . . . حتى يكمل الله الدين ، ويتم النعمة بخاتمهم : نبىٍّ

الرحمة عليه وعليهم الصلاة والسلام ، والدين واحد هو الإسلام ، والكتاب واحد هو القرآن مصدِّقٌ لجميع الرسل والرسالات ، ومهيمن ، ومكمل . . .

ولهذا كانت الأسس التى تقوم عليها كل رسالة — قبل الرسالة الخاتمة — ثلاثة : التصديق ، والتكميل ، والتمهيد :

١ — التصديق بكل الرسل والرسالات السابقة ؛ بعد تصفيتها مما لحق بها من تحريف ، أو تزييف ، أو انحراف ، وتنقيتها مما علق بها من جهالات ، أو ضلالات ، أو اختلاف ...

٢ — التكميل بما تُطيق البيئة الرسالية للرسول نفسه ، بمعالجة الشرور القائمة فى بيئته ، ودفع قومه إلى الخيرات التى يستطيعون . . . بعد توحيد الله وإبطال الشرك والطغيان ، ومحاربة الظلم والعدوان ...

وتكون رسالة كل رسول إلى قومه ، هى الكمال الأكمل لكل مايطيقه قَوْمه ، بحيث لو زادت لأقْصَرتْ ، ولو نقصت لقصَّرَتْ ، ولا يمكن أن يتسرب إلى الأذهان ، أن أى رسالة لأى قوم فيها زيادة أو نقصان ؛ لأنها تنزيل العزيز الحكيم الخبير العليم الرحمٰن ...

٣ — التمهيد للرسول اللاحق ، والنص على وجوب اتِّباعه والإيمان به ونصرته والتضحية فى سبيله ؛ فمن كفر برسول لاحق فقد كفر أولاً برسوله هو وبرسالته هو . . كما يكون قد كفر أولاً وبالذات بالمرسل الواحد سبحانه ،

ولقد أكد ذلك كلَّه كلُّ رسول ، من رسل الله ، عليهم جميعا صلوات الله ...

ويكفى أن نشير إلى قول الله عن صاحب الإنجيل عليه السلام فى سورة الصف ٦١ الآية ٦ :

« وإذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يا بَنِى إسرائيلَ إنِّى رسُولُ اللهِ إليكم ، مُصدِّقاً لِمَا بينَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراةِ ، ومُبَشِّراً برَسولٍ يَأْتى مِنْ بَعدِى اسمُهُ أحمَدُ ، فلمَّا جاءَهُم بالبينَاتِ قالُوا هذَا سِحْرٌ مُبينٌ » .

وكما جاء فى الإنجيل نفسه من قول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام :

« ما جئت لأُبطِلَ التوراة ولكن جئتُ لأكملها » . . .

أما الرسالة الخاتمة فإن الأسس التى قامت عليها ثلاثة أيضاً ، ولكن بدل التمهيد تكون الهيمنة ، فأسسها الثلاثة هى :

التصديق ، والتكميل ، والهيمنة . .

١ — التصديق بكل رسل الله ورسالات الله :

« آمَنَ الرّسولُ بِمَا أُنْزِلَ إليهِ مِن رَبِّهِ والمؤمنونَ ؛ كُلٌّ آمنَ باللهِ وملائكتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِن رُسُلِه . . » .

(البقرة الآية ٢٨٥) .

٢ — التكميل بما تطيق البيئة الرسالية ، ولما كانت البيئة الرسالية لخاتم المرسلين عليهم الصلاة والسلام هى الدنيا كلها . . . كان لابد من أن تعالج الرسالة الخاتمة المحمدية : كلَّ الشرور ، والآثام ، والانحرافات ، التى قد تصيب الإنسانية فى كل آن ، أوقد تَجِدُّ على البشرية فى كل زمان ومكان ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . .

٣ — الهيمنة على جميع الرسل والرسالات السابقة ، قال رب العزة لخاتم رسله عليه الصلاة والسلام ، فى سورة المائدة ٥ الآية ٤٨ :

« وَأَنْزلنَا إليْكَ الكتابَ بالحقِّ : مصدقاً لِمَا بينَ يَدَيْهِ مِنَ الكتابِ

وَمُهَيْمِنًا عليه . . . » . كما قال سبحانه فى سورة النحل ١٦ الآية ٨٩ :

« وَيَوْمَ نَبعَثُ فى كلِّ أمَّةٍ شهيداً عليهم مِن أنفسِهم وجِئنا بِكَ شَهيداً على هؤلاءِ ، ونَزَّلْنا عليكَ الكتابَ تبيانا لكل شىء ، وهُدًى ورحمةً ، وبُشرَى للمُسلمينَ » .

والهيمنة هى جماع المراقبة والتصحيح والإصلاح ، وبمقياسها يعرف التحريف والتغيير والتبديل والتضليل ، وعلى ضوئها يختبر الصحيح والأصيل والدخيل ...

ميثاق النبيين :

هذا كله بعض ما نستطيع فهمه من ميثاق النبيين ، ونصه كما فى سورة آل عمران ٣ / ٨١ — ٨٥ :

« وإذْ أخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبيِّينَ : لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ، لَتُؤمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ؟!

قَالَ : أأقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُم عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا : أقْرَرْنَا

قَالَ : فَاشْهَدُوا ، وَأنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ *

أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإليهِ يُرْجَعُونَ *

قُل آمَنَّا باللهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ والأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وعيسى والنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ *

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخاسِرِينَ » . . .

تكامل الرسل والرسالات :

وقد فصلنا القول حول تكامل الرسل والرسالات فى الفصل السابع من الباب الثانى من هذا الكتاب المعنون « الإسلام والتطور » من صفحة ٣٥٣ إلى صفحة ٣٨٣ . . .

رسل الله هم الدعاة الحق إلى الله :

هؤلاء الرسل : هم الدعاة الحق ، بالدعوة الحق ، إلى الله الحق ... وهؤلاء هم الذين سلكوا سبيل الله ، إلى الله ... وعلى سبيلهم يسير الدعاة ...

والحديث عن دعوة كل رسول ، بالتفصيل يحتاج إلى كتاب بل كتب ، لأن رسالة كل رسول تشمل تاريخ الرسول ، وتاريخ الرسالة ، كما تحوى تاريخ أمة بأكملها من جميع نواحيها : الدينية ، والعلمية ، والحضارية ، والاقتصادية ، والزراعية ، والصناعية ، والمادية ، والفلسفية ، والانحرافية ، والأخلاقية ، والنفسية ، والاجتماعية . . .

وما على الباحث ومن يريد المزيد ، إلا أن يقف على عتبات القرآن المجيد ، بقلب خاشع ، وسمع مرهف ، وبصر حديد ، فإذا أشرق فى قلبه نور الإيمان والحكمة ، حاول أن يجمع من آيات الله القرآنية ، كل ما يدور حول الرسول والرسالة ، وستتكشف له حتما مناهج الدعوة ، وتاريخ هذه الأمة ... وسأشير إلى بعض الدعاة من رسل الله ، مستمداً ومعتمداً على كتاب الله ...

ثم ، والحديث عن دعوة كل الرسل بالإجمال يحتاج إلى كتاب بل

كتب ، لأن عدد المرسلين لايقل عن ٣١٥ وقد يزيد ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حديث أبى ذر ، لما سئل عن عدد المرسلين فقال : « ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيراً » .

فيا ترى قوله عليه الصلاة والسلام : « جما غفيراً » التى تفيد الكثرة الكاثرة ... زيادة عن ٣١٥ ؟

أو تأكيد للكثرة الكاثرة فى ٣١٥ ؟

أو أنها تفيد الشمول والإحاطة ؟ ؟

يمكن ، ويمكن . . . خصوصاً وأن القرآن لايحدد ؛ بل يطلق العدد فى قوله سبحانه لرسوله :

« وَرُسُلاً قدْ قَصصناهم عليكَ من قبلُ ورُسلاً لم نقصُصْهم عَليكَ ... » . (فى سورة النساء الآية ١٦٤ ، وقد نزلت السورة فى المدينة بعد الأحزاب والممتحنة) . . .

أما الآن فيكفى أن نشير إلى دعوة أول من أُسنِدتْ إليه الرسالة من المرسلين ، ثم إلى دعوة خاتم النبيين وأول المسلمين ، عليهم الصلاة والسلام ، كمنهاجٍ يُتَّبع ، وشريعة تُشْتَرَع ؛ لكل من يريد التحدث عن أى رسول من رسل الله ، وهذا هو المنهاج العلمى السليم ، والصراط الفلسفى المستقيم ؛ لأنه لا يمكن علمياً ولا منهجياً أن يتحدث عن الرسل إلا من أرسلهم ، ولا عن أقوامهم إلا مَن خلقهم ، فهو الأعلم بهم ...

وبهذا يكون القرآن الكريم هو الكتاب المبين وهو المرجع العلمى الوحيد والأصيل ، للبحث عن الدعوة عند أى رسول ، وموقف المؤمنين به ، والمعاندين له ، وتاريخهم فى كل مجالات التاريخ . . . ثم يصح أن نستبصر بنور

القرآن ، ونستمد منه الأنوار ؛ للكشف عن الحفريات والآثار ، والروايات التاريخية والأخبار . . .

وصدق الله فقد قال عن القرآن لحبيبه المختار .

« إنا أنزلناهُ قرآناً عربياً لعلكم تعقلونَ * نحنُ نقصُ عليكَ أحسنَ القصصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآنَ ... » . (فى مفتتح سورة يوسف ١٢/٢ – ٣) .

وبعد أن قص الله عن رسله ، دفع العلماء والباحثين ، أن يواصلوا البحث على مقتضى قانون السير والنظر القرآنى ، فقال جل شأنه فى آخر سورة يوسف لخاتم النبيين : « وَمَا أرسلنا من قبلكَ إلاَّ رجالاً نوحِى إليهم من أهلِ القُرَى ؛ أفلم يسيروا فى الأرضِ فينظُروا كيفَ كانَ عاقبةُ الذين من قبلِهم ، ولدارُ الآخرةِ خيرٌ للذينَ اتقوا أفلا تعقِلونَ * حتى إذا استيأسَ الرسُلُ وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرُنا فنُجِّىَ مَن نشاء ولا يُردّ بأسُنا عنِ القومِ المجرمين * لقدْ كان فى قصصِهِمْ عبرةٌ لأولِى الألبابِ ، ما كانَ حديثاً يُفترى ولكن : تصديقَ الذى بين يدَيهِ ، وتفصيل كُلِّ شىء ، وهُدًى ، ورحمةً لقومٍ يؤمنونَ » .

ومن أراد التفصيل أو المزيد أو سعة البيان ، فليرجع إلى كتابنا : « تاريخ الأديان المقارن » .

أول من دعا إلى الله :

وأول من صرح القرآن الكريم بإسناد الرسالة إليه هو « نوح » عليه السلام ، وتكرر ذكره فى القرآن الكريم ٤٣ مرة ، وهى تشمل الحديث عنه ، وعن دعوته ، وعن قومه . . .

بل ولقد أكد القرآن رسالته ست مرات : منها قوله سبحانه :

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . . . » ثلاث مرات .

ومرة واحدة لكل تعبير من هذه التعبيرات :

« لقد أرسلنا نُوحاً إلى قومه . . . »

« ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم . . . »

« إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه . . . »

وفى القرآن الكريم سورة خاصة ، اسمها « سورة نوح » نزلت فى مكة وعدد آياتها ٢٨ آية ، ورقمها فى المصحف ٧١ ، وفى هذه السورة إشارة موجزة لدعوة نوح عليه السلام إلى الله ، وسبيلها ، تلك الدعوة التى تطاول عليها العمر ، وكما قال رب العزة فى سورة العنكبوت ٢٩ / ١٤ .

« وَلَقَدْ أرسَلْنَا نُوحاً إلى قَومِهِ فَلبِثَ فِيهِمْ ألفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمسينَ عاماً . . . » . . .

و « نُوحٌ » عليه السلام ، هو أوّل من أسند القرآن إليه أنه قام بالدعوة إلى الله ، وتكرر ذلك فى الآيات الأولى من سورة نوح ست مرات ، شملت كل الأوقات ، وتنوعت بحسب الظروف والحالات ، وهزّتْ فى القوم ما وصلوا إليه من معارف وتخصصات ، وما تملكوا زمامه من ألوان الحضارات . . .

فكانت دعوته : ليلاً ونهاراً . .

وكانت : خُفوتاً وجهاراً . .

وكانت : إعلاناً وإسراراً . .

وقومه : معرضون عنه ، ولا تزيدهم الدعوة إلا فِراراً منه . . .

مُصِرُّون على عناده : يسدُّون آذانهم بأصابعهم . .

ويغطون أبصارهم بثيابهم . .

مستكبرون بعلمهم وحضارتهم ؛

يطمسون قلوبهم ؛ باستكبارهم . . .

ويتبعون من يكثر أموالهم وأولادهم . . .

ويمكرون مكراً فظيعاً يزيد فى خسارهم . . .

ويتخذون أصناما خمسة آلهةً لهم . . .

ويضلون ويظلمون ويُضلون غيرهم . . .

وَيَكفُرُونَ ويُكفّرون بنعم ربهم . . .

ومع هذا كله فقد جاهد نوحٌ عليه السلام ، واجتهد فى دعوتهم ، والنصح لهم والإكثار من جدالهم ، وأخذ يكرر تذكيرهم ، بنعم الله عليهم ، وأنهم إن استغفروا ربَّهم ؛ تابَ عليهم وأمدَّهم . . .

كما أخذ يتنقل بالدعوة مِن هَزِّ عاطفتهم الدينية إلى دعوتهم عن طريق معارفهم الحسية ، ومتطلباتهم الواقعية ، والمادية ، والعلمية . . . ثم انتقل بهم إلى أن هزَّ فيهم الكثير من تخصصاتهم الزراعية ، والاقتصادية ، والصحية ، والتطورية ، والفلكية ، والتشريحية ، والواقعية ، والدنيوية ، والأخروية ، والعمرانية .. حتى تعبيد الطرق ليسلكوا منها سُبلاً سهلة وطُرقاً معبدة منظمة . . .

ولكن القوم كانوا ، أظلم وأطغى ، وخانته امرأته بالكفر المستتر ، وجاهر واحدٌ من أبنائه بالعصيان لماَّ ناداه أبوه فى إشفاق وحذر ، ثم اعتصم بالجبل لماَّ بدأ الطوفان وانتشر ، والتقى الماء من أبواب السماء وعيون الأرض « على أمرٍ قدْ قُدِر » ، وظن أنه وحده إذا آوى إلى الجبل يكون هو المنتصر . . .

وبعد ٩٥٠ سنة من بذل كل جهود نوح رسول الله ، فى دعوة قومه إلى الله ، آمن معه من آمن من قومه ، أما من بقى منهم على كفره ، فإنه لم يؤمن ولن يؤمن مع نوح ولا مع أى رسول غيره ، لا هو ولا جميع

أولاده ولا أىّ أحد من ذريته ونسله ، وهذا ما فهمه نوح مما أوحاه إليه ربه ، حيث قال سبحانه :

« وأُوحِيَ إلى نوح أنَّهُ لَنْ يؤمِنَ مِنْ قومِكَ إلاَّ مَنْ قدْ آمنَ ، فَلاَ تَبتَئِسْ بما كانوا يَفعَلونَ *

واصنَع الفُلكَ بأعيُننا ووَحيِنَا ،

ولا تُخاطِبْنِى فى الذينَ ظَلَمُوا إنَّهمْ مُغرقونَ » .

(سورة هود ١١ / ٣٦ — ٣٧) .

وتفسير سورة نوح وحدها يحتاج إلى كتاب مستقل ، مع أن نوحاً عليه السلام لم يُذكر اسمه فيها إلاّ ثلاث مرات فقط فى حين أن اسمه تردد فى القرآن كله ٤٣ مرة ؛ فى ٢٩ سورة ، ويجب أن نتدبر بقلوبنا ما نستطيع من آيات هذه السورة سورة نوح ورقمها فى المصحف ٧١ بين المعارج والجن ، وترتيب نزولها ٧٠ نزلت فى أواخر الفترة المكية بين النحل وإبراهيم و نزل بعدها فى مكة ١٥ سورة فقط ، وعدد آياتها ٢٨ آية ، وكلماتها ٢٢٤ كلمة ، وحروفها ٩٩٩ حرفا . . . قال رب العزة سبحانه فيها وقوله الحق :

« إنا أرسَلنا نُوحاً إلى قومِه : أنْ أنذِرْ قَومَكَ مِن قَبلِ أنْ يأتِيَهُمْ عذابٌ أليمٌ * .

قالَ ياقومِ إنِّى لكم نَذيرٌ مُبينٌ * أنِ اعبدوا اللهَ ، واتَّقُوهُ وأطِيعونِ * يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم ، ويؤخرْكم إلى أجَلٍ مُسمًّى إنَّ أجَلَ اللهِ إذا جاءَ لا يؤخَّرُ لو كنتم تعلمونَ * .

قال : ربِّ إنِى دَعوتُ قومى لَيلاً ونهاراً * فلم يَزِدْهمْ دُعائِ إلاَّ فِراراً *

وإنِّى كلما دَعوتُهم لِتغفرَ لهمُ جعلوا أصابِعَهُمْ فى آذانِهم واستَغْشَوْا ثِيابَهُم، وَأصرُّوا، واستكبرُوا استكباراً *

ثم إنِّى دَعوتُهم جِهاراً *

ثم إنِّى أعلنتُ لهم وأسرَرْتُ لهم إسراراً *

فقلتُ: استغفِروا ربكم إنه كانَ غفَّاراً * يُرسل السماءَ عليكم مِدراراً *

ويُمْدِدكُمْ بأموالٍ وَبنينَ ويجْعَلْ لكم جناتٍ ويَجعلْ لكم أنهاراً *

ما لكم لا تَرجونَ للهِ وَقاراً * وقدْ خلقكمْ أطواراً *

ألم تَروا كيفَ خلقَ اللهُ سبعَ سَمٰواتٍ طِباقاً * وجعلَ القمرَ فيهنَّ نوراً، وجعلَ الشمسَ سِراجاً *

واللهُ أنبتَكُم مِنَ الأرضِ نباتاً * ثم يُعيدكمْ فيها ويخرجُكم إخراجاً *

واللهُ جعلَ لكمُ الأرضَ بِساطاً * لتَسلُكوا منها سُبُلاً فِجاجاً *

قال نوحٌ: ربِّ إنَّهم عَصَونى واتَّبعُوا مَنْ لمْ يزدْه مالهُ وولدُه إلاَّ خساراً * ومكروا مكراً كُبَّاراً *

وقالوا لا تَذَرُنَّ آلهتَكمْ، ولا تَذرُنَّ: وَدًّا، ولا سُواعاً، ولاَ يغُوثَ ويعُوقَ، ونَسراً * وقدْ أضَلُّوا كثيراً ولا تَزِدِ الظالمينَ الاَّ ضلالاً *

مِمَّا خطيئاتِهم أغرِقوا فأُدخِلوا ناراً فلمْ يَجِدوا لهمْ مِن دُونِ اللهِ أنصاراً *

وقالَ نوحٌ: ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ مِن الكافرينَ ديَّاراً * إنك إنْ تَذَرْهمْ يُضِلوا عِبادَكَ، ولا يَلِدُوا إلاَّ فاجِراً كفَّاراً *

ربِّ اغفِرْلى، وَلوَالدَىَّ، ولِمَنْ دَخلَ بيْتِى مُؤمِناً، والمؤمنين

والمؤمناتِ ، ولا تَزِدِ الظالمينَ الاَّ تَبَاراً » .

ومن أراد شيئا من المزيد أو التأكيد فليرجع إلى « الفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب » وعنوانه « الدين والمعرفة » ، من صفحة ٣٠٤ إلى صفحة ٣١٥ .

فهناك لمحات — لا بد منها — عن دعوة كُلٍّ من رسل الله نوح ، وهود ، وصالح عليهم السلام ، أما من أراد التفصيل المفصل ، عن المعرفة كل المعرفة من آدم عليه السلام ، فليرجع إلى كتابنا « العقيدة والفطرة » .

من أبرز الدعاة إلى الله :

قد لا نستطيع أن ننتقل من أول مَن دعا إلى الله ، إلى أول الدعاة إلى الله ، من غير أن نلقى التحية ، على الخليل الأمة ، لأنه من أبرز الدعاة إلى الله ، وصدق الله « إن إبراهيم كان أمة . . . » وهو الذى أمرنا الله باتباع ملته : « مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ هُو سَمَّاكُمُ المسلمينَ مِن قَبْلُ ... » .

فاللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، فى العالمين إنك حميد مجيد . .

ولقد كرر الله سبحانه ذكر إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم ٦٩ مرة وتعددت مواقفه فى الدعوة : مع أبيه ، ومع قومه ، ومع عُبَّاد الأشخاص من الصابئة ، ومع عُبَّاد الكواكب والهيا كل من فرق الصابئة أيضاً ، ومع الملك المجادل . . .

ثم طوف إبراهيم عليه السلام داعياً إلى الله فى أور الكلدانين ، وحرّان

وفلسطين ، وحوران ، ومصر ، وبلاد الحجاز . . .

ترفق مع أبيه راجيا هدايته ودعاه إلى التوحيد فى أسلوب أخاذ نفاذ قوى ، وهو يهز فيه عاطفة الأبوة ، ويتغلغل فى نفسه بدلال البنوة :

« واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه :

يا أبت : لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا *

يا أبت : إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا *

يا أبت : لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا *

يا أبت : إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا *

قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا *

وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » . (سورة مريم ١٩ / ٤١ — ٤٨) .

وكل موقف من مواقف إبراهيم الخليل عليه السلام ، يحتاج إلى كتاب وتفصيل . .

ويكفى أن نشير الآن إلى الله سبحانه قال عنه :

« ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون » .

(سورة الأنبياء ٢١ / ٥١ — ٥٢) .

وإلى تدرجه مع أصحاب الأشخاص وأصحاب الهياكل . . من فرق الصابئة

وإلى موقفه من الملك الطاغية المجادل لما روع من نجاة إبراهيم عليه السلام

من النيران القاسية التي ألقوهُ فيها ، وقال رب النأر للنار : « يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم » .

وكأن الملك قد تزلزل كيانه ، فسأل : ومن الذى أنقذك من النار ؟

قال إبراهيم : « ربى » ، فقال الملك : ومن ربك . . . « ... قال ابراهيم ربىَ الذى يُحيِي ويميتُ ، قال : أنا أُحيي وأُميتُ ، قالَ إبراهيمُ : فإنَّ الله يأتى بالشمسِ من المشرقِ فَأتِ بها من المغربِ فبُهِتَ الذى كفرَ . . . » .

(سورة البقرة ٢٥٨) .

وكان ولابد بعد هذا من أن يهاجر إبراهيم عليه السلام لينشر دعوة الله ، وكأن القوم سألوه : إلى أين تذهب يا إبراهيم ؟ بعد أن نجاه الله من كيدهم . . .

« قَالوا ابنُوا لَهُ بُنْياناً فألقوهُ فى الجحيم * فأرادوا بِهِ كيداً فجعلناهم الأسفلينَ * وقال إنى ذاهب إلى ربى سَيَهدِينِ * رب هَبْ لى من الصالحينَ * فبشرَّناه بغلامٍ حليمٍ » . (سورة الصافات ٣٧ / ٩٧ — ١٠١) .

وكان هذا الغلام الحليم ، هو الذبيح إسماعيل عليه السلام ، جد أول الدعاة إلى الله ، محمد عليه الصلاة والسلام .

ولإبراهيم الخليل مواقف وعبر ، تهز البشر ، وتتوالى على العصر . . . لـكنا هنا إنما نلقى عليه التحيات ، وقد بسطنا القول عن بعض هذه الجنبات فى كتبنا : فى الملل والنحل ، وأديان العرب ، والعجالات . . .

ولنا عود بتوفيق الله ، إلى إفراد تأليف عن « إبراهيم خليل الله » .

<u>أوّل الدعاة إلى الله وخاتمهم :</u>

ولئن كان نوح عليه السلام هو أول من دعا إلى الله على ما صرح به القرآن ؛ فإن أولية نوح عليه السلام فى الدعوة : أوّلية زمانية ؛ إذ لم يصرح

القرآن الكريم بإسناد الدعوة إلى أحد قبل نوح عليه السلام زماناً * ولهذا كان العنوان السابق: «أول من دعا إلى الله».

لكنا هنا إنما نتحدث عن: «أول الدعاة إلى الله» . . .

وبديهي أن الأولية هنا لا تخضع للزمان ولا للمكان، وإنما هي أولية رُتبيَّة، كمالية، عامة، شاملة . . تفرد بها واحد فقط . . .

ولرسول الله المثل الأعلى . . . كأول الفرقة، أو الدفعة، أو الكلية أو الجامعة . . . أو أول المتسابقين، أو المجاهدينَ . . . وقد يكون الذي يفوز بالأولية .. هو الأحدث سنا أو زمنا . . .

وأول الدعاة إلى الله، هو أول العابدين؛ الذي قال له رب العزة في سورة الزخرف ٤٣ / ٨١:

«قُلْ إنْ كانَ للرَّحْمٰنِ وَلَدٌ؛ فأنا أوَّلُ العابدينَ».

وهو أوَّل المسلمين الذي قال له ربه في سورة الزُّمر ٣٩ / ١١ — ١٤:

«قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أعبُدَ اللهَ مُخلِصاً لهُ الدِّينَ * وأُمِرْتُ لِأنْ أكُونَ أوَّلَ المسلمينَ * قلْ إنِّي أخافُ إنْ عصَيْتُ رَبِّي عذابَ يومٍ عظيمٍ * قلِ اللهَ أعبُدُ مخلِصاً له دِينِي».

وهو الذي قال له رب العزة في سورة الأنعام ٦ / ١٤:

«قُلْ أغَيْرَ اللهِ أتخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطعَمُ، قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أنْ أكُونَ أوَّلَ مَنْ أسْلَمَ ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ».

وفي نفس سورة الأنعام ٦ من الآيات ١٦٢ — ١٦٤:

«قلْ إنَّ صَلاتِي، ونُسُكِي، ومَحْيَايَ. ومَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ*

لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأنَا أوَّلُ المُسْلِمِينَ * قُلْ أغَيْرَ اللهِ أبْغِي رَبًّا وهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ . . . ؟ ؟ ! » .

وهو هو الذى خصه الله سبحانه ، بأن يكون داعياً إلى الله ، بإذن الله وبأن يكون وحده : مصدر الضياء والإشعاع والنور ، بل هو السراج وهو المنير والمبشر للمؤمنين بالفضل الكبير . . فى قوله له سبحانه :

« يَا أَيُّها النَّبِيُّ إنَّا أرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ، وَمُبَشِّراً ، وَنَذِيراً * ودَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ ، وسِراجاً مُنِيراً * وبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً » . سورة الأحزاب (٣٣ / ٤٥ — ٤٧) .

وهو أيضا خاتم الدعاة الحقيقيين إلى الله . . . وهو محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، خاتم النبيين ، ورحمة العالمين ، والذى نزل عليه قول رب العالمين :

« تبَارَكَ الذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً » .
(أول سورة الفرقان ٢٥) .

وهو الذى خصه الله فى القرآن كله بإطلاقاتٍ ؛ تفرّد بها صلى الله عليه وسلم . . . ؛ ومنها :

« يا أيها الرسُولُ » فى مرتين . . .

و « أرسلناك » فى ١٣ مرة . . .

و « رسولنا » فى أربع مرات . . .

و « رسوله » فى ٨٤ مرة . . .

و « منذر » فى ٥ مرات . . .

و « تنذر » فى ٥ مرات . . .

و « لتنذر » فى ٥ مرات . . .

و « يا أيها النبي » في ١٣ مرة ...
و « النبي » في ٢٠مرة ..
و « عبدنا » في مرتين ...
و « عبده » في ست مرات...
و « داعِيَ الله » في مرتين ...
و « وادعُ إلى ربك » في مرتين...
و « ادعُ إلى سبيل ربك » في مرة ...
و « داعياً إلى الله » في مرة ...
و « أدعو إلى الله » في مرة ...
و « إليه أدعو وإليه مآب » في مرة ...
و « وإنك لتدْعُوهم إلى صِراطٍ مستقيم » ...
و « وإنَّك لتَهدِى إلى صراطٍ مُستقيم » ...
و « فلذلك فادْعُ واستقمْ كما أُمرْتَ » ...

ابتداء الدعوة وإكمالها :

ابتدأت الدعوة والشريعة والرسالة ، على ضوء ما صرح القرآن بإسنادها إليهم . . . من نوح عليه السلام ، ثم أكمل الله الدين ، والدعوة ، والشريعة ، والرسالة ، والنبوة . . . بمحمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، وبهذا أتم الله النعمة ، وأكمل الدين والرسالة ، وختم النبوة ، ورضى لنا الإسلام...فاستقرت جميعاً ، وانتهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى لخاتم النبيين : محمد عليه الصلاة والسلام،في سورة النساء ٤/١٦٣ :

« إنَّا أوْحَينا إليكَ كما أوْحينَا إلى نُوحٍ والنَّبيِّينَ مِنْ بَعْدِه . . . »

كما بين سبحانه لوناً من دعوة نوح عليه السلام ، وأنه سبحانه أرسل من بعد نوح الكثير من الرسل .. فى سورة يونس ١٠ الآيات من ٧١ — ٧٤ :

« وَاتلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ ، فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ ، وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ . . . » .

ثم بين سبحانه : أن الدين واحدٌ تجب إقامته ، ولا يصح التفرّق فيه ... وأنَّ الدعوة واحدة ؛ وإن اختلفت المناهج والوسائل باختلاف المدعوين ... وأن التفرق إنما حصل بعد العلم ؛ وسببه البغى ، واتباع الهوى ، والظلم . . .

فقال سبحانه وتعالى فى سورة الشورى ٤٢/١٣-١٥ بعد أن بين الصفات التى يجب أن تتحقق فى الذى يتفرد بالتشريع ، وهى لا تتحقق الآ فى الله الواحد وبعد أن بسط الله سبحانه ذلك فى ١٢ آية من أول السورة ؛ فقال فى الآية الثالثة ، موجهاً القول لرحمة العالمين وخاتم النبيين ، وفى العاشرة لجميع المؤمنين :

« كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » . . .

« وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ . . . »

ثم قال سبحانه (فى الآيات ١٣ — ١٥) لجميع العالمين إلى يوم يبعثون :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً ، وَالذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى : أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ، وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ، كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ، اللهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ *

وَمَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ *

فَلِذَلِكَ فَادْعُ ، وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ : آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ : اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ المصيرُ » .

ونستطيع أن نتبين من هذه الآيات بعض اللمحات التى منها :

١ — أن الله سبحانه قال فى جانب نوح وبقية المرسلين عليهم السلام : « وصَّى » و « وصَّينا » ، وفى جانب محمد عليه الصلاة والسلام وحده : « أوحَينا » ، مع أن الجميع قد أوحى الله إليهم ؟ وهذا يدل على أن الأوامر الإلهية جميعا بما فيها الشرع والشريعة والأحكام . . . لمحمد صلى الله عليه وسلم كانت وحيا فقط ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يحتاج الى تكرار الوحى ، ولا إلى تشديده أو تقويته أو التوصية به ، ولله المثل الأعلى ، ولرسوله المثل الأعلى ؛ كما تقول لمن يكرر عليك طلب أمر أو شىء : إنى فهمت : واقتنعت

تماما ، ولا أحتاج إلى تكرار ، أو وصية ، أو توصية . . .

أما الأوامر والأحكام الإلهية إلى جميع المرسلين غير محمد عليه الصلاة والسلام ؛ فكانت على نوعين من الإيحاء : نوع غير مكرر ولا موصى عليه ؛ مثل قوله سبحانه لخاتم رسله :

«إنّا أوحَيْنا إليك كما أوْحَينا إلى نُوحٍ والنَّبيينَ من بعده» . وقوله سبحانه له : « كَذٰلكَ يوحى إليك وَإلى الذين مِنْ قَبْلِكَ الله العزيز الحكيم » ، وقوله تعالى له : « وَما أرسلْنا مِنْ قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم » . . .

والنوع الثانى من الوحى لرسل الله أجمعين غير محمد صلى الله عليه وسلم ، هو الوحى الموصى به ، أو الموصى عليه ، وذلك فى الشرع والشريعة والتشريع مثل قوله سبحانه :

« شرع لكم من الدين ماوَصَّى به : نوحاً ، والذى أوحينا إليك ، وماوصينا به : إبراهيم ، وموسى ، وعيسى . . . » .

وكما حكا القرآن الكريم عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وهو فى المهد صبيا ، من سورة مريم ١٩/٣٠-٣١ :

« قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الكِتَابَ وجَعَلَنِى نَبِيًّا * وجَعَلَنِى مُبَارَكاً أيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانى بِالصَّلاةِ والزَّكاة مَادُمْتُ حَيًّا » .

ومن ذلك قوله سبحانه :

« وَوَصَّينَا الإنْسَانَ بِوَالِدَيْه إحْسَانًا ... » . (سورة الأحقاف ٤٦/١٥) .

ومن ذلك أيضا الوصايا المؤكدة فى أواخر سورة الأنعام ٦ فى الآيات من ١٥١ إلى ١٥٣ التى بدأها رب العزة بقوله :

« قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُمْ :

أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَانًا ، ولاَ تَقْتُلوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ ،

وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ ، وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ ، ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ *

ولاَ تَقْرَبُوا مالَ اليَتِيمِ إلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ ، لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا ،

وإذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، وبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا : ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *

وأَنَّ هذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ، فاتَّبِعُوهُ ، ولاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عنْ سَبِيلِه : ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ».

٢ — عبّرت الآيات : « شرع لكم من الدين . . . » : بأكمل الصلة لمحمد صلى الله عليه وسلم وحده ، أما بقية المرسلين ؛ فعبّرت عنهم بأبسط أدوات الصلة

وللصلة أدوات مختلفة ؛ تتدرج إلى كمال ثم أكمل ، وأكمل أدوات الصلة : الذى ، التى . . . وهى من أعرف المعارف ، لأن هذه الأدوات هى أسماء دائما ، وهى الخالصة والمتمحضة للصلة ، فتدل على أكمل كمالها . . .

ثم يقرب منها « مَنْ » للدلالة على الصلة ؛ لأنَّ « مَنْ » وإن كانت اسما دائما ، فهى ليست موضوعة ولا خاصة للصلة فقط ، فتارة تكون استفهاما مثل : مَنْ فهم ؟، وتارة تكون للشرط مثل : فَمَنْ يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره » ، وقد تكون للصلة . . .

ثم يقرب منها « ما » للدلالة على الصلة أيضا ، ولكنها بعيدة كثيراً عن « الذى » وعن « مَنْ » ،لأن « ما » تارة تكون اسماً ، وتارة تكون حرفاً وتارة تدل على الصلة ، وتارة تدل على غير الصلة؛ فتكون مثلا حرفاً للدلالة على النفى مثل : « ما جَنَى الظالم إلا الخِزْىَ » ، كما تكون نكرة ، وتكون للاستفهام ، والشرط ، وغير ذالك . . .

وقد عبرت الآيات بأكمل الصلة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهى « الذى » وكانت الأداة الدالة على الصلة لبقية المرسلين، هى « ما » :

« شَرعَ لكمْ مِن الدين : ما وَصَّى به نوحا ، والذىأوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم، وموسى، وعيسى» . . .

٣ — أن الذى شرع لجميع المرسلين إنما هو الله الواحد فقط : «شرع لكم» .

٤ — أن الذى شرعه الله سبحانه لجميع المرسلين إنما هو دين واحد : « شرع لكم من الدين ... أن أقيموا الدين » ..

٥ — أن النهى الحازم القوى كان عن التفرق فى الدين ، ومن باب أولى : كان عن التفرق بالدين ، أو التفرق من الدين ، أو التفرق عن الدين . . فقال سبحانه : «ولا تفرَّقوا فيه » . . .

٦ — أن الدعوة لا تجدى مع المشركين : « كَبُرَ على المشركينَ ما تدعوهمْ إليه » .

٧ — أن من أخطر أنواع الظلم والانحراف والطغيان والاختلاف والتفرق.. إنما هو البَغْىُ بعدَ العلم ؛ ومن باب أولى : البغىُ عن العلم ، أو البغى بالعلم أو البغى فى العلم . . .

٨ — أن التردّد العقلى وهو الشك ، وأن التردّد القلبى وهو الريب : من أخطر أسباب الاختلاف والانحراف، والأمراض الاجتماعية والنفسية والعقلية..

٩ — أنه لا بد من أن يَصفُوَ عقل الداعى مِنْ كل شك ، وأن يطهر قلبه من كل ريب ، بعد أن تطهُر نفسه من كل بَغْى ، قبل أن يبدأ عملية الدعوة .

١٠ — ثم إنه لا بد للداعى من الاستقامة كما أمر الله ، وعدم اتباع الهوى فى دعوته : لاهوى نفسه ، ولا أهواء الذين يدعوهم : « فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ولا تَتَّبعْ أهواءهم » .

١١ — ثم يجب على الداعى إلى الله : أن يؤمن إيمانا قويا راسخا بكل ما يدعو إليه ، وأن يلتزم كل هذا الذى أمر الله به خاتم النبيين ورحمة العالمين الذى آمن كلَّ الإيمان بما أنزل الله ، قلبا ولسانا : « وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب » .

١٢ — كما يجب العدل المطلق عامة، والعدل فى الدعوة خاصة : « وأُمرتُ لأعدل بينكم » . .

* * *

رأى فى الدعوة ووسائلها :

ثمّ إن الدكتور « عبد الحليم محمود » قد تعرض فى آخر كتبه للدعوة الإسلامية وأجمل القول فيها مرة فى صدر حديثه عن القرآن ، ثم فى ثنيات كتابه وأفرد للدعوة العناوين التالية : « القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية » . « وسائل الدعوة لهداية العرب » . «الدعوة الإسلامية دعوة موحدة» . «إثبات الرسالة» ثم « الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة » . .

وبحسبنا الآن أن ننقل كلامه كله؛ عن الدعوة ووسائلها بنصه كما كتبه، من غير شرح أو تعليق، ومن غير مناقشة أو تحقيق . . .

يقول فى كتابه « القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم » المطبوع فى دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٧ ﻫ فى صفحتى ٥٩ و ٦٠ تحت عنوان « القرآن » ما نصه بتمامه :

وصف القرآن :

كانت جزيرة العرب — كما تحدثنا سابقا تعج بمختلف الآراء الدينية، كانت فيها النصرانية واليهودية والحنفاء، وكان فيها الزندقة، والدهرية ومن ينكرون البعث، ومن ينكرون إرسال الرسل، وكان فيها من يقول بالرجعة ومن يقول بالجبر ومن يقول بالاختيار، كان فيها توحيد وإلحاد ومؤمنون ومشركون ولكن هؤلاء وأولئك كانوا جميعاً ينتظرون بارقة تشرق عليهم فتبدد حيرتهم وتحسم ما بينهم من جدل واختلاف، فى هذه الآونة قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعوته، ودعوته لم تنشأ عن تفكير إنسانى شخصى، إنما هى وحى أنزله الله عليه . وهى معصومة ؛ لأنها وحى : إنها معصومة عن التخبط فى الآراء، معصومة عن ضلالات الأوهام، معصومة عن متاهات الخيال، والقرآن هو كتابها المقدس، يصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول كما روى عن على رضى الله عنه :

« عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على

كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق . ومن حكم به عدل ، ومن خاصم به أفلح ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

ويقول فى صفحتى ٧٢ و ٧٣ تحت عنوان : « القيمة الذاتية للدعوة الإسلامية . . . » ما نصه بتمامه :

« ولكن الدعوة الإسلامية : كانت تحمل فى طياتها من القيمة الذاتية ما يفرضها ، ويكتب لها الانتشار والسيادة ؛

إنها تمتاز عن النصرانية المنتشرة ، إذ ذاك ، بنظام اقتصادى خلت منه الأنانية ، وبمنطق عقلى لا يوجد فيما كان مأثوراً حينئذ ، من كلام السيد المسيح عليه السلام ، ثم هى تصحيح المسيحية نفسها التى كانت موجودة إذ ذاك محرفة .

وهى تمتاز عما كان موجوداً ، إذ ذاك ، من اليهودية بما فيها من بساطة ونضرة ، وتنزيه لله ورسله وأنبيائه ، لا يوجد ما يماثله فى العهد القديم ، ثم هى رجوع باليهودية إلى الحق قبل أن يحرفها ذووها .

وهى هداية للحنفاء إلى دين إبراهيم الذى يتطلعون إليه .

ثم هى معصومة وليست رأيا يجوز بالبحث أن يكون وهما من الأوهام .

وهى بعد كل ذلك : نظام كامل للحياة الإنسانية : فيها العقيدة ، وفيها التشريع ، وفيها الأخلاق ؛ إنها ترضى العقل ، وترضى الوجدان » .

ويقول فى صفحتى ٧٥ و ٧٦ تحت عنوان : « الدعوة الإسلامية دعوة موحدة » : ما نصه بتمامه :

« وهى دعوة موحدة لا مفرقة ، إنها دعوة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى

عليهم السلام : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

وعلام الاختلاف ، والإسلام دعوة لا تهدف إلا إلى عبادة الله وعدم الشرك به ، وعدم اتخاذ أرباب من دونه ؟ « قل يا أهل الكتاب ، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

هذه الدعوة الإسلامية ، التى هى دعوة الرسل من قبل ، تقرر أصولا فى ناحية العقيدة ، وشعائر للعبادة ، ومبادىء فى القانون ، وقواعد الأخلاق ، والذى يعنينا هنا على الخصوص هو العقيدة » . ! !

وتحت عنوان « إثبات الرسالة » فى صفحتى ٧٦ و ٧٧ يقول ما نصه بتمامه:

« إن أشق مرحلة صادفها كل رسول من الرسل إنما هى إقناع الناس برسالته ، وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع واختلفت أساليبه ، وقد بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم ، كأسلافه ، بتقرير أنه رسول ، وأنه متصل بالسماء ، وأن الوحى ينزل عليه تباعا .

وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية رددها القرآن فى غير ما موضع : هى تزكية النفوس وتطهيرها خلقياً واجتماعياً ، مؤسسا ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة :

« لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهم رسولاً مِن أنفسِهِمْ يتلو عليهِمْ آياتِهِ ويزكيهِمْ ويعلِّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا مِن قبلُ لفى ضلالٍ مُبينٍ » (سورة آل عمران : ١٦٤) .

« رَبَّنَا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهمُ الكتابَ والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .(البقرة : ١٢٩) .

ومن أجل ذلك كان إرساله رحمة للعالمين : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

لكن العرب سخروا من دعوته ، وكان لا بد من أن يفحمهم بآية من آيات الله ، فلم تخرج هذه الآية عن أن تكون القرآن » .

وتحت عنوان « الجهر بالدعوة وإثبات الرسالة » فى صفحتى ١٨٣ و١٨٤ يقول ما نصه :

« مكثت الدعوة الإسلامية سرية ثلاث سنوات ، ثم أمر صلوات الله عليه بالجهر بها ، فصعد على الصفا وقال : يامعشر قريش ، فقالت قريش : محمد على الصفا يهتف ، فأقبلوا واجتمعوا ، فقالوا مالك يامحمد ؟ قال : أرأيتكم لوأخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقىّ ؟

قالوا : نعم ، أنت عندنا غير متهم ، وما جربنا عليك كذبا قط .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة — حتى عدّد الأفخاذ من قريش — إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله .

وإذا كان رسول الله صلوات الله عليه قد طرح الثقة على قريش برفعه علم الأمانة هذا فى وجوههم فإنه كان مطمئناً واثقاً من أن حياته هى من الصفاء بحيث لم يشبها ما يجعل رأى قريش فيه قبيحاً .

لقد كانت حياته البراءة الكاملة والطهر التام ، وهذا ما دعاه إلى أن يتحدى

فى صراحة ، وأن يعلن فى وضوح أن حياته تثبت صدق ما يقول ، ولو تمثلت الأمانة — الصدق والإخلاص — فى كل من يحيطون به ، لما كان فى حاجة إلى رفع علمه هذا ،فقد كان يكفى الإخبار بأنه رسول فتكون الاستجابة.

وقد آمن بمجرد هذا الإخبار كثيرون ، لما توفر فيهم من الصدق والإخلاص لأنفسهم وللآخرين ، أى لما توفر فيهم من الأمانة : لقد آمنت خديجة ، وآمن أبو بكر ، وآمن ورقة وغيرهم بمجرد أن أخبرهم بأمره ، آمنوا لما يعرفونه فيه ولما يعلمونه من حياته ، ولقد أقر بهذه الصفة — صفة الأمانة — أبو سفيان فى وقت كان فيه من أشد أعداء الرسول . سأله هرقل قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا ، وكان استنتاج هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسأل هرقل أبا سفيان أيضاً عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر ؟ فأجاب أبو سفيان بالنفى ، فقال له هرقل : سألتك هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر .

أما إثبات الرسالة فقد تحدث القرآن الكريم عن المعجزة الكبرى وهى القرآن ، وتحدى العرب به » . . .

وتحت عنوان « وسائل الدعوة لهداية العرب » : يقول فى الصفحات من ٧٣ — ٧٥ ما نصه بتمامه :

ولكن العرب قابلوها بصراع ،فاتخذت الدعوة الإسلامية من أجل هدايتهم أحكم الوسائل . نبهتهم إلى أنه ليس من المنطق أن يكون الإلف وأن تكون العادة أو العرف مقياسا للحق ؛ فليس من المنطق إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله أن يقولوا « بل نتبعُ ما وجدنا عليه آباءنا » : لأنه من الجائز أن يكون آباؤهم

«لا يَعقلونَ شَيئاً ولا يَهتدونَ» ، وليس من المنطق أن يقولوا : «إنا وجَدنا آباءنا على أُمّةٍ وإنّا على آثارهم مُقتدونَ» ، وسخر القرآن من الذين حرموا على أنفسهم مزية الفهم والتبصر ، فقال فى أسلوب لاذع : «مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التوراةَ ثمّ لم يَحمِلوُها كمثلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً» .

ثم أضاف الإسلام إلى ذلك تقدير المسئولية الفردية ، لتجتث بذلك كل محاولة من الفرد لإلقاء التبعة على الجماعة ، أو على البيئة ، أو على الرؤساء والآباء : «وألاّ تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» ثم صرح فى وضوح واضح بالمسئولية فيما يتعلق بالآراء الخاصة ، ورتب العقاب الشديد على من قلد غيره فى ضلاله وأهوائه فقال تعالى : «وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بينَ يديه ، ولو ترَى إذ الظّالمون موقُوفونَ عِندَ ربّهم يَرجعُ بَعضُهم إلى بعض القولَ ؟ يقُولُ الذين استُضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين» (سبأ ٣١) ، «قال الذين استَكبروا للّذين استُضعفوا : أنحنُ صددْناكم عن الهُدى بَعدَ إذجاءكم بل كُنتم مُجرمين» (سبأ ٣٢) «وقال الذين استُضعفوا للذين استَكبروا بل مكرُ الليلِ والنهار إذ تأمُرُوننا أن نكفر بالله ، ونجعَل له أنداداً ، وأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون» (٣٣) .

وإذا كان الإسلام قد قرر المسئولية الفردية — أعنى أن كل إنسان مسئول عن عمله — فإنه مع ذلك لم يخل الفرد من المسئولية بالنسبة لغيره ، فالرسول — صلى الله عليه وسلم — يمثل الجماعة الإنسانية بسفرٍ على سفينة أخذ بعضهم فى إفسادها ، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا ، ويقول

الله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكُم خاصةً » ويقول فى عنف عنيف : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . روى أن عمر — رضى الله عنه — قال حين نزلت هذه الآية : يارسول الله نقى أنفسنا فكيف لنا بأهلينا ؟ ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تنهونهن عما نهاكم الله عنه وتأمرونهن بما أمركم الله ؛ فيكون ذلك وقاية بينهن وبين النار » .

على أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — يصور هذا النوع من المسئولية تصويرا جميلا فى غير ما حديث ، إنه يصور الأمة فى توادّها وتراحمها بجسم : إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وهو يقول فى روعة أخاذة : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته » ثم يفصّل هذا الإجمال ويضرب بعض الأمثلة : فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع ومسئول عن رعيته ، والزوجة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

إذن الآباء والأجداد ليسوا مقياس الحقيقة ، وكذلك العرف والعادة . والفرد مسئول عما يفعل ، وكل إنسان مأمور بأن يصلح من نفسه ويصلح من أمر الآخرين .

فى هذا الجو أخذ محمد — صلى الله عليه وسلم — ينشر دعوته » .

وإلى هذا الحد يكون قد انتهى حديث الدكتور عبد الحليم محمود ، فى كتابه الأخير ، عن الدعوة .

* * *

عموم الدعوة المحمدية :

محمد رسول الله ، هو وحدهُ الذى خصه الله ، بأن يكون داعيا إلى الله وقد صرح القرآن بأن دعوته فى جميع مراحلها بإذن الله ، كما خصه سبحانه بأن يكون وحده هو السراج وهو المنير ، وبأن يكون هو الشاهد وهو المبشر ، وهو النذير : فقال سبحانه له :

« يَا أيُّها النبيُّ إِنَّا أرسلنَاكَ شاهداً ومُبَشِّراً ،ونذيراً ، ودَاعياً إلى اللهِ بِإذْنِهِ وَسِراجاً مُنيراً » . (الأحزاب ٣٣/٤٥ و ٤٦) .

كما خصه سبحانه بأن يكون هو وحده : خاتم النبيين ، والرحمة لجميع العالمين ، والهادى إلى الصراط المستقيم . . فقال سبحانه لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم :

« وإنك لتهدى إلى صراط مُستقيم » .

وقال له : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . .

وهو وحده سبحانه الذى خصه بقوله له : « .. والذى أوحينا إليك .. » .

وبقوله عنه : « فأوْحَى إلى عبده ما أوْحَى ما كذبَ الفؤاد ما رأى » . .

وعموم الدعوة المحمدية يعمُّ الدنيا من آدمها إلى قيامتها ، بل ويعم الجن والعالمين . .

أما منذ آدم عليه السلام ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم فـكما أشرنا من قبل ، وبخاصة فى قوله سبحانه :

« شرعَ لـكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحاً والذى أوحَيْنا إليك ... »

ولأن الله سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم ولـكل واحد من أتباعه فى سورة آل عمران ٣ / ٨٤ .

« قُلْ آمَنَّا باللهِ ومَا أُنْزِلَ علَيْنا ومَا أُنْزِلَ علَى إبرَاهيمَ وإسماعِيلَ وإسْحٰقَ وَيعقُوبَ والأسبَاطِ ، ومَا أُوتِيَ مُوسَى وعيسَى والنَّبِيُّونَ مِنْ ربِّهِمْ لاَ نُفرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ » .

وقوله سبحانه فى سورة الأنعام ٦/٩٢ :

«وهذَا كِتابٌ أنزَلنَاهُ مُبارَكٌ مُصدِّقُ الذِى بَينَ يَدَيهِ ، ولِتُنْذِرَ أمَّ القُرى ، ومَنْ حَوْلَها . . . » !!

وقوله جل شأنه لخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم فى سورة المائدة ٥/٤٨:

«وأَنْزَلنَا إليْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ مِنَ الكتَابِ ومُهَيْمِنًا عَليهِ . . . » .

ولقد كانت كل الدعوات السابقة عليه : بيئيّة ، محليّة ، محدودة ، مصدقة ومكملة ، وممهدة . . .

أما منذ دعوته صلى الله عليه وسلم إلى الأبد ؛ فهى فى عمومها أوسع من أن تُعرفَ آفاقها أو تُعدَّد ، وأعمق من أن تُدرك أغوارها أو تُحدّ .

لأنها تشمل الناس كافة وجميعاً ، كما تشمل الجن والعالمين جميعا . . .

قال له رب العزة سبحانه :

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إليكُمْ جَمِيعًا . . . » .
(الأعراف ٧/١٥٨)

وقال له سبحانه ؛ (فى سورة سبأ ٣٤ / ٢٨) :

« ومَا أرْسلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً » .

وقد قال الله سبحانه له ؛ (فى سورة النساء ٤/٧٩):

« . . . وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً » .

كما أن دعوته — صلى الله عليه وسلم — تشمل عالمَ الجِنِّ كذلك ، مصداقاً لقوله سبحانه له فى أول سورة الجن ٧٢/١ — ١٤ :

« قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ . . . » إلى أن قالوا : « وأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً * وأَنَّا مِنَّا المُسْلِمُونَ ومِنَّا القَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً » .

وقوله سبحانه له فى سورة الأحقاف ٤٦ الآيات من ٢٩ — ٣٢ :

« وإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَومَنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَينَ يَدَيهِ يَهْدى إِلى الحَقِّ وإِلى طَرِيقٍ مُستقيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ : يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، ويُجِرْكُمْ مِن عَذَابٍ أَلِيمٍ * ومَنْ لاَ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الأَرْضِ ، وليسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء ؛ أُولَئكَ فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ » .

ثم دعوته صلى الله عليه وسلم عامة للعالمين . . .

والعالمون : هم جميع ما سوى الله رب العالَمين ، قال سبحانه :

« تَبَارَكَ الذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً » . (صدر سورة الفرقان ٢٥)

مراحل الدعوة المحمدية :

لقد مرت الدعوة المحمدية بمراحل كثيرة تحتاج كل مرحلة منها إلى دراسات مستفيضة عميقة متخصصة ، لا يتسع لها هذا الكتاب .

وليست هذه المراحل محددة متفاضلة ، ولكنها متداخلة متكاملة للدعوة الكاملة ، والإشارة إلى تداخلها أو تكاملها ؛ لا يتسع لها هذا الكتاب .

أما الإشارة إلى مراحل دعوته صلى الله عليه وسلم وكلها بإذن الله ؛ فنستطيع أن نجملها فيما يأتى :

١ — المرحلة الأولى : من بدء الوحى إلى الأمر بإنذار الأقربين من عشيرته صلى الله عليه وسلم . وفى هذه المرحلة كانت التربية الإلهية لصاحب الدعوة النهائية ، بعد تكليفه بالدعوة . . وعلى ضوء هذا نستطيع أن نتفهم كثيراً مما نزل عليه صلى الله عليه وسلم فى هذه المرحلة من القرآن ؛ تربية رسالية للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم . . . من أمثال سور : إقرأ ، ون ، والمزمل ، والمدثر والضحى ، وألم نشرح ، والكوثر . . . وكل واحدة من هذه السور وأمثالها ، لا يحدها كتاب ؛ ولو كانت أشجار الأرض أقلاماً لها . . . وفى كل واحدة منها كال الكمال للتربية النفسية والخلقية والاجتماعية . . العلمية منها والعملية .

ويدخل فى هذه المرحلة ؛ إنذاره صلى الله عليه وسلم لأهل بيته كما ثبت فى الصحيحين من تعليمه لخديجة وعلىّ رضى الله عنهما الوضوء والصلاة خصوصاً بعد أن أوجب الله عليه قيام الليل بقوله :

« يا أَيُّهَا المزَّمِّلُ * قُمِ الليْلَ إلاَّ قَليلاً » . . .

وهذا ما يمكن الآن فهمه ، من قول رب العزة له ؛ فى أول الدعوة :

« يَا أَيُّهَا المدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * ورَبَّكَ فَكَبِّرْ * وثيابَكَ فَطَهِّرْ * والرُّجْزَ فاهْجُرْ * ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ * ولِرَبِّكَ فَاصْبِرْ » . . .

(سورة المدثر ٧٤ / ١ — ٧)

وفى هذا جماع التربية النفسية والخلقية والاجتماعية .. العلمية منها والعملية .

وهذه مرحلة البدء بالدعوة . . . أو بدء الدعوة .

٢ — المرحلة الثانية : تبدأ من قوله سبحانه وتعالى له :

« وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (الشعراء ٢٦/٢١٤ — ٢٢٠) .

وهذه هى مرحلة إنذار العشيرة الأقربين .. أو الإنذار بالدعوة .

٣ — المرحلة الثالثة : وهى التى تبدأ بقوله سبحانه له فى أواخر سورة الحجر ١٥ الآيات من ٩٤ — ٩٩ :

« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ * الذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

وهذه هى مرحلة انفساح الطريق أمام الدعوة . أو الإعلان بالدعوة .

٤ — المرحلة الرابعة : وهى التى تبدأ بالإسراء والمعراج ، وتفتتح بقوله تعالى فى صدر سورة الإسراء ١٧ :

« سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الْذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

وقوله جلّ شأنه في صدر سورة النجم ٥٣/١ — ١٨ :

« وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى » .

وهذه هي المرحلة التي تجلت فيها آيات الدعوة : « لنريه من آياتنا » : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . . .

ونستطيع أن نسميها مرحلة . . المعراج للدعوة . . . أو معراج الدعوة .

٥ — والمرحلة الخامسة : هي التي تبدأ بالهجرة ، وقد تمتد هذه المرحلة فتشمل من بدء الهجرة إلى الحبشة . . .

وبهذا يمكن أن تتداخل مع بعض المراحل السابقة ، وليس هذا التقسيم لتحديد المراحل ، وإنما هو لمجرد إبرازها . . .

ويمكن أن يستدل على هذه المرحلة بمثل قوله سبحانه :

« وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا : لِيُثْبِتُوكَ ، أَوْ يَقْتُلُوكَ ، أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(سورة الأنفال ٨/٣٠) .

وقوله سبحانه فى الآية الخامسة من سورة الأنفال نفسها :

« كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ . . . » .

وقوله تعالى فى سورة التوبة ٩ فى الآية ٤٠ :

« إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وهذه هى مرحلة الهجرة بالدعوة ... أو الهجرة للدعوة .

٦ — المرحلة السادسة : وتبدأ من إعداد المسلمين للدفاع عن الدعوة بتهيئة الله لنفوسهم ، والانتقال بهم من استقرار الأمن والسلام والصفح والعفو ، حتى عن المسىء والمؤذى ... إلى الاستعداد للدفاع ، وردّ العدوان ، ولا يكون ذلك إلاّ بالتوجيه الروحى والمعنوى للمؤمنين ، والإذن لهم بأنهم يقاتلون وهم مظلومون ، وتبيان الأسباب التى من أجلها يثورون ويدافعون ، مع توكيد النصر لهم ومتى يكون . . . بمثل قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ * أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ، وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاهُمْ فى الأَرْضِ : أَقَامُوا الصَّلاَةَ ، وآتوا الزَّكَاةَ ،

وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَوا عَنِ المنكَرِ ، وِللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ » .
(سورة الحج ٢٢/٣٨ — ٤١) .

وقد نزلت هـذه الآيات فى طريق الهجرة حيث التهيئة لإقامة الدولة والدفاع عنها . . .

وبمثل قوله سبحانه :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ ، وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شيئاً وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » . (سورة البقرة / ٢١٦) .

وقوله سبحانه فى سورة البقرة وهى أول سورة نزلت عقب الهجرة مباشرة ، وبعد آية واحدة فقط أى فى الآية ٢١٨ :

« إِنَّ الذِينَ آمَنُوا والذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ يرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ ، واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

وأود أن أنبه فى هذه المرحلة إلى أساسين :

١ — أن الهجرة كانت حلقة الاتصال بين قمة الإيمان وبداية القتال .

٢ — أن القتال لرد الاعتداءات ، والذود عن الأعراض والمقدسات . . . إنما هو طبيعة كل عربى ، وغاية كل مسلم ، وأن الجهاد فى سبيل الله ، هو الشرف الأكبر لكل من يؤمن بالله ؛ فكراهيته إنما هى كراهية لأسبابه ، أو الابتداء به ، أو الاعتداء فيه . . حصوصاً وأن الإسلام قد ربى أبناءه على السلام ، وأن الإيمان قد طبع فى نفوس أبنائه الأمان . . . خصوصاً فى المراحل السابقة من الدعوة المحمدية ، قبل الهجرة ولمدة ثلاث عشر سنة كاملة . . .

لهذا كان من خُلق الإسلام الأصيل : المحبة والرحمة والتعاون الجميل ؛ فالانتقال من هذا إلى مجرد القتال كره ، ولكن فيه الخير والله يعلم .

وتستمر هذه المرحلة إلى نهاية الغزوات قبيل الفتح ... وفيها التوجيه الإلهى العسكرى لجيوش المسلمين إلى قيام الساعة : كيف يخططون ، ويُنظمون ويديرون المعارك ، ويستمدون للنصر ... بل كيف يثبتون ، ويضربون ، وينتصرون ... ويزيلون العدوان ، ويحبطون الكيدَ والبهتان .

ونستطيع أن نسمى هذه المرحلة .. مرحلة الدفاع عن الدعوة ... أو الدعوة إلى الدفاع ...

٧ — المرحلة السابعة : وقد بدأت حوالى فتح مكة ، ويشير إليها مثل قوله سبحانه فى صدر سورة الفتح ٤٨ لصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً » .

وقوله سبحانه :

« إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً » .

(سورة النصر ١١٠) .

وقوله : « وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ... » .

(سورة الصف ٦١/١٣) .

ونستطيع أن نسمى هذه المرحلة ... مرحلة الفتح بالدعوة ... أو الدعوة الفاتحة .

وفى هذه المراحل الثلاث الأخيرة : استقرّ التشريع للدعوة وكمل ، كما استقر

بناء الدولة وكمل ... ولكل مرحلة من هذه المراحل جميعا : أسبابها ، ووسائلها ، والتخطيط لها ، وتحمل مسئولياتها ، والعمل الجاد الحازم على تنفيذها ، والبلوغ بها إلى أقصى كمالها ... مما يحتاج العالم كله فى طول الأرض وعرضها ... الى تبيانها ، وإفراد التآليف لها ..

أساس الدعوة المحمدية وقواعدها :

أساس الدعوة المحمدية واحد ، وهو « الاستقامة » .

لكنّ هذا الأساس لا بد من أن يرتكز على أربعة عُمُد شداد صلاب :

١ — عدم اتباع الأهواء مهما كانت الدوافع والأسباب ...

٢ — والمجاهرة بالإيمان بـ**كل** ما أنزل الله من كتاب .

٣ — والعدل المطلق فى العمل والسلوك والحكم والخطاب ...

٤ — والعمل الجاد المخلص مع ارتقاب المصير والحساب ...

قال تعالى لرسول الدعوة عليه الصلاة والسلام ،فى سورة الحج ٢٢/٦٧...

« .. وَادْعُ إِلى ربِّكَ إنَّكَ لعلَى هُدىً مُستقيم » .

وقال له سبحانه فى سورة الشورى ٤٢/١٥ :

« فَلِذَلكَ فَادْعُ ، واسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ،

ولا تَتَّبِعْ أهوَاءهم ،

وَقُلْ آمنتُ بِمَا أنزَلَ اللهُ مِنْ كتابٍ ،

وأُمِرْتُ لأعدِل بينكُمْ ، اللهُ ربُّنا وَرَبُّكُمْ ،

لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ، لا حُجَّةَ بَينَنَا وَبينَكُمْ ، اللهُ يَجمعُ بَيْنَنَا وإليه المَصيرُ » .

أما قواعد الدعوة المحمدية ، فهى خمسة أساسية : أولها ، قاعدة القواعد ، وهى تلاوة القرآن ، ثم القاعدة الأخلاقية ، والقاعدة العلمية ، والقاعدة الحكمية والفلسفية ، والقاعدة التعليمية . . وإليك التفصيل :

١ — تلاوة آيات الله : وهى الآيات التى تنزلت على صاحب الدعوة قرآنا ، والآيات التى تكشفت له صلى الله عليه وسلم ملكوتات وأكوانا ، وصدق صاحب الآيات الحق :

« سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ ، وفى أنفسِهم، حتى يتبيّن لهم أنه الحقُّ .. »

(سورة فصلت ٤١/٥٣)

٢ — التزكية : وتتحقق بتطهير الغرائز النفسية وتعليتها، وتقوية الطاقات النفسية وتنميتها ، وتهذيب المجالات الخلقية وإصلاحها ، وتطهير الانطلاقات السلوكية وتنميتها ، والاستبصار والتبصر فى خلجات النفس وخطراتها . . . تربيةً وتهذيباً يصلان بالإنسان ، على هُدًى من تلاوة آيات القرآن ، والتبصر فى آيات الأنفس والأكوان .. إلى القول السديد ، والفعل الحميد ، والسلوك الرشيد ، فى كل تصرف يبدأ فيه الإنسان أو يعيد .. وهذه هى القاعدة الخلقية .

٣ — تعليم الكتاب : ونستطيع أن نتفهم منه: كتاب الأمر، وهو القرآن، وكتاب الخلق ، وهو الأكوان . . . لتوجيه الثقلين ، إلى تعليم الكتابين ، بل لفت العالَمين والعالمين ، إلى أن الدين كل الدين،الذى هو حبل الله المحكم المتين : إنما هو الرباط المحكم القوى الأمين :

بين آيات الطبيعة والكائنات : إحكاماً وتفصيلا . .

وبين آيات القرآن البينات : تلاوةً وترتيلا . .

وبين آيات الأنفس والبيئات : تخطيطاً وتعديلا . .

وهذه هى القاعدة العلمية .

٤ — تعليم الحكمة ، تعليماً يشمل جميع أنواعها ، وكل مدلولاتها : العلمية والعملية ،الفردية والاجتماعية ، الإنسانية والكونية ، النفسية الداخلية، والسلوكية الخارجية ... وهذه هى القاعدة الحِكمية .

٥ — تعليم جميع العالمين جميعاً مالا يعلمون ، وفى هذا مافيه من الدعوة القوية الملحّة الدائمة، إلى العلم بجميع فروعه، و(التكنولوجيا) بكل أنواعها ، واستخدام الطاقات الأرضية والمائية والهوائية بكل إمكانياتها ، والبحث فى كل الطبقات بكل الطاقات ، وعلى كل المستويات . . . والإفادة من كل الظواهر والآفاق ، والنفير بكل وسائل الإعلام والأبواق ...

وهذا بعض ما نستطيع أن نتفهمه من قوله سبحانه ممتنا على الإنسانية كلها بصفة عامة ، وعلى المؤمنين بصفة خاصة ، فى سورة البقرة ٢ الآية ١٥١ :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ :

يَتلُو عَلَيكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ ، والحِكْمَةَ وَيعلِّمُكم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » .

وهذه هى القاعدة التعليمية . . .

ولكن يجب أن نعلم أن قاعدة القواعد ، لكل هذه القواعد ، وهى الأولى وتحوى جميع المقاصد :

« يتلوُ عليكُم آياتِنا . . . »

فتلاوة القرآن هى قاعدة البنيان ، التى يجب أن ينطلق منها كل إنسان ؛

لأنها هى التى تربط بين جميع القواعد الأربع التالية،وهى التى تمدها جميعا بالحياة وبالقوة وبالفاعلية ؛ فهى التى تأخذ بيد الإنسانية المؤمنة ، إلى أسعد مراقيها لتشرف بخطاب رب العزة ، الذى أرسل نبى الرحمة صلى الله عليه وسلم ، وقال عنه سبحانه :

« يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب ، والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

الإشارة إلى القاعدة التعليمية فى الدعوة المحمدية :

إن الله يعلِّمُ العالمين فى كل مناحى الحياة ، وفى كل تخصص واتجاه ، إلى يوم القيامة . . .

نعم يعلِّمُ العالمين : أن جميع دواب الأرض والطيور التى تطير فى السماء ... إنما هى أممٌ مثل أمم الناس : لها قوانينها ، وسننها ، ونظامها ، وعملها . . . وكثيراً ما تكون أدق ، وأحكم ، وأسرع . . .

قال الخالق الحكيم الخبير العليم سبحانه :

« وَمَا مِنْ دابة فِى الأرضِ ولاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أمْثَالُكُمْ ، مَا فرَّطنَا فِى الكتابِ مِن شىء . . » .

(سورة الأنعام ٦/٣٨) .

وليتنا : ندرس ، ونتخصص ؛ فنستفيد . . وليت العالَمين والعالِمين : يحاولون ، ويواصلون ؛ فنستزيد . .

يُعلِّم العالمين : أن من الطير جنوداً يمكن استخدامها فيما لا يستطيعه الإنسان:

« وَحُشِرَ لِسليمانَ جُنُودُهُ مِنَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ . . . » .

(سورة النمل ١٧/٢٧) .

وأن للطير منطقا يمكن أن يفهم منه ويستفاد :

« . . وقال يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطيرِ . . . » .

(سورة النمل ١٦/٢٧) .

وأن الهدهد جاء « سليمان » عليه السلام بالنبأ اليقين ، والخبر الصادق الدقيق الأمين .. وأدّى رسالةً لا يقوى عليها بشر . . . فليتنا نتعلم ونستخلص العبر .. وأن نملةً أمرت النمل فامتثل واستتر ، وأن سليمان سمع وفهم وتبسم وشكر ...

يقول رب العزة عن سليمان وجنوده والهدهد فى سورة النمل أيضا ٢٧ / ٢٠ — ٢٧ :

« وتَفَقَّدَ الطيرَ فقال مالِيَ لا أرىَ الهدهد أم كان من الغائبينَ * لأعذبنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّهُ أو ليأتِيَنِّي بسلطانٍ مبينٍ * فمكثَ غيرَ بعيدٍ ، فقال أحطتُ بما لم تُحِطْ بهِ ، وجئتُكَ مِن سَبَإٍ بنبإٍ يقين * إنى وجدتُ امرأةً تملِكُهُمْ ، وأُوتِيَتْ مِن كل شىءٍ ولها عرشٌ عظيمٌ * وجدتُّها وقومَها يَسجُدُونَ للشمسِ من دُونِ اللهِ وزيَّن لهمُ الشيطانُ أعمالهم ، فصدَّهم عَنِ السبيلِ فهُمْ لا يهتدونَ * ألاَّ يَسجُدُوا للهِ الذى يُخرجُ الخَبْأَ فى السمٰوات والأرضِ ويعلمُ ما تخفونَ وما تُعلِنونَ * اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ ربُّ العرشِ العظيمِ * قَال سَننظُرُ ... » .

يُعلِّمُ العالمين : أن أمة النحل مثلاً ، هى مناحل متحركة ودائبة لمصلحة الناس :

« وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثم كُلِى مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً : يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » . (سورة النحل ١٦/٦٨ ، ٦٩).

وليت معامل الأدوية ، وكليات الطب والصيدلة ، تحاول أن تفرغ من هذا وتتجه إلى أمثاله . .

يعلمُ العالمين : أن الجبال تتحرك وتسير ، وأن من الحجارة يتفجر الماء الكثير ، ومنها ما يشقق بالماء النمير . . :

« وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ: صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ . . . » . (سورة النمل ٢٧/٨٨) . . .

« . . . وإنَّ مِنَ الحجارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ ، وإنَّ مِنها لَمَا يشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ . . » . (سورة البقرة ٢/٧٤).

ويعلم العالمين : أن الحجارة تشتعل ، بل تكون وقوداً للنار :

« . . . فاتقوا النَّارَ الَّتِى وقودُها النَّاسُ والحِجَارةُ . . . » .

(سورة البقرة ٢/٢٤).

وأن الجبال منها الأبيض والأحمر والأسود ومختلف الألوان . . كالدواب والأنعام والإنسان ، وكالثمرات والنباتات والآكام . ولكن كم من التخصصات العلمية والعملية والتكنولوجية . . ؟ ! وكم من العلماء والباحثين ؟! وكم من الأزمان والأعمار؟ . . كم من كل هذا وذاك — مهما تعاون كل هذا وذاك — يستطيع أن يتكشف الكثير ، من قول الله القدير :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السماءِ مَاءً ، فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثمراتٍ مختلفاً ألوانُها ؛ وَمِن الجبالِ جُدَدٌ بيضٌ وحُمرٌ مختلفٌ ألوانُها ، وغرابيبُ سُودٌ * وَمِنَ الناسِ والدوابِ والأنعامِ مختلف ألوانهُ كَذلكَ ؟ ! إنما يَخشَى اللهَ مِن عباده العلماء .. » .(سورة فاطر ٣٥ / ٢٧ — ٢٨) .

يعلم العالمين : أن الماء منه خلق كل حى ، وعليه تبقى حياة كل حى .. فليركض العلم وليحقق العلماء ... « وجعلنا من الماء كلَّ شيءٍ حَيٍ ... » .

يُعلِّمُ العالمين : أن البحار يمكن أن تشتعل ، وربما بتعديل طفيف فى نسبة العناصر المائية من أكسجين وأيدروجين ... ويمكن أن ينقلب الماء كله إلى ماء ثقيل ، أو يغور كله فى الأرض ، أو يصبح كله ملحا أجاجا ..

« وإذا البحار سُجِّرَت »

و : « لو نَشاء لجعلْناه اجاجاً ... »

و : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً » ..

يعلِّمُ العالمين : أن كل الكائنات مكونة من زوجين : ذكر وأنثى ، . أو موجب وسالب ... حتى الكهرباء والمغناطيس ، والذرة .. فضلا عن الحيوانات والنباتات ،

« وأنَّهُ خَلَقَ الزوجينِ الذكَرَ والأُنثى » . (سورة النجم ٥٣ / ٤٥) ،

« ... ومِنْ كُلِ الثَّمراتِ جعَلَ فِيهاَ زَوجين اثنين .. » (الرعد ١٣ / ٣)

وليخشع العلم وهو يجد ، وليخشع العلماء وهم يحققون إلى قيام الساعة ، أمام قول الخالق سبحانه :

« ومِن كُلِّ شَيء خَلقْنا زوجينِ لعلكُمْ تَذكَّرُونَ » .

(سورة الذاريات ٥١ / ٤٩) .

ثم ليعلمَّ العالمين : أن الوصول إلى الكواكب والنجوم : سهل ميسور ومفهوم ، بل يدفع العلم والعلماء إلى أبعد وأعمق .

ويعلمّ العالمين ما لم يكونوا يعلمون ، من أربطة ماسكة ومسيرة ومحركة للكواكب والنجوم ؛ من جاذبيات ومواقع ومدارات وبروج ...

يقول سبحانه فى أواخر سورة الواقعة ٥٦ / ٧٥ — ٧٦

« فَلاَ أُقْسِمُ بِمواقِعِ النُّجومِ * وَإنهُ لقَسَمٌ لَوْ تَعلمُونَ : عظيمٌ » .

ولعلنا نقف مبهورين أمام أمثال : « الرياح لواقح » . و « ضربنا على آذانهم » ، «ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » . و «أرضعيه فإذا خِفْت عليه فألقيه فى اليمّ » ..

ثم أمام مثل : تدبر القلب ، سكن الماء فى الأرض ، جرْى الشمس لمستقر لها ، العذاب بمواطن الإحساس فى الجلد ، بصمات الأصابع ، ركود السفن إذا سكنت الريح ، فى السماء دواب . . .

مما يتسع لآلاف المجلدات ولا ينتهى ، « وفوق كل ذى علم عليم » ...

ولنتدبر نقل العروش والصروح وغيرها ؛ بتحويل المادة إلى طاقة ثم بتجميع الطاقة كلها ، وتحويلها إلى نفس المادة الأولى، ولكن على بُعْد آلاف الأميال من المكان الأول ... كل ذلك فى أقل من لمح البصر ..

وكل ذَلك وغيره بعض ما يستفاد من طلب سليمان عليه السلام الإتيان بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام :

«قال يا أيها الملأ أيكم يأتينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يأْتونى مُسلِمِين * قال عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنّ أَنَا آتيكَ بِهِ قبلَ أن تقومُ مِن مَقامِكَ وإنى عليهِ لقوىٌّ أمِينٌ *

قال الذى عِنْدَهُ علم مِنَ الـكتابِ أنا آتيكَ بِه قَبْلَ أن يرتَدَّ إليك طَرفُكَ، فلما رَآهُ مُستقِراً عِندهُ قال هَذا مِن فَضْل رَبِّى لِيَبْلُونى أأشكرُ أمْ أكفرُ، ومنْ شكرَ فإنما يشكرُ لِنفسهِ، وَمنْ كفرَ فإنَّ ربِّى غنى كريمٌ».

(سورة النمل ٢٧ / ٣٨ — ٤٠).

نعم . . نعم : كل ذلك ، وما نعلم ، ومالا نعلم ، ومالا ينتهى من قوله سبحانه :

« ويُعلِّمكُمْ مالمْ تـكونوا تَعلمونَ »

ثم لنتعلم فى إيمان وتسليم ، ولتتعلم الدنيا : الشىء الأصغر من الذرّة أو الشىء الذى يكون أصغر وزناً من أصغر ذرة ، يا تُرى هل هو جزء الذرة؟! بروتون موجب ، أو ألـكترون سالب ؟ أو نيوترون متعادل ؟ أو هو جزء الجزء من هذا وذاك ؟ أو هو غير الـكل وغير الجزء فى كل هذا وذاك ؟! . . من تلاوة مثل قوله تعالى فى سورة سبأ ٣٤ الآية ٣ :

« . . . لاَ يَعزُبُ عَنهُ مِثقَالُ ذرَّةٍ فِى السمٰوات وَلاَ فِى الأرضِ، ولاَ أصْغَرُ مِن ذَلكَ وَلاَ أكبرُ إلاَّ فى كتابٍ مُبينٍ . . »

وقوله سبحانه فى سورة يونس ١٠ الآية ٦١ :

« وَمَا تَـكُونُ فِى شأنٍ وَماَ تتلُو مِنهُ من قُرآنٍ ، ولا تعملونَ مِن عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَليكم شهوداً إذْ تُفيضُونَ فِيهِ ، وما يَعزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِثقالِ ذرَّةٍ فِى الأرضِ وَلاَ فى السماء ، وَلاَ أصغرَ مِن ذلك ولاَ أكبرَ ؛ إلاَّ فِى كتابٍ مُبينٍ » .

ثم فلنتدبر قول الخالق البارئ المصوِّر سبحانه :

«أفلاَ يَتَدَبرُونَ القرآنَ أمْ عَلىَ قُلوبٍ أقْفَالهُاَ»؟.(سورة محمد ٤٧/ ٢٤).

وقوله جل شأنه :

« أفلمْ يَسيرُوا فى الأرضِ؛ فتَكونَ لهمْ قلوبٌ يعقلونَ بِها أو آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها ؟ ؛

فإنَّها لا تَعْمى الأبصارُ ولَكنْ تعمى القُلوبُ التيِ فى الصدورِ » .

(سورة الحج ٢٢/ ٤٦)

وهذا هو نبى الرحمة ، وصاحب الدعوة، ومعلم الحكمة: الذى قال له ربه فى سورة النساء ٤ / ١١٣:

« .. وأنزلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحِكْمَةَ وعلَّمكَ مَا لمْ تَكُنْ تعلَمُ ، وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيماً » .

وهو الذى يقول له سبحانه :

«... ولاتعجَلْ بالقرآنِ من قبلِ أن يُقضىَ إليكَ وَحيُهُ ، وقُل ربِّ زدنى علماً » . . . (سورة طه ٢٠ / ١١٤).

منهاج الدعوة المحمدية ووسائلها :

أما « منهاج الدعوة المحمدية » .

فأساسه : « على بصيرة »

وقاعدته : « فاستبقوا الخيرات » ..

لأن رب العزة يأمر صاحب الدعوة وأتباعه بقوله سبحانه فى أواخر سورة يوسف ١٢/ ١٠٨ :

« قُل هَذِهِ سَبيلِى : أدْعو إِلى اللهِ عَلىَ بَصِيرةٍ أنا ومَنِ اتّبعَنى . . . » .

ويقول له فى سورة المائدة ٥ الآية ٤٨ :

« وَأنزلْنَا إليكَ الكِتَابَ بالحقّ مُصدّقاً لما بينَ يَديْه منَ الكِتَابِ ومُهَيْمِناً عَلَيهِ ،فاحكمْ بينَهم بِما أنزَلَ اللهُ ولاَ تَتّبِعْ أهْواءهُمْ عَماَّ جاءكَ مِنَ الحقّ لِكلٍّ جعلْنا مِنكمْ شِرْعةً وَمِنْهاجاً، وَلوْ شاءَ اللهُ لجعلَكمْ أمةً واحدةً ، وَلكنْ لِيبلوكمْ فِيماَ آتاكُم ، فاستَبِقُوا الخيراتِ . . » .

ويقول له سبحانه فى سورة الجاثية ٤٥ الآيات من ١٨ — ٢٠ :

« ثمَّ جعَلناكَ علىَ شَرِيعَةٍ مِنَ الأمْرِ فاتّبِعْهاَ ، وَلاَ تتبعْ أهواء الذينَ لا يَعلمونَ ٥ إنهُمْ لن يُغْنوا عنكَ مِنَ اللهِ شيئاً ، وإنَّ الظالمينَ بَعضُهم أولياءُ بعض ، واللهُ وَلىُّ المتقينَ * هذا بَصائرُ للناسِ ، وهُدًى ، ورحمةٌ لقوم يوقنونَ » .

و « البصيرة » هى : جماعُ العلم الواسع ، والبيان الساطع ، والبرهان القاطع والمعرفة القلبية ، والانفعالية النفسية ، والإدراك الواعى ، والفهم العميق ، والتغلغل فى نفوس المخاطبين ، ورعاية أحوال المدعوين ، والحجة المشرقة ، والتقاط العبرة المبصرة .

و « استباق الخيرات » هو : انتهاز الفرصة ، والمسارعة بالدفع إلى كل خير يعود على الفرد وعلى المجتمع ، وعلى الوطن ، وعلى الأمة ، وعلى الإنسانية . . فى كل مجالات الحياة العلمية والعملية والقولية والفعلية والسلوكية . . . مما يؤدى إلى سعادة الدنيا والآخرة .

أما وسائل الدعوة المحمدية : فتدور على أربع قواعد مجتمعة ، يتفرع عنها الكثير جداً من الفروع المتشعبة . .

الأولى : الحكمة .

والثانية : الموعظة الحسنة .

والثالثة : المجادلة بالتي هي أحسن .

والرابعة : العمل وإرادة الإصلاح ؛ بأن يعمل الداعي أولاً بما يريد أن يدعو إليه ، ويريد إصلاح الناس به ، بل لا ينتظر من غيره إلا العمل ببعضه يقول رب العزة لصاحب الدعوة في سورة النحل ١٦/١٢٥ :

« ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ : بالحِكْمَةِ ، والموعِظَةِ الحسنةِ ، وَجادِلْهم بالتي هِيَ أحسنُ ، إنَّ ربَّكَ هُوَ أعلمُ بِمَن ضَلَّ عنْ سَبيلِهِ ، وَهُوَ أعلمُ بالمُهتَدِينَ » .

ثم إليك أحد الدعاة من رسل الله يقول لقومه :

« . . . وَمَا أُرِيدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهاكُمْ عَنهُ إِنْ أُريدُ إلاَّ الإصْلاحَ مَا اسْتَطعْتُ ، وما توْفيقي إلاَّ باللهِ عليهِ توَكّلْتُ وإليهِ أُنيبُ » . (سورة هود ١١/٨٨) .

وكل واحدةٍ من هذه القواعد الأربع تحتاج إلى تفصيل مفصل ، في كتاب مستقل ؛ يشتمل على منهاج رسول الله ، في الدعوة إلى الله ، وبإذن الله . . . حول كل قاعدة من هذه القواعد الأربع ، في الفترتين المكية والمدنية ، وما يجب أن يُتَّبَع .

سبيل الدعوة المحمدية :

لعلنا نستطيع أن نتبين شيئاً من هذه السبيل ، التي أمر الله بها صاحب الدعوة

وخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم أن يدعو إليها بقوله :

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أدعو إلى اللهِ عَلى بصيرةٍ أنا ومن اتّبعنى . . » ..

إذا ابتدأنا من خمس آيات سابقة عليها ؛ لنعرف مرجع اسم الإشارة فى قوله سبحانه : « قل هذه سبيلى . . . »

حيث يقول رب العزة ، لصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم فى الآيات السابقة مباشرة وفى سورة يوسف ١٢ الآيات ١٠٣ — ١٠٧ :

وَمَا أكثرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بمؤمنينَ *

ومَا تَسْألهمْ عليهِ مِنْ أجرٍ ، إنْ هُوَ إلاّ ذِكْرٌ للعالَمينَ *

وكأيّنْ مِن آيةٍ فى السَّمٰوَاتِ والأرضِ يَمرُّونَ عَليها ، وهمْ عَنهَا معرِضُونَ *

« وَمَا يؤمِنُ أكثرُهم باللهِ إلاّ وهُمْ مُشركونَ *

أفأمِنوا أن تَأتيهُمْ غاشيةٌ مِنْ عذابِ اللهِ أوْ تأتِيهُمُ السَّاعةُ بغتةً وهم لا يشعرُونَ * ؟ ! قُل هذه سبيلى .. » .

ويمكن أن نشير الآن ، إلى ما نستطيع فهمه الآن، من معانى هذه الإشارة ومرجع اسم الإشارة ، فى قوله سبحانه : « قل هذه سبيلى »... مما سبق من هذه الآيات ، ليتضح لنا أن سبيل الدعوة المحمدية ترتكز على ما يأتى :

١ — الحرص على الدعوة وتكرارها دائما ، ولو أعرض أكثر الناس عنها : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

٢ — إخلاص الدعوة لله ، وعدم سؤال الأجر على الإيمان بها من

المدعوين ، لأن هذا الإيمان والوحى والقرآن والذكر : « إنْ هو إلاَّ ذكرٌ للعالمين » جميعا ،

والدعوة واجبة محتومة للجميع ، فمن ذا الذى يدفع الأجر ، ومن ذا الذى لا يدفع ؟ ! وهل يمكن ؟ اللهم لا ، وإنما الأجر عند الله الذى أوجب الدعوة وكلَّف بها .. « وما تسألهم عليه من أجر إنْ هو إلا ذِكرٌ للعالمين » .

٣ — التذكير العلمى بالدعوة ، ولفت نظر المدعوين فى لباقة ، وعمق ، وقوة، واتساع أفق . . إلى أن يُقبلوا على تدبر آيات الله الكونية التى أمامهم أو يمرون عليها ، فى الأرض وفى السماء ، وفى الأنفس وفى الآفاق .

والآيات فى السموات مثلا : كالنجوم، والكواكب والأفلاك ، والبروج والمدارات والمجرات ، وكالمطر والرعد والبرق والسحاب ، وتلقيح الرياح للسحب حتى ينزل المطر . . .

ومثل أشعة الشمس ، وتكامل هذه الأشعة ، وفائدة كل شعاع منها ، ثم فوائد الأشعة مجتمعة .. وضبط المسافة بين الشمس والأرض ، حتى لا تحترق إن قربت الشمس أو تتجمد إن بعدت . . .

ثم مواقع النجوم .. ثم النفاذ من أقطار السموات والأرض ..

ثم .. إلى آخر ما يكتشفه العلم ، أو ما يجدّ فى كل عصر ، وعلى كل ثقافة وتخصص، مما يكشف عن آيات الله فى السموات .. ومما يعرض أكثر الناس عنها ، وهم يمرّون عليها ..

والآيات فى الأرض لا حصر لها،وتشمل جميع التخصصات،والاكتشافات والظواهر والعناصر ..

من جبال ورمال ، وأنهار ، وبحار ، وهواء وبخار ، . . ونباتات وحيوانات . . .

ويضاف إليها كذلك ما في باطن الأرض من معادن وغازات وثروات . . حتى يلتفت الغافل ويُقبلَ المعرض من الناس . .

«وكأيِّن من آيةٍ في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها مُعرِضون»..

٤ — استخدام العلم في الدعوة إلى الإيمان بالله ، وهذا يحتاج إلى عمق أعمق ، ومجهود مجهد ، . . لأن العلم كثيرا ما يفلت زمامه ، فيثور شيطانه ، ويؤدى إلى الغرور والفجور ، ويندفع إلى البغي والطغيان والشرور ... وكثيرا ما يتمرد العلم في جنبات صاحبه، فيقوده إلى الإلحاد أو الشرك بالله . . .

« وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » .

٥ — استخدام الإنذار في الدعوة ويكون عن طريقين : طريق التخويف بقارعة تحل ، أو غاشية من عذاب الله تنزل . . كالحوادث الفردية ، أو الأحداث الاجتماعية ، أو فقد الأمن ، أو حلول الكوارث والنوازل والمهلكات ، أو زلزلة الأرض ، أو بلبلة الخواطر ، أو ثوران الريح ، أو هيجان البحار ، أو هبوب العواصف . . .

« أأمنتم مَنْ في السماء أن يَخسِفَ بِكم الأرضَ فإذا هِيَ تَمُورُ * أمْ أمِنتمُ مَّن فِي السماء أن يُرْسِلَ عَليكُمْ حَاصِباً؟ فَستَعلمونَ كيفَ نَذِيرِ».

(سورة الملك ٦٧ / ١٦ — ١٧).

ومن ذلك أيضا : التخويف والإنذار بالموت فجأة ، أو حلول الساعة بغتةً ، دون أن يحس الناس ، ومن غير مقدمات ، وقد كثرت أحداث

المفاجآت ، لعل الناس يشعرون ...

« أفأمِنوا أن تأتيهم غاشِيَةٌ من عذابِ اللهِ أو تأتيهم الساعةُ بغتة وهم لا يَشعُرونَ ؟ » . (سورة يوسف ١٢/١٠٧)

فضلا عما يتبع قيام الساعة من العرض ، والحساب ، والجزاء ... ممن : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » .

هذه هى سبيل الله فى الدعوة إلى الله ، وهى واحدة ؛

هى سبيل المؤمنين ، وهى سبيل الرشاد ، وهى سبيل الرُّشد ، وهى سبيل من أناب إلى الله .. وهذا هو الصراط المستقيم الواحد . . .

أما غير ذلك فليست سبيلا واحدة ؛ بل سبلا متفرقة . . .

منها : سبيل المفسدين ، وسبيل الغى ، وسبيل الذين لا يعلمون ، وسبيل المجرمين ، وسبيل الضالين . . . بل إن لكل من هؤلاء سُبُلا متعددة . . .

قال رب العزة فى سورة الأنعام ٦/١٥١ — ١٥٣ :

« قُل تعالَوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكُم : ألاَّ تُشرِكوا بِهِ شيئاً ، وبالوالدينِ إحساناً، ولا تَقتُلوا أولادكُم مِن إملاقٍ نحنُ نَرزُقكُم وإياهُم ، ولاَ تقرَبوا الفواحشَ ما ظهرَ مِنها وما بطَنَ ، ولاَ تقتلوا النفسَ التِي حرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحقّ ، ذَلكُم وَصَّاكُم بِهِ لعلكُم تعقلونَ * .

وَلاَ تقربوا مالَ اليتيمِ إلاَّ بِالتِي هِىَ أحسَنُ حتَّى يبلُغَ أشُدَّه ، وأوفوا الكَيلَ والميزانَ بالقسطِ ، لا نُكلِّف نَفساً إلاَّ وُسْعَها ، وإذا قُلتم فاعدِلوا ولو كانَ ذا قُربَى ، وبِعهدِ اللهِ أوفُوا ، ذَلِكُم وصَّاكُم بِهِ لعلَّكم تذَكَّرُونَ *

وأنَّ هذَا صراطِى مُستقيماً فاتَّبعوهُ ، ولاَ تتّبِعوا السُّبُلَ فتفرّقَ بِكمُ عن سبيلهِ ، ذلكم وَصّاكمُ بِه لعلكمُ تتقونَ » .

وهذه الوصايا المتلوّة ، هى بعض الترجمات العملية السلوكية ، لسبيل الدعوة المحمدية . . .

الدعوة بعد الرسول الخاتم واجبة على أتباعه :

وهذا المعنى صريح واضح مما سبق فى قوله سبحانه للرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم :

« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة : أنا ، ومن اتبعنى . . » .

ولا بد من أن يسلك الأتباع ، أتباع محمد رسول الله ، سبيله فى الدعوة إلى الله ، وعلى بصيرة كما أمر الله ، وأن يترسموا القواعد التى أسسها الله ، والتى يمكن فهمها من كتاب الله ، ومن سنة رحمة العالمين رسول الله صلى الله عليه وسلم . . .

العمد التى تقوم عليها الدعوة بعد رسول الله :

إن أحسن عباد الله عند الله قولا ، هم الذين يقومون بالدعوة إلى الله قولا وعملا ، وأولئك هم الفائزون ، وأصحاب الحظ العظيم .

ولكن يجب أن تقوم الدعوة على عمد أربعة ، يتوسطها خامس يغذيها ، ويقويها، ويربط بينها ،

وهذا العماد الوسط هو « الصبر »

والصبر فى جملته وتفصيله من أقوى دعائم الإيمان والنصر ، قال تعالى فى سورة العصر ١٠٣ / ١ — ٣ :

« والعَصرِ * إنَّ الإنسانَ لَفِي خُسرٍ * إلاَّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وتواصَوْا بالحقِّ وتواصوا بالصَّبرِ » .

وقال سبحانه : « إن الله مع الصابرين » .

ومن هذا ومما دار عليه لفظ الصبر ومعناه في كتاب الله ، نستطيع أن نتبين بوضوح : أن « الصبر » ليس اتكالا ولا تواكلا ، وليس ضعفا ولا تخاذلا ، وليس رضاً بواقع ذليل ، وليس استسلاما للدخيل ، فشأن المسلمين أن يكونوا أشداء على الكفار ، رحماء بين المؤمنين وبالمؤمنين ، كما قال رب العالمين :

« مُحمدٌ رَسولُ اللهِ ، والذينَ مَعهُ أشدَّاء عَلىَ الكُفَّارِ رُحماء بينهمُ ... » .

(سورة الفتح ٤٨ / ٢٩) .

وإنما الصبر هو القوة النفسية القوية ، والعزمة الصادقة الفتيَّة : التي تتحمل الأحداث مهما أحدثت ، وتتقبل الكوارث مهما اشتدت .. . لتنتزع منها العبرة والقوة والنصر .. ولتتحكم فيها بقوة داخلية ؛ فتحيل الشر إلى خير وتقلب الهزيمة الظاهرة إلى نصر حقيقي .

والصبر : هو الذي يدفع صاحبه إلى أن يزلزل الحوادث ، ولا يتزلزل بها .
والصبر : هو الذي يجعل صاحبه دائماً فوق الكوارث ، ولا يكترث بها .
والصبر : هو الذي يرفع صاحبه فوق النكبات مهما نكبت ، ولا يتنكب بها . . .

والصبر : هو الذي يرسم الأهداف الواضحة المستقرة الواعية أمام صاحبه فلا يحيد عنها . . .

والصبر : هو مفتاح النصر ، وملاك الأمر ، وعظيم الأجر ...

والصبر : هو العمل بلا جزع ، والإقدام بلا هلع ، والإحسان بلا طمع ، والعزم بلا فزع ...

قال رب العالمين لرحمة العالمين :

« فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ... » (سورة الأحقاف ٤٦/٣٥).

وقال سبحانه : « ... إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ».
(سورة الزمر ٣٩ / ١٠).

وإذا قامت الفئة المؤمنة ، بملاقاة الفئة الكافرة ، في المعركة : وصلت سريعا إلى النصر بالصبر ، وبمقدار ثباتها وصبرها ، وتضرعها إلى ربها ، واستمداد العزة والنصر من العزيز الناصر سبحانه ... يكون النصر والفلاح .

كما قال رب العزة سبحانه :

« ... ربنا أفرغ علينا صبراً ، وثبت أقدامنا ، وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله ... ». (سورة البقرة ٢/٢٥٠ — ٢٥١).

ثم إن العمد الأربعة التي تقوم عليها الدعوة بعد هذا العماد الوسط الذي هو « الصبر » هي :

١ — الدعوة بالعمل : العمل الصالح ، والقدوة الحسنة .

٢ — الدعوة بالقول الناصح ، والكلمة الطيبة .

٣ — الدعوة بمطابقة القول الحسن بالعمل الحسن ، وإلا كان النفاق والخذلان والوهن ...

٤ — الدعوة بدفع السيئة بالتي هي أحسن ، لامتلاك ناصية العدو ، والإبقاء على الصديق ...

وهذه العمد الخمسة ، وهي التي يجب أن تقوم عليها الدعوة، هي التي نستطيع استنباطها من قوله سبحانه ،في سورة فصلت ٤١ من الآيات ٣٣ ـ ٣٥ :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وعَمِلَ صَالِحًا ، وقال إنَّنِي مِنَ المسلمينَ *

وَلاَ تستوِي الحَسنةُ ولا السيئةُ : ادْفَعْ بالتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فإذَا الذي بَيْنَكَ وبينهُ عداوةٌ كأنَّه ولِيٌّ حمِيمٌ *

وما يُلقَّاها إلاَّ الذينَ صبرُوا ، وما يُلقَّاها إلاَّ ذُو حظٍ عظِيمٍ » .

الدعوة فرض على الأمة المحمدية :

الدعوة إلى الله فرض على جميع الأمة المحمدية : أفراداً .. وجماعات : كل فرد على قدر استطاعته ، وبمقدار مجهوده : القولي ، والفعلي ، والعلمي ، والعملي ...

وهي كذلك فرض على كلّ مجتمع مؤمن؛ بكل ما يملك من وسائل ، وما يستطيع من مجهود ، كل ذلك : في السر والجهر ، في العسر واليسر ، في الشدة والرخاء ، في السراء والضراء ... اقتداء برسول الدعوة ، صلى الله عليه وسلم ، كما قال رب العزة في سورة الأحزاب ٣٣/٢١ :

« لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسنَةٌ ...» .

وكما قال سبحانه في سورة النساء ٤/١١٥ :

« وَمَن يُشَاقِقِ الرسولَ مِن بعدِ مَا تبيَّنَ لَهُ الهُدَى ويتبعْ غيرَ سبيلِ

المؤمنينَ نُولِّهِ ما تَولَّى ، و نُصْلِهِ جهنَّم وَساءت مصيراً » .

حتى النَّجْوَى بين اثنين أو أكثر ، يأمرنا الله ألاّ تكون إلا بالخير كالتعاون ، فإنه لا يكون إلا على البر ؛ ويحذرنا سبحانه من العقاب الشديد ؛ إن خالفنا أو انحرفنا . . فى مثل قوله سبحانه وتعالى فى سورة المائدة ٥ / ٢ :

« . . . و تَعاوَنُوا عَلى البرِّ والتقوَى وَلا تَعاونوا عَلىَ الإثم والعُدوانِ ، واتقوا اللهَ إنَّ الله شديدُ العِقابِ » .

أما النجوى ، وهى الحديث بين اثنين أو أكثر يحسبونه مكتوما ، أو يحاولون كتمانه ، يحذر الله عباده من الإنحراف بها عن الدعوة إلى الله ويأمر سبحانه أن تكون النجوى الدعوة إلى الله بِرّاً و تَقوَى ، ولمصلحة المجتمع إصلاحا وخيراً ، ولمصلحة عباد الله معروفا وإحسانا ... ولمصلحة الأمة أفراداً ووطنا ... يقول سبحانه فى سورة الزخرف ٤٣/٧٨ — ٨٠ :

« لَقَدْ جِئناكُمْ بالحقِّ ولكنَّ أكثرَكُمْ للحقِّ كارِهُونَ * أمْ أبرمُوا أمراً فإنَّا مُبرِمُونَ * أمْ يَحْسَبُونَ أنَّا لاَ نسمعُ سِرَّهُمْ ونجواهم ؛ بَلَى : وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكتُبونَ » ...

ويقول فى سورة المجادلة : ٥٨ / ٧ :

« ... ما يكونُ من نَجْوَى ثلاثةٍ إلاَّ هوَ رابعُهُمْ ولاَ خَمسة إلاَّ هوَ سادِسهُمْ ، ولاَ أدنَى مِن ذَلِكَ ولاَ أكثرَ إلاَّ هُوَ معهُمْ أينَ ما كانوا ثم يُنَبِّئُهُمْ بما عملوا يومَ القيامةِ إنَّ اللهَ بِكلِّ شيءٍ عليم » .

ثم يأمر سبحانه فى نفس السورة الآية ٩ بقوله :

« يَا أيها الذينَ آمنوا إذا تَناجيتمْ فَلاَ تَتَناجَوْا بِالإثمِ والعُدوانِ

ومَعْصيةِ الرَّسول ، وتناجَوْا بالبرِّ والتقوَى ، واتقوا اللهَ الذى إليهِ تُحشَرونَ » . . .

ثم يربط رب العزة ، بين النجوى والدعوة ، فى مثل قوله فى سورة النساء ٤ الآية ١١٤ :

«لاَ خَيْرَ فِى كثيرٍ من نجوَاهمُ إلاَّ مَنْ أَمرَ بِصَدَقة ،أوْ مَعرُوفٍ ، أو إصلاحٍ بَينَ الناسِ ، ومَن يفْعلْ ذَلِكَ ابْتغاء مَرْضاةِ اللهِ فَسوفَ نُؤتيهِ أجراً عظيماً » .

والدعوة فرض كفاية على الأمة المحمدية ، إن قام به البعض على وجه الكفاية لكل ما ينفع الأمة ويُصلح الأمة ؛ سقط فرضها عن بقية الأمة ، إلاّ إنْ جدَّ مايوجب الدعوة ، من اعتداءات أوإشاعات أو فُرقة ، أو بلبلةِ خواطر أو خلخلة أو انحراف أو غمّة . . . فحينئذٍ تكون الدعوة فرضَ عَينٍ حتمى على كل قادر من أبناء الأمة . . .

وجوب التخصص فى الدعوة :

لا أريد أن أتحدث عن التخصص فى المواد الأرضية ، والعلوم الكونية والتنوعات النباتية والحيوانية ، البرية منها والبحرية والجوية . .

ولا أريد أن أتحدث الآن عن التخصصات فى آيات الله العلمية ، أو الكونية ، أو الإنسانية . . . فلها مجال آخر وتخصصات متعددة. . . ولها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، واستمدوا من الآيات القرآنية ما يقربهم إليه . .

وإنما أريد أن ألفت النظر إلى التخصصات حول الإنسان عامة لأفتح القلوب والأذهان إلى التخصصات حول أجهزة الإنسان خاصة . . .

فلقد زادت التخصصات على العشرات ، حول أجهزة الإنسان المادية ، من أجهزة هضمية ، وتنفسية ، وبولية ، وتناسلية ... وغيرها وغيرها...مما يشترك فيها مع الأنعام ، والطيور ، والحشرات ، والحيوان . . . ، بل وتعددت التخصصات ، حول جزء واحد ، من بعض أجزاء الجهاز الواحد ، مثل العين ، والأذن ، والأنف ، والأسنان . . .

فما بالنا بالأجهزة غير المنظورة فى الإنسان ، التى يتميز بها فى إنسانيته عن بقية الأحياء والحيوان . . .

لا بد من أن يكون لها عشرات التخصصات ، والتخصصات . .

والدعوة إلى الله:

إقراراً للأمن والسلام ، ودفعاً للتفرق والخصام ، وإنهاضاً للأمة من كل تعثر أو انقسام ...

ومحاربة جادة وحازمة ومخلصة لوجه الله والوطن . .

تبدأ أولاً — بمكافحة المفتريات والشرور والشائعات ، والآثام ،

وثانياً — ببناء العزة والوحدة والنصر على محبة وكرامة واعتصام ،

وثالثا — بالتبصير العلمى الواعى والمؤمن بكل مايدفع الأمة دائماً إلى الأمام...

ولا بد لهذا كله ، من اختيار الداعى ، وإعداده ، وتهيئته لتولى الزمام...

فلا بد للدعوة إذاً : من التخصص أعمق التخصص ، وأوجب التخصص ، وهو أولى التخصصات بالعناية ، وأجدرها بالرعاية . . .

فعلى يَدىْ الداعى المستقيم المتخصص الخاص: يستقيم أمر الدعوة ، فيستقيم أمر الأمة ، إذا اتجهت إلى الله ، وصدق فيها الدعاة وأخلصوا عملهم لوجه الله ...

ويجب أن نستهدى من سورة الشورى ٤٢ / ١٠ بقول الله :

« وَمَا اختلفتمْ فِيهِ مِن شَىء فَحُكْمُهُ إلى اللهِ . . . »

ثم يجب أن نتدبر فى عمقٍ ، وإيمان : قوله سبحانه فى سورة الأنعام ٦/ ١١٤ — ١١٦ :

« أفغيرَ اللهِ أبتغى حكماً ، وهوَ الذى أنزلَ إليكمُ الكتابَ مُفصَّلاً ؛ والذينَ آتيناهُم الكتابَ يعلمونَ أنهُ مُنزّلٌ مِن ربِّكَ بالحقِّ ، فلاَ تكونَنَّ مِن المُمترِينَ * وتمّتْ كلمةُ ربِّكَ : صدْقاً ، وعدْلاً : لا مُبدِّلَ لكلماتهِ وهوَ السَّميعُ العليمُ * وإن تطعْ أكثرَ مَنْ فى الأرضِ يُضلُّوكَ عن سَبيلِ اللهِ ، إن يتَّبعونَ إلاَّ الظنَّ ، وإنْ همُ إلاَّ يخْرُصُونَ » .

« والتخصص » قد أمر به رب العزة بقوله :

« ... فَاسألوا أهْلَ الذكْرِ إن كنتم لاَ تعلمونَ » . (سورة الأنبياء ٢١/ ٧).

وقد هزَّ سبحانه المؤمنين هزاً قوياً ؛ لتدبر آيات الله ، مبينا سبحانه أن الشائعات والأراجيف ، هى أخطر ما يصيب المجتمع والأمة ، سواء فى زمن السلم ، أو فى وقت الحرب ، وأخطر منها وأضر ، تدخل الناس فى غير تخصصاتهم والإذاعة بالأخبار والتندر بها ، والتقوّل فيها من غير المتخصصين ، وأشار سبحانه إلى أنه لا علاج ، ولا دواء ، ولا فلاح ؛ إلا بالرجوع فى كل أمر إلى أصحاب هذا الأمر ، بعد الرجوع بالأمر كله إلى الله ورسوله ...

فقال تعالى فى سورة النساء ٤ / ٨٢ و ٨٣ :

« أفلاَ يَتدبّرُونَ القرآنَ ولوْ كانَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ ؛ لوَجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً *

وَإذا جاءَهم أمرٌ من الأمنِ أو الخوفِ أذاعوا بِهِ ،

ولوْ ردُّوهُ إلىَ الرسولِ ، وإلى أُولى الأمرِ مِنهمْ ؛ لَعلمَهُ الذينَ يَستنبطونَهُ مِنهمْ ،

وَلولاَ فَضْلُ اللهِ عَليكم وَرحْمتهُ لاَ تَّبعتمُ الشَّيطانَ إلاَّ قليلاً » .

ولعل الذى يمثل الرسول فى هذه الآية ، إنما هو ولىّ أمر الأمة ، من حاكم أو قائد تجتمع عليه الكلمة ، أما أولوا الأمر منهم ، فهم الذين يصلون فى تخصصهم إلى درجة الاجتهاد والاستنباط ، بعد التدبر العميق الواعى المستنير بالقرآن ، وللقرآن . . . للقرآن كله بجميع آياته وكلماته وقراءاته ، حتى يتأكدوا عن تدبر ويقين : أنه لا اختلاف فى قرآن رب العالمين ، وأنه سبحانه أنزله لإصلاح كل العالمين ، فى كل أمور الحرب والسلم ، والدنيا والدين .

التخصص فى الدعوة إلى الله أقوى أسلحة النصر على أعداء الله :

لقد أمر الله المؤمنين أن ينفروا فى سبيل الله للجهاد ، وقتال أعداء الله ، وللتفقه فى الدين ، والدعوة إلى الله ، أعنى أن يخرجوا من أماكنهم ، ويرتحلوا عن ديارهم ، ويبيعوا : أنفسهم ، وأموالهم ، ومتاعهم ، وأولادهم ، وكل ما يشغلهم عن الله . . لله . .

ومن باع لله حقا ، فقد ربح الربح كله ، ونجا النجاة كلها ، وفاز كل الفوز ، وانتصر كل النصر . . .

وتوجيهُ اللهِ للمؤمنين ، وأمره إياهم بأن ينفروا ، جاء فى القرآن الكريم كله فى سورتين : فى سورة النساء مرتين : وفى سورة التوبة ست مرات . ، كما جاء على نوعين : للتفقه فى الدين والدعوة إلى الله مرتين ، وللجهاد والقتال ست مرات . .

أما فى سورة النساء ٤ فى الآية ٧١ :

« يا أيها الذين آمَنوا خُذوا حِذْركم فَانْفِروا ثُبات أو انفروا جميعاً » .

وأما ما ورد فى سورة التوبة ، وهى سورة براءة ، وهى سورة القتال ، وتسمى : الكاشفة ، والفاضحة .

فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما ، عنها : « تلك الفاضحة ، مازال ينزل : « ومنهم » ... « ومنهم » .. حتى خفنا ألاّ تدع أحدا » .

وقال القشيرى : « نزلت فى غزوة تبوك وما بعدها وفى أولها نَبْذُ عهود الكفار والمشركين إليهم .. وتسمى : الكاشفة ، والبحوث ؛ لأنها تكشف عن المنافقين وتبحث عن أسرارهم ، وتسمى : المبعثرة ، والبَعْثرة ، والبحث ، قال عثمان بن عفان : وكانت الأنفال من أوائل ما أنزل — بعد الهجرة — وبراءة من آخر القرآن ، وقال علىّ بن أبى طالب : إنها لم تبدأ بالبسملة ، لأن البسملة أمان ، وبراءة نزلت بالسيف ليس فيها أمان ، ونزلت فى المنافقين ولا أمان للمنافقين » .. (تفسير القرطبى ج ٨ : ٦١ — ٦٢) .

أما ما ورد فى هذه السورة ، سورة التوبة .. فقد تكرر فيها توجيه الله للمؤمنين ، وأمرهم بأن « ينفروا » : ست مرات .

فى الأربع الأولى منها : جاءت للقتال والجهاد فى سبيل الله ، بالأسلحة المادية والعدة والعتاد الحربى . .

وفى المرتين الأخيرتين : جاءت للتفقه فى الدين ، والدعوة إلى الله ، ورفع الروح المعنوية ، وتقوية التوجيه المعنوى .. لاكتساب النصر الحقيقى على أعداء الله ، وعقب هاتين المرتين مباشرة : أمر الله سبحانه المؤمنين ، أمراً عسكرياً بقتال الكفار والمعتدين ، بكل قوة وغلظة ، والنصر من الله ...

وكانت التوجيهات والأوامر العسكرية الإلهية فيها ، على الترتيب الآتى :

١ — عتبٌ قوىٌ للمؤمنين إذا تثاقلوا بعد قول القائد أو ولىِّ الأمر : انفروا.

وذلك فى الآية ٣٨ من سورة التوبة ٩ :

« يَا أيها الذين آمَنوا مَا لَكم إذا قِيل لَكمُ انفِروا فى سَبيلِ الله اثَّاقلتم إلَى الأرضِ ؟ أرَضيتمْ بالحياةِ الدُّنيا مِنَ الآخرةِ ؟ فمَا متاعُ الحياةِ الدُّنيا فِي الآخرةِ إلا قليلٌ » .

٢ — تهديدٌ قوى حازم للمتخلفين من القادرين على القتال ، بعد النفير العام فى الآية ٣٩ :

« إلاّ تنفِروا : يُعذِّبْكمْ عَذَابًا أليماً ، وَيستبدِلْ قَوْماً غَيركمْ ، وَلاَ تَضُرُّوهُ شيئاً ، والله على كُلِّ شىءٍ قديرٌ » .

٣ — بيانٌ لأنواع النفير : بالأسلحة الخفيفة والثقيلة ، وبالجماعات الخفيفة وبالجماعات الثقيلة ، وبالمتطوعين خفافا ، والمجندين ثقالاً ، والأعجب والأعمق : وبالفدائيين خفافا والمقاتلين ثقالا ... وذلك قوله تعالى فى الآية ٤١ :

« انفروا : خِفَافاً ، وَثِقَالاً ، وَجَاهِدُوا بِأموالِكمْ وَأنفُسِكمْ فِى سَبيلِ اللهِ ذَلكم خيرٌ لَكمْ إنْ كُنتُم تعلمونَ » .

٤ — كشف المنافقين وألاعيبهم ، والرد عليهم ، مع بيان نهايتهم السيئة ، واستعمال أساليب الدعوة الحكيمة فى الآيتين ٨١ و ٨٢ :

« ... وقَالوا : لاَ تَنفِروُا فِى الحرِّ ، قُلْ نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرًّا لَو كَانُوا يَفقَهونَ * فَليَضحَكُوا قَليلاً ، وَليبكُوا كَثيراً جزاءً بِمَا كَانوا يكسِبُونَ » .

٥ و ٦ : تخصيص الفرق العسكرية للقتال ، وتخصيص طائفة من كل

« فرقة » عسكرية مقاتلة للتفقه فى الدين والدعوة إلى الله ، لإنذار قومهم وفرقتهم إذا رجعوا إليهم ، وتحذيرهم ، وتبصيرهم بالقوة الحقيقية للنصر ؛ ورفع روحهم المعنوية لكسب المعركة . .

ويلى ذلك مباشرة الأمر بالقتال وكيفيته ، وتحقيق النصر الحقيقى لهم ، لأن الله معهم ، يثبتهم ، ويلقى الرعب فى قلوب أعدائهم ، وذلك كله ، وأكثر وأعمق وأبعد من هذا كله ، فى الآيتين ١٢٢ و ١٢٣ فى أواخر السورة :

« ومَا كانَ المؤمِنُونَ لِيَنفِرُوا كافَّةً ، ! ؟ فلولاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنهُم طائفةٌ ؛ ليتفقَّهُوا فِى الدينِ ، ولِيُنذِرُوا قومَهُم إذَا رَجعُوا إليهِمْ ؛ لَعلَّهم يحذَرُونَ ٭ يا أيُّها الَّذين آمنُوا : قاتِلوا الَّذين يَلونَكُمْ مِن الكفَّارِ ، وَليَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً ، واعلمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقينَ » .

فلاح الأمة بفلاح المتخصِّصين فى الدعوة :

إنّ فلاح الأمة ، وخيريتها على جميع الأمم ، يرتكزان على ثلاثة أمور رئيسية ، تشتمل على جميع أنواع الفلاح والخيرية ، هى :

١ — الأمر بالمعروف ، والمعروف هو كل ما تسكن إليه النفس ويطمئن إليه المجتمع ، ويقود إلى السعادة . .

٢ — النهى عن المنكر ، والمنكر هو كل ما يؤدى إلى شر أو ضرر ؛ للفرد ، أو للمجتمع ، أو للأمة . .

٣ — الإيمان بالله ، وهو الأساس لكل علم ، وعمل ، وخلق . . . أمر به الله ، وهو الجامع لكل معروف يجب الأمر به ، ولكل منكر يجب النهى

عنه : مباشرة ، أو عن طريق اجتهاد المجتهدين المخلصين المتخصصين ، الذين يستطيعون أن يستنبطوا من كتاب الله ، وسنة رسول الله ، ما يُصلح كل أمور الحياة ، ويعالج كل انحراف فى كل اتجاه ، ويحقق العزة والسعادة والأمن والاستقرار والسلام ... قال تعالى فى سورة آل عمران ٣ الآية ١١٠ :

« كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ : تَأْمرُونَ بالمعرُوفِ ، وتنهَوْنَ عَنَ المنكرِ ، وتؤمِنُونَ باللهِ ... » .

ولكن مَن الذى يأمر وينهى ويدعو إلى الخير والفلاح ؟ ؟ !

لقد أوجب الله ذلك كله على الدعاة ، المتخصصين فى الدعوة إلى الله ، فأمر سبحانه المؤمنين عامة بتقوى الله ، تحقيقا للعزة ، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله ، تأكيداً للوحدة ، وأمرهم بعدم التفرق ، حتى لا تفشل الأمة . .

ثم ذكّر سبحانه بنعم الله على المؤمنين السابقة واللاحقة : تعليما للدعاة . . .

ثم أوجب سبحانه إيجابا مؤكداً : أن تكون هناك دائما أمة ، هى أمة الخير كل الخير ، وهم الدعاة إلى الله وإلى كل خير ، وهم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، وهم فوق هذا وذاك ، هم الصفوة من « خير أمة أخرجت للناس » وهم بعد هذا كله « هم المفلحون » بمقدار تخصصهم فى الدعوة ، وإخلاصهم لها .

ومن ورائهم ، وعلى أيديهم ، وبمقدار فلاحهم : يكون الفلاح للأمة ، لأن دعوتهم دائما إلى الخير ، وهم الدعاة إليه ، ومهمتهم هى العمل على تحقيق الخيرية والفلاح لجميع الأمة ، وهم إن أدوا واجبهم هم المفلحون ، وإن أفلحوا : أفلحت الأمة كلها بهم ، ومن وراءهم ... بقدر إخلاصهم وفلاحهم ... قال رب العزة فى سورة آل عمران ٣ الآيات من ١٠٢ — ١٠٥ :

« يَا أيُّها الذينَ آمَنوُا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِه وَلاَ تَموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسلمونَ *

واعتَصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً، وَلاَ تفرَّقوا،

وَاذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكمْ إذْ كُنتم أعداء فألَّفَ بَينَ قُلوبِكمْ فَأصبَحتمُ بِنِعمَتِهِ إخوانًا، وكُنتمْ عَلىَ شفَا حُفرةٍ مِنَ النارِ فَأنقذَكُمْ مِنهاَ، كذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكم آياتِهِ لَعلكم تَهتَدونَ *

وَلْتَكُنْ منكمْ أمةٌ يدعُونَ إلىَ الخيرِ، وَيأمرُونَ بالمعروفِ، وَينهوْنَ عَنِ المنكرِ، وأولئك هُمُ المفلحونَ *

وَلاَ تَكونُوا كالذينَ تفرَّقُوا واختلَفوا مِن بعدِ مَا جَاءَهمُ البيناتُ، وأولئكَ لَهم عذابٌ عَظيمٌ » . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الوسائل المتجددة للدعوة :

إن كل ما سبق من تأسيس ، وتقعيد ، ومناهج ، وسبل ، ووسائل للدعوة إلى الله . . . إنما هى الركائز المستمرة الدائمة للدعوة إلى سبيل الله ، بحيث يجب أن يكون كل ماتقدم : هو الانطلاق الفعلى لجميع الدعاة ، فى كل زمان ومكان ، وفى كل بيئة وثقافة ، وعلى كل المستويات ، فى جميع الاتجاهات ، وفى كل الحالات . .

ثم إن هناك مع كل هذا ، من الوسائل ما يجدّ بتجدد الظروف والأحوال والاحتياجات ، وعلى حسب المستوى العلمى ، والثقافى ، والحضارى . . . فى مختلف البيئات . . .

فمثلا جدّ « المذياع » ، والمسرة ، وجد « التليفزيون » ، وجدّت الأبواق

وجَدّت الإعلانات ، وجدّت ، بل وتعددت وسائل الترفيه والإعلام . . .

فلا بد من اتّخاذها ، واستخدامها ، مع الوسائل السابقة . . .

أما كيفية استخدامها فى الدعوة إلى الله ، فيجب أن يكون تخطيط ذلك بيد المتخصصين من الدعاة ، على عمق وإخلاص . . . ابتغاء وجه الله .

ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أيضا :

أن الوسائل المتجددة للدعوة فى المساجد ، قد تختلف عنها فى المقاهى ، وفى الشوارع . . .

وأنها فى المتاجر ، قد تتنوع عنها فى المزارع ، وفى المصانع . . .

وأنها فى الجيش ، غيرها فى المدرسة ، والجامعة ، والمعهد ، والجامع . . .

ثم إن وسائل الدعوة المتجددة أيضاً للطالب ،غير وسائلها للأستاذ ، وللإبن غيرها للأب ، وللقواد ، غيرها للجنود . . .

وهذه الوسائل قد تتشكل فى وقت الاستعداد للدفاع ، غير تشكلها فى وقت المعركة ، أو هى فى السلم غيرها فى الحرب ، وهى فى الإنتاج غيرها فى الاستثمار ، وهى فى التصنيع غيرها فى الابتكار . . .

وستجد على الإنسانية ، وسائل متعددة ، للإعلام والدعاية ، يجب على الدعاة أن يدرسوها وأن يلاحقوها ، وأن يتبينوا الوسائل النافعة والمفيدة منها ، وينفذوها . . .

بعد دراسةٍ واعية مُتخصصة ، لأحوال الأمة ، وظروف المجتمع ، ونَفسيات الأفراد ، وتشخيص الأدواء ، قبل وصف العلاج أو إعطاء الدواء . .

وبعد التغلغل فى الدراسات : الخلقية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والفنية ، والثقافية ، والعسكرية ، العلمية منها والعملية . . لكل من الفرد ، والأسرة ، والمجتمع ، والأمة . .

وبعبـارة موجزة فى كلمـات ، يجب أن يبدأ الداعية من حيث تنتهى جميع التخصصات ، فى كل المجالات ، وعلى جميع المستويات . .

كما يجب على الداعية : أن يكون لجميع الأمة ؛ ليوحّد صفوفها ، ويجمع على الحق كلمتها ، ويوجه إلى الخير عملها ... وليُحِسّ كل فرد من أبناء الأمة أنه له ، ويتعاطف كل واحدٍ من المجتمع معه ، ويثق الجميع — أفراداً وجماعات — فيه . . .

وبهذا يستفيد الجميع منه على السواء ، ويتقبل الجميع منه العلاج والدواء ؛ لأنه قد تجرد عن الميول والرغبات والأهواء ، وأخلص نفسه وعمله ودعوته لله رب العالمين ...

وكل هذا لابد فيه من التخطيط الدقيق العميق ، الذى يشمل جميع مصالح الحياة ، ومصلحة المجتمع ؛ والأخذ بيد الجميع إلى الصراط المستقيم ، المؤدى إلى الفلاح والنجاح والنصر :

« واللهُ معكُمْ ولَنْ يَتِرَكُمْ أعمالَـكُمْ » .

« إن تَنْصروُا اللهَ ينصرْكُمْ وَيثَبِّتْ أقدامكم » .

« وما النصر إلا من عند الله » ؟

وإلى الفصل الثانى بتوفيق الله . .

إلى : المنهاج العلمى الأصيل .

إلى : « التاريخ الحق وبنو إسرائيل » .

الفصل الثانى

التاريخ الحق، وبنو إسرائيل

مبلغ الصحة فى التاريخ . المحاولات لتصحيح التاريخ . منهاج البحث التاريخى .
تطبيق المنهاج على التاريخ . التاريخ الحق .
منهاج وإجمال لتاريخ بنى إسرائيل من القرآن .
بنو إسرائيل فى القرآن . من هو إسرائيل ؟ .
هل بُشّر إبراهيم بيعقوب . بشرى إبراهيم بالغلام الحليم وبغلام عليم .
لماذا بشّر الله امرأة إبراهيم بولد وحفيد مرة واحدة .
أبناء الحليم وأبناء العليم . بين حلم الحليم وعلم العليم . أهل الكتاب والأميون .
بنو إسرائيل الأول . يوسف عليه السلام .
أخلاق العشرة الكبار أصل بنى إسرائيل . الأسباط .
بنو إسرائيل من يوسف إلى موسى . ولادة موسى عليه السلام وتربيته .
خروج موسى من مصر أول مرة. موسى فى أرض مدين. صهر موسى ليس شعيبا .
رجوع موسى بأهله وكيفية تلقيه الرسالة. مقارنة بين محمد وموسى فى تلقى الرسالة.
آيات الله لموسى وموقفه منها . إرسال موسى إلى فرعون وهامان وقارون .
طوائف بنى إسرائيل . قارون من قوم موسى. إيذاء بنى إسرائيل لموسى وهارون.
أقوالهم المنكرة فى الله عز وجل. الملأ من بنى إسرائيل بعد موسى. داود وسليمان.
موقف بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام . إفساد بنى إسرائيل فى الأرض .
حتمية القضاء على إفساد بنى إسرائيل : إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم .
وإن عدتم عدنا .

التاريخ الحق وبنو إسرائيل

مبلغ الصحة فى التاريخ :

يرى عشرات الناس حادثة واحدة وينطلقون، ثم يحدثون عنها ويؤرخون... فهل هم فى حديثهم يتفقون ؟ !

ويسمع عشرات الناس محاضرة واحدة وينطلقون، ثم يبلغونها ويحدثون... فهل هم فى روايتهم يتفقون : !

ويرسم عشرات المصورين مكاناً واحدا وينطلقون ، ثم يبرزون الصور ويظهرون . . .

فهل تراهم فى تصويرهم يتفقون ؟ !

هذا مع افتراض صحة الرؤية ، وحسن التعبير ، ودقة التصوير . . إنهم لا يتفقون ، بل يختلفون . .

وهكذا المؤرخون : كل واحد منهم : يرى الحادثة من وجهة نظره هو ؛ فيحكيها . . .

ويسمع الحديث بمقدار ثقافته ؛ فيرويه . . .

ويصور المكان من زاويته ، ويبرز الصورة ويبديها . . .

ثم يتصايح العلماء بالانتصار ، على بلبلة الأفكار . ، حول دقة التاريخ وصحة الأخبار ، باكتشاف الحفائر أو الآثار . . . ثم يجتمعون ، ويتفرقون ، ويعاودون ، ويقرءون . . . فهل يتفقون . . . ؟ ؟

هل يتفقون جميعا على قراءة واحدة لحفرية واحدة ؟ . .

ومن عجب أنهم يتفقون جميعاً على أن اختلاف التقدير الزمنى لا يضر ولا يشين ، إذا كان بآحاد الملايين من السنين . . !! لأن جزء الجزء من المليمتر يحسب بعشرات القرون . . ؟

فأين الصحيح ، وأين غير الصحيح ، من بين هذا الضجيج أو الفحيح ؟ وما مبلغ صحة التاريخ ودقته ؟ وكيف نطمئن على سلامة أغراضه و بيئته ؟

كل هذا على افتراض أن يكون المؤرخ محايداً ، لم يتأثر بميل ، أو اتجاه ، أو جاه ، أو وعد ، أو وعيد ... وإلا لاشتدت الأزمة ، وفقدنا الأمل فى الصحة.

المحاولات لتصحيح التاريخ :

لهذا كله يبذل العلماء الجهود ، فى كل العصور والعهود ، لمحاولة تصحيح الأخبار ، وإعادة القراءة للآثار ، ومداومة الاستنتاج من الحفريات ، الفقريات منها وغير الفقريات ، ومع كل هذه الجهود والمحاولات ، لا يستطيع واحد أن يقول كلمة حاسمة وأخيرة ، لأن العلم كل العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة ..

ثم يحاولون ويجتهدون فى وضع المناهج والقوانين ، لضبط التاريخ متلبساً بالحقيقة فلا يصلون ، وأيضا لا يسأمون ، بل يكررون ويعاودون . . . وإلا أوصدت أبواب العلم ونوافذه ، فيموت الجنين الدفين . . .

وفى كل يوم تظهر آثار تصحح آثارا ، وتُستنبط أخبارٌ تناقض أخبارا ، وتجدّ حفريات لاحقة ، تناقض القراءة من الحفريات السابقة . . .

وهذا كله إنما يتطلب مضاعفة المحاولات والجهود ، لتصحيح التاريخ ، على مدى التاريخ ، وفى كل العصور والعهود . .

منهاج البحث التاريخى :

ويتوافر فريق من المتخصصين ، على تكميل المنهج التاريخى عند الغربيين للاطمئنان على سلامة التاريخ والمؤرخين ، بعد أن صح الوضع وظهر الوليد ، لأنه محتاج إلى الحضانة والرعاية والمزيد ، وليتهم يعرضونه على أساتذة الدنيا وحكماء الأرض فى القديم وفى الجديد ، الذين أرسوا قواعد المنهج التاريخى وأتموا له البناء والتشييد ، من أمثال « البخارى » و « مسلم » و « ابن أبى داود » . . إذن لصلب عود المنهاج وشكله ، واستقام رسمه وظله . . .

لأن أصحاب السنن والأحاديث النبوية ، قد بلغوا قمة القمم العلمية والإنسانية ؛ فى وضع القواعد الشامخة القوية ، لتصفية الأخبار والروايات التاريخية ، من كل نواحيها الشكلية والموضوعية . .

وجميع ما تدور عليه هذه القواعد : عدالة الراوى وحيدته ، وسلامة حفظه وإحاطته ، وإخلاصه وصدق نيته ، واستبصاره وصفاء سريرته .. . مع الضبط والأداء ، والوعى والنقاء . . .

إلى الكثير جدا من الشرائط والصفات ، التى تضع الراوى فى درجة الثقات . . .

وهذا كله على تعدد المحدثين: بالرواية ، والسند ،والتسلسل والعَنْعَنة :(عن فلان ،عن فلان) ...إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعلى اختلاف ما بينهم من اشتراطات تشتد وتقوى : يشترطونها فى الرواة ؛ لمجرد تصديهم للنقل عن رسول الله . . . وعلى ما فيهم جميعا من سلامة الإسلام والإيمان ، والتزامهم جميعا بأحكام القرآن وآداب القرآن ، وبُعدهم جميعا عن الميل والهوى ، ووسوسات الشيطان أى شيطان . . .

تطبيق المنهاج على التاريخ :

هذا المنهاج إنما يمكن تطبيقه — وقد طُبّق فعلا — على الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونَقل أحاديثه : كلمات تحفظ بحروفها ، وتنقل كما هى بحروفها ، من غير تعرُّض للشرح أو للتبرير ، أو التأويل أو التفسير... ثم من أراد أن يشرح فليشرح ، ولكن على هُدًى و تقوى لعل الله يفتح . . .

ولكن هل يمكن تطبيق هذا على ترجمة الأحداث التاريخية ، والواقعات المادية والأرضية ، إلى كلمات تدل عليها أو حروف تجمع دقائقها ؟

نعم يمكن ويمكن ، وقد طبق الكثير جداً من هذا على التاريخ وأحداثه، كثير من المؤرخين المسلمين الأول ، وبخاصة الذين تعرضوا منهم لتأريخ سيرة خاتم النبيين والرسل . . .

ولكن السؤال الأهم ، هو : وهل يمكن أن يصل مؤرخ مهما كان ، أن يؤرخ الحق ، أو أن يورخ بالحق . . . فى أى زمان أو مكان . . ؟ !

أظن أن هذا ليس فى مقدور بشر ، أن ينقل بالحق أو بالكمال الأكمل أى صورة من الصور ، أو أن يؤرخ بالحق لأى خبر . . . وليسأل كل واحد نفسه : يرى هو بنفسه الحادثة فيرويها ، ثم يمر زمن يسير فيحكيها ، فهل تتطابق تماما روايته الأولى وحكايته الثانية ؟ !

وأدق من هذا وأعمق أن تحدث الحادثة للشخص نفسه ، فيحدِّث بها الكثير من صحبه ، أو يكتب خطاباً لصديقه ، ثم يحاول أن يكتب له نفس الخطاب مرة أخرى ، وبنفس المعانى التى كتبها فى الخطاب الأول. . . ؟ فهل يكون ذلك مطابقا تماما ... ؟ ! أظن : لا .. ؛ لأن القصور عن الكمال ضريبة المخلوقية ، فالكمال لله وحده ، والوصول إلى الحق مَعجِزَةُ المخلوقية ؛ فالحق هو

الله وحده . وليس التعبير عن الحق بالقول الحق إلا من الله الحق . . .

وقد سبق فى الفصل الأول من هذا الكتاب ، توضيح «الحق والصواب» بما لاشك فيه ولا ارتياب ؛ فليرجع إليه من صفحة ١٣١ إلى صفحة ١٩٩ فى هذا الكتاب .

التاريخ الحق :

وليس التاريخ الحق، إلا من الله الحق، فيما قال سبحانه فى كتابه الحق، الذى قال عنه سبحانه : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » لأنه سبحانه هو العليم المحيط الخبير ، الذى « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » ؛ فإذا قال القرآن فقد قال ؛ وإذا أرّخ فقد أرّخ ، وإذا قصّ فقد قصّ ، وقد قال الحق سبحانه عن قصصه لبعض جوانب التاريخ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام :

« لقد كان فى قصصهم عبرةٌ لأولى الألباب ما كان حديثاً يُفترى ، ولكن تصديق الّذى بين يديه ، وتفصيلَ كلِّ شىء . . » .

نعم كل شىء مما لا يمكن أن يفصله الإنسان نفسه عن نفسه ، أو عن واقعة حصلت له أو منه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يترجم كل أحاسيسه ومشاعره وخلجاته والظروف المحيطة به . إلى ألفاظ ينطق بها أو كلمات يكتبها ..

ونعم كل شىء من أصول الأصول التى لا يمكن أن تصل إليها الإنسانية بمخلوقيتها المحدودة : زمانا ، ومكانا ، وبيئة ، وثقافة ، وصحة ، واعتدال مزاج ، واتساع آفاق ... تلسع الإنسان بعوضةٌ فتطير أفكاره ، ويتلوى . . .

وتسلبه ذبابة ، فلا يستطيع استرداد ما سلبت ، ولا يقوى . . .

ثم دفع رب الإنسانية كل إنسان وكل عالم وكل متخصص : إلى مواصلة

الجد والبحث والعلم والاستنتاج ، بكل طاقاته وقواه . . . ليحصل على ما يردُّ الجوع والعرى ، والظمأ والضحى ، وليساهم فى بناء صرح الوطن وإقامة مجده والدفاع عن مقدساته وعرضه ، وليشارك أبناء الأمة فى نشر السعادة والوحدة إقراراً للسلام العالمى ، والاستقرار النفسى والاجتماعى . . .

والقرآن الحق من الله الحق ، تحدث عن أخبار السابقين وتاريخهم : حديثا تعجز الإنسانية عن الوصول إليه من ناحية ، وتؤخذ منه العبر كل العبر . علاجاً لكل انحراف ، وتوحيداً لكل اختلاف ، وبلسماً لكل داء ، ووقاء وطباً وشفاء من كل شر أو سوء أو بلاء . . . من ناحية أخرى . . .

وصدق الله إذ يقول عن أهل الكهف فى سورة الكهف ١٨ / ١٣ :

« نَحنُ نقصُّ عَليْكَ نبأهم بالحقِّ . . . » .

وعن يوسف وإخوة يوسف فى أول سورة يوسف ١٢/٢ — ٣ :

« إنَّا أنزلناهُ قرآناً عربيًّا لعلكُمْ تَعقِلونَ * نحنُ نقصُّ عليكَ أحسَنَ القصَصِ بما أوْحينَا إليكَ هَذا القُرآن . . . » .

وفوق هذا ، فقد قص القرآن على العرب ، وفى جزيرة العرب ، أخبار أمم من العرب ، عاشوا فى قلب بلاد العرب . . .

والعرب أعرق الناس تاريخا ، وأعمق الناس فى التاريخ ، كان الواحد منهم يحفظ تاريخ التاريخ لكل فرد ، ولكل قبيلة ، ولكل جيل ، ولا يكون عربياً إلا إذا كان حافظا لأنساب العرب عامة ، ولنسبه هو إلى عشرين جَداً على الأقل خاصة ، بل لقد ألف العرب فى أنساب الخيل ، والنخل والكلاب والجمال والكرم والجبال . . .

وكما قلت فى كتابى : « تاريخ الأديان المقارن » بتصرف خفيف :

قصّ عليهم تاريخهم ، وهم أحرص الناس على التاريخ ، وأعمقهم فى التاريخ .
قصّ عليهم رسلهم ، وهم أوثق الناس بالرسل ، وأكذب الناس للرسول .
قصّ عليهم أديانهم ، وهم أكرم الناس على دين ، وأكرم الناس بدين .
قصّ عليهم عقابهم ، وهم أنفر الناس إلى العقاب ، وأنفر الناس من العقوبة .
قصّ عليهم ديارهم ، وهم أعز الناس داراً ، وأمنع الناس جاراً .
قصّ عليهم أنسابهم ، وهم أعرق الناس نسبا ، وأكرم الناس حسبا .
ثم تحداهم وكانوا مكابرين ، وكابرهم وكانوا متعنتين ، فأعنتهم وأعجزهم فكانوا من العاجزين . . .

ثم قصّ عن حولهم من الأمم ، ومما حولهم من الدول . . . وتحدى . . وأثار . . وأعجز . . فسكتت الدنيا وعجزت . وروّعت الجماعات وزلزلت ؛ ولكنها ما ثارت ولا نطقت ، بل أقرت بإجماع ويقين ، هذا التاريخ الذى نطق به الكتاب المبين ، كتاب : « لا يأتيهِ الباطِلُ منْ بينِ يَديهِ وَلا مِنْ خَلْفِه تنزِيلٌ مِنْ حَكيمٍ حَميد » . (سورة فصلت ٤١/٤٢) .

منهاج وإجمال لتاريخ بنى إسرائيل من القرآن :

« وَإنّ رَبَّكَ لَيَعلمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ومَا يُعلِنونَ * وَمَا مِنْ غائِبَةٍ فى السَّماء والأرْضِ إلاّ فى كِتَابٍ مُبِينٍ * إنّ هَذَا القُرآنَ يقصُّ عَلَى بَنِى إسْرائيلَ أكثرَ الذِى هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ * وَإنّهُ لهُدًى ورَحْمَةٌ للمؤمنينَ * إنّ رَبّكَ يَقضِى بَينَهُمْ بحكمِهِ ، وهُوَ العَزيزُ العَلِيمُ * فَتوكَّلْ على اللهِ ، إنّكَ عَلى الحقِّ المُبينِ » .

(سورة النمل ورقمها فى المصحف ٢٧ الآيات من ٧٤ — ٧٩) .

وبهذا التقعيد المحكم والمعجز، أشار رب العزة إلى هذا المنهاج العلمى التاريخى المعجز ، الذى يقص بمقتضاه أكثر الذى يختلف فيه بنو إسرائيل أنفسهم ؛ لأنه سبحانه هو الأعلم بمكنون صدورهم . .

ثم ليبين رب العزة للانسانية ألاعيبهم ، وفجورهم ، وإفسادهم ، وفسادهم وكيف أنعم الله عليهم ففسقوا ، وكيف عاهدهم فنقضوا ، وكيف متّعهم فكفروا وكيف مَنّ عليهم فجحدوا ، وكيف واثقهم فغدروا ، وكيف استأمنهم فخانوا وكيف أمدَّهم فتمادوا فى غيهم ، وكيف استهداهم فارتكسوا فى ضلالهم وكيف أرسل لهم المصلحين فانتقموا من مصلحيهم ، وكيف بعث إليهم المرسلين الأنبياء فاغتالوا من رسلهم وقتّلوا من أنبيائهم ، وكيف كان كل رسلهم وأنبيائهم يصبون اللعنات عليهم ، وكيف لما عقمت رجالهم عن إنجاب رجل يصلح من حالهم ، بعث رب العزة رسوله جبريل عليه السلام ليبشر مريم البتول الطاهرة فيهم ، بأن الله يكوّن بكلمته التكوينة (كُنْ) رسولاً من الله إليهم هو المسيح عيسى ابن مريم ؛ لعله يهديهم ، ويأخذ بأيديهم ، فلما دعاهم ليهتدوا ثاروا ودبروا له جريمة القتل العمد ، مع الترصد وسبق الإصرار ، كما دبروا له جريمة الصلب مع الترصد وسبق الإصرار ، وأوقعوا من وجهة نظرهم القتل والصلب ، وجاهروا وفاخروا بأنهم قتلوا رسول الله ، بعد أن اتهموا العذراء البتول مريم فى عرضها وشرفها ، وشهّروا بها ،

كما قال رب العزة فى سورة النساء ورقمها فى المصحف ٤ الآيات : /١٥٣ — ١٥٨ يتحدث رب العزة عنهم لحبيبه رحمة العالمين صلى الله عليه وسلم ؛ فيقول سبحانه :

« يَسْأَلُكَ أهلُ الكِتَابِ أن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ

سَألُوا مُوسَى أكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا : أرِنَا اللهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِنْ بَعدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ ، فَعَفَونَا عن ذَلكَ وآتَيْنَا مُوسى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ . وقُلْنَا لهم ادخُلوا البَابَ سُجَّداً ، وقُلنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ ، وَأَخَذْنا مِنهمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً *

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وقَتْلِهِمُ الأنْبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ ، وقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ طَبعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفرِهِمْ ، فَلاَ يُؤمِنونَ إلاَّ قَلِيلاً *

وبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهتَانًا عَظِيماً * وقَوْلِهِمْ إنَّا قتلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسُولَ الله ، وَمَا قَتَلُوهُ ، وَمَا صَلَبُوهُ ولَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ ، ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَل رَفَعَهُ اللهُ إليهِ وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا » .

فحقت عليهم لعنة الله ، وضُرِبَتْ عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بغضب من الله ، وحُقّ عليهم قضاء الله بحكمه وقوله :

« مَلْعُونِينَ أيْنَ مَا ثُقِفُوا : أُخِذُوا وقُتِّلُوا تَقْتِيلاً » .

(سورة الأحزاب ٣٣/٦١) .

فكان ولا بد من أن ينتزع الله الأمانة منهم ، وأن يسترد الرسالة إلى غيرهم الأحق بها ، والأكرم عليها ، والذى تربى فى بيت الله ، وحرم الله .

والذى تربت أمته فى كنف الله، ورعاية الله : خُدّاماً لبيت الله، ومستقبلين لأكرم ضيوف الله فى بيت الله، ومعلمين المناسك والمشاعر لحجاج بيت الله . . .

إلى خاتم النبيين ورحمة العالمين ، إلى السراج المنير محمد صلى الله عليه وسلم .

بنو إسرائيل فى القرآن:

لا تكاد سورة فى القرآن الكريم ، تخلو من الحديث صراحة أو إشارة عن بنى إسرائيل ، وفى هذا يلفت الله أنظار الإنسانية ، إلى أن هؤلاء هم مصدر الشر والإفساد فى الإنسانية كلها ، فى طول الأرض وعرضها ، وفى كل مكان ينزلون ، وعلى أى وضع يكونون ، هم شياطين الشيطان ، وأعدى أعداء الإنسان ، وأفحش الخَلق على الأديان ، فهم شر الدواب ، وعنوان الخراب ونموذج العذاب . . .

ولعل الذى نستطيع أن نفهمه من حكمة الله فى الإبقاء عليهم ؛ هو أن تستيقظ بتوالى عدوانهم هممُ المؤمنين فيستعدوا ، وأن تتنبه لهم أفهام العاملين فيجدّوا ، وأن يستبصر المعتبرون بهم فيستمسكوا بدينهم ، وأن يعتبر المستبصرون بهم فيرجعوا إلى ربهم ، ليرجع إليهم بأسهم الشديد ، وعزمهم الحديد ، وتخطيطهم الرشيد ، وسلوكهم القوى الأكيد . . . فيطهروا الأرض من أرجاس اليهود ، ويجعلوهم لنار الحرب هم الوقود . . . «إن بَطشَ ربِّك لشديد» . . .

وقد لا نستطيع الآن ، أن نحصر بنى إسرائيل فى القرآن ، إلا إذا رجعنا

إلى القرآن كل القرآن . . . فقد كرر لفظ إسرائيل فى القرآن مرتين ، وكررت عبارة « بنى إسرائيل » ٤١ مرة .

أما يعقوب عليه السلام فكرر ٤١ مرة ، وآل يعقوب كررت مرتين .

وأما إسحق عليه السلام والد يعقوب عليه السلام فكرر ١٧ مرة .

وأما إبرهيم وإسماعيل عليهما السلام فكرر ٦٩ مرة ، ١٢ مرة .

وأما يوسف بن يعقوب عليهما السلام فكرر ٢٧ مرة .

وموسى عليه السلام كرر ١٣٦ مرة منها ٢٧ فى مكة و١٠٩ فى المدينة .

وهٰرون عليه السلام كرر ٢٠ مرة .

وعيسى عليه السلام كرر ٢٥ مرة ، ومريم ذكرت ٣٤ مرة .

وقد تكرر فى القرآن لفظ « أهل الكتاب » ٣١ مرة منها مرة واحدة فى مكة ، و٣٠ فى المدينة .

وكرر لفظ اليهود ٩ مرات كلها فى المدينة .

وكررت كلمة التوارة ١٨ مرة ؛ منها مرة واحدة فى مكة و١٧ فى المدينة .

أما الأنجيل فكرر ١٢ مرة منها واحدة فى مكة .

وكرر لفظ النصارى ١٥ مرة ...

وهذا غير ما ذكر عن: داود، وسليمان ، وزكريا، ويحي ... عليهم السلام. وغيرهم من رسل بنى إسرائيل . . .

وغيرما تحدث القرآن عنهم مثل إخوة يوسف والعزيز ، وامرأة العزيز ، والنسوة، والملك ،وفرعون، وهامان ،وقارون ، وملكة سبأ ،وامرأة عمران ... مما يؤرخ لأمم وممالك وأشخاص وحضارات ، ويجب أن تفرد له كتب مطولة . . . والله الموفق . . .

وسنكتفى الآن بالإشارة إلى بعض اللمحات التى تصلح بعض ما دسه اليهود من إسرائيليات ، ونستنتج منها العبر لواقعنا الدينى والعلمى والعظات ؛ التى تتصل بسلوكنا الفردى والاجتماعى ؛ وتصحح لنا بعض الآراء والالتواءات وتأخذ بأيدينا إلى النصر المحقق بتوفيق الله : « وما النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

من هو إسرائيل؟ :

إسرائيل هو يعقوب ابن إسحٰق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام، ففى سورة آل عمران ٣ ، وفى الآيتين ٩٣ — ٩٤ منها يقول رب العزة :

« كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إسْرَائيلَ ، إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلى نَفْسِهِ مِنْ قبلِ أنْ تُنزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فأْتوا بِالتَّوْراةِ فاتلُوهَا إنْ كُنتمْ صَادِقينَ * فَمَن افْتَرَى عَلى اللهِ الكَذِبَ من بَعْدِ ذَلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمونَ » .

قال ابن عباس — فيما رواه الترمذى — وسار عليه المفسرون وبخاصة الطبرى والقرطبى :

« لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النَّسا وصف له الأطباء أن يجتنب لحوم الإبل فحرمها على نفسه — وحرم العروق — فقالت اليهود : إنا نحرم على أنفسنا لحوم الإبل ؛ لأن يعقوب حرمها ، وأنزل الله تحريمها فى التوراة ، فأنزل الله هذه الآية ، لما جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يختبرونه فى ذلك قال الضحاك فكذبهم الله وردّ عليهم وتحداهم بالإتيان بالتوراة وتلاوتها ، فلم يستطيعوا وكابروا وافتروا . . . فقال عز وجل :

« فمن افترى على اللهِ الكذبَ من بعدِ ذلكَ فأولئكَ هُم الظالمونَ *
قل صدق اللهُ . . . »

هل بُشر إبراهيم بيعقوب عليهما السلام ؟

لم يبشر الله سبحانه نبيّه إبراهيم الخليل عليه السلام بيعقوب عليه السلام مطلقا : لا إسما ، ولا غلاما . . .

وإنما بشره الله سبحانه مرتين متباعدتين جداً بغلامين ليس أحدهما يعقوب عليه السلام ، ومع هذا فهناك فروق كثيرة وكبيرة بين المرتين ، لأن كل مرة تختلف عن المرة الأخرى : زمانا ، ومكانا، وظروفا ، وطريقة ، وتقبلا نفسيا من إبراهيم الخليل نفسه ، بل ومن زوجه . . .

ولقد كانت المرة الأولى وإبراهيم الخليل فى شبابه يتطلع إلى الولد، أما الثانية فلقد كانت بعد أن مسه الكبر وشاخ وفقد الأمل هو وامرأته العجوز فى إنجاب الولد . . .

بشرى إبراهيم الحليم بالغلام الحليم وبغلام عليم :

ولقد كانت البشرى الأولى بالغلام الحليم لإبراهيم عليه السلام لمّا نجاه الله من النار ، بعد أن ناقش كبير علمائهم وكان أباه ، وعاب أصنام القوم وسفه أحلامهم فى عبادة الشمس والقمر والكواكب ، وكسر الأصنام فعلا وقالوا حرّقوهُ وانصروا آلهتكم ، وألقوه فى النار أفظع نار على الأرض ، وأشد نار عرفتها الدنيا : بَنَوا لها أضخم بنيان وجمعوا لها من كل وقود يزيدها قوة واشتعالا وسموها بالجحيم : « قَالُوا ابْنُوا لهُ بنياناً فَأَلْقُوهُ فى الجَحِيم » .
(سورة الصافات ٣٧/٩٧) .

فقال رب النار للنار :

«... يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ». (سورة الأنبياء ٢١/٦٩).

ثم حاجّه الملكُ، وقال له : مَنْ رَبُّكَ يا إبراهيم . . .

« ... قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ .. ». (سورة البقرة ٢/ ٢٥٨).

وتكبكب على إبراهيم الشرك والبهتان، كما قال رب العزة فى سورة الصافات ٣٧/ ٩٨ — ١٠٢ .

« فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

وكان إبراهيم وقت ذلك، فى سِنٍّ تسمح له عادةً بإنجاب الأولاد، وإن كان لم يتزوج بعد، فطلب الذرية الصالحة من الله، فاستجاب له رب العزة، وبشره بغلام حليم، عقب دعائه، ومَنَّ الله عليه بأن يكون هذا الغلام الحليم؛ هو المثل الأعلى فى التضحية والفداء والصبر، وهو الصالح ومن الصالحين. .

والغلام الحليم، هو إسماعيل الذبيح عليه السلام، الذى فهم وهو غلام : أن رؤيا الرسول وَحْيٌ صريح؛ وأمرٌ قاطع بالتنفيذ، فلما عرض عليه أبوه المنام بالذبح قال إن هذا ليس مناماً . بل هو أمر واجب التنفيذ على الرسول والامتثال من المؤمنين :

« قَالَ : يا أَبَتِ افعَل مَا تُؤْمَرُ ستَجِدنى إنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ » .

والحليم اسم من أسماء الله الحسنى ، وقد تـكرر فى القرآن الكريم ١٢ مرة ٨ خاصة بالله سبحانه منها :

« إنَّ الله غَفُورٌ حلِيمٌ » ، « واللهُ عَلِيمٌ حليمٌ » ، « إنَّ اللهَ كانَ حَلِيماً غَفُوراً » ، « والله غَنِي حَلِيمٌ » ، « والله شكُورٌ حلِيمٌ » . . .

ومرة لشعيب عليه السلام قالها قومه له : « إنك لأنت الحليم الرشيد » . . .

ولم يصف الله أحداً من خلقه بصفة « حليم » فى القرآن كله إلا إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام : مرتين لإبراهيم ، ومرة لإسماعيل :

فى قوله سبحانه عن الخليل عليه السلام :

« إنَّ إبرَاهِيمَ لحَلِيمٌ أوَّاهٌ مُنيبٌ » . (سورة هود ١١/٧٥) .

وفى قوله سبحانه فى سورة التوبة ٩/١١٤ :

« ... فَلَمَّا تبينَ لهُ أنهُ عدُوٌّ لله تبرَّأ مِنهُ إنَّ إبراهِيمَ لأوَّاهٌ حلِيمٌ » .

ثم فى قوله سبحانه عن إسماعيل عليه السلام استجابة لدعاء إبراهيم بأن يهبه الله من الصالحين : « فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حليم » .

وفى هذا من الإشارات والأسرار، ماتعجز عن إدراكه الأفهام والأفـكار..

وربما جاز لنا أن نفهم الآن : أن إسماعيل هو الوريث الوحيد لأبيه إبراهيم عليهما السلام فى صفة الحلم . . وأنه هو وحده الذرية ؛ لما قال إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت ومعه إسماعيل :

« رَب اجْعَلْنِي مُقِيم الصَّلاة ومنْ ذُرِّيَّتِي » . ولمَّا قالا معاً : « رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إنكَ أنْتَ السَّمِيع العَلِيم، رَبَّنا وَاجعلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ ومن ذُرِّيَّتِنا أُمةً مُسْلِمَة لكَ ..» فإسماعيل هو الحليم ابن الحليم، وهو الصادق الوعد، وهو الصالح..

أما البشرى الثانية بالغلام الثانى فكانت بعد عشرات من السنين حتى بعد قصة الذبح ، وبعد أن أرسل الله لوطا إلى قومه ، وانتهت رسالة لوط وأرسل الله على قوم لوط رسله من الملائكة ، يرفعون قراهم إلى أعلى السماء ويدكون بها الأرض ، ويرجمونهم بحجارة من جهنم ؛ جزاء فعلهم القبيح الذى يستحق الرجم ؛ ولكن بحجارة من جهنم .. مخصوصة بهم ، ومعلمة ومحددة لهم .

والملائكة فى طريقهم إلى قوم لوط مَرُّوا على سيدنا إبراهيم عم سيدنا لوط عليهما السلام ، وهم على هيئة بشر ؛ فظنهم سيدنا إبراهيم ضيوفا من البشر ، وأراد أن يهيأ لهم طعاماً سريعاً : عجلا سمينا . . . وتفرس فيهم فلم يعرفهم ؛ فوجل منهم :

« قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَن مَسَّنِىَ الكِبَرُ ؟ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ؟ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالحَقِّ . . . » .

(سورة الحجر ١٥/٥٣ — ٥٥)

وتكررت هذه البشرى مرة أخرى ، لما قدم لهم العجل السمين ، وهم لا يأكلون . .

« فقَرَّبهُ إِلَيْهِمْ قَال أَلاَ تَأْكُلونَ * فأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وبشَّرُوهُ بِغُلامٍ علِيمٍ * فَأَقبلَتِ امْرَأَته فى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وجْهَهَا وقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ » . . . (سورة الذاريات ٥١ / ٢٧ — ٢٩).

نعم لقد كانت إمرأة إبراهيم الخليل وقت ذاك قد قطعت الأمل كل الأمل فى الإنجاب ؛ لأنها كانت عجوزاً عقيما قاربت التسعين من عمرها ، أو تجاوزتها وقارب إبراهيم تمام قرن من الزمان ؛ أو تجاوزه . . وكانت إذ ذاك تقدم الطعام

لضيف إبراهيم المكرمين ، فلما سمعتهم يبشرون إبراهيم بالغلام العليم صكّت وجهها بيدها ، وقالت أنا عجوز عقيم لا أنجب ، وكأنها ظنت أن هذه البشرى مجرد استئناس ، أو تسلية ، أو مجاملة ؛ وهى قائمة على خدمتهم ، وتقدم الطعام لهم وتعزم عليهم ، فى ضحك وإيناس وسرور ، فبشروها بما لم يبشروا به إبراهيم ؛ بشروها بولد وحفيد ؛ بل وبشروها باسم الولد والحفيد ، فتعجبت وأنكرت فأزالوا عجبها فاستبشرت . .

يقول رب العزة فى سورة هود ١١/ ٧٠ — ٧٣ عن هذه القصة مع سيدنا إبراهيم :

« فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ (إلى الطعام — العجل الحنيذ : السمين) نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ *

وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ *

قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخًا ؟ ! ! إِنَّ هَذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ *

قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ » .

فالغلام « العليم » هو إسحٰق ، وقد ذكر مرة أخرى فى القرآن بهذا الوصف فى سورة الذاريات ٥١ /٢٨ :

« . . . قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ » .

والعليم بإطلاق و بالألف واللام اسم من أسماء الله الحسنى ، وقد ورد لفظ العليم، وعليم ، وعليما فى القرآن كله ١٦٢ مرة ؛ منها ١٥٣ مرة لا يطلق إلاّ على رب العزة ، وكلها تفيد الإحاطة بكل شيء ،والشمول لكل شيء . . والهيمنة على كل المخلوقات ، والخبرة بكل الكائنات : الكليات منها والجزئيات ، الظواهر منها والغيبيات . . .

أما باقى المرات التسعة للفظ عليم ، فقد دارت على البشر أجمعين . بما يفيد : التمكُّن ، و الإحاطة بقدر الطاقة البشرية ، وبما يفيد دقة التخطيط والتطبيق العلمى والعملى (والتكنولوجى) والتنفيذ ، وبما يفيد الكيد والتخطيط الشرير ، والتلاعب بعيون الناس وأفكارهم ، والكذب والإفساد . . وبما يفيد عدم الاستقرار إلى بداية تعليمية ، وعدم الاطمئنان للوصول إلى نهاية علمية . . .

وهذا الذى نستطيع فهمه الآن ، من دوران لفظ عليم فى القرآن ، على مختلف أفراد بنى الإنسان،وهنا نستطيع أن نشير إلى هذه المرات التسع من القرآن.

١ — جاءت القاعدة العامة والأخيرة ، تؤكد فى قوة وصراحة مثيرة : وكأنها تكرر لكل الأفهام المستنيرة : « العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة » لتدفع كل إنسان فى كل زمان ومكان إلى مواصلة التعليم ، مهما ظن أنه ارتقى فى سلم العلوم ؛ حيث يقول العليم الخبير المحيط الحكيم : « . . . وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلِمٍ : عليمٌ » . (سورة يوسف ١٢/٧٦) .

٢ — وفى مرة ثانية للفظ عليم ما يُستفاد منه : الحفظ واتساع الأفق ودقة التَّخطيط والتطبيق ، والتنفيذ والمتابعة. . . مع التمكن والأمانة . . . لأن يوسف ابن يعقوب بن إسحاق عليهم السلام ؛ لمَّا استدعاه الملك من السجن بعد أن ثبتت براءته عنده وكله ؛ قال الملك ليوسف :

« ... إنَّكَ اليَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ * قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ » . (سورة يوسف ١٢/٥٤ — ٥٥) .

٣ — وفى مرتين كانت البشرى لإبراهيم ؛ بغلام عليم ، والذى كان هو إسحق والديعقوب ، وجد يوسف عليهم السلام .

٤ — ثم وفى المرات الخمس الباقية للفظ عليم ، كانت وصفاً لكل من بلغ القمة فى الكيد والسحر، والدَّجل والإفساد، واسترهاب الناس، والتدبير الشرير؛ لأنه فى كل مرة من هذه المرات الخمس . جاء لفظ عليم وصفاً لساحر بلغ القمة فى السحر فى أربع مرات ، أو لسحَّار امتلك الزمام ، وكان قمة القمم لكل ساحر قمة .

لأنه لما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون،وألقى عصاه؛ فانقلبت بإذن الله حيةً تسعى ، اتهموه بأنهُ بلغ القمة فى السحر :

« قَالَ المَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَونَ إِنَّ هذَا لَسَاحِرٌ عليمٌ » .

(سورة الأعراف ٧/١٠٩)

« وقَالَ فِرْعونُ ائتُونِى بِكلِّ سَاحِرٍ عَلِيم » .

(سورة يونس ١٠/٧٩) .

قال الملأ لفرعون عن موسى وأخيه هارون عليهما السلام :

« قالوا: أَرْجِهْ وأَخاهُ ، وابْعَثْ فى المَدَائِنَ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ » . (سورة الشعراء ٢٦/٣٦ — ٣٧) .

فلما حضر السَّحرة وألقَوْا حبالهم وعِصِيَّهم : « ... سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » (سورة الأعراف ٧/١١٦) .

فقال رب العزة عنهم لموسى عليه السلام :

« وألقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ، إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ، ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى » (سورة طه ٢٠/٦٩) .

ولأنَّ هؤلاء كانوا من كل سحَّار عليم ، وقد وصلوا إلى قمة السحر في الإنسانية كلها ؛ فهم الذين أدركوا سريعا : الفرق بين عمل الخالق وعمل المخلوق ، وعلموا سريعاً واستيقنوا : أنَّ انقلاب عصا موسى إلى حية تسعى وتلقف كلَّ ما يأفِكون ، مما صنع السحرة ، لا يمكن أن يكون في طاقة بشر مخلوق ، وإنما هو معجزةٌ من الله رب العالمين الخالق . . .

لهذا آمنوا سريعاً ، لا بموسى ولا بهارون ؛ بل خرُّوا ساجدين . . .

« قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ العَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وهَارُون » .

(سورة الشعراء ٢٦/٤٧ — ٤٨)

لكن السحر نفسه : كذب ، وكيد ، وبهتان ، وتضليل ، والسحر قرين الإفك والجنون .

وقد قال رب العالمين : « . . . ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ » :

(سورة يونس ١٠/٧٧) .

وبهذا يكون لفظ عليم إذا اتصف به واحد من البشر . . .

كان في أقله الأقل : دليل على الخير ؛ كما أطلق على إسحاق ، ويوسف . . .

وكان في أكثره الأكثر : دليل على الشر ؛ كما أطلق على الساحر ، والسَّحار . . . خمس مرات . . . وكما طغى قارون ؛ فقال : « إنما أوتيته على علم عندي » . . .

فهو يتأرجح بين الخير والشر ، وإلى الشر أكثر ، والويل للبشر ، إذا استُخدم العلم في ما يضر ؛ لأنه لا عاصم له إلا الحلم والخير . . .

أما لفظ حليم فلا تأرجح فيه إلى شر ، بل كله خير ، وإلى العلم والخير . . .

لماذا بشّر الله امرأة إبراهيم . بولدٍ وحفيدٍ مرة واحدة ؟:

هذه أول مرة وآخر مرة فى القرآن كله ، يبشر الله فيها بولد وحفيد مرة واحدة ، بل ويُسَمَّى الوليد والحفيد معاً ، ولم يحصل إلا لامرأة إبراهيم (سارة) فقد بشَّر الله إبراهيم نفسه مرة بغلام حليم ؛ هو « إسماعيل » ؛ وهو الأصل :

ثم بعد عشرات السنين بشره بغلام عليم فقط ؛ هو إسحٰق .

وبشر مريم بعيسى ، وبشر زكريا بيحيى . . . مكافأة لهم ، كما قال الله عنهم :

« . . . إنهم كانوا يُسَارِعُونَ فِى الخيرَاتِ ويدعُونَنَا رَغباً ورهَباً وكانُوا لنا خاشِعينَ ». (سورة الأنبياء ٢١ / ٩٠).

والمكافأة من الله العلى الأكبر ، لا بد من أن تكون من جنس العمل وأكبر ، وبهذه المكافأة وحدها ، فضلا عن غيرها من عشرات الأدلة ؛ نستطيع أن نؤكد مطمئنين أن الله قد كافأ السيدة (سارة) زوج إبراهيم بولد وحفيد من بطنها ، بعد شيخوخة زوجها ؛ بل وبعد عقمها هى وعجزها . . . لأنها أحبَّت إسماعيل عليه السلام الغلامَ الحليم ، واحتضنته ، لما ولدته السيدة (هاجر) المصرية الولود ؛ ليكون جدًّا لخير مولود ... وقد ملأ إسماعيل الوليد ، على امرأة أبيه الودود : (سارة) : كلَّ حنانها ، وعاطفتها ، وأمومتها...

وكأن الله لما أمر إبراهيم أن يُسكن ابنه إسماعيل عند بيت الله الحرام ؛ ليربيه الله فى بيت الله ، وليكون من ذريته رحمة العالمين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يسترد الأمانة ، ويتم الله به الدين . . .

كأن الله العزيز الرحيم ، لم ينتزع إسماعيل من قلب أبيه إبراهيم ، فهو مطمئن إلى تنفيذه لأمر الله ووحيه له ؛ بأن إسماعيل سيكبر ، وتكون له ذرية ... وسيقيمون الصلاة ، فى بيت الله المحرَّم وسيرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه

بعد حوالى ٣٠ سنة أو أكثر . . . لأن الله عهد إلى إسماعيل وهو يرفع القواعد من البيت مع أبيه إبراهيم ؛ فقال سبحانه : «.. وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرَا بيتِىَ لِلطَّائِفينَ وَالعاكِفينَ وَالرُّكعِ السُّجودِ » .

(سورة البقرة ٢ / ١٢٥) .

وكأن الله سبحانه : لم ينتزع إسماعيلَ من حِضْنِ أمه (هاجر) لأنها كانت معه ، وهاجرت إلى الله به ؛ لما أمر الله إبراهيم عليه السلام : أن يسكنهما عند بيته الحرام .

ولما تركها إبراهيم عند بيت الله مع وليدها إسماعيل ، لم تصرخ فى إبراهيم لأنه سمع كلام ضرتها ، أو اتبع مشورة المرأة . . . بل قالت لإبراهيم وهو راجع عنهما : إلى أين يا إبراهيم ؟ وإبراهيم عليه السلام لم يلتفت إليها ، وكأن الحنان غلبه على دمعه ، فلم يرد أن تبصره أم إسماعيل . . .

حتى كان على مَرمىَ السمع منها ، قالت له : « آللهُ أمَرَكَ بهذا ؟ » فأشار إليها إبراهيم : « نعم » ، فقالت : « إذاً لا يُضَيِّعنا » . . .

ثم أنبع الله لهما بئر «زمزم» : غذاء ، وشرابا ، وشفاء .. من بين الصفا والمروة ؛ لما دقّتْ عليهما أم إسماعيل : سبع مرات ، فى سبعة أشواط ؛ هى شعائر السعى .

وكأنّ الله أمرها ، كما أمر مريم أم المسيح ، وهى فى أضعف حالات الضعف أن تَهُزَّ بجذع النخلة ، الذى لا يقوى على هَزِّه فرسان أمة ، ولكنه أمر القوى الناصر الممد بالحول والطول والقوة ؛ فتساقط النخلة عليها رطباً جنيا

وكذلك ينبع لأم إسماعيل من بين الجبلين : الماء سلسالا شهيا . . .

وجعل الله أفئدة الدنيا تهوى إليهم ، لكنه سبحانه أوجب السعى على كل حال ..

وكأن الله سبحانه قد انتزع إسماعيل عليه السلام ، وهو الوليد الحليم

الحبيب ... من حضن امرأة أبيه إبرهيم (سارة) ، ومن حنانها ، ومن أمومتها ، ومن عواطفها . .

وكأنى بها ؛ لما أخذ إبراهيم إسماعيل منها ، إلى بيت الله على الرغم منها . . كأنى بها تصرخ فى بكاء ، وتجأر إلى الله بالدعاء :

يارب أو تمنعنى إسماعيل بعد أن منحتنى إياه ، وأرضيتنى به ، وأحببتنى فيه ؟!

يارب هل تسلب بعد أن تعطى ، وأنا مخلصة لك ؟ . . يارب . . يارب . .

فكان ولابد من أن يكافئها الله ويمنحها من جنس ما فى قلبها ، ونيتها ، وعملها ... والمكافأة من جنس العمل .. لهذا كانت مكافأة الله لها ، بولد وحفيد من بطنها ، وبتسمية الوليد والحفيد تكريما لها .. وصدق الله : « لئن شكرتم لأزيدنكم »

فقال سبحانه عنها :

« . . . فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحٰقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحٰقَ يَعْقُوبَ » .

(سورة هود ١١/٧١).

ونستطيع على ضوء هذا أن نستنتج سريعا ما يأتى :

١ — أن المصريين فوق أنهم عرب من العمالقة ؛ من العرب البائدة الذين هم : عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس والعماليق . . . ومن العماليق كناعنة الشام ، وفراعنة مصر . . فوق هذا فإن المصريين أخوالٌ للعرب من نسل إسماعيل عليه السلام ، لأن أم إسماعيل عليه السلام: الحليم ابن الحليم : هى السيدة هاجر المصرية ، التى وهبها ملك مصر لسيدنا إبراهيم وزوجه ؛ لما بلَّغ رسالة الله فى مصر ، وأقام ضيفا فيها ، ولما أرادوا الارتحال أهداهم ملك مصر الهدايا العظيمة ، ومنها السيدة هاجر العظيمة . . . على عادة المصريين إلى الآن ، بل على عادة العرب جميعاً ؛ فهم يهدون ضيوفهم عند ارتحالهم . . .

وكما فعل المقوقس عظيم القبط فى مصر ، لمَّا أرسل له محمد صلى الله عليه وسلم كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام . . . ردّ الكتاب بهديةٍ قيمة ، فيها طبيب ، والسيدة مارية القبطية ، التى أنجب منها محمد صلى الله عليه وسلم ابنه إبراهيم ، ومنها السيدة سيرين ، التى زوجها الرسول لشاعر الإسلام الأول : حسّان ابن ثابت .

٢ — أن الله قد كافأ السيدة (سارة) بإسحٰق وولده يعقوب « إسرائيل » على حبها لإسماعيل جد محمد رحمة العالمين عليهم الصلاة والسلام ، وجد العرب ، وفى هذه المكافأة بإسحاق ، حياةٌ لأم إسحاق ، أو امتدادٌ لحياتها ، فى حياة نسلها جميعاً مكافأة لها . . .

ولا بقاء ولا قيمة ولا حياة للمكافأة ؛ إن فقد السبب الذى من أجله كانت المكافأة . . .

ولعل جماع السبب كله : هو محبة إسماعيل ؛ فلا حياة لبنى إسرائيل ؛ إلا على محبة نبيّ العرب والإيمان به ، وهذا هو الذى عاهدهم الله عليه . . .

فإن اعتَدوْا على سبب حياتهم : سَلَبهم الله حياتهم ، وأذلهم ، وشرّدهم ، وكتب عليهم اللعنة والشتات . . . ما دام العرب يتمسكون بعروبتهم وأصلهم ، ويعتزون بدين جدهم ورسولهم ، وتنفيذ تعاليم ربهم إليهم ، ويحافظون على تراثهم وميراثهم . . .

٣ — أن إسماعيل هو الأصل ، وهو البكر ، وهو الأحق ، وهو الأكبر ، بل هو الوارث الحقيقى للدين ولملة إبراهيم عليهما السلام ؛ لأن إسماعيل عليه السلام : هو الأمُّ وابنُ الأمّة إبراهيم الخليل ، وهو الحليم ابن الحليم وذريته هم الأمة المسلمة الوسط ، فإن رجعت الرسالة إليهم ؛ فقد رجعت

إلى أصلها، واتصلت بأمها، لأن بنى إسرائيل لم يحرصوا عليها، بل طغَوْا وبغَوْا وقطعوا الصِّلات والمواثيق التى واثقهم الله بها، وخانوا العهود التى عاهدهم الله عليها.. «وما اختلفَ الذينَ أوتُوا الكتابَ إلاَّ مِن بعدِ ماجاءهُمُ العلم بَغيًا بَينهمْ..». (سورة آل عمران ٣/١٩).

والله سبحانه يذكرهم دائما بعهده وعهدهم، ويقول فى كتابه المحكم:

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ، وإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ». (سورة البقرة ٢/٤٠).

فهو سبحانه يهددهم برهبته وبطشه، وغضبه ونقمته، ولعنه إياهم: إن لم يُوفوا بعهدهم، فلا نجاة لهم، ولا حياة، ولا بقاء، إلا بالوفاء بهذا العهد على أوسع وأكمل ما يكون الوفاء.

هذا العهد كله فى كلمة: هو «الإسلام»، وفى كلمتين: الإسلام والتسليم.. هو الإيمان بكل ما أنزل الله على محمد النبي العربى خاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم، واتباع كل التعاليم الإسلامية المحمدية، لأن الله يقول لهم عقب مطالبتهم بالوفاء بعهدهم مباشرة:

« وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وآتُوا الزَّكَاةَ وارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ». (سورة البقرة ٢/٤١ — ٤٣).

٤ — أنَّ غَضَبَ الحليم وأبناء الحليم سَيْفٌ بتَّار، مهما أشعل أبناء العليم الدمار، ومهما أفسدوا وأوقدوا النار، فإن غضبة الحليم نارٌ: تأكل

النار ، وتمحو العار ، وتطهر الدار ، وتحمى الذمار ، وترد الاعتبار ، من أولئكم الفجار ، الأشرار ، الكفار ؛ الذى قال عنهم العزيز الجبار :

«.. كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَاداً، واللهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » . (سورة المائدة ٥/٦٤) .

أبناء الحليم وأبناء العليم :

أبناء الحليم ابن الحليم ، هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . وهم الذين تحدث القرآن عنهم ، أو أشار إليهم ؛ بأنهم هم : ذرية إبراهيم ، وذرية إسماعيل وإبراهيم ، ومنهم الأمة المسلمة ، وهم : آل إبراهيم ، والأميون ، والمؤمنون . . . وهم الذين بعث الله فيهم ومنهم النبى الأمى العربى الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم على فترة طويلة . . من إسماعيل الذبيح عليه السلام ، الذى قال عنه رب العزة سبحانه :

« وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ، إِنَّهُ كَانَ صادِقَ الْوَعْدِ وكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا * وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . (سورة مريم ١٩ / ٥٤ — ٥٥) .

١ — أما أنهم ذُرية إبراهيم ؛ فلأن الذى أسكنه إبراهيم عليه السلام عند بيت الله الحرام ، هو إسماعيل عليه السلام ، وعنه قال كما قال رب العزة فى سورة إبراهيم ١٤ / ٣٧ — ٤٠ :

« رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ . . . إلى أنْ قَالَ . . رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلاَةِ ومِنْ ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ » .

٢ — وأما أنهم ذرية إسماعيل وإبراهيم ، ومنهم فقط الأمة المسلمة ، وليس في القرآن أمة مسلمة غيرهم — فلأن الله سبحانه يقول :

« وإذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَإسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ ، ومن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ . . . » . (سورة البقرة ٢/١٢٧ — ١٢٨) .

لأن لفظ مُسْلِمَيْنِ مُثَنَّى يدل على اثنين فقط ، وليس إلا إبراهيم وإسماعيل فالأمة المسلمة ليست إلاَّ من ذرية إسماعيل وإبراهيم فقط .

٣ — وأما أنهم « آل إبراهيم » فلأن الله سبحانه يقول عن بني إسرائيل :

« أمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ؟ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ . . . » . (سورة النساء ٤/٥٤) .

في حين أنه سبحانه يطلق على بني إسرائيل : آل يعقوب ؛ كما قال يعقوب عليه السلام نفسه لابنه يوسف لما قص عليه رؤياه . . .

« وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعَلَى آلِ يَعْقُوبَ . . . » . (سورة يوسف ١٢/٦) .

كما يُطلق عليهم سبحانه أيضاً « آل عمران » في قوله سبحانه :

« إنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ . . . » . (سورة آل عمران ٣/٣٣) .

والمقابلة تحتم أن آل إبراهيم ، غير آل عمران .

وكذلك في الذرية لما قال سبحانه :

« ... ومِنْ ذُرِّيَّة إبْرَاهِيمَ وإسْرَائِيل ... » . (سورة مريم ١٩ — ٥٨) .

فذرية إبراهيم غير ذرية إسرائيل .

وكذلك قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام :

« وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وعَلَى إِسْحٰق وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ » . (سورة الصافات ٣٧/١١٣) .

فقال ذريتهما بالتثنية: ذرية من إبراهيم ،وذرية من إسحاق، فهناك ذريتان أمَّا إبراهيم وإسماعيل فقد قالا : « رَبنَا واجْعَلْنَا مُسْلمَيْن لَكَ ومِنْ ذُرِّيَتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ » ، فهنا ذرية واحدة ، وهى الأمة المسلمة الواحدة ، من ذرية إسماعيل وإبراهيم فقط .

٤ — وأما الأميون والمؤمنون . . . فلأن الله سبحانه يشير إلى أن الأميين والمؤمنين : هم ذرية إسماعيل فقط ، لأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما دعيا الله بالأمة المسلمة: « ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك » دَعَيا الله كذلك للأمة المسلمة من ذريتهما بأن يرسل الله سبحانه : فيهم ، ومنهم : خاتم النبيين ورحمة العالمين ، قائلا كما قال الله سبحانه :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ : يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . . . » . (سورة البقرة ٢/١٢٩) .

فاستجاب الله دعاءهما ، وبعث فى ذرية إسماعيل ومنهم ، كما قال سبحانه :

« هُوَ الذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ : يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ . . . » . (سورة الجمعة ٦٢/٢) .

وكما قال جل شأنه :

« لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المُؤْمِنِينَ ، إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنفُسِهِمْ :

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والحِكْمَةَ . . . » .
(سورة آل عمران ٣/١٦٤) .

وكما قال سبحانه ممتنًّا على المؤمنين جميعاً :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » .
(سورة البقرة ٢/١٥١) .

ولعلنا مرة أخرى نستطيع أن نؤكد أن الذين يستحقون أن يكونوا « آل إبراهيم » فقط ، كما قال القرآن ؛ هم « الأمة المسلمة » ، هم « ذرية إبراهيم » هم ذرية إسماعيل ، وهم « الأميون » ، وهم المؤمنون . وكأنهم هم الناس . .

وهم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة ، فما بال بنى إسرائيل يحسدون على فضل الله : « أم يحسدُون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة . . . » .

أما أبناء العليم ؛ فهم أبناء يعقوب بن إسحاق عليهما السلام .

وهم الذين تحدث القرآن عنهم ، أو أشار إليهم ؛ بأنهم هم : بنو إسرائيل وآل يعقوب ، وذرية يعقوب ، وذرية إسرائيل ، وذرية إسحاق ، ومنهم آل عمران ،وآل موسى ، وآل هارون ، وآل داوود .

والقرآن الكريم كذلك يذكر معهم : آل فرعون ، وآل لوط . . .

وبنو إسرائيل هم : أهل الكتاب ؛ فى مقابلة « الأميين » .

وتذكر التوراة : الأميين، أوالأمميين، على أنهم: العرب من ذرية إسماعيل عليه السلام ، وأنه ليس على بني إسرائيل سبيل فى أن يسلبوا أموال العرب وأعراضهم ومقدساتهم . . . لأنهم يزعمون أنهم ، السادة والكل عبيد

لهم ، ولا سبيل على السيد ، فى كل ما يملك العبد . . .

والقرآن الكريم صرح بهذا فى قوله سبحانه ، مخاطبا النبى العربى وكل مؤمن عربى :

« ومِنْ أهلِ الكِتَابِ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ ، ومِنهُمْ مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إلَيْكَ إلاَّ ما دُمْتَ عليْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ » . (سورة آل عمران ٣/٧٥) .

بين حلم الحليم وعلم العليم :

وقد انحرف أبناء العليم بعلمهم ، لأن العلم فى البشر ، عارض مكتسب لا يستقر ، ومنه الخير ومنه الشر ، وبه التعمير وبه التدمير . . . فاستعملوا علمهم فى الإفساد ، والفساد ، حتى أصبح الفساد الداخلى والإفساد الخارجى عنوانا عليهم : « ذلك مَبْلغهُم من العلم » . .

وكل من يلجأ إلى علم منحرف ، يكون قد انسلخ من كل شرف ، وتجرد من كل خُلق إنسانى ، وانزلق إلى كل زخرفٍ شيطانى . . وهكذا كان بنو إسرائيل العصبة ، وهكذا أصبح الصهاينة الفجرة . . مجردين من كل خلق فاضل ، فلا عهود ، ولا مواثيق ، ولا شرف ، ولا كرامة ، ولا إنسانية . . . بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، والجبن والتشريد ، لا يشمخون إلا بأنوف غيرهم ، ولا يتطاولون إلا برؤوس غير رؤوسهم ، ولا يعيشون إلا تحت الحماية ، وفى الوكالة ، وبوعد مشئوم .

أما أبناء الحليم فقد طال حلمهم ، والحلم كله خير ، إلا إذا استُنفر صاحبه.

وهو خلق مستقر ؛ إلا إذا استبيح جانبه ، بل هو سيد الأخلاق ؛ لأنه يستمد عناصره من الصدق والصلاح: « رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم » .

ثم تكون النتيجة الحتمية — إذا جد الجد — التضحية ، والفداء ، بالمال وبالنفس وبالولد . . .

والحلم : كله علم ، وقوة ، وعزة .

والعلم عند الحليم كله للتعمير ، وإزالة الفساد ، ومحق الطغيان ، وسحق العدوان . . وصدق من قال : اتقوا غيظ الحليم .

والحليم يقابل الشدائد بعزيمة قوية ، وشجاعة نفسية ؛ لكنه إذا استثير وثار : زلزل البوادى والقفار ، ودمدم على المفسدين كالإعصار .

يقول عنترة العبسى : الحليم العربى ، بلسان العروبة فى حلمها ،وثورتها. . .

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكنّ أوقاتى إلى الحلم أقرب

ثم يقول :

حلمت فما عرفتم حق حلمى ... ولا ذكرت عشيرتكم ودادى
سأجهل بعد هذا الحلم حتى ... أريق دم الحواضر والبوادى

أهل الكتاب والأميون:

وهذا تعبير اصطلاحى — ولا مشاحة فى الاصطلاح — كان يطلق على أبناء العليم وأبناء الحليم ، قبل البعثة المحمدية :

وعلى هذا فإن بنى إسرائيل جميعاً هم أهل الكتاب اصطلاحاً . . . ولا داعى للتعلل أو التعليل فى سبب تسميتهم ذلك ، لأن الإصطلاح كذلك .

نعم ربما جاز لنا أن نقول ، لأن الله سبحانه جعل فيهم الكتب ؛ والنبوات والرسالات والتبليغ . . من أبيهم إسرائيل إلى آخرهم السيد المسيح عليه السلام :

الذى جاهروا بقتله وصلبه : « ومَا قَتَلُوه ومَا صَلَبُوه ولَـكِنْ شُبِّه لهم » .

أما أبناء الحليم ابن الحليم إسماعيل بن إبراهيم فـكان يطلق عليهم اصطلاحاً — قبل البعثة — « الأميون » . ولا داعى للتعليل كذلك . .

لـكن ربما جاز لنا أن نقول :

١ — لأنهم عاشوا ، وتربوا ، ونشأوا فى أم القرى ، « مكة » ، فنُسِبوا إليها، وهى التى قال الله عنها لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم: « وكذَلك أوْحَيْنَا إليك قُرآناً عرَبيًّا لتُنْذِرَ أمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلها . . » .

(سورة الشورى ٤٢/٧) .

٢ — ولأنهم ذرية إسماعيل ، وهو بكر إبراهيم الأمّــة عليهما السلام ووحيده مدة طويلة ، فإليه المرجع ، فهو الأم لآل إبراهيم الأمّة . . .

٣ — ولأن إسماعيل تربى عند بيت الله ، وأُرسِل فى أم القرى كذلك . . .

٤ — ولأن الله استحفظهم بيته الحرام ،فهم سَدَنَتُهُ ومعلمو الناس جميعا: المشاعر الحرام ، والنسك ، والحج ؛ فإليهم المرجع ، فهم الأم . والأميون . . .

ويقول أبو الفتح الشهرستانى فى الملل والنحل تخريجنا ج ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ الطبعة الأولى طبعة الأزهر الشريف سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) و ج ١ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ الطبعة الثانية مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م).

تحت هذا العنوان: « أهل الـكتاب والأميون» :

« الفرقتان المتقابلتان قبل « المبعث » هم : أهل الـكتاب ، والأمّيّون . . وكانت اليهود والنصارى بالمدينة ؛ والأميون بمكة .

وأهل الـكتاب : كانوا ينصرون ، « دين الأسباط » ويذهبون مذهب بنى إسرائيل .

والأميون : كانوا ينصرون « دين القبائل » ويذهبون مذهب بنى إسماعيل

ولما انشعب النور الوارد من آدم عليه السلام ، إلى إبراهيم عليه السلام ، ثم الصادر عنه إلى شُعبتين : شعبةٍ فى بنى إسرائيل ، وشعبة فى بنى إسماعيل ، وكان النور المنحدر منه إلى بنى إسرائيل ظاهراً .

والنور المنحدر منه إلى بنى إسماعيل مَخْفياً —

كان يُستدل على النور الظاهر بظهور الأشخاص ، وإظهار النبوة فى شخص شخص .

ويستدل على النور الخفى ، بإبانة المناسك والعلامات ، وسَتْر الحال فى الأشخاص .

وقبلة الفرقة الأولى : بيت المقدس .

وقبلة الفرقة الثانية : بيت الله الحرام ، الذى وضع للناس بمكة : مباركا ، وهُدًى للعالمين .

وشريعة الأولى : ظواهر الأحكام .

وشريعة الثانية : رعاية المشاعر الحرام .

وخصماء الفريق الأول : الكافرون مثل فرعون وهامان .

وخصماء الفريق الثانى : المشركون مثل عبدة الأصنام والأوثان . . . »

ثم يقول عن اليهود والنصارى : « وهاتان الأمتان من كبار أمم أهل الكتاب » .

وعلى هذا كله ؛ فإننا نستطيع أن نشير إلى أن النبى الأمى هو : النبى : العربى . . الذى هو من ذرية الأميين أبناء إسماعيل ، وهو الذى بعثه الله : فى الأميين ، ومنهم ؛ للناس كافة وللعالمين نذيراً ، ولئن كان إبراهيم عليه السلام هو الأمة ، فإن محمداً صلى الله عليه وسلم هو الأم : هو الأمىّ : هو الرحيم بالمؤمنين ، والرحمة للعالمين ؛ وهو المصدق لجميع المرسلين ، وإليه المرجع والشهادة

والشفاعة . . . وهو الفداء والوقاء ، والرعاية والشريعة ، والأحكام والإحكام .
وفى القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب ، وفى الأرض مسقط رأس الإنسانية : « أمّ القرى » وامتداد القرى ، من « أم القرى » .

وتحقيق ذلك فى كتبنا المفصلة ، ومن أراد المزيد فليرجع إليها، وبخاصة فى كتابنا: « تاريخ الأديان المقارن » .

بنو إسرائيل الأول :

إن بنى إسرائيل الأول : هم أبناء يعقوب ، وهو : « إسرائيل » مباشرة وكانوا اثنى عشر ذكراً .

منهم واحد يمثل المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وهو يوسف الصديق عليه السلام .

ومنهم أخو يوسف الشقيق وهو بنيامين ، وكان يمثل طبقة المؤمنين المسالمين الطيبين .

ثم الكبار العشرة ، وهم يمثلون الكفرة الفجرة ، لأنهم العصبة القَذرة ؛ الذين دبروا لأخيهم الصغير يوسف الصديق : جرائم التعذيب ، والقتل ، والكيد ، والتزيق . . .

ودبروا فى الوقت ذاته جرائم الفجيعة ، والقطيعة ، لأبيهم الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام .

يوسف عليه السلام :

يقول رب العزة فى صدر سورة يوسف ١٢ / ١ — ٧
« آلر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا، إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ؛ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ » ...

وقد أفردها رب العزة، ليوسف وإخوته، والأحداث من حوله، منذ رأى المنام؛ وهو صغير، إلى أن تربع على خزائن الأرض فى مصر وأصبح العزيز والأمير ...

وبلغ رسالة ربه، وآتاه الله من الملك وعلمه؛ فأصبح من بعد جده إسحق؛ الذى وصفه الله بغلام عليم، هو الوريث له فى هذه الصفة؛ حيث قال للملك: « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظٌ عليم ...».

وخطط فى مصر للزراعة، والإنتاج، والتوزيع، والتدبير، وضمن عدالة التوزيع والكفاية بلا تقتير ولا تبذير، وطبق أعمق قواعد العلم، وأبسطها، وأيسرها؛ لحفظ الحبوب من التسويس والتفريغ والتدمير، طوال خمسة عشر عاماً، فأنقذ العالم كله من الهلاك فى نصفها الأخير، مع الاحتفاظ بفائض كافٍ من الحبوب، طوال ثمانية أعوام؛ يصلح بعدها للإنبات، والإكثار، والتثمير ...

كل ذلك بعد أن تربى فى بيت عزيز مصر ، غلاماً مشترًى بالثمن البخس ، بعد أن نجاه الله من « غَيَابَةِ الجُبِّ » ، التى ألقاها فيه إخوته العشرة الكبار ورجعوا إلى أبيهم يبكون ..

ولما شبَّ فى بيت العزيز ، شغفتْ به امرأة العزيز ، وحاكت من حوله شباك الخسة والشر . . ولكنه استعصم بربه الذى نجاه من البئر ، وأكرم مثواه فى بيت عزيز مصر ، فلم يحصل منه هَمٌّ بها ، ولا استجاب لمراودتها ، ولم يلن لكثرة إلحافها ، وتكرار المراودة منها ، لأنه استعصم بربه ، فأراه الله البرهان بالعصمة ، فامتنع الهمّ لوجود هذه العصمة . . . يقول رب العزة :

« . . . وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ » .

وُجِدَ البرهان فامتنع الهَمّ ، ولو كان غيره أيًّا كان لوقع فى الهم كل الهم .

وهذا هو الذى يمكننا أن نفهمه ، من تقديم « الهم » على « لولا » ، لأن كل الظروف والمراودات ، كانت تحتم الاستجابة والهمّ ، فالهمّ كان محققا حتما لولا العصمة التى منعته ، وذلك تربية لنفوس المؤمنين ، حتى لا يغتر مؤمن بإيمانه وإرادته ، بل لا بد من أن نستمد دائماً التوفيق ، والبعد عن الشرور والفواحش والآثام ، من الخالق سبحانه ، لأن النفس الإنسانية ، لو بعدت عن خالقها ومحييها ، لكانت أمّارة بالسوء ، بقدر بعدها عن الله . . . ولكنها العصمة من الله ، ولكنه برهان الله وعصمته ، الذى قال الله سبحانه عنه ، ساعة ألقاهُ إخوته فى غيابة الجبّ :

« ... وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » .

وقد قال عنه سبحانه بمجرد أن بلغ مبلغ الرجال :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِينَ » .

فى حين أنه سبحانه ، هو الذى قال عن موسى الكليم عليه السلام :

« ولَمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ وَاستَوَى آتَينَاهُ حُكماً وَعِلماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى المُحسِنِينَ » . (سورة القصص ٢٨/١٤) .

ثم غضبت امرأة العزيز وأرعدت ، وهاجت وثارت وتوعدت ، واستعانت على يوسف بنسوة الطبقة العليا ، اللاتى حاولن جميعاً الكيد له ، كل واحدة لنفسها ولامرأة العزيز ، فالتجأ يوسف عليه السلام إلى ربه الحكيم الخبير العزيز سبحانه ، لا ليصرفه عن كيدهن ؛ وإنما ليصرف عنه كيدهن ، لأنه كما قال رب العزة :

« قَالَ رَبِّ السِّجنُ أحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدعُونَنِي إلَيهِ وَإلاَّ تَصرِفْ عَنِّى كَيدَهُنَّ : أصْبُ إلَيهِنَّ وَأكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ * فَاستَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ، فَصَرَفَ عَنهُ كَيدَهُنَّ ، إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ * ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأوُا الآيَاتِ لَيَسجُنُنَّه حَتَّى حِينٍ » . (سورة يوسف ١٢/٣٣ — ٣٥) .

ولكنه دخل السجن بإذن الله ، ليخرج منه على خزائن الأرض بتدبير الله ؛ كما قال رب العزة :

« وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأرضِ يَتَبَوَّأُ مِنهَا حَيثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، ولاَ نُضِيعُ أجرَ المُحسِنِينَ » .

(سورة يوسف ١٢/٥٦) .

ثم أقدم أهله من « البَدْوِ » ، لأنه لا وطن لهم ، ولا مقر :

« ورَفَعَ أبَوَيهِ عَلَى العَرشِ وخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ، وقَالَ يَا أبَتِ هَذَا تَأوِيلُ رُؤيَاىَ مِنْ قَبلُ ، قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقاً ، وقَدْ أحسَنَ بِى : إذْ أخرَجَنِي مِنَ السِّجنِ ، وجَاءَ بِكُمْ مِنَ البَدْوِ ، مِنْ بَعدِ أنْ نَزَغَ

الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إخْوَتِى . . . » . (سورة يوسف ١٢ / ١٠٠) .

و « البَدْوُ » : البادية جاءوا منها ، وكانُوا أهل بادية وماشية ،وأجمع أهل التحقيق،على أنهم كانوا يتنقولون فى البوادى من غور الشام، وما حواليها وأسفل منها . . . وأنهم كانوا أصحاب بادية وشاء وإبل . . . وكأن يوسف عليه السلام لم يستطع جمعهم، والإتيان بهم ، وهم كذلك لم يستطيعوا أن يتجمعوا ، وكذلك لم يستطع أبوهم أن يجمعهم أو يُجمِّعهم ؛ لأن يوسف عليه السلام يقول : « قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى ؛ إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو » ... ولم يقل مثلا : وجئتم من البدو ، أو : وجئت بكم من البدو ، أو : وجئتَ بهم يا أبت من البدو ، أو : وجاء إخوتى من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبينهم . . .

ثم سمح لهم بالتنقل والرعى ، فى صحارى الشرقية متنقلين متفرقين ، حتى لا يتجمع فسادهم ، ولا ينكشف إفسادهم ، فعاشوا كذلك فى الصحارى بَدْواً متفرقين ، حتى خرج بهم موسى عليه السلام من مصر ، وجاوز بهم البحر ، إلى صحراء سينا فتاهوا متحيرين ، وتحيروا تائهين . . . فمتى وأين ، كان لهم وطن ؟ ! .

ولا بد من الوقوف بتدبر وإمعان ، أمام سورة يوسف جميعا فى القرآن الكريم . . .

لتستفيد الدنيا جميعاً من العبر والعظات :

ما يُصلح النفس، والبيت ، والأسرة ، والدولة ،والمجتمع ، فى كل الاتجاهات.

وما يُصلح التخطيط ، والتشريع ، والتنفيذ ،على كل المستويات . .

وما يدفع إلى العلم ، والعمل ، والإخلاص ؛ بكل الإمكانيات . .

وما يوجِّــه المؤمنـين إلى القضاء سريعاً عـلى كل الاعتـداءات والانحرافات . . .

أخلاق العشرة الكبار أصل بنى إسرائيل :

ما أعجز القرآن وأروعه ، وما أيسره وأبدعه ، وهو يقص التاريخ الأخلاقى الذليل ، للكبار من بنى إسرائيل ؛ حيث قال رب العزة فى محكم التنزيل :

« لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ *

إِذْ قَالُوا : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ؟ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ *

اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً : يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ *

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ، إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ *

قَالُوا : يَا أَبَانَا : مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ *

أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ *

قَالَ : إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ *

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ *

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِى غَيَابَتِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا

إلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ، وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ *

وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

(سورة يوسف ١٢/٧ — ١٨) .

والقرآن واضح كل الوضوح ، لكنى ألمح سريعاً إلى مخازٍ دامغة فى دماء بنى إسرائيل منها :

١ — حقدهم: القاتل لكل خير واستقرار ومحبة، والمقطِّع لكل الصِّلات الإنسانية ، حتى للمحبة ؛ حتى بين الأب وابنه :

« إذْ قَالُوا : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلَى أَبِينَا مِنَّا . . . » .

هذا الحقد المتأصل فى نفوسهم ؛ كنتيجة حتمية للحسد: يشوى قلوبهم، ويقطع أمعاءهم ، كما قال رب العزة عن بنى إسرائيل :

« أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إبْرَاهِيمَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ . . . » . (سورة النساء ٤/٥٤)

وكأن حسدهم هذا ، الذليل الوبيل ، أبعدهم عن الانتساب إلى إبراهيم الخليل ، عليه السلام ، فليسوا من آله ، وليسوا من الناس ، فهم يحسدون الناس، ويحسدون آل إبراهيم . . . وهذا الحقد أيضاً كان من بعض نتائجه الحتمية : الكيد الكائد ، والإجرام المجرم ، والخروج بهم من أبسط

ملامح الإنسان ، إلى أشقى عداوة الشيطان . . . ألم يقل يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام :

« ... يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ » .

٢ — اعتزازهم بالقوة الشريرة المدمِّرة . . . في قولهم « ونحن عصبة » ؛ ويلزم من هذا أنهم لا يخضعون أبداً إلا للقوة .

٣ — السب الفاضح المخزى حتى لأبيهم ، وتأكيدهم أنه فى ضلالٍ ، وأن ضلاله ظاهرٌ واضحٌ بيِّن ، وهذه أخزى مخزيات الدنيا : أن يجتمع عشرة أبناء على أبيهم ، يضاف إلى ما سبق تقطيع صلة الأبوة والتناقض الشنيع فى جمعهم بين وصفه بالأبوة لهم ، والضلال فى وقت واحد . . .

« إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ » .

٤ — تخطيطاتهم الإجرامية النكراء التى تصل سريعاً إلى قتل الأبرياء ، والعدوان على من يتخيلون أنهم ضعفاء . . . ياللفجور : « اقتلوا يوسف » ؟! اللهم الطفك يارب : عشرة كبار يتآمرون على قتل طفل برىء هو أخوهم؟!. .

٥ — حياكةُ المؤامرات الشريرة بموازنتهم بين قتل يوسف وطرحه فى الأرض : يدفن فيها حيًّا ، ويُهالُ عليه التراب فيموت . . . سبحان الله الحفيظ . . . « أو اطرحوه أرضاً » .

٦ — تفاهة تفكيرهم ، وبلاهة مقصدهم ، وانحراف غرضهم : القتل والموت منهم لأخيهم الصغير ، من أجل أن يخلوَ لهم وجه أبيهم ؟! أهذا منطق ؟ يفجعون الوالد فى صغيره ، ليصفوَ وجهه لهم ؟! ياللتفاهة والقذارة . . .

« يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . . . » .

٧ — ترتيب الصلاح على القتل لطفل صغير برىء جميل . . .
هو أخوهم ؟ ! ! . . . والفجيعة لأب كبير، ورسول جليل . . . هو أبوهم . . .
ياشياطين الدنيا ، ويا أبالسة العالم . . . هل تستطيعون التلمذة على هؤلاء ؟
فى بعض هذه الإجرامات ، وبعض هذه الادعاءات ؟! . . .

« وتكونوا من بعده قوماً صالحين » . . .

٨ — إنه ليس فيهم رجل فيه رائحة الإنسانية ، حتى الذى قال : لا تقتلوا يوسف . . كنا نتوقع بعدها مثلاً : أن يقول لأنه طفل ، أو هو أخوكم ، أو ابن أبيكم . . . لا حول له ، ولا مدافع عنه ، ثوبوا إلى رائحة من آدمية أو حتى حيوانية ، ولا تستعملوا عصبتكم القوية فى امتصاص دماء الضعفاء الأبرياء . . . ولكنه قال : « وألقوه فى غيابت الجب » . . . ياللعجب . . . غيابة : متاهة تائهة ، تُغَيِّبُ كل ما فيها ، أو كل ما يلقىَ إليها ، أو أسفل الجب . . والجب : هو البئر : المقطوع أو المنقطع فى صخر ، البعيد الغور ، وكأنه يقطع الصلة ويجُبُّها : بين ما يُلقى فيه وبين العالمين . .

ثم ومن المداهنات العجيبة حتى على أنفسهم، أن يقول قائلهم هذا : « يلتقطه بعض السيارة » ؟ !! وهل يمكن أن يسهل هذا من غيابة الجب ؟ ولكنها عناية الله الحفيظ .

٩ — إجرامهم حتى فى التنفيذ ، فبعد تدبير ومكر وكيد . . . حاولوا التنفيذ.
قال ابن كثير جـ ٢ صفحة ٤٧١ : « ذكر السُّدىّ وغيره : لم يكن بين إكرامهم له ، و بين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول ؛ من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ؛ ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ؛ فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر : ضربوه على يديه

ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط . . . » .

١٠ — الخديعة والالتواء ومحاولة التظاهر بأنهم أبرياء .. « قالوا يا أبانا ». ولست أدرى وهم يقولون ذلك : هل كانوا يحسون أو يشعرون ؟!! أو يدركون شيئا من معانى الأبوة ؟ ! .

١١ — تأكدهم فى ذات أنفسهم أنهم غير أمناء وغير مأمونين . . . حتى فى نظر أبيهم : « مالكَ لا تأمنّا » . . .

١٢ — محاولتهم التضليل بالألفاظ الخلابة : حاولوا أن يؤكدوا أنهم ناصحون . . يا سبحان الله : ناصحون فى التدبير والإجرام والقتل ، وتقطيع صِلاتِ القربى جميعا حتى الأبوة والأخوة . . . ولا يستطيع إنسان أن يتخيل نفسيتهم وهم يقولون لأبيهم ، عن أخيهم يوسف : « وإنا له لناصحون » ؟ ! . . .

١٣ — استعمالهم القوة والتهديد ، حتى لأبيهم ؛ ليصلوا إلى دَنِىء غرضهم : « أرْسِلهُ معَنَا غداً » . . بالأمر . .

ومما يلفت النظر : أنهم كانوا أباهم جميعا ، فهم لا يأمن بعضهم بعضا جميعاً ، وصدق الله : « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتَّى » . . وهذا شأنهم ، وهذا جبنهم ، وهـذا قتالهم ، حتى يطهر الله الأرض منهم . . وصدق الله : « لا يُقاتِلونكمْ جميعاً إلاَّ فى قرىً مُحصَّنةٍ أوْ مِن وراء جُدرٍ ، بأسُهمْ بينهمْ شديدٌ ، تحسبهمْ جميعاً وقلوُبهم شتىً . . . » . (سورة الحشر ٥٩/١٤) .

١٤ — المداهنة بالألفاظ البراقة المطمئنة وبالدعايات الكاذبة الخادعة ، وبالكلمات المزوقة المؤثرة . . . « يرتع ، ويلعب » .

١٥ — ارتداؤهم غير ملابسهم وتخلُّقهم بالألفاظ لا بالعمل ، وإعطاؤهم الوعود الكاذبة ، والمواثيق المؤكدة ، التى يُصِرون على نقضها وخيانتها ؛ حتى

وقت النطق بها . . « وإنّا لَهُ لَحَافِظونَ » .

١٦ — وثوق أبيهم فى الذئب والوحش أكثر منهم، ومن وعودهم، وعهودهم، ومواثيقهم . . إنه يحزن بقوة وبكل تأكيد، ويتقطع قلبه حسرةً وكمداً وحزنا : أن يذهب أخوهم معهم . . . لأنه متأكد من غدرهم وخيانتهم وبطشهم إنْ شبعوا . . أما الوحش وأما الذئب، فإنه يخاف مجرد خوف من أن يأكل يوسف إن تصادف وكان جائعا . . أو مُرَوَّعاً ، أو مُهدّداً . لأن الوحوش، كل الوحوش لا تَعتدى إلا فى هذه الحالات، أما هم، فإننا نظلم الوحش، والذئب، والإجرام، والاغتيال . . . إن نسبناه إليهم . .

فلقد قال أبوهم لهم : « إنى ليحزننى أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب . . . » .

١٧ — ما أجرأهم على الكذب على أنفسهم ، وأسرعهم فى تأكيد العهود بأغلظ المواثيق، وهم متأكدون من قطعها . . مع مخادعتهم، ومحاولة إظهارهم ما يطمئن غيرهم من ناحيتهم :

« قالوا : لئن أكلهُ الذئبُ ونحنُ عُصْبةٌ إنّا إذاً لخاسِرونَ » . .

١٨ — مؤامراتهم المتلاحقة ، حتى وقت تنفيذ الجريمة التى دبروها ، ومكروا لها، وأجمعوا عليها . . . فهم لا يطمئنون حتى إلى قرار اتخذوه ، أو موثق واثقوا به أنفسهم : أن ينفذوه ؛ فلا بد من أن يدبروا وقت التنفيذ ، ويجمعوا مرة أخرى . . .

« فلما ذهبوا به، وأجمعوا أن يجْعلوهُ فِي غَيابَتِ الجب . . » .

١٩ — إن عناية الله تحوط المؤمنين المخلصين المحسنين سريعاً ، وفى أحلك

الأوقات ؛ لتنقذهم من شرور هؤلاء المجرمين ؛ فيطمئن الله عباده المؤمنين بأن النصر لهم ، ويقلب الله تدبير المجرمين إلى نصر عزيز للمؤمنين ، وإن امتد الزمن قليلا . .

هذا يوسف الغلام عليه السلام ، يلقيه المجرمون الكبار فى الجبّ . . فتسرع إليه رحمة الله القريبة من المحسنين ، قبل أن يصل إلى « غيابة الجب» كما يقصدون ، بل وقبل أن يشعر بأذى أو بخوف أو حنين ، فبمجرد أن قطعوا حبلهم منه وصله الله بحبله المتين ، وألقى عليه الأمن والأمان وبشره بما سيكون حيث قال العزيز الناصر رب العالمين :

«... وَأوحَيْنا إليه لَتُنَبِئنهم بأمرهم هَذَا وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » . .

الله أكبر . . اللهم نصرك . . وعنايتك . . « وبشّر المؤمنين » .

٢٠ — نعود إلى المجرمين : يمثلون أبشع الخسة والنذالة والذلة والهون . .

« وجَاءُوا أبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ » . . حيث الظلام قد خيّم ، على ظلمهم الظالم المظلم . . .

٢١ — بلاهتهم ، وصَغَارهم ، حتى فى التمثيل : بكاء ، وحكاية قصة . . واستدرار الدموع لتصديق التمثيل ، بألفاظٍ كلها زورٌ ، وكذبٌ ، وتضليل . . . ولا يستطيع أحد أن يتخيل ، كيف كانوا يبكون ، وهم المجرمون . . .

٢٢ — خداعهم ، حتى لأبيهم ، وهو رسول الله يعقوب عليه السلام . . قالوا « يا أبانا » . وهُم يخادعون حتى فى هذا اللفظ ، بعد كل هذا الذى حدث ، ضد هذا الوالد ، وضد ابنه الغلام الحدث . .

٢٣ — توالى كذبهم وخداعهم حتى فى الحادثة الواحدة : «ذهَبْنَا نَسْتَبِقُ »:

« تَرَكْنَا يوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا . أكَلَهُ الذِّئب » أعوذ بالله القوى الحكيم ، من هؤلاء حتى للشيطان الرجيم . .

٢٤ — إحساسهم الأكيد بكذبهم ، وتكذيب أبيهم لهم ، وعدم وثوقه بهم ، وعدم ائتمانه لهم ، أو الإيمان والتصديق لحديثهم . . .
«وما أنتَ بِمُؤمِنٍ لَنَا » .

٢٥ — إقرارهم على أنفسهم بأنهم هم الكذابون ،حتى فى محاولتهم نفى الكذب عن أنفسهم . . « ولَوْ كُنَّا صَادقين » ؟ ! . . .

٢٦ — تفننهم فى الإجرام والكذب : حتى على الذئب ، بعد أن كذبوا على أبيهم ، وعلى أخيهم ، وعلى أنفسهم ، وعلى ربهم . . . وحتى على القميص . . . قميص يوسف . . « وجَاءوا عَلى قَمِيصه بدمٍ كَذِبٍ » .

٢٧ — تكذيب أبيهم لهم ، وكشفه لخبايا نفوسهم ، ومواجهته لهم بخسة ما سولته لهم أنفسهم : « قَالَ بَل سَوَّلَتْ لَكُمْ أنفُسُكُمْ أمْراً . . . » .

٢٨ — عدم استطاعة أبيهم عقابهم ، أو حتى العتب عليهم ، أو القصاص منهم ؛ مع أنه رسول .

لكنهم العصبة ، المجرمة ، الغادرة ؛ ولهذا أعرض عنهم واعتصم بالصبر ، والصبر مفتاح النصر . . إن « إسرائيل » اعتصم من أولاده بالصبر الجميل . . الذى تجمل عاقبته ، وتكرم نهايته . . « فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » .

٢٩ — الاعتصام بالصبر عند الشدائد والمحنة . . .

والصبرهو: قوة القُوَى ، التى تَطوِى الأحداث ولا تُطْوَى ، والتى تتلمس الفرج منْ الضيق ، مهما أطبق الطريق ، وانحرف الإبن أو الصديق أو الرفيق . .

نصبر جميل .. لأن الصبر هو العزمة الصادقة لتحقيق الأمل ، وهو القوة النفسية الحقيقية للوصول إلى أعلى مثـل ، فقد قال رب العزة سبحانه لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم :

« فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » . . .

٣٠ — الاستعانة الحقيقية بالله ، وهي أقوى أسباب النصر والقوة في الحياة، مهما خادع المنافقون ، ونافق الخـادعون ، ومهما انحرف المـاكرون ، ومكر المنحرفون . . . « والله المستعان على ما تصفون » . . وصدق الله رب العـالمين :

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ ، وإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ؟ وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ » .

(سورة آل عمران ٣/١٦٠) .

هذه لمحات قليلة إلى بعض ما نستطيع فهمه من « آيات للسائلين » ، في قول رب العالمين :

« لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ » . . .

ومن حول المشهد الأول فقط من قصة إخوة يوسف ، والذى قصّه رب العالمين فى اثنتى عشرة آية فقط من أوائل السورة (٧ ــ ١٨) : التى قال سبحانه فى ختامها ، وفى الآية ١١١ منها :

« لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، ولَكِنْ : تَصْدِيقَ الذِي بَيْنَ أَيْدَيْهِ ، وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ ، وهُدًى ، ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » .

وفجأة : انتفض صاحبي كالمحموم وهو يقول : حسبنا الله ونعم الوكيل ، أوَ كل هذا التاريخ الذليل ، للعشرة الكبار الأصول لبنى إسرائيل، قد كشف عنه رب العزة فى محكم التنزيل ؟ ! . . .

فلتشهد الدنيا ، وليسجل التاريخ ، وليعتبر المؤمنون : جيلا بعد جيل . .

قلت لصاحبى : وهذا أقل القليل من بعض تاريخهم الطويل ،ومما ورد عنهم حتّى فى توراتهم وفى الأناجيل . . ولكنَّا هنا إنما نلتزم التاريخ الحق ، مما أشار إليه أو صرح به رب العزة الحق ، فى محكم قرآنه الحكيم الحق ..

يا صاحبى: ولو حاولت الدنيا أن تستقصىَ العبرة ، من الشرور التى تتساقط من حول هؤلاء العصبة العشرة .. لأظلم وجه الغبراء ،ولزلزلت الأرض والسماء ، ولضاق عن مخازيهم ألف كتاب وكتاب ، ولكنه التحذير والاستعداد للقضاء على هؤلاء الأوشاب ، كما قال رب العالمين الحليمُ ذو الطَّولِ شديدُ العقاب : « لقد كان فى قصصهم عبرةٌ لأولى الألباب » ، ما دامت الدنيا إلى يوم الحساب ...

قال صاحبى : ولكنهم ... يقولون عنهم :إنهم تابوا إلى ربهم ،واستغفروه من ذنوبهم ، وتوسلوا إلى الله بأخيهم وبأبيهم ، فاستغفر لهم أخوهم واستغفر لهم أبوهم ... وأنهم « الأسباط » ..

قلت يا صاحبى : كل هذا زور وتضليل ، ولعله من دسائس بنى إسرائيل لأنه لم يرد فى القرآن ما يشعر بأنهم تابوا ، أو ندموا ، أو اعترفوا إلى الله أو توسلوا إلى الله ، لا بأخيهم يوسف ولا بأبيهم يعقوب عليهما السلام . .

وإنما الذى صرح به القرآن : أنهم تمادوا فى الضلال والبهتان ، واستحكموا وزادوا فى الخزى والطغيان ، قرابة نصف قرن من الزمان : مدة مقام يوسف فى

بيت العزيز وهى قرابة ربع قرن ، وبقاء يوسف فى السجن وهى قرابة عُشر قرن وتولى يوسف خزائن الأرض وبدل العزيز أكثر من عشر قرن ... حتى جاءوا إليه أذلة ، يمتارون ويستجدون الصدقة ..

ولما طلب إليهم العزيز « يوسف عليه السلام » أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم هو « بنيامين » رجعوا إلى أبيهم ، وقالوا كما قالوا عن يوسف تماماً ، ورد عليهم أبوهم بما يدمغهم ، بالخزى والفجور ..

« فلمّا رَجعُوا إلى أبيهمْ قالوا يا أبانا مُنع منّا الكيلُ ، فأرسِلْ معنا أخانا نكتَلْ ، وإنّا له لحافظون * قال : هل آمنكم عليه إلاّ كما أمِنتُكُمْ على أخيه من قبلُ ؟! : فاللهُ خيرٌ حافظاً وهو أرحمُ الراحمين » .

(سورة يوسف / ٦٣ — ٦٤) .

ثم ذهبوا بأخيهم إلى العزيز وهم لا يعرفونه ، وطعنوا على يوسف وأخيه أمامه ...

فقد قالوا زوراً وبهتانا عن يوسف ، للعزيز ؛ ولم يعرفوا أنه هو يوسف ! وهم يتحدثون إليه عن أخيه الشقيق (بنيامين) :

« قالوا إن يسرقْ فقد سرقَ أخٌ له من قبلُ ، فأسرَّها يُوسُفُ فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال أنتم شرٌ مكاناً والله أعلم بما تصفون » . (سورة يوسف ١٢/٧٧) .

ثم رجعوا إلى أبيهم بغير أخيهم ، وكان أبوهم قد أخذ عليهم موثقاً من الله : ألا يرجعوا إلاّ به ؛ إلاّ أن يحاط بهم .. وقالوا لأبيهم :

« يا أبانا إنّ ابنك سرق » فما كان من يعقوب عليه السلام ، إلا أن كرر نفس الألفاظ التى قالها لهم ، لما رجعوا إليه بالدم الكذب على قميص يوسف :

« قال : بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً ؟ فصبر جميل » ... راجع صفحتى ٥٣٢ ، ٥٣٨

« وتولّى عنهم وقالَ يا أسَفى عَلى يُوسُفَ وابيَضَّتْ عَيناهُ مِنَ الحزنِ فَهُوَ

كظيم * قالوا تاللهِ تفتَؤُ تذكرُ يوسفَ ؟! حتى تكونَ حرَضاً أوْ تكونَ مِنَ الهالكين * ! قال إنما أشكو بَثِّي وحُزني إلى اللهِ . . »

ثم رجعوا إلى العزيز يستجدون . . فكشف لهم يوسف عن نفسه :

« قال هل علمتم مافعلتم بيوسفَ وأخيه إذ أنتم جاهلون؟* قالوا أإنَّك لأنت يوسف ؟! قال أنا يوسُفُ وهذا أخي ، قَدْ مَنَّ اللهُ علينا . إنه من يتَّق ويصبر فإنَّ اللهَ لا يضيعُ أجرَ المحسنينَ » .

وفي حقد ، وذلة ، وهون ، وأمام قوة العزيز فقط ؛ سجَّلوا خطأهم ولم يتوبوا ، ولم يستغفروا ، ولم يتوسلوا ليوسف أن يستغفر الله لهم ، أو أن يصفح هو عنهم . ولكنه يوسف : الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم عليهم الصلاة والسلام ، صفح عنهم ودعا لهم ، ولم يعتب عليهم . . .

« قالوا تالله لقد آثرَكَ اللهُ علينا ، وإن كنَّا لخاطئين * قال لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وكأنهم ليسوا أهلا حتى للعتاب .

ولعله طمأنهم ، وصفح عنهم ؛ ليذهبوا بقميصه الحقيقي إلى أبيهم ليرجع إليه بصره ، ولعل يوسف عليه السلام أعطى قميصه لبشير من غيرهم ، خوفاً من كيدهم وخزيهم وفعلا حصل ما توقع يوسف عليه السلام ، فلقد حاولوا الحيلولة بين قميص يوسف الحقيقي وبين يعقوب عليهما السلام ؛ حتى لا يطمئن إلى وجود ولده ، وحتى لا يرجع إليه بصره . .

ولكن الله سبحانه قد أراد ، ولكن أباهم قد سجل عليهم ، ولكنهم قد سجلوا على أنفسهم . .

أراد الله أن يلقى البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام ؟ فيبصر .

وسجل عليهم أبوهم أنهم ازدادوا طغيانا وبهتانا ، حتى أصبحوا يكذبونه

جهارا، ويفنّدون كل أقواله وأفعاله: كفرانا، وجُحّارا ... «لولا أن تُفنّدُونِ»

وسجلوا هم على أنفسهم : أنهم ازدادوا — على توالى الزمن قرابة نصف قرن — عتواً ، ومجاهرة ، ومواجهة لأبيهم بالسباب ، وبأشد وأقسى أنواع التأكيد والتهديد بالعقاب ... « تالله إنك لفى ضلالك القديم » .

مع أنهم من قرابة نصف قرن من الزمان كانوا لا يواجهون أباهم بهذا السباب الامين: « قالوا : ليُوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة: إن أبانا لفى ضلال مبين » . . .

ولكنهم الآن: يواجهون، وبالله يقسمون، ولكن يا ترىَ: بأىّ رب يحلفون؟!

فلما أُسقط فى أيديهم ، وخيب الله كيدهم ، وأحبط تدبيرهم : جبنوا ، وذلوا ، وهانوا ، وضعفوا ، واعترفوا بذنوبهم وخطئهم ، وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ، وكأنهم استكبروا حاقدين ، وحقدوا مستكبرين ، فلم يصرحوا بطلب المغفرة من أبيهم ، أو من ربهم ، أو أن يستغفر أبوهم لهم ربّهم ...

يقول رب العزة والمغفرة ؛ عقب أن قال لهم يوسف :

« لا تثريب عليكم اليوم .. » ؛ فلاعتاب ولا ملام ، قال :

« اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً ، وأتونى بأهلكم أجمعين * ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفندونِ * قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً، قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربى . . »

يا سبحان الله لم يقل ربكم ، أوحتى رب العالمين ، أو ربنا، مما يشعر بأنهم بعيدون عن رحمة الربوبية ، ألم يقسموا بالله ويؤكدوا: أن أباهم الرسول فى ضلال؟

وأيضا لم يقل : نعم أستغفر ، أو سأستغفر ، وإنما قال « سوف » التى تفيد التسويف البعيد البعيد : البعيد زمانا ؛ ولا يدرى أحدٌ هل استغفر لهم أوْ لا ... والبعيد رتبةً ؛ وكأنهم ليسوا أهلا للاستغفار ... بل ولم يشر القرآن أنه استغفر لهم.

ثم ويجب أن نقف طويلاً وبعمق ، عند تعبير القرآن الكريم عن رجوعهم جميعاً إلى يوسف عليه السلام ؛ حيث يقول رب العزة ؛ عن أبى يوسف وأمه :

« فلما دَخَلوا على يوسفَ آوى إليه أبوَيْهِ ... » الآية ٩٩

وقبل ذلك فى الآية ٦٩ : يقول عن هؤلاء العشرة ومعهم أخو يوسف الشقيق :

« ولما دخلوا على يوسُف آوَى إليهِ أخَاهُ ، قالَ إنِّى أنا أخُوكَ ؛ فَلا تَبتئس بما كانوا يعملونَ » .

لنستنتج سريعاً :

أن يوسف عليه السلام إنما آوى إليه، أخاه ، وأبويه : أباه ،وأمه: فقط .

وكأن هؤلاء الثلاثة فقط ، هم الذين ضمهم يوسف عليه السلام إلى نفسه ؛ لأنهم منه ، ويستحقون ، فآواهم ... لأنهم فقط هم المؤمنون من بين هؤلاء أجمعين ..

ولعلنا نتذكر هنا سريعاً تذكير الله للمؤمنين حيث يقول : « واذْكروا إذْ أنتمْ قليلٌ مُستَضعفُونَ فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكمُ الناسُ فآواكم وأيدكمُ بنصرهِ ورزقكم مِنَ الطيباتِ لعلكمْ تشكرون» .(سورة الأنفال ٨/٢٦).

أما هؤلاء العشرةَ العُصبة الكبار ، فهم لا يستَحِقُّون أنْ يُؤْوِيَهمْ يوسف عليه السلام ، وإنما فقط أطعمهم وسقاهم ، وأجرى عليهم ما يحفظ حياتهم ...

ثم وقول يوسف لأخيه « إنى أنا أخوك » بما يفيد الحصر والقصر ..

يؤكد أن هؤلاء العشرة العصبة ، لا يصلحون للأخوة الإيمانية ، ولا الإنسانية ، ولا القومية ، ولا الأسرية ، ولا النسبية ... لأنهم قطعوها ، كما قطعوا جميع الصلات والقرابات ، والمواثيق والمعاهدات ...

ولقد ورّثوا أبناءهم كلّ هذه الصفات ، بل ولقد زاد عليها بنو إسرائيل الآن ، ويزيدون الكثير والكثير .. من المخازى والمخزيات ، والفواحش والمفحشات ...

قال صاحبى : الله أكبر : « إنها لإحدى الكُبَرِ نَذيراً للبشَر » ...

قلت لصاحبى : نعم .. نعم ... نعم ... وإنها العبرة والتبصرة والذكرى ...

وكل مؤمن ، أو عاقل فى أنحاء الدنيا ؛ متأكد تماماً أن كل هذه الصفات الدنيا ؛ التى جرت فى دماء العشرة الكبار من بنى إسرائيل ، هى هى ، بل وأشنع منها وأفحش : تلك التى تجرى إلى الآن وإلى قيام الساعة فى دمائهم ؛ تنطق بذلك أفعالهم ، ويؤكد ذلك سلوكهم ، وتبرهن دائما على ذلك تصرفاتهم ...

وإنى أود أن أقرر بقوة ، وأكرّر المرة بعد المرة : أن سورة يوسف تقرر بعمق وتأكيد للعبرة .. أن هؤلاء الإسرائيليين الكبار العشرة : لا وطن لهم ، ولا قبيلة تجمعهم ، ولا حاكم يحكمهم ولا قائد يقودهم ، ولا والد يؤثر عليهم ، ولا أخلاق تهذب سلوكهم ، ولا دين يلايِّن قلوبهم ، ولا مُثُلَ تتجه إليها أعمالهم ، ولا إنسانية تطهر من نفوسهم

وأنهم لا يجتمعون إلا على عصبة ، من أجل امتصاص الأموال والمقدسات ، والحريات ، بالخديعة ، وبالقوة ، وبالافتراءات ..

وهم لا يُخضعهم إلا القوة ، وقد خضعوا قَبلاً لقوة العزيز ، عزيز مصر ، قبل أن يعلموا أنه يوسف ، وبعد أن علموا أنه يوسف ، بل ولعل حقدهم القديم ازداد على يوسف عليه السلام .

ولا يستطيع عاقل كيف لأحفاد هؤلاء أن يدّعوا الوطن ، أو الخلق ، أو الدين ، وكل هذه بريئة منهم ، كبراءة الذئب من كذبهم ، والقميص من افترائهم .

قال صاحبى : وكيف لا دين لهم ، وهم أبناء رسول ، وإخوة رسول . . . ؟ بل وهم أحفاد رسول ، بُشِّر به إبراهيم الخليل ؟ !

قلت لصاحبى : أما إنهم أخوة وأبناء وأحفاد لرسل الله ، فهذا صحيح ولكنه لا يغني عنهم شيئاً من الله ؛ لأن كل إنسان مَجْزِىٌّ بسعيه ، محاسَب على عمله ، يوم « ... لا يَجْزِى والدٌ عن وَلَدِهِ ، ولاَ مولودٌ هُوَ جازٍ عن والدِهِ شيئاً . . » (سورة لقمان ٣١/٣٣) .

ولقد تقرر ذلك فى صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ؛ يقول رب العزة: « أمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فى صُحُفِ موسَى * وإبراهيمَ الذى وَفَّى * ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرىَ * وأن لَيسَ لِلإِنسانِ إلاَّ ما سَعَى * وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثم يُجْزاهُ الجزاءَ الأَوْفَى * وأنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى . . » . (سورة النجم ٥٣/٣٦ — ٤٢) .

وطبَّق هذا رب العزة عمليًّا ، وقصَّه على الإنسانية قصصا قرآنيا ، حقيقيا واقعيا ، فضرب سبحانه المثل بابن نوح ، وأبى إبراهيم ، وامرأة نوح وامرأة لوط .. حيث كانوا كفرة فجرة ، ولم يُغنِ رسولٌ من هؤلاء عن أحدٍ منهم شيئا ، ولقد قالها خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم لبضعته الزهراء فاطمة : « يا فاطمة إن أباك لا يُغنى عنكِ من الله شيئاً . . » .

ثم وهؤلاء الفُجّار العشرة الكبار ، لم يعترفوا برسالة أبيهم ولا برسالة أخيهم ؛ فقد علمنا فى أول عصبتهم ؛ كيف دبَّروا القتل مع الترصُّد وسبق الإصرار ، للطفل البرىء أخيهم يوسف ، ودبروا جريمة الكيد الكافر الفاجر

لأبيهم الرسول يعقوب عليه السلام ، وفعلوا ما فعلوا . . . مع تدبير المؤامرات المتلاحقة ... وكلما طال الزمان بهم ؛ اشتد بهم كفرهم ، وفجورهم ، وضلالهم . . ففي أواخرِ أيامهم، وقد صاروا آباء وأجداداً . .اتهموا يوسف الصديق بالسرقة في مواجهته وهو عزيزٌ ولم يعرفوه ... وجاهروا أباهم الرسول ابن الرسول ابن الرسول بالسب العلنيّ ، والفُحش المؤكد القوى ؛ حيث قالوا له ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم : « تاللهِ إنكَ لَفي ضلالِكَ القديم » .

ثم لم يعترفوا لأبيهم بالرسالة ، حتى ولم يستغلوها أمام أخيهم الرسول يوسف ، وحتى لم يمثلوها ،وقد كانت تفيدهم لو أرادوا مخلصين : الرجوعَ بأخيهم « بنيامين » ، إلى والدهم يعقوب الرسول من رب العالمين ..

وكأنهم دبّروا أو استحسنوا : ترك أخيهم عند العزيز عبداً ...

وكأنهم استحسنوا أو دبروا : فجيعة أبيهم فى ولديه وَلداً ولداً . .

« قالوا يا أيها العزيزُ إنّ لهُ أباً شيخاً كبيراً . . » .. وكأنّ نفوسهم الحاقدة وقلوبهم الكافرة . وألسنتهم الكاذبة . . لم تطاوعهم أن يقولوا : « رسولا » : لا وحده ، ولا مع كونه « شيخاً كبيراً » . .

وهذا الموقف وحده ، كان يدفعهم بكل قوة ، إلى أن يتوبوا من ذنوبهم وأن يستغفروا إلى ربهم ، وأن يعترفوا بل ويؤمنوا بدين أبيهم ، وملة جدهم وجد أبيهم . . .

وربما لو فعلوا لتغير الموقف كله ، ولكنهم أصروا على تنكرهم للرسول وللرسالة وللملة ، ونبذوا الدين وراءهم ظِهرِيًّا ، وحاوروا — على ضعف واستجداء — العزيز مَليًّا ، « فَلَمَّا استَيْأَسُوا منه ، خَلَصُوا نَجِيًّا . . » .

قال صاحبي : ووصيّة يعقوب لبنيه ؟ ألم يوصهم بالدين فنفذوا ، وبإفراد الله بالعبادة فامتثلوا ؟ ! ...

قلت لصاحبي : ياليت قومى يعلمون ، أن من أخطر الدعايات الصهيونية والدسائس الإسرائيلية : ادعاؤهم التمسك بالدين ، وهم وأصولهم الكبار من قبل قد كفروا بالدين ، وبرب الدين ، وبرسل الله أجمعين ؛ حتى لعنهم رسلهم، وانتزع الله الأمان والأمانة منهم . . .

أما وصية يعقوب ؛ فقد جاءت بعد وصية إبراهيم الخليل عليهما السلام ، لما رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل عليهما السلام ودعيا الله بأن يكونا مُسْلِمَيْنِ ومن ذريتهما أمة مسلمة ، وبرسول الإسلام الخاتم صلى الله عليه وسلم ، وطلب إبراهيم استمرار ملته وإكمالها بالإسلام، فقال هو وإسماعيل عليهما السلام:

« ربَّنا وابعثْ فيهم رَسُولاً منهمْ يتلُو عليهمْ آياتِكَ ويُعَلِّمُهُم الكتابَ والحكمةَ ويزكِّيهم إنَّكَ أنتَ العزيز الحكيمُ » .

(سورة البقرة / ١٢٩) .

وقد قال رب العزة عقبها : « ومَن يَرغبُ عن ملَّةِ إبراهيمَ إلاَّ من سَفِهَ نَفْسَهُ ولقَد اصطفيناهُ فى الدنيا وإنَّهُ فى الآخرةِ لمنَ الصالحينَ * إذ قالَ له ربُّهُ: أسلمْ قال : أسلمتُ لربِ العالمينَ * ووَصى بها إبراهيم بنيهِ ويعقوبُ : يابَنىَّ : إنَّ الله اصطفى لكمُ الدينَ فلا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلمونَ * أمْ كنتُم شُهداءَ إذْ حضرَ يعقوبَ الموتُ ؟ إذْ قال لبنيهِ ما تعبُدونَ من بعدى : قالوا نعبد إلهك وإلهَ آبائِكَ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحٰق : إلهاً واحداً ونحنُ له مسلمونَ » .

(سورة البقرة / ١٣٠ — ١٣٣) .

أما بنو إبراهيم من ذرية إسماعيل فقد امتثلوا ونَفَّذوا ، ولم يحتاجوا إلى تكرار الوصية أو التوصية ، ولم يحتاجوا لانشغال إبراهيم بهم حال وفاته .

وأما بنو إسرائيل فقد انشغل أبوهم بهم وعليهم، حتى حين حضره الموت ، وكأنه لم يثق فى تقبلهم هذه الوصية ، بل ولم يثق حتى فى فهمهم لمعنى الدين ،

لأنهم عنه معرضون ... فجمعهم جميعاً حال احتضاره وسألهم عن مدى فهمهم الدين، وكيف ينفذون ويطبقون ؛ إن نفذوا أو طبقوا ، أو كانوا من المؤمنين .

وبنو يعقوب جميعاً ثلاث طوائف :

طائفة تمثل الرسل ؛ ويمثلهم يوسف عليه السلام . .

وطائفة تمثل المؤمنين ، ويمثلهم أخو يوسف : « بنيامين » .

وطائفة هم الكفرة الفجرة ، وهم العصبة الكبار العشرة .

ولقد جمع يعقوب عليه السلام جميع بنيه ؛ لما حضره الموت ، وسألهم : ما تعبدون من بعدى ؟ سؤال غريب يدل على كثير من دخائل القلوب ... ولعله أراد أن يرد المؤمنون ، ليهتدى بعض الكافرين ، أو يرعوى بعض المفسدين ، أو يثوب إلى رشده بعض الضالين ؛ وكأنى بهم ، فى إجابتهم قد أجاب عنهم ، وطبق وصية أبيهم : اثنان فقط من بنيه المؤمنين ، هما يوسف عليه السلام وأخوه بنيامين ...

وكأنى بالعصبة الكبار منهم ، قد ترفعوا بأنفسهم ، ودلوا بعصبتهم وانغمسوا فى شهواتهم ، وأخلدوا إلى دنياهم ودنياتهم .. لأنهم رغبوا عن ملة إبراهيم أصلاً ودين يعقوب فسفهوا نفوسهم ، ثم هم لم يعبدوا إلهاً واحداً هو إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، لأنهم لم يؤمنوا بواحد منهم ، ولم يستجيبوا لرسول من رسلهم ، ولأنهم ركبوا الشيطان بل ركبهم ، وعبدوا الخسيس من ميولهم وأهوائهم .

ثم هم الكاذبون ، حتى فى قولهم : « ونحن له مسلمون » ، كما توالت سلسلة كذبهم . . .

ولو أسلموا ؛ لسلموا وسلمت الدنيا من شرورهم ...

وكم واثقوا .. وكم عاهدوا .. وكم وصاهم أبوهم .. فغدروا ؛

ونقضوا ، وكفروا ... ولم يسلم حتى أبوهم من كيدهم وغدرهم ...

ولقد سجل رب العالمين: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا، وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ».

(سورة المائدة ٥/٧٠).

وصدق الله : « ... فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ... ».

(سورة الصف ٦١/١٤).

الأسباط :

قال صاحبي : وأين إذاً من الأسباط مكانهم ؟ أوَليسوا من الأسباط ؟ أم الأسباط منهم ؟ ! . . أوَليسوا — كما قيل — هم الأسباط دون غيرهم ؟ !

والأسباط مؤمنون بربهم ؟ ؛ بل ويجب علينا الإيمان بهم ، وعدم التعرض لهم . . .

قلت : ياصاحبي : تمهَّلْ واتَّقِ الله ، وتعالَ نتدبرْ ونتفهم . .

تعال نتتلمذ على كتاب الله ، وهو القول الفصل المحكم . .

ثم تعالَ نحتكمْ إلى سنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . .

ولكن بشرط أن نقف فى استفادة وأدب ، عندما يأخذ بأيدينا لتفهُّم كلام الله وفهم كلام سيد العرب . . . عند الأصيل الموثَّق من لغة العرب ، والأصيل المحقق فى أمهات الكتب . . .

لنعرف شيئاً عن الأسباط .

ولنشير بذلك إلى تأسيس قاعدة قرآنية محكمة ، تقوم على أساسها فقط مناهج البحث الدينى والعلمى ؛ إن أردنا من مناهج البحث أن تأخذ بيد الإنسانية

إلى صريح الدين ، وصحيح العلم ، وصروح السعادة ...

وإن أردت المزيد المفصل ، فارجع إلى كتابنا « المدخل » ... « المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب » ، ففيه التفصيل لما يجب أن تكون عليه المناهج لكل باحث وطالب ...

وإن أحببت أن تقف سريعا على ما يطمئن الألباب ، فاقرأ الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب ، وعنوانه : « الحكمة والعلم » من صفحة ٢٠١ إلى صفحة ٢٢٦ ...

وقف بتدبر وإمعان ، عند : « مفاتح العلم من القرآن » ...

يا صاحبي : أما الآن ، فإلى القرآن ، إلى كتاب الله وهو وحده الحجة ، لأنه : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ... نسلم خاشعين له ، ولا نتعداه إلى غيره ، إلا لمحاولة فهم ما نستطيع منه ...

فقد ورد فيه لفظ الأسباط ، خمس مرات ، مرة نكرة ، وأربع مرات معرفة منها المرة الواحدة النكرة ، وقد نزلت في مكة ، والمرات الأربع المعرفة قد نزلت في المدينة .

والمرة الوحيدة التي ورد فيها لفظ أسباط بدون « أل » نزلت في مكة ، وقد جاءت في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ، ورقم هذه السورة في المصحف ٧ وترتيب نزولها من بين سور القرآن ٣٨ .

وتدل على أسباط ، أمم : هود ، أو من اليهود ، من بني إسرائيل بعد موسى .

وهؤلاء هم أسباط بني إسرائيل ..

أما المرات الأربع المعرفة والتي ورد فيها لفظ « الأسباط » بالألف واللام والتي نزلت في المدينة :

فقد جاءت : فى سورة البقرة مرتين ، فى كل من الآية ١٣٦ ، والآية ١٤٠ .

وفى سورة آل عمران مرة ، فى الآية ٨٤ .

وفى سورة النساء مرة ، فى الآية ١٦٣ .

وهذه السور الثلاث فى مفتتح المصحف بعد الفاتحة ، وسورة البقرة هى أول سورة نزلت عقب الهجرة .

وترتيب هذه السور فى المصحف على التوالى : ٢ و ٣ و ٤ . .

وترتيب نزولها من بين سور القرآن الكريم . . . على التوالى كذلك : ٨٦ و ٨٨ و ٩١ .

وكلها تدل على غير أسباط بنى إسرائيل . . .

وليس فى هذه المرات الخمس ، بل ولا فى مرة : ما يشير من قريب أو من بعيد إلى إخوة يوسف العشرة ، بل ولا إلى واحد من هؤلاء العصبة الفجرة ؛ الذين دبروا لأخيهم ولأبيهم بل وللإنسانية كلها الجرائم المنكرة ..

وليوسف إخوةٌ وله صواحب ، وكلا الجنسين أصحاب مكايد ومقالب ؛ ولكن الله القوى العزيز الغالب : قد أحبط من حوله جميع المكايد ، لأنه من المحسنين : « ... واللهُ غالبٌ علىَ أمرِه ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعلمونَ * ولمَّا بَلغَ أشُدَّهُ آتيناهُ حُكماً وعِلماً وكذلك نجزى المحسنينَ » .

(سورة يوسف ١٢/٢١—٢٢) .

ثم إن مجرد التلاوة لهذه الآيات ، التى ذكر فيها شىء عن الأسباط ، فى القرآن كله ، يؤكد بكل صراحة وقوة : أن إخوة يوسف ليسوا هم ، بل ولاهم من الأسباط ، ولا الأسباط منهم . . فلا مكان لهم من الأسباط ولا صلة

لهم بهم ... لأن لفظ الأسباط فى القرآن كله لا يصح أن يطلق عليهم ، لأنه يدل صراحة على غيرهم للأسباب الواضحة الجلية ، والتصريحات القرآنية ، التى هى فوق الدلائل البديهية ، والتى نستطيع الآن أن نلفت إليها كل الناس ، بإشارات سريعة إلى قاعدة من قواعد الأساس . . . نشير إلى بعض ركائزها الآن ، من آيات رب العزة الحكيم الخبير فى القرآن ، فيما يلى :

أولا : تؤكد آية الأعراف : أن الأسباط الأمم الاثنتى عشرة ، إنما هم أمم بعدد عيون الحجر الاثنتى عشرة ، وأنهم بعد موسى عليه السلام ، ومن قومه ...

وبديهى أن موسى وُلِدَ بعد وفاة كل إخوة يوسف ، بعديد من القرون والأجيال ، وأنه عليه السلام — حتى على حكاية التوراة — من الجيل الخامس على الأقل لإسرائيل، ولكن لا علينا من التوراة الآن ، لأننا إنما نؤرخ الحق بالحق وللحق .. من القرآن ..

وتؤكد آية الأعراف كذلك: أن الله سبحانه ،قطع هؤلاء الأمم الأسباط فى الأرض ، وأنه سبحانه أعلمَ كلَّ أناسٍ منهم مشربهم من الحجر ؛ الذى انبجس منه الماء ، وأن ذلك كان فى أواخر زمان موسى عليه السلام، لأنه كان بعد ما كان ، بين موسى وهارون وفرعون وهامان ، وبعد إسلام السحرة برب موسى وهارون ، وبعد أن جاوز الله ببنى إسرائيل البحر ،وبعد أن عبدوا العجل الذهبى من دون الله ، عقب أن نجاهم الله ، وبعد أن أتم موسى ميقات ربه تضرعا إلى الله ، وبعد أن تلقى موسى الألواح بعد التوراة ، وبعد أن رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً ، وبعدأن قال الله عنهم: « إنَّ الذينَ اتخذوا العجلَ سينالهم غَضَبٌ مِن ربهم وذلةٌ فى الحياةِ الدنيا وكذلك نجزى المفترينَ » . (الاعراف ٧/١٥٢).

وبعد ست آيات فقط أشارت إلى مخازيهم المخزيات ؛ يقول سبحانه :

« ومنْ قومِ موسى أُمَّةٌ يهدونَ بالحقّ وبه يعدِلونَ * وقطعناهم اثنتى عشرةَ أسباطاً أمماً ، وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومُهُ أنِ اضرب بعصاكَ الحجَرَ فانبجست منه اثنتا عشرةَ عيناً ، قد علم كل أناسٍ مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهمُ المنَّ والسلوى كلوُا من طيباتِ ما رزقناكم وما ظلمونا ولـكن كانوا أنفسهم يظلمونَ » . (سورة الأعراف ٧ / ١٥٩ — ١٦٠) .

فلا يمـكن أن يـكون هولاء الأسباط الهود أو اليهود — الذين ظلموا أنفسهم أيضا كإخوة يوسف — هم أخوة يوسف ، وإنما هم من قوم موسى ومن بعده ، وأنهم أمم سقى الله آباءهم زمن موسى ، وسقاهم من بعد موسى من الحجر وأكرمهم الله كثيرا ، ولـكنهم تمردوا ، وظلموا ، وبدلوا ... ورجعوا إلى طباع المفسدين ، « ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون » ...

هؤلاء هم أسباط بنى إسرائيل الذين كانوا هوداً أو نصارى ...

ثانيا : تؤكد الآية ١٤٠ من سورة البقرة : الرد القوى الحازم ، على أدعاء بنى إسرائيل أن « الأسباط » المعرّفين بالألف واللام ، كانوا هود أو نصارى من بنى إسرائيل ...

وكأن الآية تشير إلى أن أسباطهم نـكرة ، وقد قطعهم الله فى الأرض اثنتى عشرة أسباطاً أمما ، بعد موسى عليه السلام ، كما ورد فى آية الأعراف ...

وتُفحم آية البقرة هذه الـ ١٤٠ ... كل مزاعم اليهود ، والصهاينة من بعدهم ، وكل من انخدع بدسائسهم ومفترياتهم ، وزعم بأن « الأسباط » فى آية ١٣٦ من سورة البقرة أيضا — والتى بينها وبينها ثلاث آيات فقط ... كانوا من اليهود

أو النصارى من بنى إسرائيل ، أو أنهم كانوا إخوة يوسف أو أبناءهم.. حيث يقول رب العزة فى الآية ١٤٠ لبنى إسرائيل ، ولكل المؤرخين عن بنى إسرائيل :

« أم تقولونَ إنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحٰق ويعقوبَ والأسباطَ ، كانوا هوداً أو نَصارَى ؟ قل ءأنتمْ أعلمُ أم اللهُ ؟ ! ومَن أظلم مِمن كتم شهادةً عندهُ من الله ، وما الله بِغافلٍ عمَّا تعملونَ » .

ثالثا : أما آية البقرة ١٣٦ والتى يحاولون التمحك فيها ، والدس من حولها ؛ فتؤكد : أن « الأسباط » قد أنزلت إليهم رسالات ، وهم من المسلمين ويجب على المسلمين الإيمان بهم ، كما يجب الإيمان بإبراهيم وإسماعيل وغيرهما ... من رسل الله ، وهما اللذان قالا : « رَبَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةمسلمة لك.. » ؛ ففى الآية ١٣٦ من سورة البقرة : يأمر جميع المؤمنين رب العزة بقوله :

« قولوا آمنَّا باللهِ ، ومَا أُنزلَ إلينا وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰقَ ويعقوب والأسباطِ ، ومَا أُوتىَ موسى وعيسى ، وما أُوتى النَّبيونَ مِنْ ربهِم لانفرقُ بين أحدٍ منهمْ ، ونحنُ لهُ مُسلمونَ » ... فهل أُنزل دينٌ أو فرقانٌ إلى إخوة يوسف أو إلى أحد من أبنائهم قبل موسى ، كما أنزل إلى محمد وإبراهيم وإسماعيل .. عليهم السلام ... اللهم : لا ...

رابعاً : تؤكد الآية ٣٤ من سورة غافر ٤٠ ...

أن بنى إسرائيل جميعاً من إسرائيل نفسه « يعقوب » إلى موسى عليهما السلام : لم يرسل الله فيهم رسولا غير يوسف عليه السلام ، ولم ينزِّل الله إليهم كتاباً ولا نبياً ، ولم يبعث فيهم ، ولا منهم ، ولا لهم أحداً مطلقا : لا رسولا ولا نبيًّا ، ولم ينزل على أحد منهم وحياً مطلقاً ؛ لا وحىَ نبوةٍ ولاوحىَ رسالة ؛ حيث يقول سبحانه على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون :

لآلِ فرعون ولبنى إسرائيل جميعاً لأنهم جميعا كانوا فى مصر بادين، جاء بهم يوسف من البدو . . . حتى أخرجهم موسى إلى البدو، حيث يقول رب العزة :

« وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حتَّى إذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يبعثَ اللهُ من بَعْدِهِ رَسولاً ، كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » .

وعلى هذا فليس هناك — بصريح هذه الآية : رسالة ولا رسول ولا نبي ولا كتاب ،من يوسف إلى موسى عليهما السلام ،فأين مكان إخوة يوسف من الرسالة والدين ؟ أو أين مكانهم من الأسباط وقدأنزل الله إليهم الدين .؟ !...

ثم ذكر القرآن الكريم من بعد موسى كثيراً من الرسل ، والرسالات ، والكتب والنبوات ، فى بنى إسرائيل من أمثال : داود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى وعيسى ، عليهم السلام .. وكأن القرآن لم يترك منهم رسولا أو رسالة . . حتى من أرسله إلى مائة ألف أو زيادة .

وفى الوقت ذاته : لم يصرح القرآن بأسماء رسل ، ولا كتب ، ولا رسالات فى بنى إسماعيل عليه السلام ، من إسماعيل عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكر بعض أقوام أو أمم منهم ، كذبوا رسلهم ، مع أنَّ الأمم من بنى إسماعيل ،كانوا أصدق ، وأرسخ ، وأكثر . . .

وكانوا أصحاب المناسك والمشاعر ، وهم الذين استحفظهم الله بيته الحرام ، واستأ منهم ملة إبرهيم عليه السلام ، وتسلسل فيهم الإسلام، فى بنى عدنان أو فى أمم من بنى قحطان : الذين منهم الأنصار ، ومنهم قوم تُبَّع ، وأصحاب الرس وسبأ وممن كذبوا الرسل ، فحق عقاب . . .

وقد قال سبحانه: «وإن مِّنْ أمةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذيرٌ» . (فاطر ٣٥/٢٤).

وقال سبحانه : « ولَقَدْ بَعَثْنَا فِي كل أمةٍ رسُولاً » . (النحل ١٦/٣٦).

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عدد المرسلين ٣١٥ على الأقل.

خامسا : تؤكد آية آل عمران أن الدين عند الله هو الإسلام، وأنه سبحانه أنزله على جميع رسله حتى أكمله برحمة العالمين ، محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ فأكمل به الدين . وأنه سبحانه أنزل دينه وكتبه ورسالته ، على أشخاص الرسل لأممهم، وعلى الأمم فى أشخاص رسلهم ، وذكر بعضًا من هؤلاء وهؤلاء . . .

حيث يقول رب العزة :

« أَفَغَيْرَ دينِ اللهِ يَبْغُونَ ولهُ أَسلَمَ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإلَيْهِ يُرْجَعُونَ * قل آمنَّا باللهِ وما أُنزِلَ علَيْنَا ، وما أُنْزِلَ عَلَى إبراهِيم وإسْمَاعيلَ وإسْحٰقَ ويعقوبَ والأسْبَاطِ ، ومَا أُوتِىَ موسَى وعِيسَى والنَّبِيُّونَ مِنْ ربِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحدٍ مِنهُمْ ونَحْنُ لهُ مُسْلِمُونَ * ومَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسْلامِ دِيناً فلَنْ يُقْبلَ مِنْهُ وهُوَ فى الآخِرَةِ منَ الخاسِرِينَ » .

(سورة آل عمران ٣/٨٣ — ٨٥) .

وتؤكد هذه الآيات كذلك ، أن الأسباط قد أنزل الله عليهم الدين والإسلام ؛ كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب . . . عليهم السلام .

كما تحتم هذه الآيات : وجوب الإيمان بهؤلاء الرسل جميعا ، وما أنزل الله عليهم جميعاً ، بل وبجميع رسل الله ودين الله، وهذا هو الإسلام .

وقد ذكر رب العزة الأسباط: وأنه أنزل إليهم الدين، وأنزل عليهم الدين...

وذكرهم الله فيما بين يعقوب وموسى عليهم السلام ، وقد سبق أن تأكدنا من أن آية غافر ٤٠/٣٤ تؤكد : أنه ليس فى بنى إسرائيل جميعاً من يعقوب إلى موسى وهارون ، رسالة ، ولا رسول ، ولا كتاب، ولا دين أنزل إلى واحد منهم ، أو أنزل على واحد منهم ؛ بما فيهم إخوة يوسف ، غير يوسف فقط عليه السلام . . . فأين إخوة يوسف من الأسباط .

كما تؤكد آية البقرة / ١٤٠ أن الأسباط بالألف واللام ليسوا من بنى إسرائيل من زمن موسى ولا من بعده ، كما أنهم ليسوا من بنى إسرائيل جميعاً من موسى إلى يعقوب : (إسرائيل نفسه) .

سادساً : تشير الآية ١٦٣ من سورة النساء إلى أنّ الوحْىَ أنواعٌ كثيرة وأن أعلىْ أنواع الوحى ، هو وَحْىُ الرسالة ، ويليه وحْىُ النُّبُوَّة ، ولكل درجات . . ثم تنبه هذه الآية ، إلى أن الوحْىَ فيها هو وحى الرسالة ، وإلى أن كل نبى يُوحَىْ إليه وَحْى نُبُوَّة ، وإلى أن كل رسول هو نبىّ أيضاً ودائماً ، لأن الله سبحانه إنما يصطفى من خواص أنبيائه ، من يمنحهم الرسالة ، فيوحِىَ إليهم وحْىَ رسالة . . . فقد قال سبحانه لخاتم رسله وأنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم .

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ . . . »

وقد ذكر القرآن : أن إدريس عليه السلام كان نبياً ، وهو قبل نوح عليه السلام وليس من بعده . . . فهذا الوحى فى هذه الآية هو وحى الرسالة .

ثم ذكرت الآية أن الأسباط قد أوحى الله إليهم ، وحى الرسالة هذا . . .

وتمام الآية هو قوله سبحانه لخاتم المرسلين والنبيين محمد صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ،

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وعيسى وأيوبَ ويونُسَ وهٰرُون وسُلَيمانَ ، وآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ».

ثم ويؤكد أن هؤلاء المذكورين كلهم رسل الله ، وأن الوحى إليهم جميعاً هو وحى الرسالة ، قوله سبحانه عقبها مباشرة لخاتم رسله أيضاً صلى الله عليه وسلم :

« وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ... ».

فهل يمكن أن يكون إخوة يوسف رُسُلاً ؟ ويجب الإيمان بهم ، وبما أنزل إليهم ، وبما أنزل عليهم ؟ !

وهل يمكن أن يكون أى واحدٍ من إخوة يوسف رسولاً ؟ أو نزل عليه دين ، أو بلّغ دينا ؟ حتى يجب الإيمان به ، وبما أنزل إليه ، وبما أنزل عليه ؟ ؟! .

وهل يمكن مع هذا كله أن يكون فى أى واحدٍ من بنى إسرائيل إلى موسى عليه السلام — غير يوسف طبعاً عليه السلام — رسالةٌ أو دين أنزله الله إليه وأنزله الله عليه ، ويجب علينا الإيمان به ، وبما آتاه الله ، من كتاب ، وحكمة ؟ ! خصوصاً وقد صرح القرآن الكريم : أن جميع النبيين ، قد آتاهم الله من الكتاب ومن الحكمة ، وأنزل إليهم من الكتاب ومن الحكمة .. حتى أكمل الله الكتاب وأتم الحكمة جميعاً بخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، وجعله سبحانه هو المصدِّق لكل ما مع النبيين والمرسلين ، وما آتاهم الله ، ومهيمنا عليهم جميعاً وعلى ما آتاهم الله ...

وذلك بنص ميثاق النبيين كما ورد فى سورة آل عمران فى الآيات ٨١ — ٨٣ وقبل آية آل عمران السابقة فى خامساً مباشرة ... وذلك قوله سبحانه :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ : لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ : لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ؟ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَا ، قَالَ : فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ • فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ • أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ؟ ! ... » .

ولعله مع هذا كله ، قد آن لنا أن نتأكد فى تقرير ، وأن نقرر فى تأكيد : أن إخوة يوسف ليسوا الأسباط ، بل وليسوا أسباطا .

وأن فريقا أو أمة من بنى إسرائيل إلى موسى ليسوا الأسباط ، بل وليسوا أسباطا .

وإن من قوم موسى ومن بعدهم قطّعهم الله اثنتى عشر أسباطا أمما .

وأن الأسباط — المعرفة بالألف واللام — ليسوا من قوم موسى ولا من بعده : لا هُوداً ، ولا نصارى ... وليسوا من قبل موسى إلى إسرائيل نفسه ...

وأما سابعا : فتعالَ يا صاحبي فى يقين ؛ لنتدبر خاشعين ، ونخشع متدبرين قول رب العالمين ، لرحمة العالمين : السابق واللاحق للآية السابقة ... ولنؤرخ الحق لكل من يريد الحق وللأجيال اللاحقة ، من كتاب رب العالمين الحق وآياته الصادقة ...

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ، ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، فَعَفَوْنَا

عَنْ ذلكَ وآتينَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِم ، وقُلْنَا لَهُمُ : ادْخُلُوا البابَ سُجَّداً ، وَقُلْنَا لَهُمْ لا تَعْدُوا فى السَّبْتِ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ، وكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ ، وقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ ، بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِم ، فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً * وَبِكُفْرِهِمْ ، وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيماً * وقَوْلِهِمْ إنَّا قَتَلْنَا المَسِيحَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ رَسولَ اللهِ وَمَا قَتَلوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وإنَّ الذينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ ، مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وَمَا قَتَلوهُ يَقِينًا * بَلْ رفَعَهُ اللهُ إلَيْهِ ، وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وإِن مِن أَهْلِ الكِتَابِ إلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَومَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيهِمْ شَهِيداً * فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ، وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِم الرِّبا ، وقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالبَاطِلِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ مِنهم عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فى العِلْمِ مِنْهُم والمُؤْمِنُونَ : يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إليكَ ، وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ ، والمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والمُؤْمِنُونَ باللهِ وَاليَومِ الآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجراً عَظِيماً * إنَّا أَوْحَينَا إلَيْكَ كَمَا أَوْحَينَا إلى نُوحٍ وَالنَّبِيينَ مِنْ بَعْدِهِ ، وأَوْحَينَا إلى إِبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونسَ وَهَرُونَ وَسُلَيمَانَ ، وآتَينَا دَاوُود زَبُوراً * ورُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ، وَرُسُلاً لَمْ

نقصصْهُمْ عليكَ، وكلَّمَ اللهُ موسَى تكليماً * رُسُلاً مُبشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، لِئلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً * لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أنزلَ إليْكَ، أنزَلَهُ بِعِلْمِهِ، والمَلائكةُ يَشْهَدُونَ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً». (سورة النساء ٤/ ١٥٣ — ١٦٦).

قال صاحبي: كفى.. كفى.. وأنا أشهد.. وأشهد أن هذا هو الحق، وليس بعد الحق إلاّ الضلال، وقد كنا نتطاول في الجدال.

«ومِنَ النَّاسِ مَنْ يجادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى، وَلاَ كتابٍ منير»...

قلت لصاحبي: الحمد لله أن وضُح الرشاد، وصدق الله رب العباد:

«مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إلاَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلاَ يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلاَدِ». (سورة غافر ٤٠/٤).

وثامناً: فقد استقر المنهاج الحق البصير، في كتاب الله الحق المنير، أن يذكر رب العزة كلَّ واحدٍ من رسله — إنْ ذكرَه — بإسناد لفظ الرسالة أو الرسول له، وأن يفصِّل شيئا من بعض مواقفه وما بَلَّغه، وبإضافة الألفاظ الدالة على الرسالة إليه؛ كالتبليغ، والدعوة، والتبشير، والإنذار، والصبر...

ولم يرد شيء من هذا كله، في القرآن كله، بالنسبة لهؤلاء العصبة إخوة يوسف، ولا بالنسبة لواحد من نسلهم جميعا أو بني إسرائيل مطلقا إلى موسى عليه السلام... فليس أحد من هؤلاء ولا هؤلاء من الأسباط...

وتاسعا : الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة ، والبعد عن المنفرات ، والخزيات ، واجتناب الكبائر والصغائر والفواحش والضلالات . . .

كل هذه الأوصاف وغيرها مما يجب على كل رسولٍ أو نبيٍّ أن يتصف بها . . . ولم يقترب واحد من إخوة يوسف ولا من نسلهم ولا من أممهم ولا من بنى إسرائيل جميعا . . . إلى موسى عليه السلام . . . لم يقترب واحد منهم من أيَّةِ صفةٍ من هذه الصفات كلها . . . فليس واحد منهم من الأسباط الذين يجب الإيمان بهم ، وبما أنزل إليهم ، وبما أنزل عليهم ، وبما أوتوه من كتاب ، ومن حكمة . . .

وعاشراً : ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لسبطٍ من أسباط بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام ؛ الذين قطّعهم الله فى الأرض فيما رواه « الضِّبابُ » وذكره : ابن الأثير ، فى : النهاية ، والزبيدى فى تاج العروس ، وابن منظور ، فى : لسان العرب :

« إنّ اللهَ غَضب عَلى سِبطٍ مِنْ بَنى إسْرَائِيلَ فَمَسَخَهُمْ دَوَاب » .

ومما يؤكد هذا قوله سبحانه فى سورة الأعراف ٧/١٦٦ — ١٦٨ عن بعض أمم بنى إسرائيل :

« فَلمَّا عَتَوْا عنْ مَّانهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وإذْ تأذَّنَ رَبُّكَ ليَبْعثَنَّ عَلَيْهِمْ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ مَن يَسُومُهم سُوءَ العَذَاب ؛ إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وإنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وقَطَّعناهُمْ فى الأَرْضِ أُمَمًا . . »

وقوله سبحانه فى سورة البقرة/٦٥ — ٦٦ لبنى إسرائيل جميعا :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ » .

وقوله جل شأنه فى سورة المائدة ٥ / ٥٩ — ٦٠ :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ؟ * قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ، وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ، أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ » .

وعلى هذا فمن أسباط بنى إسرائيل الذين قطعهم الله فى الأرض اثنتى عشرة أسباطا أمما : من لعنه الله وغضب عليه وأخزاه ، وجعل منهم القردة والخنازير فلا يمكن أن يكون من بنى إسرائيل : أفراداً ، وجماعاتٍ ، وأمما . . . مَن يَصحُّ أن يطلق عليه أنه من « الأسباط » الذين أنزل الله إليهم من الكتاب ومن الحكمة ومن الرسالات ومن الدين ، أو أنزل الله عليهم شيئا من هذا ، أو كل هذا ، أو طالبنا الله بالإيمان بهم . . .

ومن باب أَوْلى : لا يمكن أن يكون إخوة يوسف هم الأسباط ، أو منهم الأسباط ، أو الأسباط منهم . .

يا صاحبى : وإذا ما رجعنا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب أن نخشع كثيراً عند حديثين كريمين ، هما : « الحسين سِبطٌ من الأسباط » : أى أمة من الأمم فى الخير ، والحديث الثانى : « الحسن والحسين سِبطاً

رسول الله صلى الله عليه وسلم » : أى طائفتان وقطعتان منه . . .

فلِمَ لا يكون « الأسباط » هم من أمم بنِي إسماعيل الذين أرسل الله إليهم ، ولم يذكر أسماء رسلهم ، ولا عدد أممهم ، وبخاصة من بنى قحطان ، كقوم تُبَّع وأصحاب الرَّسِّ ، وسبأ . . ؟؟! خصوصا والأنصار جميعاً من بنى قحطان ؟! . أو من بنى عدنان ، ممن كانوا على ملة أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام ؟! . . . خصوصا وقد كان منهم : السابقون الأولون من المهاجرين ، ومنهم وفيهم خاتم النبيين ، ورحمة العالمين ، محمد صلى الله عليه وسلم . . .

ولعل منهجنا فى تأسيس القواعد من القرآن ، لا يتسع إلى تفصيلٍ أكثر من هذا الآن ، وإنما هو التأسيس لقواعد البنيان . . .

ولكنى : أود أن أشير إلى قاعدةٍ لمنهجٍ ، أو إلى منهجٍ لقاعدة : هى أن القرآن يجب دائما أن يُقعَّدَ منه ، ولا يصح أن يُقعَّدَ عليه .

تخضع له جميع القواعد ، ولا يخضع هو لكل القواعد ولا لقاعدةٍ مهما كانت من القواعد .

وأخرى : إذا كان اللفظ من العربى الأصيل ، فلا يُطلق إلاَّ على العربى الأصيل ، ولا يصح أن يُراد به غيره من الدخيل ، إلاَّ على ضربٍ من المجاز والتأويل ، أو التضليل . . .

ولفظ « الأسباط » : السين ، والباء ، والطاء : وجميع مشتقاتها واشتقاقاتها عربى أصيل ، فلا يصح إطلاقه إلاَّ على الصريح من بنى إسماعيل ؛ لأنهم صريح العروبة وخالصها وصفوتها . . .

أما أن يراد به غيرهم ولو من بنى إسرائيل ؛ فلابدَّ من كثرة المجاز والاستعارات والتعليل . . . أو شئت فقل : إنما هو الدس ، والتفريق ، والتضليل .

وتدور المادة « سبط » على الامتداد ، والبسط ، والاسترسال ، والخلو من التعقيد . . .

ومن ذلك ما جاء فى صفته صلى الله عليه وسلم أنه : « سبط القصب » .

وفى صفة شَعره صلى الله عليه وسلم أنه « ليس بالسبط ولا بالجَعْدِ » .

ومنه سبط اليدين : بمعنى سخى ممتد العطاء ، كثير الرِّفد . . .

ثم وقد أجمع المحققون أو كادوا : على أن « السبط » هو : ابن البنت ؛ فى مقابلة « الحفيد » وهو : ابن الابن . . .

وقد نقل هذا شارح القاموس المحيط ثم قال : « وكلام الأئمة صريح فى أنه يشمل ولد الابن والابنة ، كما صرح ابن سيده فى المحكم . . . فهو بمعنى القبيلة . . .

ويقال لكل جماعة من أب وأم : « قبيلة » ، ويقال لكل جمع من آباء شتى : « قبيل » بلا هاء . . .

قال صاحبى : لله الحمد والمنة والدعاء ، الآن قد زال العماء ، وانكشفت الإسرائيليات المدسوسة النكراء ، فقد ذكروا فى توراتهم المحرفة ، والمترجمة إلى العربية ، بأقلام مسيحية : أن أبناء يعقوب الاثنى عشر هم الأسباط ، وهم اثنا عشر ؛ وتابعهم من انخدعوا بدسائسهم عن قصر نظر ، أو عن قصور فى التحقيق وجَمع الآيات والسور . . وكان من أهم أغراضهم : الدعاية للإيمان بأصولهم ، وأنهم هم المتمسكون بدينهم ، ليتلاعبوا بالدين ويستخدموه فى شنيع أغراضهم . . .

أما أنا فمن الآن مستمع وكلى قلب وآذان ، فهات الحديث بتوفيق من الرحمان ؛ لتأسيس القواعد من القرآن ...

بنو إسرائيل : من يوسف إلى موسى عليهما السلام :

جمع يوسف عليه السلام إسرائيل وبنى إسرائيل جميعاً من البدو فى أغوار الشام وأسافله، وفرقهم فى « البدو » والصحراء فى شرق مصر وقواحله ؛ لرعى الماشية وتربية الأغنام ، بعد أن أخذ على إخوته المواثيق والعهود : أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم ، وألا يعودوا إلى إفسادهم وشرورهم . . .

ثم أخذ يوسف عليه السلام يراقب إخوته ، ويشدِّدُ عليهم ، وقد فرّقهم فى أرض جاسان من صحارى الشرقية ؛ حتى لا تظهر عيوبهم ، وتتجدد شرورهم ، ويلتفت الحكام إلى فسادهم وإفسادهم . . . وبهذا يجب طردهم ، فتتجدد أحزان أبيهم ، وتنتشر مخازيهم ، ولا يستطيع أحد حمايتهم . . . خصوصا وأن يوسف قد جمعهم من البدو رأسا ، وهم عدد كبير يضاهى السبعين نفساً . . .

وظلت الحال كذلك ؛ حتى مات يعقوب عليه السلام (إسرائيل) . . فتضاعف تشديد يوسف عليه السلام على إخوته وازدادت رقابته ، وفى يده القوتان : القوة المادية ، فهو عزيز مصر وكبير وزرائها ، والقوة الدينية ؛ لأنه هو رسول الله ، الذى يؤدى رسالته ، ويدعو إليها . . كما قال رب العزة ؛ حكاية لقول الرجل المؤمن من آل فرعون ، ولبنى إسرائيل جميعًا ، مدافعاً عن موسى عليه السلام لما أرادوا قتله .

«وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ : لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً ..»
(سورة غافر ٤٠/ ٣٤) .

وما أن مات يوسف عليه السلام ، حتى تفجرت ينابيع الشر والفسوق والآثام ، من هؤلاء البنى إسرائيل ؛ براكين الإجرام . . وقد توالدوا بَغْياً

وفساداً ، كما تكاثروا أولاداً وأحفاداً . . فتنبه إليهم المصريون وحكامهم ، وأخذوا يعالجونهم ، ويحاولون التخفيف من شرورهم ، ولكنهم تمادوا فى غيهم ، ولم يفلح أحد فى كبح مخازيهم ، ولا الحدّ من انتشار فسادهم وإفسادهم ، حتى اضطر عنوان الفساد والعناد ، وهو فرعون المتأله ذو الأوتاد . . إلى أن يُبيدهم ، ويطهر الأرض منهم ، وانتهى به الحال إلى أن يُقتل كل مولودٍ من ذكورهم ، وأن تبقى على هونٍ وذلةٍ وصغارٍ كلُّ أنثى من نسائهم .

يقول رب العزة فى سورة إبراهيم ١٤/٦ :

« وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ العَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ » .

وفى سورة القصص ٢٨/٣ — ٤ :

« نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فى الأرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ » .

ولادة موسى وتربيته :

لقد كان فى مصر رجل طيب من بنى إسرائيل اسمه « عمران بن قاهت » (قهات) بن لاوى بن يعقوب عليه السلام ، رزقه الله بنتا اسمها مريم ، وهى غير البتول أم عيسى عليه السلام ، كما رزقه الله بولد اسمه « هرون » ، قبل الأمر الفرعونى بتذبيح الذكور منهم .

ولما صدر هـذا الأمر الشنيع ، صدر معه الأمر أيضا بطريقة التنفيذ ؛ وهو أن تخصص قابلات يقمن بإجراء عمليات الولادة لنساء بنى إسرائيل فقط ، وينفذن الأمر . . ومعهن الضبطية ، والقوة . .

وفى هذا الوقت وضعت امرأة عمران هذى ولداً ذكراً هو موسى عليه السلام ، الذى ذكَّره ربه بمنته عليه وقت ولادته بقوله له :

« .. وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » .

(سورة طه ٢٠ / ٣٩) .

وبفعل هـذه المحبة لم تستطع القابلة أن تمسه بسوء . . وتركته معرِّضة حياتها للضياع من أجله . . ولـكن أمـه أخذ يدب الخوف إلى قلبها عليـه ، فأوحى إليها الله سبحانه : لا يصح أن ترضعى موسى لبن الخوف ، وفى هـذا إشارة قوية إلى أن لبن الخوف مضرّ جداً ، بل هو أشد ضرراً من لبن الحزن ؛ وليتنبه الأطباء . . .

بل إنه أسوأ عاقبة من الإلقاء فى الماء ؛ لأن الله سبحانه أوحى إلى أم موسى : أن تصنع له تابوتا وتضعه فيه ثم تلقيه فى البحر ؛ إذا خافت عليه والله يتولاه . . . وتم هذا ، والتقط آل فرعون التابوت ، ووجـدوا به طفلاً ، وثار فرعون ، وأمر بقتله ، فاحتضنته امرأة فرعون ، التى ضرب الله بها المثل للمؤمنين فى قوله سبحانه :

« وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا : امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِى عِندَكَ بَيْتاً فِى الجَنَّةِ ، وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ » . (سورة التحريم ٦٦/ ١١) .

وظهر مرة أخرى مفعول : « وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى » .

بقى موسى فى بيت فرعون ، ولكن الله حرّم عليه المراضع ، وقد كانت كل مرضعة تحاول أن تنال الشرف الأكبر ، بأن ترضع فى بيت فرعون . . . فى حين أن موسى لم يقبل ثدى أية واحدة منهن . . .

وأم موسى تفكر فى ابنها ، وكاد يبدى لسانها ، ويفصح بو ليدها ؛ بعد أن فرغ فؤادها ، لولا أن الله ربط على قلبها . . .

ولكنها دفعت أخته مريم لتتسمع أخباره : لعل ، وعسى . وسارت مريم إلى القصر ، وأفواج المراضع تنهمر ، والقوم فى قلق مستمر . . . فدخلت ؛ والأبواب مفتحة المصارع للمراضع . . . فقالت لهم : إنى أعرف أهل بيتٍ يكفُلُون لكم الطفل حتى يتم فطامه ، وكأنها قالت : لأن هذا البيت لا يسعى إلى بيت فرعون ، بل لا بد من أن يسعى إليه بيت فرعون . . .

وهنا ظهر مرة ثالثة أثر : « وألقَيتُ عَليكَ محبَّةً مِّنى » .

وتحقق وعد الله لأم موسى : « إنَّا رادُّوهُ إليكِ » .

وتدخل هامان مرة أخرى ؛ لمحاولة قتل الطفل وإثبات أنه إسرائيلى ، فقال : ومن أين جاء اللبن لهذه الإسرائيلية ؟ لا بد من أن يكون هذا الوليد هو ابنها ، وهى التى ألقته فى البحر ، وكان المخرج : أن هذا اللبن لبن هٰرون ، وكانت ولادته قبل الأمر بتذبيح الولائد من الذكور . . وهو قريب عهد بالفطام لأنه صغير . . .

وهنا ظهر مرة رابعة أثر : « وألقَيتُ عَليكَ محبَّة منى » .

وتمت تربية موسى الأولى وكفالته ، فى بيت أبيه وأمه ، حتى إذا تم فطامه رجع إلى حضن امرأة فرعون ، وبيت فرعون . . . حتى بلغ أشده واستوى :

يقول رب العزة فى سورة القصص ٢٨/ ٧ — ١٣ :

« وَأَوْحَيْنا إلى أمِّ مُوسَى أنْ أرضِعِيهِ ، فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فأَلقِيهِ فِي الْيمِّ ، وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي : إنَّا رَادُّوهُ إلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرسلينَ *

فالتَقَطَهُ آلُ فِرْعونَ لِيكُونَ لَهُم عَدُوًّا وحَزَنًا إن فِرْعونَ وهَامانَ وجُنُودَهُمَا كَانُوا خاطِئِينَ *

وقَالَتِ امْرأةُ فِرْعونَ : قُرَّةُ عَينٍ لِي ولَكَ : لا تَقتُلوهُ عَسَى أنْ يَنفَعَنا أوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ، وهُمْ لاَ يَشعُرُونَ *

وأصبحَ فُؤَادُ أمِّ مُوسَى فَارِغاً إنْ كَادَتْ لتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أن رَّبطْنا عَلَى قَلبِها ، لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ *

وقَالَتْ لأُختِه : قُصِّيه ، فَبصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ *

وَحَرَّمْنا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ، فَقَالَتْ : هَلْ أدُلُّكُمْ عَلَى أهْلِ بَيتٍ يَكفُلُونَهُ لَكُمْ وهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ *

فَرَدَدْناهُ إلى أمِّه ، كَيْ تَقرَّ عَينُها وَلاَ تَحْزَنَ ، ولتَعلَمَ أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ ولكنَّ أكْثَرَهم لاَ يَعلمونَ » .

وقال سبحانه لموسى في سورة طه ٢٠ / ٣٧ — ٣٩ :

« وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخرَى * إذْ أوْحَيْنا إلَى أُمِّكَ ما يُوحى * أن اقْذِفيهِ فِي التَّابُوتِ ، فَاقْذِفيهِ فِي اليمِّ ، فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بِالسَّاحِلِ : يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وعَدُوٌّ لَّهُ ، وأَلقَيتُ عَليكَ مَحبَّةً مِنِّي ولِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي » .

خروج موسى من مصر أول مرة :

نشأ موسى وترعرع فى بيت فرعون ، فرعون مصر . . .

كما نشأ وترعرع من قبل ذلك يوسف فى بيت العزيز ، عزيز مصر . . .

ولعل حياة الترف البالغ لم ترق فى عين موسى ، خصوصاً بما يصاحبها من القيود الرسمية والفرعونية ، التى كانت تحيط بموسى كولى للعهد أو كابن لفرعون . . .

فكان يحاول أن يفلت من الشكليات ، ويخرج خفيةً متحرراً من قيود الرسميات ، وأبهة السلطان والحراس والاستعدادات .

ولعل قصر فرعون كان على مشارف المدينة ، وفى ذات مرة : دخل موسى المدينة متخفيا وحده ، فلم يعرفه أحد ، فوجد شجاراً بين رجلين يقتتلان ؛ أحدهما إسرائيلى والثانى فرعونى ، فاستغاث به الإسرائيلى وهو لا يعرفه طبعاً ؛ فتدخل موسى لفض النزاع ، ورأى من قوة الفرعونى وتغلبه ما يحتم عليه أن يستعمل شيئا من القوة ، فدفعه موسى بكل كفه ، فمات لوقته . . . فندم موسى واستغفر ربه . . .

وفى اليوم التالى خرج متخفيا أيضا ليتعرف الأخبار ، فإذا بإسرائيلى الأمس يشتبك ويقتتل مرة أخرى فى هذا اليوم ، مع فرعونى آخر ، وإذا به فى هذه المرة يستنجد بشدة ، ويستصرخ موسى بقوة ، فنهره موسى ، لأنه وجد أن الإسرائيلى : هو مصدر الشغب والشر دائما ، ثم تقدم نحوهما يريد أن يخلصه ؛ وفكر فى أن يبطش بالفرعونى حتى ينتهى النزاع بينهما ، فإذا بطبيعة الإسرائيلى الجبانة الخائنة ، تجعله يرتعد ويظن أن موسى يريده بسوء ؛ فصرخ بأعلى صوته :

« أتريدُ أنْ تقتلَنى كما قتلتَ نفسًا بالأمسِ » ؟ . . . ويَنهال على موسى يشتمه بأعلى صوته ، حتى سمع القوم جميعا ، وعلموا أن موسى هو الذى قتل قتيل الأمس ، وكانوا يبحثون عنه ، فلما علموا أنه موسى : تآمروا على قتله ودبروا له ، فأسرع إليه رجل يخبره ، وينصح له بالخروج من المدينة ، فخرج وهو لا يدرى إلى أين يذهب ، ولكن خروجه كان فى اتجاه مدين ...

يقول رب العزة فى سورة القصص أيضا ٢٨/١٥ — ٢٢ :

« وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ ، فَاسْتَغَاثَهُ الذِى مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِى مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ، قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ *

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ، فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ *

قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ *

فَأَصْبَحَ فى المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ، فَإِذَا الذِى اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ، قَالَ لَهُ مُوسَى : إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ *

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالذِى هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى : أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ ؟ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ المُصْلِحِينَ ؟ ! *

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ، فَاخْرُجْ : إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ *

فَخَرَجَ منها خَائِفاً يترَقَّبُ ، قالَ : ربِّ نجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ * ولمَّا تَوجَّه تِلقاءَ مدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ».

موسى فى أرض مدين :

توجه موسى عليه السلام تلقاء « مَدْيَن » — وهى بين الحجاز وفلسطين — ولما وصل إلى الماء الذى يستسقى منه أهل مدين ، وأراد أن يستريح ، أو يشرب وجد أن الرعاة يتوافدون جماعاتٍ كثيرة : يسقون دوابّهم، والأسبقية للأقوى ووجد امرأتين تَذُودان غنمهما عن الماء، والغنم تندفع نحو الماء لتشرب ،والناس يتزاحمون . . فسأل موسى المرأتين ، فأجابتاه : أبونا شيخ كبير ، وإنا ضعيفتان ولا نستطيع أن نهجم على الماء ، كما يهجم هؤلاء ، فأشفق موسى ، وسقى لهما سريعاً ، ولعله شرب هو أيضاً ، ثم ارتاح تحت ظل شجرة قائلا : « ربِّ إنِّى لما أنزلتَ إلىَّ من خير فقير » .

ورجعت المرأتان إلى أبيهما بسرعة على غير عادتهما ، فسألهما ، فأجابتاه بما قد حصل . . وكأن الرجل الشيخ الكبير كان يبحث عمَّن يستأجره ، ليرعى له ويسقى ، بدل البنتين ، وكأنه لم يكن فى أهل مدين إذ ذاك رجل قوى أمين على المال ، وعلى العرض ، وكأن . . وكأن . .

على كل حال أرسل الشيخ الكبير إحدى ابنتيه لموسى تحضره إلى أبيها ؛ ليشكره ، وليجزيه أجره ، على ما عمل . . . وجاء موسى معها إلى أبيها . . وتحدثا ، وشكر الشيخ له ، وقص موسى قصته وكيف أنه خرج خائفا يترقب . . . فطمأنه الرجل الشيخ الكبير، وانتهزها فرصة : مبالغة منه فى الإكرام : من ناحية وفى اطمئنان موسى من ناحية أخرى . .

وقالت إحدى البنتين يا أبت إنك تبحث عن رجل قوى أمين على المال والعرض لتستأجره، وهذا هو القوى الأمين فاستأجره . . . فقال الرجل لموسى : إنى أعرض عليك أن تتزوج إحدى هاتين البنتين ، وقد رأيتهما ؛ فاختر والصداق أن تأجرنى ثمانى سنين أو عشراً كما تحب . . وأجاب موسى وتم الزواج ، وبقى معهم إلى أى الأجلين . . .

قال تعالى فى سورة القصص أيضا ٢٨/ ٢٣ — ٢٨ :

« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ : مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا : لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ *

فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ *

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ، قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ *

قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ : إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ *

قَالَ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ *

قَال ذَلِكَ بَينِي وبَينَكَ أَيَّمَا الأجَلَينِ قَضَيتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيّ وَاللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ » .

صهر موسى ليس شعيبا عليه السلام :

أما أولاً — فلأن الله سبحانه يذكر فى سورة الأعراف — ورقمها فى المصحف ٧ — عدداً من المرسلين ، بدأهم بنوح عليه السلام ابتداء من الآية ٥٩ واستمر ذكر المرسلين بالتوالى إلى الآية ٨٥ حيث ذكر الله رسالة شعيب إلى قومه « مدين » . وتم ذكر شعيب بالآية ٩٣ ثم . . .

« لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إلى قَوْمِه . . . » الآية (٥٩) .

« وإلى عادٍ أَخَاهُمْ هُوداً . . . » الآية (٦٥) .

« وَإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحًا . . . » « (٧٣) .

« وَلُوطًا إذْ قالَ لِقَومِه . . . » « (٨٠) .

« وإلى مَدين أخاهُمْ شُعَيبًا . . . » « (٨٥) ... إلى أن قال :

« الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيبًا كَأَن لَمْ يَغنَوْا فيهَا ، الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيبًا كانُوا هُم الخَاسِرين » (٩٢) .

فَتَوَلَّى عَنهُمْ ، وقالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّى ونَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ آسَى على قَومٍ كَافِرِينَ » (٩٣) .

وبعد عشر آيات كاملة .. نصها كالآتى ؛ وفى قراءتها وحدها ما يؤكد البعد البعيد بين موسى وشعيب عليهما السلام ، حيث يقول رب العزة :

« وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ *

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ *

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *

أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ *

أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ *

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ *

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ *

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا ، وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ، كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ *

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ » .

ثم يقول الله سبحانه وتعالى :

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ . . . » .

وكل هذه الآيات العشر ٩٤-١٠٣ من سورة الأعراف ٧ .. بعد أن تولى شعيبٌ عليه السلام عن أهل مَدْيَنَ ، بل عن مدين نفسها ، وتركها بزمان طويل ..

وأما ثانيا — فلأن سيدنا شعيباً عليه السلام : ترك مَدْيَن قبل أن يكون

شيخا كبيراً ، لما عاقب الله المكذبين له فى مدين ، وذهب شعيب عليه السلام إلى أصحاب الأيكة . . .

ولما كان شعيب من مدين وهم قومه . . . كان التعبير :

« وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شعيباً ، قال ياقوم ... » . (سورة الأعراف ٧/٨٥) .

لكنه لما لم يكن من أهل الأيكة ولا من قومهم ، قال الله فى سورة الشعراء ٢٦/١٧٦ — ١٧٨ عقب الحديث عن لوط وقومه كذلك :

« كَذَّبَ أَصْحابُ الْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إنى لكم رسول أمين » . ولم يذكر أنه : أخوهم ، ولا هم قومه . . .

وأما ثالثًا — فقد كان لرسالة سيدنا شعيب مكانان : مدين التى بدأ بها ، والأيكة التى انتقل إليها قبل أن يكون شيخًا كبيرا . . .

والأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر إلى الجنوب كثيراً من مدين ، وقد عاقب الله أهل مدين « بالرَّجفَة » ، والصيحة ، « فأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » .

ونجَّى الله شُعَيبًا والذين آمَنُوا مَعَهُ ، كما فى سورة الأعراف ٧/٨٥ — ٩٣ .

وكما فى سورة العنكبوت ٢٩/٣٦ — ٣٧ حيث قال سبحانه :

« وإلى مَدْيَنَ أخاهُمْ شُعيبًا ، فقال ياقومِ اعبدُوا اللهَ وارْجُوا اليوم الآخرَ ولا تَعْثَوْا فى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتهُمُ الرَّجْفَة ، فَأَصْبَحُوا فى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ » .

وكما فى سورة هود ١١/٩٤ :

« ولَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا والذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا فى دِيارِهِمْ جَاثِمِينَ » .

أما أصحاب الأيكة فقد كانوا من الصابئة ، فلما دعاهم شعيب عليه السلام، بعد أن انتقل إليهم من مدين ؛ كما ورد فى سورة الشعراء ٢٦/١٨٥ — ١٩٠ :

« قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وإن نَظُنُّكَ لمن الكاذبين *...

فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إنَّ فى ذلِكَ لَآيَةً وما كانَ أَكْثَرُهُمْ مؤمنينَ » .

وأما رابعا — فلأن شعيبا كان قريبا جداً من لوط عليهما السلام ، والحديث عن شعيب فى القرآن كله ، يكون دائماً عقب الحديث عن لوط عليهما السلام . وكان لوط فى زمن إبراهيم عليهما السلام ،

أما موسى فقد كان بعيداً عنهم بزمان يقدَّر على الأقل بأربعة قرون . .

ثم ؛ يقول سيدنا شعيب نفسه لقومه « مدين » فى سورة هود ١١/٨٩ :

« وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ ، أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ؛ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ » .

وأما خامسًا — فقد أورد شيخ المفسرين الطبرى ، ضمن ما أورد من الروايات: ثلاث روايات ، كلها تنتهى إلى ابن عباس رضى الله عنهما ، وتؤكد: أن الذى صاهر موسى عليه السلام واستأجره هو « يثرى » أو « يثرون » ولم يرد فى هذه الروايات اسم « شعيب » عليه السلام .

ولعل الذى حمل الكثير جدا من المفسرين على القول بأن الذى صاهر سيدنا موسى هو شعيب عليهما السلام ، ما رواه الطبرى بسنده إلى «قرة بن خالد» قال سمعت الحسن البصرى يقول : « يقولون : شعيب صاحب موسى ، ولكنه سيد أهل الماء يومئذ » .

مع أن هذا القول من الحسن البصرى ، فى نظرى : يؤكد أن شعيباً ليس صاحب موسى عليهما السلام ، ويستدل الحسن البصرى على ذلك بقوله : « ولكنه : أى (شعيب) : سيد أهل الماء يومئذ » ، فكأنه يقول : وحينئذ فكيف يسقى الرعاة قبله ، أو كيف ينتظر ابنتا سيد الماء حتى يصدر الرعاء ، بل وكيف يرسل سيد الماء ابنتيه تستقيان شاءه أو إبله ؟ ! وهو بذلك يرد على القائلين بأنه شعيب . .

وأما سادسا : فلأن قوم شعيب أنفسهم يقولون له فى الرد عليه :

« ولولا رهطك لرجمناك » .

فكيف يكون لشعيب رهط ، ويرسل ابنتيه للتزاحم على الماء ؟ وأين الرهط إذاً ؟ ! ! ثم كيف يبحث عمن يستأجره فلا يجد ؛ حتى يجىء إليه موسى ؟ القوى ، الأمين .

وأما سابعاً : فلأن القرآن لم يتحدث بكلمة واحدة ، عن هذا الرجل الشيخ الكبير طوال مقام موسى عنده : عشر سنين كاملة ، ولم يدعُ شعيب موسى إلى الله ، ولم يبلغه الرسالة ، وهو خطيب الأنبياء فى تبليغ الرسالة ...

مع أن الرسول ، أى رسول لا بد من أن يبلغ رسالة ربه دائما ، بل ينتهز الفرصة دائما للتبليغ ، وهذا سيدنا يوسف حتى وهو فى السجن ، وصاحبا السجن يستفسران منه عن تأويل رؤياهما ، ينتهز الفرصة ويبلغ (سورة يوسف ١٢/٣٩) :

« ياصاحِبَىِ السجنِ أأرْبابٌ متفرِّقُونَ خيرٌ أم اللهُ الوَاحِدُ القهارُ » ؟ ! ! . .

رجوع موسى بأهله ، وكيفية تلقيه الرسالة :

يقول رب العزة سبحانه :

« فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ، قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُم

منها بخبرٍ ، أو جذوةٍ من النارِ لعلكم تصطلون » .

(سورة القصص ٢٨/٢٩) .

والقرآن صريح جدا ، وواضح جدًا فى أنّ موسى ، فقد أكمل الأجل الذى كان قد اتفق عليه مع الشيخ الكبير ، صداقًا لابنته التى تزوجها . . . وأنه لما انقضى الأجل ، ولعله الأكمل « عشر حجج » ؛ سار موسى بأهله . . راجعًا إلى مصر ، ولأن الطريق كان موحشًا ، وليس فيه أحدٌ على ما يبدو ، وليس معهم نار ، أو ماتشتعل به النار على ما يظهر ... جلس موسى وأهله ، وهم طبعا : زوجه وأولاده : ينتظرون الفرج ، أو يرقبون الطريق : التماسًا لأى شىء يدلهم على الطريق من ناحية ، ويستدفئون من برد الصحراء من ناحية أخرى . . . لأن موسى قال لأهله امكثوا ، وسارع هو إلى نار رآها من بعيد ، ليأتى منها : بقبس يشعل به نارا ، أو قطعة من النار يصطلون بها ويستدفئون ، أو يجد على النار هُدى ، أو خبراً ...

لقد ذهب موسى إلى مكان النار سريعا ولم يعرفه ، فعرّفه ربه أنه « بالوادِ المقدّس طُوىً » ، وأنه بجانب الغربى ، وسمع نداءً من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة ...

سمع موسى بدء الرسالة له من هذا المكان ، وفى هذه البقعة :

سمع « ... يا مُوسَى * إنّى أنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوَى *

وَأنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إنَّنِي أنَا اللهُ لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا فَاعْبُدْنِي وَأقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي » . (سورة طه ٢٠/١١ — ١٤) .

سمع « ... أنْ بُورِكَ مَن فى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ * يَا مُوسَى إنَّهُ أنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ » .

(سورة النمل ٢٧ / ٨ و ٩) .

سمع « ... أن يَا مُوسَى إنِّى أنَا اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ » .

(سورة القصص ٢٨/٣٠) .

ثم سمع : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * ؟ قَالَ هِيَ عَصَايَ أتوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأهُشُّ بِهَا عَلى غَنَمِي ، وَلِيَ فِيهَا مآرِبُ أُخْرَى * قَالَ : ألقِهَا يَا مُوسَى * فَألقَاهَا فَإذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى * قَالَ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولَى * واضْمُمْ يَدَكَ إلى جَنَاحِكَ تَخرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى » .

(سورة طه ٢٠ / ١٧ — ٢٢) .

وسمع : « وَألْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً ولم يُعقِّبْ . يَا مُوسَى لاَ تَخَفْ إنِّى لاَ يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ *

إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ، فَإنِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ *

وأدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخرجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيرِ سُوءٍ فى تِسْعِ آيَاتٍ إلى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ... » (سورة النمل ٢٧ / ١٠ — ١٢) .

وسمع : « وَأن ألْقِ عَصَاكَ ، فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعقِّبْ : يَا مُوسَى أقْبِلْ وَلاَ تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخرُجْ بَيْضَاءَ مِن غَيرِ سُوءٍ واضْمُمْ إلَيْكَ جَنَاحَكَ

مِنَ الرَّهبِ . فذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إلى فِرْعَوْنَ وَمَلإِيهِ ... » .
(سورة القصص ٢٨ / ٣١ و ٣٢) .

مقارنة بين محمد وموسى عليهما السلام فى كيفية تلقى الرسالة :

١ — سار موسى بأهله ،ومعه عصاه؛ وسار محمد عن أهله،متجردًا إلى الله .

٢ — آنس موسى ناراً ، واستأنس محمد بالنور .

٣ — كان موسى تائها فى الصحراء ، وكان محمد مستقراً فى غار حراء .

٤ — سار موسى إلى النار يلتمس قبسًا أو هدى ، وأسرع إلى محمد الهدى كلُّ الهدى.

٥ — أراد موسى أن يرجع إلى أهله بالخبر أو الشهاب ، وأراد محمد أن يَهدىَ الدنيا بالتوحيد والكتاب .

٦ — قيل لموسى : اخلع نعليك وتجرد ، وأما محمد فقد كان قد خلع كل الأغيار وتفرّد .

٧ — لم يعرف موسى مكانه ، فقيل له : إنك بالوادى المقدس طوى ؛ وأما محمد فقد استقر فى مكانه ، وعرف أنه فى حِرَاء .

٨ — قيل لموسى : وأنا اخترتك ، وأما محمد فهو المختار .

٩ — قيل لموسى : « إنى أنا الله رب العالمين » ،
وقيل لمحمد : « اقرأ باسم ربك » .

١٠ — قيل لموسى : استمع لما يوحى ، وقيل لمحمد : اقرأ .
وفوق مجرد الاستماع : الاستماع والإنصات : « وإذا قُرِئَ القُرْآن فاستَمِعُوا لهُ وأنصِتُوا » . . .

وفوق ذلك : الاستماع والاتباع :

«الذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ أُولَئِكَ الذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ، وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الألبابِ » . (سورة الزمر ٣٩/١٨) .

وفوق ذلك : السمع والطاعة : « وقَالُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا » .

وفوق ذلك : الفهم والهضم والوعى لما يسمع .

وفوق ذلك : الحفظ والتبليغ .

وفوق الكل . . . الأمر التكوينى بالقراءة .

فلئن كان موسى عليه السلام على مشارف البداية ، فقد كان محمد صلى الله عليه وسلم فى كمال النهاية .

ثم إن المعجزة لموسى عليه السلام : وهى العَصَا ، وإدخال اليد فى الجيب — وهما غير الرسالة — معجزة مادية مؤقتة .

أما معجزة محمد صلى الله عليه وسلم؛ فهى نفس الرسالة: « القرآن » ؛ وهى روحية عامة وخالدة.

وموسى قد خاف مِن العصا وولّى مدبراً ولم يُعقب ، أما محمد فقد اطمأن وناقش وامتلأ ... ولئن قال زملونى أو دثرونى ، فإنما كان ذلك من وطأة الأمانة العامة ، والمسئولية العظمى الشاملة لجميع العالمين ومن ثقل القول :

« إنَّا سَنُلْقِى عليكَ قَوْلاً ثَقِيلا . . . » .

وموسى قد درّبه رب العزة على استعمال المعجزة ، أما محمد فقد كوّن الله له قراءة المعجزة . . . فقال له :

« اقْرَأ وَرَبُّكَ الأكْرَم » ...

ثم إن عصا موسى لما ألقاها « فإذَا حَيَّةٌ تَسْعَى » لم يكن رآها على أنها

حية ، بل « رآها تهتز كأنها جانٌّ » ، أما محمد فقد رأى القرآن قرآنا ، وقرأ القرآن قرآنا .

وآيات موسى العصا واليد ، ويمكن أن تُعدّ أو تنفد ، أما آيات محمد فهى آيات القرآن والأكوان ؛ وهى لا تحصى ، ولا تحد ، ولا تنفد .

آيات الله لموسى وموقف موسى منها :

درّبَ رب العزة موسى على العصا ، واليد .

وقال فى سورة القصص له : « فَذَانِكَ بُرْهانان مِنْ رَبِّكَ » ، فالعصا برهان ، واليد برهان ، ولكنه سبحانه قال عنهما فى سورة النمل ٢٧/١٢ :

« فِى تِسْعِ آيات إلى فِرْعَون وَقَومه » .

وفى سورة «طه» قال عن اليد: «تَخْرُجْ بيضاء مِنْ غَيْرِ سُوء آيَةً أُخْرَى».

وبما أن مجموع العصا واليد تسع آيات ، واليد هى الآية الأخرى ؛ فيكون فى العصا وحدها ثمانُ آيات . .

ويؤكد هذا سحرة فرعون، وهم أعلم الدنيا بالسحر الخارق، وبالفرق بين مقدور الخلق منه وآيات الخالق . . قالوا لفرعون لما هددهم بالعقاب الشديد لما أسلموا : «قالوا: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون» ،ولم يروا إلاّ عصا موسى فقط تلقف ما يأفكون ، وتبتلع حبالهم وعصيهم ، وتعود كما كانت . . . قالوا لفرعون : « وما تنقِم مِنّا إلاّ أنْ آمنّا بِآياتِ رَبِّنا لمّا جاءتنا ؟ » .

وآيات ربهم إنما جاءتهم فى العصا فقط ، ففى العصا مجموع آيات . العين الحقيقية المبصرة فيها وهى حية: آية ، والأذن الحقيقية السامعة فيها وهى حية : آية ثانية ، والأسنان تأكل ، واللعاب يذيب ، والفم يزدرد ، والزور يبتلع بمعاونة اللسان . . والمعدة تهضم . . . وكل واحدة من هذه يمكن أن تكون آية . .

وقد يكون غيرها أقوى منها وأدخل فى باب الآية . . ولكن المهم أن مجموع العصا واليد : تسع آيات ، واليد وحدها آية ، ففى العصا بقية الآيات...

أما الدم ، والجراد ، والقمل .. . فلم تكن هى آيات موسى إلى فرعون ؛ وإنما كانت آيات العقاب للقوم . . .

بقى أن موسى رد على رب العزة لما سأله :

« وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى » . (سورة طه ٢٠/١٧-١٨) .

قالوا : إن فى هذا الجواب إطناب ، وإن موسى تلذذ بالخطاب ، وكان يكفى أن يقول : هى عصا فقط فى الجواب . . .

قلت : لا . . لا يصح أن نخضع القرآن للمقاييس والقواعد ، بل لا بد من أن نستمد منه المقاييس والقواعد، لأنه لو قال موسى « هى عصا » لم يتم الجواب بل لم يكن هناك جواب مطلقا ، لأن موسى يعلم أن الله يعلم أنها عصا ، فليس السؤال عن اسمها ، ولهذا فهم موسى : أن الله يسأله عن مصدر هذه العصا ، وهل هى ملكٌ له ، أو أن أحداً من الخلق أعطاها له ؟

ثم ويسأله سبحانه كذلك عما يعرف من خصائص العصا وفوائدها له ؛ فكان جواب موسى عليه السلام : أن هذه العصا هى مِلْكٌ له وحده ، لم يعطها له أحد « قال : هى عصايَ » ،

ثم بين خصائصها ، فذكر موسى مايعرفه منها ، قال : « أتوكأُ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى . . . » .

فلفته الله إلى خصائص أخرى لم يعرفها موسى من قبل ، كالتى تحصل منها بعد انقلابها إلى حية ، ثم وكضرب الماء بها فيقف ؛ ويكون فى ذلك الطريق المنجى من الفناء ، ثم وكضرب الحجر بها فينفجر منه الماء . . .

وهكذا يجب أن يتفهم العلماء ، فلا يصح أن نخضع القرآن لمقاييس البلغاء ، بل يجب أن يستمد منه كل العلماء والأدباء .

والله سبحانه وتعالى وحده هو الفعال لما يشاء .

إرسال موسى إلى فرعون وهامان وقارون :

يقول رب العزة فى سورة غافر ٤٠/٢٣ — ٢٤ .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ، فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ » .

وفى سورة العنكبوت ٢٩/٣٩ — ٤٠ يقول الله تعالى :

« وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ . . . » .

أما فرعون وهامان فقد جمعا لموسى كل سحّارٍ عليم ، وما أسرع أن آمن السحرة — لما رأوا العصا — بآيات رب العالمين ، ربِّ موسى وهارون ، وثار فرعون وهدد ، وغضب وتوعّد ، فقال له السحرة :

« وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ، وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » . (سورة الأعراف ٧ / ١٢٦).

والموقف بين موسى والسحرة : يحتاج إلى كتاب مستقل . .

وتفصيل ذلك موضح فى القرآن الكريم فى السّور الآتية : فى الأعراف ٧/ ١٠٧ — ١٢٦ ، وفى يونس ١٠ /٧٥ — ٧٦ ، وفى الشعراء ٢٦ / ٢٩ — ٥٢ .

كما أن إرسال الله هارون مع موسى عليهما السلام ، وموقفهما من فرعون

وهامان . . . مفصل فى هـذه السور ، وفى سورة غافر ٤٠/ ٢٤ — ٤٦ ، ثم فى سورة : طه ، الزخرف، والنازعات ، والإسراء ، والنمل ، والقمر ...وغيرها.

والذى أحبّ أن ألفت إليه بقوّة : تلك المناقشة فى الربوبية بين موسى وهارون من ناحية ، وبين فرعون وهامان من ناحية أخرى ، ومن ذلك ما جاء فى سورة طه ٢٠/٤٨ — ٥٥ : قال موسى وهارون لفرعون وهامان ؛ كما قال رب العزة فى القرآن :

« إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ : رَبُّنَا الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَى *

قَالَ فَمَا بَالُ القُرُونِ الأُولَى؟* قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى * الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ ، وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ، وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . . .

ومما جاء فى سورة الشعراء ٢٦/٢٣ — ٢٨ :

« قَالَ فِرْعَوْنُ : وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ *

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ *

قَالَ رَبُّكُم وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ *

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ *

قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ » .

وهذان النصان يحتاجان إلى دراسات مستفيضة ، تتبين منها : قوة الدعوة وتدرجها ، وعمق الحجة وفلسفتها ، والقول اللين الحازم ، والموقف المتين الجازم . . .

طوائف بنى إسرائيل :

يمكن أن نُقسِّم بنى إسرائيل إلى ثلاث طوائف ؛ على النحو التالى :

١ — طائفة منهم الهداة ، وهم رسل الله ؛ مثل يوسف ، وموسى ، وهرون ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، والمسيح عيسى ابن مريم . . . عليهم جميعاً صلوات الله . . . وهؤلاء جميعاً نؤمن بهم ، ولا نفرق بين كل رسل الله وبينهم ، ونتحدث بكل إكبار وإجلال عنهم . . .

٢ — طائفة منهم هم المؤمنون : الذين يؤمنون بكل رسل الله ، وبكل كتب الله ، ولا يُفرِّقونَ ؛ وعلى رأسهم بنيامين والحواريون . . .

٣ — طائفة منهم هم الفاسقون : وهم المنحرفون ، الكافرون ، الملعونون ، المفسدون . . . وهؤلاء هم الذين قال رب العزة فيهم ، إنهم هم الأكثرون ، فى قوله سبحانه:

« . . . وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ المُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الفَاسِقُونَ » . (سورة آل عمران ٣/١١٠) .

قارون من قوم موسى (بنى إسرائيل) :

إن قارون من قوم موسى ، وقد أمده الله بالعلم والمال ، فطغى بالعلم على الله ، وطغى بالمال على قومه ، علم صناعة الذهب ، وتحويل المعادن إليه ، فجمع من الأموال وكنز ، حتى كانت مفاتح خزائنه فى داره ، لا يقوى على حملها العدد الكثير القوى من الرجال ، ولكنه بدل أن يشكر : فجرَ ، وبدل أن يؤمن : كفر ، وأفسد الدنيا ، ونسى الآخرة : عبدَ الذهب ، وقدس التكديس ، وباع واشترى : المتاع ، والناس ، والضمائر .

نصحه بعض قومه فى أناة : أن المال ليس من عند نفسه وإنما هو مال الله : آتاه الله أياه ، فيجب ألا تنسى به عباد الله ، كما نصحوه فى رفق وعمق : أن الدنيا فانية زائلة ، وأن الحساب الحق والجزاء الحق والنعيم الحق فى الآخرة . . . ثم لفتوه بقوة ، إلى أن الله رب العزة ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يغفل ، وأنه مهما أمهل لا يهمل ، وأنه سبحانه لا يحب المفسدين ، ولا يترك المتجبرين المنكرين المنحرفين . . .

ولكن قارون :أخذته العزة بالإثم ، واعتمد على ما عنده من علم ، وتهكم بالناصحين له والذين آتاهم الله العلم ، وقال إنه جمع هذه الأموال ، ويستطيع جمعها وأكثر بما عنده من علم ، وظن لخيبة أمله أن له أنصاراً وأعواناً من دون الله ؛ وأنه بعلمه يسترد ما يأخذه الله . .

نصحه المؤمنون من قومه فأعرض عنهم ، وطغى عليهم ، وانقسم قومه من حوله إلى فريقين : فريق هم الذين يريدون الحياة الدنيا وقد تمنوا مثله ؛ وفريق هم الذين آتاهم الله العلم الحقيقى والإيمان ، وقد اتجهوا وتوجّهوا إلى الآخرة ، ولكنه تمادى علواً وفساداً فى الأرض ، فخسف الله به وبداره

وكنوزه الأرض . . ولنقرأ من سورة القصص ٢٨ / ٧٦ — ٨٢ وما أروع قصص القرآن وأحكمه ؟ . . .

« إنَّ قَارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ، وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ ما إنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوء بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ إذْ قَال لَهُ قَوْمُهُ : لَا تَفْرَحْ : إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِينَ * وابْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ *

قَالَ : إنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي ! ، أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ! ؟ ولا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ *

فَخَرجَ عَلى قَوْمِهِ فِى زِينَتِهِ ، قَال الذِينَ يُرِيدُونَ الحياةَ الدُّنْيا : يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وقال الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ : وَيْلَكُمْ : ثَوابُ اللهِ خَيرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، وَلا يُلَقَّاها إلاَّ الصَّابِرُونَ *

فَخَسَفْنا بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ ، فَمَا كان لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَما كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ *

وأَصْبَحَ الذِين تَمَنَّوْا مكانهُ بالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ وَيَقْدِرُ ، لَوْلا أن مَنَّ اللهُ عَلينا لَخَسَفَ بِنَا ، وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكافِرُونَ » .

إيذاء بنى إسرائيل لموسى وهارون :

لقد تكرر إيذاء بنى إسرائيل لموسى ، رسول الله إليهم ، وتنوع واشتد ، من لحظة أن جاوز بهم البحر :

قال تعالى: « وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ، قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » . (سورة الأعراف ٧/١٣٨) .

وبعد أن عنفوا موسى وهددوه ، وسخروا منه وهو يدعوهم إلى الله :

« قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا . . » . (سورة الأعراف ٧/١٢٩) .

ولما أن ذهب موسى إلى ميقات ربه ، يتعبد ويتقرب ؛ كما واعده الله أربعين ليلة ليتلقى الألواح كالتوراة : كما قال رب العزة سبحانه فى سورة الأعراف :

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ : اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ، وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * » .

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ . . . »

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ؟ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ، وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ، قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي ، فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ، وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

والذى صنع لهم العجل هو « السّامرىّ » : الساحر الفاسق الضال المضل فأضلهم ، ولم يفلح معهم « هارون » ، ثم أخذ موسى يذكرهم بآيات الله ويخوفهم من عقاب الله ، وينذرهم بطشَ الله ، وهم يتمادون فى غيهم وبُعدهم ، وفسوقهم .. حتى تندروا على الله ، وعلى موسى ؛ لما طالبهم بالقتال ، وقالوا له :

« . . . فاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فقاتِلاَ إنَّا هَاهُنَا قاعِدُونَ » .

(سورة المائدة ٥/٢٤) .

ثم توالت آيات الله على يد موسى لهم :

وَرَفَعَ اللهُ الجبلَ مِنْ فَوقِهِمْ لتَهْـديدِهِمْ ؛ وأمرهُمْ بضَربِ ميّتٍ ؛ بِجُزْء مِنْ بَقرَةٍ مَذْبوحةٍ فتَـكلَّم وردَّ عليْهِمْ ، فَازدادوا خِزْياً عَلَى خزيِهِمْ ، وازْدَادَت القسْوَة فى قلوبهمْ . . كما قال رب العزة عنهم :

« فقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ المَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لعلَّـكُمْ تَعْقِـلُونَ * ثمَّ قَسَتْ قـلُوبكمُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كالحِجَارَةِ أوْ أشَدُّ قَسْوَةً . . . » . (سورة البقرة ٢ / ٧٣ — ٧٤) .

حتى لقد اتهموا موسى بقتل هرون مع أنه مات فى التيه . . . جريا على عاداتهم فى اتهام الأبرياء ، بل وقتل الأنبياء .

أقوالهم المنـكرة فى الله عز وجل :

وهم فوق تندرهم السابق على الله ؛ فإنهم قالوا على الله قولا شنيعاً وفظيعاً . قالوا إن الله لا يقدر عليهم لأنه فقير ، وأما هم فبعلمهم ، وما لهم ، وماديّاتهم يفجرون ويقولون أنهم الأقدر ، والأغنى ، قال تعالى وتقدس :

« لقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغْنِيَاء ؛

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ، وَقَتْلَهُمُ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ » . (سورة آل عمران ٣/ ١٨١) .

« وقَالَتْ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلولَةٌ ، غُلَّتْ أيدِيهِمْ ، وَلُعِنوا بما قَالُوا . . » (سورة المائدة ٥/ ٦٤) .

وهكذا كتبَ اللهُ عليهم : الذلة وَالهوان ، واللَّعْن ، وَاستمرَارهم فى إيقاد نار الفتنة وَالحرْبِ . . . وَلكِنَّهُم فقَطْ يُوقِدون ، ثم يُخزيهمْ اللهُ ويُطفئ نارهم ، ويحبِطُ إفسادهم : يقول رب العزة عنهم :

« ... وأَلقَيْنا بَيْنَهم العَداوَةَ والبَغْضَاءَ إلى يَوْمِ القيامة ؛ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً للْحَرْبِ أطفَأَها اللهُ ويَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً واللهُ لاَ يُحِبُّ المُفْسِدِينَ » . (سورة المائدة ٥/٦٤) .

الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى :

والملأ : هم سادتهم وكبراؤهم ؛ الذين يتطلعون إلى الملك فيهم ، والمقياس الوحيد لهم هو المال ؛ لأنهم عبيده ، والشيطان ؛ لأنهم قبيله . . .

هذا الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى ، تجمعوا وبحثوا أمورهم وما وصلوا إليه من تشتيت وتفريق وذلة وهون ، وأرادوا أن تكون لهم مكانة أو مكان به يجتمعون ، وأجمعوا على وسيلة واحدة هى القتال ، ولكن كيف يقاتلون وهم أشتات متوزعون ، وأضغاث متمردون ؟ .. فلم يجدوا حيلة إلا أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم مَلِكا به يقاتلون ، ومن حوله ربما يلتفون ، فقال لهم نبيهم : إنكم جبناء ضعاف النفوس وأخشى أن تجبنوا .. ولو بعثت عليكم ملكا ووجب عليكم القتال : أخشى أن تتخاذلوا ، فيحق عليكم المقت

والهوان ... فثاروا على نبيهم ، وأظهروا الشجاعة وطالبوا بالملك وبالقتال معه .

قال لهم نبيهم أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، وبدل أن يلتفوا من حوله : تمردوا عليه ، وأعرضوا عنه ، وتفرقوا من دونه ، وأخذوا يتندرون عليه لقلة ماله فيهم ، لأنه لا سيد لهم إلاَّ المال ، وهم يخفون وراء هذا التندر جبنهم وخورهم ، وضعفهم النفسى والخلق .

ولكن نبيهم لفتهم : إلى أنّ المُلك والسيادة الصالحة ، والقيادة الرائدة الناجحة ، إنما ترتكز على ركائز ثلاث :

١ — الاتصال بالله القوى الناصر فهو وحده الذى يوفق ويمنح السداد ...

٢ — العلم النافع المبنى على التزكية الخلقية والتطهير النفسى ، ليسير الحكم إلى التعمير ، عن تخطيط بصير ، وحسن توجيه وتدبير .

٣ — البسطة فى الصحة الجسمية ، بعد الصحة الخلقية والعلمية ، لتحمل أعباء المسؤولية ... وأخيراً فقد بين لهم نبيهم أن الله يؤتى الملك من يشاء ، على علمٍ منه سبحانه بما يشاء ... قد لا يصل البشر إليه ، وعلى إرادةٍ منه سبحانه ، قد نضل فى فهمهما وهو سبحانه : الواسع العليم ...

وقد كانت هذه الحوادث الإسرائيلية « وداوود » شاب وكان من قلة القلة ، الذين حاربوا مع طالوت وجنده ، وقاتل جالوت وقتله ، فآتى الله « داوود » الملك والحكمة ثم النبوة والرسالة ... ولنقف خاشعين متدبرين لقول رب العالمين ، فى سورة البقرة الآيات من ٢٤٦ إلى ٢٥٢ :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ، إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ *

وقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهمُ إنَّ اللهَ قَدْ بَعثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكا، قَالُوا أنَّى يَكونُ لهُ المُلكُ عَليْنا ونحْنُ أحقُّ بالمُلْكِ منهُ ولَمْ يُؤتَ سَعةً مِنَ المَالِ؟ قَالَ إنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ علَيْكُمْ وزَادَهُ بَسْطةً فِى العِلمِ والجِسْمِ واللهُ يُؤْتى مُلْكهُ مَنْ يَشَاء واللهُ وَاسِعٌ عَليمٌ »...

داوود وسليمان عليهما السلام :

ولقد حارب داوود، وهو شاب، مع قلة القلة القليلة المؤمنة فى جيش طالوت، ضد المتجبر جالوت :

« ... وقَتلَ دَاوُودُ جَالوتَ، وَآتاهُ اللهُ المُلكَ وَالحِكْمَةَ وَعلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ ... ». (سورة البقرة ٢/٢٥١).

« وَوَرِثَ سُليمانُ دَاوود وقالَ يا أيُّهاالناسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وأُوتينَا مِنْ كُلِّ شَيء إنَّ هذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ ». (سورة النمل ٢٧/١٦).

ولقد ذكر اسم « داوودَ » فى القرآن الكريم ١٦ مرة، واسم سليمان عليهما السلام ١٧ مرة، وتكرراً معا، فى سبع سور من سور القرآن الكريم؛ هى البقرة، والنساء، والأنعام، والأنبياء، والنمل، وسبأ، وص.

وانفرد ذكر داوود عليه السلام فى سورتين هما : المائدة، والإسراء..

وكل من هذين الرسولين الملكين الكريمين : يحتاج إلى مؤلف خاص ولكن الذى يجب أن نشير إليه سريعاً الآن هو :

١ — موقف داوود عليه السلام من بنى إسرائيل، وأنه لعنهم كما لعنهم عيسى ابن مريم عليه السلام؛ لأنهم غلَوا فى دينهم، واتبعوا أهواء الضالين قبلهم، وعصوا رسل ربهم، ونقضوا كل مواثيق الله إليهم، وكرروا

الاعتداءات ، وهم لا يتناهون عن المنكرات ، وأنهم أشد عداوة للمؤمنين من المشركين ، وهم لجبنهم الدائم يتولّونَ الكافرين: يقول عنهم رب العالمين :

« قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وأَضَلُّوا كَثِيراً، وضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيل * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ؛ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ ما قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وفي العَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * ولَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والنَّبِيِّ ومَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ : مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ، ولَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا : اليَهُودَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا . . . » .

(سورة المائدة ٥/٧٧ — ٨٢) .

٢ — دسّ الإسرائيليون على داوود قصة إنجابه سليمان سفاحا وبإجرام مجرم وخطير ، وتوجد هذه الإسرائيليات المدسوسة في كثير من التفاسير لقصة الخصم الذين تسوروا المحراب على داوود . . . وتأويل النعاج الـ ٩٩ بنساء كان داوود قد تزوجهن ثم أراد أن يكمل المائة ، فاحتال بإجرام وتدبير خسيس على التخلص بالقتل لأخلص قائد في جيشه ، لأنه زوج المرأة التي أعجبته . . مما يندى له جبين البشرية . . . مع أن حقيقة هذه القصة مذكورة بوضوح واضح في القرآن الكريم : تؤكد البراءة والطهر لهذا النبي الكريم ، وتؤكد أن النعاج هي النعاج ، وأن الخصم هم الخصم من البشر ، وأن هذا الخصم كان فريقين

من بنى إسرائيل ، وأن كل فريق كان مع شريكٍ من شريكين ؛ تشاركا على غنم واحد له ٩٩ نعجة والثانى له نعجة واحدة فقط ، وأن صاحب الـ ٩٩ أراد أن يجور بالقوة على حصة صاحب الواحد فى المائة ،وأنهما أسرعا إلى داوود يحتكمان إليه، وتسلقوا سور المحراب ، وهو يصلى ويتعبد لله ، وقد حكم داوود عليه السلام بما يُقَعِّد للبشرية جميعاً : أن الشركاء لا يصح أن يبغى واحد منهما على الآخر ؛ ولو كان نصيبه فى الشركة ٩٩ ٪ تسعة وتسعين فى المائة ، كما لا يصح أن يطمع صاحب النصيب الأقل ولو بلغت حصته ١ ٪ ـ واحد فى المائة ـ فى صاحب النصيب الأكبر ، وهذه القاعدة : هى قوله سبحانه فى هذه القصة :

« . . . وإنَّ كَثِيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بعضٍ ؛ إلاَّ الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَلِيلٌ ماهُمْ . . . » .

(سورة ص ٣٨/١٧ — ٣٠) .

والذى أحبّ أن أؤكد عليه الآن : هو أن سليمان كان هبةً من الله لداوود ، تكريماً له لاتصاله بربه ، والهبة من الله مِنَّةٌ ، والمنة لا يصح أن يداخِلها أىّ انحراف أو ريبٍ أو شك ؛ فضلاً عن أنّ داوود نبِيٌّ معصوم . . . ولكنه الخلقُ الإسرائيليّ . . والدس الإسرائيلي . والله سبحانه يقطع ألسنتهم ويقول سبحانه :

« وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سلَيمانَ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّابٌ » .

(سورة ص ٣٨/٣٠) .

٣ — أن داوُد عليه السلام آتاه الله الزبور ، وسخَّر معه الجبال يسبحن والطير ، وأن الله جعله خليفة فى الأرض ، وضرب به المثل فى الصبر على إيذاء بنى إسرائيل له ، ونهشهم فى عرضه . . . حتى لعنهم . . بعد أن سجل الله

عليهم أخزى المخازى والاعتداءات . . .

٤ — أن الله سبحانه أنعم على سليمان وأعطاه ملكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعده ، بعد أن ابتلاه الله وفتنه ومحّصه ، فلا يصح لأحدٍ مطلقاً أن يطمع فى شىء من ملكه ؛

يقول رب العزة : « وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى ، وَهَبْ لِى مُلْكاً لا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِن بَعْدِى أَنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى الأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

(سورة ص ٣٨/ ٣٤ — ٣٩) .

ويقول سبحانه : « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلا : يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ ، وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ ، وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ : مِنْ مَحَارِيبَ ، وَتَمَاثِيلَ ، وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ؛ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ المَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى العَذَابِ المُهِينِ » . (سورة سبأ ٣٤/ ١٠ — ١٤) .

٥ — أن سليمان عليه السلام جدد بناء المسجد الأقصى، أو بعبارة أدق كلف الجن أن يعملوا له محاريب فى المسجد ويزخرفوه : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » . . .

أما المسجد الأقصى نفسه فهو قديم، ولعل أول من وضع قبته، هو: الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ بعد أن رفع القواعد من بيت الله الحرام ، بأربعين من الأعوام ، ليصلى فى المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام ، خصوصا وقد ألحَفَ فى الدعاء إلى الله وهو يرفع القواعد من المسجد الحرام بقوله : « ربِّ اجْعَلنى مُقيمَ الصَّلاةِ ، ومن ذرِّيتى : ربناَ وتقبلْ دُعاءِ » . (سورة إبراهيم ١٤/٤٠) .

وفى البخارى ومسلم :أن أبا ذر رضى الله عنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم : « قال : قلت يا رسول الله أى مسجدٍ وضع أول ؟. قال : المسجد الحرام . قلت: ثم أىّ ؟ . قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة: قلت : ثم أى ؟ . قال . ثم حيث أدركت الصلاة فصلّ فكلها مسجد » وعلى هذا فبين رفع إبراهيم القواعد من المسجد الحرام وبين بنائه للمسجد الأقصى أربعون سنة .. خصوصاً وقد عاش إبراهيم بعد ذلك أيضا بأكثر من عشرين سنة . . .

وربما يؤكد هذا : أن الله سبحانه قد أمر إبراهيم بأن يرفع القواعد من بيت الله الحرام هو وإسماعيل عليهما السلام ؛ فتعلم إبراهيم كيف تُبنى المساجد ؛ ثم لما أتمه قال : « رب اجعلنى مقيم الصلاة » ، وقد ارتحل الخليل إلى الجليل ؛ فكيف يقيم الصلاة ؟! ولا بُدّ من أن يقيم الصلاة ، إذاً لابد من أن يقيم القبة هناك على الصخرة ؛ لتكون مَسجداً له يتجه منه إلى الكعبة ، وصدق الله : « جعلَ اللهُ الكعبةَ البيتَ الحرامَ قياماً للناس. . .».(سورة المائدة ٥/٩٧) .

وقد قال سبحانه كذلك : « وإذْ جعلنا البيتَ مثابةً للناسِ وأمْناً واتخذُوا منْ مقامِ إبراهيم مُصلّى . . » . (سورة البقرة/١٢٥) .

ولعل هذا المسجد قد سُمّيِ بالأقصى ، لأنه فى أقصى وأبعد مكان من بيت الله «المسجد الحرام» أقيم فيه مسجد فى زمان الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ بل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم النبيين ، حيث أسرى الله به سبحانه إليه ؛ « سبْحانَ الذى أسْرىَ بِعَبدِهِ ليلاً مِن المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصا . . » . (صدر سورة الإسراء ١٧) ؛ فهو : «المسجد الأقصى »...

٦ — ومن العجيب الأعجب أن يبدأ هذا المسجد الأقصى بيد إبراهيم وحده وأن تتجدد محاريبه فى زمان سليمان بأيدى شياطينه وجنّـه ، من غير تدخُّلٍ مطلقا فى هذى وتلك لأىٍّ واحد من بنى إسرائيل ؟ . . .

فـكيف يدّعونه ؟ وليس لهم فيه أدنى حقٍّ أو شبهة ؟ ! خصوصا وأنه مسجد ، وهم معترفون بأنه مسجد ، وبنو إسرائيل جميعا لا علاقة لهم بالمساجد ؛ فليبحثوا وليفتشوا إن أرادوا . . عن البيع ، أو الصوامع ، أو الـكنيست . . . كما يدعون ويسمون . . .

أما المساجد فهى المساجد ، وأماكن السجود والصلاة : للمسلمين المؤمنين وهى جميعا لله رب العالمين: « وأنّ المساجدَ لله ، فلاَ تدْعوا معَ الله أحداً » .
(سورة الجن ٧٢/ ١٨) .

٧ — وفوق هذا كله فقد شدّ الله ملك سليمان ، بالطير، والإنس، والجانّ وقال سبحانه : « وَحُشِرَ لِسليمانَ جُنودُهُ مِنَ الجنِ والإنس والطيرِ فهمْ يُوزَعونَ » . (سورة النمل ٢٧/١٧) .

وأن سليمان عليه السلام قد أسلم وأسلمت معه ملـكة سبأ ، لما أرسل لها مع الهدهد كتابه الـكريم ، ونصه كما قال رب العزة :

« إنهُ مِنْ سُليمان، وإنهُ بسم اللهِ الرحْمنِ الرَّحيم*ألاَّ تعلوا على، وأتونى مسلمين» . (سورة النمل ٢٧ / ٣٠ — ٣١) .

ولما أن جاءت ملكة سبأ هذه : « . . . قالتْ ربِّ إنىِّ ظلمتُ نفسِي وأسلمْتُ مع سليمانَ لله ربِّ العالمينَ » . (سورة النمل ٢٧/٤٤) .

وعلى هذا كله فلا حجة ولا شبه حجة لواحد من الصهايين أو اليهود ، فى إدعاء أى شيء مما أعطى الله سبحانه لسليمان أو لداوود ...

خصوصا وقد لعنوا على لسان جميع رسل الله إليهم من عيسى إلى داوود ؛ حيث قال رب العزة فى القرآن المجيد :

«لعنَ الذينَ كفروا من بنى إسرائيلَ على لسانِ داودَ وعيسى ابنِ مريم...» (سورة المائدة ٥/٧٨) .

٨ — وقد يتبادر سؤال سريع يقول: وما الذى دفع سليمان إلى دعوة ملكة سبأ؟ هل هو التوسع السياسى باعتباره ملكا ، أو هو الدعوة الدينية باعتباره رسولا ؟ !

وقد يكون الجواب سريعا : لا هذا ، ولا ذاك... لأن سليمان عليه السلام رسول من الله فلا يمكن أن يتصرف إلا بوحى من الله ، يوجهه إلى هذا أو إلى ذاك . وربما جاز لنا أن نقول فى تلمس بعض الدوافع لهذا ، أو لذاك :

ربما كان هذا الدافع هو فيما قاله الهدهد له: « ... أحطتُ بِما لمْ تحط به ، وجئتكَ من سبإٍ بنبإٍ يقينٍ * إنىِّ وَجدتُ إمرأةً تملكُهم ، وأوتيتْ من كل شيءٍ ولهَا عَرشٌ عَظيمٌ » . (سورة النمل ٢٧/٢٢ — ٢٣)

وربما كان هذا لصلة رحم ، أو خؤولة : تتصل بأم سليمان أو أم داوود عليهما السلام.

وربما كان لحرارة إيمان الهدهد ، ودفعه إلى دعوتهم ، بقوله : «وَجدتها وقوْمها يَسجُدوُنَ للشمس من دُون الله ، وزينَ لهمُ الشيطانُ أعمالهم ؛ فَصدهمْ عنِ السبيلِ فَهمْ لا يهتدونَ * ألا يسجدُوا للهِ الذى يخرج الخبأَ فِى السمٰوات والأرضِ ، ويعلم ما تخفُونَ وماَ تعلنون؟! * اللهُ لاَ إله إلاَّ هوَ ربُّ العرش العظيم» .

لأنه عقب ذلك مباشرة رد عليه سليمان عليه السلام :

« قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الكَاذِبِينَ * اذْهَب بِكِتَابِي هَذا فَأَلقِهْ إِلَيهِمْ ، ثُمَّ تَوَلَّ عَنهُمْ فَانظُرْ مَاذا يَرجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلأُ إِنِّي أُلقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّه من سليمانَ . . . » .

(سورة النمل ٢٧/٢٧ — ٣٠) .

وليت علماء الدنيا : يخشعون أمام قول الهدهد لسليمان : « أحطت بما لم تحط به . . » ويتذكرون دائما قول العليم الخبير سبحانه : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . .

وليت جميع المؤمنين يخشعون أمام احتراز الهدهد، وشدة إيمانه، ويقينه بالله العلي الأكبر سبحانه ، لأنه لما قال عن ملكة سبأ : « ولها عرش عظيم » . . .

أي من أعظم عروش الدنيا ، أو هو أعظمها . ولكنه « عرش » مجرد عن أل ، فهو نكرة ، مهما وصف بأنه عظيم . . . خشي الهدهد أن يتطاول خيال بشر إلى عرش الله ، أو يحاول المقارنة بين المخلوق والخالق ؛ كما يفعل بنو إسرائيل دائما ، فقال الهدهد : « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » . . .

٩ — والذي يتأكد سريعا على طول هذه الأحقاب الطويلة لبني إسرائيل من إسرائيل نفسه إلى سليمان .. أن بني إسرائيل شَتَاتٌ رُحَّل في كل مكان ، لاقرار لهم ولا وطن ولا ديار ، وأنهم يجرون وراء الأغنام والأبقار . . .

فقد قال يوسف لإسرائيل نفسه وجميع بنيه : « وجاء بكم من البدو » .

وهؤلاء البني إسرائيل يختصمون أمام داود عليه السلام على نعاج ، وحول نعجة واحدة . . . ويحاول كل فريق منهم نهب صاحبه في غنمه ، ثم وهذا موسى عليه السلام يأمرهم كما أمرهم الله بذبح بقرة . . . ثم وهناك أيضا يقول الله :

« وعَلَى الذِينَ هادُوا حرَّمْنَا كلَّ ذِي ظُفُرٍ ، ومِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حَرَّمْنَا

عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ ما حَمَلَتْ ظُهُورُهما أوِ الحَوَايَا أوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وإنَّا لَصَادِقُونَ » . (سورة الأنعام ٦/١٤٦) .

ثمّ وهنا بين يدى داود وسليمان : تجرى الحكومات فى غنم القوم ، أو فى قوم الغنم ، وفى اعتداءاتهم الغنمية المتكررة ، يقول رب العزة :

« ودَاودَ وسلَيمانَ إذْ يَحكُمَانِ فى الحرثِ إذْ نَفَشَتْ فيهُ غَنَمُ القَوْمِ وكُنا لحكْمِهِمْ شَاهِدِينَ » . (سورة الأنبياء ٢١/٧٨) .

١٠ — ولعل مما تجب ملاحظته بالنسبة لبنى إسرائيل : أن الله سبحانه قد قَلَّبَ عليهم جميع أنواع القيادات ، فلم ينقادوا ولم يستقيموا ، بل تمردوا على كل أنواع هذه القيادات المادية منها والمعنوية ، ولا يظهر تصنُّعهم الخضوع إلا أمام القوة المادية الدنيا . وهم يتمردون دائما على المصلحين . . .

فهم قد رفضوا قيادة أبيهم إسرائيل نفسه ، وهى قيادة الأبوة بل والرسالة معا : رفضَ العشرة الكبار منهم — وهم الأصول لبنى إسرائيل — رفضوا توجيه الوالد ، وفى الوقت ذاته رفضوا دعوة الرسول ، فلا إيمان ولا نُبُوّة ولا طاعة ولا إنسانية . . .

ثم أرسل الله يوسف بالبينات عزيزاً على خزائن الأرض ، ورسولا من رب السماء والأرض ، فرفضوا قيادته أيضاً ، ودبروا له القتل صغيرا ، واتهموه بالسرقة وزيرا كبيرا . . لكنهم تحت قرصة الجوع ، وشدة الحاجة ، وأمام القوة والإطعام . . ذلوا للعزيز الأمير المتمكن فى الأرض ، والمتولى على خزائن الأرض . . ، وهو يوسف نفسه : الأخ ، والرسول . . . الذى قطّعوا أخوّته ، وكفروا برسالته .

ثم أرسل الله لهم موسى وهارون ، فتمردوا ودبروا ، وفسقوا وكفروا ، وخانوا ونقضوا . . .

ثم توالت عليهم أنواع القيادات : من أنبياء غير ملوك ، ومن ملوك غير أنبياء ، فتمردوا على الجميع ، وطعنوا فيهم ، ودبروا لهم ، وقتلوا كثيرا من أنبيائهم والصالحين فيهم . .

حتى بعث الله منهم من جمعوا بين النبوة، والملك ، والحكمة : داود ، وسليمان فلم تفلح حتى هذه القيادة لهم ، وتكاثر إيذاؤهم وإجرامهم ، حتى تبرأ الأنبياء الملوك منهم . ولعنوهم . . .

وهكذا . . وهكذا . . حتى تمردوا على الله سبحانه ، وحتى قطعوا مواثيق الله سبحانه ، فقد قال الله سبحانه :

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً ، كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا ، وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ». (سورة المائدة ٥/٧٠) .

ولقد سجل الله عليهم فى مواجهتهم : قوله سبحانه فيما أرخ القرآن بالحق لهم :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ ، وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ، وَآتَيْنَا عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ؛ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ؟ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ؟ ! » . (سورة البقرة ٨٧) .

وكأن رجالهم قد عقمت عن إنجاب الصالحين والأنبياء ، ولم يبق فيهم من المؤمنين إلا النساء ؛ وحتى هذه جربها الله معهم ، فلما تضرعت امرأة عمران

وهى المؤمنة منهم: أن يهبها الله ولداً ذكراً ليتحرر لله ويكون من المصلحين فيهم وهبها الله أنثى هى مريم البتول التى أرسل الله إليها جبريل روحاً منه، ليبشرها بكلمة الله التكوينية بولادة عيسى؛ من غير أب من بنى إسرائيل، لأنهم ليسوا أهلا لذلك قال سبحانه :

«واذْكُرْ فى الكِتَابِ مَرْيَمَ إذْ انتَبَذَتْ مِن أهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيًّا * فاتَّخَذَتْ من دُونِهِمْ حِجَاباً فأرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنا فتَمَثَّلَ لَهَا بشَراً سَوِيًّا * قَالَتْ إنِّى أعُوذُ بالرَّحْمٰنِ مِنكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا * قَالَ إنَّمَا أنَا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا» . . .

(سورة مريم ١٩/١٦ — ١٩) .

« فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا » . (سورة مريم ١٩/٢٢) .

« ومَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا . . . » . (سورة التحريم ٦٦/١٢) .

« . . . إنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ ، وكَلِمَتُهُ ألْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ، ورَوحٌ مِنْهُ . . . » . (سورة النساء ٤/١٧١) .

أمّا « روحٌ منه » ، فهو جبريل عليه السلام : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بَشَرًا سَويًّا » . . .

وأما « كلمته ألقاها إلى مريم » ، فهى كلمة الله التكوينية : « كن » كما قال سبحانه : عن كيفية خلق آدم وعيسى بكلمته التكوينية سبحانه :

« إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ : خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قالَ لهُ كُن فَيَكونُ * الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّنَ المُمْتَرِينَ » .

(سورة آل عمران ٣/٥٩ — ٦٠) .

وهكذا ألقى الله إلى مريم كلمته ، ليُحِقَّ على بنى إسرائيل جميعاً لعنته ، وكلمته ويستردَّ منهم أمانته ،ودينه ،ورسالته . . .

ولئن خلق الله عيسى من غير أب من البشر ، فقد خلق حواء من غير أم ، وهذا أدخل فى باب الإعجاز والقدرة .

وفوق هذا وتلك :خلق « آدم » من غير أب ولا أم ، وأما كونُ عيسى ابن مريم « رسول الله » ، فهذا الذى نشير إليه بتوفيق الله . .

موقف بنى إسرائيل من عيسى عليه السلام :

ولقدتكرر اسم المسيح وأمه ، فى القرآن الكريم ٧٠ سبعين مرة:فى مكة تسع مرات ، وفى المدينة ٦١ إحدى وستين مرة .

وقد ورد ذلك كله فى ١٤ سورة من سور القرآن الكريم ؛ هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والتوبة ، والأنعام ، ومريم ، والمؤمنون ،والأحزاب،والشورى ،والزخرف ، والحديد ، والصف ، والتحريم.

وذكر لفظ « المسيح » ١١ مرة :فى سورة آل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والتوبة ؛ فقط ... وكلها نزلت فى المدينة .

وذكر لفظ « عيسى » ٢٥ مرة ، منها ٤ فى مكة ، و ٢١ فى المدينة ؛ ولفظ « ابن مريم » مرتان فى مكة فى سورتى : المؤمنون والزخرف ؛ فى قوله سبحانه :

« وَجَعَلْنَا ابنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إلى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ ومَعِينٍ » . (سورة المؤمنون ٢٣/٥٠) .

وفى قوله جل شأنه لخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم :

« وَلَمَّا ضُرِبَ ابنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ * وَقَالُوا ءآلِهَتُنا خَيْرٌ أمْ هُوَ؟ مَا ضَرَبُوهُ لكَ إلا جَدَلاً ، بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ *

إنْ هوَ إلاَّ عَبْدٌ أنعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثلاً لِبَنِى إسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَّلائِكَةً فى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ » .

(سورة الزخرف ٤٣/٥٧ — ٦٠) .

وأما لفظ مريم فقد كرر فى القرآن الكريم ٣٤ ، مرة منها المرتان المكيتان السابقتان ، ومنها ثلاث مرات كذلك مكيَّة . . . ثم ٢٩ مرة مدنية .

ثم وقد ذكر الإنجيل فى القرآن ١٢ مرة ؛ منها مرة واحدة مكية ، و ١١ مدنية . . .

وتفصيل ذلك من كل هذه الآيات ، يحتاج إلى كثير من المجلدات . . . ولكنا وقد التزمنا تأسيس القواعد من القرآن ، فإنه يتحتم علينا فقط أن نشير إلى بعضها الآن ، أما التفاصيل فالرجوع فيها إلى كتبنا فى مقارنة الأديان . . . والله الموفق وهو وحده المستعان . . .

١ — لقد أنكر بنو إسرائيل على مريم ولادتها لعيسى عليه السلام ، واتهموها وقالوا عليها بهتانا عظيما ، على الرغم من أن الوليد المسيح عيسى ابن مريم كلمهم فى المهد ، وكانت مريم قد أحست بموقف قومها منها ، فحاولت الابتعاد عنهم جهد طاقتها ، وتمنت الموت ولكن عناية الله معها . . . ولكن القوم جميعاً وقفوا منها : موقف التقريع والتشنيع ، كما وقفوا من وليدها الرسول إليهم فيما بعد : موقف الكيد والتدبير الفظيع . . . ومن الله سبحانه وتعالى موقف الخزى والكفران المريع . . .

يقول رب العزة سبحانه فى سورة مريم ١٩/٢٢ — ٣٦ :

« فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا : أَلاَّ تَحْزَنِى ؛ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ

تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا * فَكُلِي واشْرَبِي وقَرِّي عَيْناً ، فَإمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أحَداً فَقُولِي إنِّي نَذَرْتُ للرَّحْمٰنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قَالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * يا أُخْتَ هٰرُونَ ما كانَ أبوكِ امْرأ سَوْءٍ وما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأشَارَتْ إلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أيْنَ ما كُنْتُ وَأوْصانِي بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وبرًّا بوَالِدَتِي ولَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا * والسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أمُوتُ ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا *

ذَلِكَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقِّ الذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كانَ للهِ أن يَتَّخِذَ مِن ولدٍ سُبْحَانَهُ ، إذَا قَضَى أمْرًا فإنَّمَا يقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وإنَّ اللهَ رَبِّي وربُّكُمْ فاعْبدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ».

٢ — ولما أرسله الله سبحانه إلى بنى إسرائيل : اتهموه أولاً بالسحر ثم جاهروه بالكفر ، ثم دبروا له كل إيذاء وشر . . . مع أنه حلقة الاتصال بين حلقات الكمال ، وكمال الكمال . . .

يقول رب العزة فى سورة الصف ٦١/٥ — ٩ .

« وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي ، وقَدْ تَعلَمُونَ أنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُمْ ؛ فَلَمَّا زاغُوا أزاغَ اللهُ قُلوبَهمْ ، واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفَاسِقِينَ *

وإذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ : يا بَنِي إسْرَائِيلَ إنِّي رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم

مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » .

٣ — وفى جانب كيد بنى إسرائيل لعيسى عليه السلام وكفرهم به . . . كفر قوم منهم فى تأليههم له :

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ؛ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً ؟ وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ

كفرُوا مِنْ بنى إسْرَائِيلَ على لِسَانِ دَاوُدَ وعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَاعَصَوْا وكانوُا يعتَدُونَ » . (سورة المائدة ٥ / ٧٢ — ٧٨) .

« لقَدْ كَفرَ الذينَ قالوا إنّ الله هُوَ المَسِيحُ ابنُ مريَمَ قُلْ فَمَنْ يمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيئاً إنْ أرَادَ أنْ يُهلِكَ المَسيحَ ابنَ مريمَ وَأُمّهُ ومنْ فى الأرضِ جَميعاً ولله مُلكُ السَّمٰوَاتِ وَالأرض وَمَا بَينهمَا يخْلُقُ مَا يَشاء وَاللهُ عَلى كلِّ شَىء قَديرٌ * وَقالتْ اليَهُودُ والنَّصَارَى نحنُ أبنَاؤُ الله وأحبَّاؤهُ ، قُل فلِمَ يُعذّبكمُ بِذنُوبكمْ ، بَل أنتُمْ بشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ يَغفِرُ لِمَنْ يشَاء ويُعذّبُ مَنْ يَشَاء وَللهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَينهُما وَإليْهِ المَصِيرُ * يَا أهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولنَا يُبَيِّنُ لَكمُ عَلى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ ونَذِيرٌ وَاللهُ عَلى كلِّ شَىء قَدِيرٌ » . (سورة المائدة ٥ / ١٧ — ١٩).

٤ — ثم وهؤلاء بنو إسرائيل يقفون من عيسى وأتباعه موقف العداء الفاضح ، فى الدنيا وفى الآخرة كذلك ، ولكنهم جميعاً أعداء للإنسانية كلها :

«وَقَالُوا لن يَدْخُلَ الجَنّةَ إلاّ مَنْ كانَ هُوداً أوْ نَصَارىَ ، تِلْكَ أمانِيُّهُمْ ، قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكمْ إنْ كُنْتم صَادِقِينَ *

بَلَى مَنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أجْرُه عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنونَ *

وَقالَت اليَهُودُ لَيْسَت النَّصَارَى على شَىْء ، وَقالَت النَّصَارَى لَيْسَت اليَهُودُ عَلَى شَىْء ، وهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ ، كَذَلكَ قَالَ الذِينَ لاَ يَعلمُونَ

مِثْلَ قَوْلِهِمْ، فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».
(سورة البقرة ٢/١١١ — ١١٣).

«وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، قُلْ إنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى، وَلَئِن اتَّبَعْتَ أهْوَاءهُمْ بَعْدَ الذِى جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ مالكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِىّ وَلاَ نَصِير». (سورة البقرة ٢/١٢٠).

«قُل يا أهْلَ الكِتاب لَسْتُمْ على شَىْء حَتَّى تقِيمُوا التَّورَاةَ والإنجِيلَ وما أُنزِلَ إلَيكُمْ مِن رَبِّكُمْ، وليَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنهُم مَّا أُنزِلَ إلَيْكَ مِن رَبِّكَ طُغْياناً وكُفرًا، فَلاَ تَأسَ عَلَى القَومِ الكافِرِينَ».
(سورة المائدة ٥/٦٨).

ويقول أبو الفتح الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل تخريجنا: جـ ١ ص ٤٨٩ — ٤٩٠:

«وإنما الخلاف بين اليهود والنصارى، ما كان يرتفع إلا بحكمه: صلى الله عليه وسلم

إذ كانت اليهود تقول: ليست النصارى على شىء،

وكانت النصارى تقول: ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب،

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لهم: لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل.

وما كان يمكنهم إقامتها إلا بإقامة القرآن الحكيم، وبحكم نبى الرحمة رسول آخر الزمان، فلما أبوا ذلك وكفروا بآيات الله:

«ضُرِبت عليهم الذِّلة وَالمَسكَنَة وَباءوا بِغَضَبٍ مِنَ الله، ذَلِكَ بِأَنَّهُم كانُوا يكفرُونَ بآيات الله».

٥ — ثم ومن صميم رسالة كل رسول من بنى إسرائيل ، وجوب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و نصرته ، فمن كفر به فقد كفر أولاً برسوله هو ، بل ، وبالمرسل سبحانه .. وهذا هو المنهج العام لجميع رسل الله أجمعين ، وقد أخذ الله الميثاق بهذا من جميع النبيين . . .

يقول أبو الفتح الشهرستانى ج ١ ص ٤٩٥ — ٤٩٧ :

« واعلم أن التوراة قد اشتملت — بأسرها — على دلالات وآيات تدل على كون شريعة نبينا المصطفى عليه السلام : حقًّا ، وكون صاحب الشريعة صادقا ، بَلْهَ ما حرفوه وغيروه وبدلوه :

إما تحريفا من حيث : الكتابة والصورة .

وإما تحريفا من حيث : التفسير والتأويل .

وأظهرها ذكر إبراهيم عليه السلام وابنه إسماعيل ، ودعاؤه فى حقه وفى حق ذريته ، وإجابة الرب تعالى إياه : أنى باركت على إسماعيل وأولاده وجعلت فيهم الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها ، وسأبعث فيهم رسولا منهم : يتلو عليهم آياتى .

واليهود معترفون بهذه القضية ؛ إلا أنهم يقولون : أجابه بالملك ، دون النبوة والرسالة .

وقد ألزمتهم : أن المُلك الذى سلَّمتم : أهو مُلكٌ بعدل وحق ، أم لا ؟ فإن لم يكن بعدل وحق ، فكيف يَمُنُّ على إبراهيم عليه السلام بملك فى أولاده وهو جور وظلم ؟ وإن سلمتم العدل والصدق من حيث الملك ؛ فالملك يجب أن يكون صادقا على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله ، وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق ؟ إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ؛ ففى تكذيبه

تجوه ، وفى التجوير رفع المنة بالنعمة ، وذلك خُلفُ » .

ثم يقول الشهرستانى صفحة ٤٩٨ و ٤٩٩ : « وقد ورد فى التوراة : أن الله تعالى جاء من طور سيناء ، وظهر بساعير ، وعَلَنَ بفاران .

وساعير : جبال بيت المقدس ، التى كانت مظهر عيسى عليه السلام .

وفاران : جبال مكة ، التى كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت الأسرار الإلهية ، والأنوار الربانية ، فى الوحى ، والتنزيل ، والمناجاة ، والتأويل ، على مراتب ثلاث : مبدأ ، ووسط ، وكمال ؛ والجيء أشبه بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط ، والإعلان أشبه بالكمال — عبرت التوراة :

عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالجيء من طور سيناء .

وعن طلوع الشمس : بالظهور على ساعير .

وعن البلوغ إلى درجة الكمال : بالاستواء والإعلان على فاران .

وفى هذا الكلمات : إثبات نبوة المسيح عليه السلام ، والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم » .

٦ — وقد وقف بنو إسرائيل من عيسى عليه السلام موقفا عجيبا .. حتى دبروا له جرائم الإيذاء المتكرر ...

« فَلمَّا أحَسَّ عيسى مِنهمُ الكُفرَ قَالَ مَنْ أنصارِى إلىَ اللهِ قَالَ الحوَارِيُّونَ نحنُ أنصَارُ اللهِ آمَنَّا باللهِ ، واشهَدْ بأنَّا مُسلِمونَ ﴿ رَبَّنا آمنَّا بِمَا أنزلتَ واتَّبعنَا الرَّسولَ فَاكتُبْنَا معَ الشَّاهدِينَ ﴿ وَمكَروُا ومَكرَ اللهُ واللهُ خَيرُ المَاكِرينَ ﴿ إذ قَالَ اللهُ يَا عِيسىَ إنِّى مُتوَفِّيك وَرَافِعكَ إلىَّ وَمُطهِّرُكَ مِنَ الذينَ كفرُوا ... » .

(سورة آل عمران ٣/ ٥٢ — ٥٥) .

٧ — وتوالى إيذاء بنى إسرائيل لعيسى ؛ حتى دبروا له جريمة القتل مع

الترصد وسبق الإصرار ، ودبروا له كذلك جريمة الصلب مع الترصد وسبق الإصرار ، وأوقعوا كل جريمة من هاتين الجريمتين أيضا مع الترصد وسبق الإصرار ، ثم جاهروا بذلك وتفاخروا . . .

ولكنه الله سبحانه نجاه منهم ، وكتب اللعنة والذلة عليهم . . .

يقول سبحانه فى سورة النساء ٤/١٥٥ — ١٥٨ :

« فبما نَقْضِهم مِيثاقَهُمْ وكُفْرِهِم بآياتِ اللهِ وقتلِهِمُ الأنبياءَ بغيرِ حقٍّ وقولِهِم قلوبُنا غُلْفٌ بلْ طَبَعَ اللهُ عَليها بكفرِهِمْ فلا يؤمنونَ إلاَّ قليلاً * وبكفرِهم وقولِهمْ عَلى مريمَ بُهتاناً عَظيماً * وَقولِهمْ إنَّا قتلْنا المسيحَ عِيسى ابنَ مريمَ رسُولَ اللهِ وما قتلوُهُ وَما صَلبوُهُ ولكن شُبهَ لهمْ . وإنَّ الذينَ اختلفوا فيهِ لفى شَكٍ مِنهُ مالهم به منْ علمٍ إلاَّ اتباعَ الظنِّ وَما قتلوهُ يَقيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إليهِ وكانَ اللهُ عَزيزاً حَكيماً » .

إفساد بنى إسرائيل فى الأرض :

وهكذا أفسد بنو إسرائيل كل العلاقات التى تربط الإنسان بغيره : أفسدوا العلاقات بين أبيهم ، وأخيهم ، وربهم ، ورسولهم ، وكتابهم ، والمصلحين فيهم ، والناس . . . وهم يحاولون دائما أن يفسدوا العلاقات بين الناس وبعضهم بعضاً . . . ثم حرفوا كتبهم : ودسوا على القرآن تفسيرات مُخَرِّبة، ومُخْزية ، ومفسدة ، بعد أن عجزوا عن أن يُحرِّفُوا القرآن نفسه ، وهم يحاولون كثيرا ويريدون :

« يُريدُون أنْ يُطفئوا نُورَ اللهِ بِأفوَاهِهِمْ » . . .

وفى كل مكان عاثوا فساداً ، وتوالت على الإنسانية مصائبهم ، وشرورهم وفى كل بقعة من بقاع الأرض أفسدوا ، وكثيرا جداً عمل أهل الأرض فى كل دولة ومكان على أن يُبيدوهم أو كادوا . . .

وحاول كثير جداً من شعوب الأرض ودولها أن يطردوهم ويطهروا الأرض من رجسهم . . .

ولكن الله سبحانه وتعالى نبّه إلى إفسادتين كبيرتين منهم ؛ كل إفسادة تعمّ الأرض كلها ، وأكد سبحانه وتعالى أنه سيبعث عليهم فى كل مرة من المرتين ...

ففى المرة الأولى بعث عليهم مَن جاسُوا خِلال الديار بلا حرب ولا قتال واستلموا المسجد ودخلوه .

وفى المرة الثانية سيبعث الله عليهم ، من يَسُوءُونَ وجوههم ، ويزيلون آثارهم ، ويدخلون المسجد عليهم، ويطهرون الأرض من فسادهم وإفسادهم . . . بشرطين اثنين يجب أن يتحققا فيمن يبعثهم الله عليهم ، وهذان الشرطان هما : إخلاص العبادة لله ، والبأس الشديد .

حتمية القضاء على إفساد بنى إسرائيل :

ولقد سجل القرآن ذلك فى صدر سورة الإسراء ١٧ عقب الحديث عن الإسراء : إسراء محمد سيد العرب ، ونبى الإسلام إلى المسجد الأقصى ، وكان أن ركزَ هناك اللواء ، وتسلم الزمام ، وتقبل البيعةَ الفعلية من جميع الأنبياء ؛ وبخاصة من أنبياء بنى إسرائيل ، حين قدّموه فصلّى بهم إماماً ؛ قبلَ معراجه إلى السماء . . . ويقول رب العزة عقب ذلك . . .

« وقَضَيْنا إلى بَنى إسْرَائيلَ فِى الكتَابِ لَتُفْسِدُنّ فِى الأرْضِ مَرّتَيْنِ ، ولَتَعْلُنّ عُلوًّا كَبيرًا * فإذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِى بَأسٍ شَدِيدٍ ، فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ . . . » .

وقوله سبحانه : « فى الأرض » يؤكد أن الإفسادة الواحدة من هاتين الإفسادتين تعم الأرض كلَّ الأرض ؛ لأن القرآن ذكر لهم كثيراً جدّاً من الإفسادات المتفرقة فى الأرض ، والتاريخ والواقع والمشاهد القريب يعرف ذلك تماما . . .

« لتفسدُنّ » . . . تشير إلى تأخير كل من الإفسادتين عن وقت نزول هذا القضاء ، وهذه الآيات . . .

« ولَتعلُنّ عُلوّا كَبِيرًا » . . . لم يكن لهم عُلُوّ كبير فى الأرض كلها طبعاً إلاّ قبل كلّ إفسادةٍ من هاتين المرتين . . .

« فإذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهما » . . . إذا لم يكن قد جاء ؟ وإلاّ لقال : وفى الأولى ، أو : فى أولاهما . . . مثلا . . .

« بعثنا عليكم » . . . يشير إلى زمان لاَحِقٍ ؛ كما قال سبحانه :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ العَذَابِ . . . » . (سورة الأعراف ٧/١٦٧).

كما يشير إلى أنّ الذينَ يبعثهم الله عليهم : عبادٌ مخلصون مؤمنون يرضى الله عنهم . . . وليسوا بعبيدٍ كافرين يغضب الله عليهم .

« عباداً لنا » . . . وهذا تأكيد لصفة الاتصال الشديد ، والإيمان القوى بالله : عباداً لنا ، وليسوا عَبيداً مثلاً . . .

« أولى بأس شديد » . . . أصحاب قوة قوية : نفسية ، وخلقية ، وعلمية ، وبطولية ، وعسكرية . . .

« فجاسُوا خلال الديار » . . . ساروا فى الطرقات بلا حرب ، بل أخذوا

يفتشون ويبحثون بهدوء دون تخريب أو تدمير أو دك ، فالديار قائمة وهُم يَجُوسُون خِلالها . . .

ولعل تحقيق هذا كله ، لم يتم على ترامى التاريخ والواقع الإنسانى . . . إلاَّ لمَّا أفسد بنو إسرائيل فى الأرض كلها بمحاولتهم القضاء على رسالة الله الخاتمة، ورسول الله الخاتم،وإطفاءِ نور الله، لتظلم الأرض جميعاً وتفسد، ومواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المخلصين من عباد الله معهم : كثيرة جداً وتحتاج إلى تفصيل مستقل ، وقد استمرت حتى انتهت هـذه الإفسادة الأولى نهائياً، بأن بعث الله عِباداً له أولِى بأس شديد ، وهم « عمر بن الخطاب » وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فجاسوا خـلال الديار ، ولم يجـدوا من يحاربونه منهم . لأنهم ليسوا هناك . . واستلم عمر المسجد ، ودخل المسلمون المسجد .. وكان من أخطر النصوص فى العهد العمرى «ألاَّ يسمح أحد من المسلمين أو النصارى بدخول واحد من اليهود مطلقاً . . . إلى المسجد الأقصى وماحوله .

ثم يقول رب العزة لهم :

« ثمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيهِمْ ، وأمْدَدْناكُمْ بِأمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أكْثَرَ نَفِيراً » . . .

وبكل تأكيد : لم يحصل ذلك أبداً فى طول الإنسانية وَرضها لبنى إسرائيل إلا فى هذه الأيام .

فلهم الكرة على عباد الله أصحاب البأس الشديد ، بمقدار بعدهم عن عبادة الله والبأس الشديد . . فأخذوا الجولة الأولى من المعركة وأخذوا المسجد . . . على مشهد من المؤمنين ، ليوقظوا همم المؤمنين .

« وليُمحصَ الله الذينَ آمَنُوا ويمحق الـكافِرِين . . . »

« وأمْدَدْنا كم بأموَال و بنِين » .. فهم يتلاعبون بأموال العالم، ويعيشون ويتكاثرون على الإمداد بالأموال والبنين التى ليست لهم . .

« وجعلنا كم أكثر نفـيراً » يا سبحان الله . . كلمـة « نفـيرا » تزداد على مدى ١٤ قرناً وضوحاً واتساعاً ، وتتجدد فى كل زمن ، لأنها الآن : تشمل كل الدعايات ووسائل الإعلام ، وأروقة الأمم المتحدة ، وهيئات الأمم ، ومجلس الأمن . .

وهـذا كله لم يتحقق إلا فى العقد التاسع من القرن الرابع عشر للهجرة المحمدية « العقد السابع من القرن العشرين لميلاد المسيح » ، وأراها قد حُقّت الآن ، فلا ينتهى العقد إلا وقد انفرط عقدهم نهائيا ، وطُهرت الأرض من إفسادهم بتوفيق الله ، أى بعد قرابة أربعة عشر قرنا من الزمان على الإفسادة الأولى العامة بتوفيق الله . . لأنهم قد أساءوا الآن إلى العالم كله ، وعم إفسادهم الأرض كلها ، فلا بدّ من البعثة الثانية عليهم ، ويقول رب العزة لهم :

« ... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ، لِيَسُوءوا وجُوهَكُمْ ، وليدْخلُوا المَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أوَّلَ مَرَّةٍ ، ولِيُتبِّرُوا ما عَلوْا تَتْبِيراً » . . .

وقد حان — بإذن الله ووعده — وعد الإفسادة الآخرة لهم ، فحُقّ وعْدُ الله عليهم، ليبعث الله عليهم عباداً له أولى بأس شديد ، لا ليجوسوا خلال الديار كالمرة الأولى ، ولـكن ليشَوهُوا وجوههم ويُسَودوها و يلطخوها ، وليطردوهم من المسجد شرّ طردة ، وهنا تـكون المنة من الله بدخول المسجد هذه المرة لتطهيره على يد عباد الله من رجس أعداء الله ؛ مع الإشارة إلى مجرد دخول عباد الله المسجد أول مرة ، وليدكّ عباد الله أولو البأس الشديد ، ويزيلوا ، ويهدّموا

ويمَزقوا ويبعثروا ويتبروا . . . كل رجس وعار وتضليل ، شيده بنو إسرائيل وحصَّنُوه ، وخططوه ، وعلوا به : بناء وتحصينا . .

« فإذا جاء وَعْـدُ » [الإفسادة العامة فى الأرض كلها وستكون]

« الآخرة » [بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد كما كانوا أول مرة ، ولكن ، لا ليجوسوا خلال الديار هذه المرة ، كما فعلوا أول مرة ، ولكن] « لِيَسُوءُوا وُجوهكم ، وليدخلوا المسجد » [عليكم هذه المرة ، وهم بذلك يذيقونكم ألوان العذاب والهوان ،

ويطهروا المسجد من أرجاسكم وأنجاسكم كلها ، ثم يدخلونه طاهراً مطهراً

« كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ما عَلَوْا تَتْبِيرًا » .

ولكن لا بد من أن يتحقق أولا فى المؤمنين ، قبل أن يبعثهم الله على المفسدين : شرطان أساسيان ، هما مفتاح الفلاح والنصر ، وهذان الشرطان هما :

« عباداً لنا » ، و « أولى بأس شديد » .

العبادة الخالصة لله ، والبأس الشديد . .. للقضاء على أعداء الله .

إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم :

قال صاحبى : وكيف نستطيع أن نتفهم من قول الله سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل بعد الكرّة الأولى وقبل مجيء وعد الكرة الآخرة عليهم :

« إنْ أَحْسَنْتُم : أَحْسَنْتُمْ لأَنفُسِكُمْ ، وإنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » ؟ . .

قلت يا صاحبى : أما إحسانهم ؛ فلا يكون إلا بوفائهم بعهدهم ، ولقد طالبهم رب العزة سبحانه ، بأن يُوفوا بعهد الله إليهم ، ليَفِيَ الله إليهم بعهده معهم ، وسجل رب العزة ذلك عليهم ، فى صدر سورة البقرة التى أفاضت

فى الحديث عنهم بعد ٣٩ آية فقط من أول هذه السورة التى سميت بحادثة من حوادثهم .

وعهد الله لهم : أن يؤمنوا بالقرآن المصدِّق لما معهم ، والمهيمن على كتبهم ، والذى أنزله الله على رحمة العالمين محمد صلى عليه وسلم . . . فالعهد هو إسلامهم وإيمانهم ، واتِّباعُهم لما أنزل الله مصدقا لما معهم . . .

يقول رب العزة سبحانه فى الآيات ٤٠ — ٤٤ من سورة البقرة :

« يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ، وإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ، وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ، ولاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَنًا قَلِيلاً ، وَإِيَّاىَ فَاتَّقُونِ * وَلاَ تَلْبِسُوا الحقَّ بِالبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُوا الحقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ * أتأْمُرُونَ النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تتلونَ الكِتابَ أفَلاَ تَعْقِلونَ » ؟! .

ثم وإحسانهم كذلك لا يكون إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما بيَّنه ، وبالنور والكتاب المبين الذى أنزله الله عليه ، فإن فعلوا ذلك : أحسنوا لأنفسهم ، وأخرجهم الله من الظلمات إلى النور وهداهم ، يقول رب العزة سبحانه فى سورة المائدة ٥ /١٥—١٦ بعد نقضهم الميثاق ، وتحريفهم ، وانحرافهم ، ولعن الله إياهم . . .

« يا أهلَ الكتَابِ قدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَينُ لكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جاءَكُمْ منَ الله نُورٌ وكِتابٌ

مُبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ من اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِه ، وَيَهْدِيهِمْ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

ثم يقول لهم فى نفس سورة المائدة وبعد آيتين فقط ، فى الآية ١٩ :

« يا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، أَنْ تَقُولُوا ما جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ ولاَ نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، واللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

وفى الآيات ٦٤ — ٦٨ من نفس السورة ، يقول رب العزة لخاتم رسله صلى الله عليه وسلم :

« وقالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ : غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ، وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وكُفْراً ، وأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ، وَيَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً ، واللهُ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ آمَنُوا واتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ * وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ، وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ، مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَىْءٍ

حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وما أُنزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُمْ ، وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنهُم ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وكُفراً فلاَ تَأْسَ على القَوْمِ الكافِرِينَ » .

وهكذا يكون إحسانهم: يكون بالإيمان بما فى كتبهم ، وبإقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، ولا يمكن إقامتها إلا بالإيمان بالقرآن وبنبىّ القرآن ، وباتّباع النبى الأمىّ : الذى يجدونه مكتوبا عندهم . . . وهذا هو دينهم ، إن ادّعَوْا التمسك بدينهم . . . وإلا فهم الضالون المضلون الكافرون حتى بتوراتهم . . .

وما داموا لم يحسنوا ، وقد أساؤوا ، فهم إذاً : لها :

وصدق الله رب العالمين ؛ فقد قال لهم — عقب إفسادتهم العالمية الأولى ، وقبل إفسادتهم العالمية الآخرة — : « وإن أسأتم فلها » .

فإساءتهم لأنفسهم حقيقة ، وإن ظنوا أن هذه الإساءة للمؤمنين ، مهما زين الشيطان لهم ، ومهما مد المستعمرون الكافرون لهم أيديهم ، ومهما سبقوا بعلم أو تفجير ، لأنهم لا يعجزون الله القوى العزيز الخبير ، وقد قطعوا حبالهم إليه ؛ فلم يؤمنوا بخاتم رسله البشير النذير صلى الله عليه وسلم ؛ وقد أمرهم رب العزة بالإيمان به فى كتبهم . . .

وإساءتهم كذلك لها : للجولة الآخرة « فإذا جاء وعد الآخرة » ؛ حيث يبعث عليهم الله القوى ذوالبطش الشديد : عباداً لهأولى بأس شديد ، لا ليدخلوا المسجد وهم يجوسون خلال الديار فلا يجدون منهم أحداً . . . كما فعلوا أول مرة ، وإنما ليدخلوا عليهم المسجد؛ ليطهروه من أرجاسهم وأنجاسهم هذه المرة .

وكذلك إساءتهم لها : لتشويه وجوههم بيد المؤمنين ، وتمزيقها وتلطيخها ،

وتسويتها . . . « ليسوؤوا وجوهكم » وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة »...

ثم وإساءتهم أيضا لها: لتتبير كل ما بنوا ، وأقاموا،وشيدوا ، وحصنوا.. تتبيراً ، وهدماً ، ودكاً ، وتمزيقا ، وإزالة . . .

ولتطهير الأرض المقدسة من رجسهم ، وخزيهم ، وفجورهم . . .

ولإذلالهم ، وتشريدهم ، وتشتيتهم ؛ كما كانوا ، وكما يجب أن يكونوا : خزياً وعاراً ، وجبناً وصغاراً ، ومسكنة وبواراً ، وذلة واندحاراً ، وغضباً عليهم من الله وخساراً . . .

كل ذلك لا بد من أن يكون بيد المؤمنين من أمة النبى العربى ؛ بمجرد أن يتحقق فى المؤمنين شرطان أساسيان ، للنصر ، هما : الاتصال الحقيقى بمصدر القوة الحقيقية سبحانه ، والاستعداد الحقيقى المحقق للبأس الشديد بكل متطلباته ، أعنى أن يتحقق فيهم قول الله :

عباداً لنا ، أولى بأس شديد .

وهكذا أنتم يا أمة النبي العربى ، : يا أمة الإسلام . . .

فقد قال عنكم ولكم رب الناس :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس » .. . ولكن بحقها ... فإن أديتم حقها: كنتم بحق خير أمة، وكشف الله عنكم كل غمة، لأنكم تكونون قد توحدتم : كلمةً ، وصفاً ، ورباً ، ورسولاً ، وكتاباً ، وقبلةً . .

ومهما حاربكم بنو إسرائيل المفسدين ، أو من وراءهم من المستعمرين ، أو من أمامهم من الصهايين ... وحاولوا ضرركم ؛ فلن يضروكم إلا أذى . . .

وإن قاتلوكم مهما كانوا هم وأعوانهم ، لا بد من أن يولوكم أدبارهم ، ولابد ـ بعون الله ـ من هزيمتهم . . .

ومهما اشتدوا على المؤمنين بحبال الناس أجمعين، فإن المؤمنين إنما يعتصمون بحبل الله المتين ، والله قد وعد : فقال سبحانه: « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ».

وعلى هذا فلا بد من أن يلف الله حبال الناس على رقابهم، ويشنقهم بها ويبيدهم . فقد قال عنهم رب العزة سبحانه :

« ضُرِبَتْ عَليهم الذِّلة أينَ ما ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبلٍ مِنَ اللهِ وحبلٍ مِنَ الناسِ وَباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَضرِبَت عليهِمُ المسكَنة ، ذلِكَ بأنَّهُمْ كانوا يكفرونَ بآياتِ اللهِ ، ويقتلونَ الأنبياءَ بغيرِ حق ، ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانوا يَعتدونَ » . (سورة آل عمران ٣/١١٢) .

إلاَّ من أحسن منهم ووفَّ بعهد الله ، وآمن معكم أيها المؤمنون برسول الله واعتصم معكم بحبل الله ، ودخل الإسلام طائعاً مختاراً يقصد بذلك وجه الله . . . فحينئذ يدخل مع خير أمة ، وينال حقها بحقها . . .

قال صاحبي : وما حقُّ هذه الخيرية للأمة المحمدية ؟! . . .

قلت لصاحبي : لقد ركز الله هذا الحق حول ثلاث :

الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان الحقيقى بالله .

وكل واحدة تحتاج إلى مجلدات ، وقد تنقضى الدنيا ولا تنقضى منها العبر والآيات . . . ولكني أرجو الآن ، ونحن نؤسس القواعد من القرآن : أن ينفتح قلبك لنور القرآن ، وهو يقول لأمة القرآن :

« كنتمْ خيرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للناسِ : تَأمرونَ بالمعْروفِ ، وَتنهونَ عَنِ المنكرِ ، وَتؤمِنونَ باللهِ ؛

وَلوْ آمنَ أهلُ الكتابِ لكانَ خيراً لهُم : مِنهمُ المؤمِنُونَ وأكثرهمُ الفاسِقونَ *

لن يضروكم إلا أذىً ، وإن يُقاتلوكم يولوكمُ الأدبار ، ثم لا ينصرُونَ » .

(سورة آل عمران ٣ / ١١٠ ـ ١١١) .

قال صاحبي : وعلى هذا فقوله تعالى لبنى إسرائيل :

« إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها » بعد إفسادتهم العالمية الأولى ، وقبل إفسادتهم العالمية الثانية فى الأرض كلها ... يحدد زمان الإفسادة الأولى على الأقل ؟ ! . .

قلت لصاحبي : نعم ، ونستطيع أن نتفهم التحديد الزمنى الدقيق من القرآن الكريم ، ومما حصل من إسراء النبى الكريم إلى المسجد الأقصى ، ومن دخول عمر وصحابة رسول الله المسجد الأقصى ، ومن «عهد» عمر : الذى أعطاه على ذمة المؤمنين كل المؤمنين . . .

ولعل هذه الإفسادة الأولى لبنى إسرائيل فى الأرض كل الأرض ، يتحدد أولها بقوله سبحانه :

« ولمّا جاءَهمْ رَسُولٌ مِنْ عندِ اللهِ مُصدِّقٌ لما معهمْ نبذَ فريقٌ مِنَ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ كتابَ اللهِ وَراءَ ظهورهمْ كأنهمْ لا يعلمونَ » .

(سورة البقرة / ١٠١) .

وسورة البقرة أول سورة نزلت عقب الهجرة ، وسميت بالبقرة ، تأريخاً لحادثة من أخطر حوادث بنى إسرائيل ، مع ربهم ، ومع رسولهم ، وفى مجتمعهم .

وبقوله جل شأنه ، فى نفس سورة البقرة أيضا ، وقبيل هذه الآية ، فى الآيات / ٨٧ — ٩٠ .

« ولقدْ آتينا موسَى الكتابَ وقفَّينا من بعدهِ بالرُّسل وآتينا عيسىَ ابنَ مريمَ البيناتِ وأيدناهُ بروحِ القدُسِ ، أفكلما جاءكمْ رسولٌ بما لاتهوىَ أنفُسكمُ : استكبرتمْ ، ففريقاً كذبتمْ وفريقاً تقتلونَ * وقالوُا قلوُبنا غُلفٌ ، بل لعنهمُ الله بكفرِهمْ فقليلاً ما يؤمنونَ * ولمَّا جاءَهُمْ كتابٌ منْ عندِ الله مُصدِّقٌ لما معَهمْ ، وكانوا منْ قبلُ يَستفتحونَ على الذينَ كَفَروا ، فلما جاءَهم ماعَرفوا كفروا بهِ فلعنةُ اللهِ على الكافرينَ * بئسَما اشتروْا بهِ أنفسهمْ : أن يكفروا بما أنزلَ اللهُ بَغياً أن يُنزِّلَ اللهُ منْ فَضله على مَن يَشاءُ منْ عبادِهِ ، فباءُوا بغضبٍ على غضبٍ ، وللكافرينَ عذابٌ مُهينٌ » .

وأما نهاية هذه الإفسادة الأرضية الأولى منهم ، فبالقضاء النهائى عليهم من حول الأرض المقدسة ، وبين القدس والمسجد الأقصى ، لما دخله عمر فاتحا مماهداً يجوس خلال الديار ، بلاحرب ، ولا إراقة دم ، ودخل المسجد آمناً ، ولم يتعرض له أحد ، وكتاب الأمان والعهد والذمة ، بإجلائهم الأبدىّ على يد المؤمنين ... أكبر شاهد على ذلك ، وآكد ميثاق دائم على ذلك لجميع المؤمنين . . . حيث كتب إلى أهل فلسطين ، فى حاضرة ملكها إيلياء ، وفى السنة الخامسة عشرة من الهجرة المحمدية ، وفى ربيع الأول ما نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم : سقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود .

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم . . .

. . . وعلى ما فى هذا الكتاب : عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين ، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان . وكتب وحضر سنة ١٥ هـ » .

ثم شخص عمر إلى بيت المقدس ودخل الكنيسة ، ودخل المسجد الأقصى ، وبنى مسجداً على الصخرة التى كلم الله عليها يعقوب عليه السلام . .

وعلى هذا فإن الإفسادة الأولى لبنى إسرائيل فى الأرض كل الأرض استمرت ١٥ سنة . . . على الأقل من الهجرة ، أو ٢٨ سنة من البعثة . . .

ثم تكون الآخرة بعد أن تكون لهم الكرة ، والإمداد بالأموال وبالبنين ، وبكثرة النفير ، وبعد دخولهم المسجد الأقصى ، وبعد تجميعهم لفيفا من شتات الأرض كلها ، لأن الله سبحانه قد وعد بذلك ، حيث قال لهم اسكنوا الأرض كل الأرض مشتتين متفرقين ، لكن إذا جاء وعد الآخرة جمعنا شتاتكم للقضاء عليكم ، إن لم تحسنوا لأنفسكم ، وتؤمنوا بما أنزلنا على خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم مصدقاً لما معكم ، ولعل هذا يمكن أن يفهم من قوله سبحانه فى نفس سورة الإسراء ، لخاتم رسله صاحب الإسراء :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ۞ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ، وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ۞ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً ۞ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً .

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ، وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً » .

(سورة الإسراء ١٧ / ١٠١ — ١٠٥) .

ولم يرد فى القرآن كله هذا التعبير الحكيم كله : « فإذا جاء وعد الآخرة » ؛ إلا فى سورة الإسراء فقط ؛ ومرتين فقط ،

ولبنى إسرائيل فقط ؛ وبالنسبة للافسادة الأخيرة فقط .

أولا : « فإذا جاء وعد الآخرة ؛ ليسوءوا وجوهكم ؛ وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة ، وليتبروا ماعلوا تتبيرا » .

وثانيا : « فإذا جاء وعد الآخرة : جئنا بكم لفيفا » .

قال صاحبى : صدق الله ، وحق وعد الله ..

لكن : وما الذى نستطيع أن نفهمه من القرآن الكريم ، ومن حول زمان الإفسادة الآخرة ، التى يكون القضاء الحتمى فيها عليهم مهما كانوا أو كان من يساندهم !! . . .

قلت لصاحبى لعل الأرض كلها تعيش هذه الإفسادة الآخرة الآن ، ومن أوائل القرن الرابع، من هجرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يوافقه أوائل القرن العشرين بعد ميلاد المسيح عليه السلام . .

ولعلها قد بدأت بالوعد المشئوم من بلفور الانجليزى إلى وايزمان الصهيونى، فى صفر سنة ١٣٣٦ هجرية (يوافقه نوفمبر سنة ١٩١٧ م)

إبان الحرب الأولى العالمية . . . استعدادا للافسادة الآخرة الصهيونية . . .

ولا زالت الكرة ، والإمداد بالأموال وبالبنين ، وبالنفير ... خصوصا : وقد جاء الله بهم لفيفا ، ودخلوا المسجد الأقصى ...

فلا بد من أن يبعث الله عليهم عبادا له، أولى بأس شديد، ليسوءوا وجوههم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا . . .

وأراها قد حقت الآن ، وأراها قد حان حينها وجاء الأوان .

وأراها تنادينا : يا عباد الله : يا أولى البأس الشديد . أسرعوا بتطهير مسرى

النبي العربي ، والمسجد الأقصى ، والأرض العربية ...

قال صاحبي : نعم قد حُقَّتَ ولا يصح أن نتولى ، ولا يصح أن نتخلى ..
لأن الله قد أمرنا بالنفير العام ، وهدد المتثاقلين والمثبطين ، فقال للمؤمنين :

« إلاَّ تَنفِرُوا يُعذِّبكُم عذَاباً أليماً ويستبدِل قوماً غيركُم ولاَ تضرُّوهُ شيئاً واللهُ علَى كل شَيء قديرٌ » . (سورة التوبة ٩/٣٩) .

وقد قال لجميع المؤمنين :

« فلاَ تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلمِ وَأنتمُ الأعلَوْنَ واللهُ معكمُ ولَنْ يترِكُمُ أعمَالكُمُ » ... إلى أن قال ... « وإن تتَولَّوا يَسْتَبدِلْ قوماً غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لاَ يكُونُوا أمثالَكُمُ » . (سورة محمد ٤٧/٣٥ — ٣٨).

ولكنْ وماذا يكون بعد دحرهم ، وتطهير الأرض من إفسادهم ، وبعد تدميرهم وتتبيرهم ، وبعد دخول عباد الله ذى البأس الشديد المسجد؟ ...

ماذا يجب على المؤمنين بالنسبة لأعداء الله ؟ !

قلت لصاحبي لقد قالها رب العالمين المؤمنين فى سورة التوبة ٩/٢٨-٣٣ :

«ياأيُّها الذِينَ آمَنُوا إنَّما المُشرِكونَ نجَسٌ فلاَ يقربُوا المسجِدَ الحرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذَا ، وإنْ خِفتمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إنْ شاء إنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * قَاتِلوا الذِينَ لا يُؤمِنُونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ ولاَ يحرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورَسُولهُ ، ولاَ يدِينونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حَتَّى يُعطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ * وَقَالَتِ اليهُودُ عُزَيرٌ ابنُ اللهِ وقالَتِ النَّصارَى المَسِيحُ ابنُ اللهِ ، ذَلِكَ قَولهُم بأفْوَاهِهِم يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذِينَ كَفَرُوا مِن قَبلُ قَاتلهمُ اللهُ أنَّى يُؤفَكُونَ *اتخَذُوا أحبَارَهمُ وَرُهْبانهمُ أرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مَريَمَ وَما أُمِرُوا

إلا ليَعْبُدوا إلهًا واحداً لاَ إلهَ إلاَّ هُوَ سُبْحَانهُ عمَّا يُشرِكُونَ * يُرِيدُون أنْ يُطفِئوا نُورَ اللهِ بأفْوَاهِهِمْ وَيأبَى اللهُ إلاَّ أنْ يُتِمّ نورَهُ ولوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ * هُوَ الذِي أرْسَلَ رسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَهُ عَلى الدّينِ كلِهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكونَ » .

وإن عدتم عدنا :

وهذا وعدٌ من الله العلى الحليم الحكيم ، وهو واضحٌ جداً ومفهوم ، وصدق الله العظيم : « ذَلِكُمْ وأنَّ اللهَ مُوهِنُ كَيْدِ الكافِرِينَ * إن تَسْتَفْتِحُوا فقَدْ جَاءَكُمُ الفَتْحُ ، وإنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وإن تَعودُوا نَعُدْ ، ولَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَو كَثُرَتْ ، وأنَّ اللهَ مَعَ المُؤمِنينَ » .

(سورة الأنفال ٨/١٨ — ١٩) .

وعلى هذا فمن عاد منهم إلى الإفساد بعد المرة الآخرة ، أعاد الله عليه التدمير والهلاك والتتبير فى الدنيا والآخرة ، ومن عاد فينتقم الله منه . .

ولكنى أود أن ألفت جميع العلماء والباحثين، إلى أن هذا الوعد ، بشرطه وجوابه إنما هو جزء مقتطع من آية ، له جزء سابق ، وجزء لاحق . . .

أما تمام الآية ، فقوله سبحانه : « عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .

ولقد ذكر الله سبحانه هذه الآية عقب بيان الإفسادة الآخرة لبنى إسرائيل فى الأرض كلها، وتطهير الأرض كلها من كل آثارها، بعد أن قال لبنى إسرائيل بين الإفسادتين العالميتين فى طول الأرض وعرضها :

« إن أحسنتم : أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم : فلها » .

ولعلنا نستطيع الآن أن نتفهم من قوله سبحانه لهم: « عسى ربكم أن يرحمكم و .. » عقب القضاء في المرة الأخيرة عليهم، ما يكون امتداداً لما فهمناه من توجيههم إلى الإحسان؛ باتباع القرآن، والإيمان بنبي القرآن: النبي العربي محمد عليه الصلاة والسلام ..

لأن رجاء الرحمة من الله .. تكون بتنفيذ أمر الله، وبطاعة الله وطاعة رسول الله؛ قال سبحانه: « وأطيعوا اللهَ والرَّسُولَ لعلكم تُرْحَمُونَ ».

(سورة آل عمران ٣ / ١٣٢).

وقال جل شأنه في معرض الكلام عن بني إسرائيل:

« وَهَذا كِتابٌ أَنزَلْناهُ مُبارَكٌ فاتبعوهُ واتقوا لعلكُمْ تُرْحَمُونَ ».

(سورة الأنعام ٦/ ١٥٥).

ثم ولقد وعد الله سبحانه بني إسرائيل أنفسهم: أن رحمة الله التي وسعت كل شيء لا تشملهم، إلا إذا اتبعوا النبي الأمي العربي الذي جاء مصدقاً لما معهم؛ فرجاء الله سبحانه هذا بالرحمة لهم، إنما هو توجيه إلى وجوب أن يَفُوا بعهدهم مع الله، بالإيمان بخاتم رسل الله صلى الله عليه وسلم ...

ولقد أكد الله لهم ذلك حتى للسبعين المختارين منهم، وحتى عقب دعاء موسى عليه السلام لهم ...

ويكفي أن نتدبر خاشعين قول الله عنهم:

« وَاخْتارَ موسى قَوْمَهُ سَبْعينَ رَجلاً لِميقَاتِنَا، فلمَّا أَخذَتْهمُ الرجفةُ قالَ: رَبِّ لو شِئْتَ أَهلَكتهمُ مِن قبلُ وإيايَ، أَتُهلِكنَا بِمَا فعلَ السُّفهاء منَّا؟، إنْ هِيَ إلاَّ فِتنتكَ: تُضلُّ بِهَا مَن تشاء وتَهدي مَن تشاء: أنتَ وَلينَا، فاغفرْ لنا وَارْحَمْنَا وأنتَ خيرُ الغافرينَ * واكتبْ لنا في هذهِ الدنيا حَسَنَةً وَفي الآخرةِ إنَّا هُدْنَا إليكَ.

قالَ : عَذابى أُصيبُ به مَنْ أشاءُ ، ورحمتى وسعتْ كلَّ شيءٍ .
فسأكتُبها للذينَ يتقونَ ويؤتونَ الزكاةَ والذين هُم بآياتنا يؤمنونَ *
الذينَ يَتبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ : الذى يجدونَه مكتوباً عندهمْ فى التوراةِ
والإنجيلِ : يأمرهُمُ بالمعروفِ وينهاهم عَنِ المنكر ، وَيحلُّ لهمْ الطيباتِ ، ويحرمُ
عليهمُ الخبائثَ ، وَيضعُ عَنهمْ إصرَهُمْ والأغلالَ التى كانتْ عَليهمْ ،
فالذينَ آمنُوا بِه وعزّروهُ ونصروهُ واتبعُوا النورَ الذى أنزلَ معهُ أولئكَ
همُ المفلحونَ » (سورة الأعراف ٧ / ١٥٥ — ١٥٧).

ولعلنا بهذه الإشارة السريعة نستطيع أن نتدبَّر العلاقة : بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى ، وبين الإسراء وإفساد بنى إسرائيل ، وبين القرآن والتوراة ، وبين محمد وموسى عليهما السلام ، وبين الإحسان ، والرحمة ، والعودة . . .

ثم وبين الرحمة وعذاب جهنم ، بل وبين الرحمة والقرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، فى قوله سبحانه فى الآيتين ٨ ، ٩ من سورة الإسراء نفسها :

«عَسى ربكمُ أن يَرْحمكمُ وإنْ عدتمْ عُدْنا وَجعلنا جهنمَ للكافرينَ حصيراً *
إنَّ هذا القرآنَ يَهدِى للتى هِىَ أقومُ ، ويبشرُ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ
الصالحاتِ أنَّ لهم أجراً كبيراً » .

الباب الثالث

الفصل الثالث

الفلاح والنصر

الفلاح فى لغة العرب .

الفلاح من القرآن الكريم .

الذين لا يفلحون .

رجاء الفلاح وأسبابه .

تحقيق الفلاح من القرآن .

النصر فى لغة العرب .

النصر من القرآن ومراحل اكتسابه .

بعض الأوامر العسكرية لعمر بن الخطاب .

دراسة أحوال العدو العسكرية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية .

الفلاح والنصر

الفلاح والنصر : هما المطلبان الأساسيان ، لكل إنسان ، مهما كان ، فى كل زمان ومكان . . .

الفلاح فى لغة العرب :

والفلاح كما قال « ابن فارس » فى « معجم مقاييس اللغة » أصلان صحيحان : « الأول : الشق ، والثانى : البقاء والفوز » . . . شق الأرض ، وفلحها واستثمارها للانتفاع بخيراتها ، ويشمل الانتفاع بكل خير ، وأما البقاءُ والفوز فهذا الذى يهمنا كثيرا الآن .

ويقول « الراغب » فى «مفردات غريب القرآن » : . . « والفلاح : الظفر وإدراك الطلب ، وذلك ضربان : دنيوىّ وأخروى ، فالدنيوى : الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياة الدنيا ، وهى البقاء ، والغنى ، والعز . . . وفلاح أُخروى وذلك فى أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغِنًى بلا فقر ، وعِزّ بلا ذُل ، وعلم بلا جهل ؛ ولذلك قيل : لا عيش إلاّ عيشُ الآخرة ، وقال : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان. . .ألا إن حزبَ الله هم المفلحون . . .» .

الفلاح من القرآن الكريم :

وقد دارت مادة «أفلح» فى القرآن كله ، أربعين مرة ... منها رجاء الفلاح بقوله : تعالى « لعلكم تفلحون » ١٢ مرة ، ومنها تحقيق الفلاح بقوله « هم المفلحون » ١٢ مرة كذلك ؛ وأسباب كلٍ من هذا وذاك، ثم تأكيد الفلاح بأسبابه ثلاث مرات، ثم نَفْيُ الفلاح والإفلاح، وأسباب ذلك فى ١٣ مرة. .

الذين لا يفلحون :

أما الذين لا يفلحون بصريح القرآن ، فهم الكذابون ، والمفترون ، والظالمون ، والمجرمون ، والساحرون . والكافرون . . ويكفي كمثل لذلك : قوله تعالى في سورة الأنعام ٦/١٣٥ : «قلْ يا قومِ اعملوا على مكانتِكمْ إنّي عاملٌ فسوفَ تعلمونَ من تكونُ له عاقبةُ الدّارِ ، إنّهُ لا يُفلحُ الظالمونَ » . . . فهذه الصفات لا يفلح صاحبها أبدا : الكذب، والافتراء ، والإجرام . . .

رجاء الفلاح وأسبابه :

وأما رجاء الفلاح ، فقد دل الله على أسبابه ، والرجاء من الله محقق من جانب الله ، بمقدار مايتحقق من أسبابه من جانب البشر ، فإذا قال الله سبحانه مثلا : « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » ، كان الفلاح محقق من الله بمقدار ما نحقق نحن من ذكرنا لآلاء المنعم ونعمه والإفادة منها .

ومن الأسباب التي تقرب إلى الفلاح : عدم الالتواء ، وعدم الانحراف ، وعدم البهتان ، والدخول إلى كل شيء من بابه ؛ من غير لفّ ولا دوران :

« . . . وأتوا البيُوتَ مِنْ أبوابهَا ، واتقُوا اللهَ لعلكُمْ تُفلِحونَ » .

(سورة البقرة ١٨٩) .

ومنها : التماس أسباب النصر وإعداد الوسائل ، والاستعداد للجهاد ، والسعي على المعاش ، وابتغاء فضل الله ، واجتناب الفواحش والشرور .

ولعله يحسن بنا هنا أن نشير إلى أن رب العزة سبحانه أمرَ بواحدةٍ عامة للجميع وفي جميع الحالات ؛ مع الواحدة الدائمة وفي كل الحالات : وهما الذكر ، والتوبة ، ثم قسم الحالات وَوزّع عليها الأوامر ؛ فكانت الحالات ثلاثا ،

والأوامر عشرة للمؤمنين ؛ لعلهم يفلحون ...

أما الأمر العام للجميع فى جميع الحالات فهو :التوبة : «. وتوبوا إلى الله جَمِيعًا أَيُّها المُؤْمِنُونَ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . (سورة النور ٢٤/٣١) .

وأما الأوامر المقسمة فهى :

(ا) أربعة أوامر فى وقت السلم : « يا أَيُّها الذِينَ آمنُوا : اركَعُوا ، واسْجُدوا ، واعْبُدُوا ربَّكُمْ ، وافْعَلُوا الخَيْرَ ، لعلَّكُمْ تُفلحُونَ » .

(سورة الحج ٢٢/٧٧) .

(ب) أربعة أوامر وقت الاستعداد للحرب : « يَا أَيُّها الذِينَ آمنُوا اصْبِرُوا ، وصَابِرُوا ، ورَابِطُوا ، واتَّقُوا اللهَ لعلَكُمْ تفلحُونَ » .

(سورة آل عمران ٣/٢٠٠) .

(ح) أمران فقط فى حالة المعركة الحربية : « يَا أَيُّها الذِينَ آمنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً : فَاثْبُتُوا ، واذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(سورة الأنفال ٨/٤٥) .

هذه هى الأوامر العشرة الإلهية السلمية والحربية والاستعدادية ، بعد الأمر العام بذكر الآء الله دائما ، والتوبة دائما ، وكل أمر من هذه الأوامر يحتاج إلى وقفات ، ومجلدات . . . ومجهودات للتخطيط بها ، وتنفيذها ، ومتابعة العمل بها ، بعد شرحها ، وتعميق فهمها . . . ويكفى أن نشير فعلا إلى : وافعلوا الخير ، ورابطوا ، واثبتوا . . . كيف نصل إلى أبعادها ، وأهدافها ، وانتشارها . . . ؟ ! لنصل بها سريعاً إلى الفلاح الأكيد ، والنصر المحقق بعون الله .

تحقيق الفلاح من القرآن الكريم :

وأما تحقق الفلاح ، فهو للمتقين ، والذين يريدون وجه الله ، والمؤمنين المخلصين الصادقين ، ولمَنْ طهَّر نفسه وتزكَّى ، ولحزب الله ، وللذين يدعون إلى الله ، وللمجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . . .

ويكفى أن نشير إلى بعض الآيات :

١ — « لاَ تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ باللهِ والْيومِ الآخرِ يُوَادُّونَ مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلو كَانُوا آباءَهُمْ أَوْ أبْنَاءَهم أَوْ إخْوَانَهُمْ أَوْ عشِيرَتَهُم أُولئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمانَ وأيَّدهُمْ بِرُوحٍ مِنهُ ويُدْخِلهُم جَنَّاتٍ تجْرِى مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ، رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ وَرَضوا عَنْهُ ، أُولَئكَ حِزْبُ اللهِ : ألاَ إنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المُفْلِحُونَ » .

(سورة المجادلة ٥٨ / ٢٢) .

٢ — « . . . وَيؤْثِرُونَ عَلى أنفُسِهِمْ وَلَو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأُولَئِكَ هُمُ المفلِحُونَ » . (سورة الحشر ٥٩ / ٩) .

٣ — « لَكِنِ الرَّسُولُ وَالذِينَ آمنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأموالِهِمْ وأنفسِهِمْ وَأولَئِكَ لَهُمُ الخَيْرَاتُ وأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » .

(سورة التوبة ٩ / ٨٨) .

٤ — « وَلْتَكُنْ مِنكُمْ أُمَّةٌ : يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المفلِحُونَ » .

(سورة آل عمران ٣ / ١٠٤) .

٥ — « قَدْ أفْلح المُؤْمِنونَ * الذينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * والذِينَ هُم عَنِ اللَّغْوِ مُعرِضُونَ * والذِينَ هُم للزَّكَاةِ فَاعِلونَ * والذِينَ هُم لِفرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إلاَّ عَلَى أزْواجِهِمْ أو ما مَلَكَتْ أيْمانُهُمْ فَإنَّهُمْ غيرُ مَلومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى ورَاءَ ذَلِكَ فأُولئِكَ هُمُ العادُونَ * والذِينَ هُمْ لِأَمانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * والذِينَ هُمْ عَلى صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ . . . » . (أول سورة المؤمنون ٢٣/١ — ٩) .

٦ — « ونَفْسٍ وما سَوَّاها * فأَلْهَمَهَا فُجُورَها وتقْواهَا * قَدْ أفْلَحَ مَنْ زَكَّاها * وقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها » . (سورة الشمس ٩١/٧ — ١٠) .

٧ — « والوَزْنُ يَوْمئِذٍ الحَقُّ ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُم المفلِحُونَ » . (سورة الأعراف ٧/٨) .

النصر فى لغة العرب :

والنصر هو العون ، والتأييد ، وإيتاء الخير ، وإتيانه . .

وهو : الوصول إلى ما يشرح الصدر ، ويطمئن النفس ، ويصل بالإنسان إلى مقصوده ، ويجعل الإنسان مستقراً هادئاً سعيداً . . .

ويكون ذلك : بدفع الظلم والشر ، والوصول إلى البرّ والخير . .

كما يكون أولاً ، بأن ينتصر الإنسان على نفسه، ويتغلب على جميع النزوات والنزعات ، والانحرافات والشهوات ، والآثام . . . وهو الجهاد الأكبر ، ثم يكون ثانيا ، بالنصر على أعداء الله ، وأعداء الوطن ، وأعداء الخير والعدل، والحق ، والنظام ، والإنسانية ...

ويقول الراغب فى مفردات غريب القرآن : « ونصرة العبد لله ، هو : نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه ، وليعلم الله من ينصره ، إن تنصروا الله ينصركم . . . »

النصر من القرآن ومراحل اكتسابه :

ولقد تكررت مادة النصر والانتصار فى القرآن الكريم ١٤٢ مرة .

ولاكتساب النصر مراحل كثيرة ، نشير إلى بعضها من غير شرح ولا ترتيب ، ولكن مع ملاحظة المراحل السابقة أيضاً ، وما دار فى الكتاب كله : طولا وعرضاً . . . وبخاصة الفصل الرابع من الباب الثانى ، والذى عنوانه: « الخلق والتفكير » من صفحة ٢٤٩ إلى صفحة ٣٠١ من هذا الكتاب .

ثم ؛ ومن الواجب العلمى المؤكد : أن نقرأ هنا بكل تدقيق وتمحيص وتأكد:العنوان الأخير من هذا الفصل وهو خاص بالنصر وعنوانه : « الأخلاق وعمل الخير :أقوى أسلحة الفلاح والنصر » ،من صفحة ٢٩٢ إلى صفحة ٣٠١... ففيه الكثير من الإفادة ، ولا داعى هنا إلى الإعادة ؛ بل حسبنا هنا أن نشير إلى شىء من الزيادة ، بذكر بعض المراحل لاكتساب النصر ، « وما النصر إلا من عند الله » .

١ — تبدأ مراحل النصر بالإعداد والاستعداد للجهاد : الإعداد لجميع أطراف القوة المعنوية ، والاستعداد بكل المستطاع . . . من كلّ القوى ومصادرها العلمية ، وإمكانياتها الدينية والإنسانية ؛ وبخاصة من الناحية العملية والتكنولوجية ؛ وعلى الأخصّ من القوة العسكرية :

« وأعِدُّوا لَهُمْ ما استَطَعْتُمْ : مِنْ قوَّةٍ ، ومِنْ رِباطِ الخَيْلِ . . . » .

(سورة الأنفال ٨/٦٠) .

٢ - الاتحاد ، وتجميع الكلمة ، وتوحيد الصف ، والاعتصام بالله والثبات ، والقضاء على التفرق والشائعات . . . كل ذلك مفتاح النصر الحقيقي ؛ بل وهو كذلك : مصدر القوة الحقيقية :

« . . . واعْتَصِمُوا بِاللهِ هوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ » .
(سورة الحج ٢٢/٧٨) .

«وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» .
(سورة المائدة ٥/٥٦) .

٣ - التحريض على القتال ، والدعوة إلى الجهاد : على بصيرة وعمق وإخلاص ، وبالحكمة والموعظة الحسنة والإقناع ، وعن استقامة ورحابة صدر واقتناع .

« . . . وحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، واللهُ أَشَدُّ بَأْساً وأَشَدُّ تَنْكِيلاً » . (سورة النساء ٤/٨٤) .

٤ - التجارة المنجية مع الله :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » . (سورة الصف ٦١/١٠ - ١٣) .

٤ — الصف والبنيانُ المرصوص :

« إن اللهَ يُحبُّ الَّذينَ يُقاتِلونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كأنَّهُم بُنيانٌ مَرصوصٌ » . (سورة الصف ٦١/٤) .

٥ — القتل أو الانتصار ، ولا ثالثة :

« . . . ومَنْ يُقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ ، أو يَغْلِبْ ، فَسَوفَ نُؤتِيهِ أجْراً عَظِيماً » . (سورة النساء ٤/٧٤) .

٦ — عدم الفرار إلا لتنفيذ خطة عسكرية :

« يا أيُّها الذينَ آمنوا إذَا لَقِيتُمُ الذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ * ومَنْ يُوَلِّهِم يومَئِذٍ دُبُرَهُ إلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزاً إلى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغضَبٍ مِنَ اللهِ ومأواهُ جهنَّمُ وبئسَ المَصِيرُ » .

(سورة الأنفال ٨/١٥ — ١٦) .

٧ — عدم الإعجاب بكثرة العدد والعتاد ، وعدم حُبِّ أى شيء أكثر من الجهاد :

« قُل إنْ كانَ آباؤُكُم وأبناؤُكُم وإخوانُكُم ، وأزْواجُكُم وعَشِيرَتُكُم وأموالٌ اقترفتموها ، وتجارةٌ تَخْشَونَ كَسادَها ، ومَساكِنُ تَرْضَونَها : أحَبَّ إليكُم مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ وجهادٍ فى سَبِيلِه ، فتربَّصُوا حتَّى يأتِىَ اللهُ بِأمرِهِ ، واللهُ لا يَهدِى القَومَ الفَاسِقِينَ *

لَقَد نَصرَكُمُ اللهُ فى مواطِنَ كَثيرةٍ ، ويَومَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُم فَلَم تُغنِ عنكُم شَيْئاً وضاقَتْ عَلَيكُمُ الأرضُ بِما رَحُبَتْ

ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ • ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ».
(سورة التوبة ٩/ ٢٤ — ٢٦).

بعض الأوامر العسكرية لعمر بن الخطاب :

لقد كان الراشدون خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم يوصون أجنادهم في الحرب، ويبعثون إليهم بالأوامر العسكرية المؤدية إلى النصر . . .

كتب عمرُ إلى سعد بن أبي وقاص :

« أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب،

وآمرك ومن معك: أن تكونوا أشدّ احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإنّ ذنوب الجيش أخوفُ عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصَرْ عليهم بفضلنا لم نَغلبهم بقوتنا . . .

فاعلموا أنّ عليكم في سَيرِكمْ حَفظة من الله يعلمون ما تفعلون ؛ فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله .

ولا تقولوا : إن عدونا شرّ منا فلنْ يُسلَّط علينا ؛ فربَّ قومٍ سُلِّط عليهم شر منهم . . .

واسألوا الله العون على أنفسكم ؛ كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وترفقْ بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمهم مَسيراً يتعبهم، ولا تُقصِّر بهم

عن منزلٍ يَرفق بهم ؛حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم . . .

وأقم بمن معك فى كلّ جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة : يحيُون فيها أنفسهم، ويَرمُّونَ أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً . .

وإذا وطئتَ أرض العدو فأذْكِ العيونَ بينك وبينهم ،ولا يَخْفَ عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض مَن تطمئن إلى نصحه وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدَقك فى بعضه ، والغاشّ عَيْنٌ عليك وليس عينا لك . . . [ثم تحدث عمر عن الطلائع والعيون فقال]. . .

واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد،والصبر على الجلاد ،ولا تخص بها أحداً بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابَيْتَ به أهل خاصتك . ولا تبعثن طليعة ولا سريةً فى وجه تتخوف فيه غلبةً أو ضيعة أو نكاية . . .

وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها . . .

ثم أذْكِ أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك . . .

والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان».

دراسة أحوال العدو العسكرية والنفسية والاجتماعية والأخلاقية :

وهذه الدراسات يجب أن تكون على مستوى علمى دقيق ، بحيث تكشف من العدو كل نقط الخوف والضعف والإهمال والنقص . . . ، لأن هذه الدراسات تقوم عليها عناصر : المفاجأة ، وإلقاء الرعب ، والثبات ،

وقد نبّه القرآنُ إلى هذا كله فيما كشف للمؤمنين ، عن حال بنى إسرائيل ؛ فى مثل قوله :

« ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ ، ويَقْتُلونَ الأنبياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ » . (سورة آل عمران ٣/١١٢) .

بل لقد أكد ذلك رب العزة لما سَجل الخطة الحربية العامة ، وبين فيها الخطوط الرئيسية للنصر ، وحصرها فى ثلاث كلمات كان فيها النصر الأكبر فى بدر :

هذه الكلمات الثلاث هى : الثبات ، الرعب ، الضرب :

ثبات ، فى قلوب المؤمنين ؛ كلف الله به الملائكة وهو معهم . . .

والرعب فى قلوب الكافرين ، تفرد رب العزة سبحانه بإلقائه فيهم . .

والضرب من المؤمنين الثابتين فوق أعناق الكافرين المرعوبين للإجهاز عليهم ، أوضرب كل بنان وأصبع ومحرك لتعجيزهم .

ومن عجب أن يكون الأمر العسكرى الأول فى المعركة الالتحامية هو : الضرب السريع فوق الأعناق والرقاب والرؤوس...للإجهاز السريع على العدو ؛ فإن تعذر ذلك كان الضرب سريعاً أيضاً لكل بنانٍ وأصبع ومحرِّك ومتحرك... للتعجيز ، ولشلّ حركة العدو . .

والأعجب أن يأمر الله الملائكة : أن يقوموا بعملية التثبيت للمؤمنين

وأن يتولى هو سبحانه إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين ،

وأن يأمر المؤمنين بالضرب فوق الأعناق وكل الأصابع والمحركات. . .

فيقول سبحانه عن تخطيط النصر فى « بدر » : إرشاداً للمؤمنين إلى قيام الساعة لـكيفية إحراز النصر :

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائكةِ أَنِّى مَعَكُمْ فثبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سأُلقِي فى قُلوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ؛ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأعْنَاقِ واضْرِبُوا مِنْهمْ كلَّ بَنانٍ » . (سورة الأنفال ٨/١٢).

بعد أن قال سبحانه للمؤمنين :

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ المَلائكة مُرْدِفِينَ * ومَا جَعَلَهُ اللهُ إلاّ بُشْرَى ، وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إلا مِنْ عِنْدِ الله ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

وجند الله لا تُسْبق بل تَسبق كلَّ جُندٍ وقوةٍ للكافرين . .

وجند الله لا تعجز بل تعجز كل قوة وجند للمعتدين . . .

وَلكن مَلائِكة الله المُردِفين وَالمنزَلين وَالمُسَوَّمينَ . وَجنُوده التِي لاَ يَعلمُها إلاّ رب العَالمينَ . . إنَّما يُسَخِّرها الله سُبْحَانه لِعبَادِهِ المُؤمِنِين ، الَّذِينَ يُعدُّون وَيَستَعِدُّون ، بِكل طَاقَاتِهم وَبكل ما يَستَطِيعُونَ . . .

يقول رب العزة والنصر للمؤمنين ، فى (سورة الأنفال ٨ / ٥٩ — ٦٠) :

« وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفرُوا سبقوا إنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُون *

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتمْ مِن قوَّةٍ وَمنْ رِبَاط الخَيْل ، تُرْهِبون به عَدُوَّ اللهِ ، وعَدُوَّكُم ، وآخَرِينَ مِنْ دُونِهمْ لا تَعلمُونَهم اللهُ يعلمُهمْ ؛ ومَا تُنفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إلَيْكُمْ وَأَنْتمْ لاَ تُظلمُونَ » .

الباب الثالث :

الفصل الرابع

الماء والمال هما عصب الحياة

الإحياء والإبقاء :

الماء عصب الحياة الطبيعى

الماء من القرآن الكريم .

الفلسفة العلمية والعملية والمعملية من الماء .

الفلسفة المادية للماء بين طاليس والتوراة والقرآن .

إسكان الله للماء فى الأرض .

خلق الله الإنسانَ من الماء وجعله نسبا وصهراً .

مرج الله لماء البحرين : العذب الفرات ، والملح الأجاج .

دفع القرآن الإنسانية إلى الفلسفة والعلم والتدبر والفهم .

المال عصب الحياة التنظيمى

المال من القرآن الكريم :

١ — وظيفة المال .

٢ — الإنسان مستخلف فى المال وسيحاسب عليه .

٣ — واجب الفرد وحق المجتمع والدولة فى المال .

٤ — التأمين كله من كلمة .

٥ — تنظيم المال فى يد الفرد .

٦ — تنظيم المال فى المجتمع .

٧ — حق الدولة فى تنظيم المال للفرد والمجتمع .

الماء والمال هما عصب الحياة

مقدمة : الإحياء والإبقاء :

الحياة : إحياء ، وإبقاء ،

وعصب الإحياء هو الماء ، وأما المال فهو عصب الإبقاء ؛

لكن الماء يشترك فيه كل حيٍّ من نبات وحيوان ،

وأما المال فهو من خصائص الإنسان ،

وكما أن الماء هو المشترك الطبيعي الضروري ،

فيجب أن يكون المال هو المشترك الحتمي التنظيمي . . .

ولما كان القرآن ؛ لحياة الإنسان كله ، وسعادة الإنسان جميعا :

كان لا بد من أن يلفت رب القرآن، جميع الدنيا في كل زمان ومكان . . .

إلى ما يحقق الحياة الطبيعية الضرورية ،

وإلى ما يحقق لهذه الحياة السعادة الحتمية التنظيمية ؛

وعلى ضوء هذه النظرة الفاحصة الشاملة، نستطيع أن نتبين عناية الله الكاملة؛ بتوجيه العالمين إلى تتبع أخبار الحياتين : الطبيعية ، والتنظيمية .

كما نستطيع أن نتفهم دفع الله للعلماء والمتخصصين ؛ إلى كشف أسرار القوتين : المائية ، والمالية . .

ويجب أن نتأكد سريعا وفي كل زمان : من أن دراسة كلٍ من المال

أو الماء من القرآن ؛ تحتاج إلى كل الفلسفات ، والتخصصات ، والعمليات . . . على مدى الأزمان والبيئات ، وعلى جميع المستويات والتنظيمات ، وعند جميع الأفراد والمجتمعات . . .

لكنّا هنا سنشير فقط إلى بعض اللبنات، وسنلمح فقط إلى بعض اللمحات والتوجيهات : التى تصلح فى تأسيس القواعد من القرآن ؛ لنمهد الطريق إلى مواصلة البنيان ، والله المستعان .

الماء عصب الحياة الطبيعي

الماء من القرآن الكريم :

وعلى الرغم من جريان الماء فى مئات الآيات : بحاراً ، وأنهاراً ، وإنساناً ، وحيواناً ، وسحاباً ، ومطراً ، وإنباتاً ، وخلقاً ، ورزقا، وتكوينا ، وحياةً ، وإمساكا على كل الأحياء والحياة . . . فإنى سأشير فقط إلى ثلاث آيات :

الفلسفة العلمية والعملية والمعملية من الماء :

قال رب العزة سبحانه فى الآيتين ١٧ و ١٨ من سورة المؤمنون ٢٣ :

« ولَقَدْ خلقْنا فوقَكُمْ سَبْعَ طَرائقَ ومَا كُنَّا عن الخَلق غَافِلينَ * وأنزلنا مِن السَّماء ماءً بِقَدرٍ فأسكَنَّاهُ فى الأرضِ ، وإنّا على ذهَابٍ بِهِ لقَادِرُونَ » .

هذا الماء : على بساطته وسهولته ويسر مجراه ، هو شىء من خلق الله ، فيه الإعجاز ، والمعجزة : لكل خلق الله ، بل فيه من المعجزات ما يعجز العالمون والعاملون عن حصره ، وتقف الدنيا بكل تخصصاتها مبهورة أمام قطرات من قطره ، بل يخشع العلماء أمام الماء ، إن حاولوا شيئاً من سره أو جهره سواء فى ذلك الماء العذب الفرات الجارى فى نهره ، أو الماء الملح الأجاج المحصور بأمواجه وتياراته فى بحره . .

يشرب به وينتفع به ويعيش عليه كل إنسان ، وكل حيوان ، بل كل الحشرات وكل الزواحف والحيات ، بل كل الأشجار والنباتات : البرية منها والبحرية . . وبعبارة معجزة قوية يقولها رب العزة :

« ...وجَعَلْنا مِنَ الماء كل شَيْىء حىّ ، أفلا يؤمنونَ » ؟! .

(سورة الأنبياء ٢١ / ٣٠) .

وتعالوا معى أيها المؤمنون بخالق الأرض والسماء ، لنتفهم ما نستطيع الآن من حول معجزة الماء ، تلك المعجزة التى ربط فيها رب العزة بين الأرض والسماء ، والتى هزت أعماق الفلاسفة والعلماء ، المحدثين منهم والقدماء .

الفلسفة المادية للماء بين طاليس والتوراة والقرآن:

فمن القديم مثلا : استولت معجزة الماء على أقدم فلاسفة اليونان ، وهو طاليس الملطى ، وكان هو من « الماديين » الذين عاشوا حوالى القرن السادس قبل الميلاد ، ويطلق عليهم « أرسطو » اسم « الطبعيين الأولين » ، كما يُطلق عليهم « المدرسة العلمية » .

وقد بَنَى طاليس فلسفته كلها على كلمة واحدة ، هى: الماء ؛ فقال : « أصل الكون ماء »،وأخذ يبرهن ويستدل على أن الكون كله بجميع أجزائه وجزئياته قد وجد من الماء ، وينتهى إلى الماء ، وحاول أن يؤكد أن جميع العناصر والظواهر إنما ترجع إلى الماء . . . ؟

ولكننا يجب أن نسأل أنفسنا الآن ، أو أن نسأل طاليس نفسه : هل عرف كل الكون؟ وهل استطاع أن يدخل حتى العناصر التى عرفها إلى المعمل ؟ وهل عرف كل العناصر ؟ وهل اكتشف كل الظواهر ؟ : وهل ، وهل . . .

وليس أمام التحقيق العلمى والفلسفى الآن؛إلا أن يقرر فى وثوق واطمئنان: أن طاليس وقد عاش كثيراً فى مصر ، وتربى فلسفياً أو فكريا على يد كهنة آمون وعين شمس فى مصر . . لا بد من أن يكون قد قرأ التوراة ، وفى مفتتحها « سفر التكوين» الذى يفصّل فى إيجاز أن جميع المكونات كونها الله من الماء ، فترك طاليس — لأنه مادى — المكوّن سبحانه ، ونظر إلى المكوّنات فقط ، فقال « أصل الكون ماء » ، وبنى فلسفته كلها على تفصيل هذا القول . .

ولكن القرآن الكريم، وهو كلام رب العالمين: المصدق والمكمل والمهيمن على كل الكتب السماوية وما أنزل رب العالمين: يبين أن الله سبحانه خلق كل الدواب من الماء، وجعل الحياة والإحياء، وبقاء الحياة فى كل حىّ ... من الماء؛

فقال سبحانه فى سورة النور ٢٤/٤٥:

« واللهُ خَلَقَ كلَّ دابةٍ مِن ماء فَمِنهُمْ مَن يَمشى على بَطنِهِ ومِنهُمْ مَنْ يَمشِى على رجلين، ومنهمْ مَنْ يَمشِى عَلى أربَعٍ: يَخلقُ اللهُ ما يَشاء، إنَّ اللهَ على كلِّ شىء قَديرٌ ».

وقال سبحانه فى سورة الأنبياء ٢١/٣٠:

« أوَ لَمْ يَرَ الذينَ كفرُوا أنَّ السَّموَاتِ وَالأرْضَ كانتَا رَتقاً فَفَتَقْناهما، وَجَعلْنا مِنَ الماء كلَّ شىْء حَىٍّ أفلا يُؤْمنونَ » ؟ !.

وليت معامل الدنيا تتسع أو تتحقق ؟.

وقال تعالى فى سورة الأنعام ٦/٩٩:

« وَهُوَ الذِى أنْزلَ مِنَ السَّماءِ مَاء، فأَخْرَجنا بهِ نَباتَ كلِّ شَىء.. »؟.

وقد جعل الله الماء مباركا فقال سبحانه:

« ونَزَّلنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُباركاً، فأنبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ * وَالنَّخلَ باسِقاتٍ لهَا طَلعٌ نَضِيدٌ * رِزْقاً للعبادِ وأحْيَيْنا بِهِ بلدَةً مَيْتاً، كَذَلِكَ الخرُوجُ ». (سورة ق ٥٠/٩ — ١١).

ولكن الله سبحانه فوقَ هذا لفتَ الدنيا، وهزّ العلماء إلى أنه سبحانه خلق فوقنا سبع طرائق فى السماء، أو سبع سموات هن تفصيل السماء، وأنزل منها بمقدار معلوم: الماء.. فقال سبحانه فى سورة النبأ ٧٨/١٢ — ١٦:

« وَبَنَيْنا فَوْقَكمْ سَبْعاً شِداداً ؟ ! * وَجَعَلْنا سِرَاجاً وَهَّاجاً *

وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا » .

وقال تعالى فى سورة الحجر ١٥/٢١ — ٢٢ :

« وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ » .

وليت كبار العلماء والمتخصصين فى علوم الطبيعة ، والكيمياء ، والفلك والجيولوجيا ، وطبقات الجو . . وغيرها : يتحققون ، ويحاولون الانطلاق من هذه الآيات . . . ؟

إسكان الله للماء فى الأرض:

ثم تعالوا أيضاً ، أيها المؤمنون لنقف طويلا وقفة عميقة دقيقة عند قول رب العالمين ، للعالمين ، عن الماء فى سورة المؤمنون (صفحة ٦٥٣):

« فأسكنّاه فى الأرض » ؛ الله أكبر : الله العلى القادر يجعل للماء فى الأرض مساكن يعيش فيها ، ولا يطغى على غيرها ، بل ولا يطغى بعضه على بعضه، ولا يطغى هو كذلك على غيره ؛ إلا بإذن خالقه ومالك زمام أمره . . .

نعم وقد قال سبحانه فى سورة الزُّمر ٣٩/٢١ :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِى الْأَرْضِ !» .

ثم يقول : « إِنَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْبَابِ » . . .

فلعل أولى الألباب ، والعقول الراجحة ، والعلماء . . . يستفيدون . .

ثم إنه إذا طغى الماء وهاج ، وارتفعت كالجبال منه الأمواج . . . فلا عاصم إلا الله . .

وإذا غار الماء فى الفجاج ، وإذا أصبح الماء كالملح الأجاج . . .

فلا ملجأ ولا مُنقِذَ إلا اللهُ . .

وصدق الله مالك الملك ، القائل فى الآية ٣٠ من سورة الملك / ٦٧ :

« قُلْ أرأيتمْ إن أصبحَ ماؤُكم غَوْراً ، فمَنْ يَأْتيكمْ بماءٍ مَّعِينٍ » ؟!

فاقرعوا يا أيها المؤمنون بالله : باب الله، وتدبروا فى آيات الله :

« أَفرأيتُم المَـاءَ الذِى تَشْرَبونَ ؟ * أأنتمْ أنزلْتُموهُ مِنَ المُزْنِ أمْ نحْنُ المُنْزِلون ؟ * لوْ نَشَاءُ جعلْناهُ أُجاجاً فَلَوْلاَ تَشكرُونَ » ؟! .

(سورة الواقعة ٥٦/٦٨ — ٧٠) .

واشكروا الله ما استطعتم بالعلم والعمل: فى إخلاص ومضاء: بما فى آيات الله من بعض أسرار المـاء ، وما يستفيد من هديه المتخصصون والعلماء . . .

خَلَق الله الإنسانَ من المـاء وجعله نسبًا وصهراً :

قال رب العزة سبحانه فى سورة الفرقان ٢٥/٥٤ :

« وَهُوَ الذِى خَلَقَ مِنَ المَـاءِ بَشرًا فَجَعَلَهُ نَسَبـاً وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا » .

يا سبحان الله ، جعل المـاء عَصبَ الحياة ، عليه يحيا كلُّ حَيٍّ ، ومنه خلق الله جميع الأحياء . وعلى قمة أحياء الأرض : الإنسان . . .

فالله سبحانه خلق البشر من مادة واحدة هى الماء ، ومنه تشعب الإنسان ، حتى صار شعوبا وقبائل ، واللبنة الأولى فى تـكوين كل مجتمع : هى الأسرة ، والأسرة : نسبٌ ، وصِهرٌ . . .

والنسب هو القرابة من جهة الفرد ، بالطول : كالآباء ، والأبناء ، وبالعَرضِ : كالإخوة ، والأعمام .

والصِّهرُ هو القرابة من جهة الزوج ، فأهل الزوج ونسبه ، صهر لزوجه

ونسبه .. ويطلق على كل من الذكر والأنثى : زوجٌ ، وزوجُه . .

وإذا كان كل البشر قد خلق من مادة واحدة ، فلا بد من التعاون والمشاركة ، والتراحم ، والإخاء ، والمحبة ، والود . .

وعلامَ إذَنْ — ومادة الخلق واحدة — يكون : التنافر ، والتخالف ، والتباغض ، والحقد ؟

ثم إن مراحل التكوين واحدة لجميع البشر : « من سُلالة من ماءٍ مَهين » ثم من نطفة فى قرار مكين ، ولا بد من أن تكون من ماء دافق : يخرج من بين الصلب والترائب ، ثم خلق الله النطفة علقة ؛ وخلق العلقة مضغة ، وخلق من المضغة عظاماً ، ثم كسى العظام لحماً ، ثم أنشأه سبحانه خلقاً آخر : يتزوج ويتزاوج ويتصاهر ؛ ليحافظ على النوع ، ويحافظ على النسب والصهر . . .

هؤلاء بنو آدم الذين كرمهم الله : يجب أن يكرموا من كرمهم ، ويمتثلوا ويطيعوا من خلقهم ، والله قال عنهم سبحانه فى سورة الإسراء ١٧/ ٧٠ :

« ولقدْ كرَّمْنا بَني آدمَ وَحَملناهُم فى البرِّ والبحرِ ، ورَزقناهمْ مِنَ الطيباتِ وفضَّلْناهُمْ على كثيرٍ ممَّنْ خَلقْنَا تَفضيلاً » . . .

وهناك من البشر أبو البشر آدم عليه السلام : خلقه الله أيضاً من الماء ، ليكون هو وبنوه خلفاء عن الله فى الأرض .

ومراحل خلق آدم عليه السلام ، كما يستفاد من القرآن الكريم : الماء ، والتراب ، وبامتزاجهما يكون « الطين » ، ثم سلالة من طين ، والسلالة هى الصفوة المنتقاة المختارة الموجهة والمتسلسلة . . .

وخامسا : الطين اللازب ، وسادسا : الحَمأُ المَسْنون ، وهو الحرارة التى تعالج بها هذه السلالة اللازبة ، حتى تصير مسنونة مستوية سهلة ؛ تصلح للتكوين

وسابعا وثامنا صلصال : متماسك بدأ لينًا طريًّا ، وعولج ببعض الحرارة حتى صار متناسقًا قويا ، فهو صلصال كالفخار.

وتاسعاً : التسوية بإضافة النفس إلى الجسد ، وهى المرحلة التى بين تمام الفرد وجعله زوجين : ذكراً وأنثى ، وصدق الله :

«أَيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدىً؟* أَلَمْ يَكُ نُطفةً مِن مَنِىٍّ يُمْنَى؟* ثم كانَ علَقةً فَخَلَقَ فَسوَّى* فَجعلَ مِنهُ الزَّوْجينِ: الذكرَ والأُنثَى* أليسَ ذَلكَ بِقادرٍ عَلى أنْ يُحيِيَ الموْتَى» ؟ ! .(سورة القيامة ٧٥/٣٦ — ٤٠) ،

وقد قال تعالى : « سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأعْلَى* الذى خَلقَ ، فَسَوَّى » .
(سورة الأعلى ٨٧ / ١ — ٢) .

وقال : « قَالَ لهُ صَاحِبُهُ وهُوَ يُحاوِرُهُ ، أَكفَرتَ بالذى خلقَكَ مِن تُرابٍ ثم مِن نُطفةٍ ، ثم سَوَّاكَ رَجُلاً ؟ ؟ » . (سورة الكهف ١٨/٣٧) .

وقال جل شأنه : « يَا أَيُّها الإنسَانُ ؟ مَا غَرَّكَ بِرَبكَ الكَرِيمِ * الذى خَلَقكَ فَسوَّاكَ فعدَلكَ » ؟ . (سورة الانفطار ٨٢/٦ — ٧) .

كما قال الخالق سبحانه : «وَنفسٍ ومَا سَوَّاها* فَأَلهمهَا فُجورهَا وتَقْواهَا»
(سورة الشمس ٩١ / ٧ — ٨) .

وأخيراً نفخ الله فى الإنسان من روحه ، قال تعالى فى سورة السجدة (٣٢ / ٧ — ٩) :

« الَّذى أحسَنَ كلَّ شَىْءٍ خَلقَهُ ، وبَدأَ خَلقَ الإنسان مِن طِينٍ * ثم جَعَلَ نسلَهُ مِن سُلالةٍ مِن ماءٍ مهِينٍ * ثم سَوَّاهُ وَنفخَ فيهِ مِن رُوحِهِ . وَجعلَ لكُمُ السَمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قَليلاً ما تَشكرُونَ » .

ثم إن هناك من البشر الذين خلقهم الله جميعا من الماء ، ومن زوجين: مَن خلقه الله من ماء ، ولكن من غير زوجين ...

إما من زوج واحدٍ ذكرٍ أو أنثى ، وإما من غير الزوجين : الذكر والأنثى ...

وكل البشر غير آدم خلقه الله من زوجين ذكرٍ وأنثى ، إلا اثنين هما : زوج آدم « حواء » ، و « المسيح » ابن مريم عليه السلام .

أما زوج آدم فخلقها الله من ذكر فقط بلا أنثى ، يقول رب العزة فى أول سورة النساء /٤ :

« يا أيها الناسُ اتقُوا ربَّكمُ الذى خلقَكمُ مِن نفسٍ واحدةٍ وخَلقَ مِنها زوْجهَا وَبثَّ منهُمَا رِجالاً كثيراً ونساء ... ».
فخلق الله سبحانه حواء من نفس آدم ..

وأما المسيح عليه السلام فخلقه الله من أنثى فقط بلا ذكر ، من مريم البتول ، وقد قال تعالى إنه أرسل إليها جبريلَ فنفخ فيها ، وفى فرجها ، وبشّرها :

« ... فأرسَلنَا إليها رُوحنَا ، فتمثَّلَ لَها بشراً سويًّا * قالت إنِّى أعوذُ بالرحْمن مِنكَ إنْ كنتَ تقيًّا * قال : إنمَّا أنا رَسُولُ ربِّك لِأهَبَ لَكِ غُلاماً زَكيًّا » . (سورة مريم ١٩/١٧—١٩) .

أما آدم عليه السلام ، فقد خلقه الله سبحانه من غير الزوجين الذكر والأنثى كما خلق أبناءه ، ولهذا كان خلق آدم أدخل فى باب القدرة والمعجزة ، وكان هو المشبه به ، وعيسى هو المشبَّه ، فى قوله سبحانه وهو رب العالمين :

« إنَّ مَثَل عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثلِ آدَم خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيَكُون » . (سورة آل عمران ٣/٥٩) .

ولقد خلق الله الإنسان من ماء الأرض وتراب الأرض ، ليَعمرُها ويُعمِّرها ، قال تعالى فى سورة هود ١١/٦١ :

« ...هُوَ الذى أنشأكم مِنَ الأرضِ ، واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبُوا إليهِ إنّ ربّى قريبٌ مُجيبٌ » .

مَرجُ الله لماء البحرين : العذب الفرات ، والملح الأجاج :

قال رب العزة سبحانه فى سورة الفرقان ٢٥ / ٥٣ :

« وهوَ الذى مَرجَ البحرينِ : هَذا عذبٌ فُراتٌ ، وهذَا مِلحٌ أُجَاجٌ ، وجَعلَ بَينَهُما بَرْزَخاً ، وحِجراً مَحجُوراً » .

سبحان الله الواحد الأحد ، إن مظاهر قدرته لا تعدّ ، وإن الدلائل على توحيده سبحانه لاتحد ، ومن أجلّ مظاهر قدرة الله وأظهرها : ذلك الماء يسكن الأرض ويجرى على ظهرها .

تتفجر الأرض عنه عيونا وفوّارات ، ويسلكه الله فى الأرض ينابيع : ساكنات ، أوجاريات ، أو متدفقات...

ثلاثة أرباع الكرة الأرضية منه ، وحياة جميع الأحياء الأرضية عليه .

وهو على ظهر الأرض يجرى أنهاراً ، أو يستقر أو يتموّج كالجبال بحاراً .

ومن عجب أنه جميعاً يتركب من عنصرين أساسيين ، هما الأوكسجين والأيدروجين ، ويختلف مع ذلك إلى نوعين متميزين : عَذبٌ فُراتٌ حلوالمذاق ، وملح أجاج لا يستساغ ولا يُطاق .

فسبحان من خلط العنصرين ومزجهما ، وسبحان من أرسل البحرين ومرَجَهُمَا : مرَج كلاًّ من البحرين : مجيئا وذهابا ، واختلاطا ببعض عناصر

الأرض: رمالا وترابا ، ثم فرَّق بين البحرين : مذاقا وشرابا ، واتساعا وارتفاعا وقاعا وطِلابا ..

أجْرى سبحانه الأنهار ، من مياه الأمطار ، وعلى بسيط الأغوار . . تشق الطريق إلى البحار ،وتنزل شلالات من فوق الأحجار ، وتخترق فى مجراها السهول والقفار ، وتختلط فى مسيرها ، بكل ما فى قاعها ، أو على شطئآنها . .

ومع هذا كله ،فماؤها عذبٌ فُرات سائغ شرابه . . .

ترتوى منه النباتات ، وتشرب منه وتسقى الطيور والحيوانات ، ويستسيغه ويطهر به كل إنسان ،ويقضى به الكثير من الحاجات ، ومن مساقط مياه الأنهار تُدار الآلات ، وتولّد الطاقات ، خصوصا من الشلالات ...

ومدَّ سبحانه البحار ، بعيدة القاع والأغوار : متسعةً محيطة باليابسة كالسِوَار ، تثور وتزمجر ، وتضطرب وتستقر ، وتعلو وتهبط فى مدٍّ وجَزْر .

ترتفع أمواجها كالجبال والله الحفيظ منها ، وتبرد أطرافها فتتَجَمَّد ثلجاً على ظهرها . . . وماؤها دائمًا ملح أجاج.

ومن لطف الله بعباده أن جعل الماء إذا تجمد ثلجا : خفَّ وزنه عن الماء ؛ ليطفوَ على سطحه ، فتتفاداه السفن ، وتذيبه الشمس . . مع أن كل سائل إذا جمد ثقل وزن جامده عن سائله ؛ فينزل إلى القاع جامده ويطفو على السطح سائله . ولو حصل ذلك فى مياه البحار ، لتجمدت على مر الأيام جميع البحار ، ولما عاشت الأحياء المائية ، ولما استقرت وسلمت الشواطىء الأرضية ، ولتعطلت جميع المواصلات البحرية . . .

ومن أعجب مظاهر قدرة الخالق سبحانه ، التى يجب أن يندفع إلى تفهمها العلماء ويفيد منها الباحثون ، من حول مَرْجِ البحرين ، واختلاف مذاق المائين : ما يأتى :

أولا — أن الله سبحانه جعل بين البحرين حاجِزا ، وأسكن كل ماء في مكان من الأرض ، كما قال سبحانه :

« وأنزَلنا مِنَ السَّماء ماءً بقَدرٍ فأسكَنّاهُ فِي الأرضِ وإنّا علىَ ذَهَابٍ بهِ لقادِرونَ » . (سورة المؤمنون ٢٣ / ١٨) .

وأنه سبحانه جعل بين البحرين برزخاً ، حتى لا يطغى ماء على ماء ، فجعل بين الماءين حائلا ، ومتسعا من الأرض بسيطا أو هائلا . للإفادة من ماء العيون والآبار . .

ثانيا — أنه سبحانه جعل بين البحرين مانعا وشقةً حراماً ، فلا يتسرب في باطن الأرض ماء إلى ماء ؛ وإن التقى الماءان على ظهرِ الأرض ، لكنه سبحانه جعل بينهما حِجراً محجوراً ، يمنع ويَحُوط ويحمى ويقى . .

قال تعالى في سورة الرحمٰن ٥٥/١٩ — ٢٠ :

« مَرجَ البحرَينِ يَلتقيانِ * بينهما بَرْزَخٌ لا يَبغِيانِ » .

ثالثا — أنه على اختلاف طعم الماءين هذا عذب فرات ، وذا ملح أجاج فإن الله سبحانه أحيا فيهما الأحياء المائية . . ومن كل منها يأكل الإنسان السمك بأنواعه المتعددة ، كما يأكل ألوانا أخرى من اللحم الطرى الشهى ؛

قال سبحانه في سورة فاطر ٣٥ / ١٢ :

« . . . ومِن كُلٍّ تأكُلونَ لحمًا طريًّا . . . » .

رابعاً — في كل من البحرين : العذب والملح : أنواع من الحلىّ للناس يلبسونها ، ويتزينون بها ، قال سبحانه :

« . . وتَستَخرِجونَ حِليةً تلبَسُونَها . . . » .

خامساً — على ظهر كل من البحرين : تجرى السفن ، وتمخر المواخر ، ويبتغى

الناس فضلا من ربهم ، فهلا شكروا ؟ ... قال تعالى :

« وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

دفع القرآن الإنسانية إلى الفلسفة والعلم والتدبُّر والفهم :

أما بعد ، فقد لفت الله الفلسفة والعلم ، وهز التدبر والفهم ، وأثار فى الناس جميعا : أن يطرقوا أبواب العلم السليم ، والفهم المستقيم ، وأن يواصلوا السلوك القويم الخيِّر ، والعمل المخلص الجاد والمثمر ، ليصلوا ما بينهم وبين الله الواحد ويطهروا الأرض من كل مفسد وفاسد ، لأن الله وحده سبحانه ، هو الذى يجيب مضطرهم ، ويكشف سوءهم ، ويجعلهم خلفاء الأرض ، ويهديهم فى ظلمات البر والبحر ..

قال سبحانه فى سورة النمل ٢٧/٦١ — ٦٣ :

« أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَاراً ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ !؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٭

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ؟ أَءِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ ! قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ٭

أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ؟ . . » .

والجواب العلمى الحتم : ليس إلا الله .

« وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب » .

المال عصب الحياة التنظيمى

المال من القرآن الكريم :

لما كان المال هو عصب الحياة التنظيمى ، وقوام المعيشة الفعلى ، كان من الحتم العملى : أن يوجه القرآن إلى تنظيمه ، وكيفية اكتسابه وإنفاقه . . لتنتظم الحياة وتستمر ، وتهدأ الأرض بمن عليها وتستقر . .

وفى القرآن كل التنظيمات المالية ، والتطلعات الاقتصادية ، التى تبهر العالمين ، وتعجز المتخصصين ، وتفتح الآفاق ، إلى الآفاق ، وتشمل كل وسائل الإنتاج والإنفاق . . من بيع وشراء ، وأخذ وعطاء ، وبذل واستثمار ، وتأمين وادخار ، وإدارة أموال ، وقرض واستبدال ، ورءوس أموال ، ورهن ومقايضة ، وإنتاج ومعاوضة ، وعمل وأجر ودين ، وأمانة ، وعمالة . .

وفى القرآن كل المعاملات المالية ، والعلاقات الاقتصادية : الفردية منها والجماعية ، والدَّوْليَّة منها والدَّوَلية ، سواء منها ما جدّ على الإنسانية ، وما يجد عليها مهما توالت البشرية . . من الناحيتين السلبية والإيجابية . .

كل ذلك على أسس راسخة قوية ، من طهارة الخلقة البشرية ، وصفاء الفطرة الدينية ، وتزكية العلاقات الأخلاقية ، وتقوية الروابط الإنسانية . . .

كما يتعرض القرآن لكثير من الألوان ، التى تزلزل كيان المجتمع والإنسان ، ويعالجها سبحانه بما يصلح المجتمع ويصلح الإنسان . . .

من إمساك وتقتير ، أو بسط وتبذير ، أو ترف وفجور ، أو ربا واستغلال ، أو تلاعب بالمال ، أو رشوة أو إغراء ، أو ابتزاز أو إثراء ، أو شحٍّ أو انطواء ، أو بذخ أو رياء ، أو استضعاف للضعفاء .

ثم يربط بين ذلك كله وبين المراجعة والحساب ، والثواب والعقاب .
والقرآن بين هذا وذاك يُقَوِّم ، ويحفظ لكل ذى حق حقه ويقيم ، ثم يوجه و يخطط وينظم ، ويهدى إلى الطريق الأقوم .

وإن أهيب بجميع المتخصصين فى شئون المال والاقتصاد ، أن يطرقوا أبواب القرآن، فمن ورائها ، وعلى عتباتها ، وفى رحابها ...كل الفلاح والنجاح ، والسداد والرشاد ..

وبحسبى أن أشير الآن إلى بعض اللبنات الهاديات ، من بعض الآيات البينات..
وسأقتصر الآن على العموميات والتنظيميات ، فى إشارات هاديات .

١ — وظيفة المال :

لقد نبه الله سبحانه آدم عليه السلام قبيل إهباطه إلى الأرض ليتولى مهام الخلافة فيها ، وإدارتها . . إلى أنه وكل فرد من بنى آدم ، لابد من أن يتعب ويعمل ، ويجد ويشقى، فى سبيل حفظ حياته ، وتنظيم معيشته ، وحدّد رب العزة المطالب الإنسانية فى أربعة ، لا فى الأكل، والكسوة ، والرى ، والسكن . . حتى لا يسرف المترفون ، ويستغل المستغلون ، وإنما كانت المطالب هى : دفع الجوع والعرى، والظمأ ولفح الحر والبرد والعواصف . .فقال سبحانه عن الشيطان:
« فَقُلْنا يا آدمُ إنَّ هذا عدوٌّ لكَ وَلِزَوْجِكَ، فلاَ يُخْرِجنَّكما مِنَ الجنةِ فَتَشْقىَ * إنَّ لَكَ ألاَّ تجُوعَ فيهاَ ، ولاَ تَعْرَى* وَأنكَ لاتظْمَؤُا فيها، ولاتضْحَى» . . (سورة طه ٢٠ / ١١٧ — ١١٩).

ثم إن من وظيفة المال أيضا : الفتنة ، قال سبحانه فى سورة التغابن ٦٤/١٥:
« إنما أموالُكم وأولادُكم فِتْنةٌ ، واللهُ عِندَهُ أجرٌ عظيمٌ » .

والزينة الدنيا : قال سبحانه فى سورة الكهف ١٨/٢٦ :

« المالُ والبَنونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنيا ، والباقِيَاتُ الصَّالحاتُ خيرٌ عِند رَبكَ ثوابًا وخيرٌ أملاً » .

وهو لا ينفع عند الحساب . « يَومَ لاينفعُ مَالٌ وَلا بَنونَ * إلاَّ مَنْ أتى اللهَ بِقلبٍ سَليم » . (سورة الشعراء ٢٦ / ٨٨ – ٨٩) .

ولا يُغنِ : « إنَّ الذين كَفرُوا لن تُغنىَ عَنهُمْ أموالهُم وَلاَ أوْلادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيئاً . . . » (سورة آل عمران ٣ / ١٠) .

وهو مَشغلةٌ : « سَيقول لكَ المُخَلَّفونَ مِنَ الأعْرابِ شَغَلَتنا أمْوالُنَا وأهْلونا فاستَغفرْ لنا ... » . (سورة الفتح ٤٨ / ١١) .

وهو ملهاة ؛ قال تعالى : « ياأيُّها الذينَ آمَنوُا لاَ تُلهِكُمْ أموَالُكُمْ وَلا أوْلادكُمْ عَنْ ذِكرِ اللهِ . . » (سورةالمنافقون ٦٣ / ٩) .

ثم هو حسرة : « إنَّ الذِينَ كفرُوا يُنفقونَ أموالهم ليصدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونها ثم تَكونُ عليهمْ حَسرَةً ثم يُغلبونَ . . . » .

(سورةالأنفال ٨ / ٣٦) .

ولعل جماع هذا كله هو قول رب العزة : « أيحسَبونَ أنما نمدُّهمُ بِهِ مِن مالٍ وَبنينَ * نُسارعُ لهم في الخيراتِ ؟ بلْ لاَّ يشعرونَ » .

(سورة المؤمنون ٢٣ / ٥٥ ـ ٥٦) .

ولقد قدّمه رب العزة على البنين ؛ فى الابتلاء والفتنة ، والتفاخر والزينة والمحنة ، لشُح الناس به ، وحرصهم عليه ، وتصارعهم من أجله ، وبغيهم بالكثير منه ، ولأنه الوسيلة المادية ، لتحصيل المطالب الدنيوية ، عند جميع أفراد البشرية .

أما الأولاد والبنون فهى للبعض وهى نسبية .

والمال كذلك: وسيلةٌ للافتخار ، عند السذج والصغار ، وعند الطغاة والفُسّاق والفجّار . .

ولقد قدّمه رب العباد ، على الأنفس فى الجهاد ؛ لأنه الوسيلة المادية للاستعداد ، وتحصيل أنواع العُدة والعتاد ، وتمويل خطوط التموين والإمداد . . ثم ليُطمئن ربُّ العبادِ العبادَ ، إن عجزوا عن الجهاد بالأنفس والأجساد ، أن يسارعوا بأموالهم وكل ما يستطيعون إلى الجهاد . .

٢ — الإنسان مستخلف فى المال وسيحاسب عليه :

إن عمل الإنسان بالنسبة للمال : أن الله سبحانه قد استخلفه عليه ، وهذه قضية بديهية لا تحتاج إلى دليل ، وإن احتاجت إلى لفتة يسيرة : كيف يجىء الإنسان إلى الدنيا ، وكيف يخرج منها ؟...

لم يولد واحد وفى بطنه أو جوفه كنز ، ولم يدخل واحد إلى القبر وفى بطنه أو جوفه كنز ، إنما جاء كل إنسانٍ كما خرج ، وخرج كما جاء ، وهو بين مجيئه وخروجه مستخلف . . قال سبحانه :

« آمِنوا باللهِ ورَسولهِ ، وأنفِقوا مِما جَعلَكم مُستَخلَفِينَ فيه ، فالذينَ آمَنوا مِنكمُ وأنفقوا لهم أجرٌ كبيرٌ » . (سورة الحديد ٥٧ / ٧) .

ويقول سبحانه : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ، و « أنفقوا مما رزقناكم » .

ثم إنه سيحاسَب حساباً عسيراً : « ... والذينَ يَكنِزُونَ الذهبَ والفضةَ ولَا يُنفقونَها فى سَبيلِ الله فبشّرهُمْ بعذابٍ أليم * يَومَ يُحمَى عَليها فى نارِ جهنمَ ، فَتُكوَى بها جِباهُهُمْ ، وجنوبُهُمْ وظُهورهُم ، هَذا ما كنزتمْ لِأنفسِكمْ فذوقوا ما كنتم تَكنِزُونَ » . (سورة التوبة ٩ / ٣٤ — ٣٥) .

فهل رأيتَ دفعاً قوياً إلى تشغيل كل الأموال لمصلحة المجتمع والأمة

أقوى من هذا ؟ ! إنه القرآن ، إنه الآيات البينات ، واقرأ فيه إن شئت : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

٣ — واجب الفرد وحق المجتمع والدولة فى المال :

إن القرآن الكريم يؤكد أن كل دخل للفرد أو ربح أياً كان مصدره ، ليس له كله ، بل عليه واجب محتوم فيه ، وفى جميع الحالات بلا استثناء إلا الكفاف ، وهذه هى الزكاة ، ثانية أركان الإسلام ، فهى حق المال نفسه ، وحق الله ، وحق المجتمع ، وحق الدولة :

أما أنها حق الله ، فلأن الله سبحانه كثيراً ما قال فى كتابه : أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .

وأما أنها حق المال نفسه ، فلأن الله يقول : « وَهُوَ الذى أنشأ جناتٍ مَعروشاتٍ ، وغيرَ مَعرُوشَاتٍ ، والنخلَ والزرعَ ، مختلفاً أكلهُ والزيتونَ والرُمانَ متشَابهاً ، وغيرَ مُتشابهٍ ، كلُوا مِن ثمرهِ إذا أثمرَ ، وآتوا حَقَّهُ يَومَ حَصَادهِ ، وَلَا تُسرفُوا إنه لَايحبُّ المسْرفينَ » . (الأنعام٦/١٤١).

الله أكبر : وآتوا حقه يوم حصاده ، فمن لم يخرج حق دخله فى نفس اليوم لا يحل له الأكل منه ، ثم قوله سبحانه :

« كلوا من ثمره إذا أثمر » قبل ذلك : تبيح لصاحبها أن يأكل قليلا قبل الحصاد ولا يسرف . . ولولا ذلك ماجاز لواحد أن يأكل ثمرة من شجره ، أو حبة فول خضراء ... مثلاً من زرعه ؛ إلا بعد أن يُؤتى حقه .

أما أنها حق المجتمع ، فقد قال رب العزة : « إنما الصدَقاتُ : للفُقراءِ والمساكِينَ والعامِلينَ عليها ، والمؤلَّفةِ قُلوبُهم ، وفى الرِّقابِ ، والغارِمينَ ، وفى

سبيلِ اللهِ، وابن السَّبيلِ فريضةً مِن اللهِ واللهُ عليمٌ حكيمٌ ». (التوبة ٩/٦٠).

وأما أنها حق الدولة، فلأنه لا بد من تخصيص جزء منها « للعاملين عليها » والعاملون عليها إنما يعملون للدولة، ويجمعون لبيت مال الدولة . .

وقد يطول بنا الحديث إذا شرحنا أو حللنا، ولكنى سأحاول لفت الأذهان إلى كلمة :

٤ — التأمين كله من كلمة :

كل أنواع التأمينات؛ التى تقوم بها كل البنوك والشركات، إنما تقوم على مضاعفة رأس المال للقادرين، لأنهم هم الذين يدفعون أقساط التأمين؛ أما العاجزون عن دفع القسط، فلا طريق لهم إلى شركة التأمين أو البنك؛ ولكن القرآن يصحح هذا، فيوجب أن يدفع قسط التأمين كلُّ قادرٍ على حسب قدرته، ثم يأخذ مبلغ التأمين كل عاجز يغرم شيئاً ولا يستطيع رده، على قدر حاجته . . كل ذلك بكلمة واحدة من الآية السابقة، آية الزكاة : التى هى القسط الحتمى الفرض الدائم المستمر للتأمين من كل قادر، ولكل محتاجٍ غارم، هذه الكلمة الواحدة فى مصارف الزكاة الثمانية؛ هى : « والغارمين ».

٥ — تنظيم المال فى يد الفرد :

بعد أن يخرج الفرد من المال ما وجب من زكاته، فإن المال الباقى فى يده يكون فقط لسد حاجاته، أو تحصيل احتياجاته، بلا تزيد ولا انحراف، ومن غير تبذير ولا إسراف .. ومن غير تجميع وتعديد أو إتلاف .. لأن لغيره فى ماله الكثير من الحقوق، فإن أهملها كان ذلك دليل الفسوق، وربما وصل به إلى درجة الكفر والمروق ..

أرأيتَ إلى الهُمَزَة اللُّمَزَة؟ ، وما أدراك ما الهُمَزَةُ اللُّمَزَة ؟

أمّا اللُّمَزة فواحد اللّمازين ، الذين يقول عنهم رب العالمين:

« الذِينَ يَلمزُونَ المطوِّعِينَ مِنَ المؤْمِنينَ فِى الصَّدقاتِ وَالذِينَ لاَ يجدُونَ إلا جُهدَهُمْ ، فَيَسْخرُونَ مِنهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنهُمْ ولهمْ عَذَابٌ أليمٌ * استَغفِرْ لَهُمْ أوْ لاَ تَستَغفِرْ لهُمْ إن تَستَغفِرْ لَهمْ سبعِينَ مرّةً فلَنْ يَغفِرَ اللهُ لهُمْ ذَلكَ بِأنهُمْ كفَرُوا باللهِ وَرَسولِهِ ، واللهُ لاَ يهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ » .

(سورة التوبة ٩/٧٩ — ٨٠) . . . هذا هو « اللُّمَزة » .

أما الهمَزة ؛ فهو كما قال رب العالمين فى الآيات الأولى من سورة القلم ٦٨/١٠ — ١٦ :

« وَلا تُطِعْ كلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ * هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتدٍ أثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ * أنْ كَانَ ذَا مالٍ وَبَنِينَ * إذَا تُتلَى عَلَيْهِ آيَاتُنا قَالَ أساطِيرُ الأوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطُومِ » .

وذلك هو الهمزة .

أما الهمَزةُ اللمزة ؛ فهو الذى أفرد الله له سورة الهمزة ١٠٤/١ — ٩ :

« وَيلٌ لِكلِّ هُمَزةٍ لمَزةٍ * الذِى جَمَعَ مالاً وَعدَّدَهُ * يحْسَبُ أنَّ مالهُ أخلدَهُ * كلاَّ لَيُنبَذَنَّ فى الحُطمةِ * وَمَا أدْرَاكَ ما الحُطَمَةُ ؟ * نارُ اللهِ المُوقَدةُ * التى تَطَّلعُ علَى الأفئِدَةِ * إنها عليهم مؤصَدة فى عَمَدٍ ممدَّدة » .

ثم : « أرَأيْتَ الذِى يكَذِّبُ بالدِّينِ ؟ ! * فذَلِكَ الذِى يَدُعُّ اليَتِيمَ * وَلاَ يحُضُّ عَلى طَعامِ المِسْكِينِ * فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ * الذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ

ساهُون ﴿ الذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿ ويمنعُونَ المَاعونَ ».

(سورة الماعون ١٠٧) .

وبحسبنا أن نشير الآن إلى أمرين اثنين فقط من أوامر الرحمٰن ، لتنظيم المال فى يد كل فرد من بنى الإنسان .

أما الأول فقوله سبحانه فى سورة الطلاق ٦٥ فى الآية ٧ :

« لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ ، لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ مَا آتاها ، سَيَجْعَلُ اللهُ بعْدَ عُسْرٍ يُسراً » .

وأما الثانى فقوله سبحانه :

« وآتِ ذَا القُرْبى حقَّهُ » . الله أكبر .. وهنا لا بد لنا من وقفة . لأن هذا الأمر هو ثالث الأوامر التى قضاها وأكدها وشدد عليها الله الحكيم القادر ، فقضى ربنا بإفراد الله بالعبادة ، وبالإحسان للوالدين ، وبهذا الحق ، مرة واحدة ..

فقال سبحانه فى سورة الإسراء ١٧ فى الآيات من ٢٣ ـ ٣٠ :

« وَقضَى رَبُّكَ ألاَّ تَعْبُدوا إلاَّ إيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إحساناً ﴿ ... وآتِ ذَا القُرْبىٰ حَقَّهُ ، وَالمِسْكِينَ ، وابنَ السَّبِيلِ ؛ ولاَ تبذِّرْ تَبْذِيراً ﴿ إنَّ المبَذِّرينَ كانُوا إخْوانَ الشَّياطينِ ، وكَانَ الشَّيطانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴿ وَإما تُعْرِضَنَّ عَنهُم ابتِغاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوها ، فَقُلْ لَهُم قَوْلاً مَيْسُوراً ﴿ ولاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عُنقِكَ ولاَ تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ ، فتَقْعُدَ مَلوماً مَحْسُوراً ﴿ إنَّ رَبَّكَ يبْسُطُ الرِّزْقَ لِمنْ يَشاء ويَقْدِرُ ،

إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا »...

لله ما أعظم هذه الآيات ، وأكرم هذه التشريعات ، ولا بد لنا من وقفات :

١ — أطلق الله « ذا القربى » ؛ ليشمل كل صاحب قرابةٍ وقُربَى ، وتقرُّب ، واقتراب .. نسبًا ، وصهرًا ، وجواراً ، وعملا ، ووظيفة ، ومجتمعاً ، ووطنًا ، وأمة . .

٢ — أطلق « حقَّه » ؛ ليشمل كل الحقوق المعنوية : رعاية ، وعناية ، ومساعدة ، ومحبة ، وصلة ، وتعاونا ، وتشاركا . . . أولاً . .

ثم كل الحقوق المادية : أكلا ، وكسوةً ، وشرابًا ، وسكنا ، وتعليما ، وتصنيعا وعملا .. من أوسط ما يأكل الفرد ، ويلبس ، ويشرب ، ويسكن ، ويتعلم ، ويصنع ، ويعمل . . . كلٌّ بحسب طاقته ، وعلى قدر مجهوده فيما يعمل . . .

قال رب العالمين ، بالنسبة للمساكين ، فى كفارة اليمين :

« . . . فَكَفَّارَتُهُ : إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ . . . » . (سورة المائدة ٥/٨٩) .

٣ — رتب هذا الحق المطلق أيضا المسكين ؛ وهو الذى لا يستطيع أن يعمل أو لا يجد العمل ، وليس له دَخْلٌ ولا مورد ، ولابن السبيل ؛ وهو البعيد عن أهله وسكنه ، الذى انقطع عن موارد رزقه ، أو انقطعت عنه موارد رزقه .

٤ — نهى رب العزة أن يُبذِّر الإنسان على نفسه ، لأن المال الذى فى يده ليس كله من حقه ، فلكلٍ من ذى القربى والمسكين وابن السبيل حقه .

٥ — شدّد التنكير على المبذرين ، فهم إخوان الشياطين ، الذين هم أكفر الكافرين .

٦ — القول الميسور لكل هؤلاء ، خصوصاً عند الإعراض عنهم، أو عند عدم الوفاء لهم، بشرط أن يكون هذا الإعراض أوالنقصان ، لمصلحة أكبر وابتغاء رحمة من الرحمٰن ، كبذل كل المال للدفاع أو للجهاد ، أو لمصلحة الوطن أو الأمن فى البلاد ، أو لصيانة المجتمع من التخلف أو الكساد .

٧ — إن الأمر العام فى جميع الأحوال ، حتى بعد أداء كل هذه الحقوق من المال : أن كلّ فرد منهىٌ عن البسطِ والإغلال ، فلا تقتير كل التقتير ولا تبذير ، بل لا بد من الاعتدال والتدبير ، وإلا قعد الفرد وهو الملوم أو هو المحسور .

ثم قل لى بربك ، وبوطنك ، وبإنسانيتك ، و بعلمك ، وبفلسفتك . . .

هل سَمعت بتشريع مثل هذا فى الضمان الاجتماعى ، والتكافل الاجتماعى ، والرعاية الاجتماعية : المادية والمعنوية . . . ؟

أو فى الحقوق الوطنية ، وتحمل المسئولية : الفردية والجماعية ؟ . . .

أو فى الترابط الإنسانى ، والاشتراك الوجدانى ، والانفعال النفسى ، والتخطيط العلمى أو الفلسفى . . . على مستوى الفرد والوطن ، وفى كل الحالات والمحن ، وعلى طول الأمة والزمن ؟! . . .

وتأكد أن تفصيل أى كلة من هذه الكلمات ، يحتاج إلى كتب ومجلدات لا تحصى عدداً : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلماتُ ربى ولو جئنا بمثله مدداً » .

ولعل الدنيا جميعاً تقف مبهورة خاشعة أمام كلة : « حقه » ...

فإن منها فوق ما فات : ما لا يحد من اللفتات . . .
ففيها الشعور بالعزة لمن يأخذ ؛ لأنه حقه .
وفيها الإحساس بالمسئولية ووجوب الدفع الكريم لمن يعطى ؛ لأنه واجبه.
وفيها الكرامة والترابط الكريم بين المقدِّم والمقدَّم له . . .

ثم إن فيها التخطيط العلمى المفروض على المتخصصين فى البحث الاجتماعى ، والواجب على كل فرد إسلامى ، فى التزام الدقة فى المسح الاجتماعى ، لكل صاحب حق ، ومقدار هذا الحق ، ومداومة المتابعة لهذا الحق ، لأن كل حق يختلف بين فرد وفرد ، و بين سن وسن ، وبين مكان ومكان ؛ كما يختلف من زمان لزمان ، ومن بيئة لبيئة ، ومن احتياجات لاحتياجات .

ولتتدبَّر الدنيا قول رب العزة :

« لَيسَ البرَّ أن تُوَلُّوا وجُوهَكُم قِبَلَ المشْرقِ والمغْربِ ، ولكنَّ البر مَنْ آمَنَ باللهِ وَاليَومِ الآخرِ والملائكةِ والكِتابِ والنَّبِيينَ ، وآتَى المالَ عَلى حُبِه : ذَوى القُربَى وَاليَتامَى وَالمَساكينَ وَابنَ السَّبيلِ وَالسَّائلينَ وفى الرِّقابِ ، وأقام الصَّلاةَ ، وآتى الزَّكاةَ ، وَالمُوفونَ بعَهْدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصَّابِرِينَ فى البَأْساءِ وَالضَّرَّاءِ وحينَ البَأْسِ ؛ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وأُولَئِكَ هُمُ المتَّقونَ » . (سورة البقرة ٢/١٧٧) .

٦ — تنظيم المال فى المجتمع :

بعد هذه الانطلاقة الأساسية ، التى ينطلق منها الفرد فى التنظيمات المالية ، يأتى دور المجتمع والحقوق المالية والاجتماعية ، وهنا نشير سريعاً أيضا إلى : « الحق المعلوم » ، فى قوله سبحانه :

« إنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلوعًا * إذَا مَسَّهُ الشرُّ جَزُوعًا * وإذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً * إلاَّ المُصَلِّينَ * الذينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمونَ * والذينَ فى أموَالهمْ حَق مَعْلومٌ * للسَّائلِ والمحْرُومِ » .

(سورة المعارج ٧٠/١٩ — ٢٥) .

وقوله سبحانه : « إنَّ المتَّقِينَ فى جَناتٍ وعيُونٍ * آخذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهمْ ؛ إنَّهُمْ كَانوا قَبلَ ذلِكَ مُحسنينَ * كانوا قَليلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ * وبالأسحَارِ هُم يَسْتغْفِرُونَ * وفى أموالِهمْ حقٌّ للسَّائلِ والمحْرُومِ * وفى الأرْضِ آياتٌ للمُوقنينَ * وفى أنفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ * وفى السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعدُونَ * فوَرَبِّ السَّماءِ وَالأَرْضِ إنهُ لحقٌّ مِثلَ ما أنكُمْ تَنطِقُونَ » . (سورة الذاريات ٥١/١٥ — ٢٣) .

وهكذا ترتبط آيات الله ؛ بآيات الأرض ، وآيات الأنفُس ،وآيات الآفاق ، وآيات السماء .. إنه الله الواحد ..

ولا بد لنا من أن نشير إلى بعض تنظيمات مالية للمجتمع كله :

١ — العتب الشديد على المجتمع ؛ من الله القوى العزيز .. يصل بالذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل .. إلى درجة الكافرين المعذبين؛ بعد الأمر ببذل المال ، وعقب الأمر بالتوحيد والإحسان للوالدين ، وقبل الحساب والجزاء ؛ يوم يعضّ الظالم على يديه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ..

وتدبر معى قول الحكيم الخبير سبحانه :

«واعبدُوا اللهَ وَلاَ تُشركوا بِهِ شَيئاً وَبالوالِدَيْنِ إحْساناً وبذى القُرْبَى ، واليَتَامَى والمَساكينِ ، والجارِ ذِى القُرْبَى ، وَالجارِ الجُنُبِ ،

والصَّاحبِ بالجنب وابنِ السَّبيلِ وما مَلكَتْ أيمانُكُمْ ، إنّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كانَ مُختالاً فَخُوراً * الذينَ يَبخَلونَ ويَأمُرُونَ النَّاسَ بِالبُخلِ ، ويَكتُمُونَ ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضلِهِ ، وأعتَدْنا للكافِرِينَ عَذاباً مُهيناً * والذينَ يُنفِقُونَ أموالهمْ رِئاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَوْمِ الآخِرِ ، ومن يَكُنِ الشَّيطانُ لهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً *

ومَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا باللهِ واليَومِ الآخرِ وأنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمْ اللهُ وكانَ اللهُ بِهِمْ عَليماً ؟ * إنَّ الله لاَ يَظلِمُ مِثقالَ ذَرَّةٍ ، وإن تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِن لَدُنهُ أجراً عظيماً » . (سورة النساء ٤ / ٣٦ — ٤٠).

٢ — ينهى رب العزة عن كل الانحرافات المالية فى المجتمع ، من رشوة ، وتلاعب فى الأوراق المالية ، أو المستندات الحكومية وغير الحكومية ، وتقديمها إلى القضاة وللحاكمين : يحكمون فيها أو يبرئون . . .

وعن الغش فى التجارة، أو الصناعة ، أو الإنتاج ، أو أى شىء يتصل بالعلاقات المادية بين الناس . . لأ كل أموال الناس .

يقول الله سبحانه فى سورة البقرة ٢/١٨٨ :

« وَلا تَأْكلُوا أموالَكُمْ بَينَكُمْ بِالْباطلِ وَتُدْلُوا بِها إلى الحُكَّامِ لِتأْكُلوا فَرِيقاً مِن أَموالِ النَّاسِ بِالإثمِ وَأنتمْ تَعلمونَ » .

ثم يستثنى رب العزة حالة واحدة منها، قد لا يمكن التحرز فيها ولابد فيها من التراضى . . وبالمقدار الضرورى منها . . .

ويشير سبحانه إلى أن أ كل أموال الناس بالباطل ، إنما هو : قتل للأنفس فى المجتمع ، وقد لا يحس بذلك سريعا : الفرد أو المجتمع :

« يَا أَيُّهَا الذِينَ آمنُوا لاَ تأْكُلوا أَموَالكُمْ بَينَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أن تَكُونَ تِجَارةً عَنْ تَراضٍ مِنكُمْ ، ولاَ تَقتُلوا أَنفُسَكُمْ ؛ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً * وَمَن يَفعلْ ذَلِكَ عُدْواناً وَظُلماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ، وكَانَ ذَلِكَ على اللهِ يَسِيراً » .

(سورة النساء ٤/٢٩ — ٣٠) .

ومثله : « إِنَّ الذِينَ يَأْكُلونَ أَموَالَ اليَتَامَى ظُلماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » . (سورة النساء ٤/١٠) .

فأَكلُ الأموال بالباطل ، يحرق البطون ، ويقتل النفوس ، ويؤدى حتما إلى الدّمار والخراب على كل المستويات ومن أى باب . . . مهما كان الاكتساب ، ومهما كانت الأسباب . . .

٣ — ويوجّه الله سبحانه إلى أنه طيبٌ لا يقبل إلا طيباً ، وأن المجتمع الطيب لا يكون فيه إلاّ الإنفاق من الطيب ، وأن المؤمنين لا يأكلون إلا الطيب ، ولا ينفقون إلا من الطيب ... وفرق كبير بين الحلال والطيب...

فقد يكون المال حلالاً يكتسبه صاحبه من حلال ، وينفقه فى أوجه حلال ؛ ومع هذا لا يكون طيباً ؛ لأن المال الطيب هو الذى تُوصَل به الأرحام ، ويُعطى منه المحتاجون و الأيتام ، وتؤدى منه حقوق الوطن و المجتمع والأمن و السلام ؛ ولهذا أمر الله بالإنفاق من الطيب . . .

يقول سبحانه : « يَا أَيُّها الذِينَ آمنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّباتِ مَا كَسَبْتُمْ ومِمَّا أَخرَجْنا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ، وَلاَ تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ، وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغمِضُوا فيهِ ، واعلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ *

الشَّيْطانُ يَعِدكُمُ الفَقْرَ ، ويَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشاءِ واللهُ يَعِدكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . (سورة البقرة ٢/٢٦٧ — ٢٦٨) .

ويقول سبحانه : « لَنْ تَنالُوا البِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فإنَّ اللهَ بهِ عليمٌ » . (سورة آل عمران ٣/٩٢) .

٤ — ويُربى سبحانه النفوس ، فيؤكد أن الإنفاق مهما كان من مال طيب ، فإنه لا يصح أن يصدر إلا من نفوس طيبة :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ ومَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى واللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأَذَى ، كالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يؤمِنُ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ . . . » .

(سورة البقرة ٢/٢٦٣ — ٢٦٤) .

٥ — ويبين رب العزة الأجر العظيم للمنفقين ، فى مثل قوله سبحانه :

« مَنْ ذَا الذى يُقرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فيضاعِفَهُ لَهُ ، ولَهُ أجْرٌ كَرِيمٌ » . (سورة الحديد ٥٧/١١) .

وحتى القرض الحسن ! ؟ . . للجهاد فى سبيل الله .

يقول سبحانه : « وقاتِلوا فى سَبيلِ اللهِ واعلَمُوا أنَّ اللهَ سَميعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً ، وَاللهُ يَقْبِضُ ويَبْسُطُ وإلَيْهِ تُرْجَعُونَ » .

(سورة البقرة ٢/٢٤٤ — ٢٤٥) .

ولكن كم تكون يا تُرى هذه الأضعاف الكثيرة؟ ! ليست أقل من ٧٠٠ ضعف ، بل تزيد كثيرا . .

يقول سبحانه : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ [تساوى ٧٠٠] واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنًّا ولاَ أَذًى : لَهُمْ أَجْرُهُم عِندَ رَبِّهِم ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُم يَحْزَنُونَ » .

(سورة البقرة ٢/٢٦١ — ٢٦٢) .

ويقول سبحانه أيضاً : « إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعِفْهُ لَكم وَيَغْفِرْ لَكم وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ » . (سورة التغابن ٦٤/١٧) .

٦ — ويدفع رب العزة المجتمع ، إلى علاج الهلع والجزع ، وكل ما يؤدى إلى المنع والطمع ، بما يخصص للإنفاق على السائل والمحروم فى المجتمع . . .

يقول الحكيم الخبير سبحانه : « إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ المُصَلِّينَ * الذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمون * وَالَّذِينَ فى أَمْوَالِهِم حَقٌّ مَعْلُوم * لِلسَّائِل وَالمَحْرُوم » . . .

(سورة المعارج ٧٠/١٩ — ٢٥) .

٧ — ويرفع رب العزة المجتمع إلى درجة « الإيثار » : إيثار الغير بالمال وبالخير ، ولو كان الفرد فى أشد الحاجة الخاصة ، بل ؛ ولو وصل إلى شدة الاحتياج وإلى الخصاصة ، ولا يكون ذلك إلا بعلاج الإنسان لنفسه من الشح ، ووقايته منه والابتعاد والتوقى من كل أسبابه ، واتقاء أضراره وعذابه ؛ يقول سبحانه :

« والَّذِين تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ يَجِدُونَ فى صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا ، وَيُؤْثِرُونَ عَلى

أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » . (سورة الحشر ٥٩/٩).

ويقول : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِأَنفُسِكُمْ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

(سورة التغابن ٦٤/١٦).

حق الدولة فى تنظيم المال للفرد والمجتمع :

الدولة هى المسئولة عن كل التنظيمات للأفراد وللجماعات ، ورئيس الدولة الإسلامية — امتداداً من رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم — هو المسئول الأول عن التنظيمات المالية : يراقب الأفراد والهيئات ، فى كل المجتمع ، ويحاسب كل فرد وكل هيئة ، وكل جماعة فى المجتمع . . .

وقد فهم ذلك عمر بن الخطاب من كتاب الله وسنة رسوله ، وطبّقه عملياً لما وَلِىَ الخلافة فى الأمة ، وأصبح رئيس الدولة ، وبصّر بذلك الشعب ، فى خطبة علنية ، وزع فيها بعض المسئوليات ، واحتفظ لنفسه بما استحفظه الله عليه من الماليات ؛ فقال فى خطبة له ، بعد أن حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله . . .

« أيها الناس: من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبىّ بن كعب ؛

ومن أراد أن يسأل عن الفرائض ؛ فليأت زيد بن ثابت .

ومن أراد أن يسأل عن الفقه ؛ فليأت مُعاذ بن جبل .

ومن أراد أن يسأل عن المال ؛ فليأتِنى ، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً ..»

ثم أخذ يوزع الرواتب والعطاء . . لكل طبقة وهيئة . . ولعل هذا هو أول إجراء عمرىّ ؛ لوضع الرجل المناسب ، فى المكان المناسب .

وعمر بن الخطاب هو شيخ فقهاء الإسلام ، ولا يمكن أن يصدر إلا عن كتاب الإسلام ونبي الإسلام . . .

ومع هذا فسنحاول أن نقف بين يدى القرآن نستوحى منه بعض الآيات ، كإشارات هاديات . . .

١ — قال تعالى فى صدر سورة البقرة /٢٩ :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً . . . » .

فجميع ما فى الأرض خلقه الله ملكا لكل عباد الله ، لأن الله يقول « لكم » ولم يقل لزيد أو لعمرو مثلا . . ولا لطبقة تعمل كذا وكذا . . ولا لفئة تعمل كذا وكذا ، ولا لغير هؤلاء وهؤلاء . . بل قال « لكم » ، بما يفيد الملكية للجميع . . . وفى هذا ما يؤكد اشتراك جميع أبناء الأمة ، فى كل شيء تملكه الأمة . .

ولكن من الذى ينظم هذا ؟ ويوجه ذاك ؟ ، ليس إلا الرئيس المسئول عن الدولة أو الأمة . . نعم الحرية مكفولة ، والحقوق مصونة . . لكن من الذى يراقب هذه الحرية إن انحرفت ؟ ، ومن الذى يوجهها ويحاسبها إن حادت ؟ ، ليس إلا رئيس الدولة المسئول . .

ثم إننا بعد أن قررنا حق الفرد فى المال وحق المجتمع .. نسأل : ومن الذى يراقب الفرد والمجتمع ؟ ويحاسب الفرد والمجتمع . . على تطبيق كل هذا وذاك ؟ ! . ليس إلا الرئيس المسئول أمام الله وأمام الأمة . .

٢ — قال تعالى فى سورة الحشر ٥٩/٧ :

« ما أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فللهِ وللرَّسُولِ ولِذِى القُرْبَى وَالْيَتَامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ ، كَى لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ

منكم ، وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، ومَا نَهاكُمْ عَنْهُ فانتهُوا ، وَاتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ » .

وهذه الآية وحدها : تقرر مبادىء مهمة ، منها : الحد من غنى الأغنياء ، إن طغَوْا بالمال أو أسرفوا فى الاقتناء ، ورفع مستوى غير الأغنياء ، والعمل الدائم بما عمل الرسول ، والنهى المستمر عما نهى عنه الرسول . . .

ثم ، ويجب الإشارة إلى أن قوله : « للرسول » ، بعد قوله : « لله » فى قوله سبحانه : « فلله وللرسول » ... يفيد أنه صلى الله عليه وسلم — وهو رئيس الدولة الإسلامية — هو الذى يجب أن يَقْتدِى به كل الرؤساء من بعده : يأخذون ما أخذ ، وينتهون عما نَهَى عنه ... لأن الله لم يقل مثلا « فلله والرسول » ، أو « فلله ورسوله » أو فلرسول الله . . بل قال : « فلله وللرسول » ثم أعقبها بالأمر باتباعه ؛ حتى لا يكون المال متداولا بين الأغنياء فقط .

٣ — ثم ؛ ويؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى فى صدر سورة الأنفال ٨ عن تقسيم الغنائم ؛ للرسول ، صلى الله عليه وسلم ؛ تربية لأبناء الأمة جميعاً :

« يَسْأَلونَكَ عَنِ الأنفالِ قُلِ الأنفالُ للهِ والرَّسُولِ فاتَّقوا اللهَ وأصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، وأطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ » .

وفى الآية ٤١ من نفس السورة يقول :

« واعلَمُوا أنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْءٍ ؛ فأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ، وللرَّسُولِ ، ولِذِى القُرْبَى واليَتامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبيلِ ، إنْ كُنتُمْ آمَنتُمْ باللهِ وما أنزَلْنا على عَبْدِنا يَوْمَ الفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الجمْعَانِ واللهُ عَلى كلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » . .

وهكذا كانت أول عمليَّةٍ لإذابة الفوارق المالية بين طبقات الأمة رسميا ، بتشريع قرآنى عالى .

والغنيمة هى كل مالٍ يأتى على غير ترتيب ونظام ، وبغير توقع مستمر وانتظام . . وفيها الخمس حتما ، ولئن كان السبب فى نزول هذه الآية خاصا ؛ فإن لفظها عام ، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ورب العزة لم ينزل قرآنا هدى للعالمين ، لنقف به نحن عند أسباب خاصة ، وهذا لا يجوز إلاّ إنْ صرح هو سبحانه بذلك .

وعلى هـذا كان توزيع الأنفال ، والتصرف فيها ، وخمس الغنيمـة ، وتوجيهها ، ومراقبة التنظيمات المالية جميعها وتصريفها . . . كان كل ذلك هو مسئولية رئيس الدولة خاصة ، امتدادا وتنفيذاً لأوامر رسول الأمة ونبىّ الرحمة صلى الله عليه وسلم ، وللرئيس طبعاً أن يوزع الاختصاصات والمسئوليات على من يثق فيهم ، ويحاسبهم . . . ثم هو مسئول أمام الله والأمة .

٤ — ثم لنقرأ من سورة التوبة ٩ فى الآيتين ١٠٢ و ١٠٣ قوله سبحانه :

« وآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بذنوبِهِمْ خَلَطوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا . . » .

يا سبحان الله خذ من أموالهم . . ما يطهرهم ، وما يزكيهم إذا كانوا قد خلطوا . . . واعترفوا . .

وفى هذا من الناحية التنظيمية المالية : حق مصادرة الأموال : كلها ، أو بعضها ؛ ومصادرتها لدى الأفراد أو الطبقات ممن أساء ، أو خلط عملا صالحا بآخر سيئاً ، ثم اعترف تمهيداً للإصلاح أو التوبة . . عسى الله أن يتوب عليهم .

٥ — ومن هذا مبدأ : « من أين لك هذا » . فعلى قدر إساءة من أساء فى استعمال السلطة ، أو فى الوظيفة ، أو على قدر خلطه بين العمل الصالح والعمل

السيء ، تصادر الدولة ما تصادر من ماله ؛ بقدر ما أساء أو خلط ، أوقصر . . .

وهكذا طبق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين صادر كل مالٍ لبعض الولاة ، وبعض مال من بعض آخر ، بعد أن حقق ، أو تحقق ، أو اعترفوا . .

ولعله رضى الله عنه أول من طبق نظام : « من أين لك هذا » عموما وبشدة ، عام الأزمة العامة المشتدة ، حتى على أهله وامرأته حين اشترت « حلوى » بقليل جداً من دريهمات اقتطعتها من مصروف البيت . . .

وبطريقته العمرية ، وعزته الإسلامية ، وعبقريته الإنسانية . . خصم منها ما استطاعت أن تجمعه ثمنا للحلوى . . . كنموذج عام يسير عليه المسلمون ، وكسراج وهاج يستنير به المؤمنون ، ويسير على هديه المهتدون : « أولئك حزب الله ألاَ إن حزب الله هم المفلحون » .

٦ — ولعل قمة القمة : دفعا لكل همة ، وتفريجا لكل غمة ، واشتراكا بين كل أفراد الأمة ، وتعاونا فى تحمل المسئولية العامة . . ما روى عن نبى الأمة صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم : « إذا جاع أحد المسلمين فلا مال لأحد » . . .

ويقال قياسا على هذا السند ؛ إذا دهم العدو البلد ، أو احتل المعتدى بعض البلد ، أو احتاج الوطن إلى العتاد والعـدد ، أو احتاج المجاهدون إلى السلاح أو المدد .. لأنه حينئذ : لامال، ولانفس ، ولاولد، لأن المؤمنين باعوا أرواحهم لله الواحد الأحد ، وهو سبحانه قد اشترى ، وأربح ، وأكد النصر ، ووعد . .

« إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ : يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ ، فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

(سورة التوبة ٩/١١١) .

٧ — وأخيراً — وليس آخراً — فإن الله سبحانه قد أمر بالجهاد بالأموال، قبل الأمر بالجهاد بالأنفس؛ فى كل ما أمر به سبحانه من الجهاد بالأموال والأنفس، ورتب سبحانه على ذلك الخير كل الخير، والفلاح كل الفلاح.

فقال سبحانه فى سورة التوبة ٩/٤١:

« انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ الله ذَالِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ».

وقال سبحانه فى الآية ٨٨ من نفس السورة :

« لَكِنِ الرَّسُولُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الخيراتُ، وأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ».

بلاغ ونداء

خاتمة الطبعة الأولى :

اللهم يا رحمن ، قد بلغتني من القرآن ، ما يسرت لي منه الآن ..

والقرآن جديد في كل زمان ، وقائد لكل مجتمع ولكل إنسان . .

اللهم إني قد بلغتُ طاقتي ، وأخلصت لك طاعتي ، ووقفت على أبواب عبوديتي .. وبذلتُ ما بلغتني إياه من قصدي ، فإن كنتُ قد أسأتُ فذاك من عندي ، وإن كنتُ قد أحسنتُ فذاك منك وإليك ، ولك حمدي ..

تباركتَ ياذا الجود جوداً، وتعاليتَ ياذا الحمد حمداً ..

وإني أناديك يارب ، لتسترَ على الدوام عيبي ، وتغفر لي خطيئتي وذنبي .

وأناديك يا الله ، بنداء خليلك سيدنا إبراهيم عليه السلام :

« ولا تخزِني يوم يُبعثون ، يوم لا ينفع مال ولا بَنُون ، إلاَّ من أتى الله بقلب سليم » ...

كما أناديك يارب القبلتين والحرَمين ، بنداء سيدنا الحسين ابن بنت حبيبك النبي ، خاتم النبيين ، ورحمة العالمين ، محمد صلى الله عليه وسلم :

« اللهم إن حسناتي مِن عطائك ، وسيئاتي من قضائك، فجُدْ بما أعطيتَ على ما قضيتَ ، وامحُ ذلك بذلك .

جلَّتَ أن تطاع إلا بإذنك ، أو تُعصَى إلاَّ بعلمك .

إلهي ما عصيتك حين عَصيتك : استخفافاً بحقك ، ولا استهانة

بعذابك ، لكن بسابقةٍ سبق بها علمك ، فالتوبة إليك ، والمعذرة لديك » .

ثم أنادى المخلصين ، وأدعو المؤمنين ، من القراء والباحثين : أن يلتمسوا لىَ العذر ، ويسارعوا بالخير ، فيصلحوا النقص أو يجبروا ، ويصفحوا عن الخطأ ويستغفروا . .

فمن أصلح : أصلح الله حاله ، ومن جبر : جبره الله وجبر آله ، ومن صفح : سددّ الله أقواله وأعماله ، ومن استغفر لى : أسعد الله حياته ومآله . .

وهو سبحانه مولانا ، وهو سبحانه وكيلنا ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .
وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

فجر الاثنين ١٧ من المحرم سنة ١٣٨٨ هـ
(الموافق ١٥ / ٤ /١٩٦٨) م

محمد بن فتح الله بدران

بسم الله الرحمن الرحيم

تفصيل لموضوعات الكتاب

بحمد الله وتوفيقه ، ورعايته سبحانه وتسديده . . . قد زادت موضوعات الكتاب ، وإن بقيت على عناوينها الأبواب ، لكن الأبواب قد زادت تفصيلا ، والفصول قد أتقنت تعديلا ، حتى كاد يتضاعف حجم الكتاب جملة وتفصيلا ، وكأنه فى طبعته الثانية غيره فى طبعته الأولى . . .

وقد أجملنا القول عن «موضوعات الكتاب» دون ذكر للفصول أو الأبواب ، ودون تعرض لما يقابل الموضوعات ؛ من أرقام الصفحات . . .

أما إجمالى الموضوعات ، مع ما اشتمل عليه من مقتضيات ، فقد شغل أربع صفحات ؛ من ٢٣ إلى ٢٦ ، أما إجمال الموضوعات نفسه ، فقد شغل صفحة ونصف صفحة ٢٥ — ٢٦ . . .

وأما تفصيل الموضوعات ، وما يقابل كل موضوع من أرقام الصفحات ، فقد أثبتناه بشىء من التفصيل فيما هو آت :

تفصيل موضوعات الكتاب

الباب الثانى

رقم الصحيفة

رقم الصفحة

رقم الصفحة

تصويب لبعض الأخطاء

جلَّ من تنزه عن الخطأ والأخطاء ، وتقدس مَن تفرد بالكمال وبالآلاء ؛ وكما قال شفيع الشفعاء ، صلى الله عليه وسلم ما سبَّحت الأشياء :
« كل ابن آدم خطَّاء . . . » .

وها نحن نصلح بقدر طاقتنا ، ونُصوِّب بعض ما استطعنا ، وقد عفونا عن كثير مما يدرك قارئنا : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » .
« فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣	١٤	مُجنودة	مُجَوَّدة
٣	١٥	فأكمه	فأكمله
٧	٨	أمَتنا	أمِتْنا
١٧	١	يُنادُونَ	يُنَادَوْنَ
٢٧	٩	المتخصين	المتخصصين
٥٨	١٦	الفلفسة	الفلسفة
٦٨	١٢	المؤمنين	المؤمنون
٨١	١٧	يَسْلُبُهُم	يَسْلُبُهُمْ
١٠٥	٨	لما تخشع	لما أن تخشع
١٤٥	١٠	أردنم	أرَدْتُمُ
١٤٨	٩	اللفظ	اللغط
١٥٤	٢١	كا	كما
١٥٨	١٥	يدأ	بدء
١٦٠	١٤	وُ لِد	وُجِد
١٩٦	٨	يهم	عنهم
٢٠١	١٣	لحد	لحمد
٢٠٧	١٤	رَبِّيا	رَبِّيَانِي
٢٠٨	٢	مَذْحُوراً	مَحْشُوراً
٢١٠	١	وتد	وتدبر
٢١١	١٠	ويتَخَذُها	وَيَتَّخِذَها
٢٥٨	١٣	فلا من	فلا بد من
٢٥٨	٢١	اليو	اليَوْمَ
٢٥٨	٢٢	الإسلاَ	الإسْلاَمَ
٢٦٧	١٧	الغربيون	الغربيين
٢٧٤	٦	يقوون	يَقُولُونَ
٢٧٤	١٤	يَكْتسبُون	يَكْتُبُونَ
٢٧٨	٩	يُؤتى	يُؤْتَ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٧٨	١٣	أو ُـوا	أو لُوا
٢٧٨	١٧	والدّ ين	وَالَّذِينَ
٢٧٨	١٩	ُـقْبَى	عُقْبَى
٢٧٩	٢	إنْ	إنَّ
٣٠٨	١٠	وهدّيٍ	وَهُدًى
٣١٠	٤	دَ ـو ُ مْ	دَعْوَتُهُمْ
٣١١	٧	ُفْتَرُونَ	مُفْتَرُونَ
٣١٣	١٠	وثموداً	وَثَمُودَ
٣١٨	١٩	ا ق	الحق
٣٢٢	٤	رّ تـينِ	كَرَّتَيْنِ
٣٣٢	٢٠	، الحدة	والحدة
٣٣٧	٧	اللغاب	اللغات
٣٥١	٣	الإنسانَ	الإِنْسَانُ
٣٥١	٦	الروحة	الروحية
٣٥٢	٦	الذارايات	الذاريات
٣٦٧	١٨	أ ـيْرَ	أغَيْرَ
٣٦٩	٤	السور	السورة
٣٧١	١٦	لمحمد	محمد
٣٧٥	١٠	وإنَّكَ	وَإِنَّكَ
٣٧٧	٥	جَاءَ ـُمْ	جَاءَكُمْ

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٣٨٠	٧ و ٨	الجـاحظ في حياة الحيوان والدميرى	الجاحظ في كتابه الحيوان، والدميرى في كتابه حياة الحيوان الكبرى ، والقزوينى :
٤٠٠	١٤	يَرِدْ	نَزِدْ
٤٠٨	١٤	يَجْعَلُ	يَجْعَلُ
٤١١	٦	إ	إِآـهِ
٤١٥	١٣	عليكَم	عَليـكُم
٤١٨	٦	لا يغرنكم	ولا يغرنـكم
٤١٨	١٨	مَثَلٌ	مَثَلٌ
٤٢٩	٢٠	بِتى	يَبِيتِي
٤٥٤	٢	مَا غَوى	ومَا غَوَى
٤٥٤	٣	إنْ هَوَ	إنْ هُوَ
٤٥٤	٨	ما يَغشَى	مَا يَغْشَى
٤٧٧	١٤	فرص	فرض
٤٧٨	١٠	باد الله	عباد الله
٤٨٢	٢٠	ثَنات	ثَبَاتِ
٤٩٩	١٢	خَلَقِهِ	خَلْفِهِ
٥٠٨	١٦	خيفَةَ	خِيفَةَ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٧٧	٨	أ لُ	أهلُ
٥٧٧	١٥	وَ دْ نا	وَجَـدْنا
٥٧٩	١٣	قَوْ ُ لوطٍ	قَوْمُ لُوطٍ
٥٨١	٣	فقد أ كمل	قد أ كمل
٥٨٤	١٧	سُفلقَى	سَنُلْقِي
٥٨٥	٧	ُ ْهانان	بُرْهَانان
٥٩٠	٩	أياه	إِيَّاه
٥٩٢	١٦	آسفاً	أسِفاً
٥٩٩	٧	أنّكَ	إنّكَ
٦٠٣	٢	أذهُب	اذْهَب
٦٠٥	١٦	وقفْ نا	وَقَفَّيْنَا

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦٠٩	١	رُصباً	رُطباً
٦١٠	٤	ليطفئو	لِيُطْفِئُوا
٦١١	١٠	لىَ	عَلَى
٦١٤	١٢	هذا	هذه
٦١٨	١٦	فيراً	نَفِيراً
٦١٨	١٧	ورضها	وعرضها
٦٢١	٤	صلى	صلى الله
٦٢٢	٩	أيدبهم	أَيْدِيهِم
٦٢٧	١٠	وبين	وبيت
٦٢٨	١٧	فسألْ	فَسْئَلْ
٦٢٩	١٢	الرابع	الرابع عشر
٦٣٣	٦	فاللاذين	فالذين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

حمدٌ وثناء : خاتمة الطبعة الثانية :

الحمد لله رب العالمين . . . أول الضياء .

الحمد لله رب العالمين . . . أوسط الثناء .

الحمد لله رب العالمين . . . آخر الدعاء .

الحمد لله رب العالمين . . . تحقيق لكل رجاء .

الحمد لله رب العالمين . . . منتهى ذكر الآلاء .

الحمد لله رب العالمين . . . دفع لكل بأساء .

الحمد لله رب العالمين . . . حصن من كل ضراء .

الحمد لله رب العالمين . . . نصر على كل الأعداء .

الحمد لله رب العالمين . . . عز المؤمنين الأقوياء .

الحمد لله رب العالمين . . . مفتاح للهدى وللنعماء .

والصلاة والسلام على النبي : مصباح لكل شيء ، وإنا نكرر مع الدسوقي .

« اللهم صلِّ على الذات المحمدية ، اللطيفة الأحدية ، شمس سماء الأسرار ومظهر الأنوار ، ومركز مدار الجلال . وقطب فلك الجمال . . اللهم بسره لديك ، وبسيره إليك : آمن خوفي ، وأقِلْ عثرتي ، وأذهب حزني وحرصي ، وكن لي ، وخذني إليك مني ، وارزقني الفناء عني ، ولا تجعلني مفتوناً بنفسي محجوباً بحسِّي ، واكشف لي عن كل سر مكنوم ، ياحي ياقيوم » .

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

(فجر الاثنين) ٢٩ من ربيع الآخر سنة ١٣٨٩ هـ
يوافقه ١٤ من يوليو سنة ١٩٦٩ م

محمد بن فتح الله بدران